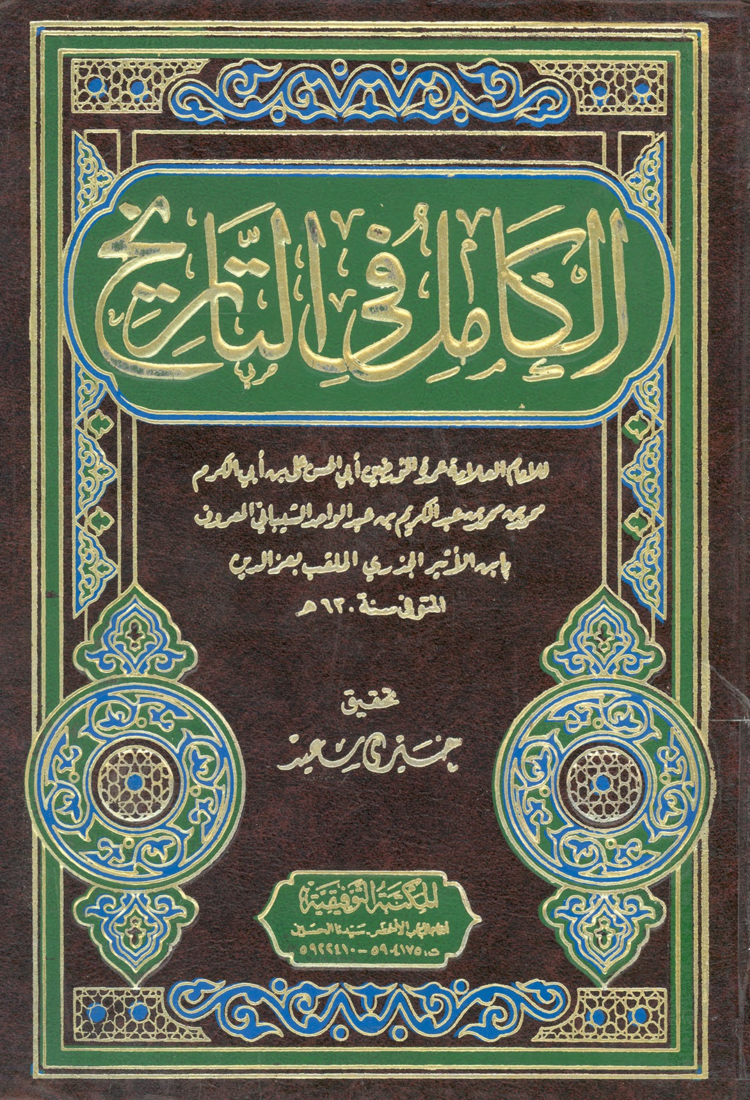

الكامل في التاريخ
للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف
بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين
المتوفى سنة ٦٢٠ هـ
تحقيق
خيري سعيد
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠



للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي
الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني
المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين
المتوفى سنة ٦٣٠ هـ

تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة

تحقيق
خيري سعيد

الجزء الأول



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥



المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠(٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957
shalan@eltawfikiapress.com

إشراف
توفيق شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فهذا هو كتاب (الكامل في التاريخ) لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن الأثير - رحمه الله تعالى - وهو موسوعة ضخمة عني مؤلفه بتدوين تاريخ الإسلام على طريقة من الدقة والبراعة لا تخفى على الناظر فيه، ولذا فكان هذا الكتاب مرجعًا لا يستغنى عنه.

وقد وقفت على طبعتين لهذا الكتاب، والأخيرة منهما كالأولى في مراجعة نص الكتاب وفي كثير من هوامش التحقيق، ولقد تمنيت مراجعة هذا الكتاب على

مخطوطة أو أكثر حتى يتيسر لي إصلاح ما في نصوصه من غلط ليس بالقليل، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فراجعت ما توهمت فيه الغلط على (تاريخ الطبري) إذ هو مصدر هذا الكتاب كما قال مؤلفه في المقدمة.

أسأل الله أن يتقبل مني عملي هذا، وأن ينفع به المسلمين، إنه قريب سميع الدعاء.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

أبو عبد الله/ خيري سعيد

منية سمنود - الدقهلية - مصر

٢٩ من ذي الحجة ١٤٢٤ هـ

٢٠ من فبراير ٢٠٠٤ م

ترجمة المؤلف
من «سير أعلام النبلاء»

هو الشيخ الإمام العلامة المحدث الأديب النسابة؛ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني، ابن الشيخ الأثير أبي الكرم، مصنف التاريخ الكبير الملقب بـ (الكامل)، ومصنف كتاب (معرفة الصحابة) .

مولده بجزيرة ابن عمر في سنة (٥٥٥ هـ)، ونشأ هو بها وأخواه العلامة مجد الدين والوزير ضياء الدين، ثم تحول بهم أبوهم إلى الموصل فسمعوا بها واشتغلوا وبرعوا وسادوا .

سمع من الخطيب أبي الفضل الطوسي، ويحيى بن محمود الثقفي، ومسلم بن علي السيحي، وببغداد لما قدمها رسولاً من عبد المنعم بن كليب، ويعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن سكينة، وبدمشق من أبي القاسم بن صصرى، وزين الأمناء، وكان إمامًا علامة أخباريًا أديبًا متفننًا رئيسًا محتشمًا، كان منزله مأوى طلبة العلم، ولقد أقبل في آخر عمره على الحديث إقبالاً تامًا، وسمع العالي والنازل.

ومن تصانيفه (تاريخ الموصل) ولم يتمه، واختصر (الأنساب) للسمعاني وهذبه.

وقدم الشام رسولاً فحدَّث بدمشق وبحلب، قال ابن خلكان: كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء، اجتمعت به بحلب فوجدته مكملاً في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق، فترددت إليه، وكان الخادم أتابك طغرل قد أكرمه وأقبل عليه بحلب .

قال الذهبي: حدَّث عنه ابن الدبيثي والقوصي ومجد الدين بن العديم وأبوه في (تاريخ حلب) وحدثنا عنه أبو الفضل بن عساكر وأبو سعيد القضائي، وكان يكتب اسمه كثيراً علي بن محمد بن عبد الكريم، وكذا ذكره المنذري والقوصي

وابن الحاجب وشيخنا ابن الظاهري في تخريجه لابن العديم، وإنما هو بلا ريب علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم كما هو في نسب أخويه وابن أخيه شرف الدين، وكما ذكره ابن خلكان وابن الساعي وشمس الدين يوسف بن الجوزي، فأما الجزيرة المذكورة فهي مدينة بناها ابن عمر وهو الأمير عبد العزيز بن عمر البرقعيدي قاله ابن خلكان، وقال أيضا رأيت في (تاريخ ابن المستوفي) في ترجمة أبي السعادات المبارك بن الأثير يعني مجد الدين أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس التغلبي، وقيل: بل هي منسوبة إلى أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي فالله أعلم .

قال القاضي سعد: توفي عز الدين في الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثين وستمائة، وقال أبو العباس أحمد بن الجوهري: مات في رمضان من السنة. وقال المنذري وابن خلكان وأبو المظفر سبط الجوزي وابن الساعي وابن الظاهري: مات في شعبان . لم يعينوا اليوم.



بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله القديم. فلا أول لوجوده. الدائم الكريم. فلا آخر لبقائه ولا نهاية لجوده. الملك حقًّا فلا تدرك العقول حقيقة كنهه[١]. القادر فكل ما في العالم من أثر قدرته. المقدس فلا تقرب الحوادث حماه. المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواه. مصرف الخلائق بين رفع وخفض. وبسط وقبض. وإبرام ونقض. وإماتة وإحياء. وإيجاد وإفناء. وإسعاد وإضلال. وإعزاز وإذلال. يؤتي الملكَ من يشاء، وينزعُهُ ممن يشاء. ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذلُّ من يشاء. بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير. مُبِيدُ القرون السالفة. والأمم الخالفة. لم يمنعهم منه ما اتخذوه معقلاً وحرزاً. «فهل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم رِكْزًا؟»[٢]. بتقديره النفع والضر. وله الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين. أحمده على ما أولى من نعمه. وأجزل للناس من قسمه. وأُصلّي على رسوله محمد سيد العرب والعجم. المبعوث إلى جميع الأمم. وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى ومصابيح الظلم. صلى الله عليه وعليهم وسلم.

أما بعد. فإني لم أزل محبًّا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجَلِيّ من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب الموعدة في مطاويها، فلما تأملتُها رأيتُها متباينةً في تحصيل الغرض. يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض. فمن بين مُطوِّلٍ قد استقصى الطُّرُقَ والروايات. ومُختصِرٍ قد أخلَّ بكثيرٍ مما هو آت. ومع ذلك قد ترك كلهم العظيم من الحادثات. والمشهور من الكائنات.

---

(١) الكنه: هو الجوهر.

(٢) الركز: الصوت الخفي.

وسوَّد كثيرٌ منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراضُ عنها أولى، وتَرْكُ تسطيرها أحْرَى كقولهم: خلع فلان الذمي صاحب العيار، وزاد رطلاً في الأسعار، وأُكرم فلان؛ وأُهين فلان.

وقد أرخ كلٌّ منهم إلى زمانه وجاء بعده من ذَيَّلَ عليه. وأضاف المتجددات بعد تاريخه إليه. والشرقيُّ منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشرق؛ فكان الطالبُ إذا أراد أن يطالع تاريخًا احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال.

فلما رأيتُ الأمر كذلك شرعتُ في تأليف تاريخٍ جامعٍ لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ليكون تذكرة لي أراجعُهُ خوفَ النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضًا إلى وقتنا هذا.

ولا أقول إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ فإنَّ من هو بالموصل لابد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول إني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتابٍ واحدٍ، ومن تأمله علم صحة ذلك فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري[1] إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أونقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقًا واحدًا على ما تراه[2].

فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه إلا ما يتعلق بما

---

(١) وهو كتاب «تاريخ الأمم والملوك» وهو مطبوع في خمس مجلدات انتهى فيه إلى سنة (٣٠٢ هـ).
(٢) وهذه طريقة بديعة في جمع الروايات في رواية واحدة، مما يوفر على القارئ وقتاً طويلاً في تتبع الزيادات في الروايات الطوال.

جري بين أصحاب رسول الله ﷺ فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئًا إلا ما فيه زيادة بيان أو اسم إنسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله. وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقًا، الجامع علمًا وصحة اعتقاد وصدقًا، على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة، والكتب المشهورة، ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه، وصحة ما دونوه، ولم أكن كالخابط في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصباء واللآليء.

ورأيتهم أيضًا يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطَّعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر، فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب بعض.

وذكرتُ في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها، فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فإنني أفردتُ لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة فأقول: (ذِكْر عدة حوادث) وإذا ذكرتُ بعض من تبع وملك في قطر من البلاد ولم تطل أيامه فإني أذكر جميع حاله من أوله إلى آخره عند ابتداء أمره لأنه إذا تفرّق خبرهُ لم يعرف للجهل به، وذكرت في آخر كل سنة من تُوُفِّي فيها من مشهوري العلماء، والأعيان الفضلاء. وضبطتُ الأسماء المشتبهة المؤتلفة في الخط المختلفة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ضبطًا يزيل الإشكال، ويغني عن الإنقاط والأشكال.

فلما جمعت أكثره أعرضت عنه مدة طويلة لحوادث تجددت، وقواطع توالت وتعددت، ولأن معرفتي بهذا النوع كملت وتمت، ثم إن نفرًا من إخواني؛ وذوي المعارف والفضائل من خلاني، ممن أرى محادثتهم نهاية أوطاري، وأعدهم من أماثل مجالسي وسُمَّاري، رَغِبُوا إليَّ في أن يسمعوه مني، ليرووه عني، فاعتذرتُ بالإعراض عنه وعدم الفراغ منه فإنني لم أعاود مطالة مسودته ولم أصلح ما أصلح فيها من غلط وسهو، ولا أسقطت منها ما يحتاج إلى إسقاط ومحو، وطالت

المراجعة مدة وهم للطلب ملازمون؛ وعن الإعراض معرضون، وشرعوا في سماعه قبل إتمامه وإصلاحه؛ وإثبات ما تمس الحاجة إليه وحذف ما لابد من إطراحه، والعزمُ على إتمامه فاتر، والعجزُ ظاهر؛ للاشتغال بما لابد منه لعدم المعين والمظاهر، ولهموم توالت، ونوائب تتابعتْ، فأنا ملازم الإهمال والتواني، فلا أقول: إني لأسير إليه سير الشواني.

فبينما الأمر كذاك إذ برز أمرُ من طاعتُهُ فرضٌ واجبٌ، واتباعُ أمرِهِ حكمٌ لازبٌ، من أعلاق[1] الفضل بإقباله عليها نافقه، وأرواحِ الجهل بإعراضه عنها نافقة من أحيا المكارم وكانت أمواتًا، وأعادها خلقًا جديدًا بعد أن كانت رفاتًا، من عم رعيته عدله ونواله، وشملهم إحسانه وإفضاله، مولانا مالك الملك الرحيم، العالم المؤيد، المنصور، المظفر بدر الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، خلد الله دولته[2].

فحينئذ ألقيت عني جِلْباب المهل، وأبطلت رداء الكسل، وألقت الداوة[3] وأصلحت القلم، وقلت هذا أوان الشد فاشتدي زيم[4]، وجعلت الفراغ أهم مطلب. وإذا أراد الله أمرًا هيأ له السبب. وشرعت في إتمامه مسابقًا. ومن العجب أن السكيت يروم أن يجيء سابقًا. ونصبت نفسي غرضًا للسهام. وجعلتها مظنة لأقوال اللوام. لأن المآخذ إذا كانت تتطرق إلى التصنيف المهذب. والاستدراكات تتعلق بالمجموع المرتب. الذي تكررت مطالعته وتنقيحه. وأجيد تأليفه وتصحيحه. فهي بغيره أولى. وبه أحرى. على أني مقر بالتقصير، فلا أقول أن الغلط سهو جرى به القلم. بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم.

---

(١) أعلاق: جمع علق، وهو النفيس من كل شئ.
(٢) وهذا إفراط في المدح من المؤلف رحمه الله وعفى عنه.
(٣) ألق الدواة: أي لزق المداد بصوفها.
(٤) في اللسان: هو اسم ناقة أو فرس، وهو يخاطبها يأمرها بالعدو ـ وحرف النداء محذوف. اهـ. ثم صار مثلاً يضربُ للشدة والأمر الصعب. (م).

وقد سميته: **اسمًا يناسب معناه وهو الكامل في التاريخ.**

ولقد رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة والدراية، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها، ويعرض عنها ويلغيها، ظنًّا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار؛ وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، وأصبح مخشلبًا جوهره، ومن رزقه الله طبعًا سليمًا، وهداه صراطًا مستقيمًا، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة، وها نحن نذكر شيئًا مما ظهر لنا فيها، ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها.

فأما فوائدها الدنيوية: فمنها أن الإنسان لا يخفي أنه يحب البقاء، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء: فياليت شعري! أي فرق بين ما رآه أمس أو سمعه، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين؟ فإذا طالعها فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم:

ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة وخراب البلاد، وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها، وأعرضوا عنها واطرحوها. وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعها من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالها درت، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك. ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً.

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلاً. ويصبح لأن يقتدى به أهلاً. ولقد أحس القائل حيث يقول:

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

يعني بالمطبوع العقل الغريزي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، وبالمسموع ما يزداد به العقل الغريزي من التجربة، وجعله عقلاً ثانيًا توسعًا وتعظيمًا له وإلا فهو زيادة في عقله الأول.

ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها، ونقل طريفة من طرائفها، فترى الأسماع مصغية إليه. والوجوه مقبلة عليه: والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره.

وأما الفوائد الأخروية: فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها، وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم، فلم تبق على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير، زهد فيها وأعرض عنها، وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائلاً يقول: ما نرى ناظرًا فيها زهد في الدنيا، وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا، فياليت شعري! كم رأى هذا القائل قارئًا للقرآن العزيز ـ وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام ـ يطلب به اليسير من هذا الحطام؟ فإن القلوب مولعة بحب العاجل.

ومنها التخلق بالصبر والتأسي وهما من محاسن الأخلاق فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم؛ ولا ملك معظم، بل ولا أحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم، وينوبه ما نابهم.

وهل أنا إلا من غزية؟ إن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد

ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فإنْ ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد

بذكرها الحكايات والأسمار فقد تمسك من أقوال الزيغ بمحكم سببها، حيث قالوا: هذه أساطير الأولين اكتتبها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلبًا عقولاً ولسانًا صادقًا، ويوفقنا للسداد في القول والعمل وهو حسبنا ونعم الوكيل.



ذكر الوقت الذي ابتدئ فيه بعمل التاريخ في الإسلام[١]

قيل: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة أمر بعمل التاريخ[٢]. والصحيح المشهور أن عمر بن الخطاب أمر بوضع التاريخ، وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ. فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرخ بمبعث النبي ﷺ. وقال بعضهم: بمهاجرة رسول الله ﷺ. فقال عمر: بل نؤرخ بمهاجرة رسول الله، فإن مهاجرته فرق بين الحق والباطل، قاله الشعبي[٣].

وقال ميمون بن مهران: رفع إلى عمر صك محله شعبان فقال: أي شعبان؟ أشعبان الذي هو آت أم شعبان الذي نحن فيه؟ ثم قال لأصحاب رسول الله ﷺ: ضعوا للناس شيئًا يعرفونه. فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم فإنهم يؤرخون من عهد ذي القرنين. فقال: هذا يطول. فقال اكتبوا على تاريخ الفرس. فقيل: إن الفرس كلما أقام ملك طرح تاريخ من كان قبله. فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة؟ فوجدوه عشر سنين، فكتبوا للتاريخ من هجرة رسول الله ﷺ[٤]. وقال محمد بن سيرين: قام رجل إلى عمر فقال: أرخوا. فقال عمر: ما أرخوا؟ فقال: شيء تفعله الأعاجم في شهر كذا من سنة كذا. فقال عمر: حسن، فأرخوا. فاتفقوا على الهجرة[٥] ثم قالوا: من أي الشهور؟ فقالوا: من

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٣) و«تاريخ دمشق» (١/ ٣٧).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٣٧) من طريق ابن جريج عن أبي سلمة عن الزهري أن رسول الله ﷺ أرخ التاريخ حيث قدم المدينة في شهر ربيع الأول.
قلت: وهذا سند ضعيف مرسل، فيه عنعنة ابن جريج، وهو مدلس.

(٣) عزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٦٨) لأبي نعيم الفضل بن دكين في «تاريخه» ومن طريق الحاكم عن الشعبي.
والشعبي لم يسمع من عمر بن الخطاب كما في «التهذيب». وهو عند الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣) من طريق مجالد عن الشعبي، ومجالد هو ابن سعيد بن عمير، قال الحافظ في «التقريب» (٦٤٧٨): ليس بالقوي.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣) وميمون بن مهران روايته عن عمر مرسلة، كما في «التهذيب».

(٥) في المصدر الآتي: «فقالوا: من أي السنين نبدأ ؟ قالوا: من مبعثه، وقالوا: من وفاته. ثم أجمعوا على الهجرة».

رمضان، ثم قالوا: فالمحرم هو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فأجمعوا عليه[١]. وقال سعيد بن المسيب: جمع عمر الناس فقال: من أي يوم نكتب التاريخ؟ فقال علي: من مهاجرة رسول الله ﷺ، وفراقه أرض الشرك. ففعله عمر[٢]. وقال عمرو بن دينار أول من أرخ يعلى بن أمية وهو باليمن[٣].

وأما قبل الإسلام فقد كان بنو إبراهيم يؤرخون من نار إبراهيم إلى بنيان البيت حتى بناه إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ثم أرخ بنو إسماعيل، من بنيان البيت حتى تفرقوا، فكان كلما خرج قوم من «تهامة»[٤] أرخوا بمخرجهم، ومن بقي بتهامة من بني إسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بني زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤي[٥] وأرخوا من موته إلى الفيل.

ثم كان التاريخ من الفيل حتى أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة، وذلك سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة وقد كان كل طائفة من العرب تؤرخ بالحادثات المشهورة فيها، ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم، وفي ذلك قول بعضهم:

ها أنا ذا آمل الخلود وقد ... أدرك عقلي مولدي حجراً

وقال الجعدي:

فمن يك سائلاً عني فإني ... من الشبان أيام الختان

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣)، وسنده منقطع، محمد بن سيرين لم يدرك خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥) وقال: صحيح الإسناد.

قلت: في إسناده نعيم بن حماد، وهو وإن كان من رجال البخاري إلا أن فيه ضعفًا كما في «التقريب» (٧١٦٦).

وهذه الروايات في الباب، وإن كان لا يخلو إسناد كل واحدة منها من الضعف إلا أنها بمجموعها تدل على أن عمل التاريخ بدأ في خلافة عمر بن الخطاب بإشارة منه، والله أعلم.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٤) والحاكم (٥٧٩٠) بلفظ «أول من أرخ الكتب»، وقال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٦٨): أخرجه أحمد بن حنبل بإسناد صحيح لكن فيه انقطاع بين عمرو بن دينار ويعلى.

(٤) تهامة: أرض في جزيرة العرب من عرض اليمن بمسايرة البحر إلى الجحفة وذات عرق «تاريخ البلدان» (٢/ ٦٣).

(٥) هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وقال آخر:

وما هـي إلا فـي إزار وعـقـلـة بغار ابن همام على حي خثعما

وكل واحـد أرخ بحادث مـشهـور عندهم، فلو كـان لهم تاريخ يجـمعـهم لم يختلفوا في التاريخ. والله أعلم.

* * *

القول في الزمان[١]

الزمان عبارة عن ساعات الليل والنهار، وقد يقال ذلك للطويل والقصير منهما. والعرب تقول: أتيتك زمان الصرام، وزمان الصرام يعني به وقت الصرام[٢]. وكذلك: أتيتك أزمان (الحجاج أمير). ويجمعون الزمان يريدون بذلك أن كل وقت من أوقات إمارته زمن من الأزمنة.

القول في جميع الزمان من أوله إلى آخره[٣]

اختلف الناس في ذلك فقال ابن عباس من رواية سعيد بن جبير: سبعة آلاف سنة[٤].

وقال وهب بن منبه: ستة آلاف سنة[٥]. قال أبو جعفر[٦]: «والصحيح من ذلك ما دل على صحته الخبر الذي رواه ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: **«أجلكم في أجل من قبلكم، من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»**[٧].

وروى نحو هذا المعنى أنس وأبو سعيد[٨] إلا أنهما قالا: إلى غروب الشمس، وبدل صلاة العصر: بعد العصر. وروى أبو هريرة عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**. وأشار بالسبابة والوسطى[٩]، وروى نحوه جابر

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٤).

(٢) الصرام: قطع ثمر النخل.

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ١٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٥) من طريق ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح ثنا يحيى ابن يعقوب عن حماد عن سعيد بن جبير به.
قال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٥٠): يحيى هو أبو طالب القاص الأنصاري، قال البخاري: منكر الحديث، وشيخه هو فقيه الكوفة وفيه مقال، قلت: وابن حميد متهم بالكذب.

(٥) أخرجه الطبري في المصدر السابق.

(٦) يقصد ابن جرير الطبري.

(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٧٢).

(٨) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٦).

(٩) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٤٠) وأخرجه هو (٤٦٥٢) ومسلم (٢٩٥٠) عن سهل بن سعد، وأخرجه البخاري (٦١٣٩) ومسلم (٢٩٥١) عن أنس بن مالك.

ابن سمرة، وأنس، وسهل بن سعيد، وبريدة، والمستورد بن شداد، وأشياخ من الأنصار كلهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه أخبار صحيحة.

قال[١]: وقد زعم اليهود أن جميع ما ثبت عندهم على ما في التوراة من لدن خلق آدم إلى الهجرة أربعة آلاف سنة وثلاثمائة واثنتان وأربعون سنة، وقالت اليونانية من النصارى: إن من خلق آدم إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسعمائة واثنتين وتسعين سنة وشهراً. وزعم قائل أن اليهود إنما نقصوا من السنين دفعًا منهم لنبوة عيسى، إذ كانت صفته ومبعثه في التوراة، وقالوا: لم يأت الوقت الذي في التوراة أن عيسى يكون فيه، فهم ينتظرون بزعمهم خروجه ووقته، قال: وأحسب أن الذي ينتظرونه ويدعون أن صفته في التوراة مثبتة هو الدجال.

وقالت المجوس: إن قدر مدة الزمان من لدن ملك جيومرث إلى وقت الهجرة ثلاثة آلاف ومائة وتسع وثلاثون سنة، وهم لا يذكرون مع ذلك شيئًا يعرف فوق جيومرث ويزعمون أنه هو آدم وأهل الأخبار مختلفون فيه، فمن قائل مثل قول المجوس، ومن قائل: إنه يسمى بآدم بعد ملك الأقاليم السبعة وأنه حام بن يافث بن نوح، وكان باراً بنوح، فدعا له ولذريته بطول العمر، والتمكين في البلاد، واتصال الملك، فاستجيب له. فملك جيومرث وولده الفرس. ولم يزل الملك فيهم إلى أن دخل المسلمون المدائن وغلبوهم على ملكهم، ومن قائل غير ذلك، كذا قال أبو جعفر.

قلت: ثم ذكر أبو جعفر[٢] بعد هذا أصولاً تتضمن الدلالة على حدوث الأزمان والأوقات، وهل خلق الله قبل خلق الزمان شيئًا أم لا؟ وعلى فناء العالم وأن لا يبقى إلا الله تعالى، وأنه أحدث كل شيء، واستدل على ذلك بأشياء يطول ذكرها ولا يليق ذلك بالتواريخ لا سيما المختصرات منه، فإنه بعلم الأصول أولى. وقد فرغ المتكلمون منه في كتبهم فرأينا تركه أولى.

(*) بريدة[٣]: بضم الباء الموحدة وسكون الياء تحتها نقطتان وآخرها هاء.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٩).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٠-٢٧).

(٣) هو بريدة بن الحصيب، ورد في ذكر حديث **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**.

القول في ابتداء الخلق وما كان أوله[١]

صح في الخبر[٢] عن رسول الله ﷺ، فيما رواه عنه عبادة بن الصامت أنه سمعه يقول: «**إن أول ما خلق الله تعالى القلم، وقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن**»[٣]. وروي نحو ذلك عن ابن عباس[٤].

وقال محمد بن إسحاق: أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة، فجعل الظلمة ليلاً أسود، وجعل النور نهاراً أبيض مضيئًا. والأول أصح للحديث، وابن إسحاق لم يسند قوله إلى أحد، واعترض أبو جعفر على نفسه بما روى سفيان عن أبي هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: إن الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فكان أول ما خلق الله القلم، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة[٥]، وأجاب بأن هذا الحديث إن كان صحيحًا فقد رواه شعبة أيضًا عن أبي هاشم ولم يقل فيه: أن الله كان على عرشه، بل روى أنه قال: أول ما خلق الله القلم.

القول فيما خلق بعد القلم[٦]

ثم إن الله خلق[٧] ـ بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ـ سحابًا رقيقًا، وهو الغمام الذي قال فيه النبي ﷺ : وقد سأله أبو رزين العقيلي: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: في غمام ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/٢٨).

(٢) الكلام للطبري كما في المصدر السابق.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩) وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧): صحيح.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٢٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٢٩) وأوله: «عن مجاهد قال: قلت لابن عباس: إن ناسًا يكذبون بالقدر. فقال: إنهم يكذبون بكتاب الله لآخذن بشعر أحدهم فلأنفضن به، إن الله تعالى ذكره كان على عرشه. . . » إلخ.
وسنده صحيح على شرط الشيخين.

(٦) «تاريخ الطبري» (١/٣١).

(٧) والكلام للطبري.

خلق عرشه على الماء[١]. وهو الغمام الـذي ذكره الله في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾[٢].

قلت: هذا فيـه نظر، لأنه قد تقـدم أن أول ما خلق الله تعالـى القلم وقال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة. ثم ذكر في أول هذا الفصل أن الله خلق بعد القلم وبعد أن جرى بما هو كائن سحابًـا، ومن المعلوم أن الكتابة لا بد فيها من آلة يكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يكتب فيه، وهو الذي يعـبر عنه ههنا باللوح المحفوظ. وكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانيًا للقلم، والله أعلم. ويحتمل أن يكون ترك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة.

ثم اختلف العلماء فـيمن خلق الله بعد الغمام؟ فروى الضـحاك بن مزاحم عن ابن عباس: أول ما خلق الله العرش، فاستوى عليه[٣].

وقال آخرون: خلق الله الماء قبل العرش، وخلـق العرش فوضعه على الماء، وهو قول أبي صالح عن ابن عباس، وقول ابن مسعود[٤]، ووهب بن منبه. وقد قيل: إن الذي خلق الله تعالى بعـد القلم الكرسي، ثم العرش، ثم الهـواء، ثم الظلمات، ثم الماء فوضع العـرش عليه. قال: وقـول من قال: ـ إن الماء خلق قـبل العرش ـ أولى بالصواب لحديث أبي رزين عن النبي ﷺ[٥] وقد قـيل: إن الماء كان على متن الريح حين خلق العرش، قاله سعيد بن جبير عن ابن عباس[٦]، فإنه كان كذلك فقد خلقا قبل العرش. وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل أن يخلق شيئًا بألف عام.

واختلفوا أيضًا في اليوم الذي ابتدأ الله تعـالى فيه خلق السموات والأرض فقال عبد الله بن سلام، وكعب، والضحاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد.

وقال محمد بن إسحاق: ابتداء الخلق يوم السبت. وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضًا فيما خلق كل يوم، فقال عبد الله بن سلام: إن الله تعالى بدأ الخلق

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٠٩) وابن ماجه (١٨٢) بلفظ في عماء، وقال الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٠١): ضعيف.

(٢) سورة البقرة (٢١٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٢) وهو منقطع بين الضحاك وابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٢) عنهما.

(٥) وقد تقدم وهو ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٣).

يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يوم الخميس والجمعة، ففرغ آخر ساعة من الجمعة فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة[(١)] . ومثله قال ابن مسعود وابن عباس من رواية أبي صالح عنه[(٢)]، إلا أنهما لم يذكرا خلق آدم ولا الساعة.

وقال ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة[(٣)] عنه: إن الله تعالى خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾[(٤)] وهذا القول عندي هو الصواب. وقال ابن عباس أيضًا من رواية عكرمة عنه: إن الله تعالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت[(٥)] . ومثله قال ابن عمر، وروى السدي عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[(٦)]، قال: إن الله عز وجل كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئًا مما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسماه سماءً، ثم أيبس الماء فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره الله تعالى في القرآن في قوله: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾[(٧)] والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة[(٨)]، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرت. فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٧) وفي سنده أبو معشر المدني، وهو ضعيف.
(٢) أخرجه الطبري في المصدر السابق.
(٣) وهي رواية منقطعة، والأثر أخرجه الطبري في المصدر السابق.
(٤) سورة النازعات (٣٠).
(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٨) وفي سنده ابن حميد، وهو متهم بالكذب.
(٦) سورة البقرة (٢٩).
(٧) سورة القلم (١).
(٨) الصفاة: صخرة ملساء.

تَمِيدَ بِهِمْ﴾[١]. قال ابن عباس والضحاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كل يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

قلت: أما ماورد في هذه الأخبار من أن الله تعالى خلق الأرض في يوم كذا، والسماء في يوم كذا فإنما هو مجاز، وإلا فلم يكن ذلك الوقت أيام وليال، لأن الأيام عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها، والليالي عبارة عما بين غروبها وطلوعها، ولم يكن ذلك الوقت سماء ولا شمس. وإنما المراد به أنه خلق كل شيء بمقدار يوم، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٢] وليس في الجنة بكرة وعشي.

القول في الليل والنهار أيهما خُلِق قبل صاحبه وفي بدء خلق الشمس والقمر وصفتهما[٣]

قد ذكرنا ما خلق الله تعالى من الأشياء قبل خلق الأوقات، وأن الأزمنة والأوقات إنما هي ساعات الليل والنهار، وأن ذلك إنما هو قطع الشمس والقمر درجات الفلك فلنذكر الآن بأي ذلك كان الابتداء؛ أبالليل أم بالنهار؟ فإن العلماء اختلفوا في ذلك، فإن بعضهم يقول: إن الليل خلق قبل النهار، ويستدل على ذلك بأن النهار من نور الشمس فإذا غابت الشمس جاء الليل فبان بذلك أن النهار، وهو النور، وارد على الظلمة التي هي الليل. وإذا لم يرد نور الشمس كان الليل ثابتًا، فدل ذلك على أن الليل هو الأول، وهذا قول ابن عباس[٤].

وقال آخرون: كان النهار قبل الليل. واستدلوا بأن الله تعالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء به كل شيء خلقه حتى خلق الليل.

---

(١) سورة الأنبياء (٣١). والأثر أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٠).

(٢) سورة مريم (٦٢).

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٥) والزيادة منه.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٥) بسند صحيح عن ابن عباس أنه سئل: هل الليل كان قبل النهار ؟ قال: أرأيتم حين كانت السماوات والأرض رتقًا؛ هل كان بينهما إلا ظلمة ؟! ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار.

قال ابن مسعود: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه»(١).

قال أبو جعفر: والأول أولى بالصواب للعلة المذكورة أولاً، ولقوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾(٢) فبدأ بالليل قبل النهار.

قال عبيد بن عمير الحارثي: كنت عند علي فسأله ابن الكواء عن السواد الذي في القمر: ذلك آية محيت(٣)، وقال ابن عباس مثله(٤)، وكذلك قال مجاهد وقتادة وغيرهما، لذلك خلقهما الله تعالى الشمس أنور من القمر.

قلت: وروى أبو جعفر ههنا حديثًا طويلاً عدة أوراق عن ابن عباس عن النبي، ﷺ، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكل عجلة ثلاثمائة وستون عروة، يجرها بعددها من الملائكة، وإنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليهما من الكسوف. وذكر الكواكب وسيرها، وطلوع الشمس من مغربها. ثم ذكر مدينة بالمغرب تسمى (جابرسا) وأخرى (بالمشرق) تسمى (جابرقا) ولكل واحدة منهما عشرة آلاف باب يحرس كل باب منها عشرة آلاف رجل، لا تعود الحراسة إليهم إلى يوم القيامة. وذكر يأجوج ومأجوج ومنسك وثاريس(٥)، إلى أشياء أخر لا حاجة إلى ذكرها، فأعرضت عنها لمنافاتها العقول. ولو صح إسنادها لذكرناها وقلنا به، ولكن الحديث غير صحيح، ومثل هذا الأمر العظيم لا يجوز أن يسطر في الكتب بمثل هذا الإسناد الضعيف(٦).

وإذا كنا قد بينا مقدار مدة ما بين أول ابتداء الله عز وجل في إنشاء ما أراد إنشاءه من خلقه إلى حين فراغه من إنشاء جميعه من سني الدنيا ومدة أزمانها،

---

(١) أخرجه الطبري في المصدر السابق.
(٢) سورة النازعات (٢٧-٢٩).
(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٢) وفي «تفسيره» (١٥ /٤٩) من طرق عن ابن الكواء.
(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٣).
(٥) موضوع: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٧- ٥٢) وفي سنده خلف بن واصل، قال الحافظ في «اللسان» (١٦٦٣): لعله هو الذي وضعه، وبعضه عند أبي الشيخ وفي «العظمة» (٦٤٣٣١) وفي سنده نوح أبو عصمة، وهو متهم بالكذب والوضع كما في «التقريب» (٧٢١٠).
(٦) قلت: إلا مع بيان ضعفه كما فعل المصنف ههنا.

وكان الغـرض في كتابنـا هذا ذكر ما قـد بينا أنا ذاكروه من تاريخ الملوك الجبابرة، والعاصيـة ربها والمطيعة ربهـا، وأزمان الرسل والأنبياء، وكنا قد أتـينا على ذكر ما تصح به التاريخات وتعرف به الأوقات وهو الشمس والقمر.

فلنذكر الآن أول من أعـطاه الله ملكًا وأنعم عليه فكفـر نعمتـه وجحد ربوبيـته واستكبر، فسلبه الله نعمته وأخزاه وأذله.

ثم نتبعـه ذكر من استن سنته واقتـفى أثره وأحل الله به نقمتـه، ونذكر من كان بإزائـه أو بعده من الملوك المطيعة ربها المحمودة آثارها ومن الرسل والأنبياء، إن شاء الله تعالى.



قصة إبليس لعنه الله وابتداء أمره وإطغائه آدم عليه السلام[١]

فأولهم وإمامهم ورئيسهم إبليس. وكان الله تعالى قد حسن خلقه وشرفه وملكه على سماء الدنيا والأرض فيما ذكر، وجعله مع ذلك خازنًا من خزان الجنة، فاستكبر على ربه، وادعى الربوبية، ودعا من كان تحت يده إلى عبادته، فمسخه الله تعالى شيطانًا رجيمًا، وشوه خلقه، وسلبه ما كان خوَّله، ولعنه وطرده عن سماواته في العاجل، ثم جعل مسكنه ومسكن أتباعه في الآخرة نار جهنم، نعوذ بالله تعالى من نار جهنم ونعوذ بالله تعالى من غضبه ومن الحور بعد الكور[٢].

ونبدأ بذكر الأخبار عن السلف بما كان الله أعطاه من الكرامة وبادعائه ما لم يكن له، ونتبع ذلك بذكر أحداث في سلطانه وملكه إلى حين زوال ذلك عنه والسبب الذي به زال عنه، إن شاء الله تعالى.

ذكر الأخبار بما كان لإبليس لعنه الله من الملك وذكر الأحداث في ملكه[٣]

روي عن ابن عباس وابن مسعود أن إبليس كان له ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم «الجن». وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازنًا[٤]، قال ابن عباس: ثم إنه عصى الله تعالى فمسخه شيطانًا رجيمًا.

وروي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾[٥] إنما كانت هذه الآية في إبليس خاصة لما قال، قال لعنه الله تعالى وجعله شيطانًا رجيمًا، وقال: ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[٦] وروي عن ابن جريج مثله[٧].

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٦)، و«البداية» (١/ ٦٥).

(٢) الحور بعد الكور: النقصان بعد الزيادة. «النهاية» (٤/ ٢٠٨).

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٦).

(٤) المصدر السابق.

(٥)،(٦) سورة الأنبياء (٢٩).

(٧) تاريخ ابن جرير (١/ ٥٧).

وأما الأحداث التي كانت في ملكه وسلطانه فمنها[١] ما روي الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان خازنًا من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وخلق الإنسان من طين، فأول من سكن في الأرض الجن، فاقتتلوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضًا، قال: فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جند من الملائكة، وهم هذا الحي الذين يقال لهم الجن، فقاتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال.

فلما فعل ذلك اغتر في نفسه وقال: قد صنعتُ ما لم يصنعه أحد. فاطلع الله تعالى على ذلك من قبله، ولم يطلع عليه أحد، من الملائكة الذين معه[٢].

وروي عن أنس نحوه[٣]، وروى أبو صالح عن ابن عباس ومرة الهمداني عن ابن مسعود أنهما قالا: لما فرغ الله تعالى من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم من خُزَّان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازنًا فوقع في نفسه كبر وقال: ما أعطاني الله تعالى هذا الأمر إلا لمزية لي على الملائكة. فاطلع الله على ذلك منه فقال: إني جاعل في الأرض خليفة. قال ابن عباس: وكان اسمه «عزازيل» وكان من أشد الملائكة اجتهادًا وأكثرهم علمًا، فدعاه ذلك إلى الكبر[٤].

وهذا قول ثالث في سبب كبره.

وروى عكرمة عن ابن عباس أن الله تعالى خلق خلقًا، فقال: اسجدوا لآدم، فقالوا: لا نفعل. فبعث عليهم نارًا فأحرقتهم، ثم خلق خلقًا آخر، فقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[٥]، فاسجدوا لآدم. فأبوا، فبعث الله تعالى عليهم نارًا فأحرقتهم، ثم خلق هؤلاء الملائكة فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك

---

(١) المصدر السابق (١/ ٥٨).

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٨) ورواية الضحاك عن ابن عباس منقطعة، وفي سنده بشر بن عمارة، وهو ضعيف كما في «التقريب» (٦٩٧).

(٣) كذا عزاه المصنف لأنس، والصحيح أنه الربيع بن أنس التابعي، والأثر أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٨).

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٩).

(٥) سورة ص (٧١).

الذين لم يسجدوا[١]. وقال شهر بن حوشب: إن إبليس كان من الجن الذين سكنوا الأرض وطردتهم الملائكة، وأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء. وروي عن سعيد[٢] بن مسعود نحو ذلك.

وأولى الأقوال بالصواب أن يقال[٣] كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[٤] وجائز أن يكون فسوقه من إعجابه بنفسه لكثرة عبادته واجتهاده، وجائز أن يكون لكونه من الجن.

ومرة الهمداني، بسكون الميم والدال المهملة نسبة إلى همدان قبيلة كبيرة من اليمن.

* * *

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٦٠) من طريق شيخه محمد بن سنان القزاز، وهو ضعيف كما في «التقريب» (٥٩٣٦).

(٢) في «تاريخ الطبري» (١/ ٦٠) سعد بن مسعود.

(٣) والكلام للطبري في المصدر السابق.

(٤) سورة الكهف (٥٠).

ذكر خلق آدم عليه السلام[١]

ومن الأحاديث[٢] في سلطانه خلق أبينا آدم، عليه السلام. وذلك لما أراد الله تعالى أن يطلع ملائكته على ما علم من انطواء إبليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة حتى دنا أمره من البوار[٣] وملكه من الزوال، فقال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[٤].

روي عن ابن عباس أن الملائكة قالت ذلك للذي كانوا عهدوا من أمره وأمر الجن الذين كانوا سكان الأرض قبل ذلك، فقالوا لربهم تعالى: أتجعل فيها من يكون مثل الجن الذين كانوا يسفكون الدماء فيها ويفسدون ويعصونك ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ فقال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٥]، يعني من انطواء إبليس على الكبر والعزم على خلاف أمري واغتراره، وأنا مبد ذلك لكم منه لتروه عيانًا[٦].

فلما أراد الله أن يخلق آدم أمر جبريل أن يأتيه بطين من الأرض، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني وتشينني. فرجع ولم يأخذ منها شيئًا وقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث ميكائيل، فاستعاذت منه فأعاذها، فرجع وقال مثل جبريل، فبعث إليها ملك الموت فعاذت منه، فقال: أنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربي، فأخذ من وجه الأرض فخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء وطينًا لازبًا، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين[٧].

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب**[٨]، ثم بُلَّتْ طينته حتى صارت طينًا

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٦٢) و«البداية» (١/ ٨٠).

(٢) أي مما حدث في سلطان إبليس.

(٣) البوار: الهلاك.

(٤)،(٥) سورة البقرة (٣٠).

(٦) ذكره ابن جرير في «تاريخه» (١/ ٦٢) بدون سند.

(٧) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٦٢) عن ابن عباس وابن مسعود.

(٨) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩٥٥) وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٩): صحيح.

لازبًا ثم تركت حتى صارت حمأ مسنونًا ثم تركت حتى صارت صلصالاً، كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[(١)]».

واللازب: الطين الملتزب[(٢)] بعضه ببعض. أي ثم ترك حتى تغير وأنتن وصار حمأ مسنونًا، يعني منتنًا، ثم صار صلصالاً، وهو الذي له صوت.

وإنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض[(٣)]. قال ابن عباس: أمر الله بتربة آدم فرفعت، فخلق آدم من طين لازب من حمأ مسنون، وإنما كان حمأ مسنونًا بعد الالتزاب فخلق منه آدم بيده لئلا يتكبر إبليس عن السجود له. قال: فمكث أربعين ليلة - وقيل: أربعين سنة - جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل، أي يصوت - قال: فهو قول الله تعالى: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: هو كالمنفوخ الذي ليس بمصمت.

ثم يدخل من فيه فيخرج من دبره ويدخل من دبره ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئًا، ولشيء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت عليّ لأعصينك. فكانت الملائكة تمر به فتخافه، وكان إبليس أشدهم منه خوفًا[(٤)].

فلما بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[(٥)] فلما نفخ الروح فيه دخلت من قبل رأسه - وكان لا يجري شيء من الروح في جسده إلا صار لحمًا - فلما دخلت الروح رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل الحمد لله. وقيل: بل ألهمه الله التحميد فقال: الحمد لله رب العالمين. فقال الله له: **رحمك ربك يا آدم**[(٦)].

فلما دخلت الروح عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما بلغت جوفه اشتهى الطعام

---

(١) سورة الحجر: (٢٦).

(٢) أي الملتصق.

(٣) أي وجه الأرض.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٦٤) بسند ضعيف عن ابن عباس بنحوه وأخرجه في نفس المصدر من طريق آخر عنه وعن ابن مسعود.

(٥) سورة الحجر (٢٩).

(٦) أخرج ابن حبان (٦١٦٥) عن أنس أن النبي ﷺ قال: **«لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين. فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله».** قال الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢١٦): صحيح.

فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[١]. فسجد له الملائكة كلهم إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. فقال الله له: يا إبليس ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين، فلم يسجد كبراً وبغيًا وحسداً. فقال الله له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ إلى قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢]. فلما فرغ من إبليس ومعاتبته وأبى إلا المعصية أوقع عليه اللعنة وأيأسه من رحمته وجعله شيطانًا رجيمًا وأخرجه من الجنة.

قال الشعبي: أنزل إبليس مشتمل الصماء[٣] عليه عمامة أعور في إحدى رجليه نعل.

وقال حميد بن هلال: نزل إبليس مختصراً فلذلك كره الاختصار في الصلاة.

ولما أنزل قال: يا رب أخرجتني من الجنة من أجل آدم وإني لا أقوى عليه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: زدني. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: زدني. قال: صدورهم مساكن لك وتجري منهم مجرى الدم. قال: زدني. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك[٤] وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم.

قال آدم: يا رب قد أنظرته وسلطته علي وإنني لا أمتنع منه إلا بك. قال: لا يولد لكم ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يا رب زدني. قال: الحسنة بعشر أمثالها وأزيدها، والسيئة بواحدة وأمحوها. قال: يا رب زدني. قال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٥] قال: يا رب زدني. قال التوبة لا نمنعها من ولدك ما كانت فيهم الروح. قال: يا رب زدني قال: أغفر ولا أبالي. قال: حسبي[٦].

---

(١) سورة الأنبياء (٣٧).

(٢) سورة ص (٧٥-٨٥). والأثر أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٦٤، ٦٥) عن ابن عباس وعن ابن مسعود.

(٣) اشتمال الصماء: هو أن يجلل جسده كله بالكساء أو الإزار.

(٤) رجلك: جمع راجل، وهم المشاة.

(٥) سورة الزمر (٥٣).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٩٩) عن ثابت البناني مرسلاً وعزاه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠، ٦١) لابن أبي حاتم عن ثابت وحميد عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً أيضًا.

ثم قال الله لآدم: ائت أولئك النفر من الملائكة فقل: السلام عليكم. فأتاهم فسلم عليهم، فقالوا له: وعليك السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم(١). فلما امتنع إبليس من السجود وظهر للملائكة ما كان مستتراً عنهم علم الله آدم الأسماء كلها.

واختلفت العلماء في الأسماء فقال الضحاك عن ابن عباس: علمه الأسماء كلها التي تتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وجبل وفرس وحمار وأشباه ذلك، حتى الفسوة والفسية(٢). وقال مجاهد وسعيد بن جبير مثله.

وقال ابن زيد: علم أسماء ذريته. وقال الربيع: علم أسماء الملائكة خاصة. فلما علمها عرض الله أهل الأسماء على الملائكة فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣) إني إن جعلت الخليفة منكم أطعتموني وقدستموني ولم تعصوني، وإن جعلته من غيركم أفسد فيها وسفك الدماء، فإنكم إن لم تعلموا أسماء هؤلاء وأنتم تشاهدونهم فبأن لا تعلموا ما يكون منكم ومن غيركم وهو مغيب عنكم أولى وأحرى. وهذا قول ابن مسعود ورواية أبي صالح عن ابن عباس(٤).

وروي عن الحسن وقتادة أنهما قالا: لما علم الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه و﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠] و﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا فيما بينهم: ليخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق خلقًا إلا كنا أكرم على الله منه، فلما خلقه وأمرهم بالسجود له علموا أنه خير منهم وأكرم على الله منهم، فقالوا: إن يك خيراً منا وأكرم على الله منا فنحن أعلم منه. فلما أعجبوا بعلمهم ابتلوا بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾، أني لا أخلق أكرم منكم ولا أعلم منكم ففزعوا إلى التوبة، وإليها يفزع كل مؤمن، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(٥) قالا: وعلمه اسم كل شيء من هذه: الخيل والبغال والإبل والجن والوحش وكل شيء(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٨) ومسلم (٢٨٤١) وفيه فقال: السلام عليكم فقالوا السلام الله.
(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٦٦) من طرق عن ابن عباس.
(٣) سورة البقرة (٣١).
(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ٦٧، ٦٨).
(٥) سورة البقرة (٣٢).
(٦) «تاريخ الطبري» (١/ ٦٨، ٦٩).

ذكر إسكان آدم عليه السلام الجنة وإخراجه منها[1]

فلما ظهر للملائكة من معصية إبليس وطغيانه ما كان مستترًا عنهم وعاتبه الله على معصيته بتركه السجود لآدم فأصر على معصيته وأقام على غيه لعنه الله وأخرجه من الجنة وطرده منها وسلبه ما كان إليه من ملك سماء الدنيا والأرض وخزن الجنة، فقال الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ ـ يعني من الجنة ـ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾[2]، وأسكن آدم الجنة.

قال ابن عباس وابن مسعود: فلما أسكن آدم الجنة كان يمشي فيها فردًا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة واستيقظ فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها فقال: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي. قالت له الملائكة: ـ لينظروا مبلغ علمه ـ ما اسمها؟ قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي. وقال الله له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[3].

وقال ابن إسحاق فيما بلغه عن أهل الكتاب وغيرهم، منهم عبد الله بن عباس قال: ألقى الله تعالى على آدم النوم وأخذ ضلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحمًا وخلق منه حواء وآدم نائم، فلما استيقظ رآها إلى جنبه فقال: لحمي ودمي وروحي، فسكن إليها، فلما زوجه الله تعالى وجعل له سكنًا من نفسه قال له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

وعن مجاهد وقتادة مثله: فلما أسكن الله آدم وزوجته الجنة أطلق لهما أن يأكلا كل ما أرادا من كل ثمارها غير ثمرة شجرة واحدة، ابتلاءً منه لهما وليمضي قضاؤه فيهما وفي ذريتهما. فوسوس لهما الشيطان. وكان سبب وصوله إليهما أنه أراد دخول الجنة فمنعته الخزنة، فأتى كل دابة من دواب الأرض وعرض نفسه عليها أنها تحمله حتى يدخل الجنة ليكلم آدم وزوجته. فكل الدواب أبى عليه حتى أتى الحية وقال لها: أمنعك من ابن آدم فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتيني، فجعلته بين نابين

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٧١).

(٢) سورة ص (٧٧ - ٧٨).

(٣)،(٤) سورة البقرة (٣٥) والأثر أخرجه ابن جرير الطبري (١/ ٦٩).

من أنيابها ثم دخلت به، وكانت كاسية على أربعة قوائم من أحسن دابة خلقها الله كأنها بختية[١]، فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها[٢].

قال ابن عباس: «اقتلوها حيث وجدتموها واخفروا ذمة عدو الله فيها»[٣].

فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فيها فناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها، فقالا له: ما يبكيك؟ قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة.

فوقع ذلك في أنفسهما. ثم أتاهما فوسوس لهما وقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٤].

وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٥]، أن تكونا ملكين، أو تخلدان إن لم تكونا ملكين في نعمة الجنة.

يقول الله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٦]. وكان انفعال حواء لوسوسته أعظم، فدعاها آدم لحاجته. فقالت: لا ـ إلا أن تأتي ههنا ـ فلما أتى قالت: لا! إلا أن تأكل من هذه الشجرة ـ وهي الحنطة. قال: فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما، وكان لباسهما الظفر[٧]، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قيل: كان ورق التين، وكانت الشجرة من أكل منها أحدث. وذهب آدم هاربًا في الجنة، فناداه ربه: أن يا آدم مني تفر؟ قال: لا يا رب ولكن حياء منك. فقال: يا آدم من أين أتيت؟ قال: من قبل حواء يا رب. فقال الله: فإن لها علي أن أدميها في كل شهر وأن أجعلها سفيهة، وقد كنت خلقتها حليمة، وأن أجعلها تحمل كرهًا وتضع كرهًا وتشرف على الموت مرارًا،

---

(١) الإبل البخت: إبل طوال الأعناق.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تاريخه» (١/ ٧٢) وأخرج نحوه في (تفسيره) (١/ ٢٣٥).
عن ابن عباس بسند منقطع وعن ابن مسعود وأخرجه (١/ ٢٣٧) عن طريق آخر ضعيف جدًا عن ابن عباس.

(٣) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٣٧).

(٤) سورة طه (١٢٠)

(٥) سورة الأعراف (٢٠) و(٢١).

(٦) سورة الأعراف (٢٢).

(٧) أي شئ يشبه الظفر في بياضه وصفائه وكثافته. «اللسان» (٤/ ٢٥).

وقد كنت جعلتها تحمل يسراً وتضع يسراً، ولولا بليتها لكان النساء لا يحضن، ولكن حليمات ولكن يحملن يسراً، ويضعن يسراً[١]. وقال الله تعالى له: لألعنن الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول بها ثمارها شوكًا. ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة أفضل من الطلح[٢] والسدر. وقال للحية: دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدي، ملعونة أنت لعنة يتحول بها قوائمك في بطنك ولا يكون لك رزق إلا التراب. أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت واحداً منهم أخذت بعقبه وحيث لقيك شدخ رأسك[٣]، اهبطوا بعضكم لبعض عدو آدم وإبليس والحية. فأهبطهم إلى الأرض، وسلب الله آدم وحواء كل ما كانا فيه من النعمة والكرامة.

قيل: كان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن سقته حواء الخمر حتى سكر فلما سكر قادته إليها فأكل[٤].

قلت: والعجب من سعيد كيف يقول هذا والله يقول في صفة خمر الجنة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[٥].

ذكر اليوم الذي أسكن آدم فيه الجنة واليوم الذي أخرج فيه منها واليوم الذي تاب فيه[٦]

روى أبو هريرة عن النبي، ﷺ، قال: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أسكن الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تاب الله عليه، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة ـ يقللها ـ لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه**»[٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٧٣) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «معضلاً».

(٢) الطلح: شجر عظام من شجر العضاة والمفرد طلحة. «مختار الصحاح» (١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٧٢) عن وهب بن منبه.

(٤) إسناده ضعيف جداً: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٣٧) وفي «تاريخه» (١/ ٧٤) وفي إسناده محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه وعنه: سلمة بن الفضل قال في «التقريب» (٢٥٠٥): صدوق كثير الخطأ وشيخ الطبري محمد بن حميد الرازي وهو متهم بالكذب.

(٥) سورة الصافات (٤٧).

(٦) «تاريخ الطبري» (١/ ٧٧).

(٧) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٤٦) والترمذي (٤٩١) والنسائي (٣/ ١١٤) وابن ماجه (١٠٨٤) وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٣٤): صحيح. وأصله عند مسلم (٨٥٤) دون ذكر جملتي: «التوبة» و«ساعة الجمعة».

قال عبد الله بن سلام: قد علمت أي ساعة هي، هي آخر ساعة من النهار[١].

وقال أبو العالية: أخرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة منه، وأهبط إلى الأرض لتسع ساعات مضين من ذلك اليوم، وكان مكثه في الجنة خمس ساعات منه، وقيل: كان مكثه ثلاث ساعات منه.

فإن كان[٢] قائل هذا القول أراد أنه سكن الفردوس لساعتين مضتا من يوم الجمعة من أيام الدنيا التي هي على ما هي به اليوم، فلم يبعد قوله من الصواب لأن الأخبار كذا كانت واردة عن السلف من أهل العلم بأن آدم خلق آخر ساعة من اليوم السادس التي مقدار اليوم منها ألف سنة من سنيننا، فمعلوم أن الساعة الواحدة من ذلك اليوم ثلاثة وثمانون عامًا من أعوامنا، وقد ذكرنا أن آدم بعد أن خمر ربنا طينته بقي قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين عامًا، وذلك لا شك أنه عني به أعوامنا، ثم بعد أن نفخ فيه الروح إلى أن تناهى أمره وأسكن الجنة وأهبط إلى الأرض غير مستنكر أن يكون مقدار ذلك من سنيننا قدر خمس وثلاثين سنة، وإن كان أراد أنه سكن الجنة لساعتين مضتا من نهار يوم الجمعة من الأيام التي مقدار اليوم منها ألف سنة من سنيننا فقد قال غير الحق، لأن كل من له قول في ذلك من أهل العلم يقول أنه نفخ فيه الروح آخر نهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أن مكث آدم كان في الجنة نصف يوم كان مقداره خمسمائة عام[٣]، وهذا أيضًا خلاف ما وردت به الأخبار عن النبي ﷺ وعن العلماء.

ذكر الموضع الذي أهبط فيه آدم وحواء من الأرض[٤]

قيل: ثم إن الله تعالى أهبط آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذي خلقه فيه، وهو يوم الجمعة، مع زوجته حواء من السماء. فقال علي وابن عباس وقتادة وأبو العالية: إنه أهبط بالهند على جبل يقال له نود[٥] من أرض سرنديب، وحواء بجدة[٦].

(١) أخرجه الترمذي في المصدر السابق بلفظ «هي بعد العصر إلى أن تغرب الشمس».

(٢) والكلام للطبري في «تاريخه» (١/ ٧٨).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في المصدر السابق وأبو صالح هو باذان مولى أم هانئ وهو ضعيف كما في «التقريب» (٦٣٤) وفي سنده هشام بن السائب الكلبي عن أبيه وكلاهما متروك.

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ٧٩).

(٥) في المصدر الآتي «بوذ».

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٧٩).

قال ابن عباس: فجاء في طلبها فكان كلما وضع قدمه بموضع صار قرية، وما بين خطوتيه مفاوز، فسار حتى أتى جمعًا فازدلفت إليه حواء، فلذلك سميت المزدلفة، وتعارفا بعرفات فلذلك سميت عرفات، واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعًا[١]. وأهبطت الحية بأصفهان، وإبليس بميسان[٢]. وقيل: أهبط آدم بالبرية، وإبليس بالأبلة[٣].

قال أبو جعفر[٤]: وهذا ما لا يوصل إلى معرفة صحته إلا بخبر يجيء مجيء الحجة[٥]، ولا نعلم خبرًا في ذلك غير ما ورد في هبوط آدم بالهند، فإن ذلك مما لا يدفع صحته علماء الإسلام. قال ابن عباس: فلما أهبط آدم على جبل نود[٦] كانت رجلاه تمسان الأرض ورأسه بالسماء يسمع تسبيح الملائكة، فكانت تهابه، فسألت الله أن ينقص من طوله فنقص طوله إلى ستين ذراعًا، فحزن آدم لما فاته من الأنس بأصوات الملائكة وتسبيحهم، فقال: يا رب كنت جارك في دارك ليس لي رب غيرك أدخلتني جنتك آكل منها حيث شئت وأسكن حيث شئت فأهبطتني إلى الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأجد ريح الجنة فحططتني إلى ستين ذراعًا، فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني ريح الجنة! فأجابه الله تعالى: بمعصيتك يا آدم فعلت بك ذلك.

فلما رأى الله تعالى عري آدم وحواء أمره أن يذبح كبشًا من الضأن من الثمانية الأزواج التي أنزل الله من الجنة، فأخذ كبشًا فذبحه وأخذ صوفه. فغزلته حواء ونسجه آدم فعمل لنفسه جبة ولحواء درعًا[٧] وخمارًا فلبسا ذلك[٨].

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٧٩) عن ابن عباس بسند ضعيف جدًا دون أوله فأخرجه (١/ ٨١) عن ابن عمر بسند ضعيف جدًا وفي سنده «تمامة بن عبيدة» وهو متهم بالكذب كما في «لسان الميزان» (٢/ ٨٤).

(٢) ميسان اسم كورة واسعة كثيرة القرى بين البصرة وواسط.

(٣) الأبلة: بلدة معروفة قرب البصرة من جانبها البحري.

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ٨٠).

(٥) وهذه هي القاعدة في قبول الأخبار وردها.

(٦) تقدم أن الصحيح فيها «بوذ».

(٧) درع المرأة قميصها.

(٨) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٠، ٨١) بسند ضعيف جدًا عن ابن عباس دون أوله فأخرجه في نفس المصدر عن عطاء بن أبي رباح وقتادة مرسلاً.

وقيل: أرسل إليهما ملكًا يعلمهما مـا يلبسانه من جلود الضأن والأنعام. وقيل: كان ذلك لباس أولاده، وأما هو وحواء فكان لباسهما ما كانا خصفًا[١] من ورق الجنة.

فأوحى الله إلى آدم: إن لي حرمًا حيال عرشي فانطلق وابن لي بيتًا فيه ثم حف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعـرشي، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي. فقـال آدم يا رب وكيف لي بذلك! لست أقوى عليـه ولا أهتدي إليه. فقيض الله ملكًا فانطلق به نحو مكة، وكان آدم إذا مر بروضة قال للملك: انزل بنا ههنا. فيقـول الملك: مكانك، حتى قدم مكة، فكان كل مكان نزله آدم عـمرانًا وما عداه مفاوز. فبنى البيت من خمسة أجبل: من طور سيناء، وطور زيتا[٢]، ولبنان، والجودي، وبنى قـواعده من حراء، فلمـا فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عـرفات فأراه المناسك التي يفعلـها الناس اليوم، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسـبوعًا، ثم رجع إلى الهند فمات على نود[٣].

فعلى هـذا القول أهبط حواء وآدم جـميـعًا، وإن آدم بنى البـيت، وهذا خلاف الذي نذكره إن شاء الله تعالى منه: أن البيت أنزل من السماء.

وقيل: حج آدم من الهند أربعين حجة ماشيًا[٤].

ولما نزل إلى الهند كان على رأسه إكليل من شجر الجنة، فلما وصل إلى الأرض يبس فتساقط ورقـه فنبتت منه أنواع الطيب بالهند. وقيل بل الطيب من الورق الذي خصفه آدم وحواء عليهما. وقيل: لما أمر بالخروج من الجنة جعل لا يمر بشجرة منها إلا أخذ منها غصنًا فهبط وتلك الأغصان معه فكان أصل الطيب بالهند منها، وزوده الله من ثمار الجنة، فثـمارنا هذه منها، غيـر أن هذه تتغير وتلك لا تتغـير، وعلمه صنعة كل شيء، ونزل معـه بعض طيب الجنة، والحجر الأسود ـ وكان أشـد بياضًا من الثلج، وكان من ياقوت الجنة[٥]ـ ونزل معه عصا موسى، وهي من آس الجنة أو

(١) خصف: من الخصف وهو الضم والجمع.

(٢) في المصدر الآتي زيتون.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨١) بسند ضعيف جداً.

(٤) أخرجـه الطبري في المصدر السـابق عن ابن عباس. وفي سنده أبو يحـيى القتات قـال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٨٤٤٤): لين الحديث.

(٥) ثبت أن الحجر الأسود نزل من الجنة فـيما رواه الترمذي (٣٠٣) عن ابن عباس مرفـوعًا وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٥٦) وليس فيه أن ذلك كان حين نزول آدم من الجنة.

من لبان، وأنزل بعد ذلك العلاة والمطرقة والكلبتان. وكان حسن الصورة لا يشبهه من ولده غير يوسف[١].

وأنزل عليه جبريل بصرة فيها حنطة، فقال آدم: ما هذا؟ قال: هذا الذي أخرجك من الجنة. فقال: ما أصنع به؟ فقال: انثره في الأرض. ففعل، فأنبته الله من ساعته، ثم حصده وجمعه وفركه وذراه وطحنه وعجنه وخبزه، كل ذلك بتعليم جبريل عليه السلام، وجمع له جبريل الحجر والحديد فقدحه فخرجت منه النار[٢]، وعلمه جبريل صنعة الحديد والحراثة، وأنزل إليه ثوراً، فكان يحرث عليه، قيل هو الشقاء الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[٣]. ثم إن الله أنزل آدم من الجبل وملكه الأرض وجمع ما عليها من الجن والدواب والطير وغير ذلك، فشكا إلى الله تعالى وقال: يا رب أما في هذه الأرض من يسبحك غيري؟ فقال الله تعالى: سأخرج من صلبك من يسبحني ويحمدني، وسأجعل فيها بيوتًا ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتًا أختصه بكرامتي واسميه بيتي وأجعله حرمًا آمنًا، فمن حرمه بحرمتي فقد استوجب كرامتي، ومن أخافه أهله فيه فقد خفر ذمتي وأباح حرمتي، أول بيت وضع للناس فمن اعتمده لا يريد غيره فقد وفد إلي وزارني وضافني، ويحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلاً بحاجته، تعمره أنت يا آدم ما دمت حيًا، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة[٤].

ثم أمر آدم أن يأتي البيت الحرام، وكان قد أهبط من الجنة ياقوتة واحدة، وقيل درة واحدة، وبقي كذلك حتى أغرق قوم نوح عليه السلام فرفع وبقي أساسه، فبوأ الله لإبراهيم، عليه السلام، فبناه[٥] على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسار آدم إلى البيت ليحجه ويتوب عنده، وكان قد بكى هو وحواء على خطيئتهما وما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يومًا، ثم أكلا وشربا بعدها، ومكث آدم لم يقرب حواء مائة عام[٦]، فحج البيت وتلقى آدم

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٢) بسند ضعيف جداً عن ابن عباس.
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٨٣).
(٣) سورة طه (١١٧).
(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٤) عن وهب بن منبه مرسلاً.
(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٥) عن أبان مرسلاً، وأبان إن كان ابن أبي عياش فهو متروك.
(٦) أخرجه ابن جرير في المصدر السابق عن ابن عباس بسند ضعيف جداً.

من ربه كلمات فتاب عليه، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أخذ الله الميثاق على ذرية آدم بنعمان من عرفة فأخرج من ظهره كل ذرية ذرأها إلى أن تقوم الساعة فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢).

وقيل: عن ابن عباس أيضًا: إنه أخذ عليهم الميثاق بدحنا، موضع(٣).

وقال السري(٤): أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه إلى الأرض من السماء ثم مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج ذرية كهيئة الذر بيضاء مثل اللؤلؤ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها كهيئة الذر سوداء، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حين يقول: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ثم أخذ منهم الميثاق فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فأعطوه الميثاق، طائفة طائعين وطائفة على وجه التقية(٥).

ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم في الدنيا(٦)

وكان أول ذلك قتل قابيل بن آدم أخاه هابيل، وأهل العلم مختلفون في اسم قابيل، فبعضهم يقول: «قين»، وبعضهم يقول: «قائين»، وبعضهم يقول قاين،

(١) سورة الأعراف (٢٣).

(٢) سورة الأعراف (١٧٢، ١٧٣)

والأثر أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٦) من طرق عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير وكلثوم بن عمر قال الحافظ في «التقريب» (٥٦٥٣) صدوق يخطأ.

وأخرجه أيضًا النسائي في الكبرى (١١١٩١) وأحمد (١/ ٢٧٢) مرفوعًا. وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٠١) صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٧) بسند ضعيف جدًا.

(٤) في المصدر الآتي السدي.

(٥) «تاريخ الطبري» (١/ ٨٧).

(٦) المصدر السابق (١/ ٨٨).

وبعضهم يقول: قابيل.

واختلفوا أيضًا في سبب قتله، فقيل: كان سببه أن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت له فيها بقابيل بن آدم وتوأمته فلم تجد عليهما وحمًا ولا وصبًا ولم تجد عليهما طلقًا حين ولدتهما ولم تر معهما دمًا لطهر الجنة، فلما أكلا من الشجرة وهبطا إلى الأرض فاطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق حين ولدتهما ورأت معهما الدم، وكانت حواء فيما يذكرون لا تحمل إلا توأمًا ذكرًا وأنثى، فولدت حواء لآدم أربعين ولدًا لصلبه من ذكر وأنثى في عشرين بطنًا، وكان الولد منهم أي أخواته شاء تزوج إلا توأمته التي تولد معه، فإنها لا تحل له، وذلك أنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم وأمهم حواء، فأمر آدم ابنه قابيل أن ينكح توأمة هابيل وأمر هابيل أن ينكح توأمة أخيه قابيل.

وقيل: بل كان آدم غائبًا، وكان لما أراد السير قال للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت، وقال للأرض فأبت، وللجبال فأبت، وقال لقابيل، فقال: نعم تذهب وترجع وستجده ما يسرك. فانطلق آدم فكان ما نذكره، وفيه قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[1].

فلما قال آدم لقابيل وهابيل في معنى نكاح أختيهما ما قال لهما سلم هابيل لذلك ورضي به، وأبى ذلك قابيل وكرهه تكرهًا عن أخت هابيل ورغب بأخته عن هابيل وقال: نحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض فأنا أحق بأختي.

وقال بعض أهل العلم: إن أخت قابيل كانت من أحسن الناس فضن بها على أخيه وأرادها لنفسه، وإنهما لم يكونا من ولادة الجنة إنما كانا من ولادة الأرض، والله أعلم. فقال له أبوه آدم: يا بني إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك من أبيه. فقال له أبوه: يا بني فقرب قربانًا ويقرب أخوك هابيل قربانًا فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها ـ وكان قابيل على بذر الأرض وهابيل على رعاية الماشية ـ فقرب قابيل قمحًا وقرب هابيل أبكارًا من أبكار غنمه. وقيل: قرب بقرة، فأرسل الله نارًا بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله الله،

---

(١) سورة الأحزاب (٧٢) والأثر أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٨٨).

فلما قبل الله قربان هابيل، وكان في ذلك القضاء له بأخت قابيل، غضب قابيل وغلب عليه الكبر واستحوذ عليه الشيطان وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ إلى قوله ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾[(١)] فاتبعه وهو في ماشيته فقتله، فهما اللذان قص الله خبرهما في القرآن فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾[(٢)] إلى آخر القصة. قال: فلما قتله سقط في يده ولم يدر كيف يواريه ـ وبذلك أنه كان ـ فيما يزعمون ـ أول قتيل من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ[(٣)] لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ إلى قوله ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾[(٤)]. فلما قتل أخاه قال الله تعالى: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ قال: لا أدري، ما كنت عليه رقيبًا! فقال الله تعالى: إن صوت دم أخيك يناديني من الأرض الآن، أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاها فبلعت دم أخيك، فإذا أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعًا تائهًا في الأرض. فقال قابيل: عظمت خطيئتي إن لم تغفرها[(٥)].

قيل: كان قتله عند عقبة حراء.

ثم نزل من الجبل آخذًا بيد أخته فهرب بها إلى عدن من اليمن.

قال ابن عباس: لما قتل أخاه أخذ بيد أخته ثم هبط بها من جبل نود إلى الحضيض، فقال له آدم: اذهب فلا تزال مرعوبًا لا تأمن من تراه. فكان لا يمر به أحد من ولده إلا رماه، فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابن له، فقال للأعمى ابنه: هذا أبوك قابيل فارمه، فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله، فقال ابن الأعمى لأبيه: قتلت أباك! فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات. فقال: يا ويلتي قتلت أبي برميتي وابني بلطمتي[(٦)].

---

(١) سورة المائدة (٢٧-٣٠).
(٢) سورة المائدة (٢٧).
(٣) يبحث في الأرض: أي ينبش التراب بمنقاره وبرجليه.
(٤) سورة المائدة (٣١ - ٣٢).
(٥) «تاريخ الطبري» (١/ ٨٩ - ٩٠) عن ابن إسحاق عن أهل الكتاب.
(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٩١) عن ابن عباس، بسند ضعيف جدًا.

ولما قتل هابيل كان عـمره عشرين سنة، وكان لقابيل يوم قتـله خمس وعشرين سنة. وقال الحسن: كان الرجلان ـ اللذان ذكرهما الله تعالى في القرآن بقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾[١] من بني إسرائيل، ولم يكونا من بني آدم لصلبه، وكان آدم أول من مات.

وقال أبو جعفر[٢]: الصحيح عندنا أنهما ابنا آدم لـصلبه للحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من نـفس تقتل ظلمًـا إلا كان على ابن آدم الأول كـفـل[٣] منها وذلك لأنه أول من سن القتل»**[٤] فبان لهذا أنهما لصلب آدم، فإن القتل مازال بين بني آدم قبل بني إسرائيل. وفي هذا الحديث أنه أول من سن القتل.

ومن الدليل على أنه مات من ذرية آدم قبله ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[٥]. عن ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم قالوا: كانت حواء تـلد لآدم فتعبدهم، أي تسميهم عبدالله وعبدالرحمن ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فـأتاهما إبليس فقال: لو سميتما بغير هذه الأسماء لعاش ولدكـما. فـولدت ولدًا فسـمته عـبد الحارث، وهـو اسم إبليس، فنزلت: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ الآيات. وقد روي هذا المعنى مرفوعًا[٦].

---

(١) سورة المائدة: (٢٧).

(٢) «تاريخ الطبري» المصدر السابق.

(٣) الكفل: النصيب.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٨٨) ومسلم (٣١٧٧). من حديث ابن مسعود.

(٥) سورة الأعراف (١٨٩ ـ ١٩٠).

(٦) أخرجه الترمـذي (٣٠٠٣) وأحمد (١٩٢٥٨) من طريق الحسن عن سمرة مرفـوعًا. وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٦٩) ضعيف وقال الحـافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٥-٢٧٧) وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عـمر بن إبراهيم هذا هو الـبصري وقد وثقـه ابن معين ولكن قـال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعًا فالله أعلم.

الثاني: أنه قد روي من قـول سمرة نفسه ليس مرفـوعًا كما قال ابن جرير حدثـنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه وحدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث.

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه، قال ابن جرير، حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل ابن يوسف عن عمر وعن الحسن: **﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾** قـال: كـان هذا فـي بـعض أهل الملل ولم يكن بآدم. وحدثـنا محـمد ابن عـبد الأعلى =

قلت: إنما كان الله تعالى يميت أولادهم أولاً، وأحيا هذا المسمى بعبد الحارث امتحانًا واختبارًا وإن كان الله تعالى يعلم الأشياء بغير امتحان، لكن علمًا لا يتعلق

= وحدثنا محمد بن ثور عن معمر، قال قال الحسن: عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ [الأعراف: ١٩٠] وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا.
قال الحافظ ابن كثير وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ﷺ أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، قال: إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم.
ثم ذكر الحافظ الآثار الواردة في تفسير الآية بآدم وحواء عن ابن عباس وقال: وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف والمفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، قال: وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم. ثم ذكر الأثر.
قال: وهذه الآثار يظهر والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**».
قال الحافظ، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.
ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا.
ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» وهو الذي لا يصدق ولا يكذب. لقوله: «**فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**».
وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ [الأعراف: ١٩٠] فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ [تبارك: ٥] الآية.
ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم. انتهى كلام ابن كثير.
وقد أورد المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٣٦٥-٣٧٠) بحثًا مستفيضًا في هذا الموضوع ثم قال: وأصح الأقوال عندي هو ما اختاره الرازي وابن جرير وابن كثير. ثم ذكر أوجه فساد التأويل المروي عن ابن عباس فقال:
الأول: أنه تعالى قال ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة. =

به الثواب والعقاب. ومن الدليل على أن القاتل والمقتول ابنا آدم لصلبه ما رواه العلماء عن علي بن أبي طالب أن آدم قال لما قتل هابيل:

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون   وقل بشاشة الوجه المليح

في أبيات غيرها [جيومرث] وقد زعم[1] أكثر علماء الفرس أن جيومرث هو آدم، وزعم بعضهم أنه ابن آدم لصلبه من حواء، وقالوا فيه أقوالاً كثيرة يطول بذكرها الكتاب إذ كان قصدنا ذكر الملوك وأيامهم، ولم يكن ذكر الاختلاف في نسب ملك من جنس ما أنشأنا له الكتاب، فإن ذكرنا من ذلك شيئًا فلتعريف من ذكرنا ليعرفه من لم يكن عارفًا به. وقد خالف علماء الفرس فيما قالوا من ذلك آخرون من غيرهم ممن زعم أنه غير آدم، ووافق علماء الفرس على اسمه وخالفهم في عينه وصفته، فزعم أن جيومرث الذي زعمت الفرس أنه آدم إنما هو حام بن يافث بن نوح، وأنه كان

= الثاني: أنه تعالى قال بعده ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون﴾ [الأعراف: ١٩١] وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر.

الثالث: لو كان المراد إبليس لقال أيشركون من لا يخلق شيئًا ولم يقل ما لا يخلق شيئًا لأن العاقل إنما يذكر بصيغة من لا بصيغة ما.

الرابع: أن آدم عليه السلام كان من أشد الناس معرفة بإبليس وكان على علم بجميع الأسماء كما قال تعالى وعلم آدم الأسماء كلها فكان لا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحارث فكيف سمى ولد نفسه بعبد الحارث وكيف ضاقت عليه الأسماء حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم.

الخامس: أن الواحد لو حصل له ولد يرجو منه الخير والصلاح فجاءه إنسان ودعاه أن يسميه بمثل هذه الأسماء لزجره وأنكر عليه.

فثبت بهذه الوجوه أن هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم ألا يلتفت إليه اهـ.

وانظر «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للشيخ محمد بن محمد أبو شهبة [ص٢٠٩، ٢١٥].

وقد نصر فيه قول الحافظ ابن كثير.

فائدة:

ذكر الشيخ ابن عثيمين في شرحه لكتاب رياض الصالحين عند حديث أبي هريرة في الشفاعة يوم القيامة أن في اعتذار آدم عليه السلام عن الشفاعة بأنه أكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها دليل على بطلان ما روي عن ابن عباس في تفسيره للآية وأن هذه الرواية مكذوبة.

وذلك لأنه لو كان كذلك لكان الاعتذار بذلك أولى. والله أعلم.

(١) والكلام للطبري في «تاريخه» (١/ ٩٢، ٩٣).

معمراً سيداً نزل جبل دنباوند من جبال طبرستان من أرض المشرق وتملك بها وبفارس وعظم أمره وأمر ولده حتى ملكوا بابل وملكوا في بعض الأوقات الأقاليم كلها.

وابتنى جيومرث المدن والحصون وأعد السلاح واتخذ الخيل وتجبر في آخر أمره وتسمى بآدم، وقال: من سماني بغيره قتلته، وتزوج ثلاثين امرأة، فكثر منهن نسله، وإن ماري ابنه وماريانة أخته ممن كانا ولدا في آخر عمره، فأعجب بهما وقدمهما، فصار الملوك من نسلهما.

قال أبو جعفر[1]: وإنما ذكرت من أمر جيومرث في هذا الموضع ما ذكرت لأنه لا تدافع بين علماء الأمم أنه أبو الفرس من العجم وإنما اختلفوا فيه هل هو آدم أبو البشر أم غيره؟ على ما ذكرناه ومع ذلك فلأن ملكه وملك أولاده لم يزل منتظمًا على سياق متصل بأرض المشرق وجبالها إلى أن قتل يزدجرد بن شهريار بمرو أيام عثمان بن عفان، والتاريخ على أسماء ملوكهم أسهل بيانًا وأقرب إلى التحقيق منه على أعمار ملوك غيرهم من الأمم، إذ لا يعلم أمة من الأمم الذين ينتسبون إلى آدم دامت لهم المملكة واتصل الملك لملوكهم يأخذه آخرهم عن أولهم وغابرهم عن سالفهم سواهم.

وأنا[2] ذاكر ما انتهى إلينا من القول في عمر آدم وأعمار من بعده من ولده من الملوك والأنبياء وجيومرث أبي الفرس فأذكر ما اختلفوا فيه من أمرهم إلى الحال التي اجتمعوا عليها واتفقوا على ملك منهم في زمان بعينه أنه هو الملك في ذلك الزمان إن شاء الله.

وكان آدم مع ما أعطاه الله تعالى من ملك الأرض نبيًّا رسولاً إلى ولده، وأنزل الله عليه إحدى وعشرين صحيفة كتبها آدم بيده علمه إياها جبريل. وروى أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال: **«الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا»**. قال: قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: **«ثلاثمائة وثلاثة عشر جمًا غفيراً»**، يعني كثيراً، طيبًا. قال: قلت: من أولهم؟ قال: **«آدم»**. قال: قلت: يا رسول الله وهو نبي مرسل؟ قال: **«نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه رجلاً»**[3].

وكان ممن أنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٩٣).
(٢) والكلام للطبري في المصدر السابق.
(٣) أخرجه ابن حبان (٣٦١) والحاكم (٤١٦٦) والطبري في تاريخه (١/ ٩٤ ـ ٩٥).

ذكر ولادة شيث[1]

ومن الأحداث في أيامه ولادة شيث، وكانت ولادته بعد مضي مائة وعشرين سنة لآدم، وبعد قتل هابيل بخمس سنين، وقيل: ولد فردًا بغير توأم. وتفسير شيث «هبة الله»، ومعناه أنه خلف من هابيل، وهو وصي آدم. وقال ابن عباس: كان معه توأم. ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعبادة الخلوة[2] في كل ساعة منها وأعلمه بالطوفان، وصارت الرياسة بعد آدم إليه، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة[3]، وإليه أنساب بني آدم كلهم اليوم. وأما الفرس الذين قالوا: إن جيومرث هو آدم، فإنهم قالوا: ولد لجيومرث ابنته ميشان أخت ميشى، وتزوج ميشى أخته ميشان فولدت له سيامك وسيامي، فولد لسيامك بن جيومرث أفروال ودقس وبواسب واجرب وأوراش، وأمهم جميعًا سيامي ابنة ميشى، وهي أخت أبيهم. وذكروا أن الأرض كلها سبعة أقاليم، فأرض بابل وما يوصل إليه مما يأتيه الناس برًّا وبحرًا فهو من أقليم واحد وسكانه ولد أفروال بن سيامك وأعقابهم.

فولد لأفروال بن سيامك من أفرى ابنة سيامك أوشهنج بيشداد الملك، وهو االذي خلف جده جيومرث في الملك، وهو أول من جمع ملك الأقاليم السبعة، وسنذكر أخباره. وكان بعضهم يزعم أن أوشهنج هذا هو ابن آدم لصلبه من حواء.

وأما ابن الكلبي فإنه زعم أن أول من ملك الأرض أوشهنق بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح، قال: والفرس تزعم أنه كان بعد آدم بمائتي سنة، وإنما كان بعد نوح بمائتي سنة، ولم تعرف الفرس ما كان قبل نوح.

والذي ذكره هشام بن الكلبي لا وجه له، لأن أوشهنج مشهور عند الفرس، وكل قوم أعلم بأنسابهم وأيامهم من غيرهم. قال: وقد زعم بعض نسابة الفرس أن أوشهنج هذا هو مهلائيل، وأن أباه أفروال هو قينان، وأن سيامك هو أنوش أبو قينان، وأن ميشى هو شيث أبو أنوش، وأن جيومرث هو آدم. فإن كان الأمر كما زعم فلا شك أن أوشهنج كان في زمن آدم رجلاً، وذلك لأن مهلائيل فيما ذكر في الكتب الأولى كانت ولادة أمه دينه ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم وأتاه بعدما

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٩٦).

(٢) في المصدر الآتي عبادة الخلق.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٩٦) عن ابن إسحاق بدون سند.

مضى من عمر آدم ثلاثمائة سنة وخمس وتسعون سنة، وقد كان له حين وفاة أبيه آدم ستمائة سنة وخمس وستون سنة، على حساب أن عمر آدم كان ألف سنة، وقد زعمت الفرس أن ملك أوشهنج كان أربعين سنة، فإن كان الأمر على ما ذكره النسابة الذي ذكرت عنه ما ذكرت فما يبعد من قال: أن ملكه كان بعد وفاة آدم بمائتي سنة.

ذكر وفاة آدم عليه السلام[١]

ذكر أن آدم مرض أحد عشر يومًا وأوصى إلى ابنه شيث وأمره أن يخفي علمه عن قابيل وولده لأنه قتل هابيل حسدًا منه له حين خصه آدم بالعلم، فأخفى شيث وولده ما عندهم من العلم، ولم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله تعالى لآدم حين خلقه: ائت أولئك النفر من الملائكة فقل السلام عليكم**»، فأتاهم فسلم عليهم، وقالوا له: «عليك السلام ورحمة الله»، ثم رجع إلى ربه فقال له: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم. ثم قبض له يديه فقال له خذ واختر. فقال: أحببت يمين ربي وكلتا يديه يمين، ففتحها له فإذا فيها صورة آدم وذريته كلهم، وإذا كل رجل منهم مكتوب عنده أجله، وإذا آدم قد كتب له عمر ألف سنة، وإذا قوم عليهم النور.

فقال: يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور؟ فقال: هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إلى عبادي، وإذا فيهم رجل هو من أضوئهم نورًا ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة. فقال آدم: يا رب هذا من أضوئهم ولم تكتب له إلا أربعين سنة، بعد أن أعلمه أنه داود، عليه السلام فقال: ذلك ما كتبت له. فقال: يا رب انقص له من عمري ستين سنة. فقال رسول الله، ﷺ: «**فلما أهبط إلى الأرض كان يعد أيامه، فلما أتاه ملك الموت لقبضه قال له آدم: عجلت يا ملك الموت! قد بقي من عمري ستون سنة. فقال له ملك الموت: ما بقي شيء، سألت ربك أن يكتبه لابنك داود. فقال: ما فعلت! فقال النبي ﷺ: فنسي آدم فنسيت ذريته وجحد فجحدت ذريته فحينئذ وضع الله الكتاب وأمر بالشهود**»[٢].

وروي عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله، ﷺ: «**إن أول**

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٩٨) وهو عند الترمذي (٣٠٩٦) بنحوه وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٠٨).

من جحد آدم ثلاث مرار، وإن الله لما خلقه مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذرائي إلى يوم القيامة فجعل يعرضهم على آدم فرأى منهم رجلاً يزهر، قال: أي رب أي بني هذا؟ قال: ابنك داود. قال: كم عمره؟ قال: ستون سنة. قال: زده من العمر. قال الله تعالى: لا، إلا أن تزيده أنت. وكان عمر آدم ألف سنة، فوهب له أربعين سنة، فكتب عليه بذلك كتابًا وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم أتته الملائكة لتقبض روحه فقال: قد بقي من عمري أربعون سنة. قالوا: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت ولا وهبت له شيئًا. فأنزل الله عليه الكتاب وأقام الملائكة شهودًا. فأكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة»[١].

وروي مثل هذا عن جماعة، منهم سعيد بن جبير، وقال ابن عباس: كان عمر آدم تسعمائة سنة وستًّا وثلاثين سنة[٢]، وأهل التوراة يزعمون أن عمر آدم تسعمائة سنة وثلاثون سنة، والأخبار عن رسول الله والعلماء ما ذكرنا ورسول الله ﷺ أعلم الخلق[٣]، وعلى رواية أبي هريرة التي فيها أن آدم وهب داود من عمره ستين سنة لم يكن كثير اختلاف بين الحديثين وما في التوراة من أن عمره كان تسعمائة وثلاثين سنة، فلعل الله ذكر عمره في التوراة سوى ما وهبه لداود. قال ابن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه قال: بلغني أن آدم حين مات بعث الله بكفنه وحنوطه[٤] من الجنة ثم وليت الملائكة قبره ودفنه حتى غيبوه[٥]. وروى أبي بن كعب عن النبي ﷺ: **«أن آدم حين حضرته الوفاة بعث الله إليه بحنوطه وكفنه من الجنة، فلما رأت حواء الملائكة ذهبت لتدخل دونهم، فقال: خلي عني وعن رسل ربي، فما لقيت ما لقيت إلا منك، ولا أصابني ما أصابني إلا فيك. فلما قبض غسلوه بالسدر والماء**

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٨) والطبري في «تاريخه» (١/ ٩٨، ٩٩) والطبراني في «الكبير» (١٢٩٢٨) من طريق على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس به وهذا سند ضعيف، يوسف بن مهران قال الحافظ في «التقريب» (٧٨٨٦): لين الحديث. وعلى ابن زيد ضعيف أيضًا كما في «التقريب» (٤٧٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٠٠) بسند ضعيف جدًّا، فيه هشام ابن الكلبي عن أبيه، وكلاهما متروك، عن أبي صالح وهو ضعيف.

(٣) والكلام للطبري في المصدر السابق.

(٤) الحنوط: هو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسادهم.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٠٠) وهو مرسل، وشيخ الطبري ابن حميد الرازي متهم بالكذب.

وتراً وكفنوه في وتر من الثياب ثم لحدوا له ودفنوه، ثم قالوا: هذه سنة ولد آدم من بعده»[١].

قال ابن عباس: لما مات آدم قال شيث لجبريل: صل عليه. فقال: تقدم أنت فصل على أبيك. فكبر عليه ثلاثين تكبيرة، فأما خمس فهي الصلاة، وأما خمس وعشرون فتفضيلاً لآدم[٢]. وقيل: دفن في غار في جبل أبي قبيس يقال له غار الكبر. وقال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة دفن آدم ببيت المقدس. وكانت وفاته يوم الجمعة[٣]، كما تقدم، وذكر أن حواء عاشت بعده سنة ثم ماتت فدفنت مع زوجها في الغار الذي ذكرت إلى وقت الطوفان، واستخرجهما نوح وجعلهما في تابوت ثم حملهما معه في السفينة، فلما غاضت بالأرض الماء ردهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبل الطوفان، قال: وكانت حواء فيما ذكر قد غزلت ونسجت وعجنت وخبزت وعملت أعمال النساء كلها[٤].

وإذ قد فرغنا من ذكر آدم وعدوه إبليس وذكر أخبارهما وما صنع الله بعدوه إبليس حين تجبر وتكبر من تعجل العقوبة وطغى وبغى من الطرد والإبعاد والنظرة إلى يوم الدين، وما صنع بآدم إذ أخطأ ونسي من تعجيل العقوبة له ثم تغمده الله بالرحمة إذ تاب من زلته، فأرجع إلى ذكر قابيل وشيث ابني آدم وأولادهما، إن شاء الله.



(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٠١) وفي إسناده ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.
(٢) أخرجه الطبري في المصدر السابق بسند ضعيف جداً.
(٣) المصدر السابق بسند ضعيف جداً.
(٤) المصدر السابق وسنده ضعيف جداً أيضاً.

ذكر شيث بن آدم، عليه السلام[1]

قد ذكرنا بعض أمره وأنه كان وصي آدم في مخلفيه بعد مضيه لسبيله. وما أنزل الله عليه من الصحف، وقيل: إنه لم يزل مقيمًا بمكة يحج ويعتمر إلى أن مات، وإنه كان جمع ما أنزل عليه وعلى أبيه آدم من الصحف وعمل بما فيها، وأنه بنى الكعبة بالحجارة والطين.

وأما السلف من علمائنا فإنهم قالوا: لم تزل القبة التي جعل الله لآدم مكان البيت إلى أيام الطوفان فرفعها الله حين أرسل الطوفان. وقيل: إن شيئًا لما مرض أوصى إلى ابنه أنوش ومات فدفن مع أبويه بغار أبي قبيس، وكان مولده لمضي مائتي سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم، وقيل غير ذلك، وقد تقدم، وكانت وفاته وقد أتت عليه تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة.

وقام أنوش بن شيث بعد موت أبيه بسياسة الملك وتدبير من تحت يديه من رعيته مقام أبيه لا يوقف منه على تغيير ولا تبديل، فكان جميع عمر أنواش سبعمائة وخمس سنين، وكان مولده بعد أن مضى من عمر أبيه شيث ستمائة سنة وخمس سنين، وهذا قول أهل التوراة.

وقال ابن عباس: ولد لشيث أنوش وولد معه نفر كثير، وإليه أوصى شيث، ثم ولد لأنوش بن شيث ابنه قينان من أخته نعمة بنت شيث بعد مضي تسعين سنة من عمر أنوش وولد معه نفر كثير، وإليه الوصية، وولد قينان: مهلائيل ونفرًا كثيرًا وإليه الوصية وولد مهلائيل: يرد، وهو اليارد. ونفرًا معه، وإليه الوصية، فولد يرد خنوخ، وهو إدريس النبي، ونفرًا معه، وإليه الوصية، وولد خنوخ: متوسلخ ونفرًا معه، وإليه الوصية[2].

وأما التوراة ففيها أن مهلائيل ولد بعد أن مضى من عمر آدم عليه السلام ثلاثمائة وخمس وتسعون سنة، ومن عمر قينان سبعون، وولد يرد لمهلائيل بعدما

---

(١) «تاريخ الطبري» (١٠٢/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١٠٢/١، ١٠٣) بسند ضعيف جداً.

مضى من عمر آدم أربعمائة سنة وستون سنة، فكان على منهاج أبيه، غير أن الأحداث بدأت في زمانه.

ذكر الأحداث التي كانت من لدن ملك شيث إلى أن ملك يرد [(١)]

ذكر أن قابيل لما قتل هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن أتاه إبليس فقال له: إن هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها.

وقال ابن إسحاق[(٢)]: إن قينًا، وهو قابيل نكح أخته أشوث بنت آدم فولدت له رجلاً وامرأة: خنوخ بن قين وعذب بنت قين، فنكح خنوخ أخته عذب فولدت ثلاثة بنين وامرأة: غيرد ومحويل وأنوشيل ومويليث ابنة خنوخ، فنكح أنوشيل بن خنوخ أخته موليث وولدت له رجلاً اسمه لامك، فنكح لامك امرأتين اسم إحداهما عدى والأخرى صلى، فولدت عدى بولس بن لامك، فكان أول من سكن القباب واقتنى المال، وتوبلين فكان أول من ضرب بالونج والصنج[(٣)]، وولدت رجلاً اسمه توبلقين، وكان أول من عمل النحاس والحديد، وكان أولادهم فراعنة وجبابرة، وكانوا قد أعطوا بسطة في الخلق. قال: ثم انقرض ولد قين ولم يتركوا عقبًا إلا قليلاً، وذرية آدم كلها جهلت أنسابهم وانقطع نسلهم إلا ما كان من شيث، فمنه كان النسل، وأنساب الناس اليوم كلهم إليه دون أولاد أبيه آدم، ولم يذكر ابن إسحاق من أمر قابيل وولده إلا ما حكيت.

وقال غيره من أهل التوراة: إن أول من اتخذ الملاهي من ولد قابيل رجل يقال له: ثوبال بن قابيل، اتخذها في زمان مهلائيل بن قينان، اتخذ المزامير والطنابير والطبول والعيدان والمعازف، فانهمك ولد قابيل في اللهو. وتناهى خبرهم إلى من بالجبل من ولد شيث، فهم منهم مائة رجل بالنزول إليهم وبمخالفة ما أوصاهم به آباؤهم، وبلغ ذلك يارد فوعظهم ونهاهم فلم يقبلوا، ونزلوا إلى ولد قابيل فأعجبوا بما رأوا منهم، فلما أرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك لدعوة سبقت من آبائهم

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٠٤).

(٢) تاريخ الطبري في المصدر السابق.

(٣) الونج: العود وقيل: هو ضرب من الصنج ذو الأوتار.
الصنج: من آلات المعازف التي تكون في الدفوف.

فلما أبطأوا ظن من بالجبل ممن كان في نفسه زيغ أنهم أقاموا اغتباطًا، فتسللوا ينزلون من الجبل ورأوا اللهو فأعجبهم ووافقوا نساء من ولد قابيل مشترعات إليهم وصرن معهم وانهمكوا في الطغيان وفشت الفحشاء وشرب الخمر فيهم. وهذا القول غير بعيد من الحق[١]، وذلك أنه قد روي عن جماعة من سلف علمائنا المسلمين نحو منه، وإن لم يكونوا بينوا زمان من حدث ذلك في ملكه، إلا أنهم ذكروا أن ذلك كان فيما بين آدم ونوح: منهم ابن عباس أو مثله[٢]. ومثله روى الحكم بن عتيبة عن أبيه مع اختلاف قريب من القولين، والله أعلم.

وأما نسابو الفرس فقد ذكرت ما قالوا في مهلائيل بن قينان وأنه هو أوشهنج الذي ملك الأقاليم السبعة، وبينت قول من خالفهم. وقال هشام بن الكلبي[٣]: إنه أول من بنى البناء واستخرج المعادن وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد، وبنى مدينتين كانتا أول ما بني على ظهر الأرض من المدائن، وهما مدينة «بابل»، وهي بالعراق، ومدينة «السوس» ـ بخوزستان ـ، وكان ملكه أربعين سنة.

وقال غيره: هو أول من استنبط الحديد وعمل منه الأدوات للصناعات وقدر المياه في مواقع المنافع وحض الناس على الزراعة واعتماد الأعمال، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش، وبذبح البقر والغنم والوحش وأكل لحومها، وأنه بنى مدينة «الري»، قالوا: وهي أول مدينة بنيت بعد مدينة جيومرث التي كان يسكنها بدنباوند. وقالوا: إنه أول من وضع الأحكام والحدود. وكان ملقبًا بذلك يدعى بيشداد، ومعناه بالفارسية أول من حكم بالعدل[٤]، وذلك أن بيش معناه أول وداد معناه عدل وقضاء. وهو أول من استخدم الجواري وأول من قطع الشجر وجعله في البناء، وذكروا أنه نزل الهند وتنقل في البلاد وعقد على رأسه تاجًا، وذكروا أنه قهر إبليس وجنوده ومنعهم الاختلاط بالناس وتوعدهم على ذلك وقتل مردتهم، فهربوا من خوفه إلى المفاوز والجبال، فلما مات عادوا. وقيل: إنه

---

(١) والكلام للطبري في «تاريخه» (١/ ١٠٥).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ١٠٥).

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ١٠٥، ١٠٦).

(٤) قلت هذا الكلام على إطلاقه لا يصح لأنه من المعلوم أن آدم عليه السلام كان نبيًّا ويحكم بالعدل فلا يصح أن يطلق على من بعده هذا القول.

سمى شرار الناس شياطين واستخدمهم، وملك الأقاليم كلها. وأنه كان بين مولد أوشهنج وموت جيومرث مائتا سنة وثلاث وعشرون سنة.

ذكر يرد[١]

وقيل يارذ بن مهلائيل أمه خالته سمعن ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين ابن آدم، ولد بعدما مضى من عمر آدم أربعمائة سنة وستون سنة.

وفي أيامه عملت الأصنام وعاد من عاد عن الإسلام. ثم نكح يرد، في قول ابن إسحاق، وهو ابن مائة واثنين وستين سنة، بركتا ابنة الدرمسيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم.

فولدت له خنوخ، وهو إدريس النبي، فكان أول بني آدم أعطي النبوة وخط بالقلم، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب. وحكماء اليونانيين يسمونه هرمس الحكيم، وهو عظيم عندهم، فعاش يرد بعد مولد إدريس ثمانمائة سنة، وولد له بنون وبنات، فكان عمره تسعمائة سنة واثنتين وستين سنة. وقيل[٢]: أنزل على إدريس ثلاثون صحيفة، وهو أول من جاهد في سبيل الله وقطع الثياب وخاطها، وأول من سبى من ولد قابيل بن آدم فاسترق منهم، وكان وصي والده يرد فيما كان آباؤه وصوا به إليه وفيما أوصى بعضهم بعضًا، وتوفي آدم بعد أن مضى من عمر إدريس ثلاثمائة وثماني سنين. ودعا إدريس قومه ووعظهم وأمرهم بطاعة الله تعالى ومعصية الشيطان وأن لا يلابسوا ولد قابيل، فلم يقبلوا منه.

قال[٣]: وفي التوراة أن الله رفع إدريس بعد ثلاثمائة سنة وخمس وستين سنة من عمره، وبعد أن مضى من عمر أبيه خمسمائة سنة وسبع وعشرون سنة، فعاش أبوه بعد ارتفاعه أربعمائة وخمسًا وثلاثين سنة تمام تسعمائة واثنتين وستين سنة. قال النبي ﷺ: **«يا أبا ذر من الرسل أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ، وهو أول من خط بالقلم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة»**[٤]. وقيل: إن الله أرسله إلى

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/١٠٦).

(٢) القول لأهل الكتاب كما في المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١/١٠٧).

(٤) أخرجه الطبري في المصدر السابق وقد تقدم طرفه.

جميع أهل الأرض في زمانه، وجمع له علم الماضين وزاده ثلاثين صحيفة. وقال بعضهم: ملك بيوراسب في عهد إدريس، وكان قد وقع عليه من كلام آدم، فاتخذه سحراً، وكان بيوراسب يعمل به.

وخنوخ[1]: بخاء مهملة مفتوحة ونون بعدها واو وخاء معجمة وقيل بخاءين معجمتين.

ذكر ملك طهمورث[2]

زعمت الفرس أنه ملك بعد موت أوشهنج طمهورث بن ويونجهان (يعني خير أهل الأرض) ابن حبايداد بن أوشهنج، وقيل في نسبه غير ذلك، وزعم الفرس أيضًا أنه ملك الأقاليم السبعة وعقد على رأسه تاجًا، وكان محموداً في ملكه مشفقًا على رعيته، وأنه ابتنى «سابور» من فارس ونزلها وتنقل في البلدان، وأنه وثب بإبليس حتى ركبه فطاف عليه في أداني الأرض وأقاصيها، وأفزعه ومردته حتى تفرقوا، وكان أول من اتخذ الصوف والشعر للبس والفرش وأول من اتخذ زينة الملوك من الخيل والبغال والحمير، وأمر باتخاذ الكلاب لحفظ المواشي وغيرها، وأخذ الجوارح للصيد، وكتب بالفارسية.

وأن بيوراسب ظهر في أول سنة من ملكه ودعا إلى ملة الصابئين.

كذا قال أبو جعفر[3] وغيره من العلماء: أنه ركب إبليس وطاف عليه، والعهدة عليهم، وإنما نحن نقلنا ما قالوه.

قال ابن الكلبي: أول ملوك الأرض من بابل طهمورث، وكان لله مطيعًا، وكان ملكه أربعين سنة، وهو أول من كتب بالفارسية، وفي أيامه عبدت الأصنام، وأول ما عرف الصوم في ملكه. وسببه أن قومًا فقراء تعذر عليهم القوت فأمسكوا نهارًا وأكلوا ليلاً ما يمسك رمقهم، ثم اعتقدوه تقربًا إلى الله وجاءت الشرائع به.

---

(١) وفي المصدر السابق: أخنوخ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١/١٠٨).

ذكر خنوخ وهو إدريس، عليه السلام[(١)]

ثم نكح خنوخ بن يرد هدانة، وتقال اذانة، ابنة باويل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم، وهو ابن خمس وستين سنة، فولدت له متوشلخ بن خنوخ، فعاش بعدما ولد متوشلخ ثلاثمائة سنة، ثم رفع[(٢)] واستخلفه خنوخ على أمر ولده وأمر الله وأوصاه وأهل بيته قبل أن يرفع وأعلمهم أن الله سوف يعذب ولد قابيل ومن خالطهم، ونهاهم عن مخالطتهم، وإنه كان أول من ركب الخيل لأنه سلك رسم أبيه خنوخ في الجهاد.

ثم نكح متوشلخ عربا ابنة عزازيل بن أنوشيل بن خنوخ بن قين، وهو ابن مائة سنة وسبع وثلاثين سنة، فولدت له لمك بن متوشلخ، فعاش بعدما ولد له لمك سبعمائة سنة، وولد له بنون وبنات، فكان كل ما عاش متوشلخ تسعمائة سنة وسبعًا وعشرين سنة ثم مات وأوصى إلى ابنه لمك فكان لمك يعظ قومه وينهاهم عن مخالطة ولد قابيل، فلم يقبلوا حتى نزل إليهم جميع من كان معهم في الجبل.

وقيل: كان لمتوشلخ ابن آخر غير لمك يقال له صابيء، وبه سمي الصابئون.

ونكح لمك بن متوشلخ فينوش ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين، وهو ابن مائة سنة وسبع وثمانين سنة، فولدت له نوح بن لمك، وهو النبي، فعاش لمك بعد مولد نوح خمسمائة سنة وخمسًا وتسعين سنة وولد له بنون وبنات ثم مات. ونكح نوح بن لمك عزرة بنت براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين، وهو ابن خمسمائة سنة، فولدت له ولده سامًا وحامًا ويافث بني نوح.

وكان مولد نوح بعد موت آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، ولما أدرك قال له

---

(١) المصدر السابق، و«البداية» (١/ ١١٥).

(٢) روى عن بعض السلف في تفسير قوله تعالى ﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾ الآية (٥٧) من سورة مريم أن إدريس عليه السلام رفع ولم يمت وهذا القول ضعفه المحققون من أهل العلم كالحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ١١٦) والحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٧٥) وقال: أنه لم يثبت من طريق مرفوعة قوية.

أبوه لمك: قد علمت أنه لم يبق في هذا الجبل غيرنا فلا تستوحش ولا تتبع الأمة الخاطئة. وكان نوح يدعو قومه ويعظهم فيستخفون به. وقيل: كان نوح في عهد بيوراسب وكانوا قومه فدعاهم إلى الله تسعمائة وخمسين سنة كلما مضى قرن اتبعهم قرن على ملة واحدة من الكفر حتى أنزل الله عليهم العذاب.

وقال ابن عباس فيما رواه ابن الكلبي عن أبي صالح عنه: فولد لمك نوحًا، وكان له يوم ولد نوح اثنتان وثمانون سنة، ولم يكن في ذلك الزمان أحد ينهى عن منكر، فبعث الله إليهم نوحًا وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعاهم مائة وعشرين سنة ثم أمره الله بصنعة الفلك فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سنة وغرق من غرق ثم مكث من بعد السفينة ثلاثمائة سنة وخمسين سنة[١].

وروي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق[٢]، وأن الكفر بالله حدث في القرن الذي بعث إليهم فيه نوح، فأرسله الله، وهو أول نبي بعث بالإنذار والدعاء إلى التوحيد، وهو قول ابن عباس وقتادة.

ذكر ملك جمشيد[٣]

وأما علماء الفرس فإنهم قالوا: ملك بعد طهمورث جمشيد، و«الشيد» عندهم الشعاع، و«جم» القمر، لقبوه بذلك لجماله، وهو جم بن ويونجهان، وهو أخو طهمورث، وقيل: إنه ملك الأقاليم السبعة وسخر له ما فيها من الجن والإنس، وعقد التاج على رأسه، وأمر لسنة مضت من ملكه إلى خمسين سنة بعمل السيوف والدروع وسائر الأسلحة وآلة الصناع من الحديد، ومن سنة خمسين من ملكه إلى سنة مائة بعمل الإبريسم وغزله والقطن والكتان وكل ما يستطاع غزله وحياكته ذلك وصبغه ألوانًا ولبسه، ومن سنة مائة إلى سنة خمسين ومائة صنف الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة فقهاء، وطبقة كتاب وصناع، وطبقة حراثين، واتخذ منهم خدمًا، ووضع لكل أمر خاتمًا مخصوصًا به، فكتب على خاتم الحرب: الرفق والمداراة، وعلى خاتم الخراج: العمارة والعدل، وعلى خاتم البريد والرسل:

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٠٩) وسنده ضعيف جداً.
(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١١١) بسند صحيح.
(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ١٠٩).

الصدق والأمانة، وعلى خاتم المظالم: السياسة والانتصاف، وبقيت رسوم تلك الخواتيم حتى محاها الإسلام.

ومن سنة مائة وخمسين إلى سنة خمسين ومائتين حارب الشياطين وأذلهم وقهرهم وسخروا له، ومن سنة خمسين ومائتين إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة وكل الشياطين بقطع الأحجار والصخور من الجبال وعمل الرخام والجص والكلس والبناء بذلك الحمامات والنقل من البحار والجبال والمعادن والذهب والفضة وسائر ما يذاب من الجواهر وأنواع الطيب والأدوية، فنفذوا في ذلك بأمره.

ثم أمر فصنعت له عجلة من الزجاج، فأصفد[١] فيها الشياطين وركبها وأقبل عليها في الهواء من دنباوند[٢] إلى بابل في يوم واحد، وهو يوم هرمزروز وافروردين ماء، فاتخذ الناس ذلك اليوم عيداً وخمسة أيام بعده.

وكتب إلى الناس في اليوم السادس يخبرهم أنه قد سار فيهم بسيرة ارتضاها الله، فكان من جزائه إياه عليها أنه قد جنبهم الحر والبرد والأسقام والهرم والحسد، فمكث الناس ثلاثمائة سنة بعد الثلاثمائة والست عشرة سنة لا يصيبهم شيء مما ذكره، ثم بنى قنطرة على دجلة فبقيت دهراً طويلاً حتى خربها الإسكندر، وأراد الملوك عمل مثلها فعجزوا فعدلوا إلى عمل الجسور من الخشب. ثم إن جماً بطر نعمة الله عليه وجمع الإنس والجن والشياطين وأخبرهم أنه وليهم ومانعهم بقوته من الأسقام والهرم والموت، وتمادى في غيه، فلم يحر أحد منهم جواباً، وفقد مكانه بهاءه وعزه وتخلت عنه الملائكة الذين كان الله أمرهم بسياسة أمره فأحسن بذلك بيوراسب الذي تسمى الضحاك فابتدر إلى جم لينتهسه، فهرب منه، ثم ظفر به بعد ذلك بيوراسب فاستطرد أمعاءه وأشره بمئشار[٣]. وقيل: أنه ادعى الربوبية فوثب عليه أخوه ليقتله ـ واسمه أسفنور ـ فتوارى عنه مائة سنة، فخرج عليه في تواريه بيوراسب فغلبه على ملكه. وقيل: كان ملكه سبعمائة سنة وست عشرة سنة وأربعة أشهر.

قلت: وهذا الفصل من حديث جم قد أتينا به تاماً بعد أن كنا عازمين على تركه لما فيه من الأشياء التي تمجها الأسماع وتأباها العقول والطباع، فإنها من

(١) صفد: شد وأوثق.
(٢) ونباوند: جبل من نواحي الري «معجم البلدان» (٢/ ٤٧٥).
(٣) أشره بمئشار: أي شقه بمنشار.

خرافات الفرس مع أشياء أخر قد تقدمت قبلها، وإنما ذكرناها ليعلم جهل الفرس، فإنهم كثيراً ما يشنعون على العرب بجهلهم وما بلغوا هذا ولأنا لو كنا تركنا هذا الفصل لخلا من شيء نذكره من أخبارهم.

ذكر الأحداث التي كانت في زمن نوح عليه السلام[١]

قد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح، فمنهم من قال: إنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله تعالى من ركوب الفواحش والكفر وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله. ومنهم من قال: إنهم كانوا أهل طاعة. وبيوراسب أول من أظهر القول بمذهب الصابئين وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح، وسنذكر أخبار بيوراسب فيما بعد.

وأما كتاب الله، قال: فينطق بأنهم أهل أوثان، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[٢].

قلت: لا تناقض بين هذه الأقاويل الثلاثة، فإن القول الحق الذي لا يشك فيه هو أنهم كانوا أهل أوثان يعبدونها، كما نطق به القرآن، وهو مذهب طائفة من الصابئين، فإن أصل مذهب الصابئين عبادة الروحانيين، وهم الملائكة لتقربهم إلى الله تعالى زلفى، فإنهم اعترفوا بصانع العالم وأنه حكيم قادر مقدس، إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلاله وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة لديه، وهم الروحانيون، وحيث لم يعاينوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهياكل، وهي الكواكب السبعة السيارة لأنها مدبرة لهذا العالم عندهم، ثم ذهبت طائفة منهم، وهم أصحاب الأشخاص، حيث رأوا أن الهياكل تطلع وتغرب وترى ليلاً ولا ترى نهاراً، إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين، والروحانيون إلى صانع العالم.

فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً، وقد كان أخيراً في العرب من هو على هذا الاعتقاد قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٣] فقد حصل من عبادة

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١١٢).
(٢) سورة نوح الآية (٢٣، ٢٤).
(٣) سورة الزمر الآية (٣).

الأصنام مذهب الصابئين والكفر والفواحش وغير ذلك من المعاصي؛ فلما تمادى قوم نوح على كفرهم وعصيانهم بعث الله إليهم نوحًا يحذرهم بأسه ونقمته ويدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى الحق والعمل بما أمر الله تعالى، وأرسل نوح، وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وقال عون بن شداد[١]: إن الله تعالى أرسل نوحًا وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة[٢]، وقيل غير ذلك، وقد تقدم. قال ابن إسحاق وغيره: إن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون! حتى إذا تمادوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة وتطاول عليه وعليهم الشأن اشتد عليه البلاء وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إن كان الآخر ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنونًا لا يقبلون منه شيئًا، وكان يضرب ويلف ويلقى في بيته، يرون أنه قد مات، فإذا أفاق اغتسل وخرج إليهم يدعوهم إلى الله، فلما طال ذلك عليه ورأى الأولاد شرًا من الآباء قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن تك لك فيهم حاجة فاهدهم، وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم فيهم. فأوحى إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[٣] فلما يئس من إيمانهم دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٤]، إلى آخر القصة.

فلما شكا إلى الله واستنصره عليهم، أوحى الله إليه: **﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾**[٥].

فأقبل نوح على عمل الفلك ولها عن دعاء قومه وجعل يهيء عتاد الفلك من الخشب والحديد والقار وغيرها مما لا يصلحه سواه، وجعل قومه يمرون به وهو في عمله فيسخرون منه، فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٦]. قال: ويقولون: يا نوح قد صرت نجارًا بعد النبوة!.

---

(١) كذا في المطبوعة وفي المصدر الآتي: عون بن أبي شداد. وهو الصواب.
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ١١٢).
(٣) سورة هود الآية (٣٦).
(٤) سورة نوح الآية (٢٦).
(٥) سورة هود الآية (٣٧).
(٦) سورة هود الآية (٣٨).

وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم، وصنع الفلك من خشب الساج وأمره أن يجعل طوله ثمانين ذراعًا وعرضه خمسين ذراعًا وطوله في السماء ثلاثين ذراعًا. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثين ذراعًا. وقال الحسن: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، والله أعلم.

وأمر نوحًا أن يجعله ثلاث طبقات: سفلى ووسطى وعليا، ففعل نوح كما أمره الله تعالى حتى إذا فرغ منه وقد عهد الله إليه: ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1]، وقد جعل التنور آية فيما بينه وبينه. فلما فار التنور وكان ـ فيما قيل ـ من حجارة كان لحواء. وقال ابن عباس: كان ذلك تنورًا من أرض الهند. وقال مجاهد والشعبي: كان التنور بأرض الكوفة، وأخبرته زوجته بفوران الماء في التنور وأمر الله جبريل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة وكانت من ياقوت الجنة، كما ذكرناه، وخبأ الحجر الأسود بجبل أبي قبيس، فبقي فيه إلى أن بنى إبراهيم البيت فأخذه فجعله موضعه، ولما فار التنور حمل نوح من أمر الله بحمله، وهمّ أولاده الثلاثة: سام وحام ويافث ونساءهم وستة أناسي، فكانوا مع نوح ثلاث عشرة.

وقال ابن عباس: كان في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم جرهم، كلهم بنو شيث، وقال قتادة: كانوا ثمانية أنفس: نوح وامرأته وثلاثة بنوه ونساؤهم[2]. وقال الأعمش: كانوا سبعة، ولم يذكر فيهم زوج نوح. وحمل معه جسد آدم ثم أدخل ما أمر الله به من الدواب، وتخلف عنه ابنه يام، وكان كافرًا، وكان آخر من دخل السفينة الحمار، فلما دخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم ترتفع رجلاه، فجعل نوح يأمره بالدخول فلا يستطيع حتى قال: ادخل وإن كان الشيطان معك. فقال كلمة زلت على لسانه، فلما قالها دخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك يا عدو الله؟ فقال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك؟ فتركه.

ولما أمر نوح بإدخال الحيوان السفينة قال: أي رب كيف أصنع بالأسد والبقرة؟

---

(١) سورة هود الآية (٤٠).

(٢) قلت ظاهر الأثر أن امرأة نوح نجت على السفينة وهذا خلاف ظاهر القرآن أنها كانت كافرة ولم ينج من الطوفان سوى المؤمنين.

كيف أصنع بالعناق والذئب؟ والطير والهر؟ قال: الذي ألقى بينها العداوة هو يؤلف بينها. فألقى الحمى على الأسد وشغله بنفسه، ولذلك قيل:

ألا إنما الحمى على الأسد الورد ... وما الكلب محموماً وإن طال عمره

وجعل نوح الطير في الطبق الأسفل من السفينة، وجعل الوحش في الطبق الأوسط، وركب هو ومن معه من بني آدم في الطبق الأعلى. فلما اطمأن نوح في الفلك وأدخل فيه كل من أمر به، وكان ذلك بعد ستمائة سنة من عمره في قول بعضهم، وفي قول بعضهم ما ذكرناه، وحمل معه من حمل، جاء الماء كما قال الله تعالى: ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**﴾[1]. فكان بين أن أرسل الماء وبين أن يحتمل الماء الفلك أربعون يوماً وأربعون ليلة، وكثر واشتد وارتفع وطمى، وغطى نوح عليه وعلى من معه طبق السفينة، وجعلت الفلك تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه الذي هلك، وكان في معزل: ﴿**يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين**﴾ وكان كافراً، ﴿**قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء**﴾، وكان عهد الجبال وهي حرز وملجأ. فقال نوح ﴿**لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾[2].

وعلا الماء على رؤوس الجبال، فكان على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً، فهلك ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلم يبق إلا نوح ومن معه والأعوج بن عنق[3] ـ فيما زعم أهل التوراة ـ وكان بين إرسال الماء وبين أن غاض ستة أشهر وعشر ليال. قال ابن عباس: أرسل الله المطر أربعين يوماً، فأقبلت الوحش حين أصابها المطر والطين إلى نوح وسخرت له، فحمل منها كما أمره الله، فركبوا فيها لعشر ليال مضين من رجب، وكان ذلك لثلاث عشرة خلت من آب،

---

(١) سورة القمر (١١، ١٢).

(٢) سورة هود (٤٢، ٤٣).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ١٣١) زعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ويقال ابن عناق كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً ويقولون كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحر ويشويه في عين الشمس، ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراع وثلث إلى غير ذلك من الهزائيات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكاتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول: .... إلى آخر كلامه.

وخرجوا منها يوم عاشوراء من المحـرم، فلذلك صام من صام يوم عاشوراء. وكان الماء نصفين: نصف من السماء ونصف مـن الأرض، وطافت السفينة بالأرض كلها لا تستقر حتى أتت الحـرم فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعًا ثم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتـهت إلى الجودي، وهو جبل بقردى[1] بأرض الموصل، فاستقرت عليه، فقيل عند ذلك: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، ولما استقرت قيل: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾[3]، نشفتـه الأرض، وأقام نوح في الفلك إلى أن غاض الماء، فلما خرج منها اتخذ بناحـية من قردى من أرض الجزيرة موضعًا وابتنى قرية سـموها ثمانين، وهي الآن تسمى شـوق الثمانين لأن كل واحد ممن مـعه بنى لنفسـه بيتًا، وكـانوا ثمانين رجـلاً. قال بعض أهل التوراة: لم يـولد لنوح إلا بعد الطوفان، وقيل: إن سامًا ولد قبل الطوفان بثمان وتسعين سنة، وقيل: إن اسم ولده الذي أغرق كان كنعان وهو يام.

وأما المجـوس فإنهم لا يعرفون الطوفـان ويقولون: لم يزل الملك فينا من عـهد جيومرث، وهو آدم، قالوا: ولو كان كذلك لكان نسب القوم قد انقطع وملكهم قد اضمحل، وكان بعضهم يقـر بالطوفان ويزعم أنه كان في إقليم بابل وما قرب منه، وأن مساكن ولد جيومرث كانت بالمشرق فلم يصل ذلك إليهم.

وقول الله تعـالى أصدق في أن ذرية نوح هم البـاقون فلم يعقب أحـد ممن كان معه في السفينة غير ولده سام وحام ويافث. و لما حضرت نوحًا الوفاة قيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وأوصى إلى ابنه سام وكان أكبر ولده.

ذكر بيوراسب وهو الازدهاق الذي يسميه العرب الضحاك[4]

وأهل اليمن يدعون أن الضحاك منهـم، وأنه أول الفراعنة، وكان ملك مصر لما قدمـها إبراهيم الخـليل، والفرس تذكـر أنه منهم وتنسبـه إليهم وأنه بيـوراسب بن أرونداسب بن رينكار بن وندريشتـك بن يارين بن أفروال بن سيامك بن مـيشى بن

(١) في المصدر الآتي وهو جبل بالحضيض.

(٢) سورة هود (٤٤).

(٣) سورة هود (٤٤).

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ١٢١).

جيومرث، ومنهم من ينسبه غير هذه النسبة، وزعم أهل الأخبار أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه كان ساحراً فاجراً.

قال هشام بن الكلبي: ملك الضحاك بعد جم فيما يزعمون، والله أعلم، ألف سنة، ونزل السواد في قرية يقال لها «برس» في ناحية طريق الكوفة، وملك الأرض كلها، وسار بالفجور والعسف، وبسط يده في القتل، وكان أول من سن الصلب والقطع، وأول من وضع العشور وضرب الدراهم، وأول من تغنى وغني له. قال: وبلغنا أن الضحاك هو نمروذ، وأن إبراهيم عليه السلام ولد في زمانه، وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه.

وتزعم الفرس أن الملك لم يكن إلا للبطن الذي منه أوشهنج وجم وطهمورث، وأن الضحاك كان غاصبًا، وأنه غصب أهل الأرض بسحره وخبثه وهول عليهم بالحيتين اللتين كانتا على منكبيه.

وقال كثير من أهل الكتب: إن الذي كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كرأس الثعبان، وكان يسترهما بالثياب، ويذكر على طريق التهويل أنهما حيتان يقتضيانه الطعام، وكانتا تتحركان تحت ثوبه إذا جاعتا، ولقي الناس منه جهداً شديداً، وذبح الصبيان لأن اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضربانه فإذا طلاهما بدماغ إنسان سكنتا، فكان يذبح كل يوم رجلين، فلم يزل الناس كذلك حتى إذا أراد الله هلاكه وثب رجل من العامة من أهل أصبهان يقال له كابي بسبب ابنين له أخذهما أصحاب بيوراسب بسبب اللحمتين اللتين على منكبيه، وأخذ كابي عصًا كانت بيده فعلق بطرفها جرابًا كان معه ثم نصب ذلك كالعلم ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ومحاربته. فأسرع إلى إجابته خلق كثير لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور. فلما غلب كابي تفاءل الناس بذلك العلم فعظموه وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الأكبر الذي يتبركون به وسموه درفش كابيان، فكانوا لا يسيرونه إلا في الأمور الكبار العظام، ولا يرفع إلا لأولاد الملوك إذا وجهوا في الأمور الكبار.

وكان من خبر كابي أنه من أهل أصبهان، فثار بمن اتبعه، فالتفت الخلائق إليه. فلما أشرف على الضحاك قذف في قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن منازله وخلى مكانه. فاجتمع الأعاجم إلى كابي، فأعلمهم أنه لا يتعرض للملك لأنه ليس من أهله، وأمرهم أن يملكوا بعض ولد جم لأنه ابن الملك أوشهنج الأكبر بن أفروال

الذي رسم الملك وسبق في القيام به. وكان أفريدون بن أثفيان مستخفيًا من الضحاك، فوافى كابي ومن معه، فاستبشروا بموافاته فملكوه، وصار كابي والوجوه لأفريدون أعوانًا على أمره. فلما ملك وأحكم ما احتاج إليه من أمر الملك احتوى على منازل الضحاك وسار في أثره فأسره بدنباوند في جبالها.

وبعض المجوس تزعم أنه وكل به قومًا من الجن، وبعضهم يقول: إنه لقي سليمان بن داود، وحبسه سليمان في جبل دنباوند، وكان ذلك الزمان بالشام، فما برح بيوراسب بحبسه يجره حتى حمله إلى خراسان. فلما عرف سليمان ذلك أمر الجن فأوثقوه حتى لا يزول وعملوا عليه طلسمًا كرجلين يدقان باب الغار الذي حبس فيه أبدًا لئلا يخرج، فإنه عندهم لا يموت.

وهذا أيضًا من أكاذيب الفرس الباردة، ولهم فيه أكاذيب أعجب من هذا تركنا ذكرها.

وبعض الفرس يزعم أن أفريدون قتله يوم النيروز، فقال العجم عند قتله: إمر وزنوروز، أي استقبلنا الدهر بيوم جديد، فاتخذوه عيدًا وكان أسره يوم المهرجان، فقال العجم: آمد مهرجان لقتل من كان يذبح. وزعموا أنهم لم يسمعوا في أمور الضحاك بشيء يستحسن غير شيء واحد، وهو أن بليته لما اشتدت ودام جوره وتراسل الوجوه في أمره فأجمعوا على المصير إلى بابه فوافاه الوجوه، فاتفقوا على أن يدخل عليه كابي الأصبهاني، فدخل عليه ولم يسلم، فقال: أيها الملك أي السلام أسلم عليك؟ سلام من يملك الأقاليم كلها أم سلام من يملك هذا الإقليم؟ فقال: بل سلام من يملك الأقاليم لأني ملك الأرض. فقال كابي: إذا كنت تملك الأقاليم كلها فلم خصصتنا بأثقالك وأسبابك من بينهم ولم لا تقسم الأمور بيننا وبينهم؟ وعدد عليه أشياء كثيرة، فصدقه، فعمل كلامه في الضحاك، فأقر بالإساءة وتألف القوم ووعدهم بما يحبون وأمرهم بالانصراف ليعودوا ويقضي حوائجهم ثم ينصرفوا إلى بلادهم

وكانت أمه حاضرة تسمع معاتبتهم، وكانت شرًا منه، فلما خرج القوم دخلت مغتاظة من احتماله وحلمه عنهم فوبخته وقالت له: ألا أهلكتهم وقطعت أيديهم؟ فلما أكثرت عليه قال لها: يا هذه لا تفكري في شيء إلا وقد سبقت إليه، إلا أن القوم بدهوني بالحق وقرعوني به، فكلما هممت بهم تخيل لي الحق بمنزلة الجبل بيني وبينهم فما أمكنني فيهم شيء. ثم جلس لأهل النواحي فوفى لهم بما وعدهم وقضى أكثر حوائجهم.

وقال بعضهم: كان ملكه ستمائة سنة، وكان عمره ألف سنة، وإنه كان في باقي عمره شبيهًا بالملك لقدرته ونفوذ أمره، وقيل: كان ملكه ألف سنة ومائة سنة.

وإنما ذكرنا خبر بيوراسب ههنا لأن بعضهم يزعم أن نوحًا كان في زمانه، وإنما أرسل إليه وإلى أهل مملكته. وقيل إنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق.

ذكر ذرية نوح عليه السلام[1]

قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[2]، إنهم سام وحام ويافث[3].

وقال وهب بن منبه: إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السودان، وإن يافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج. وقيل: إن القبط من ولد قوط بن حام، وإنما كان السواد من نسل حام لأن نوحًا نام فانكشفت سوأته فرآها حام فلم يغطها ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوبًا، فلما استيقظ علم ما صنع حام وإخوته فدعا عليهم.

قال ابن إسحاق: فكانت امرأة سام بن نوح صلب ابنة بتاويل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم فولدت له نفرًا: أرفخشذ وأشوذ ولاوذ وآرم. قال: ولا أدري آرم لأم أرفخشذ وإخوته أم لا.

فمن ولد لاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق، وهو أبو العماليق، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، والفراعنة بمصر، وكان أهل البحرين وعمان منهم ويسمون جاشم. وكان منهم بنو أميم بن لاوذ أهل وبار بأرض الرمل، وهي بين اليمامة والشحر، وكانوا قد كثروا فأصابتهم نقمة من الله من معصية أصابوها فهلكوا وبقيت منهم بقية، وهم الذين يقال لهم النسناس، وكان طسم ساكني اليمامة إلى البحرين، فكانت طسم والعماليق وأميم وجاشم قومًا عربًا لسانهم عربي، ولحقت عبيل بيثرب قبل أن تبنى. ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٢٤).

(٢) سورة الصافات (٧٧).

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٢٣٠) من طريق الحسن عن سمرة مرفوعًا به وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٦٣٣).

تسمى صنعاء. وانحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عبيلاً فنزلوا موضع الجحفة، فأقبل سيل فاجتحفهم، أي أهلكهم، فسميت «الجحفة».

قال: وولد آرم بن سام عوض[1]، وعابر وحويل، فولد عوض: عابر وعاد وعبيل، وولد عابر بن آرم: ثمود وجديسًا، وكانوا عربًا يتكلمون بهذا اللسان المصري[2]. وكانت العرب تقول لهذه الأمم ولجرهم: العرب العاربة. ويقولون لبني إسماعيل: العرب المتعربة لأنهم إنما تكلموا بلسان هذه الأمم حين سكنوا بين أظهرهم. فكانت عاد بهذا الرمل إلى حضرموت. وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ولحقت جديس بطسم وكانوا معهم باليمامة إلى البحرين، واسم اليمامة إذ ذاك جو. وسكنت جاشم عمان. والنبط من ولد نبيط بن ماش بن آرم بن سام.

والفرس بنو فارس بن تيرش بن ماسور بن سام.

قال: وولد لأرفخشذ بن سام ابنه قينان، كان ساحراً، وولد لقينان شالخ بن أرفخشذ من غير ذكر قينان لما ذكره من سحره. وولد لشالخ عابر، ولعابر فالغ، ومعناه القاسم، لأن الأرض قسمت والألسن تبلبلت في أيامه، وقحطان بن عابر، فولد لقحطان يعرب ويقطان، فنزلا اليمن وكان أول من سكن اليمن وأول من سلم عليه بأبيت اللعن. وولد لفالغ بن عابر أرغو، وولد لأرغو ساروغ، وولد لساروغ ناخور، وولد لناخور تارخ، واسمه بالعربية آزر. وولد لآزر إبراهيم عليه السلام. وولد لأرفخشذ أيضًا نمروذ، وقيل هو نمروذ بن كوش بن حام بن نوح.

قال هشام بن الكلبي: السند والهند بنو توقير بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وجرهم من ولد يقطن بن عابر. وحضرموت بن يقطن، ويقطن هو قحطان في قول من نسبه إلى غير إسماعيل.

والبربر من ولد ثميلا بن مارب بن فاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح ما خلا صنهاجة وكتامة، فإنهما بنو فريقش بن صيفي بن سبأ.

وأما يافث فمن ولده جامر وموعع ومورك وبوان وفوبا وماشج وتيرش.

فمن ولد جامر ملوك فارس في قول، ومن ولد تيرش الترك والخزر، ومن ولد

---

(١) في «تاريخ الطبري» (١/١٢٦): عوص

(٢) في المصدر السابق: المضري.

ماشج الأشبان، ومن ولد موعع يأجوج ومأجوج، ومن ولد بوان الصقالبة وبرجان. والأشبان كانوا في القديم بأرض الروم قبل أن يقع بها من وقع من ولد العيص بن إسحاق وغيرهم. وقصد كل فريق من هؤلاء الثلاثة: سام وحام ويافث أرضًا فسكنوها ودفعوا غيرهم عنها. ومن ولد يافث الروم، وهم بنو لنطى بن يونان ابن يافث بن نوح.

وأما حام فولد له كوش ومصرايم وفوط[1] وكنعان، فمن ولد كوش نمروذ بن كوش، وقيل: هو من ولد سام، وصارت بقية ولد حام بالسواحل من النوبة والحبشة والزنج، ويقال: إن مصرايم ولد القبط والبربر، وأما قوط فقيل: إنه سار إلى الهند والسند فنزلها وأهلها من ولده وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها وصار الشام لبني إسرائيل. ثم وثبت الروم على بني إسرائيل فأجلوهم عن الشام إلى العراق إلا قليلاً منهم. ثم جاءت العرب فغلبوا على الشام. وكان يقال لعاد عاد إرم، فلما هلكوا قيل لثمود ثمود إرم.

قال: وزعم أهل التوراة أن أرفخشذ وُلد لسام بعد أن مضى من عُمر سام مائة سنة وسنتان وكان جميع عمر سام ستمائة سنة، ثم وُلد لأرفخشذ قينان بعد أن مضى من عمر أرفخشذ خمس وثلاثون سنة، وكان عمره أربعمائة وثمانيًا وثلاثين سنة. ثم ولد لقينان شالخ بعد أن مضى من عمره تسع وثلاثون سنة، ولم تذكر مدة عمر قينان في الكتب لما ذكرنا من سحره.

ثم ولد لشالخ عابر بعدما مضى من عمره ثلاثون سنة، وكان عمره كله أربعمائة وثلاثًا وثلاثين سنة. ثم ولد لعابر فالغ وأخوه قحطان، وكان مولد فالغ بعد الطوفان بمائة وأربعين سنة، وكان عمره أربعمائة وأربعًا وسبعين سنة. ثم ولد لفالغ أرغو بعد ثلاثين سنة من عمر فالغ، وكان عمره مائتين وتسعًا وثلاثين سنة.

وولد لأرغو ساروغ بعدما مضى من عمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان عمره مائتين وتسعًا وثلاثين سنة، وولد لساروغ ناخور بعد ثلاثين سنة من عمره، وكان عمره كله مائتين وثلاثين سنة. ثم ولد لناخور تارخ أبو إبراهيم بعدما مضى من عمره سبع وعشرون سنة، وكان عمره كله مائتين وثمانيًا وأربعين سنة. وولد لتارخ، وهو آزر إبراهيم عليه السلام. وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٢٧): قوط

ومائتا سنة وثلاث وستون سنة، وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة. وولد لقحطان بن عابر يعرب، فولد ليعرب يشجب، فولد ليشجب سبأ، فولد سبأ حمير وكهلان وعمراً والأشعر وأنمار ومرًّا، فولد عمرو بن سبأ عديًّا، وولد عدي لخمًا وجذامًا.

ذكر ملك أفريذون[1]

وهو أفريدون بن أثغيان، وهو من ولد جمشيد. وقد زعم بعض نسابة الفرس أن نوحًا هو أفريدون الذي قهر الضحاك وسلبه ملكه، وزعم بعضهم: أن أفريدون هو ذو القرنين صاحب إبراهيم الذي ذكره الله في كلامه العزيز، وإنما ذكرته في هذا الموضع لأن قصته في أولاده الثلاثة شبيهة بقصة نوح على ما سيأتي ولحسن سيرته وهلاك الضحاك على يديه ولأنه قيل: إن هلاك الضحاك كان على يد نوح.

وأما باقي نسابة الفرس فإنهم ينسبون أفريدون إلى جمشيد الملك، وكان بينهما عشرة آباء كلهم يسمى أثغيان خوفًا من الضحاك، وإنما كانوا يتميزون بألقاب لقبوها، فكان يقال لأحدهم أثغيان صاحب البقر الحمر، وأثغيان صاحب البقر البلق وأشباه ذلك، وكان أفريدون أول من ذلل الفيلة وامتطاها ونتج البغال واتخذ الأوز والحمام وعمل الترياق ورد المظالم وأمر الناس بعبادة الله والإنصاف والإحسان، ورد على الناس ما كان الضحاك غصبه من الأرض وغيرها إلا ما لم يجد له صاحبًا فإنه وقفه على المساكين.

وقيل: إنه أول من سمي الصوفي، وهو أول من نظر في علم الطب. وكان له ثلاثة بنين، اسم الأكبر شرم، والثاني طوج، والثالث إيرج، فخاف أن يختلفوا بعده فقسم ملكه بينهم أثلاثًا وجعل ذلك في سهام كتب أسماءهم عليها وأمر كل واحد منهم فأخذ سهمًا، فصارت الروم وناحية العرب لشرم، وصارت الترك والصين لطوج، وصارت العراق والسند والهند والحجاز وغيرها لإيرج، وهو الثالث، وكان يحبه، وأعطاه التاج والسرير.

ومات أفريدون ونشبت العداوة بين أولاده وأولادهم من بعدهم، ولم يزل التحاسد ينمو بينهم إلى أن وثب طوج وشرم على أخيهما أيرج فقتلاه وقتلا ابنين

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٠).

كانا لإيرج وملكا الأرض بينهما ثلاثمائة سنة. ولم يزل أفريدون يتبع من بقي بالسواد من آل نمروذ والنبط وغيرهم حتى أتى على وجوههم ومحا أعلامهم، وكان ملكه خمسمائة سنة.

ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبرهيم [عليهما السلام][١]

قد ذكرنا ما كان من أمر نوح وأمر ولده واقتسامهم الأرض بعده ومساكن كل فريق منهم، فكان ممن طغى وبغى ـ فأرسل إليهم رسولاً فكذبوه فأهلكهم الله ـ هذان الحيان من ولد إرم بن سام بن نوح، أحدهما عاد والثاني ثمود.

[نبي الله هود عليه السلام][٢].

فأما عاد فهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وهو عاد الأولى، وكانت مساكنهم ما بين الشحر وعمان وحضرموت بالأحقاف، فكانوا جبارين طوال القامة لم يكن مثلهم، يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[٣]، فأرسل الله إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوض، ومن الناس من يزعم أنه هود وهو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يقال لأحدها[٤] ضرا وللآخر ضمور وللثالث الهباء، فدعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره وترك ظلم الناس، فكذبوه وقالوا: من أشد منا قوةً!.

ولم يؤمن بهود منهم إلا قليل، وكان من أمرهم ما ذكره ابن إسحاق قال: إن عاداً أصابهم قحط تتابع عليهم بتكذيبهم هوداً، فلما أصابهم قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة يستسقون لكم، فبعثوا قيل بن عير ولقيم بن هزال ومرثد بن سعد، وكان مسلمًا يكتم إسلامه، وجلهمة بن الخيبري، خال معاوية بن بكر، ولقمان بن عاد بن فلان بن عاد الأكبر في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر بظاهر مكة خارجًا عن الحرم، فأكرمهم، وكانوا أخواله وصهره لأن لقيم بن هزال كان تزوج هزيلة بنت بكر أخت معاوية فأولدها أولاداً كانوا عند خالهم معاوية بمكة، وهم

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٢).
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٣) و«البداية» (١/ ١٣٨).
(٣) سورة الأعراف (٦٩).
(٤) كذا بالمطبوعة والصواب: لإحداها.

عبيد وعمرو وعامر وعمير بنو لقيم، وهو عاد الآخرة التي بقيت بعد عاد الأولى، فلما نزلوا على معاوية أقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، قينتان[١] لمعاوية، فلما رأى معاوية طول مقامهم وتركهم ما أرسلوا له شق عليه ذلك وقال: هلك أخوالي، واستحيا أن يأمر الوفد بالخروج إلى ما بعثوا له، فذكر ذلك للجرادتين فقالتا قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قائله لعلهم يتحركون، فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يصبحنا غماماً

فيسقي أرض عادٍ إن عاداً قد امسوا لا يبينون الكلاما

في أبيات ذكرها. والهينمة: الكلام الخفي. فلما غنتهم الجرادتان ذلك الشعر وسمعه القوم قال بعضهم لبعض: يا قوم بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم فأبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم. قال مرثد بن سعد: إنهم والله لا يسقون بدعائكم ولكن أطيعوا نبيكم فأنتم تسقون، وأظهر إسلامه عند ذلك. فقال جلهمة بن الخيبري، خال معاوية، لمعاوية بن بكر: احبس عنا مرثد بن سعد. وخرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد، فدعوا الله تعالى لقومهم واستسقوا، فأنشأ الله سحائب ثلاثًا بيضاء وحمراء وسوداء ونادى مناد منها: يا قيل اختر لنفسك وقومك. فقال: قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر ماء، فناداه مناد: «اختر رماداً رمدداً، ولا تبقي من عاد أحداً، لا ولداً تترك ولا والداً إلا جعلته همداً، إلا بني اللوذية المهدى»[٢].

وبنو اللوذية: بنو لقيم بن هزال، كانوا بمكة عند خالهم معاوية بن بكر. وساق الله السحابة السوداء بما فيها من العذاب إلى عاد، فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا بها وقالوا: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[٣] أي كل شيء أمرت به. وكان أول من رأى ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها فهدد، فلما رأت ما فيها صاحت وصعقت، فلما أفاقت قالوا: ماذا رأيت؟

قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها.

---

(١) القينة: المغنية.

(٢) القصة أخرجها الترمذي (٣٢٧٣) من حديث رجل من ربيعة، باختصار.

(٣) سورة الأحقاف الآية (٢٤، ٢٥).

فلما خرجت الريح من الوادي قال شبعة رهط من الخلجان: تعالوا حتى نقوم على شفير الوادي فنردها. فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم فتحمله فتدق عنقه، وبقي الخلجان فمال إلى الجبل وقال:

لم يبق إلا الخلجان نفسه ... يا لك من يوم دهاني أمسه

بثابت الوطء شديد وطسه ... لو لم يجئني جئته أجسه

فقال له هود: أسلم تسلم. فقال: وما لي؟ قال: الجنة. فقال: فما هؤلاء الذين في السحاب كأنهم البخت؟

قال: الملائكة. قال: أيعيذني ربك منهم إن أسلمت؟ قال: هل رأيت ملكًا لا يعيذ من جنده؟ قال: لو فعل ما رضيت.

ثم جاءت الريح وألحقته بأصحابه و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا﴾[1]، كما قال تعالى. والحسوم: الدائمة. فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك، واعتزل هود والمؤمنون في حظيرة لم يصبه ومن معه منها إلا تليين الجلود، وإنها لتمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

وعاد وفد عاد إلى معاوية بن بكر فنزلوا عليه، فأتاهم رجل على ناقة فأخبرهم بمصاب عاد وسلامة هود.

قال: وكان قد قيل للقمان بن عاد: اختر لنفسك إلا أنه لا سبيل إلى الخلود. فقال: يا رب أعطني عمرًا. فقيل له: اختر. فاختار عمر سبعة أنسر. فعمر فيما يزعمون عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ الذكر حين يخرج من بيضته حتى إذا مات أخذ غيره، وكان يعيش كل نسر ثمانين سنة، فلما مات السابع مات لقمان معه، وكان السابع يسمى لبدًا. قال: وكان عمر هود مائة وخمسين سنة. وقبره بحضرموت، وقيل بالحجر من مكة، فلما هلكوا أرسل الله طيرًا أسود فنقلتهم إلى البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾[2]. ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة، فذلك قوله: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[3]. وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم البيت على من فيه.

---

(١) سورة الحاقة الآية (٧).

(٢) سورة الأحقاف الآية (٢٥).

(٣) سورة الحاقة الآية (٦).

[ذكر قصة صالح عليه السلام][1]

وأما ثمود فهم ولد ثمود بن جاثر بن أرم بن سام، وكانت مساكن ثمود بالحجر بين الحجاز والشام، وكانوا بعد عاد قد كثروا وكفروا وعتوا، فبعث الله إليهم صالح ابن عبيد بن أسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود، وقيل: أسف بن كماشج ابن أروم بن ثمود يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا أتنهانا﴾[2] الآية، وكان الله قد أطال أعمارهم حتى إن كان أحدهم يبني البيت من المدر فينهدم وهو حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا فارهين فنحتوها، وكانوا في سعة من معايشهم، ولم يزل صالح يدعوهم فلم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم بالدعاء والتحذير والتخويف سألوه فقالوا: يا صالح اخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم، فأرنا آية فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا. فقال: نعم، فخرجوا بأصنامهم وصالح معهم، فدعوا أصنامهم أن لا يستجاب لصالح ما يدعو به، وقال له سيد قومه: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة ـ ناقة جوفاء عشراء، فإن فعلت ذلك صدقناك. فأخذ عليهم المواثيق بذلك وأتى الصخرة وصلى ودعا ربه عز وجل فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل ثم انفجرت وخرجت من وسطها الناقة كما طلبوا وهم ينظرون ثم نتجت سقبًا[3] مثلها في العظم، فآمن به سيد قومه، واسمه جندع ابن عمرو، ورهط من قومه، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[4]، ومتى عقرتموها أهلككم الله. فكان شربها يومًا وشربهم يومًا معلومًا، فإذا كان يوم شربها خلوا بينها وبين الماء وحلبوها لبنها وملأوا كل وعاء وإناء، وإذا كان يوم شربهم صرفوها عن الماء فلم تشرب منه شيئًا وتزودوا من الماء للغد فأوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة، فقال لهم

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/١٣٨) و«البداية» (١/١٤٩).
(٢) سورة هود (٦٢).
(٣) السقب: ولد الناقة، وقيل الذكر من ولد الناقة لسان العرب (١/٤٦٨).
(٤) سورة الشعراء (١٥٥).

ذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل. قال: إلا تعقروها أنتم يوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها. قالوا: وما علامته؟ فوالله لا نجده إلا قتلناه! قال: فإنه غلام أشقر أزرق أصهب أحمر. قال: فكان في المدينة شيخان عزيزان منيعان لأحدهما ابن رغب له عن المناكح وللآخر ابنة لا يجد لها كفؤًا فزوج أحدهما ابنه بابنة الآخر فولد بينهما المولود، فلما قال لهم صالح: إنما يعقرها مولود فيكم اختاروا قوابل من القرية وجعلوا معهن شرطًا يطوفون القرية فإذا وجدوا امرأة تلد نظروا ولدها ما هو، فلما وجدوا ذلك المولود صرخ النسوة وقلن: هذا الذي يريد نبي الله صالح، فأراد الشرط أن يأخذوه فحال جداه بينهم وبينه وقالا: لو أراد صالح هذا لقتلناه.

فكان شر مولود وكان يشب في اليوم شباب غيره في الجمعة، فاجتمع تسعة رهط منهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، كانوا قتلوا أبناءهم حين ولدوا خوفًا أن يكون عاقر الناقة منهم، ثم ندموا فأقسموا ليقتلن صالحًا وأهله وقالوا: نخرج فترى الناس أننا نريد السفر فنأتي الغار الذي على طريق صالح فنكون فيه، فإذا جاء الليل وخرج صالح إلى مسجده قتلناه ثم رجعنا إلى الغار ثم انصرفنا إلى رحالنا وقلنا ما شهدنا قتله فيصدقنا قومه. وكان صالح لا يبيت معهم، كان يخرج إلى مسجد له يعرف بمسجد صالح فيبيت فيه، فلما دخلوا الغار سقطت عليهم صخرة فقتلتهم، فانطلق رجال ممن عرف الحال إلى الغار فرأوهم هلكى، فعادوا يصيحون: أن صالحًا أمرهم بقتل أولادهم ثم قتلهم. وقيل: إنما كان تقاسم التسعة على قتل صالح بعد عقر الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب، وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا: تعالوا فلنقتل صالحًا فإن كان صادقًا عجلنا قتله، وإن كان كاذبًا ألحقناه بالناقة، فأتوه ليلاً في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فهلكوا، فأتى أصحابهم فرأوهم هلكى فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، وأرادوا قتله، فمنعهم عشيرته وقالوا: إنه قد أنذركم العذاب، فإن كان صادقًا فلا تزيدوا ربكم غضبًا وإن كان كاذبًا فنحن نسلمه إليكم، فعادوا عنه.

فعلى القول الأول يكون التسعة الذين تقاسموا غير الذين عقروا الناقة، والثاني أصح، والله أعلم.

وأما سبب قتل الناقة فقيل: إن قدار بن سالف جلس مع نفر يشربون الخمر فلم يقدروا على ماء يمزجون به خمرهم لأنه كان يوم شرب الناقة، فحرض بعضهم بعضًا على قتلها، وقيل: إن ثمودًا كان فيهم امرأتان يقال لإحداهما قطام وللأخرى قبال، وكان قدار يهوي قطام ومصدع يهوي قبال ويجتمعان بهما، ففي بعض الليالي قالتا

لقدار ومصدع: لا سبيل لكما إلينا حتى تقتلا الناقة، فقالا: نعم، وخرجا وجمعا أصحابهما وقصدا الناقة وهي على حوضها، فقال الشقي لأحدهم: اذهب فاعقرها، فأتاها، فتعاظمه ذلك، فأضرب عنه، وبعث آخر بأعظم ذلك وجعل لا يبعث أحداً إلا تعاظمه قتلها حتى مشى هو إليها فتطاول فضرب عرقوبها فوقعت تركض، وكان قتلها يوم الأربعاء، واسمه بلغتهم جبار، وكان هلاكهم يوم الأحد، وهو عندهم أول، فلما قتلت أتى رجل منهم صالحًا فقال: أدرك الناقة فقد عقروها، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه: يا نبي الله إنما عقرها فلان إنه لا ذنب لنا! قال: انظروا هل تدركون فصيلها؟ فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب. فخرجوا يطلبونه، ولما رأى الفصيل أمه تضطرب قصد جبلاً يقال له القارة قصيراً فصعده، وذهبوا يطلبونه، فأوحى الله إلى الجبل فطال في السماء حتى ما يناله الطير، ودخل صالح القرية، ولما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم استقبل صالحًا فرغا ثلاثًا، فقال صالح: لكل رغوة أجل يوم ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1]، وآية العذاب أن وجوهكم تصبح في اليوم الأول مصفرة وتصبح في اليوم الثاني محمرة وتصبح في اليوم الثالث مسودة. فلما أصبحوا إذا وجوههم كأنما طليت بالخلوق[2] صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة، فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار، فتكفنوا وتحنطوا، وكان حنوطهم الصبر والمر، وكانت أكفانهم الأنطاع، ثم ألقوا أنفسهم إلى الأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء والأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب؟ فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كالصاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾[3] وأهلك الله من كان بين المشارق والمغارب منهم إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم. قيل: ومن هو؟ قيل: هو أبو رغال[4]، وهو أبو ثقيف في قول.

---

(١) سورة هود (٦٥).

(٢) الخلوق: طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة. «اللسان» (١٠/ ٩١).

(٣) جاثمين: أي أجساد ملقاة في الأرض «اللسان» (١٢/ ٨٣).

(٤) وقصته أخرجها أبو داود (٣٠٨٨). من حديث عبد الله بن عمرو وقال الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٦٧٨): ضعيف. وأخرجه أحمد (٣٧٤٦) من حديث جابر وفيه أبو الزبير مدلس وقد عنعنه. فائدة: قال الحافظ ابن كثير في البداية (١/ ١٥٩) بعد أن ذكر قصة عقر الناقة التي ساقها المصنف هنا قال: وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم.

ولما سار النبي ﷺ إلى تبوك أتى على قرية ثمود فقال لأصحابه: **«لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها»**[(١)]، وأراهم مرتقى الفصيل في الجبل وأراهم الفج الذي كانت الناقة ترد منه الماء.

وأما صالح عليه السلام فإنه سار إلى الشام فنزل فلسطين ثم انتقل إلى مكة فأقام بها يعبد الله حتى مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وكان قد أقام في قومه يدعوهم عشرين سنة.

وأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أنه لا ذكر لعاد وهود وثمود وصالح في التوراة، قال: وأمرهم عند العرب في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم الخليل، عليه السلام[(٢)].

قلت: وليس إنكارهم ذلك بأعجب من إنكارهم نبوة إبراهيم الخليل ورسالته، وكذلك إنكارهم حال المسيح، عليه السلام.



---

(١) أخرج البخاري (٣٣٧٨) ومسلم (٢٩٨١).
عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء.
زاد مسلم: «وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة».

(٢) قال الطبري في «تاريخه» (١/ ١٤١): ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عاد وثمود وأمورهم بعض ما قيل ما يعلم به من ظن خلاف ما قلنا في شهرة أمرهم في العرب صحة ذلك.

ذكر إبراهيم الخليل عليه السلام ومن كان في عصره من ملوك العجم[١]

وهو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروغ بن أرغو[٢] بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

واختلف في الموضع الذي كان فيه والموضع الذي ولد فيه، فقيل: ولد بالسوس من أرض الأهواز، وقيل: ولد ببابل، وقيل: بكوثى، وقيل بحران ولكن أباه نقله.

قال عامة أهل العلم: كان مولده في عهد نمروذ بن كوش. ويقول عامة أهل الأخبار: إن نمروذ كان عاملاً للإزدهاق[٣] الذي زعم بعض من زعم أن نوحًا أرسل إليه. وأما جماعة من سلف من العلماء فإنهم يقولون: كان ملكًا برأسه، قال ابن إسحاق: وكان ملكه قد أحاط بمشارق الأرض ومغاربها وكان ببابل قال: ويقال: لم يجتمع مُلك الأرض إلا لثلاثة ملوك: نمروذ وذي القرنين وسليمان بن داود، وأضاف غيره إليهم بختنصر، وسنذكر بطلان هذا القول.

فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم حجةً على خلقه ورسولاً إلى عباده ولم يكن فيما بينه وبين نوح نبي إلا هود وصالح. فلما تقارب زمان إبراهيم أتى أصحاب النجوم نمروذ فقالوا له: إنا نجد غلامًا يولد في قريتك هذه يقال له إبراهيم يفارق دينكم ويكسر أصنامكم في شهر كذا من سنة كذا. فلما دخلت السنة التي ذكروا حبس نمروذ الحبالى عنده إلا أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها لأنه لم يظهر عليها أثره، فذبح كل غلام ولد في ذلك الوقت. فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ثم سعت إلى بيتها راجعة، ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل.

فكان يشب في اليوم ما يشب غيره في الشهر، وكانت تجده حيًا يمص إبهامه جعل الله رزقه فيها.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٤٢) و«البداية» (١/ ١٥٩).

(٢) في «البداية» (١/ ١٥٩) راعوا.

(٣) وهو بيوراس، الذي تسميه العرب الضحاك، وقد مضت أخباره.

وكان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها فقالت: ولدت غلامًا فمات، فصدقها[(١)].

وقيل: بل علم آزر بولادة إبراهيم وكتمه حتى نسي الملك ذكر ذلك، فقال آزر: إن لي ابنًا قد خبأته أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ فقالوا: لا. فانطلق فأخرجه من السرب فلما نظر إلى الدواب وإلى الخلق ولم يكن رأى قبل ذلك غير أبيه وأمه، جعل يسأل أباه عما يراه، فيقول أبوه: هذا بعير أو بقرة أو غير ذلك. فقال: ما لهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب؟ وكان خروجه بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء فإذا هو بالكوكب وهو المشترى، فقال: هذا ربي. فلم يلبث أن غاب فقال: لا أحب الآفلين. وكان خروجه في آخر الشهر فلهذا رأى الكوكب قبل القمر. وقيل: كان تفكر وعمره خمسة عشر شهرًا، قال لأمه وهو في المغارة أخرجيني أنظر، فأخرجته عشاء فنظر فرأى الكوكب وتفكر في خلق السموات والأرض وقال في الكوكب ما تقدم، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[(٢)]. فلما جاء النهار وطلعت الشمس رأى نورًا أعظم من كل ما رأى فقال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[(٣)]. ثم رجع إبراهيم إلى أبيه وقد عرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك، فأخبرته أمه بما كانت صنعت من كتمان حاله، فسره ذلك.

---

(١) مثل هذا الكلام أشبه بكلام أهل الكتاب ولا دليل على صحته من القرآن أو السنة الصحيحة، وقال الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ١٦٣): إن ذلك مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوقف بها ولاسيما إذا خالفت الحق.

(٢) سورة الأنعام الآية (٧٧).

(٣) سورة الأنعام: الآية (٧٨) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٥١) عند تفسير قوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربي﴾ الآيات من سورة الأنعام (٧٦ - ٧٩):
وقد اختلف المفسرون في هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة؟
فروى ابن جرير عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدل بقوله تعالى ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ الآية.
والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على سورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما =

وكان آزر يصنع الأصنام التي يعبدونها ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فكان إبراهيم يقول: من يشتري ما لا يضره وما لا ينفعه؟ فلا يشتريها منه أحد، وكان يأخذها وينطلق بها إلى نهر فيصوب رؤوسها فيه ويقول: اشربي! استهزاء بقومه. حتى فشا ذلك عنه في قومه، غير أنه لم يبلغ خبره نمروذ. فلما بدا لإبراهيم أن يدعو قومه

= يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للألهية فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالاً وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للألهية ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك فلما انتفت الألهية عن تلك الأجرام الثلاثة التي هي أنوار ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿**قال يا قوم إني بريءٌ مما تشركون**﴾ أي أنا بريءٌ من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهة فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين**﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شئ وخالق كل شئ وربه ومليكه وإلهه كما قال تعالى ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾ وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرًا في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ الآيات وقال تعالى ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين * شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم* وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين**﴾، وقال تعالى ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين**﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «**كل مولد يولد على الفطرة**» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال «**قال الله، إن خلقت عبادي حنفاء**» قال الله في كتابه العزيز ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ وقال تعالى ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى**﴾ ومعناه على أحد القولين كقوله ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها**﴾ فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم - الخليل الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يكن من المشركين - ناظرًا في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى ﴿**وحآجه قومه قال أتحآجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شئ علمًا أفلا تذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ سورة الأنعام الآيات (٨٠-٨٣).

إلى ترك ما هم عليه ويأمرهم بعبادة الله تعالى دعا أباه إلى التوحيد فلم يجبه، ودعا قومه فقالوا: من تعبد أنت؟ قال: رب العالمين. قالوا: نمروذ؟ قال: بل أعبد الذي خلقني. فظهر أمره.

وبلغ نمروذ أن إبراهيم أراد أن يري قومه ضعف الأصنام التي يعبدونها ليلزمهم الحجة، فجعل يتوقع فرصة ينتهي بها ليفعل بأصنامهم ذلك، فنظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، أي طعين، ليهربوا منه إذا سمعوا به، وإنما يريد إبراهيم أن يخرجوا عنه ليبلغ من أصنامهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه جميعهم. فلما خرجوا قال هذه المقالة فلم يخرج معهم إلى العيد وخالف إلى أصنامهم وهو يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[1] فسمعه ضعفاء الناس ومن هو في آخرهم، ورجع إلى الأصنام وهي في بهو عظيم بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعامًا بين يدي آلهتهم وقالوا: نترك الآلهة إلى حين نرجع فتأكله. فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ألا تأكلون﴾[2] فلما لم يجبه أحد قال: ﴿ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربًا باليمين﴾[3]، فكسرها بفأس في يده حتى إذا بقي أعظم صنم منها ربط الفأس بيده ثم تركهن.

فلما رجع قومه ورأوا ما فعل بأصنامهم راعهم ذلك وأعظموه وقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[4] يعنون يسبها ويعيبها، ولم نسمع ذلك من غيره وهو الذي نظنه صنع بها هذا. وبلغ ذلك نمروذ وأشراف قومه، فقالوا: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[5] ما نفعل به، وقيل: يشهدون عليه، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فلما أتى به واجتمع له قومه عند ملكهم نمروذ وقالوا: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[6]، غضب من أن يعبدوا هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها، فارعووا ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرها إلى أنفسهم فيما بينهم فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال. ثم قالوا، وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٥٧).
(٢) سورة الصافات الآية (٩١).
(٣) سورة الصافات الآية (٩٢، ٩٣).
(٤) سورة الأنبياء الآية (٥٩ - ٦٠).
(٥) سورة الأنبياء الآية (٦١).
(٦) سورة الأنبياء الآية (٦٢، ٦٣).

ولا تبطش: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾[1]، أي لا يتكلمون، فيخبرونا من صنع هذا بها وما تبطش بالأيدي فنصدقك. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾[2] في الحجة عليهم لإبراهيم فقال لهم إبراهيم عند قولهم ما هؤلاء ينطقون ـ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[3].

ثم إن نمروذ قال لإبراهيم: أرأيت إلهك الذي تعبده وتدعو إلى عبادته ما هو؟ قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[4]. قال نمروذ: أنا أحيي وأميت. قال إبراهيم: وكيف ذلك؟ قال: آخذ رجلين قد استوجبا القتل فأقتل أحدهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته. فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾[5] عند ذلك نمروذ ولم يرجع إليه شيئًا.

ثم إنه وأصحابه أجمعوا على قتل إبراهيم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾[6].

قال عبد الله بن عمر: أشار بتحريقه رجل من أعراب فارس، قيل له: وللفرس أعراب؟ قال: نعم، الأكراد هم أعرابهم. قيل: كان اسمه هيزن فخسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

فأمر نمروذ بجمع الحطب من أصناف الخشب حتى إن كانت المرأة لتنذر: بإن بلغت ما تطلب أن تحتطب لنار إبراهيم، حتى إذا أرادوا أن يلقوه فيها قدموه وأشعلوا النار حتى إن كانت الطير لتمر بها فتحترق من شدتها وحرها.

فلما أجمعوا لقذفه فيها صاحت السماء والأرض وما فيها من الخلق إلا الثقلين إلى الله صيحة واحدة: أي ربنا! إبراهيم ليس في أرضك من يعبدك غيره يحرق بالنار فيك فأذن لنا في نصره! قال الله تعالى: إن استغاث بشيء منكم فلينصره وإن لم يدع غيري فأنا له. فلما رفعوه على رأس البنيان رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم أنت الواحد في السماء وأنت الواحد في الأرض، حسبي الله ونعم الوكيل[7].

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٦٥).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٦٥).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٦٦، ٦٧).

(٤)، (٥) سورة البقرة (٢٥٨).

(٦) سورة الأنبياء (٦٨).

(٧) أخرج البخاري (٤٥٦٣) عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قال: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار .... الحديث.

وعرض له جبريل وهو يوثق فقال: آلك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أما إليك فلا. فقذفوه في النار فناداها فقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1]. وقيل: ناداها جبريل، فلو لم يتبع بردها سلام لمات إبراهيم من شدة بردها، فلم يبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت أنها هي. وبعث الله ملك الظل في سورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنبه يؤنسه فمكث نمروذ أيامًا لا يشك أن النار قد أكلت إبراهيم، فرأى كأنه نظر فيها وهي تحرق بعضها بعضًا وإبراهيم جالس إلى جنبه رجل مثله. فقال لقومه: لقد رأيت كأن إبراهيم حي ولقد شبه علي، ابنوا لي صرحًا يشرف بي على النار، فبنوا له وأشرف منه فرأى إبراهيم جالسًا وإلى جانبه رجل في صورته، فناداه نمروذ: يا إبراهيم إن إلهك كبير الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بينك وبين ما أرى، هل تستطيع أن تخرج منها؟

قال: نعم. قال: أتخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا.

فقام إبراهيم فخرج منها، فلما خرج قال له: يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك مثل صورتك؟

قال: ذلك ملك الظل أرسله إلي ربي ليؤانسني.

قال نمروذ: إني مقرب إلى إلهك قربانًا لما رأيت من قدرته وعزته وما صنع بك حين أبيت إلا عبادته.

فقال إبراهيم: إذًا لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك. فقال: يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي. وقرب أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم ومنعه الله منه.

وآمن مع إبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به على خوف من نمروذ وملإهم، وآمن له لوط بن هاران، وهو ابن أخي إبراهيم، وكان لهم أخ ثالث يقال له ناخور بن تارخ، وهو أبو بتويل، وبتويل أبو لابان وأبو ربقا امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب، ولابان أبو ليئة وراحيل زوجتي يعقوب. وآمنت به سارة، وهي ابنة عمه، وهي سارة ابنة هاران الأكبر عم إبراهيم، وقيل: كانت ابنة ملك حران. فآمنت بالله تعالى مع إبراهيم.

ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه[2]

ثم إن إبراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم، فخرج مهاجراً

(١) سورة الأنبياء: (٦٩).

(٢) «البداية» (١/ ١٧٠).

حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وقيل: كان أخا الضحاك استعمله على مصر، وكانت سارة من أحسن النساء وجهًا، وكانت لا تعصي إبراهيم شيئًا، فلما وصفت لفرعون أرسل إلى إبراهيم فقال: من هذه التي معك؟ قال: أختي، يعني في الإسلام، وتخوف إن قال هي امرأتي أن يقتله. فقال له: زينها وأرسلها إلي. فأمر بذلك إبراهيم، فتزينت، وأرسلها إليه، فلما دخلت عليه أهوى بيده إليها، وكان إبراهيم حين أرسلها قام يصلي، فلما أهوى إليها أخذ أخذًا شديدًا، فقال: ادعي الله ولا أضرك. فدعت له فأرسل فأهوى إليها، فأخذ أخذًا شديدًا، فقال: ادعي الله ولا أضرك. فدعت له، فأرسل، ثم فعل ذلك الثالثة، فذكر مثل المرتين، فدعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان وإنك أتيتني بشيطان! أخرجها وأعطها هاجر، ففعل، فأقبلت بهاجر، فلما أحس إبراهيم بها انفتل من صلاته فقال: مهيم! فقالت: كفى الله كيد الكافرين وأخدم هاجر، وكان أبو هريرة يقول: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث مرات، اثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إني سقيم﴾، وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله في سارة: هي أختي»**[١].

ذكر ولادة إسماعيل عليه السلام وحمله إلى مكة[٢]

قيل: كانت هاجر جارية ذات هيئة فوهبتها سارة لإبراهيم وقالت: خذها لعل الله يرزقك منها ولدًا، وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت، فوقع إبراهيم على هاجر فولدت إسماعيل، ولهذا قال النبي ﷺ: **«إذا استفتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا»**[٣]، يعني ولادة هاجر. فكان إبراهيم قد خرج بها إلى الشام من مصر خوفًا من فرعون، فنزل السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة، وهي من السبع مسيرة يوم وليلة، فبعثه الله نبيًا، وكان إبراهيم قد

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨) ومسلم (٢٣٧١) بنحوه دون جملة الزينة.
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ١٥٠) و«البداية» (١/ ١٧٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٣) من حديث أبي ذر.

اتخذ بالسبع بئراً ومسجداً وكان ماء البئر معيناً[1] طاهراً، فآذاه أهل السبع فانتقل عنهم، فنضب الماء فاتبعوه يسألونه العود إليهم، فلم يفعل وأعطاهم سبعة أعنز وقال: إذا أوردتموها الماء ظهر حتى يكون معينًا طاهراً فاشربوا منه ولا تغترف منه امرأة حائض. فخرجوا بالأعنز، فلما وقفت على الماء ظهر إليها، وكانوا يشربون منه، إلى أن غرفت منه امرأة طامث فعاد الماء إلى الذي هو عليه اليوم. وأقام إبراهيم بين الرملة وإيليا ببلد يقال له قط أو قط.

قال: فلما ولد إسماعيل حزنت سارة حزنًا شديداً، فوهبها الله إسحاق وعمرها سبعون سنة، فعمر إبراهيم مائة وعشرون سنة، فلما كبر إسماعيل وإسحاق اختصما، فغضبت سارة على هاجر فأخرجتها ثم أعادتها، فغارت منها فأخرجتها وحلفت لتقطعن منها بضعة فتركت أنفها وأذنها لئلا تشينها ثم خفضتها، فمن ثم خفض النساء، وقيل: كان إسماعيل صغيراً، وإنما أخرجتها سارة غيرة منها، وهو الصحيح. وقالت سارة: لا تساكنني في بلد.

فأوحى الله إلى إبراهيم أن تأتي بمكة وليس بها يومئذ نبت، فجاء إبراهيم بإسماعيل وأمه هاجر فوضعهما بمكة في موضع زمزم، فلما مضى نادته هاجر: يا إبراهيم من أمرك أن تتركنا بأرض ليس فيها زرع ولا ضرع ولا ماء ولا زاد ولا أنيس؟

قال: ربي أمرني. قالت: فإنه لن يضيعنا.

فلما ولى قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾[2] يعني من الحزن، وقال ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[3].

فلما ظمئ إسماعيل جعل يدحض الأرض برجله، فانطلقت هاجر حتى صعدت الصفا لتنظر هل ترى شيئًا فلم تر شيئًا فانحدرت إلى الوادي فسمعت حتى أتت المروة فاستشرفت هل ترى شيئًا فلم تر شيئًا، ففعلت ذلك سبع مرات، فذلك أصل السعي، ثم جاءت إلى إسماعيل وهو يدحض الأرض بقدميه وقد نبعت العين،

---

(١) معين: أي نابع يجري.
(٢) سورة إبراهيم (٣٨).
(٣) سورة إبراهيم (٣٧).

وهي زمزم، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء، وكلما اجتمع أخذته وجعلته في سقائها. قال: فقال النبي ﷺ: **«يرحمها الله! لو تركتها لكانت عينًا سائحة»**.

وكانت جرهم بواد قريب من مكة ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاؤوا إلى هاجر فقالوا: لو شئت لكنا معك فآنسناك والماء ماؤك.

قالت: نعم.

فكانوا معها حتى شب إسماعيل وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فتعلم العربية منهم هو وأولاده، فهم العرب المتعربة.

واستاذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه ألا ينزل، فقدم وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس ههنا، ذهب يتصيد. وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع.

قال إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي ضيافة وما عندي أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه.

وعاد إبراهيم، وجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل عندك أحد؟ قالت: جاءني شيخ كذا وكذا، كالمستخفة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال: أقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه. فطلقها وتزوج أخرى.

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل. فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب ليتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله تعالى، فانزل يرحمك الله. فقال لها: فعندك ضيافة؟ قالت: نعم. قال: فهل عندك خبز أو بر أو شعير أو تمر؟ قال: فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز أو تمر أو بر أو شعير لكانت أكثر أرض الله من ذلك، فقالت: انزل حتى أغسل رأسك. فلم ينزل. فجاءته بالمقام بالإناء فوضعته عند شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه فيه، فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر ففعلت به كذلك. فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه عني السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك. فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجهًا وأطيبهم ريحًا فقال لي كذا

وكذا. وقلت لـه: كذا وكذا، وغـسلت رأسه، وهذا مـوضع قدمه، وهـو يقرئك السلام ويقول: قد استقامت عتبة بابك. قال: ذلك إبراهيم[١].

وقيل: إن الذي أنـبع الماء جبريل، فـإنه نزل إلى هاجر وهي تسـعى في الوادي فسمعت حسه فقالت: قد أسمعتني فأغثني فقد هلكت أنا ومن معي. فجاء بها إلى موضع زمزم فضرب بقـدمه ففارت عينًا، فتعجلت، فجـعلت تفرغ في شنها. فقال لها: لا تخافي الظمأ.

ذكر عمارة البيت الحرام بمكة[٢]

قـيل: ثم أمر الله إبراهيم ببنـاء البيت الحـرام، فضـاق بذلك ذرعًا فـأرسل الله السكينة، وهي ريح خجوج، وهي اللينـة الهبوب، لها رأسان، فسار مـعها إبراهيم حتى انتهت إلى موضـع البيت فتطوت عليه كتطوي الحجفـة، فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم[٣].

وقيل: أرسل الله مثل الغمامة له رأس فكلمه وقال: يا إبراهيم ابن على ظلي أو على قدري ولا تزد ولا تنقص، فبنى[٤].

وهذان القولان نقلا عن علي.

وقال السدي: الذي دله على موضع البيت هو جبريل.

فسار إبراهيم إلى مكة، فلمـا وصلها وجد إسماعـيل يصلح نبلاً له وراء زمزم، فقال له: يا إسماعيل إن الله قد أمرني أن أبنـي له بيتًا. قال إسماعيل: فأطع ربك. فقـال إبراهيم: قد أمرك أن تعيـنني على بنائه. قال: إذن أفعل. فـقام معه فـجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة.

ثم قال إبراهيم لإسماعيل: ائتني بحجـر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علمًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤) هذه القصة من حديث ابن عباس بنحو مما ذكره المصنف.

(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٥٢) والبداية (١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ١٥٢) عن علي.

(٤) أخرجه الطبري في المصدر السابق عن علي ﷺ وفي إسناده مؤمل بن إسماعيل، قال في التقريب (٧٠٢٩): صدوق سيئ الحفظ.

فناداه أبو قبيس: إن لك عندي وديعة، وقيل: بل جبريل أخبره بالحجر الأسود، فأخذه ووضعه موضعه، وكانا كلما بنيا دعوا الله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر، وهو مقام إبراهيم، فجعل يناوله، فلما فرغ من بناء البيت أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي البلاغ. فنادى: أيها الناس! إن الله قد كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض وما في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ممن سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة، فأجيب لبيك لبيك.

ثم خرج بإسماعيل معه إلى التروية فنزل به منى ومن معه من المسلمين فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم بات حتى أصبح فصلى بهم الفجر، ثم سار إلى عرفة فأقام بهم هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة الذي يقف عليه الإمام، فوقف به على الأراك، فلما غربت الشمس دفع به ومن معه حتى أتى المزدلفة فجمع بها الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بها ومن معه حتى رذا طلع الفجر صلى الغداة، ثم وقف على قزح حتى إذا أسفر دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يصنع حتى رمى الجمرة وأراه المنحر ثم نحر وحلق وأراه كيف يطوف ثم عاد به إلى منى ليريه كيف رمي الجمار حتى فرغ من الحج[2] وروي عن النبي، ﷺ أن جبريل هو الذي أرى إبراهيم كيف يحج، ورواه عنه ابن عمر[3] ولم يزل البيت على ما بناه إبراهيم، عليه السلام، إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد النبي، ﷺ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة (١٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ١٥٧) عن عبيد بن عمير مرسلاً، وفي سنده محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه، وفيه أيضًا ابن حميد وهو متهم بالكذب، وذكر الصلوات الخمسة في هذا الأثر غريب.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٥٧) عن ابن عمرو، وفي سنده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال في التقريب (٦٠٨١): صدوق سيئ الحفظ جدًا.

ذكر قصة الذبح[(١)]

واختلف السلف من المسلمين في الذبيح، فقال بعضهم: هو إسماعيل، وقال بعضهم: هو إسحاق. وقد روي عن النبي ﷺ كلا القولين، ولو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره.

فأما الحديث في أن الذبيح إسحاق فقد روى الأحنف عن العباس بن عبدالمطلب عن رسول الله ﷺ في حديث ذكر فيه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)] هو إسحاق[(٣)]، وقد روي هذا الحديث عن العباس من قوله لم يرفعه، وأما الحديث الآخر في أن الذبيح إسماعيل فقد روى الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك ﷺ فقيل لمعاوية: وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب نذر إن سهل الله حفر زمزم أن يذبح أحد أولاده، فخرج السهم على عبد الله أبي النبي ﷺ ففداه بمائة بعير - وسنذكره إن شاء الله - والذبيح الثاني إسماعيل[(٤)].

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٨) و«البداية» (١/ ١٧٨).

(٢) سورة الصافات (١٠٧).

(٣) ضعيف: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٥٩) وقال الألباني في الضعيفة (٣٢٢) ضعيف، وقال بعد أن ذكر له عدة طرق: وبالجملة فطرق هذا الحديث كلها ضعيفة ليس فيها ما يصلح أن يحتج به وبعضها أشد ضعف من بعض والغالب أنها إسرائيليات رواه بعض الصحابة ترخصًا أخطأ في رفعها بعض الضعفاء.

ثم نقل عن ابن القيم في «زاد الميعاد» (١/ ٢١) قوله: وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجه وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره وفي لفظ وحيده. ولا يشك أهل الكتاب من المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده.... وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى: عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: «﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ هود (٧٠)،(٧١) فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه....».

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (١/ ١٥٨) وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٣١).

والحديث وإن كان ضعيفًا إلا أنه صحيح المعنى لدلالة ظاهر القرآن عليه. قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه» (١/ ١٨٠): وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل =

ذكر من قال إنه إسحاق[1]

ذهب عمر بن الخطاب وعلي والعباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله رضي الله عنهم، فيما رواه عنه عكرمة وعبد الله بن مسعود وكعب وابن سابط وابن أبو الهذيل ومسروق إلى أن الذبيح إسحاق عليه السلام.

حدث عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن أبي جارية الثقفي أن كعبًا قال لأبي هريرة: ألا أخبرك عن إسحاق بن إبراهيم؟ قال: بلى. قال كعب: لما رأى إبراهيم ذبح إسحاق قال الشيطان: والله لئن لم أفْتِن عند هذا آل إبراهيم لم أفْتِن أحدًا منهم بعد ذلك أبدًا، فتمثل رجلاً يعرفونه فأقبل حتى إذا خرج إبراهيم بإسحاق ليذبحه

= لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين﴾ ومن جعله حالاً فقد تكلف ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة من المعربة: بكره إسحاق، فلفظه إسحاق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر ذاك إسماعيل وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يأتيه من يشاء. وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله ﴿فبشرنها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يأمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له، هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم. انتهى كلام ابن كثير.

ونقل الشيخ محمد محمد أبو شهبة في كتابه «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص٢٥٦ أن نص التوراة في سفر التكوين الإصحاح الثاني والعشرون (٢): (فقال له يا إبراهيم فقال ها أنا ذا فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقه على أحد الجبال. . . .) إلى آخر قصة الذبح.

قال أبو شهبة: وليس أدل على كذب هذا من كلامه وحيدك وإسحاق عليه السلام لم يكن وحيد قط لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح توراتهم في هذا وقد بقي إسماعيل عليه السلام حتى مات أبوه الخليل وحضر وفاته ودفنه ففي سفر التكوين الإصحاح السادس عشر (١٦): (كان إبرام - يعني إبراهيم - ابن ستة وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام) وفي سفر التكوين الإصحاح الحادي والعشرون (٥): (وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه).

(١) تاريخ الطبري (١/ ١٥٩) (١/ ١٦٠).

دخل على سارة امرأة إبراهيم فقال لها: أيـن أصبح إبراهيم غاديًا بإسحاق؟ قالت: لبعض حاجته. قال: لا والله إنما غدا به ليذبحه! قالت سارة: لم يكن ليذبح ولده. قال الشيطان: بلى والله لأنه زعم أن الله قد أمره بذلك. قـالت سارة: فهذا أحسن أن يطيع ربه. ثم خرج الـشيطان فأدرك إسـحاق وهو مع أبيه فـقال له: إن إبراهيم يريد أن يذبحك. قال إسحاق: ما كان ليفعل. قال: بلى والله إنه زعم أن ربه أمره بذلك. قال إسحاق: فوالله لئن أمره ربه بذلك ليطيعنه.

فتركـه ولحق إبراهيم فقال: أين أصبـحت غاديًا بابنك؟ قال: لبـعض حاجتي. قال: لا والله تريد ذبحه! قال: ولم؟ قـال: لأنك زعمت أن الله أمرك بذلك. قال إبراهيم: فوالله إن كان الله أمرني بذلك لأفعلن، فلمـا أخذ إبراهيم إسحاق ليذبحه أعفاه الله من ذلك وفداه بذبح عظيم.

وأوحى الله إلى إسحاق: إني معطـيك دعوة أستجيب لك فيهـا. قال إسحاق: «اللهـم فـأيمـا عـبد لـقـيـك من الأولين والآخـريـن لا يشرك بك شـيـئًا فـأدخلـه الجنـة»[1].

وقال عـبيد بن عـمير: قال مـوسى: يا رب! يقولون: يا إله إبراهيم وإسـحاق ويعقـوب!، فبم نالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعـدل بي شيئًا قط إلا اخـتارني، وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاءً زادني حسن ظن بي.

ذكر من قال إن الذبيح إسماعيل عليه السلام[2]

روى سعيـد بن جبير ويوسف بن مـهران والشعبي ومـجاهد وعطاء بن أبي رباح كلهم عن ابن عباس أنه قال: إن الذبيح إسماعيل، وقال: زعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود[3]. وقال أبو الطفـيل والشعبي ومجـاهد والحسن ومحمـد بن كعب القرظي: إنه إسماعيل. قال الشعبي: رأيت قـرني الكبش في الكعبة. قال محمد بن كعب: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسـماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/١٥٩، ١٦٠).
(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٦٠).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٦١).

الله في قصة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبحه ابنه إنه إسماعيل، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، ويقول: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[2] بابن وابن ابن، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق، وله فيه من الله عز وجل ما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، فذكر ذلك محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فقال: «إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت».

ذكر السبب الذي من أجله أمر إبراهيم بالذبح وصفة الذبح[3]

قيل: أمر الله إبراهيم، عليه السلام، بذبح ابنه فيما ذكر أنه دعا الله أن يهب له ولدًا ذكرًا صالحًا، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4]. فلما بشرته الملائكة بغلام حليم قال: إذن هو لله ذبيح. فلما ولد الغلام وبلغ معه السعي قيل له: أوف نذرك الذي نذرت.

وهذا على قول من زعم أن الذبيح إسحاق، وقائل هذا يزعم: أن ذلك كان بالشام على ميلين من إيليا.

وأما من زعم أنه إسماعيل فيقول: إن ذلك كان بمكة.

قال محمد بن إسحاق: إن إبراهيم قال لابنه حين أمر بذبحه: يا بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب لأهلك. فلما توجه اعترضه إبليس ليصده عن ذلك، فقال: إليك عني يا عدو الله! فو الله لأمضين لأمر الله.

فاعترض إسماعيل فأعلمه ما يريد إبراهيم يصنع به، فقال: سمعًا لأمر ربي وطاعة.

فذهب إلى هاجر فأعلمها، فقالت: إن كان ربه أمره بذلك فتسليمًا لأمر الله.

فرجع بغيظه لم يصب منهم شيئًا.

---

(١) سورة الصافات (١١٢).

(٢) سورة هود (٧١) والتلاوة ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرنها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾.

(٣) تاريخ الطبري (١/ ١٦٤).

(٤) سورة الصافات (١٠٠).

فلما خلا إبراهيم بالشعب، وهو شعب ثبير، قال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(١). ثم قال له يا أبت إن أردت ذبحي فاشدد رباطي لا يصبك من دمي شيء فينتقص أجري، فإن الموت شديد، وأشحذ شفرتك حتى تريحني، فإذا أضجعتني فكبني على وجهي فإني أخشى إن نظرت في وجهي أنك تدركك رحمة فتحول بينك وبين أمر الله، وإن رأيت أن ترد قميصي إلى هاجر أمي فعسى أن يكون أسلى لها عني، فافعل. فقال إبراهيم: نعم المعين أنت، أي بني، على أمر الله فربطه كما أمره ثم حد شفرته ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾(٢)، ثم أدخل الشفرة لحلقه، فقلبها الله لقفاها ثم اجتذبها إليه ليفرغ منه، فنودي: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾(٣)، هذه ذبيحتك فداءً لابنك فاذبحها. وقيل: جعل الله على حلقه صفيحة نحاس. قال ابن عباس: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفًا(٤)، وقيل: هو الكبش الذي قربه هابيل، وقال علي ﷺ: كان كبشًا أقرن أعين أبيض. وقال الحسن: ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثبير فذبحه، قيل بالمقام، وقيل: بمنى في المنحر.

ذكر ما امتحن الله به إبراهيم، عليه السلام(٥)

بعد ابتلاء الله تعالى إبراهيم بما كان من نمروذ وذبح ولده بعد رجاء نفعه ابتلاه الله بالكلمات التي أخبر أنه ابتلاه بهن فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(٦). واختلف السلف من العلماء الأئمة في هذه الكلمات. فقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم. وقال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾(٧)، قال: والكلمات عشر في براءة، وهي: ﴿الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾(٨) الآية، وعشر في

---

(١) سورة الصافات (١٠٢).
(٢) سورة الصافات (١٠٣).
(٣) سورة الصافات (١٠٤، ١٠٥).
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٦٦) بسند ضعيف جدًا فيه الحسن بن دينار قال الذهبي في المغني (١/ ١٥٩) تركوه.
(٥) تاريخ الطبري (١/ ١٦٧).
(٦) سورة البقرة (١٢٤).
(٧) سورة النجم (٣٧).
(٨) سورة التوبة (١١٢).

الأحزاب، وهي ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[1] الآية، وعشر في المؤمنين من أولها إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2]. وقال آخرون: هي عشر خصال، قال ابن عباس من رواية طاوس وغيره عنه: الكلمات عشر، وهي خمس في الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق شعر الرأس، وخمس في الجسد، وهي: تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط. وقال آخرون: هي مناسك الحج. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[3] وهو قول أبي صالح ومجاهد. وقال آخرون: هي ستة، وهي: الكواكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان. وذبح ابنه، وهو قول الحسن، قال: ابتلاه بذلك فعرف أن ربه دائم لا يزول فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهاجر من وطنه وأراد ذبح ابنه وختن نفسه[4]. وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه في التاريخ المختصر، وإنما ذكرنا هذا القدر لئلا يخلو من فصول الكتاب.

ذكر عدو الله نمروذ وهلاكه[5]

ونرجع الآن إلى خبر عدو الله نمروذ وما آل إليه أمره في دنياه وتمرده على الله تعالى وإملاء الله له، وكان أول جبار في الأرض، وكان إحراقه إبراهيم ما قدمنا ذكره، فأخرج إبراهيم عليه السلام من مدينته وحلف أنه يطلب إله إبراهيم، فأخذ أربعة أفرخ نسور فرباهن باللحم والخمر حتى كبرن وغلظن، فقرنهن بتابوت وقعد في ذلك التابوت فأخذ معه رجلاً ومعه لحمًا لهن، فطرن به حتى إذا ذهبن أشرف ينظر إلى الأرض فرأى الجبال تدب كالنمل، ثم رفع لهن اللحم ونظر إلى الأرض فرآها يحيط بها بحر كأنها فلك في ماء، ثم رفع طويلاً فوقع في ظلمة فلم ير ما فوقه وما تحته، ففزع فألقى اللحم، فاتبعته النسور منقضات، فلما نظرت الجبال إليهن وقد أقبلن منقضات وسمعن حفيفهن فزعت الجبال وكادت تزول ولم يفعلن، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[6]. وكانت طيرانهن من

---

(١) سورة الأحزاب (٣٥).

(٢) سورة المعارج (٣٤).

(٣) سورة البقرة (١٢٤).

(٤) وقد ذكر ابن جرير الطبري عند تفسير قوله تعالى ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر. وقواه الحافظ ابن كثير في تفسيره.

(٥) تاريخ الطبري (١/ ١٧٢).

(٦) سورة إبراهيم (٤٦).

بيت المقدس، ووقوعهن في جبل الدخان، فلما رأى أنه لا يطيق شيئًا أخذ في بنيان الصرح فبناه حتى علا وارتقى فوقه ينظر إلى إله إبراهيم. بزعمه وأحدث ولم يكن يحدث وأخذ الله بنيانهم من القواعد من أساس الصرح فسقط وتبلبلت الألسن يومئذ من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانًا، وكان لسان الناس قبل ذلك سريانيًا.

هكذا روي أنه لم يحدث، وهذا ليس بشيء، فإن الطبع البشري لم يخل منه إنسان حتى الأنبياء صلوات الله عليهم وهم أكثر اتصالاً بالعالم العلوي وأشرف أنفسًا، ومع هذا فيأكلون ويشربون ويبولون ويتغوطون، فلو نجا منه أحد لكان الأنبياء أولى لشرفهم وقربهم من الله تعالى: وإن كان لكثرة ملكه فالصحيح أنه لم يملك مستقلاً، ولو ملك مستقلاً لكان الإسكندر أكثر ملكًا منه ومع هذا فلم يقل فيه شيء من هذا.

قال زيد بن أسلم: إن الله تعالى بعث إلى نمروذ بعد إبراهيم ملكًا يدعوه إلى الله أربع مرات فأبى وقال: أرب غيري؟ فقال له الملك: اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع جموعه، ففتح الله عليه بابًا من البعوض، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلتهم ولم يبق منهم إلا العظام والملك كما هو لم يصبه شيء، فأرسل الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث يضرب رأسه بالمطارق فأرحم الناس به من يجمع يديه ويضرب بهما رأسه، وكان ملكه ذلك أربعمائة سنة وأماته الله تعالى وهو الذي بنى الصرح.

وقال جماعة: إن نمروذ بن كنعان ملك مشرق الأرض ومغربها، وهذا قول يدفعه أهل العلم بالسير وأخبار الملوك، وذلك أنهم لا ينكرون أن مولد إبراهيم كان أيام الضحاك الذي ذكرنا بعض أخباره فيما مضى، وأنه كان ملك شرق الأرض وغربها. وقول القائل إن الضحاك الذي ملك الأرض هو نمروذ ليس بصحيح، لأن أهل العلم المتقدمين يذكرون أن نسب نمروذ في النبط معروف، وأن نسب الضحاك في الفرس مشهور، وإنما الضحاك استعمل نمروذ على السواد وما اتصل به يمنة ويسرة وجعله وولده عمالاً على ذلك، وكان هو يتنقل في البلاد، وكان وطنه ووطن أجداده دنباوند من جبال طبرستان، وهناك رمى به أفريدون حين ظفر به[١].

وكذلك بختنصر. ذكر بعضهم أنه ملك الأرض جميعها وليس كذلك، وإنما كان أصبهبذ[٢] ما بين الأهواز إلى أرض الروم من غربي دجلة من قبل لهراسب، لأن

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٧٤).

(٢) الأصبهبذ: اسم لمن يتولى طبرستان.

لهراسب كان مشتغلاً بقتال الترك مقيمًا بإزائهم ببلخ، وهو بناها لما تطاول مقامه هناك لحرب الترك، ولم يملك أحد من النبط شبرًا من الأرض مستقلاً برأسه فكيف الأرض جميعها! وإنما تطاولت مدة نمروذ بالسواد، فمكث أربعمائة سنة ثم دخل من نسله بعد هلاكه جيل يقال له نبط بن قعون ملك بعده مائة سنة، ثم كداوص بن نبط ثمانين سنة، ثم بالش بن كداوص مائة وعشرين سنة، ثم نمروذ بن بالش سنة وشهرًا، فذلك سبعمائة سنة وسنة وشهد أيام الضحاك، وظن الناس في نمروذ ما ذكرناه، فلما ملك أفريدون وقهر الإزدهاق قتل نمروذ بن بالش وشرد النبط وقتل فيهم مقتلة عظيمة.



ذكر قصة قوم لوط (١)

قد ذكرنا مهاجر لوط مع إبراهيم عليه السلام إلى مصر وعودهم إلى الشام ومقام لوط بسدوم فلما أقام بها أرسله الله إلى أهلها، وكانوا أهل كفر بالله تعالى وركوب فاحشة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾(٢). فكان قطعهم السبيل أنهم كانوا يأخذون المسافر إذا مر بهم ويعملون به ذلك العمل الخبيث، وهو اللواطة، وأما إتيانهم المنكر في ناديهم فقيل كانوا يحذفون من مر بهم ويسخرون منهم، وقيل: كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقيل: كان يأتي بعضهم بعضًا في مجالسهم، وكان لوط يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن الأمور التي يكرهها الله منهم من قطع السبيل وركوب الفواحش وإتيان الذكور في الأدبار ويتوعدهم على إصرارهم وترك التوبة بالعذاب الأليم، فلا يزجرهم ذلك ولا يزيدهم وعظه إلا تماديًا واستعجالاً لعقاب الله إنكاراً منهم لوعيده ويقولون له: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. حتى سأل لوط ربه النصرة عليهم لما تطاول عليه أمرهم وتماديهم في غيهم.

فبعث الله ـ لما أراد هلاكهم ونصر رسوله ـ جبريل وملكين آخرين معه أحدهما ميكائيل والآخر إسرافيل، فأقبلوا ـ فيما ذكر ـ مشاة في صورة رجال وأمرهم أن يبدؤوا بإبراهيم وسارة ويبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

فلما نزلوا على إبراهيم، وكان الضيف قد أبطأ عنه خمسة عشر يومًا حتى شق ذلك عليه ـ وكان يضيف من نزل به، وقد وسع الله عليه الرزق ـ فرح بهم ورأى ضيفًا لم ير مثلهم حسنًا وجمالاً، فقال: لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدي. فخرج إلى أهله فجاء بعجل سمين قد حنذه، أي أنضجه، فقربه إليهم، فأمسكوا أيديهم عنه، ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته﴾ ـ سارة ـ ﴿قائمة فضحكت﴾ لما عرفت من أمر الله ولما تعلم من قوم لوط ـ ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ فـ ﴿قالت﴾

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٧٥).

(٢) سورة العنكبوت (٢٨، ٢٩).

وصكت وجهها: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ﴾، إلى قوله: ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[(١)]. وكانت ابنة تسعين سنة وإبراهيم ابن عشرين ومائة.

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى ذهب يجادل جبريل في قوم لوط، فقال له: أرأيت إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: وإن كان فيهم خمسون من المسلمين لم يعذبهم. قال: وأربعون؟ قالوا: وأربعون؟ قال: وثلاثون، حتى بلغ عشرة. قالوا: وإن كان فيهم عشرة؟ قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير! ثم قال: ﴿إنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[(٢)].

ثم مضت الملائكة نحو سدوم قرية لوط، فلما انتهوا إليها لقوا لوطًا في أرض له يعمل فيها ـ وقد قال الله تعالى لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ـ فأتوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مشى ساعة التفت إليهم فقال لهم: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض إنسانًا أخبث منهم، حتى قال ذلك أربع مرات.

وقيل: بل لقوا ابنته فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم. خافت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أدرك فتيانًا على باب المدينة ما رأيت أصبح وجوهًا منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وكان قومه قد نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم فلم يعلم إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت لهم: قد نزل بنا قوم ما رأيت أحسن وجوهًا منهم ولا أطيب رائحة. فجاءه قومه يهرعون إليه. فقال: يا قوم ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾. فنهاهم ورغبهم.

وقال: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ مما تريدون. ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ ﴿أولم ننهك عن العالمين﴾، فلما لم يقبلوا منه ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ يعني لو أن لي أنصاراً أو عشيرة يمنعوني منكم. فلما قال ذلك وجد عليه الرسل فقالوا: إن ركنك لشديد ولم يبعث الله نبيًا إلا في ثروة من قومه ومنعة من عشيرته. وأغلق لوط الباب، فعالجوه وفتح

---

(١) سورة هود (٧٠ - ٧٣).

(٢) سورة العنكبوت (٣٢).

لوط الباب، فدخلوا، واستأذن جبريل ربه في عقوبتهم فأذن له فبسط جناحيه ففقأ أعينهم وخرجوا يدوس بعضهم بعضًا عميانًا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض! وقالوا للوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[1] ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾[2] ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[3].

فأخرجهم الله إلى الشام وقال لوط: أهلكوهم الساعة، فقالوا: لم نؤمر إلا بالصبح، ﴿أليس الصبح بقريب﴾.

فلما كان الصبح أدخل جبريل ـ وقيل ميكائيل ـ جناحه في أرضهم وقراهم الخمس فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل فأهلكت من لم يكن بالقرى. وسمعت امرأة لوط الهدة فقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها. ونجى الله لوطًا وأهله إلا امرأته. وذكر أنه كان فيها أربعمائة ألف. وكان إبراهيم يتشرف عليها ويقول: سدوم يومًا هالك.

ومدائن قوم لوط خمس: سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة، وسدوم هي القرية العظمى.

ذكر وفاة سارة زوج إبراهيم عليه السلام وذكر أولاده وأزواجه[4]

لا يدفع أحد من أهل العلم أن سارة توفيت بالشام ولها مائة وسبع وعشرون سنة، وقيل: إنها كانت بقرية الجبابرة من أرض كنعان، وقيل: عاشت هاجر بعد سارة مدة، والصحيح أن هاجر توفيت قبل سارة، كما ذكرنا في مسير إبراهيم إلى مكة، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

فلما ماتت سارة تزوج بعدها قطوراً ابنة يقطن امرأة من الكنعانيين فولدت له ستة نفر: يقشان وزمران ومدين، ومدان ونشق وسوح[5]، وكان جميع أولاد

(١) سورة هود (٨١).

(٢) سورة الحجر (٦٥).

(٣) سورة الحجر (٦٥).

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ١٨٤).

(٥) هذا من كلام التوارة سفر التكوين الإصحاح الخامس والعشرون (١-٣).

إبراهيم مع إسماعيل وإسحاق ثمانية نفر، وكان إسماعيل بكره، وقيل في عدد أولاده غير ذلك. فالبربر من ولد يقشان، وأهل مدين قوم شعيب من ولد مدين. وقيل: تزوج بعد قطورا امرأة أخرى اسمها حجون ابنة أهير.

ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام وعدد ما أنزل عليه(١)

قيل: لما أراد الله قبض روح إبراهيم أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم، فرآه إبراهيم وهو يطعم الناس وهو شيخ كبير في الحر، فبعث إليه بحمار فركبه حتى أتاه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه فيدخلها في عينه وأذنه ثم يدخلها فاه، فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره، وكان إبراهيم سأل ربه أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال: يا شيخ مالك تصنع هذا؟ قال: يا إبراهيم الكبر. قال: ابن كم أنت؟ فزاد على عمر إبراهيم سنتين. فقال إبراهيم: إنما بيني وبين أن أصير هكذا سنتان، اللهم اقبضني إليك! فقام الشيخ وقبض روحه ومات وهو ابن مائتي سنة. وقيل مائة وخمس وسبعون سنة.

وهذا عندي فيه نظر لأن إبراهيم لا يخلو أن يكون قد رأى من هو أكبر منه بسنتين أو أكثر من ذلك، فإن من عاش مائتي سنة كيف لا يرى من هو أكبر منه بهذا القدر القريب؟ ولكن هكذا روي، ثم إنه قد بلغ عمر نوح ولم يصبه شيء مما رأى بذلك الرجل.

وروى أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال: **«وأنزل الله على إبراهيم عشر صحائف»**، قال: قلت: يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: **«كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر»**، وكان فيها أمثال منها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يفكر فيها في صنع الله وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال في المطعم والمشرب. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا في ثلاث تزود لمعاده أو مرمة لمعاشه أو لذة في غير محرّم، وعلى العاقل أن يكون

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ١٨٧).

بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه، حافظًا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه[١].

وهو أول من اختتن، وأول من أضاف الضيف، وأول من اتخذ السراويل، إلى غير ذلك من الأقاويل.

ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم[٢]

قد ذكرنا فيما مضى سبب إسكان إسماعيل الحرم وتزوجه امرأة من جرهم وفراقه إياها بأمر إبراهيم ثم تزوج أخرى، وهي السيدة بنت مضاض الجرهمي، وهي التي قال لها: قولي لزوجك: قد رضيت لك عتبة بابك، فولدت لإسماعيل اثني عشر رجلاً: نابت وقيذار وأذيل وميشا ومسمع ورما وماش وآزر وقطوراً وفاقس وطميا وقيدمان. وكان عمر إسماعيل فيما يزعمون سبعًا وثلاثين ومائة سنة. ومن نابت وقيدار ابني إسماعيل نشر الله العرب.

وأرسله الله تعالى إلى العماليق وقبائل اليمن. وقد ينطق أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت.

ولما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، أن يزوج ابنته من العيص ابن إسحاق، وأن يدفن عند قبر أمه هاجر بالحجر[٣].

ذكر إسحاق بن إبراهيم وأولاده[٤]

قيل: ونكح إسحاق رفقًا بنت بتويل فولدت له عيصًا ويعقوب توأمين، وإن عيصًا كان أكبرهما، وكان عمر إسحاق لما ولد له ستين سنة، ثم نكح عيص بن إسحاق نسمة بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم بن عيص، وكل بني الأصفر من ولده، وزعم بعض الناس أن أشبان من ولده، ونكح يعقوب بن إسحاق ـ وهو

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٨٩).

(٣) ذكره ابن جرير في «تاريخه» (١/ ١٨٩) بدون سند وفي معجم البلدان (٢/ ٢٢١) أن المقصود بهذا الحجر حجر الكعبة، وهذا فيه نظر، فقال ﷺ: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وهذا من أجل سد ذريعة الشرك وهو أمر واجب في جميع الشرائع.

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ١٩٠).

إسرائيل - ابنة خاله ليا بنت لبان بن بتويل فولدت له روبيل، وكان أكبر ولده، وشمعون ولاوي ويهوذا وزبالون ولشحر، وقيل ويشحر، ثم توفيت ليا فتزوج أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، وهو بالعربية شداد، وولد له من سريتين أربعة نفر: دان وتفتالي وجاد واشر، وكان ليعقوب اثنا عشر رجلاً.

قال السدي[1]: تزوج إسحاق بجارية فحملت بغلامين، فلما أرادت أن تضع أراد يعقوب أن يخرج قبل عيص فقال عيص: والله لئن خرجت قبلي لأعترضن في بطن أمي ولأقتلنها. فتأخر يعقوب وخرج عيص وأخذ يعقوب بعقب عيص، فسمي يعقوب وسمي أخوه عيصًا لعصيانه. وكان عيص أحبهما إلى أبيه ويعقوب أحبهما إلى أمه. وكان عيص صاحب صيد، فقال له إسحاق لما كبر وعمي. يا بني! أطعمني لحم صيد واقترب مني أدعو لك بدعاء دعا لي به أبي. وكان عيص رجلاً أشعر، وكان يعقوب أجرد، وسمعت أمهما ذلك فقالت ليعقوب: يا بني! اذبح شاة واشوها والبس جلدها وقربها إلى أبيك وقل له: أنا ابنك عيص، ففعل ذلك يعقوب، فلما جاء قال: يا أبتاه: كل. قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك عيص. فمسحه إسحاق فقال: المس مس عيص والريح ريح يعقوب. قالت أمه: إنه عيص فكل. فأكل ودعا له أن يجعل الله في ذريته الأنبياء والملوك، وقام يعقوب وجاء عيص، وكان في الصيد، فقال لأبيه: قد جئتك بالصيد الذي طلبت. فقال: يا بني! قد سبقك أخوك. فحلف عيص ليقتلن يعقوب. فقال: يا بني قد بقيت لك دعوة، فدعا له أن يكون ذريته عدد التراب وأن لا يملكهم غيرهم. وهرب يعقوب خوفًا من أخيه إلى خاله، وكان يسري بالليل ويكمن بالنهار، فلذلك سمي إسرائيل[2].

ثم إن يعقوب تزوج ابنتي خاله جمع بينهما، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[3]. وولد له منهما، فماتت راحيل في نفاسها ببنيامين، وأراد يعقوب الرجوع إلى بيت المقدس فأعطاه خاله قطيع غنم، فلما ارتحلوا لم يكن لهم نفقة، فقالت زوجة يعقوب ليوسف: اسرق صنمًا من أصنام أبي نستنفق منه. فسرق صنمًا من أصنام أبيها وأحب يعقوب يوسف وأخوه بنيامين حبًا شديدًا ليتمهما وقال يعقوب لراع من الرعاة: إذا أتاكم أحد يسألكم من أنتم؟

---

(١) في المطبوعة «السري» وهو تصحيف.

(٢) هذه القصة من التوارة في سفر التكوين الإصحاح ٢٧ (١-٤٣).

(٣) سورة النساء (٢٣).

فقـولوا: نحن ليعقـوب عبد عـيص. فلقيهم عـيص فسألهم فـأجابه الراعي بذلك الجواب، فكف عيص عن يعقوب ونزل يعقوب الشام.

ومات إسـحاق بالشـام وعمره مـائة وستـون سنة ودفن عند أبيه إبراهيـم عليه السلام.



قصة أيوب عليه السلام[1]

وهو رجل من الروم من ولد عيص، وهو أيوب بن موص بن رازح بن عيص ابن إسحاق بن إبراهيم، وقيل: موص بن روعيل بن عيص. وكانت زوجته التي أمر أن يضربها بالضغث ليا ابنة يعقوب بن إسحاق، وقيل: هي رحمة ابنة أفرايم بن يوسف، وكانت أمه من ولد لوط، وكان دينه التوحيد والإصلاح بين الناس، وإذا أراد حاجة سجد ثم طلبها.

وكان من حديثه وسبب بلائه أن إبليس سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب حين ذكره الله فحسده وسأل الله أن يسلطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلطه على ماله حسب، فجمع إبليس عظماء أصحابه من العفاريت، وكان لأيوب البثنية جميعها من أعمال دمشق بما فيها، وكان له فيها ألف شاة برعاتها وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة الفدان أتان ولكل أتان ولد واثنان وما فوق ذلك، فلما جمعهم إبليس قال: ما عندكم من القوة والمعرفة؟ فإني قد تسلطت على مال أيوب، فقال كل منهم قولاً، فأرسلهم فأهلكوا ماله كله وأيوب يحمد الله ولا يرجع عن الجد في عبادته والشكر له على ما أعطاه والصبر على ما ابتلاه، فلما رأى ذلك إبليس من أمره سأل الله أن يسلطه على ولده، فسلطه عليهم ولم يجعل له سلطانًا على جسده ولا عقله وقلبه، فأهلك ولده كلهم، ثم جاء إليه متمثلاً بمعلمه الذي كان يعلمهم الحكمة جريحًا مشدوخًا يرققه حتى رق أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه فسر بذلك إبليس، ثم إن أيوب ندم لذلك وجد واستغفر، فصعد حفظته من الملائكة بتوبته إلى الله قبل إبليس، فلما لم يرجع أيوب عن عبادة ربه والصبر على ما ابتلاه به سأل الله تعالى أن يسلطه على جسده، فسلطه عليه خلا لسانه وقلبه وعقله فإنه لم يجعل له على ذلك سلطانًا. فجاءه وهو ساجد فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده وصار أمره إلى أن انتثر لحمه وامتلأ جسده دودًا، فإن كانت الدودة لتسقط من جسده فيردها إليه ويقول: كلي من رزق الله، وأصابه الجذام، وكان أشد من ذلك عليه أنه كان يخرج في جسده مثل ثدي المرأة ثم يتفقأ، وأنتن حتى لم يطق أحد

(١) تاريخ الطبري (١/ ١٩٤) و«البداية» (١/ ٢٤٩).

أن يشم ريحه، فأخرجه أهل القرية منها إلى الكناسة خارج القرية لا يقربه أحد إلا زوجته، وكانت تختلف إليه بما يصلحه، فبقي مطروحًا على الكناسة سبع سنين ما يسأل الله أن يكشف ما به، وما على وجه الأرض أكرم على الله منه[1].

وقيل: كان سبب بلائه أن أرض الشام أجدبت فأرسل فرعون إلى أيوب أن هلم إلينا فإن لك عندنا سعة، فأقبل بأهله وخيله وماشيته، فأقطعهم فرعون القطائع. ثم إن شعيبًا النبي دخل إلى فرعون فقال: يا فرعون أما تخاف أن يغضب الله غضبة فيغضب لغضبه أهل السماء وأهل الأرض والبحار والجبال؟ وأيوب ساكت لا يتكلم، فلما خرجا أوحى الله إلى أيوب: يا أيوب سكت عن فرعون لذهابك إلى أرضه، استعد للبلاء. فقال أيوب: أما كنت أكفل اليتيم وأؤوي الغريب وأشبع الجائع وأكفت الأرملة؟ فمرت سحابة يسمع فيها عشرة آلاف صوت من الصواعق يقولون: من فعل ذلك يا أيوب؟ فأخذ ترابًا فوضعه على رأسه وقال: أنت يا رب، فأوحى الله إليه: استعد للبلاء. قال: فديني؟ قال: أسلمه لك. قال: فما أبالي. وقيل: كان السبب غير ذلك، وهو نحو مما ذكرناه.

فلما ابتلاه الله واشتد عليه البلاء قالت له امرأته: إنك رجل مجاب الدعوة فادع الله أن يشفيك. فقال: كنا في النعماء سبعين سنة فلنصبر في البلاء سبعين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة. وقيل: إنما أقسم ليجلدنها لأن إبليس ظهر لها وقال: بم أصابكم ما أصابكم؟ قالت: بقدر الله. قال: وهذا أيضًا بقدر الله فاتبعيني، فاتبعته، فأراها جميع ما ذهب منهم في واد وقال: اسجدي لي وأرده عليكم. فقالت: إن لي زوجًا أستأمره. فلما أخبرت أيوب قال: ألم تعلمي أن ذلك الشيطان؟ لئن شفيت لأجلدنك مائة جلدة، وأبعدها وقال لها: طعامك وشرابك علي حرام لا أذوق مما تأتينني به شيئًا فابعدي عني فلا أراك. فذهبت عنه، فلما رأى أيوب أن امرأته قد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدًا وقال: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2] كرر ذلك. فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك، ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[3]، ورد الله إليه جسده وصورته.

وأما امرأته فقالت: كيف أتركه، وليس عنده أحد، يموت جوعًا وتأكله السباع؟

(١) هذا الكلام منقول من التوارة سفر أيوب الإصحاح الأول والثاني.

(٢) سورة الأنبياء (٨٣).

(٣) سورة ص (٤٢).

فرجعت إليه فرأت أيوب وقد عوفي، فلم تعرفه، فعجبت حيث لم تره على حاله، فقالت لـه: يا عبد الله! هل رأيت ذلك الرجل المبتلي الذي كـان ههنا؟ قال: وهل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: نعم. قال: هو أنا فـعرفته. وقيل: إنما قال: مسني الضر لما وصل الدود إلى لسانه وقلبه خاف أن يبطل عن ذكر الله تعالى والفكر.

ورد الله إليه أهله ومثلهم مـعهم، قيل هم بأعيانهم، وقـيل: رد الله إليه امرأته ورد إليها شبابها فولدت له ستـة وعشرين ذكراً وأنزل الله إليه ملكًا فقال: يا أيوب: إن الله يقرئك السلام لصبرك على البلاء. اخرج إلى أندرك. فخرج إليه، فبعث الله سحابة فألقت عليـه جراداً من ذهب، وكانت الجرادة تذهب فيتبـعها حتى يردها في أندره، فقال الملك: أمـا تشبع من الداخل حتى تتبع الخارج؟ فقـال: إن هذه البركة من بركات ربي لست أشبع منها، وعاش أيوب بعد أن رفع عنه البلاء سبعين سنة.

ولما عوفي أمـره الله أن يأخذ عرجـونًا من النخل فيه مـائة شمراخ فيـضرب به زوجته ليبر من يمينه، ففعل ذلك.

وقول أيوب: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾[1]، دعـاء ليس بشكوى، ودليله قـوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[2]. وكان من دعاء أيوب: أعوذ بالله من جار عينه تراني إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة ذكرها.

وقيل: كان سـبب دعائه أنه كان قد اتبعه ثلاثة نـفر على دينه اسم أحدهم بلدد والآخر اليفز والثالث صافر، فانطلقـوا إليه وهو في البلاء فبكتوه أشد تبكيت وقالوا له: لقد أذنبت ذنبًـا ما أذنبه أحـد، فلهذا لم يكشف العـذاب عنك. وطال الجدال بينهم وبينه، فقال فتى كان معهم لهم كلامًا يرد عليهم، فقال: قد تركتم من القول أحسنه، ومن الرأي أصـوبه، ومن الأمر أجمله، وقـد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم؟ ومن الرجل الذي عبتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته من خلقه يومكم هذا؟ ثم لم تعلموا ولم يعلمكم الله أنه سخط شيئًا من أمره ولا أنه نزع شيئًا من الكرامة التي كرم الله بها عباده ولا أن أيوب فعل غير الحق في طول ما صحبتموه، فإن كان البلاء هو الـذي أزرى به عندكم ووضعـه في نفوسكم، فـقد علمتم أن الله يـبتلي

(١) سورة الأنبياء (٨٣) والتلاوة ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر﴾.
(٢) سورة الأنبياء (٨٤).

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك دليلاً على سخطه عليهم ولا على هوانهم عليه ولكنها كرامة وخيرة لهم. وأطال في هذا النحو من الكلام. ثم قال لهم: وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يكل ألسنتكم ويكسر قلوبكم ويقطع حجتكم، ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم خشيته عن الكلام من غير عي ولا بكم؟ وإنهم لهم الفصحاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم وطاشت أحلامهم وعقولهم فزعًا من الله وهيبة له، فإذا أفاقوا استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين وإنهم لأبرار، ومع المقصرين وإنهم لأكياس أتقياء، ولكنهم لا يستكثرون لله عز وجل الكثير ولا يرضون له القليل ولا يدلون عليه بالأعمال فهم أينما لقيتهم خائفون مهيمون وجلون.

فلما سمع أيوب كلامه قال: إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى كانت في القلب ظهرت على اللسان ولا تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة، وإذا جعل الله تعالى عبداً حكيمًا عند الصبا لم تسقط منزلته عند الحكام. ثم أقبل على الثلاثة فقال: رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم قبل أن تضربوا، كيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عني بأموالكم لعل الله أن يخلصني، أو قربوا قربانًا لعل الله أن يتقبل ويرضى عني؟ وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم فظننتم أنكم عوفيتم بإحسانكم فبغيتم وتعززتم، لو صدقتم ونظرتم بينكم وبين ربكم لوجدتم لكم عيوبًا سترها الله بالعافية، وقد كنت فيما خلا والرجال يوقرونني وأنا مسموع كلامي، معروف من حقي، مستنصف من خصمي، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم، فأنتم أشد علي من مصيبتي.

ثم أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثًا به متضرعًا إليه. فقال: رب! لأي شيء خلقتني؟ ليتني إن كرهتني لم تخلقني، يا ليتني كنت حيضة ملقاة، ويا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت فصرفت وجهك الكريم عني! لو كنت أمتني فالموت أجمل بي! ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم وليًا وللأرملة قيمًا؟ إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي! جعلتني للبلاء غرضًا فقد وقع علي البلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي؟ ذهب المال فصرت أسأل بكفي فيطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة فيمنها علي ويعيرني! هلك أولادي، ولو بقي أحدهم أعانني. فقد ملني أهلي وعقني أرحامي

فتنكرت معارفي، ورغب عني صديقي، وجحدت حقوقي، ونسيت صنائعي. أصرخ فلا يصرخونني، وأعتذر فلا يعذرونني. دعوت غلامي فلم يجبني، وتضرعت إلى أمتي فلم ترحمني، وإن قضاءك هو الذي آذاني وأقمأني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني. فلو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم ملء فمي ثم كان ينبغي للعبد أن يحاج مولاه عن نفسه، لرجوت أن تعافيني عند ذلك، ولكنه ألقاني وعلا عني فهو يراني ولا أراه، ويسمعني ولا أسمعه، لا نظر إلي فرحمني، ولا دنا مني فأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي.

فلما قال أيوب ذلك أظلتهم غمامة ونودي منها: يا أيوب إن الله يقول: قد دنوت منك ولم أزل منك قريبًا فقم فأدل بحجتك وتكلم ببراءتك وقم مقام جبار فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار. تجعل الزيار في فم الأسد واللجام في فم التنين وتكيل مكيالاً من النور وتزن مثقالاً من الريح وتصر صرة من الشمس وتردامس. لقد منتك نفسك أمرًا لا تبلغه بمثل قوتك. أردت أن تكابرني بضعفك أم تخاصمني بعيبك أم تحاجني بخطلك! أين أنت مني يوم خلقت الأرض؟ هل علمت بأي مقدار قدرتها؟ أين كنت معي يوم رفعت السماء سقفًا في الهواء لا بعلائق ولا بدعائم تحملها؟ هل تبلغ حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ وذكر أشياء من مصنوعات الله.

فقال أيوب: قصرت عن هذا الأمر! ليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخطك! إلهي اجتمع علي البلاء وأنا أعلم أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك لا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية، تعلم ما تخفي القلوب، وقد علمت بلائي ما لم أكن أعلمه. كنت أسمع بسطوتك سمعًا فأما الآن فهو نظر العين. وإنما تكلمت بما تكلمت به لتعذرني، وسكت لترحمني، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي فدسست فيه وجهي فلا أعود لشيء تكرهه ودعا.

فقال الله: يا أيوب نفذ فيك حكمي وسبقت رحمتي غضبي، قد غفرت لك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وعبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين، فـ ﴿**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**﴾ فيه شفاء، وقرب عن أصحابك قربانًا واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك. فركض برجله فانفجرت له عين ماء، فاغتسل فيها، فرفع الله عنه البلاء، ثم خرج فجلس وأقبلت امرأته

فسألته عنه فقال: هل تعرفينه؟ قالت: نعم، مالي لا أعرفه! فتبسم، فعرفته بضحكه، فاعتنقته فلم تفارقه من عناقه حتى مر بهما كل مال لهما وولد[١].

وإنما ذكرته قبل يوسف وقصته لما ذكر بعضهم من أمره وأنه كان نبيًا في عهد يعقوب[٢]. وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثًا وتسعين سنة، وأنه أوصى عند موته إلى ابنه حوصل، وأن الله بعث بعده ابنه بشر بن أيوب نبيًا وسماه ذا الكفل، وكان مقيمًا بالشام حتى مات، وكان عمره خمسًا وسبعين سنة، فأوصى إلى ابنه عيدان، وأن الله بعث بعده شعيب بن صفيون بن عنقا بن نابت بن مدين بن إبراهيم، عليه السلام.



(١) هذا الكلام أشبه بكلام أهل الكتاب، ولو أعرض عنه المصنف ونقل ما صح عن رسول الله ﷺ في قصة أيوب عليه السلام لكان أحسن، ومن ذلك ما رواه أبو يعلى (٣٦١٧) وأبو نعيم في الحلية (٤٥٢٣) عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب ﷺ لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك ؟ قال منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحى إلى أيوب أن ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحًا، فقال: فإني أنا هو: وكان له أندران (أي بيدران): أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعيرالورق حتى فاض». صححه الألباني في الصحيحة (١٧).

(٢) والكلام للطبري (١/ ١٩٥) وخالفهما ابن كثير فقدم قصة يوسف على قصة أيوب، وكذلك صنع ابن الجوزي «في تاريخه» المنتظم (١/ ٣١٠).

ذكر قصة يوسف عليه السلام[١]

ذكروا أن إسحاق توفي وعمره ستون ومائة سنة، وقبره عند أبيه إبراهيم، قبره ابناه يعقوب وعيص في مزرعة جيرون، وكان عمر يعقوب مائة وسبعًا وأربعين سنة، وكان ابنه يوسف قد قسم له ولأمه شطر الحسن، وكان يعقوب قد دفعه إلى أخته ابنة إسحاق تحضنه، فأحبته حبًّا شديدًا وأحبه يعقوب أيضًا حبًّا شديدًا، فقال لأخته: يا أخية! سلمي إلي يوسف فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة. فقالت: والله ما أنا بتاركته ساعة. فأصر يعقوب على أخذه منها، فقالت: اتركه عندي أيامًا لعل ذلك يسليني، ثم عمدت إلى منطقة إسحاق، وكانت عندها، لأنها كانت أكبر ولده، فحزمتها على وسط يوسف ثم قالت: قد فقدت المنطقة فانظروا من أخذها. فالتمست، فقالت: اكشفوا أهل هذا البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، وكان من مذهبهم أن صاحب السرقة يأخذ السارق له لا يعارضه فيه أحد، فأخذت يوسف فأمسكته عندها حتى ماتت وأخذه يعقوب بعد موتها. فهذا الذي تأول إخوة يوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[٢] وقيل في سرقته غير هذا، وقد تقدم.

فلما رأى أخوة يوسف محبة أبيهم له وإقباله عليه حسدوه وعظم عندهم.

ثم إن يوسف رأى في منامه كأن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر تسجد له، فقصها على أبيه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة. فقال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٣]. ثم عبر له رؤياه. فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[٤]، وسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لها يعقوب: اكتمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادك. قالت: نعم. فلما أقبل أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا، فازدادوا حسدًا وكراهةً له وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبينا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا، إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا ويقول: أنا سيدكم. وتآمروا

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٠٠) والبداية (١/ ٢٢٤).
(٢) سورة يوسف (٧٧).
(٣) سورة يوسف (٥).
(٤) سورة يوسف (٦).

بينهم أن يفرقوا بينه وبين أبيه وقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١] ـ في خطأ بين في إيثارهما علينا ـ ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[٢] أي تائبين.

فقال قائل منهم، وهو يهوذا ـ وكان أفضلهم وأعقلهم ـ لا تقتلوا يوسف فإن القتل عظيم، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة، وأخذ عليهم العهود أنهم لا يقتلونه، فأجمعوا عند ذلك أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية، وأقبلوا إليه ووقفوا بين يديه، وكذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا منه حاجة، فلما رآهم قال: ما حاجتكم؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[٣] نحفظه حتى نرده ـ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ ـ إلى الصحراء ـ ﴿غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. فقال لهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[٤] لا تشعرون.

وإنما قال لهم ذلك لأنه كان رأى في منامه كأن يوسف على رأس جبل وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليقتلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، وكأن الأرض انشقت فذهب فيها فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام، فلذلك خاف عليه الذئب. فقال له بنوه: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[٥]. فلما سمع يعقوب ذلك اطمأن إليهم، فقال يوسف: يا أبت أرسلني معهم قال: أو تحب ذلك؟ قال: نعم. فأذن له، فلبس ثيابه وخرج معهم. وهم يكرمونه، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل بعض إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، وجعل يصيح: يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء. فلما كادوا يقتلونه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب فأوثقوه كتافًا ونزعوا قميصه وألقوه فيه، فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارى به في الجب! فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا يؤانسونك. قال: إني لم أر شيئًا، فدلوه في

(١) سورة يوسف (٨).
(٢) سورة يوسف (٩).
(٣) سورة يوسف (١١).
(٤) سورة يوسف (١٣).
(٥) سورة يوسف (١٤).

الجب، فلما بلغ نصفه ألقوه وأرادوا أن يموت، وكان في البئر ماء، فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فأقام عليها، ثم نادوه فظن أنهم قد رحموه فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بالحجارة فمنعهم يهوذا. ثم أوحى الله إليه: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(١) بالوحي.

وقيل: لا يشعرون أنه يوسف والجب بأرض بيت المقدس معروف.

ثم عادوا إلى أبيهم عشاء يبكون فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾(٢). فقال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(٣). ثم قال لهم: أروني قميصه. فأروه. فقال: تالله ما رأيت ذئبًا أحلم من هذا! أكل ابني ولم يشق قميصه! ثم صاح وخر مغشيًا عليه ساعة، فلما أفاق بكى بكاء طويلاً فأخذ القميص يقبله ويشمه.

وأقام يوسف في الجب ثلاثة أيام، وأرسل الله ملكًا فحل كتافه، ثم ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾، وهو الذي يتقدم إلى الماء، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ إلى البئر، فتعلق به يوسف فأخرجه من الجب، و﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ﴾(٤) أي تباشروا وقيل: بشرى اسم غلام ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾(٥) الوارد وأصحابه خافوا أن يقولوا اشتريناه فيقول الرفقة: أشركونا فيه فقالوا: إن أهل الماء استبضعونا هذا الغلام، وجاء يهوذا بطعام ليوسف فلم يره في الجب فنظر فرآه عند مالك في المنزل فأخبر إخوته بذلك، فأتوا مالكًا وقالوا: هذا عبد آبق منا. وخافهم يوسف فلم يذكر حاله، واشتروه من إخوته بثمن بخس، قيل: عشرون درهمًا، وقيل: أربعون درهمًا وذهبوا به إلى مصر، فكساه مالك وعرضه للبيع، فاشتراه قطفير وقيل أطفير، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة، قيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف ومات ويوسف حي، وملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف فلم يؤمن.

فلما اشترى يوسف وأتى به إلى منزله قال لامرأته، واسمها راعيل: ﴿أَكْرِمِي

---

(١) سورة يوسف (١٥).
(٢) سورة يوسف (١٧).
(٣) سورة يوسف (١٨).
(٤)،(٥) سورة يوسف (١٩).

مثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾[1] فيكفينا إذا هو بلغ وفهم الأمور بعض ما نحن بسبيله ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[2]، وكان لا يأتي النساء، وكانت امرأته حسناء ناعمة في ملك ودنيا.

فلما خلا من عمر يوسف ثلاث وثلاثون سنة آتاه الله العلم والحكمة قبل النبوة، وراودته راعيل عن نفسه وأغلقت الأبواب عليه وعليها ودعته إلى نفسها، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾[3] يعني أن زوجك سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[4] يعني أن خيانته ظلم.

وجعلت تذكر محاسنه وتشوقه إلى نفسها، فقالت له: يا يوسف ما أحسن شعرك! قال: هو أول ما ينتثر من جسدي. قالت: يا يوسف ما أحسن عينيك! قال: هما أول ما يسيل من جسدي. قالت: ما أحسن وجهك! قال: هو للتراب.

فلم تزل به حتى همت وهم بها وذهب ليحل سراويله[5]، فإذا هو بصورة يعقوب قد عض على إصبعه يقول: يا يوسف أتواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق، ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات وسقط إلى الأرض.

---

(١)،(٢) سورة يوسف (٢١).

(٣)،(٤) سورة يوسف (٢٣).

(٥) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾:
اختلف أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره- أي من حل السراويل والجلوس بين رجليها - والله أعلم.
وقيل المراد بهمه بها خطرات حديث النفس حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائي فإن عملها فاكتبوها بمثلها وهذا الحديث فخرج في الصحيحين وله ألفاظ هذا منها وقيل هم بضربها وقيل تمناها زوجة وقيل هم بها لولا أن رأى برهان ربه أي فلم يهم بها وفي هذا القول نظر من حيث العربية حكاه ابن جرير. انتهى كلام ابن كثير.
وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية
فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو لله نبي ؟ قيل: إن أهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: كان من ابتلى من الأنبياء بخطيئة، فإنما ابتلاه الله بها ليكون من الله عز وجل على وجل إذا ذكرها، فيجد في طاعته إشفاقًا منها، ولا يتكل على سعة عفو الله ورحمته، وقال آخرون: بل ابتلاهم الله بذلك ليعرفهم موضع نعمته عليهم، بصفحه عنهم وتركه عقوبته عليه في الآخرة وقال آخرون: بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء رحمه الله وترك الإياس من عفوه عنهم إذا تابوا. =

وقيل: جلس بين رجليها فرأى في الحائط: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1]. فقام حين رأى برهان ربه هاربًا يريد الباب، فأدركته قبل خروجه من الباب فجذبت قميصه من قبل ظهره فقدته، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾[2] وابن عمها معه، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ﴾[3]. قال يوسف: بل ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[4] فهربت منها فأدركتني فقدت قميصي. قال لها ابن عمها: تبيان هذا في القميص فإن كان قد من قبل فصدقت، وإن كان قد من دبر

= وأما آخرون من خالف أقوال السلف وتأولوا القرآن بآرائهم، فإنهم قالوا في ذلك أقوالاً مختلفة، فقال بعضهم معناه: ولقد همت المرأة بيوسف، وهم بها يوسف أن يضر بها أو ينالها بمكروه لهمها به ما أرادته من المكروه لولا أن يوسف رأى برهان ربه وكفه ذلك عما هم به من أذاها، لأنها ارتدعت من قبل نفسها قالوا والشاهد على صحة ذلك قوله لذلك ﴿لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾.

وقال آخرون منهم معنى الكلام ولقد همت به فتناها الخبر عنها، ثم ابتدء الخبر عن يوسف فقيل وهم بها يوسف لولا أن رأى برهان ربه. ثم انتقد ابن جرير هذا القول بأنه مخالف للعربية.

قلت وأولى هذه الأقوال القول الأول الذي حكاه الحافظ ابن كثير.

(١) سورة الإسراء (٣٢).

وقد اختلف أهل العلم بالمقصود من قوله تعالى ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ على عدة أقوال وقال ابن جرير الطبري وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال إن الله جل ثناءه أخبر عن هم يوسف وامرأة العزيز كل واحد منها بصاحبه لولا أن رأى برهان ربه وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ما هم به يوسف من الفاحشة. وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا، ولا حجة للعذر قاطعة بأي ذلك من أي. والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه. وقال السعدي في تفسيره ص (٢٥١-٢٥٢).

في تفسير هذه الآية: ورأى من برهان ربه وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة قال معاذ الله أي أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح لأنه مما يسخط الله ويبعد عنه لأنه خيانة في حق سيدي الذكر أكرم مثواي فلا يليق به أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة وهذا من أعظم الظلم والظالم لا يفلح والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله ومراعاة حق سيده الذي أكرمه وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطه وكذلك ما منّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه وأسدى عليهم من النعم وصرف عنهم المكارم ما كانوا به من خيار خلقه.

(٢) سورة يوسف (٢٥).

(٣) سورة يوسف (٢٥).

(٤) سورة يوسف (٢٦).

فكذبت، فأتي بالقميص فوجده قد من دبر فقال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[(١)].

وقيل: كان الشاهد صبيًا في المهد. قال ابن عباس: «تكلم أربعة في المهد وهم صغار، ابن ماشطة امرأة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم»[(٢)].

وقال زوجها ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[(٣)] أي ذكر ما كان منها فلا تذكره لأحد، ثم قال لزوجته. ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[(٤)].

وتحدثت النساء بأمر يوسف وامرأة العزيز، وبلغ ذلك امرأة العزيز، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[(٥)] يتكئن عليه ووسائد، وحضرن، وقدمت لهن أترنجًا[(٦)] وأعطت كل واحدة منهن سكينًا لقطع الأترنج، وقد أجلست يوسف في غير المجلس الذي هن فيه وقالت له: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[(٧)] فخرج ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾[(٨)] وأعظمنه ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[(٩)] بالسكاكين ولا يشعرن، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[(١٠)].

فلما حل بهن ما حل من قطعهن أيديهن وذهاب عقولهن وعرفن خطأهن فيما قلن أقرت على نفسها وقالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[(١١)]. فاختار يوسف السجن على معصية الله فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾[(١٢)].

---

(١) سورة يوسف (٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تاريخه» (١/ ٢٠٥) من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به وعطاء بن السائب اختلط ورواية حماد بن سلمة عنه مختلف فيها. والأثر روى مرفوعًا من حديث أبي هريرة، أخرجه الحاكم (٤١٦١) وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٥٩) ضعيف.

(٣)، (٤) سورة يوسف (٢٩).

(٥) سورة يوسف (٣١).

(٦) الأترنج أو الأترج: ثمر معروف جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون ومنافع كثيرة.

(٧): (١٠) سورة يوسف (٣١).

(١١) سورة يوسف (٣٢).

(١٢) سورة يوسف (٣٣، ٣٤).

ثم بدا للعزيز من بعد ما رأى الآيات من القميص وخمش الوجه وشهادة الطفل وتقطيع النسوة أيديهن في ترك يوسف مطلقًا، وقيل: إنها شكت إلى زوجها وقالت: إن هذا العبد قد فضحني في الناس يخبرهم أنني راودته عن نفسه، فسجنه سبع سنين.

فلما حبس يوسف أدخل معه السجن فتيان من أصحاب فرعون مصر، أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه، لأنهما نقل عنهما أنهما يريدان أن يسما الملك.

فلما دخل يوسف السجن قال: إني أعبر الأحلام. فقال أحد الفتيين للآخر: هلم فلنجربه. قال الخباز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾. وقال الآخر: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾. فقال لهما يوسف: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾[1]. كره أن يعبر لهما ما يسألاه عنه، وأخذ في غير ذلك وقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2].

وكان اسم الخباز «مجلت»، واسم الآخر «نبو»، فلم يدعاه حتى أخبرهما بتأويل ما سألاه عنه، فقال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر الخمر، ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾، يعني سيده الملك، ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾.

فلما عبر لهما قالا: ما رأينا شيئًا! قال: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. ثم قال لنبو، وهو الذي ظن أنه ناج منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ـ الملك ـ وأخبره أني محبوس ظلمًا. ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان[3] فأوحى الله إليه: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً! لأطيلن حبسك. فلبث في السجن سبع سنين.

---

(١) سورة يوسف (٣٧)

(٢) سورة يوسف (٣٩)

(٣) هذا القول قاله البعض في تفسير قوله تعالى ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ وهو قول مرجوح قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٠).

والصواب أن الضمير في قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه عائد على الناجي كما قاله مجاهد ومحمد ابن إسحاق وغير واحد ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضًا وعكرمة وغيرهم وأسند ابن جرير ههنا حديثًا فقال حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا قال =

ثم إن الملك، وهو الريان بن الوليد بن الهروان بن إراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، رأى رؤيا هائلة، رأى ﴿سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف[١]، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ فجمع السحرة والكهنة والحازة والعافة فقصها عليهم، فقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٢] أي حين ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[٣].

فأرسلوه إلى يوسف، فقص عليه الرؤيا، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٤]، فإن البقر السمان السنون المخاصيب، والبقرات العجاف السنون المحول، وكذلك السنبلات الخضر واليابسات، فعاد نبو إلى الملك فأخبره، فعلم أن قول يوسف حق، فقال: ائتوني به.

فلما أتاه الرسول ودعاه إلى الملك لم يخرج معه وقال: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[٥] فلما رجع الرسول من عند يوسف سأل الملك أولئك النسوة فقلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء ولكن امرأة العزيز خبرتنا أنها راودته عن نفسه، فقالت امرأة العزيز: أنا راودته عن نفسه. فقال يوسف: إنما رددت الرسل ليعلم سيدي أني لم أخنه بالغيب في زوجته. فلما قال ذلك، قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[٦].

= قال النبي ﷺ لو لم يقل يعني يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله وهذا الحديث ضعيف جداً لأن سفيان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضًا وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما وهذه المرسلات ههنا لا تقبل من قبل المرسل من حيث هو غير هذا الموطن والله أعلم.

(١) عجاف: أي هزال.

(٢) سورة يوسف: (٤٤، ٤٥).

(٣) سورة يوسف (٤٥).

(٤) سورة يوسف (٤٧).

(٥) سورة يوسف (٥٠).

(٦) سورة يوسف (٥٣). والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره عن طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس به.

وهذا سند ضعيف. سماك ضعيف في روايته عن عكرمة والصحيح في تفسيره الآية أن ذلك =

فلما ظهر للملك براءة يوسف وأمـانته قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾[1]. فلما جاءه الرسول خرج معه ودعـا لأهل السجن وكتب على بابه: هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء.

ثم اغتسل ولبس ثيـابه وقصد الملك، فلما وصل إليـه وكلمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[2]. فقال يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾[3]. فاستـعمله بعد سنة ولو لم يقل اجعلني على خـزائن الأرض لاستعمله من ساعتـه، فسلم خزائنه كلها بعد سنة وجعل القضاء إليه وحكمه نافـذاً، ورد إليه عمل قطفير سيده بعد أن هلك، وكان هلاكه في تلك الليالي، وقـيل: بل عزله فرعون وولى يوسف عمله، والأول أصح لأن يوسف تزوج امرأته، على ما نذكره.

ولما ولي يوسف عمل مصر دعا الملك ريان إلى الإيمان، فآمن ثم توفي.

ثم ملك بعده مصر قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملاق، فدعاه يوسف إلى الإيمان، فلم يؤمن، وتوفي يوسف في ملكه.

ثم إن الملك الريان زوج يوسف راعيل امـرأة سيده، فلما دخل بهـا قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فـقالت: أيها الصديق لا تلمني فـإني كنت امرأة حسناء جمـيلة في ملك ودنيـا وكان صاحـبي لا يأتي النساء وكـنت كما جـعلك الله في حسنك فغلبتني نفسي. ووجدها بكراً، فولدت له ولدين إفرايم ومنشا.

فلما ولي يوسف خـزائن أرضه ومضت السنـون السبع المخصبـات وجمع فيـها الطعام في سنبله ودخلت السنون المجدبة وقحط الناس وأصابهم الجوع وأصاب بلاد يعقـوب التي هو بها بعث بنيـه إلى مصر وأمسـك بنيامين أخا يوسف لأمـه، فلما

= من تمام قول امرأة العزيز قـال الحافظ ابن كثير في تفسـيره في قوله تعالى ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ تقول إنما اعتـرفت بهذا على نفسي ليـعلم زوجي أني لم أخنه في نفسي الآن ولا وقع المحذور الأكبر وإنما راودت هذا الـشاب مراودة فامتنع فلهذا اعتـرفت ليعلم أني بريئة ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبرئ نفسي﴾ تقول المرأة ولست أبرئ نفسي فـإن النفس تتحدث وتتمنى ولهذا راودته لأن ﴿النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من عصـمه الله ﴿إن ربي غفور رحيم﴾.

قال: وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة.

(١)،(٢) سورة يوسف (٥٤).

(٣) سورة يوسف (٥٥).

دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون، وإنما أنكروه لبعد عهدهم منه ولتغير لبسه، فإنه لبس ثياب الملوك، فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما شأنكم؟ قالوا: نحن من الشام جئنا نمتار الطعام. قال: كذبتم، أنتم عيون، فأخبروني خبركم. قالوا: نحن عشرة أولاد رجل واحد صديق، كنا اثني عشر، وإنه كان لنا أخ فخرج معنا في البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا. قال: فإلى من سكن أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه. قال: فأتوني به أنظر إليه ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾(١). قال: فاجعلوا بعضكم عندي رهينة حتى ترجعوا. فوضعوا شمعون، أصابته القرعة.

وجهزهم يوسف بجهازهم وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم ـ يعني ثمن الطعام ـ في رحالهم لعلهم يرجعون، لما علم أن أمانتهم وديانتهم تحملهم على رد البضاعة فيرجعون إليه لأجلها.

وقيل: رد مالهم لأنه خشي أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى، فإذا رأوا معهم بضاعة عادوا. وكان يوسف حين رأى ما بالناس من الجهد قد أسى بينهم، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً.

فلما رجعوا إلى أبيهم بأحمالهم قالوا: يا أبانا إن عزيز مصر قد أكرمنا كرامة لو أنه بعض أولاد يعقوب ما زاد على كرامته، وإنه ارتهن شمعون وقال: ائتوني بأخيكم الذي عطف عليه أبوكم بعد أخيكم، ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾(٢). قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾(٣).

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾(٤).

قال يعقوب: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾(٥)، فقال يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ

---

(١) سورة يوسف (٦٠).

وهذا الكلام الذي ساقه المصنف عزاه الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ٢٣٩) لأهل الكتاب، وقال وفي بعض هذا نظر.

قلت، والأولى بالمصنف أن يكتفي بتفسير ما ورد في القرآن الكريم ففيه الكفاية والله الموفق.

(٢) سورة يوسف (٦٠).

(٣) سورة يوسف (٦٤).

(٤) سورة يوسف (٦٥).

(٥) سورة يوسف (٦٥).

مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[١].

ثم أوصاهم أبوهم بعد أن أذن لأخيهم في الرحيل معهم ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[٢]، خاف عليهم العين، وكانوا ذوي صورة حسنة، ففعلوا كما أمرهم أبوهم، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[٣] وعرفه وأنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الوظائف وقدم لهم الطعام وأجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه! فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأجلسه معه وقعد يؤاكله. فلما كان الليل جاءهم بالفراش وقال: لينم كل أخوين منكم على فراش، وبقي بنيامين وحده، فقال: هذا ينام معي، فبات معه على فراشه، فبقي يشمه ويضمه إليه حتى أصبح، وذكر له بنيامين حزنه على يوسف، فقال له: أتحب أن أكون أخاك عوض أخيك الذاهب؟ فقال بنيامين: ومن يجد أخًا مثلك! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف وقام إليه فعانقه وقال له: إني أنا أخوك يوسف فلا تبتئس بما فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم بما علمتك.

وقيل: لما دخلوا على يوسف نقر الصواع وقال: إنه يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً وأنكم بعتم أخاكم. فلما سمعه بنيامين سجد له وقال: سل صاعك هذا عن أخي أحي هو؟ فنقره ثم قال: هو حي وستراه. قال: فاصنع بي ما شئت فإنه إن علم بي فسوف يستنقذني، قال: فدخل يوسف فبكى ثم توضأ وخرج إليهم، قال: فلما حمل يوسف إبل إخوته من الميرة جعل الإناء الذي يكيل به الطعام، وهو الصواع، وكان من فضة، في رحل أخيه. وقيل: كان إناء يشرب فيه. ولم يشعر أخوه بذلك.

وقيل: إن بنيامين لما علم أن يوسف أخوه قال: لا أفارقك. قال يوسف: أخاف غم أبوينا ولا يمكنني حبسك إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع. قال: افعل. فإني أجعل الصواع في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة لآخذك منهم. قال: افعل، فلما ارتحلوا أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي

(١) سورة يوسف (٦٦).
(٢) سورة يوسف (٦٧).
(٣) سورة يوسف (٦٩).

الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[1] لأننا رددنا ثمن الطعام إلى يوسف. فلما قالوا ذلك قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه تأخذونه لكم. فبدأ بأوعيتهم ففتشها قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه. فقالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، يعنون يوسف، وكانت سرقته حين سرق صنمًا لجده أبي أمه فكسره فعيروه بذلك، وقيل ما تقدم ذكره من المنطقة.

فلما استخرجت السرقة من رحل الغلام قال إخوته: يا بني راحيل لا يزال لنا منكم بلاء! فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما يزال لهم منكم بلاء! وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فأخذ يوسف أخاه بحكم إخوته، فلما رأوا أنهم لا سبيل لهم عليه سألوه أن يتركه لهم وقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾[2]. فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾[3]. فلما أيسوا من خلاصه خلصوا نجيًّا لا يختلط بهم غيرهم، فقال كبيرهم، وهو شمعون وقيل روبيل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾[4] أن نأتيه بأخينا إلا أن يحاط بنا، ومن قبل هذه المرة ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي بالخروج، وقيل: بالحرب، فارجعوا إلى أبيكم فقصوا عليه خبركم.

فلما رجعوا إلى أبيهم فأخبروه بخبر بنيامين وتخلف شمعون قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[5] بيوسف وأخيه وشمعون، ثم أعرض عنهم وقال: واحزناه على يوسف! ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[6] مملوء من الحزن والغيظ فقال له بنوه: تالله لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أي دنفًا[7] أو تكون من الهالكين. فأجابهم يعقوب فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[8] من صدق رؤيا يوسف. وقيل: بلغ من وجد يعقوب وجد سبعين ثكلى، وأعطي على ذلك أجر مائة شهيد.

---

(١) سورة يوسف (٧٣).
(٢) سورة يوسف (٧٨).
(٣) سورة يوسف (٧٩).
(٤) سورة يوسف (٨٠).
(٥) سورة يوسف (٨٣).
(٦) سورة يوسف (٨٤).
(٧) الدنف: هو المرض الملازم.
(٨) سورة يوسف (٨٦).

قيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يا يعقوب قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك! فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف. فأوحى الله إليه: أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها. قال: قد غفرتها لك[1]. فكان يعقوب إذا سئل بعد ذلك قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فأوحى الله إليه: لو كانا ميتين لأحييتهما لك، إنما ابتليتك لأنك قد شويت وقترت على جارك ولم تطعمه.

وقيل: كان سبب إبتلائه أنه كان له بقرة لها عجول فذبح عجولها بين يديها وهي تخور فلم يرحمها يعقوب، فابتلي بفقد أعز ولده عنده، و قيل: ذبح شاة، فقام ببابه مسكين فلم يطعمه منها، فأوحى الله إليه في ذلك وأعلمه أنه سبب ابتلائه، فصنع طعامًا ونادى: من كان صائمًا فليفطر عند يعقوب.

ثم إن يعقوب أمر بنيه الذين قدموا عليه من مصر بالرجوع إليها وتحسس الأخبار عن يوسف وأخيه، فرجعوا إلى مصر فدخلوا على يوسف وقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾[2] يعني قليلة ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾[3]، قيل: كانت بضاعتهم دراهم زيوفًا، وقيل: كانت سمنًا وصوفًا، وقيل غير ذلك، وتصدق علينا بفضل ما بين الجيد والرديء، وقيل: برد أخينا علينا. فلما سمع كلامهم غلبته نفسه فارفض دمعه باكيًا ثم باح لهم بالذي كان يكتم.

وقيل: إنما أظهر لهم ذلك لأن أباه كتب إليه، حين قيل له إنه أخذ ابنه لأنه سرق، كتابًا:

من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله[4] ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر المظهر العدل. أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، وأما جدي فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على حلقه ليذبح ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية فعادوا ومعهم قميصه ملطخًا بدم وقالوا: أكله الذئب، وكان لي ابن آخر أخوه لأمه فكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وإنك حبسته، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» عن طلحة بن مصرف. مرسلاً بسند ضعيف.

(٢)،(٣) سورة يوسف (٨٨).

(٤) تقدم القول الراجح في الذبيح وأنه إسماعيل وليس إسحاق والد إسرائيل.

فلما قرأ الكتاب لم يتمالك أن بكى وأظهر لهم فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[١] بأن جمع بيننا، فاعتذروا وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[٢] . أي لا أذكر لكم ذنبكم، يغفر الله لكم، ثم سألهم عن أبيه، فقالوا: لما فاته بنيامين عمي من الحزن، فقال: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين. فقال يهوذا: أنا أذهب به لأني ذهبت إليه بالقميص ملطخًا بالدم وأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أخبره أنه حي فأفرحه كما أحزنته. وكان هو البشير.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾[٣] عن مصر حملت الريح إلى يعقوب ريح يوسف، وبينهما ثمانون فرسخًا، يوسف بمصر ويعقوب بأرض كنعان. فقال يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾[٤] فقال له من حضره من أولاده: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ﴾[٥] من ذكر يوسف ﴿لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾[٦] بقميص يوسف ﴿أَلْقَاهُ﴾[٧] على وجه يعقوب فعاد بصيراً وقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٨]، يعني تصديق الله تأويل رؤيا يوسف، ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾[٩] قال له يعقوب: كيف تركت يوسف؟ قال: تركته ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: تركته على الإسلام. قال: الآن تمت النعمة. فلما رأى من عنده من أولاده قميص يوسف وخبره قالوا له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾[١٠] آخر الدعاء إلى السحر من ليلة الجمعة.

ثم ارتحل يعقوب وولده، فلما دنا من مصر خرج يوسف يتلقاه ومعه أهل مصر، وكانوا يعظمونه، فلما دنا أحدهما من صاحبه نظر يعقوب إلى الناس والخيل، وكان يعقوب يمشي ويتوكأ على ابنه يهوذا، فقال له: يا بني هذا فرعون

---

(١) سورة يوسف (٨٩، ٩٠).

(٢) سورة يوسف (٩١، ٩٢).

(٣)، (٤) سورة يوسف (٩٤) وقوله تفندون أي تسفهون.

(٥) سورة يوسف (٩٥).

(٦) سورة يوسف (٩٥-٩٦).

(٧)، (٨) سورة يوسف (٩٦).

(٩) سورة يوسف (٩٦).

(١٠) سورة يوسف (٩٧)، (٩٨).

مصر؟ قال: لا، هذا ابنك يوسف. فلما قرب منه أراد يوسف أن يبدأه بالسلام، فمنع من ذلك، فقال له يعقوب: «السلام عليك يا مذهب الأحزان»، لأنه لم يفارقه الحزن والبكاء مدة غيبة يوسف عنه.

قال: فلما دخلوا مصر رفع أبويه، يعني أمه وأباه، وقيل: كانت خالته وكانت أمه قد ماتت، وخر له يعقوب وأمه وإخوته سجداً، وكان السجود تحية الناس للملوك، ولم يرد بالسجود وضع الجبهة على الأرض، فإن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى، وإنما أراد الخضوع والتواضع والانحناء عند السلام كما يفعل الآن بالملوك. والعرش: السرير[١].

وقال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[٢].

وكان بين رؤيا يوسف ومجيء يعقوب أربعون سنة، وقيل: ثمانون سنة، فإنه ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، ولقيه وهو ابن سبع وتسعين سنة وعاش بعد جمع شمله ثلاثًا وعشرين سنة، وتوفي وله مائة وعشرون سنة، وأوصى إلى أخيه يهوذا. وقيل كانت غيبة يوسف عن يعقوب ثماني عشرة سنة. وقيل: إن يوسف دخل مصر وله سبع عشرة سنة، واستوزره فرعون بعد ثلاث عشرة سنة من قدومه إلى مصر، وكانت مدة غيبته عن يعقوب اثنتين وعشرين سنة، وكان مقام يعقوب بمصر وأهله معه سبع عشرة سنة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ولما مات يعقوب أوصى إلى يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحاق، ففعل يوسف، فسار به إلى الشام فدفنه عند أبيه، ثم عاد إلى مصر وأوصى يوسف أن يحمل من مصر ويدفن عند آبائه، فحمله موسى لما خرج ببني إسرائيل[٣]، وولد يوسف إفريم

---

(١) وهذا ما فسرت به الآية في تفسير الجلالين وأما في تفسير ابن كثير فلم يتأول السجود على غير ظاهره بل قال قد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائز من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الله سبحانه وتعالى هذا مضمون قول قتادة وغيره.

قلت فالسجود كان جائزًا قبل شريعة محمد ﷺ لا على وجه العبودية بأمر الله عز وجل كما سجدت الملائكة لآدم.

(٢) سورة يوسف (١٠٠).

(٣) وهذا ينافي ظاهر قوله ﷺ: «ما قبض الله تعالى نبيًا إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه»، رواه الترمذي من حديث أبو بكر وصححه الألباني، فإن ثبت نقل يوسف ليعقوب ونقل موسى ليوسف فهو مخصوص من هذا الحديث، وإلا فالحديث عام يشمل جميع الأنبياء، وقال المناوي في «فيض القدير» في شرح هذا الحديث: ولا ينافيه نقل موسى ليوسف من مصر إلى آبائه =

ومنشا، فولد لإفرايم نون ولنون يوشع فتى موسى، وولد لمنشا موسى، قيل موسى ابن عمران، وزعم أهل التـوراة أنه موسى الخضر، وولد له رحـمة امرأة أيوب في قول.



= بفلسطين لاحتمال أن محبة يوسف لدفنه بمصر مؤقتة بفقد من ينقله.

قصة شعيب عليه السلام(١)

قيل: إن اسم شعيب يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، وقيل: هو شعيب بن ميكيل من ولد مدين، وقيل: لم يكن شعيب من ولد إبراهيم، وإنما هو من بعض ولد من آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الشام، ولكنه ابن بنت لوط، فجدة شعيب ابنة لوط، وكان ضرير البصر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾(٢)، أي ضرير البصر.

وكان النبي ﷺ إذا ذكره قال: «ذاك خطيب الأنبياء»(٣)، بحسن مراجعته قومه، وإن الله أرسله إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، والأيكة: شجر ملتف، وكانوا أهل كفر بالله، وبخس للناس في المكاييل والموازين وإفساد أموالهم، وكان الله وسع عليهم في الرزق وبسط لهم في العيش استدراجًا لهم منه مع كفرهم بالله، فقال لهم شعيب: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾(٤).

فلما طال تماديهم في غيهم وضلالهم ولم يزدهم تذكير شعيب إياهم وتحذيره عذاب الله إياهم إلا تماديًا، ولما أراد إهلاكهم سلط عليهم عذاب يوم الظلة، وهو ما ذكره ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٥). فقال: بعث الله عليهم وقدة وحرًّا شديدًا فأخذ بأنفسهم، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتى اجتمعوا تحتها، فأرسل الله عليهم نارًا. قال عبدالله بن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة(٦). وقال قتادة: بعث الله شعيبًا إلى

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ١٩٧) والبداية (١/ ٢٠٨).

(٢) سورة هود (٩١).

(٣) روى عن ابن إسحاق عن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا به كما في «البداية» (١/ ٢١٠) وهذا سند ضعيف لانقطاعه بين الضحاك وابن عباس وابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

(٤) سورة هود (٨٤).

(٥) سورة الشعراء (١٨٩).

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٩٨).

أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة وكانت الأيكة من شجر ملتف، فلما أراد الله أن يعذبهم بعث عليهم حرًّا شديدًا ورفع لهم العذاب كأنه سحابة، فلما دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها، فلما كانوا تحتها أمطرت عليهم نارًا، قال: فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[1].

وأما أهل مدين فمنهم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، فعذبهم الله بالرجفة، وهي الزلزلة، فأهلكوا.

قال بعض العلماء: كان قوم شعيب عطلوا حدًّا، فوسع الله عليهم في الرزق، ثم عطلوا حدًّا فوسع الله عليهم في الرزق، فجعلوا كلما عطلوا حدًّا وسع الله عليهم في الرزق، حتى إذا أراد هلاكهم سلط عليهم حرًّا لا يستطيعون أن يتقاروا ولا ينفعهم ظل ولا ماء حتى ذهب ذاهب منهم فاستظل تحت ظله فوجد روحًا فنادى أصحابه: هلموا إلى الروح، فذهبوا إليه سراعًا حتى إذا اجتمعوا إليها ألهبها الله عليهم نارًا، فذلك عذاب يوم الظلة.

وقد روى عامر عن ابن عباس أنه قال له: من حدثك ما عذاب يوم الظلة فكذبه[2]. وقال مجاهد: عذاب يوم الظلة هو إظلال العذاب على قوم شعيب. وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[3]، قال: مما كان ينهاهم عنه قطع الدراهم.

* * *

(١) سورة الشعراء (١٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٩٩) وفي سنده جابر الجعفي وهو ضعيف.

(٣) سورة هود (٨٧).

قصة الخضر وخبره مع موسى[١]

قال أهل الكتاب: إن موسى صاحب الخضر هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب، والحديث الصحيح عن النبي ﷺ أن موسى صاحب الخضر هو موسى بن عمران على ما نذكره.

وكان الخضر ممن كان أيام أفريدون الملك بن أثغيان في قول علماء أهل الكتب الأول قبل موسى بن عمران. وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في أيام إبراهيم الخليل، وإنه بلغ مع ذي القرنين نهر الحياة فشرب من مائه ولا يعلم ذو القرنين ومن معه، فجلد وهو حي عندهم إلى الآن. وزعم بعضهم: أنه كان من ولد من آمن مع إبراهيم وهاجر معه، واسمه يليا بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وكان أبوه ملكًا عظيمًا. وقال آخرون: ذو القرنين الذي كان على عهد إبراهيم أفريدون بن أثغيان، وعلى مقدمته كان الخضر. قال عبد الله بن شوذب[٢]: الخضر من ولد فارس، وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان كل عام بالموسم[٣]. وقال ابن إسحاق: استخلف الله على بني

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٢٠) و«البداية» (١/ ٣٣٢).

(٢) أحد كبار أتباع التابعين.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦ / ٤٢٦-٤٢٧) من حديث ابن عباس وقال الذهبي في «الميزان» (٢/ ١٣): منكر.

وقد أورد أهل العلم آثارًا كثيرة في بقاء الخضر حيًا جمعها الحافظ ابن كثير في «تاريخه» (١/ ٣٧٢) إلى (١/ ٣٧٩) وابن حجر في الفتح (٦/ ٥١٠) وقال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر ما في الباب من أخبار وروايات: وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياة إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدًا لا يقوم بمثلها حجة في الدين والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقصارها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره لأنه يجوز عليه الخطأ والله أعلم.

ثم قال وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد.

قلت وممن ذهب إلى بطلان هذا القول بحياة الخضر إبراهيم الحربي والبخاري وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وانتصر له في كتابه «نقض المنقول» (٦٢-٦٧).

إسرائيل رجلاً منهم يقال له ناشية بن أموص، فبعث الله لهم الخضر معه نبيًّا[١]، قال: واسم الخضر فيما يقول بنو إسرائيل أرميا بن حلقيا، وكان من سبط هاورن بن عمران، وبين هذا الملك وبين أفريدون أكثر من ألف عام. وقول من قال إن الخضر كان في أيام أفريدون وذي القرنين الأكبر قبل موسى بن عمران أشبه للحديث الصحيح أن موسى بن عمران أمره الله بطلب الخضر، ورسول الله ﷺ كان أعلم الخلق بالكائن من الأمور، فيحتمل أن يكون الخضر على مقدمة ذي القرنين قبل موسى، وأنه شرب من ماء الحياة فطال عمره، ولم يرسل في أيام إبراهيم، وبعث في أيام ناشية بن أموص، وكان ناشية هذا في أيام بشتاسب بن لهراسب، والحديث ما رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ . قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: إن نوفًا[٢] يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى بن عمران. قال: كذب عدو الله[٣]، حدثني أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: إن موسى قام في بني إسرائيل خطيبًا فقيل له: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فقال: يا رب هل هناك أعلم مني؟ قال: بلى، عبد لي بمجمع البحرين. قال: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله في مكتل فحيث تفقده فهو هناك. فأخذ حوتًا فجعله في مكتل ثم قال لفتاه: إذا فقدت هذا الحوت فأخبرني. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى أتيا الصخرة وذلك الماء، وهو ماء الحياة، فمن شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي، فمس الحوت منه فحيي[٤]، وكان موسى راقدًا، واضطرب الحوت في المكتل فخرج في البحر، فأمسك الله عنه جرية الماء فصار مثل الطاق، فصار للحوت سربًا، وكان لهما عجبًا، ثم انطلقا.

فلما كان حين الغداء قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا. قال: ولم يجد موسى النصب حتى تجاوز حيث أمره الله، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى

---

(١) استدل بهذا وغيره بعض أهل العلم على نبوة الخضر، وقال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿وما فعلته عن أمري﴾ قال فيه دلالة عن من قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ وقال آخرون كان رسولا وقيل بل كان ملكًا نقله الماوردي في تفسيره وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيًا بل كان وليًّا فالله أعلم.

(٢) نوف: هو نوف بن فضالة البكالي.

(٣) قوله كذب عدو الله المقصود منها الزجر والتحذير.

(٤) هذه الجملة ليست في الحديث الصحيح وإنما أخرجها الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٢٤) بسند ضعيف.

الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[١]. قال: يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة، فإذا رجل نائم مسجى بثوبه، فسلم موسى عليه. فقال: وأنى بأرضنا السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه. قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ثم ركبا سفينة، فجاء عصفور فقعد على حرف السفينة فنقر في الماء، فقال الخضر لموسى ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر هذا العصفور من البحر.

قال: فبينا هم في السفينة لم يفجأ موسى إلا وهو يوتد وتداً أو ينزع تختًا منها. فقال له موسى: حملنا بغير نول[٢] فتخرقها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. قال: وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: فخرجا فانطلقا يمشيان فأبصرا غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ برأسه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾[٣] فلم يجدا أحداً يطعمهما ولا يسقيهما، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[٤] فقال له موسى: لم يضيفونا ولم ينزلونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٥] وفي قراءة أُبيّ سفينة صالحة.

---

(١) سورة الكهف (٦٣، ٦٤).

(٢) النوال: العطاء.

(٣) سورة الكهف (٧٤:٧٧).

(٤) سورة الكهف (٧٧).

(٥) سورة الكهف (٧٧-٧٩).

﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ إلى ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[(١)].

فكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علمًا[(٢)].

قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر، فقال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفينته ثم أرسلها في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة[(٣)].

الحديث يدل على أن الخضر كان قبل موسى وفي أيامه، ويدل على خطأ من قال إنه أرميا، لأن أرميا كان أيام بختنصر، وبين أيام موسى وبختنصر من المدة ما لا يشكل على عالم بأيام الناس، فإن موسى إنما نبئ في أيام منوجهر، وكان ملكه بعد جده أفريدون.

* * *

(١) سورة الكهف (٨٠ -٨٢). والحديث أخرجه البخاري (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠) بنحوه دون جملة (ماء الحياة)

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٢٥) بسند ضعيف.

(٣) هو بقية الحديث السابق وسنده ضعيف.

ذكر الخبر عن منوجهر والحوادث في أيامه[1]

ثم ملك بعد أفريدون بن أثغيان بن كاو: منوجهر، وهو من ولد إيرج بن أفريدون وكان مولده بدنباوند، وقيل بالري فلما ولد منوجهر أخفى أمره خوفًا من طوج وسلم عميه، ولما كبر منوجهر سار إلى جده أفريدون فتوسم فيه الخير وجعل له ما كان جعله لجده إيرج من المملكة وتوجه بتاجه.

وقد زعم بعضهم أن منوجهر بن شجر بن افريقش بن إسحاق بن إبراهيم انتقل إليه الملك، واستشهد بقول جرير بن عطية:

وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتدوا ... حمائل موت لابسين السنورا

إذا انتسبوا عدوا الصبهبد منهم ... وكسرى وعدوا الهرمزان وقيصرا

وكان كتاب فيهم ونبوة ... وكانوا بإصطخر الملوك وتسترا

فيجمعنا والغر أبناء فارس ... أب لا يبالي بعده من تأخرا

أبونا خليل الله والله ربنا ... رضينا بما أعطى الإله وقدرا

وأما الفرس فتنكر هذا النسب ولا تعرف له ملكًا إلا في أولاد أفريدون ولا تقر بالملك لغيرهم.

قلت: والحق ما قاله الفرس، فإن أسماء ملوكهم قبل الإسكندر معروفة وبعد أيامه ملوك الطوائف، وإذا كان منوجهر أيام موسى وكل ما بين موسى وإسحاق خمسة آباء معروفون ولم يزالوا بمصر ففي أي زمان كثروا وانتشروا وملكوا بلاد الفرس؟ ومن أين لجرير هذا العلم حتى يكون قوله حجة لا سيما وقد جعل الجميع أبناء إسحاق!

قال هشام بن الكلبي: ملك طوج وسلم الأرض بعد أخيهما إيرج ثلاثمائة سنة، ثم ملك منوجهر مائة وعشرين سنة، ثم وثب به ابن لطوج التركي على رأس ثمانين سنة فنفاه عن بلاد العراق اثنتي عشرة سنة، ثم أديل منه منوجهر فنفاه بعد ذلك عن بلاده وعاد إلى ملكه، وملك بعد ذلك ثمانيًا وعشرين سنة.

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٢٧).

وكان منوجهر يوصف بالعدل والإحسان، وهو أول من خندق الخنادق وجمع آلة الحرب، وأول من وضع الدهقنة فجعل لكل قرية دهقانًا[1] وأمر أهلها بطاعته، ويقال: إن موسى ظهر في سنة ستين من ملكه.

وقال غير هشام: إنه لما ملك سار نحو بلاد الترك طالبًا بدم جده إيرج بن أفريدون، فقتل طوج بن أفريدون وأخاه سلمًا، ثم إن افراسياب بن فشنج بن رستم ابن ترك، الذي ينسب إليه الأتراك من ولد طوج بن أفريدون، حارب منوجهر بعد قتله طوج بستين سنة وحاصره بطبرستان، ثم اصطلحا أن يجعلا حد ما بين ملكيهما منتهى رمية سهم رجل من أصحاب منوجهر اسمه إيرشى، وكان راميًا شديد النزع، فرمى سهمًا من طبرستان فوقع بنهر بلخ، وصار النهر حد ما بين الترك ولد طوج وعمل منوجهر.

قلت: وهذا من أعجب ما يتداوله الفرس في أكاذيبهم، أن رمية سهم تبلغ هذا كله.

وقد ذكر أن منوجهر اشتق من الفرات ودجلة ونهر بلخ أنهاراً عظامًا وأمر بعمارة الأرض. وقيل: إن الترك تناولت من أطراف رعيته بعد خمس وثلاثين سنة من ملكه، فوبخ قومه وقال لهم: أيها الناس إنكم لم تلدوا الناس كلهم وإنما الناس ناس ما ناضلوا عن أنفسهم ودفعوا العدو عنهم، وقد نالت الترك من أطرافكم وليس ذلك إلا بترككم جهاد عدوكم، وإن الله أعطانا هذا الملك ليبلونا أنشكر أم نكفر فيعاقبنا، فإذا كان غد فاحضروا. فحضر الناس والأشراف، فقام على قدميه، فقام له الناس، فقال: اقعدوا، إنما قمت لأسمعكم فجلسوا فقال:

أيها الناس إنما الخلق للخالق والشكر للمنعم والتسليم للقادر، ولا بد مما هو كائن، وإنه لا أضعف من مخلوق طالبًا كان أو مطلوبًا، ولا أقوى من خالق ولا أقدر ممن طلبته في يده ولا أعجز ممن هو في يد طالبه، وإن التفكر نور والغفلة ظلمة، فالضلالة جهالة، وقد ورد الأول ولا بد للآخر من اللحاق بالأول. إن الله أعطانا هذا الملك فله الحمد ونسأله إلهام الرشد والصدق واليقين، وإنه لا بد أن يكون للملك على أهل مملكته حق ولأهل مملكته عليه حق، فحق الملك عليهم أن يطيعوه ويناصحوه ويقاتلوا عدوه، وحقهم على الملك أن يعطيهم أرزاقهم في أوقاتها

---

(١) الدهقان: رئيس القرية.

إذ لا معول لهم إلا عليها، وأنه خازنهم، وحق الرعية على الملك أن ينظر إليهم ويرفق بهم ولا يحملهم على ما لا يطيقون، وإن أصابتهم مصيبة أو تنقص من ثمارهم أن يسقط عنهم خراج ما نقص، وإن اجتاحتهم مصيبة أن يعوضهم ما يقويهم على عمارتهم، ثم يأخذ منهم بعد ذلك قدر ما لا يجحف بهم في سنة أو سنتين. ألا وإن الملك ينبغي أن يكون فيه ثلاث خصال: أن يكون صديقًا لا يكذب، وأن يكون سخيًا لا يبخل، وأن يملك نفسه عند الغضب فإنه مسلط ويده مبسوطة، والخراج يأتيه، فلا يستأثر على جنده ورعيته بما هم أهل له، وأن يكثر العفو فإنه لا ملك فيه أقوى ولا أبقى من ملك فيه العفو، فإن الملك إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة، ألا وإن الترك قد طمعت فيكم فاكفونا فإنما تكفون أنفسكم، وقد أمرت لكم بالسلاح والعدة وأنا شريككم في الرأي، وإنما لي من هذا الملك اسمه مع الطاعة منكم. ألا وإنما الملك ملك إذا أطيع، فإن خولف فهو مملوك وليس بملك. ألا وإن أكمل الأداة عند المصيبات الأخذ بالصبر والراحة إلى اليقين، فمن قتل في مجاهدة العدو رجوت له بفوز رضوان الله، وإنما هذه الدنيا سفر لأهلها لا يحلون عقد الرحال إلا في غيرها. وهي خطبة طويلة.

ثم أمر بالطعام فأكلوا وشربوا وخرجوا وهم له شاكرون مطيعون وكان ملكه مائة وعشرين سنة.

وزعم ابن الكلبي أن الرائش، واسمه الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يعرب بن قحطان، وكان قد ملك اليمن بعد يعرب بن قحطان، كان ملكه باليمن أيام ملك منوجهر، وإنما سمي الرائش لغنيمة غنمها فأدخلها اليمن فسمي الرائش، ثم غزا الهند فقتل بها وأسر وغنم ورجع إلى اليمن، ثم سار على جبلي طيىء، ثم على الأنبار، ثم على الموصل ووجه منها خيله وعليها رجل من أصحابه يقال له شمر بن العطاف، فدخل على الترك بأرض أزربيجان فقتل المقاتلة وسبى الذرية وكتب ما كان من مسيره على حجرين، وهما معروفان بأذربيجان.

ثم ملك بعده ابنه أبرهة، ولقبه ذو المنار، وإنما لقب بذلك لأنه غزا بلاد المغرب وأوغل فيها برًا وبحرًا، وخاف على جيشه الضلال عند قفوله فبنى المنار ليهتدوا بها، وقد زعم أهل اليمن أنه وجه ابنه العيد[1] بن أبرهة في غزواته إلى ناحية من

(١) في «تاريخ الطبري» (١/ ٢٣٠) العبد بن أبرهة.

أقاصي المغـرب فغنم وقدم بسبي له وحـشة منكرة، فذعر الناس منهم، فـسمي ذو الأذعار، فأبرهة أحد ملوكهم الذين توغلوا في البلاد.

وإنما ذكرت من ذكرت من ملوك اليـمن ههنا لقول من زعم أن الرائش كان أيام منوجهر وأن ملوك اليمن كانوا عمالاً لملوك فارس.



قصة موسى عليه السلام ونسبه وما كان في أيامه من الأحداث[1]

قيل: هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، وولد لاوي ليعقوب وهو ابن تسع وثمانين سنة، وولد قاهث للاوي وهو ابن ست وأربعين سنة، وولد لقاهث يصهر، وولد عمران ليصهر وله ستون سنة، وكان عمره جميعه مائة وسبعًا وأربعين سنة، وولد موسى ولعمران سبعون سنة؛ وكان عمر عمران جميعه مائة وسبعًا وثلاثين سنة. وأم موسى يوحانذ. واسم امرأته صفورا بنت شعيب النبي[2]، وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب ابن معاوية صاحب يوسف الثاني، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول، وقيل: كانت من بني إسرائيل.

فلما نودي موسى اعلم أن قابوس فرعون مصر مات وقام أخوه الوليد بن مصعب مكانه، وكان عمره طويلاً، وكان أعتى من قابوس وأفجر، وأمر أن يأتيه هو وهارون بالرسالة. ويقال: إن الوليد تزوج آسية بعد أخيه، ثم سار موسى إلى فرعون رسولاً مع هارون، فكان من مولد موسى إلى أن أخرج بني إسرائيل من مصر ثمانون سنة. ثم سار إلى التيه بعد أن مضى وعبر البحر، وكان مقامهم هنالك إلى أن خرجوا مع يوشع بن نون أربعين سنة، فكان ما بين مولد موسى إلى وفاته مائة وعشرين سنة.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٣١) و«البداية» (١/ ٢٦٧).

(٢) اختلف المفسرون في الشيخ الذي زوج ابنته لموسى على عدة أقوال:

منها- أنه شعيب النبي.

منها- أنه ابن أخ شعيب.

منها- أنه رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقال بعض أهل العلم كان شعيب قبل زمن موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد وما قيل أن شعيبًا عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح. بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده.

قال ابن عباس وغيره، دخل حديث بعضهم في بعض: إن الله تعالى لما قبض يوسف وهلك الملك الذي كان معه وتوارثت الفراعنة ملك مصر ونشر الله بني إسرائيل لم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام حتى كان فرعون موسى، وكان أعتاهم على الله وأعظمهم قولاً وأطولهم عمراً، واسمه فيما ذكر الوليد بن مصعب، وكان سيء الملكة على بني إسرائيل يعذبهم ويجعلهم خولاً[١] ويسومهم سوء العذاب. فلما أراد الله أن يستنقذهم بلغ موسى الأشد وأعطاه الرسالة، وكان شأن فرعون قبل ولادة موسى أنه رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والحزاة[٢] والكهنة فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يخرج من هذا البلد، يعنون بيت المقدس، الذي جاء بنو إسرائيل منه، رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح ويترك الجواري. وقيل: إنه لما تقارب زمان موسى أتى المنجمون فرعون وحزاته إليه فقالوا: اعلم أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك ويبدل دينك. فأمر بقتل كل مولود يولد في بني إسرائيل. وقيل: بل تذاكر فرعون وجلساؤه معًا ما وعد الله عز وجل إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل لينتظرون ذلك، وقد كانوا يظنونه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا وعد الله إبراهيم. فقال فرعون: كيف ترون؟ فأجمعوا على أن يبعث رجالاً يقتلون كل مولود في بني إسرائيل، وقال للقبط: انظروا مماليككم الذين يعملون خارجًا فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون ذلك، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٣]، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح وكان يأمر بتعذيب الحبالى حتى يضعن، فكان يشق القصب ويوقف المرأة عليه فيقطع أقدامهن، وكانت المرأة تضع فتتقي بولدها القصب، وقذف الله الموت في مشيخة بني إسرائيل فدخل رؤوس

---

(١) الخول: العبد.

(٢) الحزاء: الذي يحرز الأشياء ويقدرها بظنه وهو أيضًا الذي ينظر في النجوم.

(٣) سورة القصص (٤).

القبط على فرعون وكلموه وقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا، تذبح الصغار وتفني الكبار، فلو أنك كتبت تبقي من أولادهم، فأمرهم أن يذبحوا سنةً ويتركوا سنةً، فلما كان في تلك السنة التي تركوا فيها ولد هارون، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها، وهي السنة المقبلة. فلما أرادت أمه وضعه حزنت من شأنه، فأوحى الله إليها، أي ألهمها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[1] ـ وهو النيل ـ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]. فلما وضعته أرضعته ثم دعت نجاراً فجعل له تابوتًا وجعل مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه وألقته في اليم، فلما توارى عنها أتاها إبليس، فقالت في نفسها: ما الذي صنعت بنفسي؟ لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه بيدي إلى حيتان البحر ودوابه. فلما ألقته ﴿قَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾[3] واسمها مريم ﴿قُصِّيهِ﴾[4] يعني قصّي أثره ـ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[5] أنها أخته، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند دور فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية، وظنن أن فيه مالاً، فلما فتح ونظرت إليه آسية وقعت عليها رحمته وأحبته، فلما أخبرت به فرعون وأتته به قالت هو: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[6]. فقال فرعون: يكون لك، وأما أنا فلا حاجة لي فيه. قال النبي ﷺ: «**والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت لهداه الله كما هداها**»[7].

وأراد أن يذبحه فلم تزل آسية تكلمه حتى تركه لها وقال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[8]. وأرادوا له المرضعات فلم يأخذ من أحد من النساء، فذلك قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ﴾[9] أخته مريم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[10]. فأخذوها

---

(١)،(٢) سورة القصص (٧).

(٣ ـ ٥) سورة القصص (١١).

(٦) سورة القصص (٩).

(٧) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٣٢٦) في حديث طويل يسمى بحديث الفتون، ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/٣٣٨- ٣٤٦) وقال فيه نظر.

(٨) سورة القصص (٨).

(٩)،(١٠) سورة القصص (١٢).

وقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك.

فقالت: نصحهم له شفقتهم عليه ورغبتهم في قضاء حاجة الملك ورجاء منفعته. فانطلقت إلى أمه فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما أعطته ثديها أخذه منها، فكادت تقول: هذا ابني، فعصمها الله - وإنما سمي موسى لأنه وجد في ماء وشجر، والماء بالقبطية مو، والشجر - سا. فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[1]. وكان غيبته عنها ثلاثة أيام، وأخذته معها إلى بيتها، واتخذه فرعون ولداً فدعي ابن فرعون، فلما تحرك الغلام حملته أمه إلى آسية، فأخذته ترقصه وتلعب به وناولته فرعون، فلما أخذه إليه أخذ الغلام بلحيته فنتفها، قال فرعون: عليّ بالذباحين يذبحونه، هو هذا! قالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[2]، إنما هو صبي لا يعقل وإنما فعل هذا من جهل، ولقد علمت أنه ليس في مصر امرأة أكثر حليًا مني، أنا أضع له حليًا من ياقوت وجمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طشتًا من جمر فجاء جبريل فوضع يده على جمرة فأخذها فطرحها موسى في فمه، فأحرقت لسانه، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[3]. فدرأت عن موسى بتلك القتل.

وكبر موسى، وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس، وإنما يدعى موسى ابن فرعون، وامتنع به بنو إسرائيل ولم يبق قبطي يظلم إسرائيليًّا خوفًا منه. ثم إن فرعون ركب مركبًا وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له: فرعون قد ركب، فركب موسى في أثره فأدركه المقيل بأرض يقال لها منف - بفتح الميم وسكون النون - مصر القديمة التي هي مصر يوسف الصديق، وهي الآن قرية كبيرة، فدخل نصف النهار - وقد أغلقت أسواقها، على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته يقول هذا إسرائيلي قيل إنه السامري وهذا من عدوه يقول من القبط فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فغضب موسى لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، وكان قد حماهم من القبط،

---

(١) سورة القصص (١٣).

(٢) سورة القصص (٩).

(٣) سورة طه (٢٧، ٢٨).

وكان الناس لا يعلمون أنه منهم بل كانوا يظنون أن ذلك بسبب الرضاع. فلما اشتد غضبه وكزه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١]، أوحى الله تعالى إلى موسى: وعزتي لو أن النفس التي قتلت أقرت لي ساعة واحدة أني خالق رازق لأذقتك العذاب. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[٢] أن يؤخذ، ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾[٣] يقول يستعينه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[٤]. ثم أقبل لينصره، فلما نظر إلى موسى وقد أقبل نحوه ليبطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي خاف أن يقتله من أجل أنه أغلظ له في الكلام قال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[٥]. فترك القبطي، فذهب فأفشى عليه أن موسى هو الذي قتل الرجل، فطلبه فرعون وقال: خذوه فإنه صاحبنا. فجاء رجل فأخبره وقال له: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾[٦]. قيل: كان حزقيل مؤمن آل فرعون، كان على بقية من دين إبراهيم، عليه السلام، وكان أول من آمن بموسى.

فلما أخبره خرج من بينهم ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٧]. وأخذ في ثنيات الطريق، فجاءه ملك على فرس وفي يده عنزة ـ وهي الحربة الصغيرة ـ فلما رآه موسى سجد له من الفرق. فقال له: لا تسجد لي ولكن اتبعني، فهداه نحو مدين. وقال موسى وهو متوجه إليها: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. فانطلق به الملك حتى انتهى به إلى مدين، فكان قد سار وليس معه طعام، وكان يأكل ورق الشجر، ولم يكن له قوة على المشي، فلما بلغ مدين حتى سقط خف قدمه. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[٨] ـ قصد الماء ـ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾[٩]، أي تحبسان غنمهما، وهما ابنتا شعيب النبي، وقيل: ابنتا يثرون، وهو ابن أخي شعيب، فلما رآهما موسى سألهما: ﴿مَا

(١):(٣) سورة القصص (١٥:١٨).
(٤) سورة القصص (١٨).
(٥) سورة القصص (١٩).
(٦) سورة القصص (٢٠).
(٧) سورة القصص (٢١).
(٨)،(٩) سورة القصص (٢٢،٢٣).

خطبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[١]. فرحمهما موسى فأتى البئر فاقتلع صخرة عليها كان النفر من أهل مدين يجتمعون عليها حتى يرفعوها فسقى لهما غنمهما، فرجعتا سريعًا، وكانتا إنما تسقيان من فضول الحياض. وقصد موسى شجرة هناك ليستظل بها فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٢]. قال ابن عباس: لقد قال موسى ذلك ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع لفعل وما سأل إلا أكله.

فلما رجع الجاريتان إلى أبيهما سريعًا سألهما فأخبرتاه، فأعاد إحداهما إلى موسى تستدعيه، فأتته وقالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[٣]. فقام معها، فمشت بين يديه، فضربت الريح ثوبها فحكى عجيزتها فقال لها: امش خلفي ودليني على الطريق فإنا أهل بيت لا ننظر في أعقاب النساء.

فلما أتاه ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾[٤]. ـ وهي التي أحضرته ـ: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[٥]. قال لها أبوها: القوة قد رأيتها فما يدريك بأمانته؟ فذكرت له ما أمرها به من المشي خلفه. فقال له أبوها: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾[٦] نفسك ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[٧]. فقال له موسى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[٨]. فأقام عنده يومه، فلما أمسى أحضر شعيب العشاء، فامتنع موسى من الأكل، فقال: ولم ذلك؟ قال: إنا من أهل بيت لا نأخذ على اليسير من عمل الآخرة الدنيا بأسرها. فقال شعيب: ليس لذلك أطعمتك إنما هذه عادتي وعادة آبائي، فأكل.

وازدادت رغبة شعيب في موسى فزوجه ابنته التي أحضرته، واسمها صفورا، وأمرها أن تأتيه بعصًا فأتته، وكانت تلك العصا قد استودعها إياه ملك في صورة

(١) سورة القصص (٢٣).
(٢) سورة القصص (٢٤).
(٣) سورة القصص (٢٥).
(٤) سورة القصص (٢٥: ٢٦).
(٥) سورة القصص (٢٦).
(٦) سورة القصص (٢٧).
(٧) سورة القصص (٢٧).
(٨) سورة القصص (٢٨).

رجل، فدفعتها إليه، فلما رآها أبوها أمرها بردها والإتيان بغيرها، فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها، فلم تقع بيدها سواها، جعل يرددها، وكل ذلك لا يخرج في يدها غيرها، فأخذها موسى ليرعى بها فندم أبوها حيث أخذها وخرج إليه ليأخذها منه حيث هي وديعة، فلما رآه موسى يريد أخذها منه مانعه، فحكما أول رجل يلقاهما، فأتاهما ملك في صورة آدمي فقضى بينهما أن يضعها موسى في الأرض، فمن حملها فهي له، فألقاها موسى فلم يطق أبوها حملها وأخذها موسى بيده فتركها له، وكانت من عوسج لها شعبتان وفي رأسها محجن. وقيل: كانت من آس الجنة، حملها آدم معه. وقيل في أخذها غير ذلك.

وأقام موسى عند شعيب يرعى له غنمه عشر سنين، وسار بأهله في زمن شتاء وبرد، فلما كانت الليلة التي أراد الله عز وجل لموسى كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، وكانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق في ليلة شاتية ذات مطر ورعد وبرق، فأخرج زنده[1] ليقدح ناراً لأهله ليصطلوا[2] ويبيتوا حتى يصبح ويعلم وجه طريقه، فاصلد زنده فقدح حتى أعيا، فرفعت له نار، فلما رآها ظن أنها نار، وكانت من نور الله، فـ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾[3] فإن لم أجد خبراً ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[4] فحين قصدها رآها نوراً ممتداً من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وقيل من العناب، فتحير موسى وخاف حين رأى ناراً عظيمة بغير دخان وهي تلتهب في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظماً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة.

فلما دنا منها استأخرت عنه، ففزع ورجع، (فنودي) منها، فلما سمع الصوت استأنس فعاد، ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾: أن بورك من في النار ومن حولها يا موسى، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فلما سمع النداء ورأى تلك الهيبة علم أنه ربه تعالى، فخفق قلبه وكل لسانه وضعفت قوته وصار حيًّا كميت إلا أن الروح تتردد فيه، فأرسل الله إليه ملكًا يشد

---

(١) الزند: العود الذي تقدح به النار.

(٢) ليصطلوا: ليستدفئوا.

(٣) سورة القصص (٢٩).

(٤) سورة النمل (٧).

قلبه، فلما ثـاب إليه عقله نودي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[١]، وإنما أمر بخلع نعليه لأنهما كانتا من جلد حمار ميت، وقيل: لينال قدمه الأرض المباركة.

ثم قال له ـ تسكينًا لقلبه ـ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾[٢]، يقول: أضرب الشجر فيسقط ورقه للغنم، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[٣] أحمل عليها المزود والسقاء، وكانت تضيء لموسى في الليلة المظلمة، وكانت إذا أعوزه الماء دلاها في البئر فينال الماء ويصير في رأسها شبه الدلو، وكان إذا اشتهى فاكهة غرسها في الأرض فنبتت لها أغصان تحمل الفاكهة لوقتها. قال له: ألقها يا موسى. فألقاها موسى، فإذا هي حية تسعى عظيمة الجثة في خفة حركة الجان.

فلما رآها موسى ولى مدبرا ولم يعقب، فنودي: يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون، أقبل ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى عصًا، وإنما أمره الله بإلقاء العصا حتى إذا ألقاها عند فرعون لا يخاف منها.

فلما أقبل قال: خذها ولا تخف وأدخل يدك في فِيّها. وكان على موسى جبة صوف، فلف يده بكمه وهو لها هائب، فنودي ألق كمك عن يدك، فألقاه، وأدخل يده بين لحييها، فلما أدخل يده عادت عصًا كما كانت لا ينكر منها شيئًا.

ثم قال له:ـ أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ـ يعني برصًا ـ فأدخلها وأخرجها بيضاء من غير سوء مثل الثلج لها نور، ثم ردها فعادت كما كانت. فقيل له: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾[٤]، أي يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون. ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة طه (١٢).

(٢) سورة طه (١٧، ١٨).

(٣) سورة طه (١٨).

(٤) سورة القصص (٣٢ ـ ٣٤).

(٥) سورة القصص (٣٥).

فأقبل موسى إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً، فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم ولا يعرفونه، فجاء هارون فسألها عنه، فأخبرته أنه ضيف، فدعاه فأكل معه، وسأله هارون: من أنت؟ قال: أنا موسى فاعتنقا.

وقيل: إن الله ترك موسى سبعة أيام ثم قال: أجب ربك فيما كلمك. فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[1] الآيات. فأمره بالمسير إلى فرعون، ولم يزل أهله مكانهم لا يدرون ما فعل حتى مر راع من أهل مدين فعرفهم فاحتملهم إلى مدين، فكانوا عند شعيب حتى بلغهم خبر موسى بعدما فلق البحر، فساروا إليه.

وأما موسى فإنه سار إلى مصر، وأوحى الله إلى هارون يعلمه بقفول موسى ويأمره بتلقيه، فخرج من مصر فالتقى به، قال موسى: يا هارون إن الله تعالى قد أرسلنا إلى فرعون فانطلق معي إليه. قال: سمعًا وطاعة.

فلما جاء إلى بيت هارون وأظهر أنهما ينطلقان إلى فرعون سمعت ذلك ابنة هارون فصاحت أمهما فقالت: أنشدكما الله أن لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما جميعًا! فأبيا فانطلقا إليه ليلاً، فضربا بابه، فقال فرعون لبوابه: من هذا الذي يضرب بابي هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البواب فكلمهما، فقال له موسى: ﴿إنا رسولا رب العالمين﴾[2] فأخبر فرعون، فأدخل إليه.

وقيل: إن موسى وهارون مكثا سنتين يغدوان إلى باب فرعون ويروحان يلتمسان الدخول إليه فلم يجسر أحد يخبره بشأنهما، حتى أخبره مسخرة كان يضحكه بقوله، فأمر حينئذ فرعون بإدخالهما.

فلما دخلا قال له موسى: إني رسول من رب العالمين. فعرفه فرعون فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ ـ يعني نبوة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[3].

فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[4] قد فتح فاه فوضع اللحي الأسفل في الأرض والأعلى على

---

(١) سورة طه (٢٥).

(٢) سورة الشعراء (١٦).

(٣) سورة الشعراء (١٨ - ٢١).

(٤) سورة الأعراف (١٠٦، ١٠٧).

القصر وتوجه نحو فرعون ليأخذه، فخافه فرعون ووثب فزعًا فأحدث في ثيابه، ثم بقي بضعًا وعشرين يومًا يجيء بطنه حتى كاد يهلك، وناشده فرعون بربه تعالى أن يرد الثعبان، فأخذه موسى فعاد عصًا. ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها بيضاء كالثلج لها نور يتلألأ ثم ردها فعادت إلى ما كانت عليه من لونها ثم أخرجها الثانية لها نور ساطع في السماء تكل منه الأبصار قد أضاءت ما حولها يدخل نورها البيوت ويرى من الكوى ومن وراء الحجب، فلم يستطع فرعون النظر إليها، ثم ردها موسى في جيبه وأخرجها فإذا هي على لونها.

وأوحى الله تعالى إلى موسى وهارون أن ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1]، فقال له موسى: هل لك في أن أعطيك شبابك فلا تهرم، وملكك فلا ينزع، وأرد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مت دخلت الجنة وتؤمن بي؟ فقال: لا، حتى يأتي هامان، فلما حضر هامان عرض عليه قول موسى، فعجزه وقال له: تصير تعبد بعد أن كنت تعبد! ثم قال له: أنا أرد عليك شبابك، فعمل له الوسمة فخضبه بها، فهو أول من خضب بالسواد، فلما رآه موسى هاله ذلك، فأوحى الله إليه: لا يهولنك ما ترى فلن يلبث إلا قليلاً.

فلما سمع فرعون ذلك خرج إلى قومه فقال: إن هذا لساحر عليم. وأراد قتله. فقال مؤمن آل فرعون، واسمه حزقيل: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2] وقال الملأ من قوم فرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[3]. ففعل وجمع السحرة، فكانوا سبعين ساحراً، وقيل: اثنين وسبعين، وقيل: خمسة عشر ألفًا، وقيل ثلاثين ألفًا، فوعدهم فرعون واتعدوا يوم عيد كان لفرعون، فصفهم فرعون وجمع الناس، وجاء موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف قومه، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾[4]. فقال السحرة بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر! ثم قالوا: لنأتينك بسحر لم تر

---

(١) سورة طه (٤٤).
(٢) سورة غافر (٢٨).
(٣) سورة الشعراء (٣٦، ٣٧).
(٤) سورة طه (٦١).

مثله، ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[١]. فقال له السحرة: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾[٢]. ﴿قال بل ألقوا﴾. ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم﴾ فإذا هي في رأي العين حيات أمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا، فأوجس موسى خوفًا، فأوحى الله إليه: ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾، فألقى عصاه من يده فصارت ثعبانًا عظيمًا فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي كالحيات في أعين الناس، فجعلت تلتقفها وتبتلعها حتى لم يبق منها شيئًا، ثم أخذ موسى عصاه فإذا هي في يده كما كانت. وكان رئيس السحرة أعمى، فقال له أصحابه: إن عصا موسى صارت ثعبانًا عظيمًا وتلقف حبالنا وعصينا. فقال لهم: ولم يبق لها أثر ولا عادت إلى حالها الأول؟ فقالوا: لا. فقال: هذا ليس بسحر.

فخر ساجدًا وتبعه السحرة أجمعون ﴿قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون﴾. قال فرعون: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[٣]. فقطعهم وقتلهم وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٤]، فكانوا أول النهار كفارًا وآخر النهار شهداء.

وكان حزقيل مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، قيل: كان من بني إسرائيل، وقيل كان من القبط، وقيل: هو النجار الذي صنع التابوت الذي جعل فيه موسى وألقي في النيل، فلما رأى غلبة موسى السحرة أظهر إيمانه، وقيل: أظهر إيمانه قبل ذلك، وكان فرعون أراد قتل موسى فقال ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[٥] فلما أظهر إيمانه قتل فلما وصلب مع السحرة[٦].

---

(١) سورة الشعراء (٤٤).

(٢) سورة الأعراف (١١٥).

(٣) سورة طه (٧١).

(٤) سورة الأعراف (١٢٦).

(٥) سورة غافر (٢٨).

(٦) هذا الكلام فيه نظر فقد قال تعالى في سورة غافر الآية (٤٥) ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ اي في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فبالجنة.

وكان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضًا، وكانت ماشطة ابنة فرعون، فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت بسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا بل ربي وربك ورب أبيك. فأخبرت أباها بذلك، فدعا بها وبولدها وقال لها: من ربك؟ قالت: ربي وربك الله. فأمر بتنور نحاس فأحمي ليعذبها وأولادها. فقالت له: لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها. قال: ذلك لك، فأمر بأولادها فألقوا في التنور واحدًا واحدًا، وكان آخر أولادها صبيًا صغيرًا، فقال: اصبري يا أماه فإنك على الحق، فألقيت في التنور مع ولدها(١).

وكانت آسية امرأة فرعون من بني إسرائيل - وقيل: كانت من غيرهم - وكانت مؤمنة تكتم إيمانها، فلما قتلت الماشطة رأت آسية الملائكة تعرج بروحها، كشف الله عن بصيرتها، وكانت تنظر إليها وهي تعذب، فلما رأت الملائكة قوي إيمانها وازدادت يقينًا وتصديقًا لموسى، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون فأخبرها خبر الماشطة. قالت له آسية: الويل لك! ما أجرأك على الله؟ فقال لها: لعلك اعتراك الجنون الذي اعترى الماشطة؟ فقالت: ما بي جنون ولكني آمنت بالله تعالى ربي وربك ورب العالمين.

فدعا فرعون أمها وقال لها: إن ابنتك قد أصابها ما أصاب الماشطة فأقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى. فخلت بها أمها وأرادتها على موافقة فرعون، فأبت وقالت: أما أن أكفر بالله فلا والله.

فأمر فرعون حتى مدت بين يديه أربعة أوتاد وعذبت حتى ماتت، فلما عاينت الموت قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢). فكشف الله عن بصيرتها فرأت الملائكة وما أعد لها من الكرامات، فضحكت فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الذي بها! تضحك وهي في العذاب! ثم ماتت.

ولما رأى فرعون قومه قد دخلهم الرعب من موسى خاف أن يؤمنوا به ويتركوا عبادته فاحتال لنفسه وقال لوزيره: يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبًا.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث ابن عباس (٢٨١٧) بنحوه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٧٢).
(٢) سورة التحريم (١١).

فأمر هامان بعمل الآجر، وهو أول من عمله، وجمع الصناع وعمله في سبع سنين، وارتفع البنيان ارتفاعًا لم يبلغه بنيان آخر، فشق ذلك على موسى واستعظمه، فأوحى الله إليه: أن دعه وما يريد فإني مستدرجه ومبطل ما عمله في ساعة واحدة. فلما تم بناؤه أمر الله جبريل فخربه وأهلك كل من عمل فيه من صانع ومستعمل.

فلما رأى فرعون ذلك من صنع الله أمر أصحابه بالشدة على بني إسرائيل وعلى موسى، ففعلوا ذلك، وصاروا يكلفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقونه، وكان الرجال والنساء في شدة، وكانوا قبل ذلك يطعمون بني إسرائيل إذا استعملوهم، فصاروا لا يطعمونهم شيئًا، فيعودون بأسوأ حال يريدون يكسبون ما يقوتهم، فشكوا ذلك إلى موسى، فقال لهم: ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾، إن العاقبة للمتقين، يستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون.

فلما أبى فرعون وقومه إلا الثبات على الكفر، تابع الله عليه الآيات، فأرسل عليهم الطوفان، وهو المطر المتتابع، فغرق كل شيء لهم. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فكشفه الله عنهم ونبتت زروعهم، فقالوا: ما يسرنا أنا لم نمطر.

فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم، ، فسألوا موسى أن يكشف ما بهم ويؤمنوا به، فدعا الله فكشفه، فلم يؤمنوا وقالوا: قد بقي من زروعنا بقية.

فأرسل الله عليهم الدبا، وهو القمل: فأهلك الزروع والنبات أجمع، وكان يهلك أطعمتهم، ولم يقدروا أن يحترزوا منه، فسألوا موسى أن يكشف عنهم، ففعل، فلم يؤمنوا.

فأرسل الله عليهم الضفادع، وكانت تسقط في قدورهم وأطعمتهم وملأت البيوت عليهم، فسألوا موسى أن يكشفه عنهم ليؤمنوا به ففعل، فلم يؤمنوا.

فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه الفرعونيين دمًا، وكان الفرعوني والإسرائيلي يستقيان من ماء واحد، فيأخذ الإسرائيلي ماء ويأخذ الفرعوني دمًا، وكان الإسرائيلي يأخذ الماء من فمه فيمجه في فم الفرعوني فيصير دمًا، فبقي ذلك سبعة أيام، فسألوا موسى أن يكشفه عنهم ليؤمنوا، ففعل فلم يؤمنوا.

فلما يئس من إيمانهم ومن إيمان فرعون دعا موسى وأمّن هارون فقال: ﴿رَبَّنَا

إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾[١]. فاستجاب الله لهما، فمسخ الله أموالهم، ما عدا خيلهم وجواهرهم وزينتهم حجارة، والنخل والأطعمة والدقيق وغير ذلك، فكانت إحدى الآيات التي جاء بها موسى.

فلما طال الأمر على موسى أوحى الله إليه يأمره بالمسير ببني إسرائيل وأن يحمل معه تابوت يوسف بن يعقوب ويدفنه بالأرض المقدسة، فسأل موسى عنه فلم يعرفه إلا امرأة عجوز فأرته مكانه في النيل، فاستخرجه موسى، وهو في صندوق مرمر، فأخذه معه فسار، وأمر بني إسرائيل أن يستعيروا من حلي القبط ما أمكنهم، ففعلوا ذلك وأخذوا شيئًا كثيرًا، وخرج موسى ببني إسرائيل ليلاً والقبط لا يعلمون، وكان موسى على ساقة بني إسرائيل، وهارون على مقدمتهم، وكان بنو إسرائيل لما ساروا من مصر ستمائة ألف وعشرين ألفًا تبعهم فرعون وعلى مقدمته هامان، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[٢] يا موسى! أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، أما الأول فكانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، وأما الآن فيدركنا فرعون فيقتلنا. قال موسى: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٣].

وبلغ بنو إسرائيل إلى البحر وبقي بين أيديهم وفرعون من ورائهم، فأيقنوا بالهلاك، فتقدم موسى فضرب البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود[٤] العظيم، وصار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط طريق، فقال كل سبط: قد هلك أصحابنا. فأمر الله الماء فصار كالشباك، فكان كل سبط يرى من عن يمينه وعن شماله حتى خرجوا، ودنا فرعون وأصحابه من البحر فرأى الماء على هيئته والطرق فيه، فقال لأصحابه: ألا ترون البحر قد فرق مني وانفتح لي حتى أدرك أعدائي؟ فلما وقف فرعون على أفواه الطرق لم تقتحمه خيله، فنزل جبريل على فرس أنثى وديق[٥]، فشمت الحصن ريحها[٦] فاقتحمت في أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج

---

(١) سورة يونس (٨٨).

(٢) سورة الشعراء (٦١).

(٣) سورة الشعراء (٦٢).

(٤) الطود: الجبل العظيم.

(٥) وديق: هي التي تشتهي الفحل.

(٦) في تاريخ الطبري (١/ ٢٤٩) فشمها الفحل.

ودخل آخرهم أمر البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم. وانفرد جبريل بفرعون يأخذ من حمأة[1] البحر فيجعلها في فيه، وقال حين أدركه الغرق: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[2]، وغرق، فبعث الله إليه ميكائيل يعيره، فقال له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3]. وقال جبريل للنبي ﷺ: «لو رأيتني وأنا أدس من حمأة البحر في فم فرعون مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها»[4].

فلما نجا بنو إسرائيل قالوا: إن فرعون لم يغرق. فدعا موسى فأخرج الله فرعون غريقًا، فأخذه بنو إسرائيل يتمثلون به، ثم ساروا فأتوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. فتركوا ذلك.

ثم بعث موسى جندين عظيمين كل جند اثنا عشر ألفًا إلى مدائن فرعون، وهي يومئذ خالية من أهلها قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم ولم يبق غير النساء والصبيان والزمنى والمرضى والمشايخ والعاجزين، فدخلوا البلاد وغنموا الأموال وحملوا ما أطاقوا وباعوا ما عجزوا عن حمله من غيرهم، وكان على الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وكان موسى قد وعده الله وهو بمصر أنه إذا خرج مع بني إسرائيل منها وأهلك الله عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون.

فلما أهلك الله فرعون وأنجى بني إسرائيل قالوا: يا موسى ائتنا بالكتاب الذي وعدتنا. فسأل موسى ربه ذلك، فأمره أن يصوم ثلاثين يومًا ويتطهر ويطهر ثيابه ويأتي إلى الجبل - جبل طور سيناء - ليكلمه ويعطيه الكتاب، فصام ثلاثين يومًا أولها أول ذي القعدة، وسار إلى الجبل واستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل.

فلما قصد الجبل أنكر ريح فمه فتسوك بعود خرنوب، وقيل: تسوك بلحاء شجرة، فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟ وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى، فصامها، وهي عشر ذي الحجة، فتم ميقات ربه أربعين ليلة. ففي تلك الليالي العشر افتتن بنو إسرائيل لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى.

---

(١) الحمأة: الطين الأسود.

(٢) سورة يونس (٩٠).

(٣) سورة يونس (٩١).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٠٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٦).

وكان السامري من أهل باجرمى، وقيل: من بني إسرائيل، فقال هارون: يا بني إسرائيل إن الغنائم لا تحل لكم والحلي الذي استعرتموه من القبط غنيمة فاحفروا حفرة وألقوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه، ففعلوا ذلك، وجاء السامري بقبضة من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل فألقاه فيه فصار الحلي عجلاً جسدًا له خوار.

وقيل: إن الحلي ألقي في النار فذاب فألقى السامري ذلك التراب فصار الحلي عجلاً جسدًا له خوار، وقيل: كان يخور ويمشي، وقيل: ما خار إلا مرة واحدة ولم يعد.

وقيل: إن السامري صاغ العجل من ذلك الحلي في ثلاثة أيام ثم قذف فيه التراب فقام له خوار. فلما رأوه قال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى وتركه ههنا وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه فقال لهم هارون: يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، فأطاعه بعضهم وعصاه بعضهم، فأقام بمن معه ولم يقاتلهم. ولما ناجى الله تعالى موسى قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[١]. فقال موسى: يا ربي هذا السامري قد أمرهم أن يتخذوا العجل، من نفخ فيه الروح؟ قال: أنا. قال: فأنت إذًا أضللتهم[٢].

ثم إن موسى لما كلمه الله تعالى أحب أن ينظر إليه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[٣] فتجلى الله تعالى: ﴿لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وأعطاه الألواح فيها الحلال والحرام والمواعظ، وعاد موسى ولا يقدر أحد أن ينظر إليه، وكان يجعل عليه حريرة نحو أربعين يومًا ثم يكشفها لما تغشاه من النور.

فلما وصل إلى قومه ورأى عبادتهم العجل ﴿ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه﴾

---

(١) طه (٨٣، ٨٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٥٠) عن السدى مرسلاً وفي المتن غرابة.

(٣) سورة الأعراف (١٤٣).

(٤) سورة الأعراف (١٤٣).

يجره إليه﴾، ﴿قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾. فترك هارون وأقبل على السامري و﴿قال فما خطبك يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس[1]﴾.

ثم أخذ العجل وبرده بالمبارد وأحرقه وأمر السامري فبال عليه وذراه في البحر. فلما ألقى موسى الألواح ذهب ستة أسباعها وبقي سبع، وطلب بنو إسرائيل التوبة فأبى الله أن يقبل توبتهم وقال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[2]، فاقتتل الذين عبدوه والذين لم يعبدوه، فكان من قتل من الفريقين شهيدًا، فقتل منهم سبعون ألفًا، وقام موسى وهارون يدعوان الله، فعفا عنهم وأمرهم بالكف عن القتال وتاب عليهم، وأراد موسى قتل السامري فأمره الله بتركه وقال: إنه سخي، فلعنه موسى.

ثم إن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً من أخيارهم وقال لهم: انطلقوا معي إلى الله فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهروا. وخرج بهم إلى طور سيناء للميقات الذي وقته الله له. فقالوا: اطلب أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل.

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودخل فيه موسى وقال للقوم: ادنوا، فدنوا حتى دخلوا في الغمام، فوقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما فرغ انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[3] فماتوا جميعًا.

فقام موسى يناشد الله تعالى ويدعوه ويقول: يا رب اخترت أخيار بني إسرائيل وأعود إليهم وليسوا معي فلا يصدقونني. ولم يزل يتضرع حتى رد الله إليهم أرواحهم فعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. فقالوا: يا موسى أنت تدعو الله فلا تسأله شيئًا إلا أعطاكه، فادعه يجعلنا أنبياء. فدعا الله فجعلهم أنبياء[4].

(١) لا مساس: أي لا تمس الناس ولا يمسونك، أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، قاله ابن كثير في تفسيره.

(٢) سورة البقرة (٥٤).

(٣) سورة البقرة (٥٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٥٣) عن السدى مرسلاً.

وقيل: أمر السبعين كان قبل أن يتوب الله على بني إسرائيل، فلما مضوا للميقات واعتذروا قبل توبتهم وأمرهم أن يقتل بعضهم بعضًا، والله أعلم.

ولما رجع موسى إلى بني إسرائيل ومعه التوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها للأثقال والشدة التي جاء بها، وأمر الله جبريل فقطع جبلاً من فلسطين على قدر عسكرهم، وكان فرسخًا في فرسخ، ورفعه فوق رؤوسهم مقدار قامة الرجل مثل الظلة وبعث نارًا من قبل وجوههم وأتاهم البحر من خلفهم، فقال لهم موسى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾[1] فإن قبلتموه وفعلتم ما أمرتم به وإلا رضختكم بهذا الجبل وغرقتكم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار. فلما رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود، فصارت سنة في اليهود يسجدون على جانب وجوههم وقالوا: سمعنا وأطعنا.

ولما رجع موسى من المناجاة بقي أربعين يومًا لا يراه أحد إلا مات، وقيل: ما رآه إلا عمي، فجعل على وجهه ورأسه برنسًا لئلا يرى وجهه.

ثم إن رجلاً من بني إسرائيل قتل ابن عم له ولم يكن له وارث غيره ليرث ماله وحمله وألقاه بموضع آخر، ثم أصبح يطلب دمه عند موسى من بعض بني إسرائيل، فجحدوا فسأل موسى ربه، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، فقالوا ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2] المستهزئين. فقالوا له: ما هي؟ ولو ذبحوا بقرة ما لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم، وإنما تشديدهم لأن رجلاً منهم كان برًا بأمه وكان له بقرة على النعت المذكور فنفعه بره بأمه، فلم يجدوا على هذه الصفة المذكورة إلا بقرته، فباعها منهم بملء جلدها ذهبًا.

فلما سألوا موسى عنها قال ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ﴾[3]. يقول: لا كبيرة ولا صغيرة نصف بين السنين. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾[4] يعني لا عيب فيها. وقيل: لا بياض فيها، قالوا: ﴿الآنَ جِئْتَ

(١) سورة البقرة (٩٣).
(٢) سورة البقرة (٦٧).
(٣) سورة البقرة (٦٨).
(٤) سورة البقرة (٦٩- ٧١).

بِالْحَقِّ﴾[١] وطلبوها فلم يجدوا إلا بقرة ذلك الرجل البار بأمه، فاشتروها، فغالى بها حتى أخذ ملء جلدها ذهبًا، فذبحوها وضربوا القتيل بلسانها، وقيل: بغيره، فحيي فقام وقال: قتلني فلان. ثم مات.

ذكر أمر بني إسرائيل في التيه ووفاة هارون عليه السلام

ثم إن الله تعالى أمر موسى، عليه السلام، أن يسير ببني إسرائيل إلى أريحا بلد الجبارين، وهي أرض بيت المقدس، فساروا حتى كانوا قريبًا منهم، فبعث موسى اثني عشر نقيبًا من سائر أسباط بني إسرائيل، فساروا ليأتوا بخبر الجبارين، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له «عوج بن عناق»[٢] فأخذ الاثني عشر فحملهم وانطلق بهم إلى امرأته فقال: انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا، وأراد أن يطأهم برجله، فمنعته امرأته وقالت: أطلقهم ليرجعوا ويخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض: إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر هؤلاء لا يقدموا عليهم، فاكتموا الأمر عنهم، وتعاهدوا على ذلك ورجعوا، فنكث عشرة منهم العهد وأخبروا بما رأوا، وكتم رجلان منهم، وهما: يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ختن موسى، ولم يخبروا إلا موسى وهارون.

فلما سمع بنو إسرائيل الخبر عن الجبارين امتنعوا عن المسير إليهم. فقال لهم موسى ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[٣].

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلانِ﴾[٤] وهما يوشع وكالب ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.
﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة (٧١).
(٢) تقدم الكلام على عوج بن عناق هذا في قصة نوح عليه السلام.
(٣) سورة المائدة (٢١).
(٤) سورة المائدة (٢٢، ٢٣).
(٥) سورة المائدة (٢٣، ٢٤).

فغضب موسى فدعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(١)، وكانت عجلة من موسى. فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾(٢).

فندم موسى حينئذ. فقالوا له: فكيف لنا بالطعام؟ فأنزل الله المن والسلوى، فأما المن فقيل هو كالصمغ وطعمه كالشهد يقع على الأشجار، وقيل: هو الترنجبين، وقيل: هو الخبز الرقاق، وقيل: هو عسل كان ينزل لكل إنسان صاع، وأما السلوى فهو طائر يشبه السماني. فقالوا: أين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه ﴿الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٣) لكل سبط عين. فقالوا: أين الظل؟ فظلل عليهم الغمام فقالوا: أين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم ولا يتمزق لهم ثوب. ثم قالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾(٤). فلما خرجوا من التيه رفع عنهم المن والسلوى.

ثم إن موسى التقى هو وعوج بن عناق، فوثب موسى عشرة أذرع، وكانت عصاه عشرة أذرع، وكان طوله عشرة أذرع، فأصاب كعب عوج فقتله. وقيل: عاش عوج ثلاثة آلاف سنة(٥).

ثم إن الله أوحى إلى موسى: إني متوف هارون فأت به جبل كذا وكذا. فانطلقا نحوه فإذا هم فيه بشجرة لم يروا مثلها وفيه بيت مبني وسرير عليه فرش وريح طيبة، فلما رآه هارون أعجبه، قال: يا موسى إني أريد أن أنام على هذا السرير. فقال له موسى: نم. قال: إني أخاف رب هذا البيت أن يأتي فيغضب علي. قال موسى: لا تخف أنا أكفيك. قال: فنم معي. فلما ناما أخذ هارون الموت، فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتني(٦)! فتوفي ورفع على السرير إلى السماء.

---

(١) سورة المائدة (٢٥).
(٢) سورة المائدة (٢٦).
(٣) سورة البقرة (٦٠).
(٤) سورة البقرة (٦١).
(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٥٤) عن ابن عباس بسند ضعيف.
(٦) هذه اللفظة إن صحت فتحمل على معنى يليق بنبي الله موسى عليه السلام ولا يقدح في مروءة الأنبياء.

ورجع موسى إلى بني إسرائيل، فقال له بنو إسرائيل: إنك قتلت هارون لحبنا إياه. فقال: ويحكم أفترون أني أقتل أخي؟ فلما أكثروا عليه صلى ودعا الله، فنزل بالسرير حتى نظروا إليه ما بين السماء والأرض، فأخبرهم أنه مات وأن موسى لم يقتله، فصدقوه(١)، وكان موته في التيه.

ذكر وفاة موسى عليه السلام(٢)

قيل: بينما موسى عليه السلام يمشي ومعه يوشع بن نون فتاه إذ أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: لا تقوم الساعة إلا وأنا ملتزم نبي الله، فاستل موسى من تحت القميص وبقي القميص في يدي يوشع. فلما جاء يوشع بالقميص أخذه بنو إسرائيل وقالوا: قتلت نبي الله! فقال: ما قتلته ولكنه استل مني. فلم يصدقوه. قال: فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام، فوكلوا به من يحفظه، فدعا الله، فأتي كل رجل كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، فإنا رفعناه إلينا، فتركوه.

وقيل: إن موسى كره الموت فأراد الله أن يحبب إليه الموت، فأوحى الله إلى يوشع بن نون، وكان يغدو عليه ويروح، ويقول له موسى: يا نبي الله ما أحدث الله إليك؟ فيقال له يوشع بن نون: يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة؟ فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله لك؟ ولا يذكر له شيئًا. فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت.

وقيل: إنه مر منفردًا برهط من الملائكة يحفرون قبرًا، فعرفهم فوقف عليهم، فلم ير أحسن منه ولم ير مثل ما فيه من الخضرة والبهجة. فقال لهم: يا ملائكة الله! لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: نحفره لعبد كريم على ربه. فقال: إن هذا العبد له منزل كريم ما رأيت مضجعًا ولا مدخلاً مثله. فقال: أتحب أن يكون لك؟ قال: وددت. قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس تتنفسه. فنزل فيه وتوجه إلى ربه ثم تنفس، فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب(٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (١/ ٢٥٥) عن ابن عباس وابن مسعود.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٥٥) و«البداية» (١/ ٣٥٦).

(٣) ذكره وهب بن منبه مرسلاً كما في «البداية» (١/ ٣٥٨).

وكان ﷺ زاهدًا في الدنيا راغبًا فيما عند الله إنما كان يستظل في عريش ويأكل ويشرب من نقير من حجر تواضعًا إلى الله تعالى.

وقال النبي ﷺ : «**إن الله أرسل ملك الموت ليقبض روحه فلطمه ففقأ عينه، فعاد وقال: يا رب أرسلتني إلى عبد لا يحب الموت. قال الله: ارجع له وقل له يضع يده على ظهر ثور وله بكل شعرة تحت يده سنة، وخيره بين ذلك وبين أن يموت الآن. فأتاه الموت وخيره، فقال له: فما بعد ذلك؟ قال: الموت. قال: فالآن إذن. فقبض روحه**». وهذا القول صحيح قد صح النقل به عن النبي ﷺ [1]، فكان موته في التيه أيضًا. وقيل: بل هو الذي فتح مدينة الجبارين على ما نذكره.

وكان جميع عمر موسى مائة وعشرين سنة، من ذلك في ملك أفريدون عشرون، وفي ملك منوجهر مائة سنة، وكان ابتداء أمره منذ بعثه الله إلى أن قبضه في ملك منوجهر. ثم نبئ بعده يوشع بن نون فكان في زمن منوجهر عشرين سنة، وفي زمن أفراسياب سبع سنين.

* * *

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٣٩) ومسلم (٢٣٧٢) عن أبي هريرة.

ذكر يوشع بن نون عليه السلام وفتح مدينة الجبارين[1]

لما توفي موسى بعث الله يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام نبيًا إلى بني إسرائيل وأمره بالمسير إلى أريحاء مدينة الجبارين، واختلف العلماء في فتحها على يد من كان. فقال ابن عباس: إن موسى وهارون توفيا في التيه[2] وتوفي فيه كل من دخله، وقد جاوز العشرين سنة، غير يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، فلما انقضى أربعون سنة أوحى الله إلى يوشع ابن نون فأمره بالمسير إليها وفتحها، ففتحها، ومثله قال قتادة والسدي وعكرمة.

وقال آخرون: إن موسى عاش حتى خرج من التيه وسار إلى مدينة الجبارين وعلى مقدمته يوشع بن نون ففتحها، وهو قول ابن إسحاق، قال ابن إسحاق: سار موسى بن عمران إلى أرض كنعان لقتال الجبارين، فقدم يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وهو صهره على أخته مريم بنت عمران.

فلما بلغوها اجتمع الجبارون إلى بلعم بن باعوراء، وهو من ولد لوط، فقالوا له: إن موسى قد جاء ليقتلنا ويخرجنا من ديارنا فادع الله عليهم. وكان بلعم يعرف اسم [الله][3] الأعظم، فقال لهم: كيف أدعو على نبي الله والمؤمنين ومعهم الملائكة! فراجعوه في ذلك وهو يمتنع عليهم، فأتوا امرأته وأهدوا لها هدية، فقبلتها، وطلبوا إليها أن تحسن لزوجها أن يدعو على نبي بني إسرائيل، فقالت له في ذلك، فامتنع، فلم تزل به حتى قال: أستخير الله. فاستخار الله تعالى، فنهاه في المنام، فأخبرها بذلك، فقالت: راجع ربك فعاود الاستخارة فلم يرد إليه جواب. فقالت: لو أراد ربك لنهاك، ولم تزل تخدعه حتى أجابهم، فركب حمارًا له متوجهًا إلى جبل مشرف على بني إسرائيل ليقف عليه ويدعو عليهم فلما سار عليه إلا قليلاً حتى ربض[4] الحمار، فنزل عنه وضربه حتى قام فركبه فسار به قليلاً فبرك، فعل ذلك ثلاث مرات، فلما اشتد ضربه في الثالثة أنطقه الله فقال له:

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٥٧) و«البداية» (١/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٥٧).

(٣) زيادة من «تاريخ الطبري» (١/ ٢٥٨).

(٤) ربض: مثل برك للإبل، وجلس للآدمي.

ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة تردني؟ فلم يرجع، فأطلق الله الحمار حينئذ، فسار عليه حتى أشرف على بني إسرائيل، فكان كلما أراد أن يدعو عليهم ينصرف لسانه إلى الدعاء لهم، وإذا أراد أن يدعو لقومه انقلب دعاؤه عليهم، فقالوا له في ذلك، فقال: هذا شيء غلبنا الله عليه، واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال: الآن قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق غير المكر والحيلة. وأمرهم أن يزينوا نساءهم ويعطوهن السلع للبيع ويرسلوهن إلى العسكر ولا تمنع امرأة نفسها ممن يريدها. وقال: إن زنى منهم رجل واحد كفيتموهم. ففعلوا ذلك، ودخل النساء عسكر بني إسرائيل، فأخذ زمرى بن شلوم، وهو رأس سبط شمعون بن يعقوب، امرأة وأتى بها موسى فقال له: أظنك تقول هذا حرام فوالله لا نطيعك، ثم أدخلها خيمته فوقع عليها، فأنزل الله عليهم الطاعون، وكان فنحاص بن العيزار ابن هارون صاحب أمر عمه موسى غائبًا، فلما جاء رأى الطاعون قد استقر في بني إسرائيل، وأخبر الخبر، وكان ذا قوة وبطش، فقصد زمرى فرآه وهو مضاجع المرأة، فطعنهما بحربة في يده فانتظمهما، ورفع الطاعون، وقد هلك في تلك الساعة عشرون ألفًا، وقيل: سبعون ألفًا فأنزل الله في بلعم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[١].

ثم إن موسى قدم يوشع إلى أريحاء في بني إسرائيل فدخلها وقتل بها الجبارين، وبقيت منهم بقية، وقد قاربت الشمس الغروب، فخشي أن يدركهم الليل فيعجزوه، فدعا الله تعالى أن يحبس عليهم الشمس، ففعل وحبسها حتى استأصلهم، ودخلها موسى فأقام بها ما شاء الله أن يقيم، وقبضه الله إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلق[٢].

وأما من زعم أن موسى كان قد توفي قبل ذلك فقال: إن الله أمر يوشع بالمسير إلى مدينة الجبارين، فسار ببني إسرائيل، ففارقه رجل يقال له بلعم بن باعوراء، وكان يعرف الاسم الأعظم، وساق من حديثه نحو ما تقدم. فلما ظفر يوشع بالجبارين أدركه المساء ليلة السبت فدعا الله فرد الشمس عليه وزاد في النهار ساعة فهزم الجبارين ودخل مدينتهم وجمع غنائمهم ليأخذها القربان، فلم تأت النار،

---

(١) سورة الأعراف (١٧٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٥٨، ٢٥٩) عن سالم أبي النضر مرسلاً بسند ضعيف.

فقال يوشع: فيكم غلول فبايعوني، فبايعوه، فلصقت يده في يد من غل، فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت فجعله في القربان وجعل الرجل معه، فجاءت النار فأكلتهما.

وقيل: بل حصرها ستة أشهر، فلما كان السابع تقدموا إلى المدينة وصاحوا صيحة واحدة فسقط السور، فدخلوها وهزموا الجبارين وقتلوا فيهم فأكثروا. ثم اجتمع جماعة من ملوك الشام وقصدوا يوشع فقاتلهم وهزمهم وهرب الملوك إلى غار، فأمر بهم يوشع بن نون فقتلوا وصلبوا. ثم ملك الشام جميعه فصار لبني إسرائيل وفرق عماله فيه. ثم توفاه الله فاستخلف على بني إسرائيل كالب بن يوفنا، وكان عمر يوشع مائة وستًّا وعشرين سنة، وكان قيامه بالأمر بعد موسى سبعًا وعشرين سنة.

وأما من بقي من الجبارين فإن إفريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان مر بهم متوجهًا إلى إفريقية فاحتملهم من سواحل الشام فقدم بهم إفريقية فافتتحها وقتل ملكها جرجير وأسكنهم إياها، فهم البرابرة، وأقام من حمير في البربر صنهاجة وكتامة، فهم فيهم إلى اليوم.



ذكر أمر قارون[١]

وكان قارون بن يصهر بن قاهث، وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث[٢]، وقيل: كان عم موسى، والأول أصح. وكان عظيم المال كثير الكنوز، قيل إن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين بغلاً، فبغى على قومه بكثرة ماله، فوعظوه ونهوه وقالوا له ما قص الله تعالى في كتابه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣]، فأجابهم جواب مغتر لحلم الله عنه فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾، يعني المال والخزائن، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[٤]، قيل على خبر ومعرفة مني، وقيل: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا. فلم يرجع عن غيه ولكنه تمادى في طغيانه حتى خرج على قومه في زينته، وهي أنه ركب برذونًا[٥] أبيض بمراكب الأرجوان المذهبة وعليه الثياب المعصفرة وقد حمل معه ثلاثمائة جارية على مثل برذونه وأربعة آلاف من أصحابه، وبنى داره وضرب عليها صفائح الذهب وعمل لها بابًا من ذهب، فتمنى أهل الغفلة والجهل مثل ماله، فنهاهم أهل العلم بالله.

وأمره الله تعالى بالزكاة، فجاء إلى موسى من كل ألف دينار دينار، وعلى هذا من كل ألف شيء شيء، فلما عاد إلى بيته وجده كثيراً، فجمع نفراً يثق بهم من بني إسرائيل فقال: إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أخذ أموالكم. فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت. فقال: آمركم أن تحضروا فلانة البغي فتجعلوا لها جعلاً فتقذفه بنفسها، ففعلوا ذلك، فأجابتهم إليه. ثم أتى موسى فقال: إن قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم. فخرج إليهم فقال: من سرق

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٦٢) و«البداية» (١/ ٣٤٨).

(٢) قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قال: كان ابن عمه.
رواه ابن أبي حاتم وغيره كما في «الفتح» (٦/ ٥١٦)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح.

(٣) سورة القصص (٧٦، ٧٧).

(٤) سورة القصص (٧٨).

(٥) البرذون: من الخيل الغير عربي.

قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال: نعم. قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فقال ادعوها فإن قالت فهو كما قالت. فلما جاءت قال لها موسى: أقسمت عليك بالذي أنزل التوراة ألا صدقت: أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ قالت: لا، كذبوا، ولكن جعلوا لي جعلاً على أن أقذفك. فسجد ودعا عليهم، فأوحى الله إليه: مر الأرض بما شئت تطعك. فقال: يا أرض خذيهم[1].

وقيل: إن هذا الأمر بلغ موسى، فدعا الله تعالى عليه، فأوحى الله إليه: مر الأرض بما شئت تطعك. فجاء موسى إلى قارون، فلما دخل عليه عرف الشر في وجهه فقال له: يا موسى ارحمني. فقال موسى: يا أرض خذيهم. فاضطربت داره وساخت بقارون وأصحابه إلى الكعبين، وجعل يقول: يا موسى ارحمني. قال يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم. فلم يزل يستعطفه وهو يقول: يا أرض خذيهم، حتى خسف بهم، فأوحى الله إلى موسى: ما أفظك! أما وعزتي لو إياي نادى لأجبته، ولا أعيد الأرض تطيع أحدًا أبدًا بعدك[2]، فهو يخسف به كل يوم قامة، فلما أنزل الله نقمته حمد المؤمنون الله، وعرف الذين تمنوا مكانه بالأمس خطأ أنفسهم واستغفروا وتابوا.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس وصحح الحافظ ابن حجر إسناده في «الفتح» (٦/ ٥١٧).

(٢) ورد هذا بغير هذا السياق ضمن الأثر السابق، وفيه: «فرفع رأسه فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى.... يا موسى.... فقال خذيهم إلى أعناقهم. فجعلوا يقولون: يا موسى.... يا موسى.... فقال: خذيهم، فغيبتهم، فأوحى الله: يا موسى؛ سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم».

ذكر من ملك من الفرس بعد منوجهر[1]

لما هلك منوجهر ملك فارس سار أفراسياب بن فشنج بن رستم ملك الترك إلى مملكة الفرس واستولى عليها وسار إلى أرض بابل وأكثر المقام بها وبمهرجان قذق[2] وأكثر الفساد في مملكة فارس، وعظم ظلمه، وأخرب ما كان عامرًا، ودفن الأنهار والقنى، وقحط الناس سنة خمس من ملكه، إلى أن خرج عن مملكة فارس ولم يزل الناس منه في أعظم البلية إلى أن ملك زو بن طهماسب، وكان منوجهر قد سخط على ولده طهماسب ونفاه عن بلاده، فأقام في بلاد الترك عند ملك لهم يقال له (وامن) وتزوج ابنته، فولدت له زو بن طهماسب، وكان المنجمون قد قالوا لأبيها: إن ابنته تلد ولدًا يقتله، فسجنها، فلما تزوجها طهماسب وولدت منه كتمت أمرها وولدها.

ثم إن منوجهر رضي عن طهماسب وأحضره إليه، فاحتال في إخراج زوجته وابنه زوّ من محبسهما، فوصلت إليه.

ثم إن زوًا فيما ذكر قتل جده وأمن في بعض الحروب الترك وطرد أفراسياب التركي عن مملكة فارس حتى رده إلى الترك بعد حروب جرت بينهما، فكانت غلبة أفراسياب على أقاليم بابل ومملكة الفرس اثنتي عشرة سنة من لدن توفي منوجهر إلى أن أخرجه عنها زو، وكان إخراجه عنها. في زوزابان من شهرابان ماه، فاتخذ لهم هذا اليوم عيدًا وجعلوه الثالث لعيديهم النوروز[3] والمهرجان.

وكان زو محمودًا في ملكه محسنًا إلى رعيته فأمر بإصلاح ما كان أفراسياب أفسده من مملكتهم، وبعمارة الحصون، وإخراج المياه التي غور طرقها، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت. ووضع عن الناس الخراج سبع سنين، فعمرت البلاد في ملكه وكثرت المعايش، واستخرج بالسواد نهرًا وسماه الزاب، وبنى عليه مدينة وهي التي تسمى العتيقة، وجعل لها طسوج الزاب الأعلى، وطسوج الزاب الأوسط وطسوج الزاب الأسفل.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٦٨).

(٢) في المصدر السابق: «فكان يكثر المقام ببابل قذق».

(٣) النوروز: والنيروز: أصله بالفارسية نيع روز، وتفسيره جديد يوم. «لسان العرب» (٥/ ٤١٦).

وكان أول من اتخذ ألوان الطبيخ وأمر بها وبأصناف الأطعمة، وأعطى جنوده ما غنم من الترك وغيرهم.

وكان جميع ملكه إلى أن انقضت مدته ثلاث سنين، وكان كرشاسب بن أنوط وزيره في ملكه ومعينه فيه، وقيل: كان شريكه في الملك، والأول أصح، وكان عظيم الشأن في فارس إلا أنه لم يملك.

ذكر ملك كيقباذ[1]

ثم ملك بعد زو كيقباذ بن راع بن ميسرة بن نوذر بن منوجهر وقدر مياه الأنهار والعيون لشرب الأرض وسمى البلاد بأسمائها وحدها بحدودها، وكور الكور وبين حيز كل كورة، وأخذ العشر من غلاتها لأرزاق الجند، وكان - فيما ذكر - كيقباذ حريصًا على عمارة البلاد، ومنعها من العدو كثير الكنوز، وقيل: إن الملوك الكيانية وأبناءهم من نسله، وجرت بينهم وبين الترك حروب كثيرة، فكان مقيمًا بالقرب من نهر بلخ، وهو جيحون، لمنع الترك من تطرق شيء من بلاده. وكان ملكه مائة سنة.



(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٦٩).

ذكر الأحداث في بني إسرائيل
في عهد زو وكيقباذ ونبوة حزقيل[١]

لما توفي يوشع بن نون قام بأمر بني إسرائيل بعده كالب بن يوفنا، ثم حزقيل بن نورى، وهو الذي يقال له ابن العجوز، وإنما قيل له ذلك لأن أمه سألت الله الولد وقد كبرت، فوهبه الله لها، وهو الذي دعا للقوم الموتى فأحياهم الله.

وكان سبب ذلك: أن قرية يقال لها راوودان وقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها ونزلوا ناحية، فهلك أكثر من بقي بالقرية وسلم الآخرون، فلما ارتفع الطاعون رجعوا. فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا ولو صنعنا ما صنعوا بقينا. فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامة أهلها، وهم بضعة وثلاثون ألفًا، وقيل ثلاثة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، وقيل غير ذلك، حتى نزلوا على ذلك المكان، فصاح بهم ملك فماتوا ونخرت عظامهم، فمر بهم حزقيل فلما رآهم جعل يتفكر في بعثهم، فأوحى الله إليه: أتريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم. فقيل: ناد، فنادى: يا أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي، فجعلت العظام تطير بعضها إلى بعض حتى صارت أجسادًا من عظام. ثم نادى يا أيتها العظام إن الله أمرك أن تكتسي فألبست لحمًا ودمًا وثيابها التي ماتت فيها. ثم نادى: يا أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن تعودي إلى أجسادك. فعادت وقامت الأجساد أحياء، وقالوا حين أحيوا: سبحانك ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت! فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوبًا إلا عاد كفنًا دسمًا، ثم ماتوا ثم مات حزقيل، ولم تذكر مدته في بني إسرائيل. وقيل: كانوا قوم حزقيل، فلما أن ماتوا بكى حزقيل وقال: يا رب كنت في قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيدًا! فقال الله: أتحب أن أحييهم؟ قال: نعم. قال: فإني قد جعلت حياتهم إليك. فقال حزقيل: أحيو بإذن الله تعالى، فعاشوا[٢].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٧١) «وتفسير ابن كثير» (١/ ٢٩٩).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: قال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدي عن المنهال بن عمرو الأسدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون =

ذكر إلياس عليه السلام[1]

لما توفي حزقيل كثرت الأحداث في بني إسرائيل وتركوا عهد الله وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العزار بن هارون بن عمران نبيًّا، وكان الأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى بن عمران يبعثون بتجديد ما نسوا من التوراة، وكان إلياس مع ملك من ملوكهم يقال له أخاب، وكان يسمع منه ويصدقه، وكان إلياس يقيم له أمره وكان بنو إسرائيل قد اتخذوا صنمًا يعبدونه يقال له: بعل، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله وهم لا يسمعون إلا من ذلك الملك، وكان ملوك بني إسرائيل متفرقة كل ملك قد تغلب على ناحية يأكلها، فقال ذلك الملك الذي كان إلياس معه: «والله ما أرى الذي تدعو إليه باطلاً لأني أرى فلانًا وفلانًا ـ يعد ملوك بني إسرائيل ـ قد عبدوا الأوثان فلم يضرهم ذلك شيئًا، يأكلون ويشربون ويتمتعون ما ينقص ذلك من دنياهم وما نرى لنا عليهم من فضل». ففارقه إلياس وهو يسترجع، فعبد ذلك الملك الأوثان أيضًا.

وكان للملك جار صالح مؤمن يكتم إيمانه وله بستان إلى جانب دار الملك والملك يحسن جواره، وللملك زوجة عظيمة الشر والكفر، فقالت له ليأخذ بستان الرجل، فلم يفعل، فكانت تخلف زوجها إذا سار عن بلده وتظهر للناس، فغاب مرة فوضعت امرأته على صاحب البستان من شهد عليه أنه سب الملك، فقتلته وأخذت بستانه، فلما عاد الملك غضب من ذلك واستعظمه وأنكره فقالت: فات أمره. فأوحى الله إلى إلياس يأمره أن يقول للملك وامرأته أن يردا البستان على ورثة صاحبه، فإن لم يفعلا غضب عليهما وأهلكهما في البستان ولم يتمتعا به إلا قليلاً، فأخبرهما إلياس بذلك فلم يراجعا الحق.

فلما رأى إلياس أن بني إسرائيل قد أبوا إلا الكفر والظلم دعا عليهم، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، فهلكت الماشية والطيور والهوام والشجر وجهد الناس

= قالوا نأتي أرضًا ليس بها موت. حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم ﴿موتوا﴾ فماتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ الآية.

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٧٣) و«البداية» (١/ ٣٧٩).

جهداً شديداً، واستخفى إلياس خوفًا من بني إسرائيل، فكان يأتيه رزقه، ثم إنه أوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن أخطوب به ضر شديد، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به واتبع إلياس، وكان معه وصحبه وصدقه، وكان إلياس قد كبر، فأوحى الله إليه: إنك قد أهلكت كثيراً من الخلق من البهائم والدواب والطير وغيرها ولم يعص سوى بني إسرائيل. فقال إلياس: أي ربي دعني أكن أنا الذي أدعو لهم وأبتهج بالفرج لعلهم يرجعون.

فجاء إلياس إليهم وقال لهم: إنكم قد هلكتم وهلكت الدواب بخطاياكم فإن أحببتم أن تعلموا أن الله ساخط عليكم بفعلكم وأن الذي أدعوكم إليه هو الحق فاخرجوا بأصنامكم وادعوها فإن استجابت لكم فذلك الحق كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوت الله ففرج عنكم.

قالوا: أنصفت. فخرجوا بأصنامهم فدعوها فلم يستجب لهم ولم يفرج عنهم. فقالوا لإلياس: إنا قد هلكنا فادع الله لنا. فدعا لهم بالفرج وأن يسقوا، فخرجت سحابة مثل الترس وعظمت وهم ينظرون، ثم أرسل الله منها المطر، فحييت بلادهم وفرج الله عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فلم ينزعوا ولم يراجعوا الحق، فلما رأى إلياس ذلك سأل الله أن يقبضه فيريحه منهم، فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، فصار ملكيًا إنسيًا سماويًا أرضيًا[١]، وسلط الله على الملك وقومه عدواً فظفر بهم وقتل الملك وزوجته بذلك البستان وألقاهما فيه حتى بليت لحومهما.

ذكر نبوة اليسع عليه السلام وأخذ التابوت من بني إسرائيل[٢]

فلما انقطع إلياس عن بني إسرائيل بعث الله اليسع، فكان فيهم ماشاء الله، ثم قبضه الله وعظمت فيهم الأحداث وعندهم التابوت يتوارثونه فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فكانوا لا يلقاهم عدو فيقدمون التابوت إلا هزم الله العدو، وكانت السكينة شبه رأس هر فإذا صرخت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح[٣].

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٧٤ - ٢٧٥) عن ابن إسحاق بدون سند، وفي متنه نكارة.
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٧٤) و«البداية» (١/ ٣٨٧).
(٣) أخرجه الطبري في المصدر السابق عن وهب بن منبه.

ثم خلف فيها ملك يقال له «إيلاف»، وكان الله يمنعهم ويحميهم، فلما عظمت أحداثهم نزل بهم عدو فخرجوا إليه وأخذوا التابوت، فاقتتلوا فغلبهم عدوهم على التابوت وأخذه منهم وانهزموا، فلما علم ملكهم أن التابوت أخذ مات كمدًا، ودخل العدو أرضهم ونهب وسبى وعاد فمكثوا على اضطراب من أمرهم واختلاف، وكانوا يتمادون أحيانًا في غيهم فيسلط الله عليهم من ينتقم منهم، فإذا راجعوا التوبة كف الله عنهم شر عدوهم، فكان هذا حالهم من لدن توفي يوشع بن نون إلى أن بعث الله اشمويل وملكهم طالوت ورد عليهم التابوت.

وكانت مدة ما بين وفاة يوشع، الذي كان يلي أمر بني إسرائيل بعضها القضاة وبعضها الملوك وبعضها المتغلبون إلى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوة إلى اشمويل، أربعمائة سنة وستين سنة.

فكان أول من سلط عليهم رجل من نسل لوط يقال له: كوشان فقهرهم وأذلهم ثماني سنين، ثم أنقذهم من يده أخ لكالب الأصغر يقال له عتنيل فقام بأمرهم أربعين سنة، ثم سلط عليهم ملك يقال له: عجلون فملكهم ثماني عشرة سنة، ثم استنقذهم منه رجل من سبط بنيامين يقال له أهوذ، وقام بأمرهم ثمانين سنة.

ثم سلط عليهم ملك من الكنعانيين يقال له «يابين»، فملكهم عشرين سنة واستنقذهم منه امرأة من بني أنبيائهم يقال لها دبورا، ودبر الأمر رجل من قبلها يقال له باراق أربعين سنة. ثم سلط عليهم قوم من نسل لوط فملكوهم سبع سنين، واستنقذهم رجل يقال له جدعون بن يواش من ولد نفتالى بن يعقوب، فدبر أمرهم أربعين سنة وتوفي.

ودبر أمرهم بعده ابنه أبيمالخ ثلاث سنين، ثم دبرهم بعده فولع بن فوّ ابن خال أبيمالخ، ويقال ابن عمه، ثلاثًا وعشرين سنة، ثم دبر أمرهم بعده رجل يقال له يائير اثنتين وعشرين سنة. ثم ملكهم قوم من أهل فلسطين بني عمون ثماني عشرة سنة، ثم قام بأمرهم رجل منهم يقال له يفتح ست سنين. ثم دبر أمرهم بعده يتحسون سبع سنين. ثم بعده آلون عشر سنين. ثم بعده لترون، ويسميه بعضهم عكرون، ثماني سنين ثم قهرهم أهل فلسطين وملكوهم أربعين سنة. ثم وليهم شمسون عشرين سنة. ثم بقوا بعده عشرين سنة بغير مدبر ولا رئيس. ثم قام بأمرهم بعد ذلك عالي الكاهن. وفي أيامه غلب أهل فلسطين على التابوت في قول، فلما مضى من وقت قيامه أربعون سنة بعث اشمويل نبيًّا فدبرهم عشر سنين. ثم سألوا اشمويل أن يبعث لهم ملكًا يقاتل بهم أعداهم.

ذكر حال اشمويل وطالوت[1]

كان من خبر اشمويل بن بالي أن بني إسرائيل لما طال عليهم البلاء وطمع فيهم الأعداء، وأخذ التابوت منهم، فصاروا بعده لا يلقون ملكًا إلا خائفين، فقصدهم جالوت ملك الكنعانيين، وكان ملكه ما بين مصر وفلسطين، فظفر بهم فضرب عليهم الجزية، وأخذ منهم التوراة، فدعوا الله أن يبعث لهم نبيًا يقاتلون معه، وكان سبط النبوة هلكوا فلم يبق منهم غير امرأة حبلى، فحبسوها في بيت خيفة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فولدت غلامًا اسمته اشمويل، ومعناه: سمع الله دعائي.

وسبب هذه التسمية أنها كانت عاقرًا، وكان لزوجها امرأة أخرى قد ولدت له عشرة أولاد فبغت عليها بكثرة الأولاد، فانكسرت العجوز ودعت الله أن يرزقها ولدًا، فرحم الله انكسارها وحاضت لوقتها وقرب منها زوجها، فحملت، فلما انقضت مدة الحمل ولدت غلامًا فسمته اشمويل، فلما كبر أسلمته في بيت المقدس يتعلم التوراة، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه.

فلما بلغ أن يبعثه الله نبيًا أتاه جبريل وهو يصلي فناداه بصوت يشبه صوت الشيخ، فجاء إليه، فقال: ما تريد؟ فكره أن يقول لم أدعك فيفزع، فقال: ارجع فنم. فرجع، فعاد جبريل لمثلها، فجاء إلى الشيخ، فقال له: يا بني عد فإذا دعوتك فلا تجبني. فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل وأمره بإنذار قومه وأعلمه أن الله بعثه رسولاً، فدعاهم فكذبوه، ثم أطاعوه، وأقام يدبر أمرهم عشر سنين، وقيل: أربعين سنة.

وكان العمالقة مع ملكهم جالوت قد عظمت نكايتهم في بني إسرائيل حتى كادوا يهلكونهم، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[2].

فدعا الله فأرسل إليه عصًا وقرنًا فيه دهن، وقيل له: إن صاحبكم يكون طوله طول هذه العصا، وإذا دخل عليه رجل فنش الدهن[3] الذي في القرن فهو ملك

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٧٦) و«البداية» (١/ ٣٨٨).

(٢) سورة البقرة (٢٤٦).

(٣) نش الدهن: غلى، والنشيش: الصوت الذي يسمع عند الغليان.

بني إسرائيل فادهن رأسه به وملكه عليهم، فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها.

وكان طالوت دباغًا. وقيل كان سقاء يسقي الماء ويبيعه، فضل حماره فانطلق يطلبه، فلما اجتاز بالمكان الذي فيه اشمويل دخل يسأل أن يدعو له ليرد الله حماره، فلما دخل فنش الدهن، فقاسوه بالعصا فكان مثلها، فقال لهم نبيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[1]، وهو بالسريانية شاول بن قيس بن أنمار بن ضرار ابن يحرف بن يفتح بن ايش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق.

فقالوا له: ما كنت قط أكذب منك الساعة ونحن من سبط المملكة ولم يؤت طالوت سعة من المال فنتبعه. فقال اشمويل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[2]. فقالوا: إن كنت صادقًا فأت بآية. فقال: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[3]. والسكينة رأس هر، وقيل طشت من ذهب يغسل فيها قلوب الأنبياء، وقيل غير ذلك[4]، وفيه الألواح وهي من در وياقوت وزبرجد، وأما البقية فهي عصا موسى ورضاضة الألواح فحملته الملائكة وأتت به إلى طالوت نهارًا بين السماء والأرض والناس ينظرون، فأخرجه طالوت إليهم، فأقروا بملكه ساخطين وخرجوا معه كارهين، وهم ثمانون ألفًا.

فلما خرجوا قال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[5]. وهو نهر فلسطين، وقيل: الأردن، فشربوا منه إلا قليلاً، وهم أربعة آلاف، فمن شرب منه عطش ومن لم يشرب منه إلا غرفة روي، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[6]. لقيهم جالوت، وكان ذا بأس شديد، فلما رأوه رجع أكثرهم ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[7]، ولم يبق معه غير ثلاثمائة وبضعة عشر عدد أهل بدر، فلما رجع من رجع قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[8].

وكان فيهم إيشا أبو داود ومعه من أولاده ثلاثة عشر ابنًا، وكان داود أصغر بنيه،

---

(١)، (٢) سورة البقرة (٢٤٧).

(٣) سورة البقرة (٢٤٨).

(٤) فقيل في تفسيرها: أنها الوقار والجلالة، وقيل: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٢).

(٥): (٨) سورة البقرة (٢٤٩).

وقد خلفه يرعى لهـم ويحمل لهم الطعام، وكان قد قال لأبيـه ذات يوم: يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئًا إلا صرعته. ثم قال له: لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدًا رابضًا فركبت عليه وأخذت بأذنيه فلم أخفه، ثم أتاه يومًا آخر فقال: إني لأمشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلا سبح معي. فقال له: أبشر فإن هذا خير أعطاكه الله. فأرسل الله إلى النبي الذي مع طالوت قرنًا فيه دهن وتنور من حديد، فبعث به إلى طالوت وقال له: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت يوضع هذا الدهن على رأسه فيغلي حتى يسيل من القرن، ولا يجاوز رأسه إلى وجهه ويبقى على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنور فيملؤه. فدعا طالوت بني إسرائيل فجربهم، فلم يوافقه منهم أحد، فأحضر داود من رعيه، فمر في طريقه بثلاثة أحجار، فكلمته وقلن: خذنا يا داود تقتل بنا جالوت، فأخذهن فجعلهن في مخلاته، وكان طالوت قد قال: من قتل جالوت زوجته ابنتي وأجريت خاتمه في مملكتي.

فلما جاء داود وضعوا القرن على رأسه، فغلى حتى ادهن منه ولبس التنور فملأه، وكان داود مسقامًا[1] أزرق مصفارًا، فلما دخل في التنور تضايق عليه حتى ملأه، وفرح اشمويل وطالوت وبنو إسرائيل بذلك وتقدموا إلى جالوت وتصافوا للقتال، وخرج داود نحو جالوت وأخذ الأحجار ووضعها في قذافته ورمى بها جالوت، فوقع الحجر بين عينيه فثقب رأسه فقتله، ولم يزل الحجر يقتل كل من أصابه ينفذ منه إلى غيره، فانهزم عسكر جالوت بإذن الله.

ورجع طالوت فأنكح ابنته داود وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود وأحبوه، فحسده طالوت وأراد قتله غيلة، فعلم ذلك داود ففارقه وجعل في مضجعه زق خمر وسجاه، ودخل طالوت إلى منام داود، وقد هرب داود، فضرب الزق ضربة خرقه، فوقعت قطرة من الخمر في فِيِّه، فقال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر! فلما أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئًا، فخاف داود أن يغتاله فشدد حُجَّابه وحراسه. ثم إن داود أتاه من المقابلة في بيته وهو نائم فوضع سهمين عند رأسه وعند رجليه، فلما استيقظ طالوت بصر بالسهام فقال: يرحم الله داود! وهو خير مني، ظفرت به وأردت قتله وظفر بي فكف عني. وأذكى عليه العيون فلم يظفروا به. وركب طالوت يومًا فرأى داود فركض في أثره، فهرب داود منه واختفى في غار في الجبل، فعمى الله أثره على طالوت.

---

(١) مسقامًا: أي كثير السقم والمرض.

ثم إن طالوت قتل العلماء حتى لم يبق أحد إلا امرأة كانت تعرف اسم الله الأعظم فسلمـها إلى رجل يقتلهـا، فرحمهـا وتركها وأخـفى أمرها. ثم إن طالوت ندم وأراد التوبة وأقـبل على البكاء حتى رحمه الناس، فـكان كل ليلة يخرج إلى القبور فـيبكي ويقول: أنشد الله عبداً علم لي توبة إلا أخبرني بها. فلما أكثر ناداه مناد من القبور:

يا طالوت! أمـا رضيت قـتلتنا أحيـاء حتى تؤذينا أمـواتًا؟ فازداد بكاء وحـزنًا، فرحمه الرجل الذي أمره بقتل تلك المرأة فقال له: إن دللتك على عالم لعلك تقتله! قال: لا. فأخذ عليه العهود والمـواثيق ثم أخبره بتلك المرأة فقال: سلها هل لي من توبة؟ فحضـر عندها وسألها هل له من توبة؟ فقـالت: ما أعلم له من توبة، ولكن هل تعلمون قبر نبي؟ قالوا: نعم، قبر يوشع بن نون. فانطلقت وهم معها فدعت، فخرج يوشع، فلما رآهم قال: ما بالكم؟ قالوا: جئنا نسألك هل لطالوت من توبة؟ قال: ما أعلم له توبة إلا أن يتخلى من ملكه ويخرج هو وولـده فيقاتلون في سبيل الله حتى تقتل أولاده ثم يـقاتل هو حتى يقتل، فعـسى أن يكون له توبة، ثم سقط ميتًا. ورجع طالوت أحزن مما كان - يخـاف أن لا يتابعه ولده - فبكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه، فسأله بنوه عن حـاله، فأخبرهم، فتجهزوا للغزو فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا، ثم قاتل هو بعدهم حتى قتل[1].

وقيل: إن النبي الذي بعث لطالوت حتى أخبره بتـوبته اليسع، وقيل: اشمويل، والله أعلم.

وكانت مدة ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة.

* * *

(١) أخرجـه ابن جرير في تاريخـه (١/ ٢٧٨- ٢٨٠) من طريق السدى عن ابن مـسعود وابن عـباس وغيرهما مـن الصحابة، وقال الحافظ ابن كثـير في البداية (١/ ٣٩٣): في بعض هذا نظر ونكارة والله أعلم.

قلت: من النكارة التي فيـه أنه مخالف لظاهر القرآن حيث قـال الله تعالى في حق طالوت: ﴿**إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم**﴾ - فيبعد أن يقع منـه حسد وكيد لنبي الله داود وقتل للعلماء والله أعلم.

ذكر مُلْك داود[١]

هو داود بن إيشا بن عويفذ بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب بن رام ابن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، وكان قصيراً أزرق قليل الشعر، فلما قتل طالوت أتى بنو إسرائيل داود. فأعطوه خزائن طالوت وملكوه عليهم، وقيل: إن داود ملك قبل أن يقتل جالوت وسبب ملكه حينئذ أن الله أوصى إلى اشمويل ليأمر طالوت بغزو مدين وقتل من بها، فسار إليها وقتل من بها إلا ملكهم، فإنه أخذه أسيراً، فأوحى الله إلى اشمويل: قل لطالوت آمرك بأمر فتركته! لأنزعن الملك منك ومن بنيك ثم لا يعود فيكم إلى يوم القيامة.

وأمر اشمويل بتمليك داود، فملكه وسار إلى جالوت فقتله، والله أعلم.

فلما ملك بني إسرائيل جعله الله نبيًّا وملكًا وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع، وهو أول من عملها، وألان له الحديد، وأمر الجبال والطير يسبحون معه إذا سبح، ولم يعط الله أحداً مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يأخذ بأعناقها وإنها لمصيخة[٢] تسمع صوته، وكان شديد الاجتهاد كثير العبادة والبكاء، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، وكان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف، وكان يأكل من كسب يده.

وفي ملكه مسخ أهل أيلة قردة، وسبب ذلك أنهم كانوا تأتيهم يوم السبت حيتان البحر كثيراً، فإذا كان غير يوم السبت لا يجيء إليهم منها شيء، فعملوا على جانب البحر حياضًا كبيرة وأجروا إليها الماء، فإذا كان آخر نهار يوم الجمعة يتحول الماء إلى الحياض فتدخلها الحيتان ولا تقدر على الخروج عنها، فيأخذونها يوم الأحد، فنهاهم بعض أهلها فلم ينتهوا، فمسخهم الله قردة وبقوا ثلاثة أيام وهلكوا.

ذكر فتنته بزوجة أوريا[٣]

ثم إن الله ابتلاه بزوجة أوريا، وكان سبب ذلك أنه قد قسم زمانه ثلاثة أيام:

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٨١) و«البداية» (١/ ٣٩٣).

(٢) مصيخة: أي مستمعة منصة. لسان العرب (٣/ ٣٥).

(٣) أورد المصنف هذه القصة ولم يتعقبها بشيء وهي قصة مكذوبة باطلة من الإسرائيليات ويذكرها =

يومًا يقضي فيه بين الناس ويومًا يخلو فيه للعبادة، ويومًا يخلو فيه مع نسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان يحسد فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: أي رب! أرى الخير قد ذهب آبائي به فأعطني مثل ما أعطيتهم! فأوحى الله إليه: إن آباءك ابتلوا ببلاء فصبروا، ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، وابتلي إسحاق بذهاب بصره، وابتلي يعقوب بحزنه على يوسف.

فقال: رب ابتلني بمثل ما ابتليتهم وأعطني بمثل ما أعطيتهم. فأوحى الله إليه: إنك مبتلٍ فاحترس.

وقيل: كان سبب البلية أنه حدث نفسه أنه يطيق أن يقطع يومًا بغير مفارقة سوء، فلما كان اليوم الذي يخلو فيه للعبادة عزم على أن يقطع ذلك اليوم بغير سوء وأغلق بابه وأقبل على العبادة، فإذا هو بحمامة من ذهب فيها كل لون حسن قد وقعت بين يديه، فأهوى ليأخذها، فطارت غير بعيد من غير أن ييأس من أخذها، فما زال يتبعها وهي تفر منه حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه حسنها، فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها فاستترت به، فزاده ذلك رغبة، فسأل عنها فأخبر أن زوجها بثغر كذا فبعث إلى صاحب الثغر بأن يقدم أوريا بين يدي التابوت في الحرب، وكان كل من يتقدم بين يدي التابوت لا ينهزم، إما أن يظفر أو يقتل، ففعل ذلك به فقتل.

وقيل: إن داود لما نظر إلى المرأة فأعجبته سأل عن زوجها، فقيل: إنه في جيش كذا، فكتب إلى صاحب الجيش أن يبعثه في سرية إلى عدو كذا، ففعل ذلك،

= بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ الآية قال الحافظ ابن كثير في تاريخه (١/ ٣٩٧) بعد أن ذكر هذه الآية: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيراده في كتابنا قصدًا اكتفاء واقتصارًا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم اهـ. والقصة رواها الحكيم الترمذي من حديث أنس بن مالك كما في الضعيفة (٣١٤) وقال الألباني: باطل. ونقل عن ابن كثير تضعيفها ثم قال:

قلت: والظاهر أنه من الإسرائيليات التي نقلها أهل الكتاب الذين لا يعتقدون العصمة في الأنبياء ا.هـ. وانظر كتاب (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير) (٢٦٤-٢٧٠).

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢) بعد أن أشار إلى حديث أنس وبين ضعفه: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضًا ا.هـ.

ففتح الله عليه، فكتب إلى داود فأمر داود أن يرسل أيضًا إلى عدو كذا أشد منه، ففعل، فظفر، فأمر داود أن يرسل إلى عدو ثالث، ففعل، فقتل أوريا في المرة الثالثة، فلما قتل تزوج داود امرأته، وهي أم سليمان في قول قتادة.

وقيل: إن خطيئة داود كانت أنه لما بلغه حسن امرأة أوريا تمنى أن تكون له حلالاً، فاتفق أن أوريا سار إلى الجهاد فقتل فلم يجد له من الهم ما وجده لغيره، فبينما داود في المحراب يوم عبادته وقد أغلق الباب إذ دخل عليه ملكان أرسلهما الله إليه من غير الباب، فراعه ذلك فقالا: ﴿لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[1]، أي قهرني، وأخذ نعجتي، فقال للآخر: ما تقول؟

قال: صدق، إني أردت أن أكمل نعاجي مائة فأخذت نعجته. فقال داود: إذًا لا ندعك وذاك، فقال الملك: ما أنت بقادر عليه. قال داود: فإن لم ترد عليه ماله ضربنا منك هذا وهذا، وأومأ إلى أنفه وجبهته. قال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة فلم تزل به حتى قتل وتزوجت امرأته. ثم غابا عنه.

فعرف ما ابتلي به وما وقع فيه، فخر ساجدًا أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، وأدام البكاء حتى نبت من دموعه عشب غطى رأسه، ثم نادى: يا رب! قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه في خطيئته بشيء. فنودي: أجائع فتطعم؟ أم مريض فتشفى أم مظلوم فتنصر؟ قال: فنحب نحبة هاج ما كان نبت، فعند ذلك قبل الله توبته وأوحى إليه: ارفع رأسك فقد غفرت لك. قال: يا رب! كيف أعلم أنك قد غفرت لي؟ وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء إذا جاء أوريا يوم القيامة آخذًا رأسه بيمينه تشخب أوداجه دمًا قبل عرشك يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟.

فأوحى الله إليه: إذا كان ذلك دعوته وأستوهبك منه فيهبك لي فأهبه بذلك الجنة. قال: يا رب الآن علمت أنك قد غفرت لي قال: فما استطاع داود بعدها أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه حتى قبض.

(١) سورة ص (٢٢-٢٣).

ونقش خطيئته في يده، فكان إذا رآها اضطربت يده وكان يؤتى بالشراب في الإناء ليشربه فكان يشرب نصفه أو ثلثيه فيذكر خطيئته فينتحب حتى تكاد مفاصله يزول بعضها من بعض ثم يملأ الإناء من دموعه. وكان يقال: إن دمعة داود تعدل دموع الخلائق، وهو يجيء يوم القيامة وخطيئته مكتوبة بكفه فيقول: يا رب ذنبي ذنبي قدمني، فيقدم، فلا يأمن فيقول: يا رب أخرني، فلا يأمن.

وأزالت الخطيئة طاعة داود عن بني إسرائيل واستخفوا بأمره، ووثب عليه ابن له يقال له إيشا وأمه ابنة طالوت فدعا إلى نفسه، فكثر أتباعه من أهل الزيغ من بني إسرائيل، فلما تاب الله على داود اجتمع إليه طائفة من الناس فحارب ابنه حتى هزمه ووجه إليه بعض قواده وأمره بالرفق به والتلطف لعله يأسره ولا يقتله، وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله، فحزن عليه داود حزنًا شديدًا وتنكر لذلك القائد[١].

ذكر بناء بيت المقدس ووفاة داود عليه السلام[٢]

قيل: أصاب الناس في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس، وكان يرى الملائكة تعرج منه إلى السماء، فلهذا قصده ليدعو فيه، فلما وقف موضع الصخرة دعا الله تعالى في كشف الطاعون عنهم، فاستجاب له ورفع الطاعون، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدًا، وكان الشروع في بنائه لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، وأوصى إلى سليمان بإتمامه وقتل القائد الذي قتل أخاه إيشا بن داود.

فلما توفي داود ودفنه سليمان تقدم بإنفاذ أمره فقتل القائد واستتم بناء المسجد، بناه بالرخام وزخرفه بالذهب ورصعه بالجواهر، وقوي على ذلك جميعه بالجن والشياطين، فلما فرغ اتخذ ذلك اليوم عيدًا عظيمًا وقرب قربانًا، فتقبله الله منه، وكان ابتداؤه أولاً ببناء المدينة، فلما فرغ منها ابتدأ بعمارة المسجد، وقد أكثر الناس في صفة البناء مما يستبعد ولا حاجة إلى ذكره.

وقيل: إن سليمان هو الذي ابتدأ بعمارة المسجد، وكان داود أراد أن يبنيه فأوحى

(١) لا يخفى ما في هذا الكلام من نكارة.
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٢٨٥).

الله إليه: أن هذا بيت مقدس وإنك قد صبغت يدك في الدماء فلست ببانيه، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء. فلما ملك سليمان بناه[١].

ثم إن داود توفي وكان له جارية تغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح فيقوم إلى عبادته، فأغلقتها ليلة فرأت في الدار رجلاً فقالت: من أدخلك الدار؟ فقال: أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن. فسمع داود قوله فقال: أنت ملك الموت؟ قال: نعم. قال: فهلا أرسلت إلي لأستعد للموت. قال: قد أرسلت إليك كثيراً. قال: من كان رسولك؟ قال: أين أبوك وأخوك وجارك ومعارفك؟ قال: ماتوا. قال: فهم كانوا رسلي إليك لأنك تموت كما ماتوا! ثم قبضه[٢].

فلما مات ورث سليمان ملكه وعلمه ونبوته. وكان له تسعة عشر ولداً، فورثه سليمان دونهم.

وكان عمر داود لما توفي مائة سنة، صح ذلك عن النبي ﷺ[٣] وكانت مدة ملكه أربعين سنة.



(١) وفي هذا الكلام نكارة.

(٢) أخرجه أحمد (٩١٤٨) من حديث أبي هريرة بنحوه وقال الحافظ ابن كثير في البداية (١/ ٤٠٢) إسناده جيد قوي ورجاله ثقات ا.هـ، قلت: وفي سنده المطلب بن عبد الله بن حنطب مدلس وقد عنعنه.

(٣) تقدم في باب ذكر وفاة آدم عليه السلام.

ذكر ملك سليمان بن داود، عليه السلام(١)

لما توفي داود ملك بعده ابنه سليمان على بني إسرائيل، وكان ابن ثلاث عشرة سنة، وآتاه الله مع الملك النبوة، وسأل الله أن يؤتيه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب له وسخر الإنس والجن والشياطين والطير والريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس والجن حتى يجلس.

وقيل: إنما سخر له الريح والجن والشياطين والطير وغير ذلك بعد أن زال ملكه وأعاده الله سبحانه إليه على ما نذكره.

وكان أبيض جسيمًا كثير الشعر يلبس البياض، وكان أبوه يستشيره في حياته ويرجع إلى قوله، فمن ذلك ما قصه الله في كتابه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾(٢)، الآية. وكان خبره: أن غنمًا دخلت كرمًا(٣) فأكلت عناقيده وأفسدته، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان: أو غير ذلك: أن تسلم الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها إلى أن يعود كرمه إلى حاله ثم يأخذ كرمه ويدفع الغنم إلى صاحبها. فأمضى داود قوله. وقال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٤).

قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن كل مجتهد في الأحكام الفرعية مصيب، فإن داود أخطأ الحكم الصحيح عند الله تعالى وأصابه سليمان، فقال له الله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٥).

وكان سليمان يأكل من كسب يده، وكان كثير الغزو، وكان إذا أراد الغزو أمر

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٨٧) والبداية (١/ ٤٠٣).

(٢) سورة الأنبياء (٧٨).

(٣) الكرم: العنب.

(٤) سورة الأنبياء (٧٩).

(٥) سورة الأنبياء (٧٩).

قلت: والراجح من أقوال أهل العلم في هذه المسألة أن الحق واحد فمن أصابه فهو المصيب ومن أخطأه فهو المخطئ وأما الأجر فللمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد وهو أجر الاجتهاد كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

بعمل بساط من خشب يسع عسكره ويركبون عليه هم ودوابهم وما يحتاجون إليه، ثم أمر الريح فحملته فسارت في غدوته مسيرة شهر وفي روحته كذلك.

وكان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة سرية، وأعطاه الله أجراً أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا حملته الريح إليه فيعلم ما يقول.

ذكر ما جرى له مع بلقيس(١)

نذكر أولاً ما قيل في نسبها وملكها، ثم ما جرى له معها، فنقول: قد اختلف العلماء في اسم آبائها، فقيل: إنها هي بلقمة ابنة أنيشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقيل: هي بلقمة ابنة الهدهاد واسمه أنيشرح بن تبع ذي الأذعار بن تبع ذي المنار بن تبع الرائش، وقيل: في نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره.

وقد اختلف الناس في التبابعة وتقديم بعضهم على بعض والزيادة في عددهم والنقصان، اختلافًا لا يحصل الناظر فيه على طائل، وكذا أيضًا اختلفوا في نسبها اختلافًا كثيراً.

وقال كثير من الرواة: إن أمها جنية ابنة ملك الجن واسمها رواحة بنت السكر، وقيل: اسم أمها بلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، وإنما نكح أبوها إلى الجن لأنه قال: ليس في الإنس لي كفوة، فخطب إلى الجن فزوجوه.

واختلفوا في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم فقيل: إنه كان لهجًا بالصيد، فربما اصطاد الجن على صور الظباء فيخلي عنهن فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقًا، فخطب ابنته فأنكحه على أن يعطيه ساحل البحر ما بين يبرين إلى عدن، وقيل: إن أباها خرج يومًا متصيداً فرأى حيتين تقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماءً، فأفاقت، فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفرداً، فإذا معه شاب جميل، فذعر منه، فقال له: لا تخف أنا الحية التي أنجيتني، والأسود الذي قتلته غلام لنا تمرد علينا وقتل عدة من أهل بيتي، وعرض عليه المال وعلم الطب، فقال: أما المال فلا حاجة لي به، وأما الطب فهو قبيح بالملك، ولكن إن كان لك بنت

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/٢٨٩).

فزوجنيها، فزوجه على شرط أن لا يغير عليها شيئًا تعمله ومتى غير عليها فارقته، فأجابه إلى ذلك، فحملت منه فولدت له غلامًا فألقته في النار فجزع لذلك وسكت للشرط، ثم حملت منه فولدت جارية فألقتها إلى كلبة فأخذتها، فعظم ذلك عليه وصبر للشرط، ثم إنه عصى عليه بعض أصحابه فجمع عسكره فسار إليه ليقاتله وهي معه، فانتهى إلى مفازة، فلما توسطها رأى جميع ما معهم من الزاد يخلط بالتراب، وإذا الماء يصب من القرب والمزاود. فأيقنوا بالهلاك وعلموا أنه من فعال الجن عن أمر زوجته فضاق زرعًا عن حمل ذلك، فأتاها وجلس وأومأ إلى الأرض وقال: يا أرض صبرت لك على إحراق ابني وإطعام الكلبة ابنتي ثم أنت الآن قد فجعتنا بالزاد والماء وقد أشرفنا على الهلاك!

فقالت المرأة: لو صبرت لكان خيراً لك، وسأخبرك: إن عدوك خدع وزيرك فجعل السم في الأزواد والمياه ليقتلك وأصحابك، فمر وزيرك ليشرب من الماء ويأكل من الزاد، فأمره فامتنع، فقتله، ودلتهم على الماء والميرة من قريب وقالت: أما ابنك فدفعته إلى حاضنة تربيه وقد مات، وأما ابنتك فهي باقية، وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض، وهي بلقيس، وفارقته امرأته وسار إلى عدوه فظفر به. وقيل في سبب نكاحه إليهم غير ذلك.

والجميع حديث خرافة لا أصل له ولا حقيقة.

وأما ملكها اليمن فقيل: إن أباها فوض إليها الملك فملكت بعده، وقيل: بل مات عن غير وصية بالملك لأحد فأقام الناس ابن أخ له، وكان فاحشًا خبيثًا فاسقًا لا يبلغه عن بنت قيل[1] ولا ملك ذات جمال إلا أحضرها وفضحها، حتى انتهى إلى بلقيس بنت عمه، فأراد ذلك منها فوعدته أن يحضر عندها إلى قصرها وأعدت له رجلين من أقاربها وأمرتهما بقتله إذا دخل إليها وانفرد بها، فلما دخل إليها وثبا عليه فقتلاه. فلما قتل أحضرت وزراءه فقرعتهم فقالت: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته؟ ثم أرتهم إياه قتيلاً وقالت: اختاروا رجلاً تملكونه. فقالوا: لا نرضى بغيرك، فملكوها.

وقيل: إن أباها لم يكن ملكًا وإنما كان وزير الملك، وكان الملك خبيثًا، قبيح السيرة يأخذ بنات الأقيال والأعيان والأشراف، وأنها قتلته، فملكها الناس عليهم.

---

(١) الأقيال لحمير كالبطارقة للروم. فقه اللغة للثعالبي.

وكذلك أيضًا عظموا ملكها وكثـرة جندها فقيل: كان تحت يدها أربعمائة ملك، كل ملك منهم على كورة، مع كل ملك منهم أربعة آلاف مـقاتل وكان لها ثلاثمائة وزير يدبرون ملكها، وكان لهـا اثنا عشر قائدًا يقود كل قـائد منهم اثني عشر ألف مقاتل.

وبالغ آخرون مبالغة تدل على سـخف عقـولهم وجهلهم، قالوا: كان لها اثنا عشـر ألف قيل، تحت يد كل قيل مـائة ألف مقاتل، مع كل مـقاتل سبـعون ألف جيش، في كل جـيش سبـعون ألف مبـارز، ليس فيـهم إلا أبناء خمس وعـشرين سنـة.

وما أظن السـاعة راوي هذا الكذب الفـاحش عرف الحسـاب حتى يعلم مـقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جـميعـهم شبابهم وشـيوخهم وصـبيانهم ونسـاؤهم هذا العدد، فكيف أن يكونوا أبناء خمس وعـشرين سنة! فيا ليت شعـري كم يكون غيرهم ممن ليس من أسنانهم، وكم تكون الرعـية وأرباب الحرف والـفلاحة وغـير ذلك، وإنما الجند بعض أهل البـلاد، وإن كان الحاصل من اليـمن قد قل في زمـاننا فإن رقـعة أرضه لم تصغر، وهي لا تسع هذا العدد قيامًا كل واحد إلى جانب الآخر.

ثم إنهم قالوا: أنـفقت على كوة بيـتها التي تدخل الشـمس منها فـتسجـد لها ثلاثمائة ألف أوقية من الذهب، وقالوا غير ذلك، وذكروا من أمر عرشها ما يناسب كثرة جيشها، فلا نطول بذكره.

وقد تواطئـوا على الكذب والتلاعب بعقول الجـهال واستهـانوا بما يلحقهم من استجـهال العقلاء لهم، وإنما ذكـرنا هذا على قبحه ليقف بـعض من كان يصدق به عليه فينتهي إلى الحق.

وأما سبب مجيئها إلى سليـمان وإسلامها فإنه طلب الهدهد فلم يره، وإنما طلبه لأن الهدهد يرى الماء من تحت الأرض فيـعلم هل في تلك الأرض ماء أم لا؟ وهل هو قريب أم بعيد؟ فبينما سليمان في بعض مغازيه إذ احتاج إلى الماء فلم يعلم أحد ممن معه بعده، فطلب الهدهد ليسأله عن ذلك فلم يره.

وقيل: بل نزلـت الشمس إلى سليمـان، فنظر ليرى من أين نـزلت؟ لأن الطير كانت تظله، فرأى موضع الهـدهد فارغًا، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ

﴿لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾(١). وكان الهدهد قد مر على قصر بلقيس فرأى بستانًا لها خلف قصرها، فمال إلى الخضرة، فرأى فيه هدهدًا فقال له: أين أنت عن سليمان وما تصنع هاهنا؟ فقال له: ومن سليمان؟ فذكر له حاله وما سخر له من الطير وغيره، فعجب من ذلك. فقال له هدهد سليمان: وأعجب من ذلك أن كثرة هؤلاء القوم تملكهم امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(٢). وجعلوا الشكر لله أن سجدوا للشمس من دونه، وكان عرشها سريرًا من ذهب مكلل بالجواهر النفيسة من اليواقيت والزبرجد واللؤلؤ. ثم إن الهدهد عاد إلى سليمان فأخبره بعذره في تأخيره، فقال له: ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾، فوافاها وهي في قصرها فألقاه في حجرها، فأخذته وقرأته وأحضرت قومها وقالت: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾(٣). قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾(٤) فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا فنحن أعز منه وأقوى، وإن لم يقبلها فهو نبي من الله.

فلما جاءت الهدية إلى سليمان قال للرسل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٥)، فلما رجع الرسل إليها سارت إليه وأخذت معها الأقيال من قومها، وهم القواد، وقدمت عليه، فلما قاربته وصارت منه على نحو فرسخ قال لأصحابه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾(٦)، يعني قبل أن تقوم في الوقت الذي تقصد فيه بيتك للغداء. قال سليمان: أريد أسرع من ذلك. ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ - وهو آصف بن برخيا، وكان يعرف اسم الله الأعظم - ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(٧)، وقال له انظر إلى السماء وأدم النظر فلا ترد طرفك حتى

(١) سورة النمل (٢١).
(٢) سورة النمل (٢٣).
(٣) سورة النمل (٢٩-٣٣).
(٤) سورة النمل (٣٥).
(٥) سورة النمل (٣٦، ٣٧).
(٦) سورة النمل (٣٨، ٣٩).
(٧) سورة النمل (٤٠).

أحضره عندك. وسجد ودعا، فرأى سليمان العرش قد نبع من تحت سريره، فقال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾[١] إذ أتاني به قبل أن يرتد إلي طرفي ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾[٢] إذ جعل تحت يدي من هو أقدر مني على إحضاره. فلما جاءت قيل: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾[٣] ولقد تركته في حصون وعنده جنود تحفظه فكيف جاء إلى هاهنا؟

فقال سليمان للشياطين: ابنوا لي صرحًا تدخل علي فيه بلقيس. فقال بعضهم: إن سليمان قد سخر له ما سخر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلامًا فلا ننفك من العبودية أبدًا، وكانت امرأة شعراء الساقين، فقالت[٤] الشياطين: ابنوا له بنيانًا[٥] يرى ذلك منها فلا يتزوجها، فبنوا له صرحًا من قوارير خضر وجعلوا له طوابق من قوارير بيض، فبقي كأنه الماء، وجعلوا تحت الطوابق صور دواب البحر من السمك وغيره، وقعد سليمان على كرسي ثم أمر فأدخلت بلقيس عليه، فلما أرادت أن تدخله ورأت صور السمك ودواب الماء حسبته لجة ماء فكشفت عن ساقيها لتدخل، فلما رآها سليمان صرف نظره عنها[٦] و﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[٧] ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٨]. فاستشار سليمان في شيء يزيل الشعر ولا يضر الجسد، فعلم له الشياطين النورة[٩]، فهي أول ما عملت النورة. ونكحها سليمان وأحبها حبًا شديدًا وردها إلى ملكها باليمن، فكان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام.

---

(١)،(٢) سورة النمل (٤٠).

(٣) سورة النمل (٤٢).

(٤) في المطبوعة فقال والتصحيح من تاريخ الطبري (١/ ٢٩١).

(٥) في المطبوعة: لي، وفي المصدر السابق له.

(٦) رواه ابن عباس كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٧) وقال منكر غريب جداً ولعله من أوهام عطاء ابن السائب على ابن عباس والله أعلم والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب مما كان وما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة.
ثم قال والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم وملك عظيم وأسلمت لله عز وجل.

(٧)،(٨) سورة النمل (٤٤).

(٩) النورة: حجر يحرق ويسوّى ويستعمل لإزالة الشعر.

وقيل: إنه أمرها أن تنكح رجلاً من قومها فامتنعت وأنفت من ذلك فقال: لا يكون في الإسلام إلا ذلك. فقالت: إن كان لا بد من ذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان، فزوجه إياها ثم ردها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على الملك، وأمر الجن من أهل اليمن بطاعته، فاستعملهم ذو تبع، فعملوا له عدة حصون باليمن، منها سلحين ومراوخ وفليون وهنيدة وغيرها، فلما مات سليمان لم يطيعوا ذا تبع وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان.

وقيل بل بقيا. وقيل: إن بلقيس ماتت قبل سليمان بالشام وإنه دفنها بتدمر وأخفى قبرها.

ذكر غزوته أبا زوجته جرادة ونكاحها وعبادة الصنم في داره وأخذ خاتمه وعوده إليه[1]

قيل: سمع سليمان بملك في جزيرة من جزائر البحر وشدة ملكه وعظم شأنه، وأنه لم يكن للناس إليه سبيل، فخرج سليمان إلى تلك الجزيرة وحملته الريح حتى نزل بجنوده بها فقتل ملكها وغنم ما فيها وغنم بنتًا للملك لم ير الناس مثلها حسنًا وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها للإسلام، فأسلمت على قلة رغبة فيه، وأحبها حبًّا شديدًا، وكانت لا يذهب حزنها ولا تزال تبكي، فقال لها: ويحك ما هذا الحزن والدمع الذي لا يرقأ؟

قالت: إني أذكر أبي وملكه وما أصابه فيحزنني ذلك. قال: فقد أبدلك الله ملكًا خيرًا من ملكه وهداك إلى الإسلام. قالت: إنه كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى، فلو أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري أراها بكرة وعشية لرجوت أن يذهب ذلك حزني.

فأمر الشياطين فعملوا لها مثل صورته لا ينكر منها شيئًا، وألبستها ثيابًا مثل ثياب أبيها، وكانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في جواريها فتسجد له ويسجدن معها، وتروح عشية ويرحن، فتفعل مثل ذلك، ولا يعلم سليمان بشيء من أمرها أربعين صباحًا.

وبلغ الخبر آصف بن برخيا، وكان صدِّيقًا، وكان لا يرد من منازل سليمان أي

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٩٣).

وقت أراد من ليل أو نهار سواء كان سليمان حاضراً أو غائبًا. فأتاه فقال: يا نبي الله قد كبر سني ودق عظمي وقد حان مني ذهاب عمري وقد أحببت أن أقوم مقامًا أذكر فيه أنبياء الله وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما يجهلون. قال: افعل.

فجمع له سليمان الناس، فقام آصف خطيبًا فيهم فذكر من مضى من الأنبياء وأثنى عليهم حتى انتهى إلى سليمان فقال: ما كان أحلمك في صغرك، وأبعدك عن كل ما يكره في صغرك. ثم انصرف فملئ سليمان غضبًا، فأرسل إليه وقال له: يا آصف لما ذكرتني جعلت تثني علي في صغري وسكت عما سوى ذلك. فما الذي أحدثت في آخر أمري؟ قال: إن غير الله ليعبد في دارك أربعين يومًا في هوى امرأة. قال ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، لقد علمت أنك ما قلت إلا عن شيء بلغك.

ودخل داره وكسر الصنم وعاقب تلك المرأة وجواريها.

ثم أمر بثياب الطهارة فأتي بها، وهي ثياب تغزلها الأبكار اللائي لم يحضن ولم تمسها امرأة ذات دم، فلبسها وخرج إلى الصحراء وفرش الرماد ثم أقبل تائبًا إلى الله وتمعك في الرماد بثيابه تذللاً لله تعالى وتضرعًا، وبكى واستغفر يومه ذلك ثم عاد إلى داره. وكانت أم ولد له لا يثق إلا بها يسلم خاتمه إليها، وكان لا ينزعه إلا عند دخوله الخلاء، وإذا أراد أن يصيب امرأة فيسلمه إليها حتى يتطهر، وكان ملكه في خاتمه، فدخل في بعض تلك الأيام الخلاء وسلم خاتمه إليها، فأتاها شيطان اسمه صخر الجني في صورة سليمان[1] فأخذ الخاتم وخرج إلى كرسي سليمان، وهو في صورة سليمان، فجلس عليه، وعكفت عليه الإنس والجن والطير. وخرج سليمان وقد تغيرت حالته وهيئته، فقال: خاتمي! فقالت: ومن أنت؟ قال: أنا سليمان. قالت: كذبت لست بسليمان! قد جاء سليمان وأخذ خاتمه مني وهو جالس على سريره! فعرف سليمان خطيئته فخرج وجعل يقول لبني إسرائيل: أنا سليمان، فيحثون عليه التراب.

فلما رأى ذلك قصد البحر وجعل ينقل سمك الصيادين ويعطونه كل يوم سمكتين يبيع إحداهما بخبز ويأكل الأخرى، فبقي كذلك أربعون يومًا.

ثم إن آصف وعظماء بني إسرائيل أنكروا حكم الشيطان المشتبه بسليمان، فقال آصف: يا بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان ما رأيت؟ قالوا: نعم. قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه وأسألهن هل أنكرن ما أنكرنا منه.

---

(١) في المطبوعة «سلمان» وهو تصحيف.

فدخل عليهن وسألهن، فذكرت أشد مما عنده، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين.

ثم خرج إلى بني إسرائيل فأخبرهم، فلما رأى الشيطان أنهم قد علموا به طار من مجلسه فمر بالبحر فألقى الخاتم فيه، فبلعته سمكة واصطادها صياد وحمل له سليمان يومه ذلك فأعطاه سمكتين، تلك السمكة إحداهما. فأخذها فشقها ليصلحها ويأكلها فرأى خاتمه في جوفها، فأخذه وجعله في إصبعه وخر لله ساجداً، وعكفت عليه الإنس والجن والطير وأقبل عليه الناس ورجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وبث الشياطين في إحضار صخر الذي أخذ الخاتم، فأحضروه، فنقب له صخرة وجعله فيها وسد النقب بالحديد والرصاص وألقاه في البحر. وكان مقامه في الملك أربعين يومًا، بمقدار عبادة الصنم في دار سليمان[1].

وقيل: كان السبب في ذهاب ملكه أن امرأة له كانت أبر نسائه عنده تسمى «جرادة» ولا يأتمن على خاتمه سواها، فقالت له: إن أخي بينه وبين فلان حكومة وأنا أحب أن تقضي له. فقال: أفعل، ولم يفعل، فابتلي، وأعطاها خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته فأخذه، وخرج سليمان بعده فطلب الخاتم فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا، وخرج من مكانه تائهًا وبقي الشيطان أربعين يومًا

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٩٣) عن وهب بن منبه.

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦، ٣٧) وأنكر الحافظ ابن كثير هذه الروايات وقال إسناده إلى ابن عباس قوى ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما - إن صح عنه- من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهم الله عز وجل منه تشريفًا وتكريمًا لنبيه عليه السلام.

قال وقد رويت هذه القصة وطولها عن جماعة من السلف ﷺ كسعيد بن المسيب وزيد ابن أسلم وجماعة آخرون وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب والله سبحانه أعلم بالصواب.

وقد أنكر أيضًا هذه الروايات القاضي عياض في «الشفا» كما في الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للشيخ أبي شهبة.

ومما يقوى أن ذلك متلقي من أهل الكتاب ما رواه عبد الرزاق وغيره عن ابن عباس أنه قال أربع آيات من كتاب الله لم أدرِ ما هي حتى سألت عنهن كعب الأحبار... ثم ذكر منهن هذه الآية قوله تعالى: ﴿وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ ثم أشار إلى هذه القصة.

ولمزيد من البيان أنظر كتاب أبي شهبة ص٢٧٠ إلى ص٢٧٥ .

يحكم بين الناس، ففطنوا له وأحدقوا به ونشروا التوراة فقرأوها، فطار من بين أيديهم وألقى الخاتم في البحر، فابتلعه حوت، ثم إن سليمان قصد صياداً وهو جائع فاستطعمه وقال: أنا سليمان، فكذبه وضربه فشجه، فجعل يغسل الدم، فلام الصيادون صاحبهم وأعطوه سمكتين إحداهما التي ابتلعت الخاتم، فشق بطنها وأخذ الخاتم، فرد الله إليه ملكه، فاعتذروا إليه، فقال: لا أحمدكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم،

وسخر الله له الجن والشياطين والريح، ولم يكن سخرها له قبل ذلك، وهو أشبه بظاهر القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[1].

وقيل: في سبب زوال ملكه غير ذلك، والله أعلم.

ذكر وفاة سليمان

لما ردَّ الله إلى سليمان الملك لبث فيه مطاعًا والجن تعمل له ﴿مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾[2] وغير ذلك ويعذب من الشياطين من شاء ويطلب من شاء، حتى إذا دنا أجله وكان عادته إذا صلى كل يوم رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت، فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: الخرنوبة[3]. فقال لها: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت ـ يعني بيت المقدس ـ فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب البيت! وقلعها.

ثم قال: اللهم اعم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب[4].

وكان سليمان يتجرد للعبادة في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين

---

(١) سورة ص (٣٥-٣٨).

(٢) سورة سبأ (١٣).

(٣) في المصدر الآتي الخروب.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٢٩٥، ٢٩٦) من حديث ابن عباس وفي سنده ضعف.

وأقل وأكثر، يدخل معه طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفي فيها، فبينما هو قائم يصلي متـوكئًا على عصاه أدركه أجله فمـات ولا تعلم به الشياطين ولا الجن، وهم في ذلك يعملون خوفًا مـنه، فأكلت الأرضة عصاه فانكسرت فـسقط، فعلموا أنه مات، وعلم الناس أن الجن لا يـعلمون الغيب ولو علمـوا الغيب ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[1] ومقاساة الأعمال الشاقة.

ولما سقط أراد بنو إسرائيل أن يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا يومًا وليلة فأكلت منها، فحسبوا بنسبته فكان أكل تلك العصا في سنة.

ثم إن الشيـاطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعـام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشـربين الشراب لأتيناك بأطيب الشـراب، ولكنا سننقل لك الماء والطين، فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. ألـم تر إلى الطين يكون في وسط الخشبة؟ فهو ما ينقلونه لها.

قيل: إن الجن والشياطين شكوا مـا يلحقهم من التعب والنصب إلى بعض أولي التجربة مـنهم، وقيل: كان إبليس، فقـال لهم: ألستم تنصرفون بأحـمال وتعودون بغيـر أحمال؟ قالوا: بلـى. قال: فلكم في كل ذلك راحة، فـحملت الريح الكلام فألقـته في أذن سليمان، فـأمر الموكلين بهم أنهم إذا جاءوا بالأحـمال والآلات التي يبنى بهـا إلى موضع البنـاء والعمل يحـملهم من هناك في عـودهم ما يلقـونه من المواضع التي فيـها الأعمال ليكون أشق عليـهم وأسرع في العمل، فاجـتازوا بذلك الذي شكوا إليه حـالهم فأعلمـوه حالهم فقـال لهم: انتظروا الفرج فـإن الأمور إذا تناهت تغيرت، فلم تطل مـدة سليمان بعد ذلك حتى مات، وكـان مدة عمره ثلاثًا وخمسين سنة، وملكه أربعين سنة.

* * *

(١) سورة سبأ (١٤).

ذكر من ملك من الفرس بعد كيقباذ(١)

لما توفي كيقباذ ملك بعده ابنه كيكاووس بن كينية بن كيقباذ، فلما ملك حمى بلاده وقتل جماعة من عظماء البلاد المجاورة له، وكان يسكن بنواحي بلخ، وولد له ولد سماه سياوخش وضمه إلى رستم الشديد بن داستان بن نريمان بن جوذنك ابن كرشاسب، وكان أصبهبذ سجستان وما يليها، وجعله عنده ليربيه، فأحسن تربيته وعلمه العلوم والفروسية والآداب وما يحتاج الملوك إليه، فلما كمل ما أراد حمله إلى أبيه، فلما رآه سر به صورة ومعنى. وكان أبوه كيكاووس قد تزوج ابنة أفراسياب ملك الترك، وقيل: إنها ابنة ملك اليمن، فهويت سياوخش ودعته إلى نفسها، فامتنع، فسعت به إلى أبيه حتى أفسدته عليه، فسأل سياوخش رستم الشديد أن يخاطب أباه لينفذ إلى محاربة أفراسياب بسبب منعه بعض ما كان قد استقر بينهما، وأراد البعد عن أبيه ليأمن كيد امرأته، ففعل ذلك رستم، فسيره أبوه وضم إليه جيشًا كثيفًا فسار إلى بلاد الترك للقاء أفراسياب، فلما سار إلى تلك الناحية جرى بينهما صلح، فكتب سياوخش إلى أبيه يعرفه ما جرى بينه وبين أفراسياب من الصلح، فكتب إليه والده يأمره بمناهضة أفراسياب ومحاربته وفسخ الصلح، فاستقبح سياوخش الغدر وأنف منه، فلم ينفذ ما أمره به، ورأى أن ذلك من فعل زوجة والده ليقبح فعله، فراسل أفراسياب في الأمان لنفسه لينتقل إليه، فأجابه أفراسياب إلى ذلك، وكان السفير في ذلك قيران بن وكسعان، ودخل سياوخش إلى بلاد الترك، فأكرمه أفراسياب وأنزله وأجرى عليه وزوجه بنتًا له يقال لها وسفافريد، وهي أم كيخسرو، فظهر له من أدب سياوخش ومعرفته بالملك وشجاعته ما خاف على ملكه منه، وزاد الفساد بينهما بسعي ابني أفراسياب وأخيه كندو حسدًا منهم لسياوخش، فأمرهم أفراسياب بقتله فقتلوه ومثلوا به، وكانت زوجته ابنة أفراسياب حاملة منه بابنه كيخسرو فطلبوا الحيلة في إسقاط ما في بطنها، فلم يسقط، فأنكر قيران الذي كان أمان سياوخش على يده قتله وحذر عاقبته والأخذ بثأره من والده كيكاووس ومن رستم، وأخذ زوجة سياوخش إليه لتضع ما في بطنها ويقتله، فلما وضعت رق قيران لها وللمولود ولم يقتله

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٩٧).

وستر أمره حتى بلغ، فسير كيكاووس إلى بلاد الترك من كشف أمره وأخذه إليه.

وحين بلغ خبر قتله إلى فارس لبس شادوس بن جودرز السواد حزنًا، وهو أول من لبسه، ودخل على كيكاووس فقال له: ما هذا؟ فقال: إن هذا اليوم يوم ظلام وسواد.

ثم إن كيكاووس لما علم بقتل ابنه سير الجيوش مع رستم الشديد وطوس أصبهبذ أصبهان لمحاربة أفراسياب، فدخلا بلاد الترك فقتلا وأسرا، وأثخنا فيها وجرى لهما مع أفراسياب حروب شديدة قتل فيها ابنا أفراسياب وأخوه الذين أشاروا بقتل سياوخش.

وزعمت الفرس أن الشياطين كانت مسخرة له وأنها بنت له مدينة طولها في زعمهم ثلاثمائة فرسخ وبنوا عليها سوراً من صفر وسوراً من شبه[1] وسوراً من فضة، وكانت الشياطين تنقلها بين السماء والأرض وما بينهما، وأن كيكاووس لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث فيها. ثم إن الله أرسل إلى المدينة من يخربها فعجزت الشياطين عن المنع عنها، فقتل كيكاووس جماعة من رؤسائهم، وقال بعض العلماء بأخبار المتقدمين: إنما سخر له فعل الشياطين بأمر سليمان بن داود، وكان مظفراً لا يناوئه أحد من الملوك إلا ظهر عليه، فلم يزل كذلك حتى حدثته نفسه بالصعود إلى السماء، فسار من خراسان إلى بابل، وأعطاه الله تعالى قوة ارتفع بها ومن معه حتى بلغوا السحاب، ثم سلبهم الله تلك القوة، فسقطوا وهلكوا وأفلت بنفسه وأحدث يومئذ.

وهذا جميعه من أكاذيب الفرس الباردة.

ثم إن كيكاووس بعد هذه الحادثة تمزق ملكه وكثرت الخوارج عليه وصاروا يغزونه، فيظفر مرة ويظفرون أخرى.

ثم غزا بلاد اليمن وملكها يومئذ ذو الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرائش، فلما ورد اليمن خرج إليه ذو الأذعار، وكان قد أصابه الفالج[2]، فلم يكن يغزو، فلما وطئ كيكاووس بلاده خرج إليه بنفسه وعساكره وظفر بكيكاووس فأسره واستباح عسكره وحبسه في بئر وأطبق عليه. فسار رستم من سجستان إلى اليمن وأخرج

(١) الشبه: ضرب من النحاس.

(٢) الفالج: داء معروف يرخي بعض البدن.

كيكاووس وأخذه، وأراد ذو الأذعار منعه فجمع العساكر وأراد القتال ثم خاف البوار فاصطلحا على أخذ كيكاووس والعود إلى بلاد الفرس، فأخذه وأعاده إلى ملكه، فأقطعه كيكاووس سجستان وزابلستان، وهي من أعمال غزنة، وأزال عنه اسم العبودية، ثم توفي كيكاووس، وكان ملكه مائة وخمسين سنة.

ذكر ملك كيخسرو بن سياوخش بن كيكاووس[(١)]

لما مات كيكاووس ملك بعده ابن ابنه كيخسرو بن سياوخش بن كيكاووس وأمه وسفافريد ابنة أفراسياب ملك الترك، فلما ملك كتب إلى الأصبهبذين جميعهم أن يأتوا بعساكرهم جميعًا، فلما اجتمعوا جهزوا ثلاثين ألفًا مع طوس وأمره بدخول بلاد الترك، وأن لا يمر بقرية ولا مدينة لهم إلا قتل كل من فيها إلا مدينة من مدنهم كان بها أخ له اسمه فرود بن سياوخش، كان أبوه قد تزوج أمه في بعض مدائن الترك، فاجتاز طوس بها فجرى بينه وبين فرود حرب قتل فيها فرود، فبلغ خبره كيخسرو فعظم عليه وكتب إلى عم له كان مع طوس يأمره بالقبض على طوس وإرساله مقيدًا والقيام بأمر الجيش. ففعل ذلك وسار بالعسكر نحو أفراسياب، فسير أفراسياب العساكر إليه فاقتتلوا قتالاً شديدًا كثرت فيه القتلى وانحازت الفرس إلى رؤوس الجبال وعادوا إلى كيخسرو، فوبخ عمه ولامه واهتم بغزو الترك، فأمر بجمع العساكر جميعها وأن لا يختلف أحد، فلما اجتمعوا أعلمهم أنه يريد قصد بلاد الترك من أربعة وجوه، فسير جودرز في أعظم العساكر وأمره بالدخول إلى بلاد الترك مما يلي بلخ وأعطاه درفش كابيان، وهو العلم الأكبر الذي لهم، وكانوا لا يرسلونه إلا مع بعض أبناء الملوك لأمر عظيم، وسير عسكرًا آخر من ناحية الصين، وسير عسكرًا آخر مما يلي الخزر، وعسكرًا آخر بين هذين العسكرين، فدخلت العساكر بلاد الترك من كل جهاتها وأخربتها، لا سيما جودرز، فإنه قتل وأخرب وسبى، وتبعه كيخسرو بنفسه في طريقه، فوصل إليه وقد قتل جماعة كثيرة من أهل أفراسياب وأثخن فيهم، ورآهم قد قتل خمسمائة ألف ونيفًا وستين ألفًا وأسر ثلاثين ألفًا وغنم ما لا يحد ولا يحصى، وعرض عليه من قتل من أهل أفراسياب وطراخنته، فعظم جودرز عنده وشكره وأقطعه أصبهان وجرجان، ووردت عليه الكتب الواردة من عساكره الداخلة من تلك الوجوه إلى الترك بما قتلوا

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٩٩).

وغنموا وأخربوا وأنهم هزموا لأفراسياب عسكرًا بعد عسكر، فكتب إليهم أن يجدوا في محاربتهم ويوافوه بموضع سماه لهم فلما بلغ أفراسياب قتل من قتل من طراخنته وأهله وعساكره عظم ذلك عليه فسقط في يديه ولم يكن بقي عنده من أولاده غير ولده شيده فوجهه في جيش نحو كيخسرو، فسار إليه فاقتتلوا قتالاً شديدًا أربعة أيام ثم انهزمت الترك وتبعهم الفرس يقتلونهم ويأسرون، وأدركوا ابن أفراسياب فقتلوه، وسمع أفراسياب بالحادثة وقتل ابنه فأقبل فيمن عنده من العساكر فلقي كيخسرو فاقتتلوا قتالاً شديدًا لم يسمع بمثله، واشتد الأمر فانهزم أفراسياب وكثر القتل في الترك فقتل منهم مائة ألف، وجد كيخسرو في طلب أفراسياب، ولم يزل يهرب من بلد إلى بلد حتى بلغ أذربيجان فاستتر، وظفر به وأتي به إلى كيخسرو، فلما حضر عنده سأله عن غدره بأبيه، فلم يكن له حجة ولا عذر، فأمر بقتله، فذبح كما ذبح سياوخش، ثم انصرف من أذربيجان مظفرًا منصورًا فرحًا.

فلما قتل أفراسياب ملك الترك بعده أخوه كي سواسف، فلما توفي ملك بعده ابنه جرزاسف، وكان جبارًا عاتيًا فلما فرغ كيخسرو من الأخذ بثأر أبيه واستقر في ملكه زهد في الدنيا وترك الملك وتنسك، واجتهد أهله وأصحابه به ليلازم الملك فلم يفعل، فقالوا له: فاعهد إلى من يقوم بالملك بعدك فعهد إلى لهراسب، وفارقهم كيخسرو وغاب عنهم، فلا يدرى ما كان منه ولا أين مات. وبعض يقول غير ذلك. وكان ملكه ستين سنة، وملك بعده لهراسب.

ذكر أمر بني إسرائيل بعد سليمان(١)

قيل: ثم ملك بعد سليمان على بني إسرائيل ابنه رحبعم بن سليمان وكان ملكه سبع عشرة سنة، ثم افترقت ممالك بني إسرائيل بعد رحبعم، فملك أفيا ابن رحبعم سبط يهوذا وبنيامين دون سائر الأسباط وذلك أن سائر الأسباط ملكوا عليهم يوربعم ابن بايعا عبد سليمان بسبب القربان الذي كانت جرادة زوجة سليمان فيما زعموا قربته في داره للصنم، فتوعده الله تعالى أن ينزع بعض الملك عن ولده، فكان ملك أفيا بن رحبعم ثلاث سنين، ثم ملك أسا بن أفيا أمر السبطين اللذين كان أبوه يملكهما إحدى وأربعين سنة وكان رجلاً صالحًا، وكان أعرج.

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٠٤).

ذكر محاربة أسا بن أفيا ورزح الهندي[1]

قيل: كان أسا بن أفيا رجلاً صالحًا، وكان أبوه قد عبد الأصنام ودعا الناس إلى عبادتها، فلما ملك ابنه أسا أمر مناديًا فنادى: ألا إن الكفر قد مات وأهله وعاش الإيمان وأهله، فليس كافر في بني إسرائيل يطلع رأسه بكفر إلا قتلته، فإن الطوفان لم يغرق الدنيا وأهلها ولم يخسف بالقرى ولم تمطر الحجارة والنار من السماء إلى الأرض إلا بترك طاعة الله والعمل بمعصيته! وشدد في ذلك، فأتى بعضهم ممن كان يعبد الأصنام ويعمل بالمعاصي إلى أم أسا الملك، وكانت تعبد الأصنام، فشكوا إليها، فجاءت إليه ونهته عما كان يفعله وبالغت في زجره، فلم يصغ إلى قولها بل تهددها على عبادة الأصنام وأظهر البراءة منها، فحينئذ أيس الناس منه وانتزح من كان يخافه وساروا إلى الهند.

وكان بالهند ملك يقال له «رزح»، وكان جبارًا عاتيًا عظيم السلطان قد أطاعه أكثر البلاد، وكان يدعو الناس إلى عبادته، فوصل إليه أولئك النفر من بني إسرائيل وشكوا إليه ملكهم ووصفوا له البلاد وكثرتها وقلة عسكرها وضعف ملكها وأطمعوه فيها. فأرسل الجواسيس فأتوه بأخبارها، فلما تيقن الخبر جمع العساكر وسار إلى الشام في البحر، وقال له بنو إسرائيل: إن لأسا صديقًا ينصره ويعينه، قال: فأين أسا وصديقه من كثرة عساكري وجنودي؟ وبلغ خبره إلى أسا، فتضرع إلى الله - تعالى - وأظهر الضعف والعجز عن الهندي وسأل الله النصرة عليه، فاستجاب الله له وأراه في المنام: إني سأظهر من قدرتي في رزح الهندي وعساكره ما أكفيك شرهم وأغنمكم أموالهم حتى يعلم أعداؤك أن صديقك لا يطاق وليه ولا ينهزم جنده.

ثم سار رزح حتى أرسى بالساحل، وسار إلى بيت المقدس، فلما صار على مرحلتين منه فرق عساكره، فامتلأت منهم تلك الأرض وملئت قلوب بني إسرائيل رعبًا، وبعث أسا العيون فعادوا وأخبروه من كثرتهم بما لم يسمع بمثله، وسمع الخبر بنو إسرائيل فصاحوا وبكوا وودع بعضهم بعضًا وعزموا على أن يخرجوا إلى رزح ويستسلموا إليه وينقادوا له. فقال لهم ملكهم: إن ربي قد وعدني بالظفر ولا خلف لوعده، فعاودوا الدعاء والتضرع.

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٠٥).

ففعلوا ودعوا جميعهم وتضرعوا، فزعموا أن الله أوحى إليه: يا أسا إن الحبيب لا يسلم حبيبه، وأنا الذي أكفيك عدوك فإنه لا يهون من توكل علي، ولا يضعف من تقوى بي وقد كنت تذكرني في الرخاء فلا أسلمك في الشدة، وسأرسل بعض الزبانية يقتلون أعدائي. فاستبشر وأخبر بني إسرائيل فأما المؤمنون فاستبشروا وأما المنافقون فكذبوه.

وأمره الله بالخروج إلى رزح في عساكره، فخرج في نفر يسير، فوقفوا على رابية[1] من الأرض ينظرون إلى عساكره، فلما رآهم رزح احتقرهم واستصغرهم وقال: إنما خرجت من بلادي وجمعت عساكري وأنفقت أموالي لهذه الطائفة! ودعا النفر من بني إسرائيل الذين قصدوه والجواسيس الذين أرسلهم ليختبروا له وقال: كذبتموني وأخبرتموني بكثرة بني إسرائيل حتى جمعت العساكر وفرقت أموالي! ثم أمر بهم فقتلوا، وأرسل إلى أسا يقول له: أين صديقك الذي ينصرك ويخلصك من سطوتي؟ فأجابه أسا: يا شقي إنك لا تعلم ما تقول! أتريد أن تغالب الله بقوتك أم تكاثره بقلبك؟ وهو معي في موقفي هذا، ولن يغلب أحد كان الله معه، وستعلم ما يحل بك! فغضب رزح من قوله وصف عساكره وخرج إلى قتال أسا وأمر الرماة فرموهم بالسهام، وبعث الله من الملائكة مدداً لبني إسرائيل، فأخذوا السهام ورموا بها الهنود، فقتلت كل إنسان منهم نشابته، فقتل جميع الرماة، فضج بنو إسرائيل بالتسبيح والدعاء، وتراءت الملائكة للهنود، فلما رآهم رزح ألقى الله الرعب في قلبه وسقط في يده ونادى في عساكره يأمرهم بالحملة عليهم، ففعلوا فقتلتهم الملائكة ولم يبق منهم غير رزح وعبيده ونسائه، فلما رأى ذلك ولى هاربًا وهو يقول: قتلني صديق أسا، فلما رآه أسا مدبراً قال: اللهم إنك لم تهلكه استنفر علينا نائبه. وبلغ رزح ومن معه إلى البحر فركبوا السفن، فلما سارت بهم أرسل الله عليهم الرياح فأغرقتهم أجمعين.

* ثم ملك بعد أسا ابنه سافاط إلى أن ملك خمسًا وعشرين سنة.

* ثم ملكت عزليا بنت عمرم أخت أخزيا، وكانت قتلت أولاد ملوك بني إسرائيل ولم يبق منهم إلا يواش بن أخزيا، وهو ابن ابنها، فإنه ستر عنها، ثم قتلها يواش واصحابه، وكان ملكها سبع سنين.

---

(١) الرابية: ما ارتفع من الأرض.

* ثم ملك يواش أربعين سنة. ثم قتله أصحابه وهو الذي قتل جدته.

* ثم ملك عوزيا بن أمصيا بن يواش. ويقال له: غوزيا، إلى أن توفي اثنتين وخمسين سنة.

* ثم ملك يوثام بن عوزيا إلى أن توفي ست عشرة سنة.

* ثم ملك حزقيا بن أحاز إلى أن توفي. فيقال: إنه صاحب شعيا الذي أعلمه شعيا انقضاء عمره، فتضرع إلى ربه فزاده، وأمر شعيا بإعلامه ذلك، وقيل إن صاحب شعيا في هذه القصة اسمه صدقيا، على ما يرد ذكره.

ذكر شعيا والملك الذي معه من بني إسرائيل ومسير سنحاريب إلى بني إسرائيل[١]

قيل: كان الله تعالى قد أوحى إلى موسى ما ذكر في القرآن: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[٢].

فكثر في بني إسرائيل الأحداث والذنوب، وكان الله يتجاوز عنهم متعطفًا عليهم، وكان من أول ما أنزل الله عليه عقوبة لذنوبهم أن ملكًا منهم يقال له صديقا[٣]، وكانت عادتهم إذا ملك عليهم رجل بعث الله إليه نبيًّا يرشده ويوحي إليه ما يريد، ولم يكن لهم غير شريعة التوراة، فلما ملك صدقيا بعث الله تعالى إليه شعيا، وهو الذي بشر بعيسى وبمحمد، عليهما السلام، فلما قارب أن ينقضي ملكه عظمت الأحداث في بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم سنحاريب ملك بابل في عساكر يغص بها الفضاء، فسار حتى نزل بيت المقدس وأحاط به وملك بني إسرائيل مريض في ساقه قرحة، فأتاه النبي شعيا وقال له: إن الله يأمرك أن توصي

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣١٣).
(٢) سورة الإسراء (٤-٨).
(٣) في تاريخ الطبري (١/ ٣١٣) صديقة.

وتعهد فإنك ميت، فأقبل الملك على الدعاء والتضرع، فاستجاب الله له، فأوحى الله إلى شعيا أنه قد زاد في عمر الملك صدقيا خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلما قال له ذلك زال عنه الألم وجاءته الصحة.

ثم إن الله أرسل على عساكر سنحاريب ملكًا صاح بهم فماتوا غير ستة نفر، منهم: سنحاريب وخمسة من كتابه، أحدهم بختنصر في قول بعضهم. فخرج صدقيا وبنو إسرائيل إلى معسكرهم فغنموا ما فيه والتمسوا سنحاريب فلم يجدوه، فأرسل الطلب في أثره فوجدوه ومعه أصحابه، فأخذوهم وقيدوهم وحملوهم إليه، فقال لسنحاريب: كيف رأيت صنع ربنا بك؟

فقال: قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم فلم أسمع ذلك، فطاف بهم حول بيت المقدس ثم سجنهم. فأوحى الله إلى شعيا يأمر الملك بإطلاق سنحاريب ومن معه، فأطلقهم، فعادوا إلى بابل وأخبروا قومهم بما فعل الله بهم وبعساكرهم، وبقي بعد ذلك سبع سنين ثم مات.

وقد زعم بعض أهل الكتاب أن بني إسرائيل سار إليهم قبل سنحاريب ملك من ملوك بابل يقال له: كفرو، وكان بختنصر ابن عمه وكاتبه، وأن الله أرسل عليهم ريحًا فأهلكت جيشه وأفلت هو وكاتبه، وأن هذا البابلي قتله ابن له، وأن بختنصر غضب لصاحبه فقتل ابنه الذي قتله، وأن سنحاريب سار بعد ذلك وكان ملكه بنينوى[1] وغزا مع ملك أذربيجان يومئذ بني إسرائيل، فأوقع بهم، ثم اختلف سنحاريب وملك أذربيجان وتحاربا حتى تفانى عسكراهما، فخرج بنو إسرائيل وغنموا ما معهم.

وقيل: كان ملك سنحاريب إلى أن توفي تسعًا وعشرين سنة، وكان ملك بني إسرائيل الذي حصره سنحاريب حزقيا، فلما توفي حزقيا ملك بعده ابنه منشا خمسًا وخمسين سنة.

* ثم ملك بعده أمون إلى أن قتله أصحابه اثنتي عشرة سنة.

* ثم ملك ابنه يوشيا إلى أن قتله فرعون مصر الأجدع إحدى وثلاثين سنة.

* ثم ملك بعده ابنه ياهو أحاز بن يوشيا، فعزله فرعون الأجدع واستعمل بعده يوياقيم بن ياهو أحاز ووظف عليه خراجًا يحمله إليه، وكان ملكه اثنتي عشرة سنة.

---

(١) نينوي قرية بالموصل، وهي قرية يونس بن متى عليه السلام. معجم البلدان (٥/ ٣٣٩).

* ثم ملك بعده ابنه يوياحين، فغزاه بختنصر وأشخصه إلى بابل بعد ثلاثة أشهر من ملكه.

وملك بعده يقونيا ابن عمه، وسماه صدقيا، وخالفه فغزاه وظفر به وحمله إلى بابل وذبح ولده بين يديه وسمل عينيه[1] وخرب بيت المقدس والهيكل وسبى بني إسرائيل وحملهم إلى بابل، فمكثوا إلى أن عادوا إليه، على ما نذكره إن شاء الله، وكان جميع ملك صدقيا إحدى عشرة سنة.

وقيل: إن شعيا أوحى الله إليه ليقوم في بني إسرائيل يذكرهم بما يوحي الله على لسانه لما كثرت فيهم الأحداث، ففعل، فعدوا عليه ليقتلوه، فهرب منهم، فلقيته شجرة فانفلقت له، فدخلها، وأخذ الشيطان بهدب ثوبه وأراه بني إسرائيل، فوضعوا المنشار على الشجرة فنشروها حتى قطعوه في وسطها.

وقيل في أسماء ملوكهم غير ذلك، تركناه كراهة التطويل ولعدم الثقة بصحة النقل به.



(١) سمل عينيه: أي فقأهما.

ذكر ملك لهراسب وابنه بشتاسب وظهور زرادشت(١)

قد ذكرنا أن كيخسرو لما حضرته الوفاة عهد إلى ابن عمه لهراسب بن كيوخى ابن كيكاووس، فهو ابن ابن كيكاووس، فلما ملك اتخذ سريراً من ذهب وكلله بأنواع الجواهر وبنيت له بأرض خراسان مدينة بلخ وسماها الحسناء، ودون الدواوين، وقوى ملكه بانتخابه الجنود، وعمر الأرض، وجبى الخراج لأرزاق الجند، واشتدت شوكة الترك في زمانه فنزل مدينة بلخ لقتالهم، وكان محموداً عند أهل مملكته شديد القمع لأعدائه المجاورين له، شديد التفقد لأصحابه، بعيد الهمة، عظيم البنيان، وشق عدة أنهار، وعمر البلاد وحمل إليه ملوك الهند والروم والمغرب الخراج، وكاتبوه بالتمليك هيبة له وحذراً منه ثم إنه تنسك وفارق الملك واشتغل بالعبادة واستخلف ابنه بشتاسب في الملك، وكان ملكه مائة وعشرين سنة.

وملك بعده ابنه بشتاسب، وفي أيامه ظهر زرادشت بن سقيمان الذي ادعى النبوة وتبعه المجوس، وكان زرادشت فيما يزعم أهل الكتاب من أهل فلسطين يخدم لبعض تلامذة إرميا النبي خاصاً به، فخانه وكذب عليه، فدعا الله عليه فبرص ولحق ببلاد أذربيجان وشرع بها دين المجوس.

وقيل: إنه من العجم. وصنف كتاباً وطاف به الأرض، فما عرف أحد معناه، وزعم أنها لغة سماوية خوطب بها، وسماه: اشتا، فسار من أذربيجان إلى فارس، فلم يعرفوا ما فيه ولم يقبلوه، فسار إلى الهند وعرضه على ملوكها، ثم أتى الصين والترك فلم يقبله أحد وأخرجوه من بلادهم، وقصد فرغانة(٢)، فأراد ملكها أن يقتله فهرب منها وقصد بشتاسب بن لهراسب، فأمر بحبسه، فحبس مدة.

وشرح زرادشت كتابه وسماه: زند، ومعناه: التفسير، ثم شرح الزند بكتاب سماه: بازند، يعني: تفسير التفسير. وفيه علوم مختلفة كالرياضيات وأحكام النجوم والطب وغير ذلك من أخبار القرون الماضية وكتب الأنبياء. وفي كتابه: تمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر، يعني محمداً ﷺ

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣١٦).

(٢) فرغانة مدينة واسعة متاخمة لبلاد تركستان. معجم البلدان (٤/ ٣٥٣).

وذلك على ألف سنة وستمائة سنة. وبسبب ذلك وقعت البغضاء بين المجوس والعرب. ثم يذكر عند أخبار سابور ذي الأكتاف أن من جملة الأسباب الموجبة لغزوة العرب هذا القول، والله أعلم.

ثم إن بشتاسب أحضر زرادشت، وهو ببلخ، فلما قدم عليه شرع له دينه، فأعجبه واتبعه وقهر الناس على اتباعه وقتل منهم خلقًا كثيرًا حتى قبلوه ودانوا به.

وأما المجوس فيزعمون أن أصله من أذربيجان، وأنه نزل على الملك من سقف إيوانه وبيده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه، وكل من أخذها من يده لم تحرقه، وأنه اتبعه الملك ودان بدينه وبنى بيوت النيران في البلاد وأشعل من تلك النار في بيوت النيران، فيزعمون أن النيران التي في بيوت عباداتهم من تلك إلى الآن.

وكذبوا فإن النار التي للمجوس طفئت في جميع البيوت لما بعث الله محمدًا ﷺ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وكان ظهور زرادشت بعد مضي ثلاثين سنة من ملك بشتاسب، وأتاه بكتاب زعم أنه وحي من الله تعالى، وكتب في جلده اثني عشر ألف بقرة حفرًا ونقشًا بالذهب، فجعله بشتاسب في موضع بإصطخر ومنع من تعلمه العامة، وكان بشتاسب وآباؤه قبله يدينون بدين الصابئة. وسيرد باقي أخباره.

ذكر مسير بختنصر إلى بني إسرائيل[1]

قد اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه بختنصر على بني إسرائيل، فقيل: كان في عهد إرميا النبي ودانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل.

وقيل: إنما أرسله الله على بني إسرائيل لما قتلوا يحيى بن زكريا. والأول أكثر.

وكان ابتداء أمر بختنصر ما ذكره سعيد بن جبير قال: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ الكتب، فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[2]. قال: أي رب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يده، فأري في المنام مسكينًا يقال له بختنصر ببابل فسار على سبيل التجارة إلى بابل وجعل يدعو المساكين ويسأل عنهم حتى دلوه على بختنصر، فأرسل من يحضره، فرآه صعلوكًا

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣١٧).

(٢) سورة الإسراء (٥).

مريضًا فقام عليه في مرضه يعالجه حتى برأ، فلما برأ أعطاه نفقة وعزم على السفر، فقال له بختنصر وهو يبكي: فعلت معي ما فعلت ولا أقدر على مجازاتك! قال الإسرائيلي: بلى تقدر عليه، تكتب لي كتابًا إن ملكت أطلقتني. فقال: أتستهزيء بي؟ فقال: إنما هذا أمر لا محالة كائن.

ثم إن ملك الفرس أحب أن يطلع على أحوال الشام، فأرسل إنسانًا يثق به ليتعرف له أخباره وحال من فيه، فسار إليه ومعه بختنصر فقير لم يخرج إلا للخدمة. فلما قدم الشام رأى أكبر بلاد الله خيلاً ورجالاً وسلاحًا، ففت ذلك في ذرعه، فلم يسأل عن شيء، وجعل بختنصر يجلس مجالس أهل الشام فيقول لهم: ما يمنعكم أن تغزوا بابل، فلو غزوتموها ما دون بيت ما لها شيء! فكلهم يقول له: لا نحسن القتال ولا نراه فلما عادوا أخبر الطليعة بما رأوا من الرجال والسلاح والخيل، وأرسل بختنصر إلى الملك يطلب إليه أن يحضره ليعرفه جلية الحال، فأحضره، فأخبره بما كان جميعه.

ثم إن الملك أراد أن يبعث عسكرًا إلى الشام أربعة آلاف راكب جريدة، واستشار فيمن يكون عليهم، فأشاروا ببعض أصحابه، فقال: لا بل بختنصر، فجعله عليهم. فساروا فغنموا وأوقعوا ببعض البلاد وعادوا سالمين.

ثم إن لهراسب استعمله أصبهبذ على ما بين الأهواز إلى أرض الروم من غربي دجلة.

وكان السبب في مسيره إلى بني إسرائيل أنه لما استعمله لهراسب كما ذكرنا سار إلى الشام فصالحه أهل دمشق وبيت المقدس، فعاد عنهم وأخذ رهائنهم، فلما عاد من القدس إلى طبرية وثب بنو إسرائيل على ملكهم الذي صالح بختنصر فقتلوه وقالوا: داهنت أهل بابل وخذلتنا.

فلما سمع بختنصر بذلك قتل الرهائن الذين معه وعاد إلى القدس فأخربه.

وقيل: إن الذي استعمله إنما كان الملك بهمن بن بشتاسب بن لهراسب، وكان بختنصر قد خدم جده وأباه وخدمه وعمر عمرًا طويلاً. فأرسل بهمن رسلاً إلى ملك بني إسرائيل ببيت المقدس فقتلهم الإسرائيلي، فغضب بهمن من ذلك واستعمل بختنصر على أقاليم بابل وسيره في الجنود الكثيرة، فعمل بهم ما نذكره. هذه الأسباب الظاهرة.

وإنما السبب الكلي الذي أحدث هذه الأسباب الموجبة للانتقام من بني إسرائيل هو معصية الله تعالى ومخالفة أوامره، وكانت سنة الله تعالى في بني إسرائيل أنه إذا ملك عليهم ملكًا أرسل معه نبيًا يرشده ويهديه إلى أحكام التوراة. فلما كان قبل مسير بختنصر إليهم كثرت فيهم الأحداث والمعاصي، وكان الملك فيهم يقونيا بن يوياقيم، فبعث الله إليه إرميا، قيل: هو الخضر، عليه السلام، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله وينهاهم عن المعاصي ويذكر لهم نعمة الله عليهم بإهلاك سنحاريب، فلم يرعووا، فأمره الله أن يحذرهم عقوبته وأنهم إن لم يراجعوا الطاعة سلط عليهم من يقتلهم ويسبي ذراريهم ويخرب مدينتهم ويستعبدهم ويأتيهم بجنود ينزع من قلوبهم الرأفة والرحمة، فلم يراجعوها فأرسل الله إليه: لأقيضن لهم فتنة تذر الحليم حيران فيها ويضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم، ولأسلطن عليهم جبارًا قاسيًا عاتيًا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة، يتبعه عدد مثل سواد الليل، وعساكر مثل قطع السحاب، يهلك بني إسرائيل وينتقم منهم ويخرب بيت المقدس، فلما سمع إرميا ذلك صاح وبكى وشق ثيابه. وجعل الرماد على رأسه وتضرع إلى الله في رفع ذلك عنهم في أيامه.

فأوحى الله إليه: «وعزتي لا أهلك بيت المقدس وبني إسرائيل حتى يكون الأمر من قبلك في ذلك».

ففرح إرميا، وقال: لا والذي بعث موسى وأنبياءه بالحق لا آمر بهلاك بني إسرائيل أبدًا.

وأتى ملك بني إسرائيل فأعلمه بما أوحي إليه، فاستبشر وفرح، ثم لبثوا بعد هذا الوحي ثلاث سنين ولم يزدادوا إلا معصية وتماديًا في الشر، وذلك حين اقترب هلاكهم، فقل الوحي حيث لم يكونوا هم يتذكرون. فقال لهم ملكهم: يا بني إسرائيل انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يأتيكم عذاب الله! فلم ينتهوا، فألقى الله في قلب بختنصر أن يسير إلى بني إسرائيل ببيت المقدس، فسار في العساكر الكثيرة التي تملأ الفضاء. وبلغ ملك بني إسرائيل الخبر، فاستدعى أرميا النبي، فلما حضر عنده قال له: يا أرميا أين ما زعمت أن ربك أوحى إليك أن لا يهلك بيت المقدس حتى يكون الأمر منك؟

فقال أرميا: إن ربي لا يخلف الميعاد وأنا به واثق.

فلما قرب الأجل ودنا انقطاع ملكهم وأراد الله إهلاكهم أرسل الله ملكًا في

صورة آدمي إلى أرميا وقال له: استفته، فأتاه وقال له: يا أرميا أنا رجل من بني إسرائيل أستفتيك في ذوي رحمي، وصلت أرحامهم بما أمرني الله به وأتيت إليهم حسنًا وكرامة فلا تزيدهم كرامتي إياهم إلا سخطًا لي وسوء سيرة معي فأفتني فيهم. فقال له: أحسن فيما بينك وبين الله وصل ما أمرك الله به أن تصله. فانصرف عنه الملك ثم عاد إليه بعد أيام في تلك الصورة، فقال له أرميا: أما طهرت أخلاقهم وما رأيت منهم ما تريد؟

فقال: والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يؤتيها أحد من الناس إلى ذوي رحمه إلا وقد آتيتها إليهم وأفضل من ذلك فلم يزدادوا إلا سوء سيرة. فقال: ارجع إلى أهلك وأحسن إليهم.

فقام الملك من عنده فلبث أيامًا، ونزل بختنصر على بيت المقدس بأكثر من الجراد، ففزع منهم بنو إسرائيل وقال ملكهم لأرميا: أين ما وعدك ربك؟ فقال: إني بربي واثق.

ثم إن الملك الذي أرسله الله يستفتي أرميا عاد إليه وهو قاعد على جدار بيت المقدس فقال مثل قوله الأول وشكا أهله وجورهم وقال له: يا نبي الله كل شيء كنت أصبر عليه قبل اليوم لأن ذلك كان فيه سخطي، وقد رأيتهم اليوم على عمل عظيم من سخط الله تعالى، فلو كانوا على ما كانوا عليه اليوم لم يشتد عليهم غضبي، وإنما غضبت اليوم لله وأتيتك لأخبرك خبرهم، وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق إلا ما دعوت الله عليهم أن يهلكوا. فقال إرميا: يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم.

فلما خرجت الكلمة من فيه أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس والتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى ذلك إرميا صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه وقال: يا ملك السموات والأرض، يا أرحم الراحمين! أين ميعادك، أيا رب، الذي وعدتني به؟ فأوحى الله إليه أنه لم يصبهم ما أصابهم إلا بفتياك التي أفتيت رسولنا، فاستيقن أنها فتياه وأن السائل كان من عند الله.

وخرج أرميا حتى خالط الوحش، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس، فوطئ الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخرب بيت المقدس وأمر جنوده، فحملوا التراب وألقوه فيه حتى ملأوه، ثم انصرف راجعًا إلى بابل وأخذ معه سبايا بني

إسرائيل، وأمرهم، فجمعوا من كان في بيت المقدس كلهم، فاجتمعوا واختار منهم مائة ألف صبي فقسمهم على الملوك والقواد الذين كانوا معه، وكان من أولئك الغلمان دانيال النبي وحنانيا وعزاريا وميشائيل، وقسم بني إسرائيل ثلاث فرق، فقتل ثلثًا، وأقر بالشام ثلثًا، وسبى ثلثًا، ثم عمر الله بعد ذلك إرميا، فهو الذي رؤئي بفلوات الأرض والبلدان. ثم إن بختنصر عاد إلى بابل وأقام في سلطانه ما شاء الله أن يقيم. ثم رأى رؤيا، فبينما هو قد أعجبه ما رأى إذ رأى شيئًا أنساه ما رأى، فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وقال: أخبروني عن رؤيا رأيتها فأنسيتها. ولئن لم تخبروني بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم.

فخرجوا من عنده ودعوا الله وتضرعوا إليه وسألوه أن يعلمهم إياها، فأعلمهم الذي سألهم عنه، فجاءوا إلى بختنصر فقالوا: رأيت تمثالاً. قال: صدقتم. قالوا: قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد، فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك أرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته، وهي التي أنستك الرؤيا.

قال: صدقتم، فما تأويلها؟ قالوا: أريت ملك الملوك، فبعضهم كان ألين ملكًا من بعض، وبعضهم كان أحسن ملكًا من بعض، وبعضهم أشد، وكان أول الملك الفخار، وهو أضعفه وألينه، ثم كان فوقه النحاس، وهو أفضل منه وأشد، ثم كان فوق النحاس الفضة، وهي أفضل من ذلك وأحسن، ثم كان فوقها الذهب، وهو أحسن من الفضة وأفضل، ثم كان الحديد، وهو ملكك، فهو أشد الملوك وأعز، وكانت الصخرة التي رأيت أن أرسل الله من السماء فدق ذلك جميعه ـ نبيًا يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه.

فلما عبر دانيال ومن معه رؤيا بختنصر قربهم وأدناهم واستشارهم في أمره، فحسدهم أصحابه وسعوا بهم إليه وقالوا عنهم ما أوحشه منهم فأمر، فحفر لهم أخدودًا وألقاهم فيه، وهو ستة رجال، وألقى معهم سبعًا ضاريًا ليأكلهم، ثم قال أصحاب بختنصر: انطلقوا فلنأكل ولنشرب، فذهبوا فأكلوا وشربوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسًا والسبع مفترش ذراعيه بينهم لم يخدش منهم أحدًا، ووجدوا معهم رجلاً سابعًا، فخرج إليهم السابع، وكان ملكًا من الملائكة، فلطم بختنصر لطمة فمسخه وصار في الوحش في صورة أسد، وهو مع ذلك يعقل ما يعقله الإنسان، ثم رده الله إلى صورة الإنس وأعاد عليه ملكه، فلما عاد إلى ملكه كان

دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه، فعاد الفرس وسعوا بهم إلى بختنصر وقالوا له في سعايتهم: إن دانيال إذا شرب الخمر لا يملك نفسه من كثرة البول، وكان ذلك عندهم عاراً، فصنع لهم بختنصر طعامًا وأحضره عنده وقال للبواب: انظر أول من يخرج ليبول فاقتله، وإن قال لك: أنا بختنصر، فقل له: كذبت، بختنصر أمرني بقتلك واقتله. فحبس الله عن دانيال البول، وكان أول من قام من الجمع بختنصر فقام مدلاً أنه الملك لئلا يقدم أحد عليه، وكان ذلك ليلاً، فلما رآه البواب شد عليه ليقتله، فقال له: أنا بختنصر! فقال: كذبت، إن بختنصر أمرني بقتلك، وقتله.

وقيل في سبب قتله: إن الله أرسل عليه بعوضة فدخلت في منخره وصعدت إلى رأسه، فكان لا يقر ولا يسكن حتى يدق رأسه، فلما حضره الموت قال لأهله: شقوا رأسي فانظروا ما هذا الذي قتلني؟ فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة بأم رأسه، ليري الله العباد قدرته وسلطانه وضعف بختنصر، لما تجبر قتله بأضعف مخلوقاته، تبارك الذي بيده ملكوت كل شيء يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وأما دانيال فإنه أقام بأرض بابل وانتقل عنها ومات ودفن بالسوس من أعمال خوزستان.

ولما أراد الله تعالى أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس كان بختنصر قد مات، فإنه عاش بعد تخريب بيت المقدس أربعين سنة، في قول بعض أهل العلم، وملك بعده ابن له يقال له: والمردج، فملك الناحية ثلاثًا وعشرين سنة ثم هلك، وملك ابن له يقال له: بلتاصر سنة، فلما ملك تخلط في أمره، فعزله ملك الفرس حينئذ، وهو مختلف فيه على ما ذكرناه، واستعمل بعده داريوش على بابل والشام، وبقي ثلاثين سنة، ثم عزله واستعمل مكانه أخشويرش، فبقي أربع عشرة سنة، ثم ملك ابنه كيرش العلمي، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان قد تعلم التوراة ودان باليهودية، وفهم عن دانيال ومن معه مثل حنانيا وعزاريا وغيرهما، فسألوه أن يأذن لهم في الخروج إلى بيت المقدس، فقال: لو كان بقي منكم ألف نبي ما فارقتكم، وولي دانيال القضاء وجعل إليه جميع أمره، وأمره أن يقسم ما غنمه بختنصر من بني إسرائيل عليهم، وأمره بعمارة بيت المقدس، فعمر في أيامه، وعاد إليه بنو إسرائيل. وهذه المدة لهؤلاء الملوك معدودة من خراب بيت المقدس منسوبة إلى بختنصر، وكان ملك كريش اثنتين وعشرين سنة.

وقيل: إن الذي أمر بعود بني إسرائيل إلى الشام بشتاسب بن لهراسب، وكان قد بلغه خراب بلاد الشام، وأنها لم يبق منها من بني إسرائيل أحد فنادى في أرض

بابل: من شاء من بني إسرائيل أن يرجع إلى الشام فليرجع. وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس، فرجعوا وعمروه.

وكان أرميا بن حزقيا من سبط هارون بن عمران، فلما وطئ بختنصر الشام وخرب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل وسباهم، وقد فارق البلاد واختلط بالوحش، فلما عاد بختنصر إلى بابل أقبل أرميا على حمار له معه عصير عنب وفي يده سلة تين فرأى بيت المقدس خرابًا فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾[1] ثم أمات حماره وأعمى عنه العيون، فلما أن عمر بيت المقدس أحيا الله من إرميا عينيه، ثم أحيا جسده، وهو ينظر إليه، وقيل له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[2]. قيل: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[3] ويتغير ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾[4] فنظر إلى عظام حماره وهي تجتمع بعضها إلى بعض، ثم كسي لحمًا، ثم قام حيًّا بإذن الله، ونظر إلى المدينة وهي تبنى، وقد كثر فيها بنو إسرائيل وتراجعوا إليها من البلاد، وكان عهدها خرابًا، وأهلها ما بين قتيل وأسير، فلما رآها عامرة ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

وقيل: إن الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه كان عزيراً، فلما عاش قصد منزله من بيت المقدس على وهم منه فرأى عنده عجوزاً عمياء زمنة كانت جارية له، ولها من العمر مائة وعشرين سنة، فقال لها: هذا منزل عزير؟ قالت: نعم، وبكت.

وقالت: ما أرى أحداً يذكر عزيراً غيرك! فقال: أنا عزير. فقالت: إن عزيراً كان مجاب الدعوة، فادع الله لي بالعافية، فدعا لها فعاد بصرها وقامت ومشت، فلما رأته عرفته. وكان لعزير ولد وله من العمر مائة وثلاث عشرة سنة، وله أولاد شيوخ، فذهبت إليهم الجارية وأخبرتهم به، فجاؤوا، فلما رأوه عرفه ابنه بشامة كانت في ظهره.

وقيل: إن عزيراً كان مع بني إسرائيل بالعراق، فعاد إلى بيت المقدس فجدد لبني إسرائيل التوراة لأنهم عادوا إلى بيت المقدس، ولم يكن معهم التوراة لأنها كانت قد أخذت فيما أخذ وأحرقت وعدمت، وكان عزير قد أخذ مع السبي، فلما عاد عزير إلى بيت المقدس مع بني إسرائيل جعل يبكي ليلاً نهاراً وانفرد عن الناس، فبينما هو كذلك في حزنه إذ أقبل إليه رجل، وهو جالس، فقال: يا عزير ما يبكيك؟ فقال:

(١-٥) سورة البقرة (٢٥٩).

أبكي لأن كتاب الله وعهده كان بين أظهرنا انعدم.

قال: فتريد أن يرده الله عليكم؟ قال: نعم. قال: فارجع وصم وتطهر والميعاد بيننا غداً هذا المكان. ففعل عزير ذلك وأتى المكان فانتظره، وأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء، وكان ملكًا بعثه الله في صورة رجل، فسقاه من ذلك الإناء، فتمثلت التوراة في صدره، فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها وحدودها، فأحبوه حبًّا شديداً لم يحبوا شيئًا قط مثله، وأصلح أمرهم، وأقام عزير بينهم، ثم قبضه الله إليه على ذلك، وحدثت فيهم الأحداث، حتى قال بعضهم: ﴿عزير ابن الله﴾. ولم يزل بنو إسرائيل ببيت المقدس، وعادوا وكثروا حتى غلبت عليهم الروم زمن ملوك الطوائف، فلم يكن لهم بعد ذلك جماعة؛ وقد اختلف العلماء في أمر بختنصر وعمارة بيت المقدس اختلافًا كثيراً تركنا ذكره اختصاراً.

ذكر غزو بختنصر العرب[1]

قيل: أوحى الله إلى برخيا بن حنانيا يأمره أن يقول لبختنصر ليغزو العرب فيقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم ويستبيح أموالهم عقوبة لهم على كفرهم.

فقال برخيا لبختنصر ما أمر به، فابتدأ بمن في بلاده من تجار العرب فأخذهم وبنى لهم حران بالنجف وحبسهم فيه ووكل بهم، وانتشر الخبر في العرب، فخرجت إليه طوائف منهم مستأمنين، فقبلهم وعفا عنهم فأنزلهم السواد، فابتنوا الأنبار وخلى عن أهل الحيرة فاتخذوها منزلاً حياة بختنصر، فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار، وهذا أول سكنى العرب السواد بالحيرة والأنبار. وسار إلى العرب بنجد والحجاز، فأوحى الله إلى برخيا وإرميا يأمرهما أن يسيرا إلى معد بن عدنان فيأخذاه ويحملاه إلى حران، وأعلمهما أنه يخرج من نسله محمد ﷺ الذي يختم به الأنبياء.

فسارا تطوى لهما المنازل والأرض حتى سبقا بختنصر إلى معد فحملاه إلى حران في ساعتهما، ولمعد حينئذ اثنتا عشرة سنة، وسار بختنصر فلقي جموع العرب فقاتلهم فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وسار إلى الحجاز فجمع عدنان العرب والتقى هو وبختنصر بذات عرق فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عدنان وتبعه بختنصر إلى حصون هناك، واجتمع عليه العرب وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٢٦).

وأصحابه، فكمن بختنصر كمينًا، وهو أول كمين عمل، وأخذتهم السيوف، فنادوه بالويل، ونهي عـدنان عن بختنصـر، وبختنصر عن عـدنان، فافـترقا، فـلما رجع بختنصر خرج معد بن عدنان مع الأنبـياء حتى أتى مكة، فأقام أعلامها وحج وحج معه الأنبـياء، وخرج معـد حتى أتى ريشوب وسأل عـمن بقي من ولد الحارث بن مضـاض الجرهمي، فقـيل له: بقي جوشم بن جَلهمـة، فتزوج مـعد ابنته مـعانة، فولدت له نزار بن معد.



ذكر بشتاسب والحوادث في ملكه وقتل أبيه لهراسب[1]

لما ملك بشتاسب بن لهراسب ضبط الملك وقرر قوانينه وابتنى بفارس مدينة فسا ورتب سبعة من عظماء أهل مملكته مراتب وملك كل واحد منهم مملكة على قدر مرتبته، ثم إنه أرسل إلى ملك الترك، واسمه خرزاسف ـ وهو أخو أفراسياب ـ وصالحه، واستقر الصلح على أن يكون لبشتاسب دابة واقفة على باب ملك الترك لا تزال على عادتها على أبواب الملوك، فلما جاء زرادشت إلى بشتاسب واتبعه على ما ذكرناه أشار زرادشت على بشتاسب بنقض الصلح مع ملك الترك، وقال: أنا أعين لك طالعًا تسير فيه إلى الحرب فتظفر، وهذا أول وقت وضعت فيه الاختبارات للملوك بالنجوم، وكان زرادشت عالمًا بالنجوم جيد المعرفة بها، فأجابه بشتاسب إلى ذلك، فأرسل إلى الدابة التي بباب ملك الترك وإلى الموكل بها فصرفها، فغضب ملك الترك وأرسل إليه يتهدده وينكر عليه ذلك ويأمره بإنفاذ زرادشت إليه وإن لم يفعل غزاه وقتله وأهل بيته.

فكتب إليه بشتاسب كتابًا غليظًا يؤذنه فيه بالحرب، وسار كل واحد منهما إلى صاحبه والتقيا واقتتلا قتالاً شديداً، فكانت الهزيمة على الترك، وقتلوا قتلاً ذريعًا. ومروا منهزمين، وعاد بشتاسب إلى بلخ، وعظم أمر زرادشت عند الفرس، وعظم شأنه حيث كان هذا الظفر بقوله. وكان أعظم الناس غناء في هذه الحرب إسفنديار ابن بشتاسب، فلما انجلت الحرب سعى الناس بين بشتاسب وابنه إسفنديار، وقالوا: يريد الملك لنفسه، فندبه لحرب بعد حرب، ثم أخذه وحبسه مقيداً. ثم إن بشتاسب سار إلى ناحية كرمان وسجستان وسار إلى جبل يقال له طمبدر لدراسة دينه والتنسك هناك وخلف أباه لهراسب ببلخ شيخًا قد أبطله الكبر وترك بها خزائنه وأولاده ونساءه، فبلغت الأخبار إلى ملك الترك خرزاسف، فلما تحققه جمع عساكره وحشد وسار إلى بلخ وانتهز الفرصة بغيبة بشتاسب عن مملكته، ولما بلغ بلخ ملكها وقتل لهراسب وولدين لبشتاسب والهرابذة وأحرق الدواوين وهدم بيوت النيران وأرسل السرايا إلى البلاد، فقتلوا وسبوا وأخربوا، وسبى ابنتين لبشتاسب إحداهما خمانى، وأخذ علمهم الأكبر المعروف بدرفش كابيان، وسار متبعًا لبشتاسب، وهرب بشتاسب من بين يديه فتحصن بتلك الجبال مما يلي فارس، وضاق ذرعًا بما نزل به.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٢٨).

فلما اشتد عليه الأمر أرسل إلى ابنه إسفنديار مع عالمهم جاماسب، فأخرجه من محبسه واعتذر إليه ووعده أن يعهد إليه بالملك من بعده، فلما سمع إسفنديار كلامه سجد له ونهض من عنده وجمع من عنده من الجند وبات ليلته مشغولاً بالتجهز وسار من الغد نحو عسكر الترك وملكهم، والتقوا واقتتلوا والتحمت الحرب وحمي الوطيس، وحمل إسفنديار على جانب من العسكر فأثر فيه ووهنه وتابع الحملات، وفشا في الترك أن إسفنديار هو المتولي لحربهم، فانهزموا لا يلوون على شيء، وانصرف إسفنديار وقد ارتجع درفش كابيان.

فلما دخل على أبيه استبشر به وأمره باتباع الترك ووصاه بقتل ملكهم ومن قدر عليه من أهله ويقتل من الترك من أمكنه قتله وأن يستنقذ السبايا والغنائم التي أخذت من بلادهم، فسار إسفنديار ودخل بلاد الترك وقتل وسبى وأخرب وبلغ مدينتهم العظمى ودخلها عنوة وقتل الملك وإخوته ومقاتلته واستباح أمواله وسبى نساءه واستنقذ أختيه ودوّخ البلاد وانتهى إلى آخر حدود بلاد الترك وإلى التبت، وأقطع بلاد الترك، وجعل كل ناحية إلى رجل من وجوه الترك بعد أن أمنهم. ووظف عليهم خراجًا يحملونه كل سنة إلى أبيه بشتاسب ثم عاد إلى بلخ.

فحسده أبوه بما ظهر منه من حفظ الملك والظفر بالترك، وأسر ذلك في نفسه، وأمره بالتجهز والمسير إلى قتال رستم الشديد بسجستان، وقال له: هذا رستم متوسط بلادنا ولا يعطينا الطاعة لأن الملك كيكاووس أعتقه فأقطعه إياها، وقد ذكرنا ذلك في ملك كيكاووس، وكان غرض بشتاسب أن يقتله رستم أو يقتل هو رستم، فإنه كان أيضًا شديد الكراهة لرستم، فجمع العساكر وسار إلى رستم لينزع سجستان منه، فخرج إليه رستم وقاتله فقتل إسفنديار، قتله رستم، ومات بشتاسب، وكان ملكه مائة سنة واثنتي عشرة سنة، وقيل مائة وعشرين سنة، وقيل مائة وخمسين سنة، وقيل: إنه جاءه رجل من بني إسرائيل زعم أنه نبي أرسل إليه واجتمع به ببلخ، فكان يتلكم[1] بالعبري وزرادشت نبي المجوس يعبر عنه، وجاماسب العالم هو حاضر معهم يترجم أيضًا عن الإسرائيلي، وكان بشتاسب ومن قبله من آبائه وسائر الفرس يدينون بدين الصابئة قبل زرادشت.

---

(١) كذا بالمطبوعة والصواب (يتكلم).

ذكر الخبر عن ملوك بلاد اليمن من أيام كيكاووس إلى أيام بهمن بن إسفنديار[١]

قد مضى ذكر الخبر عمن زعم أن كيكاووس كان في عهد سليمان بن داود، وقد ذكرنا من كان في عهد سليمان من ملوك اليمن والخبر عن بلقيس بنت اليشرح، وصار الملك بعد بلقيس إلى ياسر بن عمرو بن يعفر الذي يقال له أنعم الإنعامة. قال أهل اليمن: إنه سار غازيًا نحو المغرب حتى بلغ واديًا يقال له وادي الرمل. ولم يبلغه أحد قبله، فلما انتهى إليه لم يجد وراءه مجازًا لكثرة الرمل، فبينما هو مقيم عليه إذ انكشف الرمل فأمر رجلاً يقال له عمرو أن يعبر هو وأصحابه، فعبروا، فلم يرجعوا، فلما رأى ذلك أمر بنصب صنم نحاس، فصنع ثم نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالمسند، هذا الصنم لياسر أنعم الحميري، ليس وراءه مذهب فلا يتكلفن أحد ذلك فيعطب؛ وقيل: إن وراء ذلك الرمل قومًا من أمة موسى، وهم الذين عنى الله بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[٢]، والله أعلم.

ثم ملك بعده تبع، وهو تبان، وهو أسعد، وهو أبو كرب بن ملكيكرب تبع بن زيد بن عمرو بن تبع، وهو ذو الأذعار بن أبرهة تبع ذي المنار بن الرائش بن قيس ابن صيفي بن سبأ، وكان يقال له الزائد[٣]، وكان تبع هذا في أيام بشتاسب وأردشير بهمن بن إسفنديار بن بشتاسب، وأنه شخص متوجهًا من اليمن في الطريق الذي سلكه الرائش حتى خرج على جبلي طيء، ثم سار يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة تحير، وكان ليلاً، فأقام مكانه، فسمي ذلك المكان بالحيرة، وخلف به قومًا من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة، فبنوا وأقاموا به. ثم انتقل إليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكون وبلحرث بن كعب وإياد، ثم توجه إلى الموصل، ثم إلى أذربيجان، فلقي الترك فهزمهم، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، ثم عاد إلى اليمن، فهابته الملوك وأهدوا إليه. وقدمت عليه هدية ملك الهند، وفيها تحف كثيرة من الحرير والمسك والعود وسائر طرف الهند، فرأى ما لم ير مثله، فقال

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٣١).

(٢) سورة الأعراف (١٥٩).

(٣) في المصدر السابق: الرائد.

للرسول: كل هذا في بلدكم؟ فقال: أكثره من بلد الصين، ووصف له بلد الصين فحلف ليغزونها. فساد بحمير حتى أتى إلى الركايك وأصحاب القلانس السود، ووجه رجلاً من أصحابه يقال له ثابت نحو الصين في جمع عظيم، فأصيب، فسار تبع حتى دخل الصين، فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد فيها، وكان مسيره ومقامه ورجعته في سبع سنين، ثم إنه خلف بالتبت اثني عشر ألف فارس من حمير، فهم أهل التبت، ويزعمون أنهم عرب، وألوانهم ألوان العرب وخلقهم، هكذا ذكر.

وقد خالف هذه الرواية كثير من أصحاب السير والتواريخ، وكل واحد منهم خالف الآخر، وقدم بعضهم من أخره الآخر، فلم يحصل منهم كثير فائدة، ولكن ننقل ما وجدنا مختصراً.

ذكر خبر أردشير بهمن وابنته خماني[1]

ثم ملك بعد بشتاسب ابن ابنه أردشير بهمن بن إسفنديار، وكان مظفراً في مغازيه، وملك أكثر من أبيه، وقيل: إنه ابتنى بالسواد مدينة وسماها أياوان أردشير، وهي القرية المعروفة بهمينا بالزاب الأعلى، وابتنى بكور دجلة الأبلة، وسار إلى سجستان طالبًا بثأر أبيه، فقتل رستم وأباه دستان وابنه فرامرز.

وبهمن هو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان أبي ملوك الفرس الأحرار أردشير بن بابك وولده، وأم دارا خماني ابنة بهمن، فهي أخته وأمه. وغزا بهمن رومية الداخلة في ألف ألف مقاتل، وكان ملوك الأرض يحملون إليه الأتاوة، وكان أعظم ملوك الفرس شأنًا وأفضلهم تدبيراً. وكانت أم بهمن من نسل بنيامين بن يعقوب، وأم ابنه ساسان من نسل سليمان بن داود. وكان ملك بهمن مائة وعشرين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وكان متواضعًا مرضيًا فيهم، وكانت كتبه تخرج: من عبد الله خادم الله السائس لأموركم.

ثم ملكت بعده ابنته خماني، ملكوها حبًا لأبيها ولعقلها وفروسيتها، وكانت تلقب بشهرزاد، وقيل: إنها ملكت لأنها حين حملت منه دارا الأكبر سألته أن يعقد التاج له في بطنها ويؤثره بالملك، ففعل بهمن وعقد التاج عليه حملاً في بطنها، وساسان بن بهمن رجل يتصنع للملك، فلما رأى فعل أبيه لحق بإصطخر وتزهد

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٣٣).

ولحق برؤوس الجبال واتخـذ غنمًا، وكان يتولاها بنفسـه، فاستبشـعت العامة ذلك منه، وهلك بهـمن وابنه دارا في بطن أمـه، فملكوهـا، ووضعـته بعـد أشهـر من ملكها، فأنفت من إظهـار ذلك وجعلته في تابوت وجعلت معـه جواهر وأجرته في نهـر الكر من إصطخـر، وقيـل: بنهر بلـخ، وسار التـابوت إلى طحـان من أهل إصطخر، فـفرح لما فيـه من الجواهر، فحـضنته امرأته، ثم ظهـر أمره حين شب، فأقرت خماني بإساءتها، فلمـا تكامل امتحن فوجد على غاية ما يكون أبناء الملوك، فحولت التاج إليه وسارت إلى فارس وبنت مدينة إصطخر، وكانت قد أوتيت ظفرًا وأغزت الروم وشـغلت الأعداء عن تطرق بلادها، وخـففت عن رعـيتهـا الخراج، وكان ملكها ثلاثين سنة، وقيل: إن خماني أم دارا حـضنته حتى كبر فسلمت الملك إليه وعـزلت نفسها، فـضبط الملك بشجـاعة وحزم، ونرجع إلى ذكـر بني إسرائيل ومقابلة تاريخ أيامهم إلى حين تصرمـها ومدة من كان في أيامهم من ملوك الفرس، قد ذكـرنا فيمـا مضى سبب انصـراف من انصرف إلى بيت المقدس من سـبايا بني إسرائيل الذين كـان بختنصـر سباهم، وكـان ذلك في أيام كيرش بن أخـشويرش، وملكه ببابل من قـبل بهمن وأربع سنين بعد وفـاته في ملك ابنته خمـاني، وكانت مدة خراب بيت المقـدس من لدن خربه بختنصر مـائة سنة، كل ذلك في أيام بهمن بعضه وفي أيام ابنته خماني بعضه، وقيل غير ذلك، وقد تقدم ذكر الاختلاف، وقد زعم بعضهم أن كيرش هو بشتاسب، وأنكر عليه قوله ولم يملك كيرش منفردًا قط، ولما عمر بيت المقدس ورجع إليه أهله كان فـيهم عزير، وكان الملك عليهم بعد ذلك من قـبل الفـرس إما رجل منهم وإمـا رجل من بني إسـرائيل، إلى أن صـار الملك بناحيتهم لليونانية والروم لسـبب غلبة الإسكندر على الناحية حين قتل دارا بن دارا. وكان جملة مدة ذلك فيما قيل ثمانيًا وثمانين سنة.

ذكر خبر دارا الأكبر وابنه دارا الأصغر وكيف كان هلاكه مع خبر ذي القرنين[1]

وملك دارا بن بهـمن بن إسفنديار، وكان يـلقب جهرازاد، يعني كـريم الطبع، فنزل ببابل، وكان ضابطًا لملكه قاهرًا لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج، وبنى بفارس مدينة سمـاها دارابجرد، وحذف دواب البرد ورتبها، وكان مـعجبًا بابنه دارا

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٣٦).

ومن حبه له سماها باسم نفسه وصير له الملك بعده، وكان ملكه اثنتين وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ابنه دارا وبنى بأرض الجزيرة بالقرب من نصيبين مدينة دارا وهي مشهورة إلى الآن، واستوزر إنسانًا لا يصلح لها، فأفسد قلبه على أصحابه، فقتل رؤساء عسكره واستوحش منه الخاصة والعامة، وكان شابًا غرًا[1] جميلاً[2] حقودًا جبارًا سيء السيرة في رعيته، وكان ملكه أربع عشرة سنة.



(١) الغر: الغافل الذي لم يجرب الأمور.

(٢) في المصدر السابق حميًا.

ذكر الإسكندر ذي القرنين(١)

كان فيلفوس أبو الإسكندر اليوناني من أهل بلدة يقال لها مقدونية، وكان ملكًا عليها وعلى بلاد أخرى، فصالح دارا على خراج يحمله إليه في كل سنة. فلما هلك فيلفوس ملك بعده ابنه الإسكندر واستولى على بلاد الروم أجمع، فقوي على دارا فلم يحمل إليه من الخراج شيئًا وكان الخراج الذي يحمله بيضًا من ذهب فسخط عليه دارا وكتب إليه يؤنبه بسوء صنيعه في ترك حمل الخراج، وبعث إليه بصولجان وكرة وقفيز من سمسم، وكتب إليه: إنه صبي، وإنه ينبغي له أن يلعب بالصولجان والكرة ويترك الملك، وإن لم يفعل ذلك واستعصى عليه بعث من يأتيه به في وثاق، وإن عدة جنوده كعدة حب السمسم الذي بعث به إليه.

فكتب إليه الإسكندر: إنه قد فهم ما كتب به، وقد نظر إلى ما ذكر في كتابه إليه من إرساله الصولجان والكرة وتيمن به لإلقاء الملقي الكرة إلى الصولجان

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٣٦).
وقد اختلف أهل العلم في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال:-
الأول: عبد الله، روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
الثاني: الإسكندر، قاله وهب.
الثالث: عياش، قاله محمد بن علي بن الحسين.
الرابع: الصعب بن جابر بن القلمس. ذكره ابن أبي خيثمة «زاد المسير» (٥/ ١٢٨).
والمراد بالإسكندر هنا الأكبر لا الثاني المقدوني الذي كان وزيره أرطاطاليس الفيلسوف، فهذا كافر بخلاف الأول.
قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (٢/ ٩٦، ٩٧) بعد أن نقل عن قتادة قال: إسكندر هو ذو القرنين، أبوه أول القياصرة، وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام. قال: فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون. . . المقدوني اليوناني المصري، باني إسكندرية، الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخرًا عن الأول بدهر طويل، وكان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان أرطاطاليس الفيلسوف وزيره، وإنما نبهنا عليه لأن كثير من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل، فإن الأول كان عبدًا مؤمنًا صالحًا وملكًا عادلاً، وأما الثاني فكان مشركًا وكان وزيره فيلسوفًا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة، فأين هذا من هذا؟! لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور. انتهى باختصار. قلت: وظاهر صنيع المؤلف أنه خلط بينهما.

واحترازه إياها، ويشبه الأرض بالكرة، وأنه يجر ملك دارا إلى ملكه، وتيمنه بالسمسم الذي بعث كتيمنه بالصولجان والكرة لدسمه وبعده من المرارة والحرافة، وبعث إليه بصرة فيها خردل، وأعلمه في ذلك أن ما بعث به إليه قليل ولكنه مر حريف، وأن جنوده مثله. فلما وصل كتابه إلى دارا تأهب لمحاربته.

وقد زعم بعض العلماء بأخبار الأولين أن الإسكندر الذي حارب دارا بن دارا هو أخو دارا الأصغر الذي حاربه، وأن أباه دارا الأكبر كان تزوج أم الإسكندر، وهي ابنة ملك الروم، فلما حملت إليه وجد نتن ريحها وسهكها، فأمر أن يحتال لذلك منها، فاجتمع رأي أهل المعرفة في مداواتها على شجرة يقال لها بالفارسية سندر، فغسلت بمائها فأذهب ذلك كثيراً من نتنها ولم يذهب كله، وانتهت نفسه عنها، فردها إلى أهلها، وقد علقت منه فولدت عند أهلها غلامًا فسمته باسم الشجرة التي غسلت بمائها مضافًا إلى اسمها. وقد هلك أبوها وملك الإسكندر بعده، فمنع الخراج الذي كان يؤديه جده إلى دارا، فأرسل يطلبه، وكان بيضًا من ذهب، فأجابه: إني قد ذبحت الدجاجة التي كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها، فإن أحببت وادعناك، وإن أحببت ناجزناك.

ثم خاف الإسكندر من الحرب فطلب الصلح، فاستشار دارا أصحابه، فأشاروا عليه بالحرب لفساد قلوبهم عليه، فعند ذلك ناجزه دارا القتال، فكتب الإسكندر إلى حاجبي دارا وحكمهما على الفتك بدارا، فاحتكما شيئًا، ولم يشترطا أنفسهما.

فلما التقيا للحرب طعن دارا حاجباه في الوقعة، وكانت الحرب بينهما سنة، فانهزم أصحاب دارا ولحقه الإسكندر وهو بآخر رمق، وقيل: بل فتك به رجلان من حرسه من أهل همذان حبًّا للراحة من ظلمه، وكان فتكهما به لما رأيا عسكره قد انهزم عنه، ولم يكن ذلك بأمر الإسكندر، وكان قد أمر الإسكندر مناديًا ينادي عند هزيمة عسكر دارا أن يؤسر دارا ولا يقتل، فأخبر بقتله، فنزل إليه ومسح التراب عن وجهه وجعل رأسه في حجره وقال له: إنما قتلك أصحابك وإنني لم أهم بقتلك قط، ولقد كنت أرغب بك يا شريف الأشراف ويا ملك الملوك وحر الأحرار عن هذا المصرع، فأوصي بما أحببت.

فأوصاه دارا أن يتزوج ابنته «روشنك» ويرعى حقها ويعظم قدرها ويستبقي أحرار فارس ويأخذ له بثأره ممن قتله. ففعل الإسكندر ذلك أجمع وقتل حاجبي

دارا، وقال لهما: إنكما لم تشترطا نفوسكما، فقتلهما بعد أن وفى لهما بما ضمن لهما.

وقال: «ليس ينبغي أن يستبقي قاتل الملوك إلا بذمة لا تخفر».

وكان التقاؤهما بناحية خراسان مما يلي الخزر، وقيل ببلاد الجزيرة عند دارا.

وكان ملك الروم قبل الإسكندر متفرقًا فاجتمع، وملك فارس مجتمعًا فتفرق.

وحمل الإسكندر كتبًا وعلومًا لأهل فارس من علوم ونجوم وحكم ونقله إلى الرومية. وقد ذكرنا قول من قال إن الإسكندر أخو دارا لأبيه.

وأما أهل الروم وكثير من أهل الأنساب فيزعمون أنه الإسكندر بن فيلفوس، وقيل: فيلبوس بن مطريوس، وقيل: ابن مصريم بن هرمس بن هردس بن ميطون بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافث بن ثوبة بن سرحون بن روميط بن زنط بن توقيل بن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

فجمع بعد هلك دارا ملك دارا فملك العراق والشام والروم ومصر والجزيرة وعرض جنده فوجدهم على ما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل، فمنهم من جنده ثمانمائة ألف رجل، ومن جند دارا ستمائة ألف رجل، وتقدم بهدم حصون فارس وبيوت النيران وقتل الهرابذة[1]، وأحرق كتبهم، واستعمل على مملكة فارس رجالاً، وسار قدمًا إلى أرض الهند فقتل ملكها وفتح مدنها وخرب بيوت الأصنام وأحرق كتب علومهم، ثم سار منها إلى الصين، فلما وصل إليها أتاه حاجبه في الليل وقال: هذا رسول ملك الصين، فأحضره فسلم وطلب الخلوة، ففتشوه فلم يروا معه شيئًا، فخرج من كان عند الإسكندر، فقال: أنا ملك الصين جئت أسألك عن الذي تريده، فإن كان مما يمكن عمله عملته وتركت الحرب.

فقال له الإسكندر: ما الذي آمنك مني؟ قال: علمت أنك عاقل حكيم ولم يكن بيني وبينك عداوة ولا ذحل[2]، وأنت تعلم أنك إن قتلتني لم يكن قتلي سببًا لتسليم أهل الصين ملكي إليك، ثم إنك تنسب إلى الغدر.

فعلم أنه عاقل فقال له: أريد منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً ونصف

(١) الهرابذة: خدم نار المجوس. «القاموس المحيط» (ص ٤٣٢).
(٢) الذحل: الثأر.

الارتفاع لكل سنة. قال: قد أجبتك ولكن اسألني كيف حالي؟ قال: كيف حالك؟ قال: أكون أول قتيل لمحارب وأول أكلة لمفترس. قال: فإن قنعت منك بارتفاع سنتين؟ قال: يكون حالي أصلح قليلاً. قال: فإن قنعت منك بارتفاع سنة؟ قال: يبقى ملكي وتذهب لذاتي. قال: وأنا أترك لك ما مضى وآخذ الثلث لكل سنة فكيف يكون حالك؟ قال: يكون السدس للفقراء والمساكين ومصالح البلاد، والسدس لي، والثلث للعسكر، والثلث لك. قال: قد قنعت منك بذلك. فشكره وعاد، وسمع العسكر بذلك ففرحوا بالصلح.

فلما كان الغد خرج ملك الصين بعسكر عظيم أحاط بعسكر الإسكندر، فركب الإسكندر والناس، فظهر ملك الصين على الفيل وعلى رأسه التاج، فقال له الإسكندر: أغدرت؟ قال: لا ولكني أردت أن تعلم أني لم أطعك من ضعف ولكني لما رأيت العالم العلوي مقبلاً عليك أردت طاعته بطاعتك والقرب منه بالقرب منك.

فقال له الإسكندر: لا يسام مثلك الجزية، فما رأيت بيني وبينك من يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك. فقال له ملك الصين: فلست تخسر، وبعث إليه بضعف ما كان قرره معه، وسار الإسكندر عنه من يومه ودانت له عامة الأرضين في الشرق والغرب وملك التبت وغيرها.

فلما فرغ من بلاد المغرب والمشرق وما بينهما قصد بلاد الشام، وملك تلك البلاد ودان له من بها من الأمم المختلفة إلى أن اتصل بديار يأجوج ومأجوج وقد اختلفت الأقوال فيهم، والصحيح أنهم نوع من الترك لهم شوكة وفيهم شر، وهم كثيرون، وكانوا يفسدون فيما يجاورهم من الأرض ويخربون ما قدروا عليه من البلاد ويؤذون من يقرب منهم. فلما رأى أهل تلك البلاد الإسكندر شكوا إليه من شرهم، كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾[1] وهما جبلان متقابلان لا يرتقي فيهما وليس لهما مخرج إلا من الفرجة التي بينهما فلما بلغ إلى تلك وقارب السدين ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[2].

(١) سورة الكهف (٩٢، ٩٣).

(٢) سورة الكهف (٩٣-٩٥).

يقول: ما مكنني فيه ربي خير من خرجكم، ولكن أعينوني بالقوة، والقوة الفعلة والصناع والآلة التي يبنى بها، فقال: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾(١)، أي قطع الحديد، فآتوه بها، فحفر الأساس حتى بلغ الماء، ثم جعل الحديد والحطب صفوفًا بعضها فوق بعض ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾(٢)، وهما جبلان، اشتعل النار في الحطب فحمي الحديد وأفرغ عليه القطر ـ وهو النحاس المذاب ـ فصار موضع الحطب وبين قطع الحديد، فبقي كأنه برد محبر من حمرة النحاس وسواد الحديد، وجعل أعلاه شرفًا من الحديد فامتنعت يأجوج ومأجوج من الخروج إلى البلاد المجاورة لهم. قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(٣).

فلما فرغ من أمر السد دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي، والشمس جنوبية، فلهذا كانت ظلمة، وإلا فليس في الأرض موضع إلا وتطلع الشمس عليه أبدًا. فلما دخل الظلمات أخذ معه أربعمائة من أصحابه يطلب عين الخلد، فسار فيها ثمانية عشر يومًا، ثم خرج ولم يظفر بها، وكان الخضر على مقدمته، فظفر بها وسبح فيها وشرب منها، والله أعلم.

ورجع إلى العراق فمات في طريقه بشهرزور(٤) بعلة الخوانيق، وكان عمره ستًا وثلاثين سنة في قول، ودفن في تابوت من ذهب مرصع بالجواهر وطلي بالصبر لئلا يتغير وحمل إلى أمه بالإسكندرية.

وكان ملكه أربع عشرة سنة، وقتل دارا في السنة الثالثة من ملكه. وبنى اثنتي عشرة مدينة، منها: أصبهان، وهي التي يقال لها جي، ومدينة هراة، ومرو، وسمرقند، وبنى بالسواد مدينة لروشنك ابنة دارا، وبأرض اليونان مدينة، وبمصر الإسكندرية.

فلما مات الإسكندر طاف به من معه من الحكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم، فكان يجمعهم ويستريح إلى كلامهم، فوقفوا عليه، فقال كبيرهم: ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيًا وللعامة واعظًا، ووضع يده على

---

(١) سورة الكهف (٩٦).

(٢) سورة الكهف (٩٦).

(٣) سورة الكهف (٩٧).

(٤) شهر زور: كورة في الجبال بين إربل وهمذان. «تاريخ البلدان» (٣/ ٤٢٥).

التابوت وقال: أصبح آسر الأسراء أسيراً. وقال آخر: هذا الملك كان يخبأ الذهب فقد صار الذهب يخبؤه. وقال آخر: ما أزهد الناس في هذا الجسد؟ وما أرغبهم في التابوت؟ وقال آخر: من أعجب العجب أن القوي قد غلب والضعفاء لاهون مغترون. وقال آخر: هذا الذي جعل أجله ضماراً أو جعل أمله عياناً، هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك، بل هلا حققت من أملك بالامتناع من وفور أجلك. وقال آخر: أيها الساعي المنتصب جمعت ما خذلك عند الاحتياج إليه فغودرت عليك أوزاره، وقارفت آثامه، فجمعت لغيرك وإثمه عليك. وقال آخر: قد كنت لنا واعظًا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك، فمن كان له معقول فليعقل، ومن كان معتبراً فليعتبر. وقال آخر: ربَّ هائب لك يخافك من ورائك وهو اليوم بحضرتك ولا يخافك. وقال آخر: رب حريص على سكوتك إذ لا تسكت، وهو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلم. وقال آخر: كم أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت. وقال آخر، وكان صاحب كتب الحكمة: قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك. وقال آخر: هذا يوم عظيم أقبل من شره ما كان مدبراً، وأدبر من خيره ما كان مقبلاً، فمن كان باكيًا على من زال ملكه فليبك. وقال آخر: يا عظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب، وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذباب. وقال آخر: يا من ضاقت عليه الأرض طولاً وعرضًا ليت شعري كيف حالك بما احتوى عليك منها! وقال آخر: اعجبوا ممن كان هذا سبيله كيف شهر نفسه بجمع الأموال الحطام البائد والهشيم النافذ؟ وقال آخر: أيها الجمع الحافل والملقى الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته، فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغي والفساد. وقال آخر: انظروا إلى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى وقال آخر يا من كان غضبه الموت هلا غضبت على الموت! وقال آخر: قد رأيتم هذا الملك الماضي فليتعظ به هذا الملك الباقي. وقال آخر: إن الذي كانت الآذان تنصت له قد سكت فليتكلم الآن كل ساكت. وقال آخر: سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته. وقال آخر: ما لك لا تقلّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقل بملك الأرض! بل ما لك لا ترغب عن ضيق المكان الذي أنت فيه وقد كنت ترغب عن رحب البلاد! وقال آخر: إن دنيا يكون هذا في آخرها فالزهد أولى أن يكون في أولها. وقال صاحب مائدته: قد فرشت النمارق ونضدت النضائد ولا أرى عميد القوم.

وقال صاحب بيت ماله: قد كنت تأمرني بالادخار فإلى من أدفع ذخائرك؟

وقال آخر: هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طويت منها سبعة أشبار ولو كنت بذلك موقنًا لم تحمل على نفسك في الطلب. وقالت زوجته روشنك: ما كنت أحسب أن غالب دارا يغلب، فإن الكلام الذي سمعت منكم فيه شماتة، فقد خلف الكأس الذي شرب منه ليشربه الجماعة. وقالت أمه حين بلغها موته: لئن فقدت من ابني أمره لم يفقد من قلبي ذكره.

فهذا كلام الحكماء فيه مواعظ وحكم حسنة فلهذا أثبتها.

ومن حيل الإسكندر في حروبه أنه لما حارب دارا خرج إلى بين الصفين وأمر مناديًا فنادى: يا معشر الفرس قد علمتم ما كتبتم إلينا وما كتبنا إليكم من الأمان، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل فإنه يرى منا الوفاء. فاتهمت الفرس بعضها بعضًا واضطربوا.

ومن حيله أنه تلقاه ملك الهند بالفيلة، فنفرت خيل أصحابه عنها، فعاد عنه وأمر باتخاذ فيلة من نحاس وألبسها السلاح وجعلها مع الخيل حتى ألفتها، ثم عاد إلى الهند، فخرج إليه ملك الهند، فأمر الإسكندر بتلك الفيلة فملئت بطونها من النفط والكبريت وجرت على العجل في وسط المعركة ومعها جمع من أصحابه، فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في تلك الفيلة، فلما حميت انكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند، فضربتها بخراطيمها فاحترقت وولت هاربة راجعة إلى الهند، فانهزموا بين يديها.

ومن حيله أنه نزل على مدينة حصينة وكان بها كثير من الأقوات وبها عيون ماء، فعاد عنها فأرسل إليها قومًا على هيئة التجار ومعهم أمتعة يبيعونها وأمرهم بمشترى الطعام والمغالاة في ثمنها، فإذا صار عندهم أحرقوه وهربوا. ففعلوا ذلك وهربوا إليه فأنفذ السرايا إلى سواد تلك المدينة وأمرهم بالغارة مرة بعد أخرى، فهربوا ودخلوا البلد ليحتموا به، فسار الإسكندر إليهم، فلم يمتنعوا عليه.

وكتب إلى أرسطاطاليس يذكر له أنه من خاصة الروم جماعة لهم همم بعيدة ونفوس كبيرة وشجاعة، وأنه يخافهم على نفسه ويكره قتلهم بالظنة. فكتب إليه أرسطاطاليس: فهمت كتابك، فإن ما ذكرت من بعد هممهم فإن الوفاء من بعد

الهمة وكبر النفس، والغدر من دناءة النفس وخبثها، وأما شجاعتهم ونقص عقولهم فمن كانت هذه حاله فرفهه في معيشته واخصصه بحسان النساء، فإن رفاهية العيش تميت الشجاعة وتحبب السلامة، وإياك والقتل فإنه ذلة لا تستقال وذنب لا يغفر، وعاقب بدون القتل تكن قادرًا على العفو، فما أحسن العفو من القادر، وليحسن خلقك تخلص لك النيات بالمحبة، ولا تؤثر نفسك على أصحابك، فليس مع الاستئثار محبة، ولا مع المواساة بغضة.

وكتب إلى أرسطاطاليس أيضًا لما ملك بلاد فارس يذكر أنه رأى بإيران شهر رجالاً ذوي رأي وصرامة وشجاعة وجمال وأنساب رفيعة، وإنه إنما ملكهم بالحظ والإنفاق، وأنه لا يأمن ـ إن سافر عنهم ففارقهم ـ وثوبهم وأنه لا يكفى شرهم ببوارهم.

فكتب إليه: قد فهمت كتابك في رجال فارس، فأما قتلهم فهو من الفساد والبغي الذي لا يؤمن عاقبته، ولو قتلهم لأثبت أهل البلد أمثالهم وصار جميع أهل البلد أعداءك بالطبع وأعداء عقبك لأنك تكون قد وترتهم في غير حرب، وأما إخراجك إياهم من عسكرك فمخاطرة بنفسك وأصحابك، ولكني أشير عليك برأي هو أبلغ من القتل، وهو أن تستدعي منهم أولاد الملوك ومن يصلح للملك فتقلدهم البلدان وتجعل كل واحد منهم ملكًا برأسه فتتفرق كلمتهم ويقع بأسهم بينهم ويجتمعون على الطاعة والمحبة لك ويرون أنفسهم صنيعتك.

ففعل الإسكندر ذلك، فهم ملوك الطوائف، وقيل في ملوك الطوائف غير هذا السبب، ونحن نذكره إن شاء الله.



ذكر من ملك من قومه بعد الإسكندر

لما مات الإسكندر عرض الملك على ابنه الإسكندروس، فأبى واختار العبادة، فملكت اليونان فيما قيل بطليموس بن لاغوس، وكان ملكه ثمانيًا وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس فيلادلفوس، وكان ملكه أربعين سنة، ثم ملك بعده بطليموس أورغاطس أربعًا وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطليموس فيلافطر إحدى وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطليموس أبيفانس اثنتين وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطليموس أورغاطس تسعًا وعشرين سنة، ثم ملك بعده بطليموس ساطر سبع عشرة سنة، ثم ملك بعده بطليموس الإخشدر إحدى عشرة سنة، ثم ملك بعده بطليموس الذي اختفى عن ملكه ثماني سنين، ثم ملكت بعده كليوباترا سبع عشرة سنة، وكانت من الحكماء، وهؤلاء كلهم من اليونان.

وكل من كان بعد الإسكندر كان يدعى بطليموس كما كانت تدعى ملوك فارس أكاسرة وملوك الروم قياصرة.

وقد ذكر بعض العلماء أن بطليموس صاحب المجسطي وغيره من الكتب لم يكن من هؤلاء الملوك، وإنما كان أيام ملوك الروم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثم ملك الشام فيما بعد كليوباترا ملوك الروم، فكان أول من ملك منهم جايوس يوليوس خمس سنين، ثم ملك بعده أغسطوس ستًّا وخمسين سنة، فلما مضى من ملكه اثنتان وأربعون سنة ولد عيسى بن مريم عليه السلام، وقيل: كان بين مولده وقيام الإسكندر ثلاثمائة وثلاث سنين.

ذكر أخبار ملوك الفرس بعد الإسكندر وهم ملوك الطوائف(١)

لما مات الإسكندر ملك بلاد الفرس بعده ملوك الطوائف، وقد تقدم ذكر السبب في تمليكهم. وقيل: كان السبب في ذلك أن الإسكندر لما ملك بلاد الفرس ووصل إلى ما أراد كتب إلى أرسطاطاليس الحكيم:

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٤١).

إني قد وترت جميع من في بلاد المشرق وقد خشيت أن يتفقوا بعدي على قصد بلادنا وإيذاء قومنا، وقد هممت أن أقتل أولاد من قتلت من الملوك وألحقهم بآبائهم، فما ترى؟

فكتب إليه إنك إن قتلت أبناء الملوك أفضى الملك إلى السفل والأنذال، والسفل إذا ملكوا قذروا وإذا قدروا طغوا وبغوا وظلموا، وما يخشى من معرتهم أكثر، والرأي أن تجمع أبناء الملوك فتملك كل واحد منهم بلداً واحداً وكورة واحدة، فإن كل واحد منهم يقوم في وجه الآخر يمنعه عن بلوغ غرضه خوفًا على ما بيده فتتولد العداوة بينهم فيشتغل بعضهم ببعض فلا يتفرغون إلى من بعد عنهم.

فعندها قسم الإسكندر بلاد المشرق على ملوك الطوائف ونقل عن بلدانهم النجوم والحكمة، وكان من حالهم بعد الإسكندر ما ذكره أرسطاطاليس، واشتغلوا عن قصد اليونان.

وكان أرسطاطاليس من أفضل الحكماء وأعلمهم، وكان الإسكندر يصدر عن رأيه وأخذ الحكمة عن أفلاطون تلميذ سقراط، وسقراط تلميذ أوسيلاوس في الطبيعيات دون غيرها ـ ومعناه رأس السباع ـ وكان أوسيلاوس تلميذ انكساغورس، إلا أن أرسطاطاليس خالف أستاذه في عدة مسائل، فلما قيل له في ذلك قال: «أفلاطون صديق والحق صديق، إلا أن الحق أولى بالصداقة منه».

وقد اختلف العلماء في الملك الذي كان بسواد العراق بعد الإسكندر وعدد ملوك الطوائف الذين ملكوا إقليم بابل، فقال هشام بن الكلبي وغيره: ملك بعد الإسكندر بلاقس سلبقس، ثم أنطيخس، وهو الذي بنى مدينة أنطاكية، وكان من أيدي هؤلاء الملوك سواد الكوفة أربعًا وخمسين سنة، وكانوا يتطرقون الجبال وناحية الأهواز وفارس.

ذكر ملك أشك بن أشكان[1]

ثم خرج رجل يقال له أشك، وهو من ولد دارا الأكبر، وكان مولده ومنشأه بالري، فجمع جمعًا كبيراً وسار يريد أنطيخس، وزحف إليه أنطيخس والتقيا ببلاد الموصل، فقتل أنطيخس وملك أشك السواد وصار بيده من الموصل إلى الري

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٤١).

وأصبهان، وعظمته سائر ملوك الطوائف لسنه وشرفه وفعله، وبدأوا به كتبهم، وسموه ملكًا من غير أن يعزل أحدًا منهم، ثم ملك بعده ابنه سابور بن أشك.

ذكر ملك جوذرز[1]

ثم ملك بعد سابور جودرز أشكان، وهو الذي غزا بني إسرائيل في المرة الثانية.

وسبب تسليط الله إياه عليهم قتلهم يحيى بن زكريا، فأكثر القتل فيهم، فلم يعد لهم جماعة كجماعتهم الأولى، ورفع الله منهم النبوة ونزل بهم الذل.

وقيل: إن الذي غزا بني إسرائيل طيطوس بن أسفيانوس ملك الروم فقتلهم وسباهم وخرب بيت المقدس، وقد كانت الروم غزت بلاد فارس يطلبون ثأر أنطيخس، وملك بابل حينئذ بلاش أبو أردوان الذي قتله أردشير بن بابك، فكتب بلاش إلى ملوك الطوائف يعلمهم ما أجمعت عليه الروم من غزو بلادهم وما حشدوا وجمعوا وأنه إن عجز عنهم ظفروا بهم جميعًا فوجه كل ملك من ملوك الطوائف إلى بلاش من الرجال والسلاح والمال بقدر قوته، فاجتمع عنده أربعمائة ألف رجل، فولى عليهم صاحب الحضر، وكان له ما بين السواد والجزيرة، فلقي الروم وقتل ملكهم واستباح عسكرهم، وذلك الذي هيج الروم على بناء القسطنطينية ونقل الملك من رومية إليها، وكان الذي أنشأها قسطنطين الملك، وهو أول من تنصر من ملوك الروم وأجلى من بقي من بني إسرائيل عن فلسطين والشام لقتلهم عيسى بزعمهم، وأخذ الخشبة التي يزعمون أنهم صلبوا المسيح عليها، فعظمها الروم وأدخلوها خزائنهم وهي عندهم إلى اليوم. ولم يزل ملك فارس متفرقًا حتى ملك أردشير بن بابك. ولم يبين هشام مدة ملكهم.

وقال غيره من أهل العلم بأخبار فارس: ملك بلادهم بعد الإسكندر ملوك من غير الفرس كانوا يطيعون كل من ملك بلاد الجبل، وهو الأشغانيون الذين يدعون ملوك الطوائف، وكان ملكهم مائتي سنة، وقيل: كان ملكهم ثلاثمائة وأربعين سنة، ملك من هذه السنين أشك بن أشكان عشرين سنة، ثم ابنه سابور ستين سنة، وفي إحدى وأربعين سنة من ملكه ظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: وإن تيطوس بن أسفيانوس ملك رومية غزا بيت المقدس بعد ارتفاع المسيح بنحو من

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٤٢).

أربعين سنة فملك المدينة وقتل وسبى وأخرب المدينة، ثم ملك جوذرز بن أشغان الأكبر عشر سنين ثم ملك بيرن الأشغاني إحدى وعشرين سنة، ثم ملك جودرز الأشغاني تسعًا وثمانين سنة، ثم ملك نرسي الأشغاني أربعين سنة، ثم ملك هرمز الأشغاني سبع عشرة سنة، ثم ملك أردوان الأشغاني اثنتين وعشرين سنة، ثم ملك كسرى الأشغاني أربعين سنة، ثم ملك بلاش الأشغاني أربعًا وعشرين سنة، ثم ملك أردوان الأصغر ثلاث عشرة سنة، ثم ملك أردشير بن بابك.

وقال بعضهم: ملك بلاد الفرس بعد الإسكندر ملوك الطوائف الذين فرق الإسكندر المملكة بينهم، وتفرد بكل ناحية من ملك عليها من حين ملكه عليها ما خلا السواد، فإنه كان أربعًا وخمسين سنة بعد هلاك الإسكندر في يد الروم، وكان في ملوك الطوائف رجل من نسل الملوك قد ملك الجبال وأصبهان، ثم غلب ولده بعد ذلك على السواد، وكانوا ملوكًا عليها، وعلى الماهات والجبال، وأصبهان كالرئيس على سائر ملوك الطوائف، لأن العادة جرت بتقديمه وتقديم ولده، ولذلك قصد لذكرهم في كتب سير الملوك، فاقتصرنا على ذكرهم دون غيرهم، فكانت مدة ملوك الطوائف مائتي سنة وستين سنة، وقيل: ثلاثمائة وأربعًا وأربعين سنة، وقيل: خمسمائة وثلاثًا وعشرين سنة، والله أعلم.

فمن الملوك الذين ملكوا الجبال ثم تهيأت بعد أولادهم الغلبة على السواد أشك ابن جزه، وهو من ولد إسفنديار بن بشتاسب في قول، وبعض الفرس زعم أن أشك بن دارا، قال بعضهم: أشك بن أشكان الكبير، هو من ولد كيكاووس، وكان ملكه عشرين سنة، ثم ملك بعده أشك ابنه إحدى وعشرين سنة، ثم ملك ابنه سابور ثلاثين سنة، ثم ملك ابنه جوذرز عشر سنين، ثم ملك ابنه تيري إحدى وعشرين سنة، ثم ملك ابنه جوذرز الأصغر تسع عشرة سنة، ثم ابنة نرسة أربعين سنة، ثم ملك هرمز بن بلاش بن أشكان سبع عشرة سنة، ثم أردوان الأكبر بن أشكان اثنتي عشرة سنة ثم كسرى بن أشكان أربعين سنة ثم أردوان الأصغر بن بلاش ثلاث عشرة سنة وكان أعظم ملوك الأشكانية وأظهرهم وأعزهم قهرًا للملوك، ثم ملك أردشير بن بابك وجمع مملكة الفرس على ما نذكره إن شاء الله. وقد عد بعضهم في أسماء الملوك غير ما ذكرنا لا حاجة إلى الإطالة بذكره، وقد ذكرنا بعض ما قيل عند ملك أردشير بن بابك.

* * *

ذكر الأحداث أيام ملوك الطوائف، فمن ذلك ذكر المسيح عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، عليهم السلام[1]

إنما جمعنا هذين الأمرين العظيمين في هذه الترجمة لتعلق أحدهما بالآخر، فنقول:

كان عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود، وكان آل ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم، وكان متزوجًا بحنة بنت فاقوذر، وكان زكريا بن برخيا متزوجًا بأختها إيشاع، وقيل: كانت إيشاع أخت مريم بنت عمران، وكانت حنة قد كبرت وعجزت ولم تلد ولدًا، فبينما هي في ظل شجرة أبصرت طائرًا يزق فرخًا له فاشتهت الولد فدعت الله أن يهب لها ولدًا ونذرت إن يرزقها ولدًا أن تجعله من سدنة بيت المقدس وخَدَمَته، فحررت ما في بطنها، ولم تعلم ما هو، وكان النذر المحرر عندهم أن يجعل للكنيسة يقوم بخدمتها ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ خير، فإن أحب أن يقيم بها أقام، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء. ولم يكن يحرر إلا الغلمان، لأن الإناث لا يصلحن لذلك لما يصيبهن من الحيض والأذى ثم هلك عمران وحنة حامل بمريم، فلما وضعتها إذا هي أنثى فقالت عند ذلك ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[2] في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[3]، وهي بلغتهم العبادة، ثم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم يلون من بيت المقدس ما يلي بنو شيبة من الكعبة. فقالت: دونكم هذه المنذورة فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم. فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي. فقالوا: لكنا نقترع عليها. فألقوا أقلامهم في نهر جار ـ قيل هو نهر الأردن، فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة ـ فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فأخذها وكفلها وضمها إلى خالتها أم يحيى واسترضع لها حتى كبرت، فبنى لها غرفة في المسجد لا يرقى إليها إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره، وكان يجد

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٤٥).
(٢)، (٣) سورة آل عمران (٣٦).

عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فيقول: أنى لك هذا؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١).

فلما رأى زكريا ذلك منها دعا الله تعالى ورجا الولد حيث رأى فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فقال: إن الذي فعل هذا بمريم قادر على أن يصلح زوجتي حتى تلد. فـ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٢).

فبينما هو يصلي في المذبح الذي لهم إذا هو برجل شاب، هو جبريل، ففزع زكريا منه، فقال له: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾(٣)، يعني عيسى بن مريم، عليه السلام، ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه، وذلك أن أمه كانت حاملاً به فاستقبلت مريم وهي حامل بعيسى فقالت لها: يا مريم أحامل أنت؟ فقالت: لماذا تسأليني؟

فقالت إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، فذلك تصديقه.

وقيل: صدق المسيح عليه السلام، وله ثلاث سنين، وسماه الله تعالى يحيى ولم يكن قبله من تسمى هذا الاسم، قال الله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾(٤). وقال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(٥). قيل: أوحش ما يكون ابن آدم في هذه الأيام الثلاثة، فسلمه الله تعالى من وحشتها، وإنما ولد يحيى قبل المسيح بثلاث سنين، وقيل بستة أشهر، وكان لا يأتي النساء، ولا يلعب مع الصبيان.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾(٦) وكان عمره اثنتين وتسعين سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة، وكانت امرأته ابنة ثمان وتسعين سنة. فقيل له: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(٧). وإنما قال ذلك استخباراً هل يرزق الولد من امرأته العاقر أم غيرها، لا إنكاراً لقدرة الله تعالى. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا

(١) سورة آل عمران (٣٧).
(٢) سورة آل عمران (٣٨).
(٣) سورة آل عمران (٣٩).
(٤) سورة مريم (٧).
(٥) سورة مريم (١٥).
(٦) سورة آل عمران (٤٠).
(٧) سورة آل عمران (٤٠).

﴿تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾[١]. قال: أمسك الله لسانه عقوبة لسؤاله الآية، والرمز الإشارة.

فلما ولد رآه أبوه حسن الصورة، قليل الشعر، قصير الأصابع، مقرون الحاجبين، دقيق الصوت، قويًا في طاعة الله مذ كان صبيًا، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٢]. قيل: إنه قال له يومًا الصبيان أمثاله: يا يحيى اذهب بنا نلعب. فقال لهم: ما للعب خلقت.

وكان يأكل العشب وأوراق الشجر، وقيل كان يأكل خبز الشعير، ومر به إبليس ومعه رغيف شعير فقال: أنت تزعم أنك زاهد وقد ادخرت رغيف شعير؟ فقال يحيى: يا ملعون هو القوت. فقال إبليس: إن الأقل من القوت يكفي لمن يموت. فأوحى الله إليه: اعقل ما يقول لك.

ونبئ صغيراً فكان يدعو الناس إلى عبادة الله، ولبس الشعر، فلم يكن له دينار ولا درهم ولا مسكن يسكن إليه، أينما جنه الليل أقام، ولم يكن له عبد ولا أمة، واجتهد في العبادة، فنظر يومًا إلى بدنه وقد نحل فبكى، فأوحى الله إليه يا يحيى أتبكي لما نحل من جسمك؟ وعزتي وجلالي لو اطلعت في النار اطلاعة لتدرعت الحديد عوض الشعر! فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين.

فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبل زكريا ومعه الأحبار فقال: يا بني ما يدعوك إلى هذا؟ قال: أنت أمرتني بذلك حيث قلت: إن بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلا البكاؤن من خشية الله. فقال: فابك واجتهد إذن. فصنعت له أمه قطعتي لبد على خديه تواريان أضراسه، فكان يبكي حتى يبلهما، وكان زكريا إذا أراد أن يعظ الناس نظر فإن كان يحيى حاضراً لم يذكر جنة ولا ناراً.

وبعث الله عيسى رسولاً نسخ بعض أحكام التوراة، فكان مما نسخ أنه حرم نكاح بنت الأخ، وكان لملكهم، واسمه هيرودس، بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها، فنهاه يحيى عنها، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها لها فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا سألك الملك ما حاجتك فقولي أن تذبح يحيى بن زكريا. فلما دخلت عليه وسألها ما حاجتك؟ قالت: أريد أن تذبح يحيى بن زكريا. فقال: اسألي غير هذا. قالت: ما

(١) سورة آل عمران (٤١).

(٢) سورة مريم (١٢).

أسألك غيره. فلما أبت دعا يحيى ودعا بطست فذبحه، فلما رأت الرأس قالت: اليوم قرت عيني! فصعدت إلى سطح قصرها فسقطت منه إلى الأرض ولها كلاب ضارية تحته، فوثبت الكلاب عليها فأكلتها وهي تنظر، وكان آخر ما أكل منها عيناها لتعتبر. فلما قتل بذرت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر عليهم فجاءته امرأة فدلته على ذلك الدم، فألقى الله في قلبه أن يقتل منهم على ذلك الدم حتى يسكن، فقتل منهم سبعين ألفًا حتى سكن الدم.

وقال السدي نحو هذا، غير أنه قال: أراد الملك أن يتزوج بنت امرأة له، فنهاه يحيى عن ذلك، فطلبت المرأة من الملك قتل يحيى، فأرسل إليه فقتله وأحضر رأسه في طست وهو يقول له: لا تحل لك، فبقي دمه يغلي، فطرح عليه تراب حتى بلغ سور المدينة، فلم يسكن الدم. فسلط الله عليهم بختنصر في جمع عظيم فحصرهم فلم يظفر بهم، فأراد الرجوع فأتته امرأة من بني إسرائيل فقالت: بلغني أنك تريد العود! قال: نعم، قد طال المقام وجاع الناس وقلت الميرة بهم وضاق عليهم. فقالت: إن فتحت لك المدينة أتقتل من آمرك بقتله وتكف إذا أمرتك؟

قال: نعم. قالت: اقسم جندك أربعة أقسام على نواحي المدينة، ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء وقولوا: اللهم إنا نستفتحك على دم يحيى بن زكريا، ففعلوا، فخرب سور المدينة، فدخلوها، فأمرتهم العجوز أن يقتلوا على دم يحيى بن زكريا حتى يسكن، فلم يزل يقتل حتى قتل سبعين ألفًا وسكن الدم، فأمرته بالكف، وكف.

وخرب بيت المقدس، وأمر أن تلقى فيه الجيف، وعاد معه دانيال وغيره من وجوه بني إسرائيل، منهم عزريا وميشائيل ورأس الجالوت. فكان دانيال أكرم الناس عليه، فحسدهم المجوس وسعوا بهم إلى بختنصر، وذكر نحو ما تقدم من إلقائهم إلى السبع ونزول الملك عليهم ومسخ بختنصر ومقامه في الوحش سبع سنين.

وهذا القول وما لم نذكره من الروايات من أن بختنصر هو الذي خرب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا باطل عند أهل السير والتاريخ وأهل العلم بأمور الماضين، وذلك أنهم أجمعين مجمعون على أن بختنصر غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيا في عهد أرميا بن حلقيا، وبين عهد أرميا وقتل يحيى أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة عند اليهود والنصارى، ويذكرون أن ذلك في كتبهم وأسفارهم مبين، وتوافقهم المجوس في مدة غزو بختنصر بني إسرائيل إلى

موت الإسكندر، وتخالفهم في مدة ما بين موت الإسكندر ومولد يحيى، فيزعمون أن مدة ذلك كانت إحدى وخمسين سنة.

وأما ابن إسحاق فإنه قال: الحق أن بني إسرائيل عمروا بيت المقدس بعد مرجعهم من بابل وكثروا ثم عادوا يحدثون الأحداث ويعود الله سبحانه وتعالى عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقًا يكذبون وفريقًا يقتلون، حتى كان آخر من بعث الله فيهم زكريا وابنه يحيى وعيسى بن مريم، عليهم السلام، فقتلوا يحيى وزكريا، فابتعث الله عليهم ملكًا من ملوك بابل يقال له: جودرس، فسار إليهم حتى دخل عليهم الشام، فلما دخل عليهم بيت المقدس قال لقائد عظيم من عسكره اسمه نبوزاذان، وهو صاحب الفيل: إني كنت حلفت لئن أنا ظفرت ببني إسرائيل لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلا أن لا أجد من أقتله، وأمره أن يدخل المدينة ويقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل نبوزاذان المدينة فأقام في المدينة التي يقربون فيها قربانهم، فوجد فيها دمًا يغلي، فقال: يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟ فقالوا: هذا دم قربان لنا لم يقبل فلذلك هو يغلي. فقال: ما صدقتموني الخبر! فقالوا: إنه قد انقطع منا الملك والنبوة فلذلك لم يقبل منا. فذبح منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤوسهم، فلم يهدأ، فأمر بسبعمائة من علمائهم فذبحوا على الدم، فلم يهدأ.

فلما رأى الدم لا يبرد قال لهم: يا بني إسرائيل اصدقوني واصبروا على أمر ربكم، فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون ما شئتم، قبل أن لا أدع منكم نافخ نار أنثى ولا ذكرًا إلا قتلته. فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر وقالوا: هذا دم نبي كان ينهانا عن كثير مما يسخط الله ويخبرنا بخبركم، فلم نصدقه وقتلناه فهذا دمه.

فقال: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا. قال: الآن صدقتموني، لمثل هذا انتقم ربكم منكم، وخر ساجدًا وقال لمن حوله: أغلقوا أبواب المدينة واخرجوا من ههنا من جيش جودرس. ففعلوا، وخلا في بني إسرائيل ثم قال للدم: يا يحيى قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم، فاهدأ بإذن الله قبل أن لا يبقى من قومك أحد. فسكن الدم، ورفع نبوزاذان القتل، وقال: آمنت بما آمنت بنو إسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لا رب غيره.

ثم قال لبني إسرائيل: إن جودرس أمرني أن أقتل فيكم حتى تسيل دماؤكم في

عسكره، ولست أستطيع أن أعصيه. قالوا: افعل. فأمرهم أن يحفروا حفيرة، وأمر بالخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والإبل فذبحها حتى كثر الدم وأجرى عليه ماء، فسال الدم في العسكر، فأمر بالقتلى الذين كان قتلهم، فألقوا فوق المواشي، فلما نظر جودرس إلى الدم قد بلغ عسكره أرسل إلى نبوزاذان: أن ارفع القتل عنهم فقد انتقمت منهم بما فعلوا، وهي الوقعة الأخيرة التي أنزل الله ببني إسرائيل، يقول الله تعالى لنبيه محمد، ﷺ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[1]، وعسى: وعد من الله حق. وكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده، ثم رد الله سبحانه لهم الكرة، ثم كانت الوقعة الأخيرة جودرس وجنوده، وكانت أعظم الوقعتين، فيها كان خراب بلادهم وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[2].

وزعم بعض أهل العلم أن قتل يحيى كان أيام أردشير بن بابك، وقيل: كان قتله قبل رفع المسيح عليه السلام، بسنة ونصف، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الإسراء (٤-٨).
(٢) سورة الإسراء (٧).

ذكر قتل زكريا

لما قتل يحيى وسمع أبوه بقتله فر هاربًا فدخل بستانًا عند بيت المقدس فيه أشجار، فأرسل الملك في طلبه، فمر زكريا بالشجرة. فنادته: هلم إلي يا نبي الله! فلما أتاها انشقت فدخلها، فانطبقت عليه وبقي في وسطها. فأتى عدو الله إبليس فأخذ هدب ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم، ثم لقي الطلب فأخبرهم، فقال لهم: ما تريدون؟ فقالوا: نلتمس زكريا. فقال: إنه سَحَرَ هذه الشجرة فانشقت له فدخلها. قالوا لا نصدقك! قال: فإن لي علامة تصدقوني بها، فأراهم طرف ردائه، فأخذوا الفؤوس وقطعوا الشجرة اثنتين وشقوها بالمنشار، فمات زكريا فيها، فسلط الله عليهم أخبث أهل الأرض فانتقم به منهم.

وقيل: إن السبب في قتله أن إبليس جاء إلى مجالس بني إسرائيل فقذف زكريا بمريم وقال لهم: ما أحبلها غيره، وهو الذي كان يدخل عليها، فطلبوه فهرب، وذكر من دخوله الشجرة نحو ما تقدم.

* * *

ذكر ولادة المسيح عليه السلام ونبوته إلى آخر أمره[1]

كانت ولادة المسيح أيام ملوك الطوائف. قالت المجوس: كان ذلك بعد خمس وستين من سنة غلبة الإسكندر على أرض بابل، وبعد إحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين.

وقالت النصارى: إن ولادته كانت لمضي ثلاثمائة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الإسكندر على أرض بابل، وزعموا أن مولد يحيى كان قبل مولد المسيح بستة أشهر، وأن مريم عليها السلام حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ـ وقيل خمس عشرة، وقيل: عشرون ـ وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأيامًا، وأن مريم عاشت بعده ست سنين، فكان جميع عمرها إحدى وخمسين سنة، وأن يحيى قتل قبل أن يرفع المسيح، وأتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة.

وقد ذكرنا حال مريم في خدمة الكنيسة، وكانت هي وابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار يليان خدمة الكنيسة، وكان يوسف حكيمًا نجارًا يعمل بيديه ويتصدق بذلك. وقالت النصارى: إن مريم كان قد تزوجها يوسف ابن عمها إلا أنه لم يقربها إلا بعد رفع المسيح، والله أعلم.

وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف ابن عمها أخذ كل واحد منهما قلته وانطلق إلى المغارة التي فيها الماء يستعذبان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة، فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبريل نفذ ماؤها فقالت ليوسف: ليذهب معها إلى الماء، فقال: عندي من الماء ما يكفيني إلى غد، فأخذت قلتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة، فوجدت جبريل قد مثله الله ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، فقال لها:

يا مريم إن الله قد بعثني إليك ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾[2]. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[3] أي مطيعًا لله، وقيل: هو اسم رجل بعينه، وتحسبه رجلاً، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٤٩).
(٢) سورة مريم (١٩).
(٣) سورة مريم (١٨).

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[(١)] أي زانية ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾، إلى قوله ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[(٢)].

فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله، ونفخ في جيب درعها ثم انصرف عنها وقد حملت بالمسيح، وملأت قلتها وعادت، وكان لا يعلم في أهل زمانها أعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار، وكان معها، وهو أول من أنكر حملها، فلما رأى الذي بها استعظمه ولم يدر على ماذا يضع ذلك منها، فإذا أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي بها، فلما اشتد ذلك عليه كلمها فكان أول كلامه لها أن قال لها: إنه قد وقع من أمرك شيء قد حرصت على أن أميته وأكتمه فغلبني. فقالت: قل قولاً جميلاً. فقال: حدثيني هل ينبت زرع بغير بذر؟ قالت: نعم. قال: فهل ينبت شجر بغير غيث يصيبه؟ قالت: نعم. قال: فهل يكون ولد بغير ذكر؟ قالت له: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر! ألم تعلم أن الله خلق الشجر من غير مطر! وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعدما خلق كل واحد منهما وحده! أو تقول لن يقدر الله على أن ينبت حتى يستعين بالبذر والمطر.

قال يوسف: لا أقول هكذا ولكني أقول: إن الله يقدر على ما يشاء، أنما يقول: لذلك كن فيكون. قالت له: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى؟ قال: بلى، فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله لا يسعه أن يسألها عنه لما رأى من كتمانها له، وقيل: إنها خرجت إلى جانب الحجرات لحيض أصابها فاتخذت من دونهم حجابًا من الجدران، فلما طهرت إذا برجل معها، وذكر الآيات، فلما حملت أتتها خالتها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: إني حبلى. فقالت لها مريم: وأنا أيضًا حبلى. قالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك. وولدت امرأة زكريا يحيى.

وقد اختلف العلماء في مدة حملها، فقيل: تسعة أشهر، وهو قول النصارى، وقيل ثمانية أشهر، فكان ذلك آية آخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غيره،

(١) سورة مريم (١٩، ٢٠).
(٢) سورة مريم (٢١).

وقيل: ستة أشهر، وقيل ثلاث ساعات، وقيل: ساعة واحدة، وهو أشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[١]، عقبه بالفاء.

فلما أحست مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي فأتت أقصاه ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ﴾[٢] وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٣]، تعني نسي ذكري وأثري فلا يرى لي أثر ولا عين. قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وحدثته، فإذا كان عندنا إنسان سمعت تسبيحه في بطني. ﴿فَنَادَاهَا﴾ جبريل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي من أسفل الجبل ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[٤] وهو النهر الصغير، أجراه تحتها، فمن قرأ: من تحتها، بكسر الميم، جعل المنادي جبريل، ومن فتحها قال إنه عيسى، أنطقه الله، ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[٥]، كان جذعًا مقطوعًا فهزته فإذا هو نخلة، وقيل: كان مقطوعًا فلما أجهدها الطلق احتضنته فاستقام واخضر وأرطب، فقيل لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فهزته فتساقط الرطب فقال لها: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[٦]، وكان من صام في ذلك الزمان لا يتكلم حتى يمسي.

فلما ولدته ذهب إبليس فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت، فأقبلوا يشتدون بدعوتها، ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾[٧]. وقيل: إن يوسف النجار تركها في المغارة أربعين يومًا ثم جاء بها إلى أهلها، فلما رأوها قالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٨] فما بالك أنت؟ وكان من نسل هارون أخي موسى، كذا قيل.

قلت: إنها ليست من نسل هارون إنما هي من سبط يهوذا بن يعقوب من نسل

---

(١) سورة مريم (٢٢).
(٢) سورة مريم (٢٣).
(٣) سورة مريم (٢٣).
(٤) سورة مريم (٢٤)
(٥) سورة مريم (٢٥).
(٦) سورة مريم (٢٦).
(٧) سورة مريم (٢٧).
(٨) سورة مريم (٢٧، ٢٨).

سليمان بن داود، وإنما كانوا يدعون بالصالحين، وهارون من ولد لاوي بن يعقوب.

قالت لهم: ما أمرها الله به بعد ذلك، فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾(١)، فغضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(٢).

فتكلم عيسى فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(٣). فكان أول ماتكلم به العبودية ليكون أبلغ في الحجة على من يعتقد أنه إله.

وكان قومها قد أخذوا الحجارة ليرجموها، فلما تكلم ابنها تركوها. ثم لم يتكلم بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان.

وقال بنو إسرائيل: ما أحبلها غير زكريا فإنه هو الذي كان يدخل عليها ويخرج من عندها، فطلبوه ليقتلوه، ففر منهم، ثم أدركوه فقتلوه. وقيل في سبب قتله غير ذلك، وقد تقدم ذكره.

وقيل: إنه لما دنا نفاسها أوحى الله إليها: أن اخرجي من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بك عيروك وقتلوك وولدك.

فاحتملها يوسف النجار وسار بها إلى أرض مصر، فلما وصلا إلى تخوم مصر أدركها المخاض، فلما وضعت وهي محزونة قيل لها: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾، الآية إلى ﴿إنسيًا﴾، فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء، وأصبحت الأصنام منكوسة على رؤوسها، وفزعت الشياطين فجاؤوا إلى إبليس، فلما رأى جماعتهم سألهم فأخبروه، فقال: قد حدث في الأرض حادث، فطار عند ذلك وغاب عنهم فمر بالمكان الذي ولد فيه عيسى فرأى الملائكة محدقين به، فعلم أن الحدث فيه، ولم تمكنه الملائكة من الدنو من عيسى، فعاد إلى أصحابه وأعلمهم بذلك وقال لهم: ما ولدت امرأة إلا وأنا حاضر، وإني لأرجو أن أضل به أكثر ممن يهتدي،

(١) سورة مريم (٢٩).
(٢) سورة مريم (٢٩)
(٣) سورة مريم (٣٠-٣١).

واحتملته مريم إلى أرض مصر فمكثت اثنتي عشرة سنة تكتمه من الناس، فكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبيها.

قلت: والقول، وقوله الأول في ولادته بأرض قومها للقرآن أصح لقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾[1]، وقوله ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[2].

وقيل: إن مريم حملت المسيح إلى مصر بعد ولادته ومعها يوسف النجار، وهي الربوة التي ذكرها الله تعالى، وقيل: الربوة دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقيل غير ذلك، فكان سبب ذلك الخوف من ملك بني إسرائيل، وكان من الروم، واسمه هيرودس، فإن اليهود أغروه بقتله، فساروا إلى مصر وأقاموا بها اثنتي عشرة سنة إلى أن مات ذلك الملك، وعادوا إلى الشام، وقيل: إن هيرودس لم يرد قتله ولم يسمع به إلا بعد رفعه، وإنما خافوا اليهود عليه، والله أعلم.

ذكر نبوة المسيح وبعض معجزاته[3]

لما كانت مريم بمصر نزلت على دهقان، وكانت داره يأوي إليها الفقراء والمساكين، فسرق له مال، فلم يتهم المساكين، فحزنت مريم فلما رأى عيسى حزن أمه قال: أتريدين أن أدله على ماله؟ قالت: نعم. قال: إنه أخذه الأعمى والمقعد، اشتركا فيه، حمل الأعمى المقعد فأخذه، فقيل للأعمى ليحمل المقعد، فأظهر العجز، فقال له المسيح: كيف قويت على حمله البارحة لما أخذتما المال؟ فاعترفا وأعاداه.

ونزل بالدهقان أضياف ولم يكن عندهم شراب، فاهتم لذلك، فلما رآه عيسى دخل بيتًا للدهقان فيه صفان من جرار فأمَرَّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشي، فامتلأت شرابًا، وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة، وكان في الكُتَّاب يحدث الصبيان بما يصنع أهلوهم وبما كانوا يأكلون.

قال وهب: بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبي فضربه برجله فقتله فألقاه بين رجلي المسيح متلطخًا بالدم، فانطلقوا به إلى الحاكم في ذلك البلد فقالوا: قتل صبيًا، فسأله الحاكم، فقال: ما قتلته. فأرادوا أن يبطشوا به، فقال:

(١) سورة مريم (٢٧).
(٢) سورة مريم (٢٩).
(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٥١).

ائتوني بالصبي حتى أسأله من قتله، فتعجبوا من قوله وأحضروا عنده القتيل، فدعا الله فأحياه، فقال: من قتلك؟ فقال: قتلني فلان، يعني الذي قتله. فقال بنو إسرائيل للقتيل: من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم، ثم مات الغلام من ساعته.

وقال عطاء: سلمت مريم عيسى إلى صباغ يتعلم عنده، فاجتمع عند الصباغ ثياب وعرض له حاجة، فقال للمسيح: هذه ثياب مختلفة الألوان وقد جعلت في كل ثوب منها خيطًا على اللون الذي يصبغ به فاصبغها حتى أعود من حاجتي هذه.

فأخذها المسيح وألقاها في جب واحد، فلما عاد الصباغ سأله عن الثياب فقال: صبغتها. فقال: أين هي؟ قال: في هذا الجب، فقال: كلها؟ قال: نعم. قال: لقد أفسدتها على أصحابها ـ وتغيظ عليه. فقال له المسيح: لا تعجل وانظر إليها ـ وقام وأخرجها كل ثوب منها على اللون الذي أراد صاحبه، فتعجب الصباغ منه وعلم أن ذلك من الله تعالى.

ولما عاد عيسى وأمه إلى الشام نزلا بقرية يقال لها «ناصرة»، وبها سميت النصارى، فأقام إلى أن بلغ ثلاثين سنة، فأوحى الله إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى الله تعالى ويداوي المرضى والزمنى(١) والأكمه(٢) والأبرص وغيرهم من المرضى، ففعل ما أمر به، وأحبه الناس، وكثر أتباعه وعلا ذكره.

وحضر يومًا طعام بعض الملوك وكان دعا الناس إليه، فقعد على قصعة يأكل منها ولا تنقص، فقال الملك: من أنت؟ قال: أنا عيسى بن مريم. فنزل الملك عن ملكه واتبعه في نفر من أصحابه فكانوا الحواريين.

وقيل: إن الحواريين هم الصباغ الذي تقدم ذكره وأصحاب له، وقيل: كانوا صيادين، وقيل: قصَّارين، وقيل: ملاحين، والله أعلم. وكانت عدتهم اثني عشر رجلاً، وكانوا إذا جاعوا أو عطشوا قالوا: يا روح الله قد جعنا وعطشنا، فيضرب يده إلى الأرض فيخرج لكل إنسان منهم رغيفين وما يشربون. فقالوا: من أفضل منا؟ إذا شئنا أطعمتنا وسقيتنا! فقال: أفضل منكم من يأكل من كسب يده، فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة.

ولما أرسله الله أظهر من المعجزات أنه صوّر من طين صورة طائر ثم نفخ فيه

---

(١) الزمن: المريض الذي اشتد مرضه.

(٢) الأكمه: الأعمى.

فيصير طائرًا بإذن الله، قيل هو الخفاش، وكان غالبًا على زمانه الطب فأتاهم بما أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى تعجيزًا لهم، فممن أحياه عازر، وكان صديقًا لعيسى، فمرض، فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازرًا يموت، فسار إليه وبينهما ثلاثة أيام، فوصل إليه وقد مات منذ ثلاثة أيام فأتى قبره فدعا له فعاش، وبقي حتى ولد له.

وأحيا امرأة وعاشت وولد لها. وأحيا سام بن نوح، كان يومًا مع الحواريين يذكر نوحًا والغرق والسفينة فقالوا: لو بعثت لنا من شهد ذلك! فأتى تلاً وقال: هذا قبر سام بن نوح، ثم دعا الله فعاش، وقال: قد قامت القيامة؟ فقال المسيح: لا ولكن دعوت الله فأحياك، فسألوه فأخبرهم، ثم عاد ميتًا. وأحيا عزيرًا النبي، قال له بنو إسرائيل: أحي لنا عزيرًا وإلا أحرقناك. فدعا الله فعاش، فقالوا: ما تشهد لهذا الرجل؟ قال: أشهد أنه عبد الله ورسوله. وأحيا يحيى بن زكريا. وأحيا غير من ذكرناه، وكان يمشي على الماء.

ذكر نزول المائدة

وكان من المعجزات العظيمة نزول المائدة، وسبب ذلك: أن الحواريين قالوا له: يا عيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[(١)] فدعا عيسى فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾[(٢)].

فأنزل الله المائدة عليها خبز ولحم يأكلون منها ولا تنفد، فقال لهم: إنها مقيمة ما لم تذخروا منها. فما مضى يومهم حتى ادخروا. وقيل: أقبلت الملائكة تحمل المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم، وقيل: كان عليها من ثمار الجنة، وقيل: كانت تمد بكل طعام إلا اللحم، وقيل: كانت سمكة فيها طعم كل شيء، فلما أكلوا منها، وهم خمسة آلاف، وزادت حتى بلغ الطعام ركبهم، قالوا: نشهد أنك رسول الله، ثم تفرقوا فتحدثوا بذلك. فكذب به من لم يشهده، وقالوا: سحر أعينكم، فافتتن بعضهم وكفر، فمسخوا خنازير ليس فيهم امرأة ولا صبي، فبقوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا ولم يتوالدوا.

وقيل: كانت المائدة سفرة حمراء تحتها غمامة وفوقها غمامة وهم ينظرون إليها

---

(١) سورة المائدة (١١٢).

(٢) سورة المائدة (١١٤).

تنزل حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين! اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ولا عقوبة! واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله ولم يجدوا ريحًا أطيب من ريحها.

فقال شمعون: يا روح الله أمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الجنة؟ فقال المسيح: لا من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، إنما هو شيء خلقه الله بقدرته. فقال لهم: كلوا مما سألتم. فقالوا له: كل أنت يا روح الله. فقال: معاذ الله أن آكل منها! فلم يأكل ولم يأكلوا منها، فدعا المرضى والزمنى والفقراء، فأكلوا منها، وهم ألف وثلاثمائة، فشبعوا، وهي بحالها لم تنقص، فصح المرضى والزمنى، واستغنى الفقراء، ثم صعدت وهم ينظرون إليها حتى توارت، وندم الحواريون حيث لم يأكلوا منها.

وقيل: إنها نزلت أربعين يومًا، كانت تنزل يومًا وتنقطع يومًا، وأمر الله عيسى أن يدعو إليها الفقراء دون الأغنياء، ففعل ذلك، فاشتد على الأغنياء وجحدوا نزولها وشكوا في ذلك وشككوا غيرهم فيها، فأوحى الله إلى عيسى: إني شرطت أن أعذب المكذبين عذابًا لا أعذب به أحدًا من العالمين، فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين رجلاً فأصبحوا خنازير. فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى وبكوا وبكى عيسى على الممسوخين. فلما أبصرت الخنازير عيسى بكوا وطافوا وهو يدعوهم بأسمائهم ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

ذكر رفع المسيح إلى السماء ونزوله إلى أمه وعوده إلى السماء

قيل: إن عيسى استقبله ناس من اليهود، فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة الفاعل ابن الفاعلة! وقذفوه وأمه، فسمع ذلك ودعا عليهم، فاستجاب الله دعاء ومسخهم خنازير، فلما رأى ذلك رأس بني إسرائيل فزع وخاف وجمع كلمة اليهود على قتله، فاجتمعوا عليه، فسألوه، فقال: يا معشر اليهود إن الله يبغضكم، فغضبوا من مقالته وثاروا إليه ليقتلوه، فبعث إليه جبريل فأدخله في خوخة إلى بيت فيها روزنة[1] في سقفها فرفعه إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر رأس اليهود رجلاً من أصحابه اسمه نطليانوس أن يدخل إليه فيقتله. فدخل فلم ير أحدًا، وألقى الله عليه شبه المسيح، فخرج إليهم فظنوه عيسى، فقتلوه وصلبوه.

(١) الروزنة: الكوة.

وقيل: إن عيسى قال لأصحابه: أيكم يريد أن يلقى عليه شبهي وهو مقتول؟ فقال رجل منهم: أنا يا روح الله. فألقي عليه شبهه، فقتل وصلب. وقيل: إن الذي شبه بعيسى وصلب رجل إسرائيلي اسمه يوشع أيضًا.

وقيل: لما أعلم الله المسيح أنه خارج من الدنيا جزع من الموت فدعا الحواريين فصنع لهم طعامًا فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة.

فلما اجتمعوا عَشَّاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا أخذ يغسل أيديهم بيده ويمسحها بثيابه، فتعاظموا ذلك وكرهوه. فقال: من يرد علي الليلة شيئًا مما أصنع فليس مني، فأقروه حتى فرغ من ذلك، ثم قال: أما ما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة فلا يتعاظم بعضكم على بعض، وأما حاجتي التي أستعينكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء أخذهم النوم حتى ما يستطيعون الدعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله ما تصبرون لي ليلة؟ قالوا: والله ما ندري ما لنا، لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نقدر عليه الليلة، وكلما أردنا الدعاء حيل بيننا وبينه. فقال: يذهب بالراعي ويفترق الغنم، وجعل ينعى نفسه، ثم قال: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني. فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأخذوا شمعون ـ أحد الحواريين ـ وقالوا: هذا صاحبه.

واختلف العلماء في موته قبل رفعه إلى السماء، فقيل: رفع ولم يمت، وقيل: توفاه الله ثلاث ساعات وقيل سبع ساعات، ثم أحياه ورفعه، ولما رفع إلى السماء قال الله له: انزل، فلما قالوا لشمعون عن المسيح جحد وقال: ما أنا بصاحبه! فتركوه. فعلوا ذلك ثلاثًا. فلما سمع صياح الديك بكى وأحزنه ذلك.

وأتى أحد الحواريين إلى اليهود فدلهم على المسيح وأعطوه ثلاثين درهمًا فأتى معهم إلى البيت الذي فيه المسيح، فدخله، فرفع الله المسيح وألقى شبهه على الذي دلهم عليه، فأخذوه وأوثقوه وقادوه وهم يقولون له: أنت كنت تحيي الموتى وتفعل كذا وكذا فهلا تنجي نفسك؟ وهو يقول: أنا الذي دللتكم عليه، فلم يصغوا إلى قوله ووصلوا به إلى الخشبة وصلبوه عليها.

وقيل: إن اليهود لما دلهم عليه الحواري اتبعوه وأخذوه من البيت الذي كان فيه ليصلبوه، فأظلمت الأرض، وأرسل الله ملائكة فحالوا بينهم وبينه، وألقى شبه

المسيح على الذي دلهم عليه، فأخذوه ليصلبوه، فقال: أنا الذي دللتكم عليه، فلم يلتفتوا إليه فقتلوه وصلبوه عليها.

ورفع الله المسيح إليه بعد أن توفاه ثلاث ساعات، وقيل: سبع ساعات، ثم أحياه ورفعه، ثم قال له: انزل إلى مريم فإنه لم يبك عليك أحدٌ بكاءها ولم يحزن أحد حزنها. فنزل عليها بعد سبعة أيام، فاشتعل الجبل حين هبط نوراً، وهي عند المصلوب تبكي ومعها امرأة كان أبرأها من الجنون، فقال: ما شأنكما تبكيان؟ قالتا: عليك! قال: إني رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء ﴿شبه لهم﴾، وأمرها فجمعت له الحواريين، فبثهم في الأرض رسلاً عن الله وأمرهم أن يبلغوا عنه ما أمره الله به، ثم رفعه الله إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وطار مع الملائكة، فهو معهم، فصار إنسيًّا ملكيًّا سماويًّا أرضيًّا. فتفرق الحواريون حيث أمرهم، فتلك الليلة التي أهبطه الله فيها هي التي تدخن فيها النصارى.

وتعدى اليهود على بقية الحواريين يعذبونهم ويشتمونهم، فسمع بذلك ملك الروم، واسمه هيردوس، وكانوا تحت يده، وكان صاحب وثن، فقيل له: إن رجلاً كان في بني إسرائيل وكان يفعل الآيات من إحياء الموتى وخلق الطير من الطين والإخبار عن الغيوب فعدوا عليه فقتلوه، وكان يخبرهم أنه رسول الله. فقال الملك: ويحكم ما منعكم أن تذكروا هذا من أمره، فوالله لو علمت ما خليت بينهم وبينه.

ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيدي اليهود وسألهم عن دين عيسى، فأخبروه، وتابعهم على دينهم واستنزل المصلوب الذي شبه لهم فغيبه، وأخذ الخشبة التي صلب عليها فأكرمها وصانها وعدا على بني إسرائيل فقتل منهم قتلى كثيرة، فمن هناك كان أصل النصرانية في الروم.

وقيل: كان هذا الملك هيردوس ينوب عن ملك الروم الأعظم الملقب قيصر، واسمه طيباريوس، وكان هذا أيضًا يسمى ملكًا. وكان ملك طيباريوس ثلاثًا وعشرين سنة، منها إلى ارتفاع المسيح ثماني عشرة سنة وأيامًا.

* * *

ذكر من ملك من الروم بعد رفع المسيح إلى عهد نبينا محمد ﷺ(١)

زعموا أن ملك الشام جميعه صار بعد طيباريوس إلى ولده جايوس: وكان ملكه أربع سنين.

ثم ملك بعده ابن له آخر اسمه قلوديوس أربع عشرة سنة، ثم ملك بعده نيرون الذي قتل بطرس وبولس فصلبهما منكسين أربع عشرة سنة، ثم ملك بعده بوطلايس أربعة أشهر، ثم ملك أسفسيانوس، وهذا الذي وجه ابنه طيطوس إلى البيت المقدس فهدمه وقتل من بني إسرائيل غضبًا للمسيح، ثم ملك ابنه طيطوس، ثم ملك أخوه دومطيانوس ست عشرة سنة، ثم ملك بعده نارواس ست سنين، ثم ملك من بعده طرايانوس تسع عشرة سنة، ثم ملك بعده هدريانوس إحدى وعشرين سنة، ثم ملك من بعده أنطونينوس بن بطيانوس اثنتين وعشربن سنة، ثم ملك مرقوس وأولاده تسع عشرة سنة، ثم ملك بعده قومودوس ثلاث عشرة سنة، ثم ملك من بعده فرطيناجوس ستة أشهر، ثم ملك بعده سيواروش أربع عشرة سنة، ثم ملك بعده أنطينانوس سبع سنين، ثم ملك من بعده مرقيانوس ست سنين، ثم ملك من بعده أنطينانوس أربع سنين، وفي ملكه مات جالينوس الطبيب، ثم ملك الخسندروس ثلاث عشرة سنة، ثم ملك مكسيمانوس ثلاث سنين، ثم ملك جورديانوس ست سنين، ثم فيلفوس سبع سنين، ثم ملك داقيوس ست سنين، ثم ملك قالوس ست سنين، ثم ملك والريانوس وقالينوس خمس عشرة سنة، ثم ملك قلوديوس سنة، ثم ملك قريطاليوس شهرين، ثم ملك أورليانوس خمس سنين، ثم ملك طيقطوس ستة أشهر، ثم ملك فولورنوس خمسة وعشرين يومًا، ثم ملك فرويوس ست سنين، ثم ملك دقلطيانوس ست سنين، ثم ملك مخسيميانوس عشرين سنة، ثم قسطنطين ثلاثين سنة، ثم ملك يليانوس سنتين، ثم ملك يويانوس سنة، ثم ملك والنطيانوس وغرطيانوس عشر سنين، ثم ملك خرطيانوس ووالنطيانوس الصغير سنة، ثم ملك تيداسيس الأكبر سبع عشرة سنة،

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٥٧).

ثم أرقاديوس وأنوريوس عشرين سنة، ثم ملك تيداسيس الأصغر ووالنطيانوس ست عشـرة سنة، ثم ملك مرقـيانوس سـبع سنين، ثم لاوست عشـرة سنين، ثم ملك زانون ثمـاني عـشـرة سنة، ثم ملـك أنسطاس سـبـعًـا وعـشريـن سنة، ثم ملك يوسطنيـانوس تسع سنين، ثم ملك يـوسطنيانوس الـشيخ عـشـرين سنة، ثم ملك يوسطينس اثنتي عشرة سنة، ثم ملك طيباريوس ست سنين، ثم مريقيش وتاداسيس ابنه عشرين سنة، ثم ملك فـوقا الذي قتل سبع سنين وستـة أشهر، ثم هرقل الذي كتب إليه النبي ﷺ ثلاث سنين.

فمن لدن عمر البيت المقدس بعد أن أخـربه بختنصر إلى الهجرة، على قولهم، ألف سنة ونيف، ومن ملك الإسكندر إليـها تسعـمائة ونيف وعشـرون سنة، فمن ذلك من وقت ظهوره إلى مولد عيسى عليه السلام ثلاثمائة سنة وثلاث سنين، ومن مولده إلى ارتفـاعه اثنتان وثلاثون سنة، ومن وقت ارتفاعـه إلى الهجرة خمـسمائة وخمس وثمانون سنة وأشهر.

هذا الذي ذكره أبو جعفر من عدد ملوك الروم[1]، وقد أخلى ذكرهم عن شيء من الحوادث التي كانت في أيامـهم، وقد سطرها غيره من العلماء بالتـاريخ وخالفه في كثير منهـا ووافقه في الباقي مع مخالفة الاسم وأضـاف إلى أسمائهم ذكر شيء من الحوادث في أيامهم، وأنا أذكره مختصرًا، إن شاء الله.

ذكر ملوك الروم وهم ثلاث طبقات فالطبقة الأولى الصابئون

ذكر غـير واحد من علماء التـاريخ أن الروم غلبت اليونان، وهم ولد صوفـير، والإسرائـيليون يدعـون أن صوفيـر هو الأصعـر بن نفر بن عـيص بن إسحـاق بن إبراهيم، وكانوا ينزلون رومية قبل غلبتهم على اليونان، وكانوا يدينون قبل النصرانية بمذهب الصابئين، ولـهم أصنام يعبدونهـا على عادة الصابئـين. فكان أول ملوكهم برومية غاليوس، وكان ملكه اثنتي عشرة سنة.

وقـيل: كان ملك قـبله روملس وأرمانـوس، وهما بنيـاها، وإليهـما نسـبت، وأضيف الروم إليها، وإنما غاليوس أول من يعد في التاريخ لشهرته.

ثم ملك بعده يـوليوس أربع سنين وأربعة أشـهر، ثم ملك أوغـسطس ـ ومعناه

(١) في المصدر السابق (١/٣٥٧-٣٥٩).

الصباء ـ وهو أول من سمي قيصر. وتفسير ذلك أنه شق عنه بطن أمه لأنها ماتت وهي حامل به، فأخرج من بطنها، ثم صار ذلك لقبًا لملوكهم، وكان ملكه ستًا وخمسين سنة وخمسة أشهر، وأكثر المؤرخين يبتدئون باسمه لأنه أول من خرج من رومية وسير الجنود برًا وبحرًا، وغزا اليونانيين، واستولى على ملكهم، وقتل كليوباترا آخر ملوكهم، واستولى على الإسكندرية ونقل ما فيها إلى رومية، وملك الشام، واضمحل ملك اليونانيين، ودخلوا في الروم، واستخلف على البيت المقدس هيردوس بن أنطيقوس، ولاثنتين وأربعين سنة من ملكه كانت ولادة المسيح، وهو الذي بنى قيصارية[1].

ثم ملك بعده طيباريوس ثلاثًا وعشرين سنة، وهو الذي بنى مدينة طبرية، فأضيفت إليه، وعرَّبها العرب، وفي ملكه رفع المسيح عليه السلام، وملك بعد رفعه ثلاث سنين. ثم ملك بعده ابنه غايوس أربع سنين، وهو الذي قتل اصطفنوس رئيس الشمامسة عند النصارى ويقوب أخا يوحنا بن زبدى، وهما من الحواريين، وقتل خلقًا من النصارى، وهو أول الملوك من عباد الأصنام قتل النصارى، ثم ملك قلوديوس بن طيباريوس أربع عشرة سنة، وفي ملكه حبس شمعون الصفا، ثم خلص شمعون من الحبس وسار إلى أنطاكية، فدعا إلى النصرانية، ثم سار إلى رومية فدعا أهلها أيضًا، فأجابته زوجة الملك وسارت إلى البيت المقدس وأخرجت الخشبة التي تزعم النصارى أن المسيح صلب عليها، وكانت في أيدي اليهود، فأخذتها وردتها إلى النصارى.

ثم ملك نيرون ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، وفي آخر ملكه قتل بطرس وبولس بمدينة رومية وصلبهما منكسين، وفي أيامه ظفرت اليهود بيعقوب بن يوسف ـ وهو أول الأساقفة بالبيت المقدس ـ فقتلوه وأخذوا خشبة الصليب فدفنوها، وفي أيامه كان مارينوس الحكيم صاحب كتاب الجغرافيا في صورة الأرض، ثم ملك بعده غلباس سبعة أشهر، ثم ملك أوثون ثلاثة أشهر، ثم ملك بيطاليس أحد عشر شهرًا، ثم ملك أسباسيانوس سبع سنين وسبعة أشهر، وفي أيامه خالف أهل البيت المقدس قيصر فحصرهم وافتتح المدينة عنوة وقتل كثيرًا من أهلها من اليهود والنصارى وعمهم الأذى في أيامه، ثم ملك ابنه طيطوس سنتين وثلاثة أشهر، وفي

(١) قيصارية: أو قيسارية، هي بلدة على ساحل بحر الشام. «معجم البلدان» (٤/ ٤٧٨).

أيامه أظهر مرقيـون مقالته بالاثنين، وهما: الخير والشر، وبعـد ثالث بينهما، وإليه تنسب المرقونية، وهو من أهل حران، ثم ملك ذو مطيانـش بن اسباسيانوس خمس عشرة سنة وعشرة أشهـر، ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا الحواري كاتب الإنجيل إلى جـزيرة في البـحـر ثم رده، ثم ملك نرواس سنة وخـمـسة أشـهـر، ثم ملك طرايانوس تسع عشـرة سنة، وفي السادسة من ملكه توفي حنا كـاتب الإنجيل بمدينة أفسوس. ثم ملك إيليـا أندريانوس عشرين سنة، وقتل من اليهـود والنصارى خلقًا كثيراً لخلاف كان منهم عليه، وأخـرب البيت المقدس، وهو آخر خرابه، فلما مضى من ملكه ثماني سنين عـمره أيضًا وسمـاه أيليا، فبقي الاسم عليـه فكان قبل ذلك يسمى أورشليم، وأسكن المدينة جماعة من الروم واليونان.

وبنى هيكلاً عظيمًا للزهرة، وكان عالي البنيان، فهدم من أعلاه كثير، وهو باق إلى يومنا هذا، وهو سنة ثلاث وستمـائة، وقد رأيته، وهو محكم البناء، ولا أدري كيف نسب إلى داود وقـد بني بعده بدهر طويل، على أنني سمعت بالـبيت المقدس من جماعة يذكرون أن داود بناه وكان يتفرغ فيه لعبادته.

وفي أيام هذا الملك كان ساقيدس الفيلسوف الصامت.

ثم ملك أنطنينس بيوس اثنتين وعشرين سنة، وفي أيامه كان بطليموس صاحب المجسطي والجغرافيا وغيرهما، وقيل: إنه من ولد قلوديوس، ولهذا قيل له القلودي نسبة إليه، وهو السادس من ملوك الروم.

ودليل كونه في هذا الزمان وليس من ملوك اليونان أنـه ذكر في كتاب المجسطي أنه رصـد الشمس بالإسكندرية سنة ثـمانمائة وثمـانين لبخـتنصر، وكـان من ملك بختنصر إلى قتل دارا أربعمائة وتسع وعشرون سنة وثلاثمائة وستة عشر يومًا، ومن قتل دارا إلى زوال ملك كليـوباترا الملكة آخر ملوك اليونان على يد أوغسـطس مائتا سنة وست وثمانون سنـة، ومذ غلبة أوغسـطس إلى انطنينوس مائة وسبع وسـتون سنة، فمذ ملك بخـتنصر إلى أدريانوس ثمانمائة وثلاث وثمانـون سنة تقريبًا، وهذا موافق لما حكاه بطليموس.

قال: ومن زعم أن ابن كلـيوباترا آخر ملوك اليـونانيين فقد أبـطل ذكر هذا بعض العلماء بالتـاريخ وعدّ ملوك اليونان وذكـر مدة ملكهم على مـا قال، وأما أبو جعـفر الطبري فإنه ذكر في مدة ملكهم مائتي سنة وسبعًا وعشرين سنة، على ما تقدم ذكره.

ثم ملك بعده مرقص، ويسمى أورليوس، تسع عشرة سنة، وفي ملكه أظهر ابن ديصان مقالته، وكان أسقفًا بالرها، وهو من القائلين بالاثنين، ونسب إلى نهر على باب الرها يسمى ديصان وجد عليه منبوذًا، وبنى على هذا النهر كنيسة.

ثم ملك قومودوس اثنتي عشرة سنة، وفي أيامه كان جالينوس قد أدرك بطليموس القلودي، وكان دين النصرانية قد ظهر في أيامه وذكرهم في كتابه في جوامع كتاب أفلاطون في السياسة.

ثم ملك برطينقش ثلاثة أشهر، ثم ملك يوليانوس شهرين، ثم ملك سيوارس سبع عشرة سنة، وشمل اليهود والنصارى في أيامه القتل والتشريد، وبنى بالإسكندرية هيكلاً عظيمًا سماه هيكل الآلهة. ثم ملك أنطونيوس ست سنين، ثم ملك مقرونيوس سنة وشهرين، ثم ملك أنطونيوس الثاني أربع سنين، ثم ملك الاكصندروس، ويلقب ماماياس، ثلاث عشرة سنة، ثم ملك مقسميانوس ثلاث سنين، ثم ملك مقسموس ثلاثة أشهر، ثم ملك غرديانوس ست سنين، ثم ملك فيلبوس ست سنين، وتنصر وترك دين الصابئين وتبعه كثير من أهل مملكته واختلفوا لذلك، وكان فيمن خالفه بطريق يقال له داقيوس، قتل فيلبوس واستولى على الملك، ثم ملك بعده فيلبس داقيوس سنتين وتتبع النصارى، فهرب منه أصحاب الكهف إلى غار في جبل شرقي مدينة أفسوس، وقد خربت المدينة، وكان لبثهم فيه مائة وخمسين سنة.

وهذا باطل لأنه على هذا السياق من حين رفع المسيح إلى الآن نحو مائتي سنة وخمس عشرة سنة، وكان لبث أصحاب الكهف على ما نطق به القرآن المجيد ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[1] فذلك خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، فعلى هذا يكون ظهورهم قبل الإسلام بنحو ستين سنة، وقد ذكرنا أن من لدن ظهورهم إلى الهجرة زيادة على مائتي سنة، فهذه الجملة أكثر من الفترة بين المسيح والنبي، عليهما الصلاة والسلام، إلا أن هذا الناقل قد ذكر أن غيبتهم كانت مائة وخمسين سنة على ما نراه مذكورًا، وفيه مخالفة للقرآن، ولولا نص القرآن لكان استقام له ما يريد.

ثم ملك بعده غليوس سنتين، وكان شريكه في الملك يوليانوس، ملك خمس عشرة سنة، ثم ملك قلوديوس، ثم ملك ابنه أورليانوس ست سنين، ثم ملك

---

(١) سورة الكهف (٢٥).

طافسطوس وأخوه فورس تسعة أشهر، ثم برويس تسع سنين، ثم ملك قاروس سنتين وخمسة أشهر، ثم ملك دقلطيانوس سبع عشرة سنة، ثم ملك مقسيمانوس وشاركه مقسمطيوس، ثم اقتتلا فاقتسما الملك، فملك الأب على الشام وبلاد الجزيرة وبعض الروم، وملك الابن رومية وما اتصل بها من أرض الفرنج، وملكا تسع سنين، وتملك معهما قسطنس أبو قسطنطين بلاد بورنطيا وما يليها، وهي نواحي القسطنطينية، ولم تكن بنيت حينئذ، ثم مات قسطنس وملك بعده ابنه قسطنطين المعروف بأمه هيلانا، وهو الذي تنصر.

قال: ومن أول ملوك الروم إلى ههنا كانوا شبيهين بملوك الطوائف، لا ينضبط عددهم، وقد اختلف الناس فيهم كاختلافهم في ملوك الطوائف، وإنما الذي يعول عليه من قسطنطين إلى هرقل الذي بعث محمد ﷺ في أيامه، ولقد صدق قائل هذا فإن فيه من الاختلاف والتناقض ما ذكرنا بعضه عند ذكر دقيوس وأصحاب الكهف، ولهذه العلة لم يذكر الطبري أصحاب الكهف في زمان أي الملوك كانوا[1]، ذكرناه نحن لما في أيام الملوك من الحوادث.

ذكر الطبقة الثانية من ملوك الروم المتنصرة

ثم ملك قسطنطين المعروف بأمه هيلانا في جميع بلاد الروم، وجرى بينه وبين مقسيمانوس وابنه حروب كثيرة، فلما ماتا استولى على الملك وتفرد به، وكان ملكه ثلاثًا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وهو الذي تنصر من ملوك الروم وقاتل عليها حتى قبلها الناس ودانوا بها إلى هذا الوقت وقد اختلفوا في سبب تنصره، فقيل: إنه كان به برص وأرادوا نزعه فأشار عليه بعض وزرائه ممن كان يكتم النصرانية بإحداث دين يقاتل عليه ثم حسن له النصرانية ليساعده من دان به، ففعل ذلك. فتبعه النصارى من الروم مع أصحابه وخاصته، فقوي بهم وقهر من خالفه.

وقيل: إنه سير عساكر على أسماء أصنامهم، فانهزمت العساكر. وكان لهم سبعة أصنام على أسماء الكواكب السبعة على عادة الصابئين، فقال له وزير له يكتم النصرانية في هذا وأزرى بالأصنام وأشار عليه بالنصرانية. فأجابه، فظفر، ودام ملكه، وقيل غير ذلك.

---

(١) ذكر الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٧٣) في قصة أصحاب الكهف أنه كان لهم ملك في ذلك الزمان يقال له: دقينوس. يعبد الأصنام.

وهو الذي بنى مـدينة القسطنطينيـة لثلاث سنين خلت من ملكه بمـكانها الآن، اختاره لحضانته، وهي على الخليج الآخـذ من البحر الأسود إلى بحر الروم والمدينة على البر المتـصل برومية وبلاد الـفرنج والأندلس، والروم تسمـيها اسـتنبول، يعني مدينة الملك.

ولعـشرين سنة مـضت من ملكه كان الـسنهودس الأول بمدينة نيـقيـة من بلاد الروم، ومعناه الاجتماع، فـيه ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا، فـاختار منهم ثلاثمائة وثمانية عـشر أسقفًـا متفقين غيـر مختلفين، فحـرموا له آريوس الإسكندراني الذي يضاف إليه الآريوسية من النصارى، ووضع شرائع النصرانية بعد أن لم تكن، وكان رئيس هذا المجمع بطرق الإسكندرية.

وفي السنة السابعـة من ملكه سارت أمـه هيلانا الرهاوية، كان أبوه سـباها من الرها، فأولدها هذا الملك، فسارت إلى البيت المقـدس وأخرجت الخشبة التي تزعم النصارى أن المسـيح صلب عليها، وجعلت ذلك اليـوم عيدًا، فهو عـيد الصليب، وبنت الكنيسة المعروفـة بقمامة، وتسمى القيامة، وهي إلى وقـتنا هذا يحجها أنواع النصارى. وقيل: كان مـسيرها بعد ذلك لأن ابنها دان بالنصرانيـة في قول بعضهم بعـد عشـرين سنة من ملكه. وفي السنة الحـادية والعشـرين من ملكه طبق جمـيع مماليكه بالبيع هو وأمه، منها: كنيسة حمص، وكنيسة الرها، وهي من العجائب.

ثم ملك بعده قسطنطين أنطاكية أربعًا وعشرين سنة بعهد من أبيه إليه وسلم إليه القسطـنطينية، وإلى أخـيه قسطنـس أنطاكية والشـام ومصـر والجزيرة، وإلى أخـيه قسطوس رومية وما يليها من بلاد الفرنج والصقـالبة، وأخذ عليهما المواثيق بالإنقياد لأخيهما قسطنطين.

ثم ملك بعده يوليـانوس ابن أخيه سنتين، وكان يدين بمذهب الصـابئين ويخفي ذلك. فلما ملك أظهـرها وخرب البيع وقتل النصارى، وهـو الذي سار إلى العراق أيام سابور بن أردشـير فقتل بسـهم غرب، وقد ذكـر أبو جعفر خـبر هذا الملك مع سابور ذي الأكتاف وهو بعد سابور بن أردشير. ثم ملك بعده يونيانوس سنة فأظهر دين النصرانية ودان بها وعاد عن العراق.

ثم ملك بعده ولنطيوش اثنتي عشرة سنة وخـمسة أشهر، ثم ملك والنس ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ثم ملك والنطيانوس ثلاث سنين.

ثم ملك تدوس الكبير، ومعناه عطية الله، تسع عشرة سنة، وفي ملكه كان السنهودس الثاني بمدينة القسطنطينية، اجتمع فيه مائة وخمسون أسقفًا لعنوا مقدونس وأشياعه، وكان فيه بطرق الإسكندرية وبطرق أنطاكية وبطرق البيت المقدس، والمدن التي يكون فيها كراسي البطرق أربع: إحداها رومية، وهي لبطرس الحواري، والثانية الإسكندرية، وهي لمرقس أحد أصحاب الأناجيل الأربعة، والثالثة القسطنطينية، والرابعة أنطاكية، وهي لبطرس أيضًا.

ولثماني سنين من ملكه ظهر أصحاب الكهف.

ثم ملك بعده إرقاديوس بن تدوس ثلاث عشرة سنة، ثم ملك تدوس الصغير بن تدوس الكبير اثنتين وأربعين سنة، ولإحدى وعشرين سنة من ملكه كان السنهودس الثالث بمدينة أفسوس، وحضر هذا المجمع مائتا أسقف، وكان سببه ما ظهر من نسطورس بطرق القسطنطينية، وهو رأس النسطورية[١] من النصارى، من مخالفة مذهبهم فلعنوه ونفوه، فسار إلى صعيد مصر فأقام ببلاد إخميم[٢] ومات بقرية يقال لها «سيصلح»، وكثر أتباعه، وصار بسبب ذلك بينهم وبين مخالفيهم حرب وقتال، ثم دثرت مقالته إلى أن أحياها برصوما مطران نصيبين قديمًا.

ومن العجائب أن الشهرستاني[٣] مصنف كتاب: نهاية الإقدام في الأصول، ومصنف كتاب: الملل والنحل، في ذكر المذاهب والآراء القديمة والجديدة، ذكر فيه أن نسطور كان أيام المأمون[٤]، وهذا تفرد به، ولا أعلم له في ذلك موافقًا.

ثم ملك بعده مرقيان ست سنين، وفي أول سنة من ملكه كان السنهودس الرابع

---

(١) النسطورية: فرقة من النصاري نسبتها إليها كنسبة المعتزلة إلى هذه الشريعة، أثبتوا الله عز وجل ثلاثة صفات تسمى الأقانيم الثلاثة، وهي: الوجود، والعلم، والحياة. «الملل والنحل» (١/ ١٦٩).

(٢) إخميم: بلدة بصعيد مصر على شاطئ النيل «معجم البلدان» (١/ ١٤٥).

(٣) الشهرستاني: هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني، الشافعي، شيخ أهل الكلام، صنف «نهاية الإقدام» و«الملل والنحل»، وهو أشهر مؤلفاته، وكان كثير المحفوظ، قوي الفهم، مليح الوعظ، ولد سنة (٤٦٧) هـ ومات سنة (٥٤٨) هـ.

ومع غزارة علمه ووفور فضله اتهم بالإلحاد، والميل إلى أقوال الفلاسفة، وتخبطه في الاعتقاد «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٨٦- ٢٨٨).

(٤) «الملل والنحل» (١/ ١٦٩).

على تسقرس بطرق القسطنطينية، اجتمع فيه ثلاثمائة وثلاثون أسقفًا، وفي هذا المجمع خالفت اليعقوبية[1] سائر النصارى.

ثم ملك ليون الكبير ست عشرة سنة، ثم ملك ليون الصغير سنة، وكان يعقوبي المذهب، ثم ملك زينون سبع سنين، وكان يعقوبيًا، فزهد في الملك فاستخلف ابنًا له، فهلك، فعاد إلى الملك، ثم ملك نسطاس سبعًا وعشرين سنة، وكان يعقوبي المذهب، وهو الذي بنى عمورية، فلما حفر أساسها أصاب فيه مالاً وفى بالنفقة على بنائها وفضل منه شيء بنى به بيعًا وأديرة، ثم ملك يوسطين سبع سنين، وأكثر القتل في اليعقوبية، ثم ملك يوسطانوس تسعًا وعشرين سنة، وبنى بالرها كنيسة عجيبة، وفي أيامه كان السنهودس الخامس بالقسطنطينية، فحرموا أدريحا أسقف منبج لقوله بتناسخ الأرواح في أجساد الحيوان، وأن الله يفعل ذلك جزاء لما اتكبوه.

وفي أيامه كان بين اليعاقبة والملكية ببلاد مصر فتن، وفي أيامه ثار اليهود بالبيت المقدس وجبل الخليل على النصارى فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وبنى الملك من البيع والأديرة شيئًا كثيرًا، ثم ملك يوسطينوس ثلاث عشرة سنة، وفي أيامه كان كسرى أنوشروان، ثم ملك طباريوس ثلاث سنين وثمانية أشهر، وكان بينه وبين أنوشروان مراسلات ومهادات، وكان مغرى بالبناء وتحسينه وتزويقه، ثم ملك موريق عشرين سنة وأربعة أشهر، وفي أيامه ظهر رجل من أهل مدينة حماة يعرف بمارون إليه تنسب المارونية من النصارى، وأخذت رأيًا يخالف من تقدمه، وتبعه خلق كثير بالشام، ثم إنهم انقرضوا ولم يعرف الآن منهم أحد. وهذا موريق هو الذي قصده كسرى أبرويز حين انهزم من بهرام جوبين فزوجه ابنته وأمده بعساكره وأعاده إلى ملكه، على ما نذكره إن شاء الله. ثم ملك بعده فوقاس، وكان من بطارقة موريق، فوثب به فاغتاله فقتله وملك الروم بعده، وكان ملكه ثماني سنين وأربعة أشهر، ولما ملك تتبع ولد موريق وحاشيته بالقتل، فلما بلغ ذلك أبرويز غضب وسير الجنود إلى الشام ومصر فاحتوى عليهما وقتلوا من النصارى خلقًا كثيرًا، وسيرد ذلك عند ذكر أبرويز، ثم ملك هرقل، وكان سبب ملكه أن عساكر الفرس لما فتكت في الروم ساروا حتى نزلوا على خليج القسطنطينية وحصروها، وكان هرقل يحمل الميرة في البحر إلى أهلها،

---

(١) اليعقوبية: أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة: الوجود والعلم والحياة. وقالوا أن الكلمة انقلبت لحمًا ودمًا فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده، بل هو هو، والعياذ بالله. «الملل والنحل» (١/ ١٧٠).

فحسن موقع ذلك من الروم وبانت شهامته وشجاعته وأحبه الروم فحملهم على الفتك بفوقاس وذكرهم سوء آثاره، ففعلوا ذلك وقتلوه وملكوا عليهم هرقل.

ذكر الطبقة الثالثة من ملوك الروم بعد الهجرة

فأولهم هرقل، قد ذكر سبب ملكه، وكان مدة ملكه خمسًا وعشرين سنة، وقيل: إحدى وثلاثين سنة، وفي أيامه كان النبي ﷺ ومنه ملك المسلمون الشام.

ثم ملك بعده ابنه قسطنطين، وقيل: هو ابن أخيه قسطنطين، وكان ملكه تسع سنين وستة أشهر، وسيرد خبره عند ذكر غزاة الصواري إن شاء الله، وفي أيامه كان السنهودس السادس على لعن رجل يقال له قورس الإسكندرني خالف الملكية ووافق المارونية.

ثم ملك بعده ابنه قسطا خمس عشرة سنة في خلافة علي رضي الله عنه ومعاوية، ثم ملك هرقل الأصغر بن قسطنطين أربع سنين وثلاثة أشهر، ثم ملك قسطنطين بن قسطا ثلاث عشرة سنة بعض أيام معاوية وأيام يزيد وابنه معاوية ومروان بن الحكم وصدراً من أيام عبد الملك. ثم ملك إسطينان، المعروف بالأخرم، تسع سنين أيام عبد الملك، ثم خلعه الروم وخرموا أنفه وحمل إلى بعض الجزائر، فهرب ولحق بملك الخزر واستنجده فلم ينجده، فانتقل إلى ملك برجان، ثم ملك بعده لونطش ثلاث سنين أيام عبد الملك، ثم ترك الملك وترهب، ثم ملك السمين، المعروف بالطرسوسي، سبع سنين، فقصده إسطينان ومعه برجان وجرى بينهما حروبًا كثيرة وظفر به إسطينان وخلعه وعاد إلى ملكه، فكان ذلك أيام الوليد بن عبد الملك. واستقر إسطينان، وكان قد شرط لملك برجان أن يحمل إليه خراجًا كل سنة، فعسف الروم وقتل بها خلقًا كثيراً، فاجتمعوا عليه وقتلوه، فكان ملكه الثاني سنتين ونصفًا، وكان قتله أول دولة سليمان بن عبد الملك، ثم ملك نسطاس بن فليفوس، وكان في أيامه اختلاف بين الروم فخلعوه ونفوه.

ثم ملك تيدوس المعروف بالأرمني في أيام سليمان بن عبد الملك أيضًا، وهو الذي حصره مسلمة بن عبد الملك، ثم ملك بعده اليون بن قسطنطين لضعفه عن الملك، وضمن أليون للروم رد المسلمين عن القسطنطينية، فملكوه، فكان ملكه ستًا وعشرين سنة، ومات في السنة التي بويع فيها الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ثم ملك بعده ابنه قسطنطين إحدى وعشرين سنة، وفي أيامه انقرضت الدولة الأموية وتوفي لعشر سنين مضت من أيام المنصور. ثم ملك بعده ابنه اليون تسع عشرة سنة وأربعة أشهر بقية أيام المنصور، وتوفي في خلافة المهدي. ثم ملك بعده ريني امرأة اليون بن قسطنطين، ومعها ابنها قسطنطين بن اليون، وهي تدبر الأمر بقية أيام المهدي والهادي وصدراً من خلافة الرشيد. فلما كبر ابنها أفسد ما بينه وبين الرشيد، وكانت أمه مهادنة له، فقصده الرشيد وجرى له معه وقعة، فانهزم وكاد يؤخذ، فكحلته أمه وانفردت بالملك بعده خمس سنين وهادنت الرشيد. ثم ملك بعدها نقفور، أخذ الملك منها، وكان ملكه سبع سنين وثلاثة أشهر، وهو نقفور بن استبراق، وكنت قد رأيته مضبوطًا بكثير من الكتب بسكون القاف، حتى رأيت رجلاً زعم أن اسمه نقفور، بفتح القاف.

وعهد نقفور إلى ابنه استبراق بالملك بعده وهو أول من فعل ذلك في الروم، ولم يكن يعرف قبله، وكانت ملوك الروم قبل نقفور تحلق لحاها، وكذلك ملك الفرس، فلم يفعله نقفور. وكانت ملوك الروم قبله تكتب: من فلان ملك النصرانية، فكتب نقفور: من فلان ملك الروم، وقال: لست ملك النصرانية كلها. وكانت الروم تسمي العرب سارقيوس، يعني عبيد سارة، بسبب هاجر أم إسماعيل، فنهاهم عن ذلك وجرى بين نقفور وبين برجان حرب سنة ثلاث وتسعين ومائة فقتل فيها.

ثم ملك بعده ابنه استبراق بعهد من أبيه إليه، وكان ملكه شهرين، ثم ملك بعده ميخائيل بن جرجس، وهو ابن عم نقفور، وقيل: ابن استبراق، وكان ملكه سنتين في أيام الأمين، وقيل أكثر من ذلك، فوثب به اليون المعروف بالبطريق وغلب على الأمر وحبسه. ثم ملك بعده اليون البطريق سبع سنين وثلاثة أشهر، فوثب به أصحاب ميخائيل في خلاص صاحبهم وقتل اليون بعد فتح لهم ذلك وعاد ميخائيل إلى الملك، وقيل: إنه كان قد ترهب أيام اليون، وكان ملكه هذه الدفعة الثانية تسع سنين، وقيل أكثر من ذلك. ثم ملك بعده ابنه نوفيل بن ميخائيل أربع عشرة سنة، وهو الذي فتح زبطرة، وسار المعتصم بسبب ذلك وفتح عمورية، وكان موته أيام الواثق، ثم ملك بعده ابنه ميخائيل ثمانيًا وعشرين سنة، وكانت أمه تدبر الملك معه، وأراد قتلها فترهبت، وخرج عليه رجل من أهل عمورية من أبناء الملوك السالفة يعرف بابن بقراط، فلقيه ميخائيل فيمن عنده من أسارى المسلمين، فظفر به ميخائيل فمثل به، ثم خرج عليه بسيل الصقلبي فاستولى على الملك وقتل ميخائيل

سنة ثلاث وخمسين ومائتين. ثم ملك بعده بسيل الصقلبي عشرين سنة أيام المعتز والمهتدي وصدراً من أيام المعتمد، وكانت أمه صقلبية فنسب إليها.

وقد غلط حمزة الأصفهاني[1] فيه فقال عند ذكر ميخائيل: ثم انتقل الملك عن الروم وصار في الصقلب فقتله بسيل الصقلبي ظنًّا منه أن أباه كان صقلبيًا.

ثم ملك بعده ابنه اليون بن بسيل ستًّا وعشرين سنة أيام المعتمد والمعتضد والمكتفي وصدراً من أيام المقتدر، وقيل: إن وفاته كانت سنة سبع وتسعين ومائتين.

ثم ملك أخوه الإسكندروس سنة وشهرين ومات بالدبيلة، وقيل: إنه اغتيل لسوء سيرته. ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون، وهو صبي، وتولى له الأمر بطريق البحر، واسمه أرمانوس، وشرط على نفسه شروطًا، منها أنه لا يطلب الملك ولا يلبس التاج لا هو ولا أحد من أولاده، فلم يمض غير سنتين حتى خوطب هو وأولاده بالملوك وجلس مع قسطنطين على السرير، وكان له ثلاثة من الولد، فخص أحدهم وجعله بطرقًا ليأمن من المنازعة، فإن البطرق يحكم على الملك، فبقي على حاله إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، فاتفق ابناه مع قسطنطين على إزالة أبيهما، فدخلا عليه وقبضاه وسيراه إلى دير له في جزيرة بالقرب من القسطنطينية وأقام ولداه مع قسطنطين نحو أربعين يومًا وأرادا الفتك به، فسبقهما إلى ذلك وقبض عليهما وسيرهما إلى جزيرتين في البحر، فوثب أحدهما بالموكل به فقتله، وأخذه أهل تلك الجزيرة فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى قسطنطين الملك، فجزع لقتله، وأما أرمانوس فإنه مات بعد أربع سنين من ترهبه. ودام ملك قسطنطين بقية أيام المقتدر والقاهر والراضي والمستكفي وبعض أيام المطيع، ثم خرج على قسطنطين هذا قسطنطين بن أندرونقس، وكان أبوه قد توجه إلى المكتفي سنة أربع وتسعين ومائتين وأسلم على يده وتوفي. فهرب ابنه هذا على طريق أرمينية وأذربيجان إلى بلاد الروم، فاجتمع عليه خلق كثير وكثر أتباعه، فسار إلى القسطنطينية ونازع الملك قسطنطين في ملكه، وذلك سنة إحدى وثلاثمائة، فظفر به الملك فقتله، وخرج عن طاعته أيضًا صاحب رومية، وهي كرسي ملك الإفرنج، وتسمى بالملك، ولبس ثياب الملوك. وكانوا قبل ذلك يطيعون ملوك الروم أصحاب القسطنطينية ويصدرون عن أمرهم، فلما كان سنة أربعين وثلاثمائة قوي ملك رومية، فخرج عن طاعته،

---

(١) له كتاب في «التاريخ» كما في «البداية».

فأرسل إليه قسطنطين العساكر يقاتلونه ومن معه من الإفرنج، فالتقوا واقتتلوا، فانهزمت الروم وعادت إلى القسطنطينية منكوبة فكف حينئذ قسطنطين عن معارضته ورضي بالمسالمة وجرى بينهما مصاهرة، فزوج قسطنطين ابنه أرمانوس بابنة ملك رومية. ولم يزل أمر الإفرنج بعد هذا يقوى ويزداد ويتسع ملكهم كالاستيلاء على بعض بلاد الأندلس، على ما نذكره وكأخذهم جزيرة صقلية وبلاد ساحل الشام والبيت المقدس، على ما نذكره، وفي آخر الأمر ملكوا القسطنطينية سنة إحدى وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله.

ومما ينبغي أن يلحق بهذا أن الطوائف من الترك اجتمعت، منهم البجناك والبختي وغيرهما، وقصدوا مدينة للروم قديمة تسمى «وليدر» سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وحصروها، فبلغ خبرهم إلى أرمانوس، فسير إليهم عسكرًا كثيفًا فيهم من المتنصرة اثنا عشر ألفًا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم، واستولى الترك على المدينة وخربوها بعد أن أكثروا القتل فيها والسبي والنهب، ثم ساروا إلى القسطنطينية وحصروها أربعين يومًا وأغاروا على بلاد الروم واتصلت غاراتهم إلى بلاد الإفرنج، ثم عادوا راجعين.



ذكر وصول قبائل العرب إلى العراق ونزولهم الحيرة[(١)]

قال ابن الكلبي: لما مات بختنصر انضم الذين أسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار وبقيت الحيرة خرابًا دهرًا طويلاً وأهلها بالأنبار لا يطلع عليهم قادم من العرب، فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب ومزقتهم الحروب خرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين وبها جماعة من الأزد، وكان الذين أقبلوا من تهامة مالك وعمرو ابنا فهم بن تميم أسد بن وبرة بن قضاعة، ومالك بن زهير بن عمرو بن فهم في جماعة من قومهم، والحيقاد بن الحنق بن عمير بن قبيص بن معد بن عدنان في قبيص كلها، ولحق بهم غطفان بن عمرو بن الطمثان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى ابن دعمي بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان وغيره من إياد، فاجتمع بالبحرين قبائل من العرب وتحالفوا على التنوخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التناصر والتساعد، فصاروا يدًا واحدة وضمهم اسم «تنوخ»، وتنخ عليهم بطون من نمارة بن لخم.

ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن أوس الأزدي إلى التنوخ معه وزوجه أخته لميس، فتنخ جذيمة، وكان اجتماعهم أيام ملوك الطوائف، وإنما سموا ملوك الطوائف لأن كل ملك منهم كان ملكه على طائفة قليلة من الأرض.

قال: ثم تطلعت أنفس من كان بالبحرين إلى ريف العراق فطمعوا في أن يغلبوا الأعاجم فيما يلي بلاد العرب منه أو مشاركتهم فيه لاختلاف بين ملوك الطوائف، فأجمعوا على المسير إلى العراق، فكان أول من يطلع منهم الحيقاد بن الحنق في جماعة من قومه وأخلاط من الناس، فوجدوا الأرمانيين، وهم الذين ملكوا أرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل، يقاتلون الأردوانيين، وهم ملوك الطوائف، وهو ما بين نفر، وهي قرية من سواد العراق إلى الأبلة، فدفعوهم عن بلادهم، والأرمانيون من بقايا إرم فلهذا سموا الأرمانيين، وهم نبط السواد.

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم الله وغيرهما من تنوخ إلى الأنبار على

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٦٠).

ملك الأرمانيين، وطلع نمارة ومن معه إلى نفر علـى ملك الأردوارنيين، وكانوا لا يدينون للأعاجم حتى قدمها تبع، وهو أسعد أبو كرب بن مليكيكرب في جيوشه، فخلف بها من لم يكن فيه قوة من عسكره، وسار تبع ثم رجع إليهم فأقرهم على حالهم، ورجع إلى اليمن وفيهم من كل القبائل.

ونزلت تنوخ من الأنبار إلى الحيرة في الأخبية لا يسكنون بيوت المدر[1]، وكان أول من ملك منهم مالك بن فهم، وكان منزله مما يلي الأنبار، ثم مات مالك فملك بعده أخوه عمرو بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي، ثم مات فملك بعده جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم.

وقيل: إن جذيمة من العادية الأولى من بني دمار بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، عليه السلام، والله أعلم.

ذكر جذيمة الأبرش

قال: وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأيًا، وأبعدهم مغاراً، وأشدهم نكاية، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب، وغزا بالجيوش، وكان به برص فكنَّت العرب عنه، فقيل: «الوضاح»، و«الأبرش»، إعظامًا له. وكانت منازله ما بين الحيرة والأنبار وبقة[2] وهيت[3] وعين التمر[4] وأطراف البر إلى العمير[5] وخفية[6]، وتجبى إليه الأموال، وتفد إليه الوفود. وكان غزا طسمًا وجديسًا في منازلهم من اليمامة، فأصاب حسان بن تبع أسعد أبي كرب قد أغار عليهم فعاد بمن معه، وأصاب حسان سرية لجذيمة فاجتاحها، وكان له صنمان يقال لهما «الضيرتان»، وكانت غياد بعين أباغ[7]، فذكر لجذيمة غلام من لخم في أخواله من إياد يقال له «عدي بن نصر بن ربيعة» له جمال وظرف، فغزاهم جذيمة، فبعثت إياد من سرق صنميه وحملهما إلى إياد، فأرسلت إليه: إن

(١) بيوت المدر: أي بيوت الطين، والمراد الحضر، بخلاف بيوت الوبر، وهي البادية.
(٢) بقة: موضع قريب من الحيرة. «معجم البلدان» (١/ ٥٥٩).
(٣) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار. «معجم البلدان» (١/ ٤٨٣).
(٤) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة. «معجم البلدان» (٤/ ١٩٩).
(٥) العمير: قرية من قرى الحيرة. «معجم البلدان» (٤/ ١٧٩).
(٦) خفية: أجمة في سواء الكوفة. «معجم البلدان» (٢/ ٤٣٥).
(٧) عين إباغ: واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. «معجم البلدان» (٤/ ١٩٨).

صنميك أصبحتا فينا زهداً فيك ورغبة فينا، فإن أوثقت لنا أن لا تغزونا دفعناهما إليك.

قال: وتدفعون معهما عدي بن نصر؟ فأجابوه إلى ذلك وأرسلوه مع الصنمين فضمه إلى نفسه وولاه شرابه، فأبصرته رقاش أخت جذيمة فعشقته وراسلته ليخطبها إلى جذيمة، فقال: لا أجترئ على ذلك ولا أطمع فيه. قالت: إذا جلس على شرابه فاسقه صرفًا واسق القوم ممزوجًا، فإذا أخذت الخمر فيه فاخطبني إليه فلن يردك، فإذا زوجك فأشهد القوم. ففعل عدي ما أمرته، فأجابه جذيمة وأملكه إياها، فانصرف إليها فأعرس بها من ليلته وأصبح بالخلوق، فقال له جذيمة، وأنكر ما رأى به: ما هذه الآثار يا عدي؟ قال: آثار العرس. قال: أي عرس؟ قال: عرس رقاش. قال: من زوجكها ويحك؟ قال: الملك.

فندم جذيمة وأكب على الأرض متفكراً، وهرب عدي، فلم ير له أثر ولم يسمع له بذكر، فأرسل إليها جذيمة:

خبريني وأنت لا تكذبيني أبحر زنيت أم بهجين؟
أم بعبد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدون؟

فقالت: لا بل أنت زوجتني امرأ عربيًّا حسيبًا ولم تستأمرني في نفسي. فكف عنها وعذرها. ورجع عدي إلى إياد فكان فيهم. فخرج يومًا مع فتية متصيدين، فرمى به فتى منهم فيما بين جبلين، فتكسَّر فمات، فحملت رقاش فولدت غلامًا فسمته عمراً، فلما ترعرع وشب ألبسته وعطرته وأزارته خاله، فلما رآه أحبه وجعله مع ولده، وخرج جذيمة متبديًا بأهله وولده في سنة خصيبة، فأقام في روضة ذات زهر وغدر، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكمأة، فكانوا إذا أصابوا كمأة جيدة أكلوها، وإذا أصابها عمرو خبأها، فانصرفوا إلى جذيمة يتعادون، وعمرو يقول:

هذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده في فيه

فضمه جذيمة إليه والتزمه وسر بقوله وفعله، وأمر فجعل له حلى من فضة وطوق، فكان أول عربي ألبس طوقًا، فبينا هو على أحسن حالة إذ استطارته الجن، فطلبه جذيمة في الآفاق زمانًا فلم يقدر عليه، ثم أقبل رجلان من بلقين قضاعة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارج بن مالك من الشام يريدان جذيمة، وأهديا له طرفًا،

فنزلا منزلاً ومعهما قينة[١] لهما تسمى أم عمرو، فقدمت طعامًا. فبينا هما يأكلان إذ أقبل فتى عريان قد تلبد شعره وطالت أظفاره وساءت حاله فجلس ناحية عنهما ومد يده يطلب الطعام، فناولته القينة كراعًا[٢] فأكلها، ثم مد يده ثانية، فقالت: «لا تعط العبد الكراع فيطمع في الذراع» فذهبت مثلاً، ثم سقتهما من شراب معها وأوكت زقها، فقال عمرو بن عدي:

صددت الكأس عنا أم عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذي لا تصبحينا

فسألاه عن نفسه، فقال: إن تنكراني وتنكرا نسبي، فإنني أنا عمرو بن عدي بن تنوخية اللخمي، وغدًا ما ترياني في نمارة غير معصي. فنهضا وغسلا رأسه وأصلحا حاله وألبساه ثيابًا وقالا: ما كنا لنهدي لجذيمة أنفس من ابن أخته! فخرج به إلى جذيمة، فسر به سرورًا شديدًا وقال: لقد رأيته يوم ذهب وعليه طوق، فما ذهب من عيني وقلبي إلى الساعة، وأعادوا عليه الطوق، فنظر إليه وقال: كبر عمرو عن الطوق» وأرسلها مثلاً، وقال لمالك وعقيل: ما حكمكما؟ قالا: حكمنا منادمتك ما بقينا وبقيت، فهما ندمانا جذيمة اللذان يضربان مثلاً.

وكان ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشام عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة العمليقي من عاملة العمالقة، فتحارب هو وجذيمة، فقتل عمرو وانهزمت عساكره، وعاد جذيمة سالمًا، وملكت بعد عمرو ابنته الزباء، واسمها نائلة، وكان جنود الزباء بقايا العماليق وغيرهم، وكان لها من الفرات إلى تَدْمُر[٣]. فلما استجمع لها أمرها واستحكم ملكها اجتمعت لغزو جذيمة تطلب بثأر أبيها، فقالت لها أختها ربيبة، وكانت عاقلة: «إن غزوت جذيمة فإنما هو يوم له ما بعده والحرب سجال»، وأشارت بترك الحرب وإعمال الحيلة. فأجابتها إلى ذلك وكتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها وملكها، وكتبت إليه أنها لم تجد ملك النساء إلا قبحًا في السماع وضعفًا في السلطان، وأنها لم تجد لملكها ولا لنفسها كفؤًا غيره، فلما انتهى كتاب الزباء إليه استخف ما دعته إليه وجمع إليه ثقاته، وهو «ببقة» من شاطئ الفرات، فعرض

---

(١) القينة: المغنية.

(٢) الكراع: مستدق الساق.

(٣) تدمر: مدينة مشهورة في الشام. «معجم البلدان» (٢/ ٢٠).

عليهم ما دعته إليه واستشارهم، فأجمع رأيهم على أن يسير إليها ويستولي على ملكها - وكان فيهم رجل يقال له قصير بن سعد من لخم، وكان سعد تزوج أمة لجذيمة فولدت له قصيراً، وكان أديبًا حازمًا ناصحًا لجذيمة قريبًا منه، فخالفهم فيما أشاروا به عليه وقال: «رأي فاتر، وعدو حاضر»، فذهبت مثلاً، وقال لجذيمة: اكتبها إليها فإن كانت صادقة فلتقبل إليك وإلا لم تمكنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباها. فلم يوافق جذيمة ما أشار به قصير وقال له: لا ولكنك امرؤ «رأيك في الكن لا في الضح»، فذهبت مثلاً. ودعا جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي فاستشاره، فشجعه على المسير وقال: إن نمارة قومي مع الزباء فلو رأوك صاروا معك، فأطاعه، فقال قصير: «لا يطاع لقصير أمر». وقالت العرب: «ببقة أبرم الأمر» فذهبتا مثلاً.

واستخلف جذيمة عمرو بن عدي على ملكه، وعمرو بن عبد الجن على خيوله معه، وسار في وجوه أصحابه، فلما نزل الفرضة قال لقصير: ما الرأي؟ قال: «ببقة تركت الرأي»، فذهبت مثلاً. واستقبله رسل الزباء بالهدايا والألطاف، فقال: يا قصير كيف ترى؟ قال: «خطر يسير، وخطب كبير»، فذهبت مثلاً، وستلقاك الخيول، فإن سارت أمامك فإن المرأة صادقة، وإن أخذت جنبيك وأحاطت بك فإن القوم غادرون، فاركب العصا - وكانت فرسًا لجذيمة لا تجارى - فإني راكبها ومسايرك عليها.

فلقيته الكتائب فحالت بينه وبين العصا، فركبها قصير، ونظر إليه جذيمة موليًا على متنها، فقال: «ويل أمه حزمًا على متن العصا» فذهبت مثلاً، وقال: «ما ضل من تجري به العصا» فذهبت مثلاً وجرت به إلى غروب الشمس، ثم نفقت وقد قطعت أرضًا بعيدة، فبنى عليها برجًا يقال له برج العصا، وقالت العرب: «خير ما جاءت به العصا» مثل تضربه، وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيول حتى دخل على الزباء، فلما رأته تكشفت، فإذا هي مضفورة الأسب - والأسب بالباء الموحدة هو شعر الاست - وقالت له: يا جذيمة «أدأب عروس» ترى؟ فذهبت مثلاً. فقال: «بلغ المدى، وجف الثرى، وأمر غدر أرى» فذهبت مثلاً. فقالت له: «أما وإلهي ما بنا من عدم مواس، ولا قلة أواس، ولكنها شيمة ما أناس»، فذهبت مثلاً. وقالت له: أنبئت أن دماء الملوك شفاء من الكلب. ثم أجلسته على نطع وأمرت بطست من ذهب، فأعد له، وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها ثم أمرت براهشيه[1] فقطعا،

(١) الراهشان: عرقان في باطن الذراع.

وقدمت إليه الطست، وقد قيل لها: إن قطر من دمه شيء في غير الطست طلب بدمه ـ وكانت الملوك لا تقتل بضرب الرقبة إلا في قتال تكرمة للملك ـ فلما ضعفت يداه سقطتا، فقطر من دمه في غير الطست، فقالت: لا تضيعوا دم الملك! فقال جذيمة: «دعوا دمًا ضيعه أهله»، فذهبت مثلاً.

فهلك جذيمة وخرج قصير من الحي الذين هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو بن عدي، وهو بالحيرة، فوجده قد اختلف هو وعمرو بن عبد الجن فأصلح بينهما، وأطاع الناس عمرو بن عدي، وقال له قصير: تهيأ واستعد ولا تطل دم خالك[1]. فقال: «كيف لي بها؟ وهي أمنع من عقاب الجو» فذهبت مثلاً، وكانت الزباء سألت كهنة عن أمرها وهلاكها، فقالوا لها: «نرى هلاكك بسبب عمرو بن عدي، ولكن حتفك بيدك»، فحذرت عمراً واتخذت نفقًا من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها، ثم قالت: إن فجأني أمر دخلت النفق إلى حصني، ودعت رجلاً مصوراً حاذقًا فأرسلته إلى عمرو بن عدي متنكراً وقالت له: صوره جالسًا وقائمًا ومتفضلاً ومتنكراً ومتسلحًا بهيئته ولبسه ولونه ثم أقبل إلي. ففعل المصور ما أوصته الزباء وعاد إليها، وأرادت أن تعرف عمرو بن عدي فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرته.

وقال قصير لعمرو: اجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها. فقال عمرو: ما أنا بفاعل. فقال قصير: «خل عني إذًا وخلاك ذم»، فذهبت مثلاً. فقال عمرو: فأنت أبصر، فجدع قصير أنفه ودق بظهره وخرج كأنه هارب وأظهر أن عمراً فعل ذلك به، وسار حتى قدم على الزباء، فقيل لها: إن قصيراً بالباب، فأمرت به فأدخل عليها، فإذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب، فقالت: «لامر ما جدع قصير أنفه»، فذهبت مثلاً. قالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أني غدرت خاله وزينت له المسير إليك ومالأتك عليه ففعل بي ما ترين فأقبلت إليك وعرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك.

فأكرمته، وأصابت عنده بعض ما أرادت من الحزم والرأي والتجربة والمعرفة بأمور الملك، فلما عرف أنها قد استرسلت إليه ووثقت به، قال لها: إن لي بالعراق أموالاً كثيرة، ولي بها طرائف وعطر، فابعثيني لأحمل مالي وأحمل إليك من طرائفها وصنوف ما يكون بها من التجارات فتصيبين أرباحًا وبعض ما لا غنى للملوك عنه.

---

(١) طل دمه: أي أبطله.

فسرحته ودفعت إليه أموالاً وجهزت معه عيرًا، فسار حتى قدم العراق وأتى عمرو بن عدي متخفيًا وأخبره الخبر وقال: جهزني بالبر والطرف وغير ذلك لعل الله يمكن من الزباء فتصيب ثأرك وتقتل عدوك.

فأعطاه حاجته، فرجع بذلك كله إلى الزباء فعرضه عليها، فأعجبها وسرها وازدادت به ثقة، ثم جهزته بعد ذلك بأكثر مما جهزته به في المرة الأولى. فسار حتى قدم العراق وحمل من عند عمرو حاجته ولم يدع طرفة ولا متاعًا قدر عليه، ثم عاد الثالثة فأخبر عمرًا الخبر وقال: اجمع لي ثقات أصحابك وجندك وهيء لهم الغرائر، وهو أول من عملها، واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين وجعل معقد رؤوسهما من باطنهما. وقال له: إذا دخلت مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة، فمن قاتلهم قاتلوه، وإن أقبلت الزباء تريد نفقها قتلها.

ففعل عمرو ذلك وساروا، فلما كانوا قريبًا من الزباء تقدم قصير إليها فبشرها وأعلمها كثرة ما حمل من الثياب والطرائف وسألها أن تخرج وتنظر إلى الإبل وما عليها، وكان قصير يكمن النهار ويسير الليل، وهو أول من فعل ذلك، فخرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ في الأرض، فقالت: يا قصير.

ما للجمال مشيها وئيدًا ... أجندلاً يحملن أم حديدًا

أم صرفانًا باردًا شديدًا ... أم الرجال جثمًا قعودًا

ودخلت الإبل المدينة، فلما توسطتها أنيخت وخرج الرجال من الغرائر، ودل قصير عمرًا على باب النفق وصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح وقام عمرو على باب النفق. وأقبلت الزباء تريد الخروج من النفق، فلما أبصرت عمرًا قائمًا على باب النفق عرفته بالصورة التي عملها المصور، فمصت سمًّا كان في خاتمها، فقالت: «بيدي لا بيد عمرو!» فذهبت مثلاً. وتلقاها عمرو بالسيف فقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة ثم عاد إلى العراق.

وصار الملك بعد جذيمة لابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو ابن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم، وهو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، فلم يزل ملكًا حتى مات، وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة وثماني عشرة سنة، منها أيام الملوك الطوائف خمس وتسعون سنة،

وأيام أردشير بن بابك أربع عشرة سنة وأشهر، وأيام ابنه سابور بن أردشير ثماني سنين وشهران، وكان منفرداً بملكه يغزو المغازي ولا يدين للملوك الطوائف إلى أن ملك أردشير بن بابك أهل فارس. ولم يزل الملك في ولده إلى أن كان آخرهم النعمان بن المنذر، إلى أيام ملوك كندة، على ما نذكره إن شاء الله، وقيل في سبب مسير ولد نصر بن ربيعة إلى العراق غير ما تقدم، وهو رؤيا رآها ربيعة، وسيرد ذكرها عند أمر الحبشة، إن شاء الله تعالى.



ذكر طسم وجَدِيس

(وكانوا أيام ملوك الطوائف)

كان طسم بن لوذ بن أزهر بن سام بن نوح، وجديس بن عامر بن أزهر بن سام ابني عم، وكانت مساكنهم موضع اليمامة، وكان اسمها حينئذ «جوًا»، وكانت من أخصب البلاد وأكثرها خيراً، وكان ملكهم أيام ملوك الطوائف عمليق، وكان ظالمًا قد تمادى في الظلم والغشم والسيرة الكثيرة القبح، وإن امرأة من جديس يقال لها هزيلة طلقها زوجها وأراد أخذ ولدها منها: فخاصمته إلى عمليق وقالت: أيها الملك حملته تسعًا، ووضعته دفعًا، وأرضعته شفعًا، حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصاله، أراد أن يأخذه مني كرهًا، ويتركني بعده ورهًا.

فقال زوجها: أيها الملك إنها أعطيت مهرها كاملاً، ولم أصب منها طائلاً، إلا وليداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلا. فأمر الملك بالغلام فصار في غلمانه وأن تباع المرأة وزوجها فيعطى الزوج خمس ثمنها وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها، فقالت هزيلة:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا ... فأنفذ حكمًا في هزيلة ظالما

لعمري لقد حكمت لا متورعًا ... ولا كنت فيمن يبرم الحكم عالما

ندمت ولم أندم وإنى بعثرتي ... وأصبح بعلي في الحكومة نادما

فلما سمع عمليق قولها أمر أن لا تزوج بكر من جديس وتهدى إلى زوجها حتى يفترعها[1]، فلقوا من ذلك بلاء وجهداً وذلاً، ولم يزل يفعل ذلك حتى زوجت الشموس، وهي عفيرة بنت عباد أخت الأسود، فلما أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق لينالها قبله، ومعها الفتيان، فلما دخلت عليه افترعها وخلى سبيلها، فخرجت إلى قومها في دمائها وقد شقت درعها من قبل ودبر والدم يبين وهي في أقبح منظر تقول:

لا أحد أزل من جديس ... أهكذا يفعل بالعروس

يرضى بذا يا قوم بعل حر ... أهدى وقد أعطى وثيق المهر

---

(١) يفترعها: يفتض بكارتها.

وقالت أيضًا لتحرض قومها:

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد النمل
وتصبح تمشي في الدماء عفيرة جهارًا وزفت في النساء إلى بعل
ولو أننا كنا رجالاً وكنتم نساء لكنا لا نقر بذا الفعل
فموتوا كرامًا أو أميتوا عدوكم وذبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
وإلا فخلوا بطنها وتحملوا إلى بلد قفر وموتوا من الهزل
فللبين خير من مقام على الأذى وللموت خير من مقام على الذل
وإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تعيب من الكحل
ودونكم طيب النساء فإنما خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعدًا وسحقًا للذي ليس دافعًا ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

فلما سمع أخوها الأسود قولها ـ وكان سيدًا مطاعًا ـ قال لقومه: يا معشر جديس إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم في داركم إلا بملك صاحبهم علينا وعليهم، ولولا عجزنا لما كان له فضل علينا، ولو امتنعنا لانتصفنا منه، فأطيعوني فيما آمركم فإنه عز الدهر ـ وقد حمى جديس لما سمعوا من قولها ـ فقالوا: نطيعك ولكن القوم أكثر منا! قال: فإني أصنع للملك طعامًا وأدعوه وأهله إليه، فإذا جاؤوا يرفلون في الحلل أخذنا سيوفنا وقتلناهم. فقالوا: افعل.

فصنع طعامًا فأكثر وجعله بظاهر البلد ودفن هو وقومه سيوفهم في الرمل ودعا الملك وقومه، فجاؤوا يرفلون في حللهم، فلما أخذوا مجالسهم ومدوا أيديهم يأكلون، أخذت جديس سيوفهم من الرمل وقتلوهم وقتلوا ملكهم وقتلوا بعد ذلك السفلة.

ثم إن بقية طسم قصدوا حسان بن تبع ملك اليمن فاستنصروه، فسار إلى اليمامة، فلما كان منها على مسيرة ثلاث قال له بعضهم: إن لي أختًا متزوجة في جديس يقال لها «اليمامة» تبصر الراكب من مسيرة ثلاث، وإني أخاف أن تنذر القوم بك، فمر أصحابك فليقطع كل رجل منهم شجرة فليجعلها أمامه.

فأمرهم حسان بذلك، فنظرت اليمامة فأبصرتهم فقالت لجديس: لقد سارت إليكم حمير. قالوا: وما ترين؟ قالت: أرى رجلاً في شجرة معه كتف يتعرقها

أو نعل يخصفها ـ وكان كذلك ـ فكذبوها، فصبَّحهم حسان فأبادهم، وأتي حسان باليمامة ففقأ عينها، فإذا فيها عروق سود، فقال: ما هذا؟ قالت: حجر أسود كنت أكتحل به يقال له الإثمد، وكانت أول من اكتحل به. وبهذه اليمامة سميت اليمامة، وقد أكثر الشعراء ذكرها في أشعارهم.

ولما هلكت جديس هرب الأسود قاتل عمليق إلى جبلي طيىء فأقام بهما، ذلك قبل أن تنزلهما طيىء، وكانت طيىء تنزل الجرف من اليمن، وهو الآن لمراد وهمدان. وكان يأتي إلى طيىء بعير أزمان الخريف عظيم السمن ويعود عنهم، ولم يعلموا من أين يأتي، ثم إنهم اتبعوه يسيرون بسيره حتى هبط بهم على أجا وسلمى جبلي طيىء، وهما بقرب فيد، فرأوا فيهما النخل والمراعي الكثيرة ورأوا الأسود بن عفار، فقتلوه، وأقامت طيىء بالجبلين بعده، فهم هناك إلى الآن، وهذا أول مخرجهم إليهما.



ذكر أصحاب الكهف[١]

(وكانوا أيام ملوك الطوائف)

كان أصحاب الكهف أيام ملك اسمه «دقيوس»، ويقال دقيانوس، وكانوا بمدينة للروم اسمها «أفسوس»، وملكهم يعبد الأصنام، وكانوا فتية آمنوا بربهم كما ذكر الله تعالى، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[٢]، والرقيم خبرهم كتب في لوح وجعل على باب الكهف الذي أووا إليه، وقيل: كتبه بعض أهل زمانهم وجعله في البناء وفيه أسماؤهم وفي أيام من كانوا وسبب وصولهم إلى الكهف، وقيل كتبه الملك الذي ظهر عليهم. وبنى الكنيسة عليهم، وكانت عدتهم، فيما ذكر ابن عباس، سبعة وثامنهم كلبهم، وقال: أنا من القليل الذين يعلمونهم[٣].

وقال ابن إسحاق: كانوا ثمانية، فعلى قوله يكون تاسعهم كلبهم، وكانوا من الروم، وكانوا يعبدون الأوثان، فهداهم الله، وكانت شريعتهم شريعة عيسى عليه السلام. وزعم بعضهم أنهم كانوا قبل المسيح، وأن المسيح أعلم قومه بهم، وأن الله بعثهم من رقدتهم بعد رفع المسيح، والأول أصح.

وكان سبب إيمانهم أنه جاء حواري من أصحاب عيسى إلى مدينتهم فأراد أن يدخلها، فقيل له: إن على بابها صنمًا لا يدخلها أحد حتى يسجد له، فلم يدخلها وأتى حمامًا قريبًا من المدينة، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام البركة وعلقه الفتية، فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه. فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام، فعيره الحواري

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٧٢) و«البداية» (٢/ ١٠٣).

(٢) سورة الكهف (٩).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (٢/ ١٠٧): قال تعالى ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجمًا بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

قال: فذكر اختلاف الناس في كميتهم، فحكى ثلاثة أقوال، وضعف الأولين، وقرر الثالث فدل على أنه الحق، إذ لو قيل غير ذلك لحكاه، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه، فدل على ما قلناه.

فاستحيا، ثم رجع مرة أخرى فعيره فسبه وانتهره ودخل الحمام ومعه المرأة، فماتا في الحمام، فقيل للملك: إن الذي بالحمام قتلهما، فطلب فلم يوجد، فقيل: من كان يصحبه؟ فذكر الفتية، فطلبوا فهربوا فمروا بصاحب لهم على حالهم في زرع له فذكروا له أمرهم. فسار معهم وتبعهم الكلب الذي له حتى آواهم الليل إلى الكهف، فقالوا: نبيت ههنا حتى نصبح ثم نرى رأينا، فدخلوه فرأوا عنده عين ماء وثمارًا، فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء، فلما جنهم الليل ضرب الله على آذانهم ووكل بهم ملائكة يقلبونهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تأكل الأرض أجسادهم، وكانت الشمس تطلع عليهم.

وسمع الملك دقيانوس خبرهم فخرج في أصحابه يتبعون أثرهم حتى وجدهم قد دخلوا الكهف، وأمر أصحابه بالدخول إليهم وإخراجهم. فكلما أراد رجل أن يدخل أرعب فعاد، فقال بعضهم: أليس لو كنت ظفرت بهم قتلتهم؟ قال: بلى. قال: فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعًا وعطشًا. ففعل، فبقوا زمانًا بعد زمان.

ثم إن راعيًا أدركه المطر فقال: لو فتحت باب هذا الكهف فأدخلت غنمي فيه، ففتحه، فرد الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا، فبعثوا أحدهم بورق[١] ليشتري لهم طعامًا، واسمه تمليخًا[٢]، فلما أتى باب المدينة رأى ما أنكره حتى دخل على رجل فقال: بعني بهذه الدراهم طعامًا. فقال: فمن أين لك هذه الدراهم؟

قال: خرجت أنا وأصحاب لي أمس فلما أصبحنا أرسلوني لأشتري لهم طعامًا. فقال: هذه الدراهم كانت على عهد الملك الفلاني. فرفعه إلى الملك، وكان ملكًا صالحًا، فسأله عنها، فأعاد عليه حالهم. فقال الملك: وأين أصحابك؟ قال: انطلقوا معي. فانطلقوا معه حتى أتوا باب الكهف، فقال: دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم لئلا يسمعوا أصواتكم فيخافوا ظنًا منهم أن دقيانوس قد علم بهم.

فدخل عليهم وأخبرهم الخبر، فسجدوا شكرًا لله وسألوه أن يتوفاهم، فاستجاب لهم. فضرب على أذنه وآذانهم، وأراد الملك الدخول عليهم فكانوا كلما دخل عليهم رجل أرعب، فلم يقدروا أن يدخلوا عليهم، فعاد عنهم، فبنوا عليهم كنيسة يصلون فيها.

---

(١) الورق: الفضة.

(٢) تمليخا: هذا اسم الرجل.

قال عكرمة: لما بعثهم الله كان الملك حينئذ مؤمنًا، وكان قد اختلف أهل مملكته في الروح والجسد وبعثهما، فقال قائل: يبعث الله الروح دون الجسد. وقال قائل: يبعثان جميعًا، فشق ذلك على الملك فلبس المسوح وسأل الله أن يبين له الحق، فبعث الله أصحاب الكهف بكرة، فلما بزغت الشمس قال بعضهم لبعض: قد غفلنا هذه الليلة عن العبادة، فقاموا إلى الماء، وكان عند الكهف عين وشجرة، فإذا العين قد غارت والأشجار قد يبست، فقال بعضهم لبعض:

إن أمرنا لعجب! هذه العين غارت وهذه الأشجار يبست في ليلة واحدة! وألقى الله عليهم الجوع، فقالوا أيكم يذهب إلى المدينة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[1].

فدخل أحدهم يشتري الطعام، فلما رأى السوق عرف طرقها وأنكر الوجوه ورأى الإيمان ظاهرًا بها، فأتى رجلاً يشتري منه، فأنكر الدراهم، فرفعه إلى الملك، فقال الفتى: أليس ملككم فلان؟ فقال الرجل: لا بل فلان فعجب لذلك. فلما أحضر عند الملك أخبره بخبر أصحابه، فجمع الملك الناس وقال لهم: إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد، وإن الله قد بعث لكم آية هذا الرجل من قوم فلان - يعني الملك الذي مضى - فقال الفتى: انطلقوا بي إلى أصحابي، فركب الملك والناس معه، فلما انتهى إلى الكهف قال الفتى للملك: ذروني أسبقكم إلى أصحابي أعرفهم خبركم لئلا يخافوا إذا سمعوا وقع حوافر دوابكم وأصواتكم فيظنوكم دقيانوس. فقال: افعل، فسبقهم إلى أصحابه ودخل على أصحابه فأخبرهم الخبر، فعلموا حينئذ مقدار لبثهم في الكهف وبكوا فرحًا ودعوا الله أن يميتهم ولا يراهم أحد ممن جاءهم، فماتوا لساعتهم، فضرب الله على آذانه وآذانهم معه.

فلما استبطأوه دخلوا إلى الفتية فإذا أجسادهم لا ينكرون منها شيئًا غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آية لكم. ورأى الملك تابوتًا من نحاس مختومًا بخاتم، ففتحه، فرأى فيه لوحًا من رصاص مكتوبًا فيه أسماء الفتية وأنهم هربوا من دقيانوس الملك مخافة على نفوسهم ودينهم فدخلوا هذا الكهف. فلما علم دقيانوس بمكانهم بالكهف سده عليهم. فليعلم من يقرأ كتابنا هذا شأنهم.

---

(١) سورة الكهف (١٩).

فلما قرأوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم هذه الآية للبعث ورفعوا أصواتهم بالتحميد والتسبيح.

وقيل: إن الملك ومن معه دخلوا على الفتية فرأوهم أحياء مشرقة وجوههم وألوانهم لم تبل ثيابهم، وأخبرهم الفتية بما لقوا من ملكهم دقيانوس، واعتنقهم الملك، وقعدوا معه يسبحون الله ويذكرونه. ثم قالوا له: نستودعك الله. ورجعوا إلى مضاجعهم كما كانوا، فعمل الملك لكل رجل منهم تابوتًا من الذهب، فلما نام رآهم في منامه وقالوا: إننا لم نخلق من الذهب إنما خلقنا من التراب وإليه نصير، فعمل لهم حينئذ توابيت من خشب، فحجبهم الله بالرعب، وبنى الملك على باب الكهف مسجداً وجعل لهم عيداً عظيمًا.

وأسماء الفتية: مكسلمينا وتمليخا ومرطوس ونيرويس وكسطومس ودينموس وريطوفس وقالوس ومحسيلمينيا، وهذه تسعة أسماء، وهي أتم الروايات، والله أعلم، وكلبهم قطمير.



ذكر يونس بن متى عليه السلام (١)

وكان أمره من الأحداث أيام ملوك الطوائف.

قيل: لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى، وهي أمه، وكان من قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى، وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوحيد، فأقام فيها ثلاثًا وثلاثين سنة يدعوهم، فلم يؤمن غير رجلين، فلما أيس من إيمانهم دعا عليهم، فقيل له: «ما أسرع ما دعوت على عبادي»! ارجع إليهم فادعهم أربعين يومًا، فدعاهم سبعة وثلاثين يومًا، فلم يجيبوه فقال لهم: إن العذاب يأتيكم إلى ثلاثة أيام، وآية ذلك ألوانكم تتغير.

فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم، فقالوا: قد نزل بكم ما قال يونس ولم نجرب عليه كذبًا فانظروا فإن يبت فيكم فأمنوا من العذاب، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب يصبحكم. فلما كانت ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب، فخرج من بين أظهرهم. فلما كان الغد تغشاهم العذاب فوق رؤوسهم، خرج عليهم غيم أسود هائل يدخن دخانًا شديدًا، ثم نزل إلى المدينة فاسودت منه سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس فلم يجدوه، فألهمهم الله التوبة، فأخلصوا النية في ذلك وقصدوا شيخًا وقالوا له: قد نزل بنا ما ترى فما نفعل؟

فقال: «آمنوا بالله وتوبوا وقولوا: يا حي يا قيوم، يا حي حين لا حي، يا حي محيي الموتى، يا حي لا إله إلا أنت». فخرجوا من القرية إلى مكان رفيع في براز من الأرض وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله واستقالوه وردوا المظالم جميعًا حتى إن كان أحدهم ليقلع الحجر من بنائه فيرده إلى صاحبه،

فكشف الله عنهم العذاب، وكان يوم عاشوراء يوم الأربعاء ـ وقيل: للنصف من شوال يوم الأربعاء ـ وانتظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مر به مار فقال:

---

(١) كذا ذكره هنا ابن الأثير تبعًا للطبري في «تاريخه» (١/ ٣٧٥).

وهذا فيه نظر، فالصحيح أنه كان قبل عيسى بن مريم عليه السلام كما هو صنيع الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ٢١٦) ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، الأنبياء أولاد علات، وليس بيني وبينه نبي**»، رواه الشيخان من حديث أبي هريرة.

ما فعل أهل القرية؟ فقال: تابوا إلى الله فقبل منهم وأخر عنهم العذاب. فغضب يونس عند ذلك فقال: «والله لا أرجع كذابًا». ولم تكن قرية رد الله عنهم العذاب بعدما غشيهم ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ ومضى غاضبًا لربه. وكان فيه حدة وعجلة وقلة صبر، ولذلك نهى النبي، ﷺ، أن يكون مثله، فقال تعالى: ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[1]. ولما مضى ظن أن الله لا يقدر عليه، أي يقضي عليه العقوبة، وقيل: يضيق عليه الحبس، فسار حتى ركب في سفينة فأصاب أهلها عاصف من الريح، وقيل: بل وقفت فلم تسر، فقال من فيها: هذا بخطيئة أحدكم! فقال يونس: هذه خطيئتي فألقوني في البحر.

فأبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم فساهم[2] فكان من المدحضين[3]، فلم يلقوه، وفعلوا ذلك ثلاثًا ولم يلقوه، فألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل، فالتقمه[4] الحوت، فأوحى الله إلى الحوت أن يأخذه ولا يخدش له لحمًا ولا يكسر له عظمًا، فأخذه وعاد إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى إليه سمع يونس حسًا فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر - فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. فقال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد له كل يوم عمل صالح؟ فشفعوا له عند ذلك، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[5] - ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل - ﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[6] وكان قد سبق له من العمل الصالح، فأنزل الله فيه: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[7] وذلك أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[8]، ألقي على ساحل البحر وهو كالصبي المنفوس، ومكث في بطن الحوت

---

(١) سورة القلم (٤٨).

(٢) فساهم: أي قارع.

(٣) المدحضين: المغلوبين.

(٤) هذا رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٧٦، ٣٧٧) عن الربيع بن أنس عن رجل لم يسمه

(٥) سورة الأنبياء (٨٧).

(٦) سورة الأنبياء (٨٧).

(٧) سورة الصافات (١٤٣، ١٤٤)

(٨) سورة الصافات (١٤٥).

أربعين يومًا، وقيل: عشرين يومًا، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، والله أعلم.

وأنبت الله عليه شجرة من يقطين - وهو القرع - يتقطر إليه من اللبن، وقيل: هيأ الله له أروية وحشية، فكانت ترضعه بكرة وعشية حتى رجعت إليه قوته وصار يمشي، فرجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها قد يبست، فحزن وبكى عليها، فعاتبه الله، وقيل له: أتبكي وتحزن على الشجرة ولا تحزن على مائة ألف وزيادة أردت أن تهلكهم؟!

ثم إن الله أمره أن يأتي قومه فيخبرهم أن الله قد تاب عليهم، فعمد إليهم، فلقي راعيًا، فسأله عن قوم يونس، فأخبره أنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم، قال: فأخبرهم أنك قد لقيت يونس. قال: لا أستطيع إلا بشاهد فسمى له عنزًا من غنمه والبقعة التي كانا فيها وشجرة هناك، وقال: كل هذه تشهد لك.

فرجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه رأى يونس، فهموا به، فقال: لا تعجلوا حتى أصبح. فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس فاستنطقها، فشهدت له، وكذلك الشاة والشجرة وكان يونس قد اختفى هناك. فلما شهدت الشاة قالت لهم: إن أردتم نبي الله فهو بمكان كذا وكذا فأتوه، فلما رأوه قبلوا يديه ورجليه وأدخلوه المدينة بعد امتناع، فمكث مع أهله وولده أربعين يومًا وخرج سائحًا، وخرج الملك معه يصحبه وسلم الملك إلى الراعي، فأقام يدبر أمرهم أربعين سنة بعد ذلك. ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك.

وقال ابن عباس وشهر بن حوشب: كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت، وقالا: كذلك أخبر الله تعالى في سورة الصافات فإنه قال: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1].

وقال شهر: إن جبريل أتى يونس فقال له: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم العذاب فإنه قد حضرهم. قال: ألتمس دابة. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: قال: ألتمس حذاء. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: فغضب وانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب احتبست، قال: فساهموا، فسهم، فجاءت الحوت، فنودي الحوت: إنا لم نجعل يونس من رزقك إنما جعلناك له حرزًا، فالتقمه الحوت وانطلق به من ذلك المكان حتى مر به على أُبُلَّة، ثم انطلق به على دجلة حتى ألقاه بنينوى.

(١) سورة الصافات (١٤٥- ١٤٧).

ومما كان من الأحداث أيام ملوك الطوائف

إرسال الله تعالى الرسل الثلاثة إلى مدينة أنطاكية، وكانوا من الحواريين أصحاب المسيح، وأرسل أولاً اثنين(١)، وقد اختلف في أسمائهما، فقدما أنطاكية فرأيا عندها شيخًا يرعى غنمًا، وهو حبيب النجار، فسلما عليه، فقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله تعالى. قال: معكما آية؟ قالا: نعم، نحن نشفي المرضى ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

قال حبيب إن لي ابنًا مريضًا مذ سنين، وأتى بهما منزله، فمسحا ابنه، فقام في الوقت صحيحًا، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك اسمه أنطيخس يعبد الأصنام، فبلغ إليه خبرهما، فدعاهما، فقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى ندعوك إلى الله تعالى. قال: فما آيتكما؟ قالا: نبرئ الأكمه والأبرص ونشفي المرضى بإذن الله.

فقال: قوما حتى ننظر في أمركما، فقاما، فضربهما العامة، وقيل: إنهما قدما المدينة فبقيا مدة لا يصلان إلى الملك، فخرج الملك يومًا، فكبرا وذكرا الله، فغضب وحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة.

فلما كذبا وضربا بعث المسيح شمعون رأس الحواريين لينصرهما، فدخل البلد متنكراً وعاشر حاشية الملك، فرفعوا خبره إلى الملك، فأحضره ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، فقال له يومًا: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى دينهما فهل كلمتهما وسمعت قولهما؟

---

(١) في هذا الكلام نظر، قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ٢١٤، ٢١٥) بعد أن حكى قول من قال أن هؤلاء كانوا رسلاً من المسيح إلى أنطاكية؛ قال: وهذا القول ضعيف جداً، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين.
قال: لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا فكذبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا، والله أعلم.
وأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله. انتهى باختصار.
ثم مال الحافظ ابن كثير في آخر كلامه في الباب إلى أن هذه القرية ليست أنطاكية.

فقال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك أن يحضرهما حتى نسمع كلامهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء ولا شريك له. قال: فصفاه وأوجزا. قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال شمعون: فما آيتكما؟ قالا: ما تتمناه فأمر الملك، فجيء بغلام مطموس العينين موضعهما كاللحمة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، وأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما. فعجب الملك لذلك فقال: إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما. قالا: إن إلهنا قادر على كل شيء. فقال الملك: إن ههنا ميتًا منذ سبعة أيام فلم ندفنه حتى يرجع أبوه وهو غائب، فأحضر الميت وقد تغيرت ريحه، فدعوا الله تعالى علانية وشمعون يدعو سرًا، فقام الميت فقال لقومه: إني مت مشركًا وأدخلت في أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه. ثم قال: فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيت شابًا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. فقال الملك: ومن هم؟ فقال: هذا، وأومأ إلى شمعون - وهذان - وأشار إليهما - فعجب الملك، فحينئذ دعا شمعون الملك إلى دينه، فآمن قومه، وكان الملك فيمن آمن وكفر آخرون.

وقيل: بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيبًا النجار، وهو على باب المدينة، فجاء يسعى إليهم فيذكرهم ويدعوهم إلى طاعة الله وطاعة المرسلين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[1]، وهو شمعون، فأضاف الله تعالى الإرسال إلى نفسه، وإنما أرسلهم المسيح لأنه أرسلهم بإذن الله تعالى، فلما كذبهم أهل المدينة، حبس الله عنهم المطر، فقال أهلها للرسل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾[2] بالحجارة، وقيل: لنقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، فلما حضر حبيب، وكان مؤمنًا يكتم إيمانه، وكان يجمع كسبه كل يوم وينفق على عياله نصفه ويتصدق بنصفه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[4]. فقال قومه: وأنت مخالف لربنا ومؤمن بإله هؤلاء؟ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5]، فلما قال ذلك قتلوه،

(١) سورة يس (١٤).
(٢) سورة يس (١٨)
(٣) سورة يس (١٨).
(٤) سورة يس (٢٠).
(٥) سورة يس (٢٢).

فأوجب الله له الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[١] وأرسل الله عليهم صيحة فماتوا.

ومما كان من الأحداث شمسون[٢]

وكان من قرية من قرى الروم قد آمن، وكانوا يعبدون الأصنام، وكان على أميال من المدينة، وكان يغزوهم وحده ويقاتلهم بلحى جمل. فكان إذا عطش انفجر له من الحجر الذي فيه ماء عذب فيشرب منه، وكان قد أعطي قوة لا يوثقه حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدهم ويصيب منهم ولا يقدرون منه على شيء، فجعلوا لامرأته جعلاً[٣] لتوثقه لهم، فأجابتهم إلى ذلك، فأعطوها حبلاً وثيقًا، فتركته حتى نام وشدت يديه، فاستيقظ وجذبه، فسقط الحبل من يديه، فأرسلت إليهم فأعلمتهم، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد، فتركتها في يديه وعنقه وهو نائم، فاستيقظ وجذبها فسقطت من عنقه ويديه، فقال لها في المرتين: ما حملك على ما صنعت؟

فقالت: أريد أن أجرب قوتك وما رأيت مثلك في الدنيا فهل في الأرض شيء يغلبك؟ قال: نعم شيء واحد، فلم تزل تسأله عنه حتى قال لها: ويحك لا يضبطني إلا شعري! فلما نام أوثقت يديه بشعر رأسه، وكان كثيرًا ـ فأرسلت إليهم، فجاؤوا فأخذوه فجدعوا أنفه وأذنيه وفقأوا عينيه وأقاموه للناس. وجاء الملك لينظر إليه، وكانت المدينة على أساطين، فدعا الله شمسون أن يسلطه عليهم، فأمر أن يؤخذ بعمودين من عمد المدينة فيجذبهما، ويرد إليه بصره وما أصابوه من جسده، وجذب العمودين فوقعت المدينة بالملك والناس وهلك من فيها هدمًا. وكان شمسون أيام ملوك الطوائف.

ومما كان من الأحداث أيضًا جرجيس[٤]

قيل: كان بالموصل ملك يقال له «دازانه»، وكان جبارًا عاتيًا، وكان جرجيس رجلاً صالحًا من أهل فلسطين يكتم إيمانه مع أصحاب له صالحين، وكانوا قد أدركوا بقايا من الحواريين فأخذوا عنهم، وكان جرجيس كثير التجارة عظيم الصدقة، وربما

---

(١) سورة يس (٢٦، ٢٧).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٨١).

(٣) الجعل: ما يجعل على العمل.

(٤) «تاريخ البداية» (١/ ٣٨٢).

نفد ماله في الصدقة ثم يعود يكتسب مثله، ولولا الصدقة لكان الفقر أحب إليه من الغنى، وكان يخاف بالشام أن يفتتن عن دينه، فقصد الموصل ومعه هدية لملكها لئلا يجعل لأحد عليه سبيلاً، فجاءه حين جاءه وقد أحضر عظماء قومه وأوقد ناراً وأعد أصنافًا من العذاب وأمر بصنم له يقال له «أفلون» فنصب، فمن لم يسجد له عذبه وألقي في النار.

فلما رأى جرجيس ما يصنع استعظمه وحدث نفسه بجهاده، فعمد إلى المال الذي معه فقسمه في أهل ملته وأقبل عليه وهو شديد الغضب فقال له: اعلم أنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئًا ولا لغيرك شيئًا، وأن فوقك ربًا هو الذي خلقك ورزقك، فأخذ في ذكر عظمة الله تعالى وعيب صنمه. فأجابه الملك بأن يسأل من هو ومن أين هو؟ فقال جرجيس: أنا عبد الله وابن أمته من التراب خلقت وإليه أعود.

فدعاه الملك إلى عبادة صنمه وقال له: لو كان ربك ملك الملكوت لرؤي عليك أثره كما ترى على من حولي من ملوك قومي. فأجابه جرجيس بتعظيم أمر الله وتمجيده وقال له: تعبد أفلون الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني من رب العالمين، أم تعبد الذي قامت بأمره السموات والأرض، أم تعبد طرفلينا عظيم قومك من الناس عليه السلام، فإنه كان آدميًا يأكل ويشرب فأكرمه الله بأن جعله إنسيًا ملكيًا، أم تعبد عظيم قومك مخليطيس أيضًا وما نال بولايتك من عيسى عليه السلام! وذكر من معجزاته وما خصه الله به من الكرامة.

فقال له الملك: إنك أتيتنا بأشياء لا نعلمها! ثم خيره بين العذاب والسجود للصنم. فقال جرجيس: إن كان صنمك هو الذي رفع السماء، وعدد أشياء من قدرة الله، عز وجل، فقد أصبت ونصحت، وإلا فاخسأ أيها الملعون.

فلما سمع الملك أمر بحبسه ومشط جسده بأمشاط الحديد حتى تقطع لحمه وعروقه، وينضح بالخل والخردل، فلم يمت. فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت حتى صارت ناراً ثم سمر بها رأسه، فسال دماغه، فحفظه الله تعالى. فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى جعله ناراً ثم أدخله فيه وأطبق عليه حتى برد. فلما رأى ذلك لم يقتله دعاه وقال له: ألم تجد ألم هذا العذاب؟ قال: إن إلهي حمل عني عذابك وصبرني ليحتج عليك.

فأيقن الملك بالشر وخافه على نفسه وملكه فأجمع رأيه على أن يخلده في

السجن، فقال الملأ من قومه: إنك إن تركته في السجن طليقًا يكلم الناس ويميل بهم عليك، ولكن يعذب بعذاب يمنعه من الكلام. فأمر به فبطح في السجن على وجهه ثم أوتد في يديه ورجليه أوتادًا من حديد، ثم أمر بأسطوان من رخام حمله ثمانية عشر رجلاً فوضع على ظهره، فظل يومه ذاك تحت الحجر، فلما أدركه الليل أرسل الله إليه ملكًا، وذلك أول ما أيد بالملائكة، فأول ما جاءه الوحي قلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه وبشره وعزاه.

فلما أصبح أخرجه من السجن فقال له: «الحق بعدوك فجاهده، فإني قد ابتليتك به سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن أربع مرات في كل ذلك أرد إليك روحك، فإذا كانت القتلة الرابعة تقبلت روحك وأوفيتك أجرك».

فلم يشعر الملك إلا وقد وقف جرجيس على رأسه يدعوه إلى الله، فقال له: أجرجيس؟ قال: نعم. قال: من أخرجك من السجن؟ قال: أخرجني من سلطانه فوق سلطانك!

فملئ غيظًا ودعا بأصناف العذاب ومدُّوه بين خشبتين ووضعوا على رأسه سيفًا ثم أشروه[1] حتى سقط بين رجليه وصار جزلتين، ثم قطعوهما قطعًا، وكان له سبعة أسد ضارية في جب فألقوا جسده إليها، فلما رأته خضعت برؤوسها وقامت على برائنها[2] لا تألوا أن تقيه الأذى الذي تحتها، فظل يومه تحتها ميتًا، فكانت أول ميتة ذاقها.

فلما أدركه الليل جمع الله جسده وسواه ورد فيه روحه وأخرجه من قعر الجب. فلما أصبحوا أقبل جرجيس، وهم في عيد لهم صنعوه فرحًا بموت جرجيس، فلما نظروا إليه مقبلاً قالوا: ما أشبه هذا بجرجيس!

قال الملك: هو هو! قال جرجيس: أنا هو حقًّا، بئس القوم أنتم! قتلتم ومثلتم فرد الله روحي إليَّ! هلموا إلى هذا الرب العظيم الذي أراكم قدرته. فقالوا: ساحر سحر أعينكم وأيديكم عنه.

فجمعوا من بيلادهم من السحرة، فلما جاؤوا قال الملك لكبيرهم: اعرض علي من سحرك ما يسرى به عني. فدعا بثور فنفخ في أذنيه فإذا هو ثوران، ودعا ببذر

---

(١) أشروه: شقوه.

(٢) برائنها: مخالبها.

فبذر وحرث وزرع وحصد ودق وذرى وطحن وخبز وأكل من ساعته. فقال له الملك: هل تقدر أن تمسخه كلبًا؟ قال: ادع لي بقدح من ماء، فأتي به، فنفث فيه الساحر ثم قال الملك لجرجيس: اشربه، فشربه جرجيس حتى أتى على آخره. فقال له الساحر: ماذا تجد؟ قال: ما أجد إلا خيراً! كنت عطشان فلطف الله بي فسقاني. وأقبل الساحر على الملك وقال: لو كنت تقاسي جباراً مثلك لغلبته إنما تقاسي جبار السماء والأرض.

وكانت أتت جرجيس امرأة من الشام، وهو في أشد العذاب، فقالت له: إنه لم يكن لي مال إلا ثوراً أعيش به من حرثه فمات، وجئتك لترحمني وتسأل الله أن يحيي ثوري. فأعطاها عصًا وقال: اذهبي إلى ثورك فاضربيه بهذه العصا وقولي له: احيى بإذن الله. فأخذت العصا وأتت مصرع الثور فرأت روقيه[1] وشعر ذنبه فجمعتها ثم قرعتها بالعصا وقالت ما أمرها به جرجيس، فعاش ثورها، وجاء الخبر بذلك ـ فلما قال الساحر ما قال، قال رجل من أصحاب الملك ـ وكان أعظمهم بعد الملك ـ اسمعوا مني. قالوا: نعم. قال: إنكم قد وضعتم أمره على السحر، وإنه لم يعذب ولم يقتل، فهل رأيتم ساحراً قط قدر أن يدفع عن نفسه أو أحيا ميتًا؟ وذكر الثور وإحياءه.

فقالوا له: إن كلامك كلام رجل قد أصغى إليه. فقال: قد آمنت به وأشهد الله أني بريء مما تعبدون.

فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقطعوا لسانه بالخناجر، فلم يلبث أن مات، وقيل: أصابه الطاعون فأعجله قبل أن يتكلم، وكتموا شأنه، فكشفه جرجيس للناس، فاتبعه أربعة آلاف وهو ميت، فقتلهم الملك بأنواع العذاب حتى أفناهم، وقال له رجل من عظماء أصحاب الملك: يا جرجيس إنك زعمت أن إلهك يبدأ الخلق ثم يعيده، وإني سائلك أمراً إن فعله إلهك آمنت به وصدقتك وكفيتك قومي. هذا تحتنا أربعة عشر منبراً ومائدة وأقداح وصحاف من خشب يابس وهو من أشجار شتى فادع ربك أن يعيدها خضراً كما بدأها يعرف كل عود بلونه وورقه وزهره وثمره. قال جرجيس: قد سألت أمراً عزيزاً علي وعليك، وإنه على الله يسير.

ودعا الله فما برحوا حتى اخضرت وساخت عروقها وتشعبت ونبت ورقها وزهرها حتى عرفوا كل عود باسمه، فقال الذي سأله هذا: أنا أتولى عذابه.

---

(١) الروق: القرن.

فعمد إلى نحاس فصنع منه صورة ثور مجوف ثم حشاها نفطًا ورصاصًا وكبريتًا وزرنيخًا وأدخل جرجيس في وسطها ثم أوقد تحت الصورة النار حتى التهبت وذاب كل شيء فيها واختلط ومات جرجيس في جوفها.

فلما مات أرسل الله ريحًا عاصفًا ورعدًا وبرقًا وسحابًا مظلمًا وأظلم ما بين السماء والأرض وبقوا أيامًا متحيرين، فأرسل الله ميكائيل، فاحتمل تلك الصورة، فلما أقلها ضرب بها الأرض، ففزع من روعتها كل من سمعها وانكسرت وخرج منها جرجيس حيًا.

فلما وقف وكلمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض، قال له عظيم من عظمائهم: ادع الله بأن يحيي موتانا من هذه القبور.

فأمر جرجيس بالقبور فنبشت وهي عظام رفات، ثم دعا فما برحوا حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانًا، تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبية وفيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: متى مت؟ فقال: في زمان كذا وكذا، فإذا هو أربعمائة عام.

فلما رأى ذلك الملك قال: لم يبق من عذابكم شيء إلا وقد عذبتموه وأصحابه به إلا الجوع والعطش، فعذبوه به. فعمدوا إلى بيت عجوز فقيرة، وكان لها ابن أعمى أبكم مقعد، فحصروه فيه، فلا يصل إليه طعام ولا شراب. فلما جاع قال للعجوز: هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: لا والذي يحلف به ما لنا عهد بالطعام منذ كذا وكذا وسأخرج لألتمس لك شيئًا. فقال لها: هل تعبدين الله؟ قالت: لا. فدعاها فآمنت، وانطلقت تطلب له شيئًا، وفي بيتها دعامة خشب يابسة تحمل خشب البيت، فدعا الله فاخضرت تلك الدعامة وأنبتت كل فاكهة تؤكل وتعرف، فظهر للدعامة فروع من فوق البيت تظله وما حوله، وعادت العجوز وهو يأكل رغدًا. فلما رأت الذي حدث في بيتها قالت: آمنت بالذي أطعمك في بيت الجوع، فادع هذا الرب العظيم أن يشفي ابني. قال: أدنيه مني، فأدنته، فبصق في عينيه فأبصر، فنفث في أذنيه فسمع. قالت له: أطلق لسانه ورجليه. قال لها: أخريه فإن له يومًا عظيمًا.

ورأى الملك الشجرة فقال: أرى شجرة ما كنت أعهدها! قالوا: تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبه بالجوع وقد شبع منها وأشبعت العجوز، وشفى لها ابنها.

فأمر بالبيت فهدم، وبالشجرة أن تقطع، فلما هموا بقطعها أيبسها الله وتركوها. وأمر بجرجيس فبطح على وجهه، وأمر بعجل فأوقر أسطوانًا وجعل في أسفل العجل خناجر وشفارًا ثم دعا بأربعين ثورًا فنهضت بالعجل نهضة واحدة وجرجيس تحتها، فانقطع ثلاث قطع، ثم أمر بقطعه فأحرقت حتى صارت رمادًا، وبعث بالرماد مع رجال فذروه في البحر، فلم يبرحوا حتى سمعوا صوتًا من السماء: يا بحر إن الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب فإني أريد أن أعيده. فأرسل الرياح فجمعته كما كان قبل أن يذروه، والذين ذروه قيام لم يبرحوا.

وخرج جرجيس حيًّا مغبرًا، فرجعوا ورجع معهم وأخبروا الملك خبر الصوت والرياح. فقال له الملك: هل لك فيما هو خير لي ولك؟ ولولا أن يقال أنك غلبتني لآمنت بك، ولكن اسجد لصنمي سجدة واحدة أو اذبح له شاة واحدة وأنا أفعل ما يسرك. فطمع جرجيس في إهلاك الصنم حين يراه وإيمان الملك عند ذلك، فقال له: أفعل ـ خديعة منه ـ وأدخلني على صنمك أسجد له وأذبح.

فرح الملك بذلك وقبل يديه ورجليه وطلب منه أن يكون يومه وليلته عنده، ففعل، فأخلى له الملك بيتًا ودخله جرجيس، فلما جاء الليل قام يصلي ويقرأ الزبور، وكان حسن الصوت، فلما سمعته امرأة الملك استجابت له وآمنت به وكتمت إيمانها.

فلما أصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها، وقيل للعجوز: إن جرجيس قد افتتن وطمع في الملك. فخرجت تحمل ابنها على عاتقها في أغراضها توبخ جرجيس، فلما دخل بيت الأصنام نظر فإذا العجوز وابنها أقرب الناس إليه، فدعا ابنها، فأجابه وما تكلم قبل ذلك قط، ثم نزل عن عاتق أمه يمشي على قدميه سويتين وما وطىء الأرض قط. فلما وقف بين يدي جرجيس قال له: ادع لي هذه الأصنام، وهي على منابر من ذهب واحد وسبعون صنمًا، وهم يعبدون الشمس والقمر معها، فدعاها، فأقبلت تتدحرج إليه. فلما انتهت إليه ركض برجله الأرض فخسف بها وبمنابرها، فقال له الملك: يا جرجيس خدعتني وأهلكت أصنامي! فقال له: فعلت ذلك عمدًا لتعتبر وتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنعت مني.

فلما قال هذا قالت امرأة الملك وأظهرت إسلامها وعددت عليهم أفعال جرجيس وقالت: ما تنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فتهلكون كما هلكت أصنامكم. فقال الملك: ما أسرع ما أضلك هذا الساحر.

ثم أمر بها فعلقت على خشبة، ثم مشط لحمها بمشاط الحديد، فلما آلمها العذاب قالت لجرجيس: ادع الله أن يخفف عني الألم. فقال: انظري فوقك. فنظرت فضحكت. فقال لها الملك: ما يضحكك؟ قالت: أرى على رأسي ملكين معهما تاج من حلي الجنة ينتظران خروج روحي ليزيناني به ويصعدا بها إلى الجنة.

فلما ماتت أقبل جرجيس على الدعاء وقال: اللهم أكرمتني بهذا البلاء لتعطيني فضل منازل الشهداء، وهذا آخر أيامي فأسألك أن تنزل بهؤلاء المنكرين من سطواتك وعقوبتك ما لا قبل لهم به، فأمطر الله عليهم النار فأحرقتهم. فلما احترقوا بحرها عمدوا إليه فضربوه بالسيوف فقتلوه، وهي القتلة الرابعة. فلما احترقت المدينة بجميع ما فيها رفعت من الأرض وجعل عاليها سافلها، فلبثت زمانًا يخرج من تحتها دخان منتن.

وكان جميع من آمن به وقتل معه أربعة وثلاثين ألفًا وامرأة الملك[١].

ذكر خالد بن سنان العبسي[٢]

وممن كان في الفترة خالد بن سنان العبسي، قيل: كان نبيًّا[٣]، وكان من معجزاته أن نارًا ظهرت بأرض العرب فافتتنوا بها وكانوا يتمجسون، فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسطها ففرقها، وهو يقول: بددا بددا، كل هاد مؤد إلى الله الأعلى لأدخلنها وهي تلظى ولأخرجن منها وثيابي تندى. ثم إنها طفئت وهو في

---

(١) هذه القصة أخرجها ابن جرير الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٨٢- ٣٨٨) عن وهب بن منبه وغيره من أهل العلم، والظاهر أنها من الإسرائيليات وفيها ركاكة وغرابة، والله أعلم.

(٢) «البداية» (٢/ ١٩٥- ١٩٧).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في المصدر السابق الأشبه أنه كان رجلاً صالحًا له أحوال وكرامات، فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في «صحيح البخاري» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أولى الناس بعيسى بن مريم أنا لأنه ليس بيني وبينه نبي**».
وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبيًّا لأن الله تعالى قال: ﴿**لتنذر قومًا ما آتاهم من نذير من قبلك**﴾ وقد قال غير واحد من العلماء، إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبيًّا في العرب إلا محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم.
وبهذا المسلك بعينه يرد ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له: شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين وبعث إلى العرب أيضًا حنظلة بن صفوان فكذبوهما فسلط الله على العرب بختنصر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل، وذلك في زمن معد بن عدنان، والظاهر أن هؤلاء كانوا قومًا صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم. انتهى باختصار.

وسطها. فلما حضرته الوفاة قال لأهله: إذا دفنت فإنه ستجيء عانة من حمير يقدمها عير أبتر أقمر فيضرب قبري بحافره، فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عني فإني سأخبركم بجميع ما هو كائن.

فلما مات ودفنوه رأوا ما قال، فأرادوا نبشه، فكره ذلك بعضهم وقالوا: نخاف إن نبشناه أن تسبنا العرب بأنا نبشنا ميتًا لنا فتركوه. فقيل إن النبي ﷺ قال فيه: «ذلك نبي ضيعه قومه»[1]، وأتت ابنته النبي ﷺ فآمنت به.

كذا قيل إنه آخر الحوادث أيام ملوك الطوائف، ولا وجه له، فإن من أدركت ابنته النبي ﷺ يكون بعد اجتماع الملك لأردشير بن بابك بدهر طويل.

ونرجع إلى أخبار ملوك الفرس لسياق التاريخ، ونقدم قبل ذكرهم عدد الملوك الأشغانية من ملوك الطوائف وطبقات ملوك الفرس، إن شاء الله تعالى.



(١) ضعيف: أخرجه الحاكم (٤١٧٣) عن ابن عباس، وقال الألباني في «الضعيفة» (٢٨١): لا يصح. وأشار الحافظ ابن كثير في «البداية» (٢/١٩٦) إلى ضعف سنده.

ذكر طبقات ملوك الفرس

الطبقة الأولى الفيشداذية ملوك الأرض بعد جيومرث أوشهنج، وملك فيشداذ أربعين سنة، ومعنى فيشداذ أول حاكم.

ملك بعده طهمورث بن نوجهان ثلاثين سنة. ثم ملك أخوه جمشيد سبعمائة وست عشرة سنة. ثم ملك بيوراسف بن أروندسف ألف سنة. ثم ملك أفريدون ابن أثفيان خمسمائة سنة. ثم ملك منوجهر مائة وعشرين سنة. ثم ملك أفراسياب التركي اثنتي عشرة سنة. ثم ملك زو بن تهماسف ثلاث سنين. ثم ملك كرشاسب تسع سنين.

الطبقة الثانية الكيانية

ثم ملك كيقباذ مائة وستًا وعشرين سنة. ثم ملك كيكاووس مائة وخمسين سنة. ثم ملك كيخسرو ثمانين سنة. ثم ملك كي لهراسب مائة وعشرين سنة. ثم ملك كي بشتاسب مائة وعشرين سنة. ثم ملك كي بهمن مائة واثنتي عشرة سنة. ثم ملك خماني جهرازاد ثلاثين سنة. ثم ملك أخوه دارا بن بهمن اثنتي عشرة سنة. ثم ملك ابنه دارا بن دارا أربع عشرة سنة، وهو الذي أخذ الإسكندر الملك منه.

وكان ملك الإسكندر بعده أربع عشرة سنة.

الطبقة الثالثة الأشغانية

وهم الذين استولوا على العراق والجبال، وكان سائر ملوك الطوائف يعظمونهم. فأول ملوك الأشغانيين أيام ملوك الطوائف أشك، ملك اثنتين وخمسين سنة. ثم ملك ابنه شابور بن أشك أربعًا وعشرين سنة. ثم ملك ابنه جوذرز بن شابور، وهو الذي غزا بني إسرائيل بعد قتل يحيى بن زكريا، خمسين سنة. ثم ملك ابن أخيه ويجن بن بلاش إحدى وعشرين سنة. ثم ملك جوذرز بن ويجن تسع عشرة سنة. ثم ملك أخوه نرسه ثلاثين سنة. ثم ملك عمه هرمزان بن بلاش بن شابور تسع عشرة سنة. ثم ملك ابنه فيروز بن هرمزان اثنتي عشرة سنة. ثم ملك ابنه خسرو

أربعين سنة. ثم ملك أخوه بلاش بن فيروز أربعًا وعشرين سنة. ثم ملك ابنه أردوان بن بلاش خمسًا وخمسين سنة.

وقد ذكر بعضهم أنه ملك بعد هرمزان بن بلاش أردوان الأكبر اثنتي عشرة سنة.

وقيل في عدد ملوك الطوائف غير ذلك، والفرس تعترف باضطراب التاريخ عليهم في أيام ملوك الطوائف وملك بيوراسف وملك أفراسياب التركي ـ لأنهم زال الملك عنهم ولم يمكن ضبطه.

الطبقة الرابعة الساسانية

فأولهم أردشير بن بابك.



ذكر أخبار أردشير بن بابك وملوك الفرس[1]

قيل: لما مضى من لدن ملك الإسكندر أرض بابل، في قول النصارى وأهل الكتاب الأول، خمسمائة سنة وثلاث وعشرون سنة، وفي قول المجوس: مائتان وست وستون، وثب أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر بن بابك بن ساسان بن بابك بن مهرمس بن ساسان بن بهمن الملك بن إسفنديار بن بشتاسب ـ وقيل في نسبته غير ذلك ـ يريد الأخذ بثأر الملك دارا بن دارا ورد الملك إلى أهله وإلى ما لم يزل عليه أيام سلفه الذين مضوا قبل ملوك الطوائف وجمعه لرئيس واحد.

وذكر أن مولده كان بقرية من قرى إصطخر يقال لها طيروده من رستاق إصطخر، وكان جده ساسان شجاعًا مغرى بالصيد، وتزوج امرأة من نسل ملوك فارس يعرفون بالبادرنجبين، وكان قيمًا على بيت نار بإصطخر يقال لها بيت نارهيد، فولدت له بابك، فلما كبر قام بأمر الناس بعد أبيه، ثم ولد له ابنه أردشير، وكان ملك إصطخر يومئذ رجلاً من البادرنجبين يقال له جوزهر، وكان له خصي اسمه تيرى قد صيره إرجبذاً بدارا بجرد. فلما أتى لأردشير سبع سنين قدمه أبوه إلى جوزهر وسأله أن يضمه إلى تيرى ليكون ربيبًا له وارجبذاً بعده في موضعه، فأجابه وأرسله إلى تيرى، فقبله وتبناه.

فلما هلك تقلد أردشير الأمر وحسن قيامه به، وأعلمه قوم من المنجمين صلاح مولده وأنه يملك البلاد، فازداد في الخير، ورأى في منامه ملكًا جلس عند رأسه فقال له: إن الله يملكك البلاد، فقويت نفسه قوة لم يعهدها، وكان أول ما فعل أنه سار إلى موضع من دارا بجرد يسمى «خوبابان» فقتل ملكها، واسمه قاسين، ثم سار إلى موضع يقال له «كوسن»، فقتل ملكها واسمه منوجهر، ثم إلى موضع يقال له «لزويز» فقتل ملكها، واسمه دارا وجعل في هذه المواضع قومًا من قبله، وكتب إلى أبيه بما كان منه، وأمره بالوثوب بجوزهر، وهو بالبيضاء، ففعل ذلك وقتل جوزهر وأخذ تاجه، وكتب إلى أردوان ملك الجبال وما يتصل بها يتضرع إليه ويسأله في تتويج ابنه سابور بتاج جوزهر، فمنعه من ذلك وهدده، فلم يحفل بابك

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٨٩).

بذلك وهلك في ثلاثة أيام، فتتوج سابور بن بابك بالتاج وملك مكان أبيه، وكتب إلى أردشير يستدعيه، فامتنع، فغضب سابور وجمع جموعًا وسار بهم نحوه ليحاربه، وخرج من إصطخر وبها عدة من أصحابه وإخوانه وأقاربه وفيهم من هو أكبر سنًّا منه، فأخذوا التاج وسريره وسلموه إلى أردشير، فتتوج وافتتح أمره بجد وقوة وجعل له وزيراً ورتب موبذان، وأحس من إخوته وقوم كانوا معه بالفتك به، فقتل جماعة كثيرة منهم، وعصى عليه أهل دارابجرد فعاد إليهم فافتتحها وقتل جماعة من أهلها، ثم سار إلى كرمان وبها ملك يقال له بلاش فاقتتلا قتالاً شديداً، وقاتل أردشير بنفسه وأسر بلاش، فاستولى على المدينة وجعل فيها ابنًا له اسمه أردشير أيضًا. وكان في سواحل بحر فارس ملك اسمه «أسيون» يعظم فسار إليه أردشير فقتله وقتل من معه واستخرج له أموالاً عظيمة وكتب إلى جماعة من الملوك، منهم: «مهرك» صاحب ابرساس من أردشير خرة، يدعوهم إلى الطاعة، فلم يفعلوا، فسار إليهم فقتل مهرك ثم سار إلى جور فأسسها وبنى الجوسق المعروف بالطربال وبيت نار هناك.

فبينا هو كذلك إذ ورد إليه رسول أردوان بكتاب، فجمع الناس فقرأه عليهم، فإذا فيه: إنك عدوت قدرك واجتلبت حتفك أيها الكردي! من أذن لك في التاج والبلاد؟ ومن أمرك ببناء المدينة؟ وأعلمه أنه قد وجه إليه ملك الأهواز ليأتيه به في وثاق، فكتب إليه: إن الله حباني بالتاج وملكني البلاد، وأنا أرجو أن يمكنني منك فأبعث برأسك إلى بيت النار الذي أسسته وسار أردشير نحو إصطخر وخلف وزيره أبرسام بأردشير خرة، فلم يلبث إلا قليلاً حتى ورد عليه كتاب أبرسام بموافاة ملك الأهواز وعوده منكوبًا، ثم سار إلى أصبهان فملكها وقتل ملكها وعاد إلى فارس وتوجه إلى محاربة نيروفر صاحب الأهواز، وسار إلى أرجان وإلى ميسان وطاسار، ثم إلى سرق، فوقف على شاطئ دجيل فظفر بالمدينة وابتنى مدينة سوق الأهواز وعاد إلى فارس بالغنائم، ثم عاد من فارس إلى الأهواز على طريق خرة وكازرون، وقتل ملك ميسان وبنى هناك كرخ ميسان وعاد إلى فارس فأرسل إلى أردوان يؤذنه بالحرب ويقول له: ليعين موضعًا للقتال. فكتب إليه أردوان: إني أوافيك في صحراء هرمزجان لانسلاخ مهرماه. فوافاه أردشير قبل الوقت وخندق على نفسه واحتوى على الماء، ووافاه أردوان وملك الأرمانيين، وكانا يتحاربان على الملك فاصطلحا على أردشير وحارباه، وهما متساندان يقاتله هذا يومًا وهذا يومًا، فإذا

كان يوم بابا الأرمانيين لم يقم له أردشير، وإذا كان يوم أردوان لم يقم لأردشير. فصالح أردشير بابا ملك الأرمانيين على أن يكف عنه ويفرغ أردشير لأردوان، فلم يلبث أن قتله واستولى على ما كان له، وأطاعه بابا وسمي أردشير: شاهنشاه[١]، ثم سار إلى همذان فافتتحها، وإلى الجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل ففتحها عنوة، وسار إلى السواد من الموصل فملكه وبنى على شاطئ دجلة قبالة طيسفون، وهي المدينة التي في شرق المدائن مدينة غربية، وسماها به أردشير، وعاد من السواد إلى إصطخر، وسار منها إلى سجستان، ثم إلى جرجان، ثم إلى نيسابور ومرو وبلخ وخوارزم، وعاد إلى فارس ونزل جور فجاءه رسل ملك كوسان وملك طوران وملك مكران بالطاعة، ثم سار من جور إلى البحرين، فاضطر ملكها إلى أن رمى نفسه من حصنه فهلك. وعاد إلى المدائن فتوج ابنه سابور بتاجه في حياته وبنى ثماني مدن، منها: مدينة الخط بالبحرين، ومدينة بهرسير مقابل المدائن. وكان اسمه به أردشير فعربت به سير، وأردشير خرة، هي مدينة فيروزأباذ، سماها عضد الدولة ابن بويه كذلك، وبنى بكرمان مدينة أردشير أيضًا فعربت بردشير. وبني بهمن أردشير على دجلة عند البصرة، والبصريون يسمونها بهمن شير، وفرات ميسان أيضًا، وبنى رامهرمز بخوزستان، وبنى سوق الأهواز، وبالموصل بودر أردشير، وهي حرة، ولم يزل محمود السيرة مظفرًا منصورًا لا ترد له راية، ومدّن المدن، وكور الكور، ورتب المراتب وعمر البلاد، وكان ملكه من قتله أردوان إلى أن هلك أربع عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة وعشرة أشهر، ولما استولى أردشير على العراق كره كثير من تنوخ المقام في مملكته فخرج من كان منهم من قضاعة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، وقد كانت الحيرة والأنبار بنيتا زمن بختنصر، فخربت الحيرة لتحول أهلها إلى الأنبار، وعمرت الأنبار خمسمائة سنة وخمسين سنة إلى أن عمرت الحيرة زمن عمرو بن عدي، فعمرت خمسمائة وبضعًا وثلاثين سنة إلى أن وضعت الكوفة ونزلها أهل الإسلام.

ذكر ملك سابور بن أردشير بن بابك[٢]

ولما هلك أردشير بن بابك قام بالملك بعده ابنه سابور، وكان أردشير قد أسرف

(١) ومعنى شاهنشاه أي ملك الملوك، وقد ورد النهي عن التسمي بهذا الاسم.
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٣).

في قتل الأشكانية حتى أفناهم بسبب أليته التي آلاها جده ساسان بن أردشير بن بهمن، فإنه أقسم أنه إن ملك يومًا من الدهر لم يستبق من نسل أشك بن حرة أحدًا وأوجب ذلك على عقبه، فكان أول من ملك من عقبه أردشير، فقتلهم جميعًا نساءهم ورجالهم، غير أن جارية وجدها في دار المملكة فأعجبته، وكانت ابنة للملك المقتول، فسألها عن نسبها، فذكرت أنها خادم لبعض نساء الملك. فسألها أبكر أم ثيب؟ فأخبرته أنها بكر، فاتخذها لنفسه وواقعها، فعلقت منه، فلما أمنت منه بحبلها أخبرته أنها من ولد أشك، فنفر منها ودعا هرجد بن أسام، وكان شيخًا مسنًا، فأخبره الخبر، وقال له ليقتلها ليبر قسم جده. فأخذها الشيخ ليقتلها، فأخبرته أنها حبلى، فأتى بالقوابل فشهدن بحبلها، فأودعها سربًا من الأرض ثم قطع مذاكيره ووضعها في حق وختم عليه، وحضر عند الملك فقال: ما فعلت؟ فقال: استودعتها بطن الأرض، ودفع الحق إليه، وسأل أن يختمه بخاتمه ويودعه بعض خزائنه، ففعل، ثم وضعت الجارية غلامًا، فكره الشيخ أن يسمى ابن الملك دونه، وخاف أن يعلمه به وهو صغير، فأخذ له الطالع وسماه شاه بور، ومعناه ابن الملك، فيكون اسمًا وصفة، وهو أول من تسمى بهذا الاسم، وبقي أردشير لا يولد له، فدخل الشيخ الذي عنده الصبي يومًا فوجده محزونًا، فقال له: ما يحزن الملك؟ فقال: ضربت بسيفي ما بين المشرق والمغرب حتى ظفرت وصفا لي ملك آبائي ثم أهلك وليس لي عقب فيه. فقال له الشيخ: سرك الله أيها الملك وعمرك! لك عندي ولد طيب نفيس، فادع لي بالحق الذي استودعتك أُرِكَ برهان ذلك. فدعا أردشير بالحق وفتحه، فوجد فيه مذاكير الشيخ وكتابًا فيه: لما أخبرتني ابنة الملك أشك التي علقت من ملك الملوك حين أمر بقتلها لم أستحل إتلاف زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمر وتبرأنا إليه من أنفسنا لئلا يجد علينا سبيلاً، فأمره أردشير أن يجعل مع سابور مائة غلام، وقيل: ألف غلام من أشباهه في الهيئة والقامة، ثم يدخلهم عليه جميعًا لا يفرق بينهم زي، ففعل الشيخ. فلما نظر إليهم أردشير قبلت نفسه ابنه من بينهم، ثم أعطوا صوالجة وكرة، فلعبوا بالكرة وهو في الإيوان، فدخلت الكرة الإيوان، فهاب الغلمان أن يدخلوه، وأقدم سابور من بينهم ودخل، فاستدل بإقدامه مع ما كان من قبوله له حين رآه أنه ابنه، فقال له أردشير: ما اسمك؟ قال: شاه بور.

فلما ثبت عنده أنه ابنه شهر أمره وعقد له التاج من بعده، وكان عاقلاً بليغًا

فاضلاً، فلما ملك ووضع التاج على رأسه فرق الأموال على الناس من قرب ومن بعد، وأحسن إليهم، فبان فضل سيرته وفاق جميع الملوك، وبنى مدينة سابور، ومدينة سابور بفارس، وبنى فيروز سابور، وهي الأنبار، وبنى جند يسابور، وقيل: إنه حاصر الروم بنصيبين وفيها جمع من الروم مدة ثم أتاه من ناحية خراسان ما احتاج إلى مشاهدته، فسار إليها وأحكم أمرها، ثم عاد إلى نصيبين، فزعموا أن سورها تصدع وانفرجت منه فرجة دخل منها وقتل وسبى وغنم وتجاوزها إلى بلاد الشام فافتتح من مدائنها مدنًا كثيرة، منها: فالوقية وقدوقية، وحاصر ملكًا للروم بأنطاكية فأسره وحمله وجماعة كثيرة معه فأسكنهم مدينة جند يسابور.

ذكر خبر مدينة الحضر[1]

كانت بجبال تكريت[2] بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر، وكان بها ملك يقال له الساطرون، وكان من الجرامقة، والعرب تسميه الضيزن، وهو من قضاعة، وكان قد ملك الجزيرة وكثر جنده، وأنه تطرق بعض السواد إذ كان سابور بخراسان، فلما عاد سابور أخبر بما كان منه، فسار إليه وحاصره أربع سنين، وقيل: سنتين، لا يقدر على هدْم حصنه ولا الوصول إليه، وكان للضيزن بنت تسمى النضيرة، فحاضت، فأخرجت إلى ربض المدينة، وكذلك كان يفعل بالنساء، وكانت من أجمل النساء، وكان سابور من أجمل الناس، فرأى كل واحد منهما صاحبه فتعاشقا، فأرسلت إليه: «ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به سور المدينة؟».

فقال: أحكمك وأرفعك على نسائي. فقالت: عليك بحمامة ورقاء مطوقة فاكتب على رجلها بحيض جارية بكر زرقاء ثم أرسلها فإنها تقع على سور المدينة فيخرب، وكان ذلك طلسم ذلك البلد. ففعل وتداعت المدينة، فدخلها عنوة وقتل الضيزن وأصحابه، فلم يبق منهم أحد يعرف اليوم، وأخرب المدينة واحتمل النضيرة فأعرس بها بعين التمر، فلم تزل ليلتها تتضور، فالتمس ما يؤذيها فإذا ورقة آس ملتزقة بعكنة من عكن بطنها، فقال لها: ما كان يغذوك به أبوك؟

قالت: بالزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل وصفو الخمر. فقال: وأبيك لأنا أحدث عهدًا بك وآثر لك من أبيك! فأمر رجلاً فركب فرسًا جموحًا ثم عصب

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٥).

(٢) في المصدر السابق: كان بحيال تكريت.

غدائرها بذنبه ثم استركضها فقطعها قطعًا[١]، وقد أكثر الشعراء ذكر الضيزن في أشعارهم.

وفي أيام سابور ظهر ماني الزنديق وادعى النبوة، وتبعه خلق كثير، وهم الذين يسمون المانوية. وكان ملكه ثلاثين سنة وخمسة عشر يومًا، وقيل: إحدى وثلاثين سنة وستة أشهر وتسعة أيام.

ذكر ملك ابنه هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك[٢]

وكان يشبه في خلقه بأردشير غير لاحق به في تدبيره، وكان من البطش والجراءة على أمر عظيم، وكانت أمه من بنات مهرك الملك الذي قتله أردشير وتتبع نسله فقتلهم، لأن المنجمين أخبروه أنه يكون من نسله من يملك، فهربت أمه إلى البادية وأقامت عند بعض الرعاء، وخرج سابور متصيدًا، فاشتد به العطش وارتفعت له الأخبية التي فيها أم هرمز، فقصدها وطلب الماء، فناولته المرأة، فرأى منها جمالاً فائقًا، فلم يلبث أن حضر الرعاء فسألهم سابور عنها، فقال بعضهم: إنها ابنته، فتزوجها وسار بها إلى منزله، وكسيت ونظفت، فأرادها فامتنعت عليه مدة، فلما طال عليه سألها عن سبب ذلك فأخبرته أنها ابنة مهرك وأنها تفعل ذلك إبقاء عليه من أردشير، فعاهدها على ستر أمرها، ووطئها فولدت له هرمز، فستر أمره حتى صار له سنون. فركب أردشير يومًا إلى منزل ابنه سابور لشيء أراد ذكره له، فدخل منزله مفاجأة، فلما استقر خرج هرمز وبيده صولجان وهو يصيح في أثر الكرة.

فلما رآه أردشير أنكره ووقف على المشابه التي فيه من حسن الوجه وعبالة الخلق وأمور غيرها، فاستدناه أردشير وسأل عنه سابور، فخرج مفكرًا على سبيل الإقرار بالخطأ، وأخبر أباه أردشير الخبر، فسُرّ، وأخبره أنه قد تحقق الذي ذكره المنجمون في ولد مهرك، وأن ذلك قد سلى ما كان في نفسه وأذهبه.

---

(١) وفي «البداية» (٢/ ١٦٩): فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه، وسار بها معه فتزوجها، فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تململ لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آسي. فقال لها سابور: أهذا الذي أسهرك!قالت: نعم. قال: فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت: كان يفرش لي الديباج، ويلبسني الحرير، ويطعمني المخ، ويسقيني الخمر، قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به، أنت إلي بذلك أسرع. فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٦)

فلما ملك سابور ولى هرمز خراسان وسيره إليها، فقهر الأعداء واستقل بالأمر، فوشى به الوشاة إلى سابور أنه على عزم أن يأخذ الملك منه، وسمع هرمز بذلك فقيل: إنه قطع يده وأرسلها إلى أبيه، فكتب إليه بما بلغه وأنه فعل ذلك إزالة للتهمة لأن رسمهم أنهم كانوا لا يملكون ذا عاهة، فلما وصلت يده إلى سابور تقطع أسفًا وأرسل إلى هرمز يعلمه ما ناله لذلك وعقد له على الملك وملكه، ولما ملك عدل في رعيته، وكان صادقًا، وسلك سبيل آبائه وكور كورة رامهرمز. وكان ملكه سنة وعشرة أيام.

ذكر ملك ابنه بهرام بن هرمز بن سابور[1]

وكان حليمًا متأنيًا حسن السيرة، وقتل ماني الزنديق وسلخه وحشا جلده تبنًا وعلق على باب من أبواب جند يسابور يسمى باب ماني،

وكان ملكه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. وكان عامل سابور بن أردشير وابنه هرمز وبهرام بن هرمز ـ بعد مهلك عمرو بن عدي على ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة يومئذ ـ ابن لعمرو بن عدي، يقال له امرؤ القيس الكندي، وهو أول من تنصر من آل نصر بن ربيعة وعمال الفرس، وعاش مملكًا في عمله مائة سنة وأربع عشرة سنة، منها في زمن سابور بن أردشير ثلاثًا وعشرين سنة وشهرًا، وفي زمن هرمز بن سابور سنة وعشرة أيام، وفي زمن بهرام ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وفي زمن بهرام بن بهرام بن هرمز ثماني عشرة سنة.

ذكر ملك ابنه بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير[2]

وكان ملكه حسنًا، وكان عالمًا بالأمور، فلما عقد له التاج وعدهم بحسن السيرة، واختلف في سني ملكه، فقيل ثماني عشرة سنة، وقيل سبع عشرة سنة، والله أعلم.

ذكر ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور[3]

فلما عقد التاج على رأسه دعا له العظماء فأحسن الرد، وكان قبل أن يقضي إليه الأمر مملكًا على سجستان. وكان ملكه أربع سنين.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٧).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٨).

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٨).

ذكر ملك نرسي بن بهرام(١)

وهو أخو بهرام الثالث، فلما عقد التاج على رأسه دخل عليه الأشراف والعظماء فدعوا له، فوعدهم خيراً وسار فيهم بأعدل السيرة، وقال: لن نضيع شكر ما أنعم الله به علينا». وكان ملكه تسع سنين.

ذكر ملك هرمز بن نرسيّ بن بهرام بن بهرام بن هرمز(٢)

وكان الناس قد وجلوا منه لفظاظته، فأعلمهم أنه قد علم بما كانوا يخافون من شدة ولايته، وأن الله قد أبدل ما كان فيه من الفظاظة رقة ورأفة، وساسهم أرق سياسة، وكان حريصًا على انتعاش الضعفاء وعمارة البلاد والعدل، ثم هلك ولا ولد له، فشق ذلك على الناس، فسألوا عن نسائه، فذكر لهم أن بعضهن حُبلى، وقيل: إن هرمز كان أوصى بالملك لذلك الحمل، وولدت المرأة سابور ذا الأكتاف.

وكان ملك هرمز ست سنين وخمسة أشهر، وقيل سبع سنين وخمسة أشهر.

وأسماء الملوك من سابور بن أردشير إلى ههنا لم يحذف منها شيء.

ذكر ملك ابنه سابور ذي الأكتاف(٣)

وهو سابور بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك، قيل: ملك بوصية أبيه له، فاستبشر الناس بولادته وبثوا خبره في الآفاق، وتقلد الوزراء والكتاب ما كانوا يعملونه في ملك أبيه، وسمع الملوك أن ملك الفرس صغير في المهد، فطمعت في مملكتهم الترك والعرب والروم، وكانت العرب أقرب إلى بلاد فارس، فسار جمع عظيم منهم في البحر من عبد القيس والبحرين إلى بلاد فارس وسواحل أردشير خرة وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم وأكثروا الفساد، وغلبت إياد على سواد العراق وأكثروا الفساد فيهم، فمكثوا حينًا لا يغزوهم أحد من الفرس لصغر ملكهم، فلما ترعرع سابور وكبر كان أول ما عرف من حسن فهمه أنه سمع في البحر ضوضاء وأصواتًا فسأل عن ذلك فقيل: إن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٩٩).

الناس يزدحمون في الجسر الذي على دجلة مقبلين ومدبرين، فأمر بعمل جسر آخر يكون أحدهما للمقبلين والآخر للمدبرين، فاستبشر الناس بذلك.

فلما بلغ ست عشرة سنة وقوي على حمل السلاح جمع رؤساء أصحابه فذكر لهم ما اختل من أمرهم وأنه يريد الذب عنهم ويشخص إلى بعض الأعداء. فدعا له الناس وسألوه أن يقيم بموضعه ويوجه القواد والجنود ليكفوه ما يريد، فأبى واختار من عسكره ألف رجل، فسألوه الازدياد، فلم يفعل، وسار بهم ونهاهم عن الإبقاء على أحد من العرب، وقصد بلاد فارس فأوقع بالعرب وهم غارون فقتل وأسر وأكثر. ثم قطع البحر إلى الخط فقتل من بالبحرين لم يلتفت إلى غنيمة، وسار إلى هجر وبها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فقتل منهم حتى سالت دماؤهم على الأرض، وأباد عبد القيس، وقصد اليمامة وأكثر في أهلها القتل، وغور مياه العرب، وقصد بكرًا وتغلب فيما بين مناظر الشام والعراق فقتل وسبى وغور مياههم وسار إلى قرب المدينة ففعل كذلك، وكان ينزع أكتاف رؤسائهم ويقتلهم إلى أن هلك فسموه سابور ذا الأكتاف لهذا، وانتقلت إياد حينئذ إلى الجزيرة وصارت تغير على السواد، فجهز سابور إليهم الجيوش، وكان لقيط الإيادي معهم، فكتب إلى إياد:

سلام في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد
أتاكم منهم سبعون ألفًا ... يزجون الكتائب كالجراد

فلم يقبلوا منه وداموا على الغارة، فكتب إليهم أيضًا:

أبلغ إيادًا وطول في سراتهم ... أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

وهي قصيدة مشهورة من أجود ما قيل في صفة الحرب. فلم يحذروا، وأوقع بهم سابور وأبادهم قتلاً إلا من لحق بأرض الروم. فهذا فعله بالعرب.

وأما الروم فإن سابور كان هادن ملكهم، وهو قسطنطين، وهو أول من تنصر من ملوك الروم، ونحن نذكر سبب تنصره عند الفراغ من ذكر سابور إن شاء الله. ومات قسطنطين وفرق ملكه بين ثلاثة بنين كانوا له، فملكوا، وملكت الروم عليهم رجلاً من أهل بيت قسطنطين يقال له «اليانوس»، وكان على ملة الروم الأولى ويكتم ذلك، فلما ملك أظهر دينه وأعاد ملة الروم وأخرب البيع وقتل الأساقفة ثم جمع

جموعًا من الروم والخزر وسار نحو سابور. واجتمعت العرب للانتقام من سابور، فاجتمع في عسكر اليانوس منهم خلق كثير. وعادت عيون سابور إليه فاختلفوا في الأخبار، فسار سابور بنفسه مع جماعة من ثقاته نحو الروم، فلما قرب من يوسانوس، وهو على مقدمة اليانوس، اختفى وأرسل بعض من معه إلى الروم، فأخذوا، وأقر بعضهم على سابور، فأرسل يوسانوس إليه سرًا ينذره فارتحل سابور إلي عسكره وتحارب هو والعرب والروم، فانهزم عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة، وملكت الروم مدينة طيسفون، وهي المدائن الشرقية، وملكوا أيضًا أموال سابور وخزائنه؛ وكتب سابور إلى جنوده وقواده يعلمهم ما لقي من الروم والعرب ويستحثهم على المسير إليه، فاجتمعوا إليه وعاد واستنقذ مدينة طيسفون، ونزل اليانوس مدينة بهرسير، واختلف الرسل بينهما، فبينما اليانوس جالس أصابه سهم لا يعرف راميه فقتله، فسقط في أيدي الروم، ويئسوا من الخلاص من بلاد الفرس، فطلبوا من يوسانوس أن يملك عليهم، فلم يفعل وأبى إلا أن يعودوا إلى النصرانية، فأخبروه أنهم على ملته، وإنما كتموا ذلك خوفًا من اليانوس. فملك عليهم، وأرسل سابور إلى الروم يتهددهم ويطلب الذي ملك عليهم ليجتمع به. فسار إليه يوسانوس في ثمانين رجلاً، فتلقاه سابور وتساجدا وطعما، وقوى سابور أمر يوسانوس بجهده وقال للروم: إنكم أخربتم بلادنا وأفسدتم فيها، فإما أن تعطونا قيمة ما أهلكتم وإما أن تعوضونا «نصيبين»، وكانت قديمًا للفرس، فغلبت الروم عليها، فدفعوها إليهم، وتحول أهلها عنها، فحول إليها سابور اثني عشر ألف بيت من أهل إصطخر وأصبهان وغيرها، وعادت الروم إلى بلادهم، وهلك ملكهم بعد ذلك بيسير.

وقيل: إن سابور سار إلى حد الروم وأعلم أصحابه أنه على قصد الروم مختفيًا لمعرفة أحوالهم وأخبار مدنهم، وسار إليهم، فجال فيهم حينًا، وبلغه أن قيصر أولم وجمع الناس فحضر بزي سائل لينظر إلى قيصر على الطعام، ففطن به وأخذ وأدرج في جلد ثور، وسار قيصر بجنوده إلى أرض فارس ومعه سابور على تلك الحال، فقتل وأخرب حتى بلغ جند يسابور، فتحصن أهلها وحاصرها، فبينما هو يحاصرها إذ غفل الموكلون بحراسة سابور، وكان بقربه قوم من سبي الأهواز، فأمرهم أن يلقوا على القد الذي عليه زيتًا كان بقربهم، ففعلوا، ولان الجلد وانسل منه وسار إلى المدينة وأخبر حراسها فأدخلوه، فارتفعت أصوات أهلها، فاستيقظ الروم، وجمع سابور من بها وعباهم وخرج إلى الروم سحر تلك الليلة فقتلهم وأسر قيصر وغنم

أمواله ونساءه وأثقله بالحديد وأمره بعمارة ما أخرب وألزمه بنقل التراب من بلد الروم ليبني ما هدم المنجنيق من جند يسابور وأن يغرس الزيتون مكان النخل، ثم قطع عقبه وبعث به إلى الروم على حمار وقال: هذا جزاؤك ببغيك علينا.

فأقام مدة ثم غزا فقتل وسبى سبايا أسكنهم مدينة بناها بناحية السوس سماها إيران شهر سابور، وبنى مدينة نيسابور بخراسان في قول، وبالعراق بزرج سابور، وكان ملكه اثنتين وسبعين سنة. وهلك في أيامه امرؤ القيس بن عمرو بن عدي عامله على العرب، فاستعمل ابنه عمرو بن امرئ القيس، فبقي في عمله بقية ملك سابور وجميع أيام أخيه أردشير بن هرمز وبعض أيام سابور بن سابور. وكانت ولايته ثلاثين سنة.

وأما سبب تنصر قسطنطين فإنه كان قد كبر سنه وساء خلقه وظهر به وضح كبير، فأرادت الروم خلعه وترك ماله عليه، فشاور نصحاءه، فقالوا له: لا طاقة لك بهم فقد أجمعوا على خلعك وإنما تحتال عليهم بالدين - وكانت النصرانية قد ظهرت، وهي خفية - وقالوا له: استمهلهم حتى تزور البيت المقدس، فإذا زرته دخلت في دين النصرانية وحملت الناس عليه، فإنهم يعترفون، فتقاتل من عصاك بمن أطاعك، وما قاتل قوم على دين إلا نصروا.

ففعل ذلك، فأطاعه عالم عظيم وخالفه خلق كثير وأقاموا على دين اليونانية، فقاتلهم وظفر بهم، فقتلهم فأحرق كتبهم وحكمتهم وبنى القسطنطينية ونقل الناس إليها، وكانت رومية دار ملكهم، وبقي ملكه عليه، وغلب على الشام، وكان الأكاسرة قبل سابور ذي الأكتاف ينزلون طيسفون، وهي المدينة الغربية من المدائن، فلما نشأ سابور بنى الإيوان بالمدائن الشرقية وانتقل إليه وصار هو دار الملك، وهو باق إلى الآن، ونحن في سنة خمس وعشرين وستمائة.

ذكر ملك أردشير بن هرمز بن نرسي بن بهرام ابن سابور بن أردشير بن بابك أخي سابور [1]

فلما ملك واستقر له الملك عطف على العظماء وذوي الرئاسة فقتل منهم خلقًا كثيرًا، فخلعه الناس بعد أربع سنين من ملكه.

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٠٢).

ذكر ملك سابور بن سابور ذي الأكتاف[١]

فلما ملك بعد خلع عمه استبشر الناس بعود ملك أبيه إليه، وكتب إلى العمال بالعدل والرفق بالرعية وأمر بذلك وزراءه وحاشيته، وأطاعه عمه المخلوع وأحبته رعيته، ثم إن العظماء وأهل الشرف قطعوا أطناب خيمة كان فيها فسقطت عليه فقتلته. وكان ملكه خمس سنين.

ذكر ملك أخيه بهرام بن سابور ذي الأكتاف[٢]

وكان يلقب كرمان شاه، لأن أباه ملكه كرمان في حياته، فكتب إلى القواد كتابًا يحثهم على الطاعة، وكان محمودًا في أموره، وبنى بكرمان مدينة. وثار به ناس من الفتاك فقتله أحدهم بنشابة[٣]. وكان ملكه إحدى عشرة سنة.

ذكر ملك يزدجرد الأثيم بن بهرام بن سابور ذي الأكتاف[٤]

ومن أهل العلم من يقول إن يزدجرد هذا هو أخو بهرام كرمان شاه بن سابور لا ابنه، وكان فظًا غليظًا ذا عيوب كثيرة يضع الشيء في غير مواضعه، كثير الرزيئة في الصغائر، واستعمال كل ما عنده في المواربة[٥] والدهاء والمخاتلة[٦] مع فطنة بجهات الشر وعجب به، وكان غلقًا سيء الخلق لا يغفر الصغيرة من الزلات ولا يقبل شفاعة أحد من الناس وإن كان قريبًا منه، كثير التهمة، ولا يأتمن أحد على شيء، ولم يكن يكافئ أحدًا على حسن البلاء وإن هو أولى الخسيس من العرف استعظمه، وإذا بلغه أن أحدًا من أصحابه صافى أحدًا من أهل صناعته نحّاه عن خدمته. وكان فيه مع ذلك ذكاء ذهن وحسن أدب، وقد مهر في صنوف من العلم، واستوزر نرسي حكيم زمانه، وكان فاضلاً قد كمل أدبه ولقبه هزار بيده، فأمّل الناس أن يصلح نرسي منه، فكان ما أملوه بعيدًا، فلما استوى له الملك واشتدت شوكته هابته

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٠٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٠٣).

(٣) النشابة: النبلة.

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٠٣).

(٥) المواربة: المداهاة.

(٦) المخاتلة: المخادعة.

الأشراف والعظماء، وحمل على الضعفاء فأكثر من سفك الدماء، فلما ابتليت الرعية به شكوا ما نزل بهم منه إلى الله تعالى وسألوه تعجيل إنقاذهم منه، فزعموا أنه كان بجرجان فرأى ذات يوم في قصره فرسًا غائرًا لم ير مثله، فأخبر به، فأمر أن يسرج ويلجم ويدخل عليه، فلم يقدر أحد على ذلك، فأعلم بذلك، فخرج إليه بنفسه وألجمه بيده وأسرجه، فلما رفع ذنبه ليثفره[١] رمحه[٢] على فؤاده رمحة هلك منها مكانه وملأ الفرس فروجه جريًا ولم يعلم له خبر، وكان ذلك من صنع الله ورأفته بهم، وكان ملكه اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وستة عشر يومًا.

وأما العرب فقيل: إنه لما هلك عمرو بن امرئ القيس البدء بن عمرو بن عدي في عهد سابور استخلف سابور على عمله أوس بن قلام، وهو من العماليق، فملك خمس سنين وقتل في عهد بهرام بن سابور.

فاستخلف بعده في عمله امرؤ القيس بن عمرو بن امرئ القيس البدء، فبقي خمسًا وعشرين سنة، وهلك أيام يزدجرد الأثيم، فاستخلف بعده في عمله ابنه النعمان وأمه شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وهو صاحب الخورنق. وسبب بنائه له أن يزدجرد الأثيم كان لا يبقى له ولد، فسأل عن منزل بَرِّيّ صحيح، فدل على ظاهر الحيرة، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان هذا وأمره ببناء الخورنق مسكنًا له وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب، وكان الذي بنى الخورنق رجلاً اسمه سنمار. فلما فرغ من بنائه تعجبوا منه، فقال: لو علمت أنكم توفونني أجري لعملته يدور مع الشمس. فقال: وإنك تقدر على ما هو أفضل منه؟ ثم أمر به فألقي من رأس الخورنق فهلك.

فضربت العرب بجزائه المثل، وهو مذكور في أشعارها[٣]. وغزا النعمان هذا الشام مرارًا وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم وجعل معه ملك فارس كتيبتين

---

(١) الثفر: السير في مؤخر السرج.

(٢) رمحه: طعنه.

(٣) فمن ذلك قول الطمحان القيني: جزاء سنمار جزاها وربها ... وباللات والعزى جزاء المكفر

وقول سليط بن سعد: جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزي سنمار

وقول يزيد بن إياس النهشلي: جزى الله كمّالاً بأسوء فعله ... جزاء سنمار جزاء موفرًا

«تاريخ الطبري» (١/ ٤٠٤، ٤٠٥).

يقال لإحداها دوس وهي لتنوخ، وللأخرى الشهباء وهي لفارس، فكان يغزو بهما الشام ومن لم يطعه من العرب.

ثم إنه جلس يومًا في مجلسه من الخورنق فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والأنهار في يوم من أيام الربيع، فأعجبه ذلك. فقال لوزيره: هل رأيت مثل هذا المنظر قط؟ قال: لا لو كان يدوم. فما الذي يدوم؟ قال: ما عند الله في الآخرة. قال: فبم ينال ذلك؟ قال: بتركك الدنيا وعبادة الله.

فترك ملكه من ليلته ولبس المسوح وخرج هاربًا لا يعلم به، فأصبح الناس فلم يروه. وكان ملكه إلى أن تركه وساح تسعًا وعشرين سنة وأربعة أشهر، من ذلك في أيام يزدجرد خمس عشرة سنة، وفي زمن بهرام جور بن يزدجرد أربع عشرة سنة. وأما علماء الفرس فإنهم يقولون غير هذا، وسيرد ذكره.

ذكر ملك بهرام بن يزدجرد الأثيم(١)

لما ولد يزدجرد: بهرام جور اختار لحضانته العرب، فدعا بالمنذر بن النعمان واستحضنه بهرام وشرفه وكرمه وملكه على العرب، فسار به المنذر واختار لرضاعه ثلاث نسوة ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب حسنة من بنات الأشراف، منهن عربيتان وعجمية، فأرضعنه ثلاث سنين. فلما بلغ خمس سنين أحضر له مؤدبين فعلموه الكتابة والرمي والفقه بطلب من بهرام بذلك، وأحضر حكيمًا من حكماء الفرس فتعلم ووعى كل ما علمه بأدنى تعليم. فلما بلغ اثنتي عشرة سنة تعلم كل ما أفيد وفاق معلميه، فأمرهم المنذر بالانصراف، وأحضر معلمي الفروسية فأخذ عنهم كل ما ينبغي له، ثم صرفهم، ثم أمر فأحضرت خيل العرب للسباق فسبقها فرس أشقر للمنذر وأقبل باقي الخيل بداد(٢)، فقرب المنذر الفرس بيده إليه، فقبله وركبه يومًا للصيد، فبصر بعانة حمر(٣) وحش، فرمى عليها وقصدها وإذا هو بأسد قد أخذ عيرًا منها فتناول ظهره بفيه، فرماه بهرام بسهم فنفذ في الأسد والعير ووصل إلى الأرض فساخ السهم إلى ثلثه، فرآه من معه فعجبوا منه، ثم أقبل على الصيد واللهو التلذذ.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/٤٠٦).

(٢) بداد: متفرقة.

(٣) عانة حمر: أي قطيع من الحمر.

فمات أبوه وهو عند المنذر، فتعاهد العظماء وأهل الشرف على أن لا يملكوا أحدًا من ذرية يزدجرد لسوء سيرته، فاجتمعت الكلمة على صرف الملك عن بهرام لنشوئه في العرب وتخلقه بأخلاقهم ولأنه من ولد يزدجرد، وملكوا رجلاً من عقب أردشير بن بابك يقال له كسرى. فانتهى هلاك يزدجرد وتمليك كسرى بن بهرام، فدعا بالمنذر وابنه النعمان وناس من أشراف العرب وعرفهم إحسان والده إليهم وشدته على الفرس، وأخبرهم الخبر. فقال المنذر: لا يهولنك ذلك حتى ألطف الحيلة فيه، وجهز عشرة آلاف فارس ووجههم مع ابنه النعمان إلى طيسفون وبهرسير مدينتي الملك، وأمره أن يعسكر قريبًا منهما ويرسل طلائعه إليهما وأن يقاتل من قاتله ويغير على البلاد، ففعل ذلك، وأرسل عظماء فارس حوابى صاحب رسائل يزدجرد إلى المنذر يعلمه أمر النعمان، فلما ورد حوابى قال له: الق الملك بهرام. فدخل عليه، فراعه ما رأى منه، فأغفل السجود دهشًا، فعرف بهرام ذلك فكلمه ووعده أحسن الوعد ورده إلى المنذر وقال له: أجبه. فقال له: إن الملك بهرام أرسل النعمان إلى ناحيتكم حيث ملكه الله بعد أبيه.

فلما سمع حوابى مقالة المنذر وتذكر ما رأى من بهرام علم أن جميع من تشاور في صرف الملك عن بهرام محوج، فقال للمنذر: سر إلى مدينة الملوك فيجتمع إليك الأشراف والعظماء، وتشاوروا في ذلك فلن يخالفوا ما تشير به.

وسار المنذر بعد عود حوابى من عنده بيوم بثلاثين ألفًا من فرسان العرب إلى مدينتي الملك بهرام، فجمع الناس، وصعد بهرام على منبر من ذهب مكلل بالجواهر وتكلم عظماء الفرس فذكروا فظاظة يزدجرد أبي بهرام وسوء سيرته وكثرة قتله وإخراب البلاد وأنهم لهذا السبب صرفوا الملك عن ولده، فقال بهرام: لست أكذبكم ومازلت زاريًا عليه ذلك ولم أزل أسأل الله أن يملكني لأصلح ما أفسد ومع هذا فإذا أتي على ملكي سنة ولم أف بما أعد تبرأت من الملك طائعًا وأنا راض بأن تجعلوا التاج وزينة الملك بين أسدين ضاريين فمن تناولهما كان الملك له. فأجابوه إلى ذلك ووضعوا التاج والزينة بين أسدين وحضر موبذ موبذان فقال بهرام: لكسرى دونك التاج والزينة. فقال كسرى: أنت أولى لأنك تطلب الملك بوراثة وأنا فيه مغتصب. فحمل بهرام جرزًا[1] وتوجه نحو التاج، فبدر إليه أحد الأسدين فوثب بهرام فعلا ظهره وعصر جنبي الأسد بفخذيه وجعل يضرب رأسه بالجرز

(١) الجرز: عمود من حديد.

الذي معه. ثم وثب الأسد الآخر عليه، فقبض أذنيه بيده ولم يزل يضرب رأسه برأس الأسد الآخر الذي تحته حتى دمغهما ثم قتلهما بالجرز الذي معه وتناول بعد ذلك التاج والزينة. فكان أول من أطاعه كسرى، وقال جميع من حضر: قد أذعنا لك ورضينا بك ملكًا، وإن العظماء والوزراء والأشراف سألوا المنذر ليكلم بهرام في العفو عنهم. فسأل المنذر الملك بهرام ذلك فأجابه.

وملك بهرام وهو ابن عشرين سنة وأمر أن يلزم رعيته راحة ودعة، وجلس للناس يعدهم بالخير ويأمرهم بتقوى الله، ولم يزل مدة ملكه يؤثر اللهو على ما سواه حتى طمع فيه من حوله من الملوك في بلاده.

وكان أول من سبق إلى قصده خاقان ملك الترك، فإنه غزاه في مائتي ألف وخمسين ألفًا من الترك، فعظم ذلك على الفرس، ودخل العظماء على بهرام وحذروه فتمادى في لهوه ثم تجهز وسار إلى أذربيجان ليتنسك في بيت نارها، ويتصيد بأرمينية في سبعة رهط من العظماء وثلاثمائة من ذوي البأس والنجدة، واستخلف أخاه نرسي، فما شك الناس في أنه هرب من عدوه، فاتفق رأي جمهورهم على الانقياد إلى خاقان، وبذل الخراج له خوفًا على نفوسهم وبلادهم. فبلغ ذلك خاقان فأمن ناحيتهم وسار بهرام من أذربيجان إلى خاقان في تلك العدة، فثبت للقتال وقتل خاقان بيده وقتل جنده وانهزم من سلم من القتل، وأمعن بهرام في طلبهم يقتل ويأسر ويغنم ويسبي، وعاد وجنده سالمين وظفر بتاج خاقان وإكليله وغلب على طرف من بلاده واستعمل عليها مرزبانًا، وأتاه رسل الترك خاضعين مطيعين وجعلوا بينهم حدًا لا يعدونه، وأرسل إلى ما وراء النهر قائدًا من قواده فقتل وسبى وغنم، وعاد بهرام إلى العراق، وولى أخاه نرسي خراسان وأمره أن ينزل مدينة بلخ.

واتصل به أن بعض رؤساء الديلم جمع جمعًا كثيرًا وأغار على الري وأعمالها فغنم وسبى وخرب البلاد وقد عجز أصحابه في الثغر عن دفعه، وقد قرروا عليهم إتاوة يدفعونها إليه، فعظم ذلك عليه وسير مرزبانًا إلى الري في عسكر كثيف وأمره أن يضع على الديلمي من يطمعه في البلاد ويغريه بقصدها، ففعل ذلك، فجمع الديلمي جموعه وسار إلى الري، فأرسل المرزبان إلى بهرام جور يعلمه خبره، فكتب إليه يأمره بالمسير نحو الديلمي والمقام بموضع سماه له، ثم سار جريدة في نفر من خواصه فأدرك عسكره بذلك المكان والديلمي لا يعلم بوصوله، وهو قد قوي طمعه لذلك، فعبى بهرام وأصحابه وسار نحو الديلم، فلقيهم وباشر القتال

بنفسه، فأخذ رئيسهم أسيراً، وانهزم عسكره، فأمر بهرام بالنداء فيهم بالأمان لمن عاد إليه، فعاد الديلم جميعهم، فآمنهم ولم يقتل منهم أحدًا وأحسن إليهم وعادوا إلى أحسن طاعة، وأبقى على رئيسهم وصار من خواصه.

وقيل كانت هذه الحادثة قبل حرب الترك، والله أعلم.

ولما ظفر بالديلم أمر ببناء مدينة سماها فيروز بهرام، فبنيت له هي ورستاقها[١]. واستوزر نرسي، فأعلمه أنه ماض إلى الهند متخفيًا، فسار إلى الهند وهو لا يعرفه أحد، غير أن الهند يرون شجاعته وقتله السباع. ثم إن فيلاً ظهر وقطع السبيل وقتل خلقًا كثيراً، فاستدل عليه، فسمع الملك خبره فأرسل معه من يأتيه بخبره. فانتهى بهرام والهندي معه إلى الأجمة[٢]، فصعد الهندي شجرة ومضى بهرام فاستخرج الفيل وخرج وله صوت شديد، فلما قرب منه رماه بسهم بين عينيه كاد يغيب، ووقذه[٣] بالنشاب وأخذ مشفره، ولم يزل يطعنه حتى أمكن من نفسه فاحتز رأسه وأخرجه، وأعلم الهندي ملكهم بما رأى، فأكرمه وأحسن إليه وسأله عن حاله، فذكر أن ملك فارس سخط عليه فهرب إلى جواره، وكان لهذا الملك عدو فقصده، فاستسلم الملك وأراد أن يطيع ويبذل الخراج، فنهاه بهرام وأشار بمحاربته، فلما التقوا قال لأساورة الهندي: احفظوا لي ظهري، ثم حمل عليهم فجعل يضرب في أعراضهم ويرميهم بالنشاب حتى انهزموا، وغنم أصحاب بهرام ما كان في عسكر عدوه، فأعطى بهرام الدبيل ومكران وأنكحه ابنته، فأمر بتلك البلاد فضمت إلى مملكة الفرس. وعاد بهرام مسروراً.

وأغزى نرسي بلاد الروم في أربعين ألفًا وأمره أن يطالب ملك الروم بالإتاوة، فسار إلى القسطنطينية، فهادنه ملك الروم، فانصرف بكل ما أراد إلى بهرام.

وقيل: إنه فرغ من خاقان والروم سار بنفسه إلى بلاد اليمن ودخل بلاد السودان فقتل مقاتلتهم وسبى لهم خلقًا كثيراً وعاد إلى مملكته، ثم إنه في آخر ملكه خرج إلى الصيد فشد على عنز فأمعن في طلبه، فارتطم في جب[٤] فغرق، فبلغ والدته

(١) الرستاق: القرى.
(٢) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.
(٣) وقذه: صرعه.
(٤) الجب: البئر.

ذلك، فسارت إلى ذلك الموضع وأمرت بإخراجه، فنقلوا من الجب طينًا كثيرًا حتى صار أكامًا عظامًا ولم يقدروا عليه.

وكان ملكه ثماني عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرين يومًا، وقيل: ثلاثًا وعشرين سنة.

هكذا ذكر أبو جعفر في اسم بهرام جور أن أباه أسلمه إلى المنذر بن النعمان، كما تقدم، وذكر عند يزدجرد الأثيم أنه سلم ابنه بهرام إلى النعمان بن امرئ القيس، ولا شك أن بعض العلماء قال هذا وبعضهم قال ذلك، إلا أنه لم ينسب كل قول إلى قائله.

ذكر ملك ابنه يزدجرد بن بهرام جور[(١)]

لما لبس التاج جلس للناس ووعدهم وذكر أباه ومناقبه وأعلمهم أنهم إن فقدوا منه طول جلوسه لهم فإن خلوته في مصالحهم وكيد أعدائهم، وأنه قد استوزر نرسي صاحب أبيه. وعدل في رعيته وقمع أعداءه وأحسن إلى جنده، وكان له ابنان يقال لأحدهما: «هرمز» والآخر: «فيروز»، وكان لهرمز سجستان، فغلب على الملك بعد هلاك أبيه يزدجرد، فهرب فيروز ولحق ببلاد الهياطلة واستنجد ملكهم، فأمده بعد أن دفع إليه الطالقان، فأقبل بهم فقتل أخاه بالري، وكانا من أم واحدة، وقيل: لم يقتله وإنما أسره وأخذ الملك منه، وكان الروم منعوا الخراج عن يزدجرد، فوجه إليهم نرسي في العدة التي أنفذه أبوه فيها فبلغ إرادته.

وكان ملك يزدجرد ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر، وقيل: تسع عشرة سنة.

ذكر ملك فيروز بن يزدجرد بن بهرام بعد أن قتل أخاه هرمز وثلاثة من أهل بيته[(٢)]

ولما ظفر فيروز بأخيه وملك أظهر العدل وأحسن السيرة، وكان يتدين، إلا أنه كان محدودًا مشئومًا على رعيته، وقحطت البلاد في زمانه سبع سنين متوالية، وغارت الأنهار والقنى، وقل ماء دجلة، ومحلت الأشجار، وهاجت عامة الزروع

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤١٢).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٤١٣).

في السهل والجبل من بلاده، وماتت الطيور والوحوش، وعم أهل البلاد الجوع والجهد الشديد، فكتب إلى جميع رعيته يعلمهم أنه لا خراج عليهم ولا جزية ولا مؤنة، وتقدم إليهم بأن كل من عنده طعام مذخور يواسي به الناس وأن يكون حال الغني والفقير واحدًا، وأخبرهم أنه إن بلغه أن إنسانًا مات جوعًا بمدينة أو قرية عاقبهم ونكل بهم.

وساس الناس سياسة لم يعطب أحد جوعًا ما خلا رجلاً واحدًا من رستاق أردشير خرة، وابتهل فيروز إلى الله بالدعاء فأزال ذلك القحط وعادت بلاده إلى ما كانت عليه، فلما حيي الناس والبلاد وأثخن في أعدائه سار مريدًا حرب الهياطلة، فلما سمع أخشنوار ملكهم خافه، فقال له بعض أصحابه: اقطع يدي ورجلي وألقني على الطريق وأحسن إلى عيالي لأحتال على فيروز.

ففعل ذلك، واجتاز به فيروز فسأله عن حاله فقال له: إني قلت لأخشنوار لا طاقة لك بفيروز ففعل بي هذا، وإني أدلك على طريق لم يسلكها ملك وهي أقرب.

فاغتر فيروز بذلك وتبعه، فسار به وبجنده حتى قطع بهم مفازة بعد مفازة حتى إذا علم أنهم لا يقدرون على الخلاص أعلمهم حاله. فقال أصحاب فيروز لفيروز: حذرناك فلم تحذر، فليس إلا التقدم على كل حال، فتقدموا أمامهم فوصلوا إلى عدوهم وهم هلكى عطشى وقتل العطش منهم كثيرًا. فلما أشرفوا على تلك الحال صالحوا أخشنوار على أن يخلي سبيلهم إلى بلادهم على أن يحلف له فيروز أنه لا يغزو بلاده، فاصطلحا، وكتب فيروز كتابًا بالصلح وعاد.

فلما استقر في مملكته حملته الأنفة على معاودة أخشنوار، فنهاه وزراؤه عن نقض العهد، فلم يقبل وسار نحوه، فلما تقاربا أمر أخشنوار فحفر خلف عسكره خندقًا عرضه عشرة أذرع وعمقه عشرون ذراعًا وغطاه بخشب ضعيف وتراب، ثم عاد وراءه، فلما سمع فيروز بذلك اعتقده هزيمة فتبعه ولا يعلم عسكر فيروز بالخندق فسقط هو وأصحابه فيه فهلكوا، وعاد أخشنوار إلى عسكر فيروز وأخذ كل ما فيه وأسر نساءه وموبذان موبذ[1] ثم استخرج جثة فيروز ومن سقط معه فجعلها في النواويس[2].

---

(١) الموبذان: فقيه الفرس.

(٢) الناووس: مقابر النصارى. «لسان العرب» (٦/ ٤٥٧٥).

وقيل: إن فيروز لما انتهى إلى الخندق الذي حفره أخشنوار ولم يكن مغطى عقد عليه قناطر وجعل عليها أعلامًا له ولأصحابه يقصدونها في عودهم وجاز إلى القوم. فلما التقى العسكران احتج عليه أخشنوار بالعهود التي بينهما وحذره عاقبة الغدر، فلم يرجع، فنهاه أصحابه فلم ينته، فضعفت نياتهم في القتال. فلما أبى إلا القتال رفع أخشنوار نسخة العهد على رمح وقال: اللهم خذ ما في هذا الكتاب وقلده بغيه. فقاتله فانهزم فيروز وعسكره فضلوا عن مواضع القناطر فسقطوا في الخندق، فهلك فيروز وأكثر عسكره، وغنم أخشنوار أموالهم ودوابهم وجميع ما معهم، وغلب أخشنوار على عامة خراسان.

فسار إليهم رجل من أهل فارس يقال له سوخرا ـ وكان فيهم عظيمًا ـ وخرج كالمحتسب، وقيل: بل كان فيروز استخلفه على ملكه لما سار، وكان له سجستان، فلقي صاحب الهياطلة فأخرجه من خراسان واستعاد منه كل ما أخذ من عسكر فيروز مما هو في عسكره موجودًا من السبي وغيره وعاد إلى بلاده، فعظمته الفرس إلى غاية لم يكن فوقه إلا الملك، وكانت مملكة الهياطلة طخارستان، فكان فيروز قد أعطى ملكهم لما ساعده على حرب أخيه الطالقان.

وكان ملك فيروز ستًّا وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة.



ذكر الأحداث في العرب أيام يزدجرد وفيروز[1]

كان يخدم ملوك حمير أبناء الأشراف من حمير وغيرهم، وكان ممن يخدم حسان بن تبع: عمرو بن حجر الكندي سيد كندة، فلما قتل عمرو بن تبع أخاه حسان بن تبع اصطنع عمرو بن حجر وزوجه ابنة أخيه حسان، ولم يطمع في التزوج إلى ذلك البيت أحد من العرب، فولدت الحارث بن عمرو.

وملك بعد عمرو بن تبع عبد كلال بن مثوب، وإنما ملكوه لأن أولاد عمرو كانوا صغاراً، وكان الجن قبل ذلك قد استهامت تبع بن حسان وكان عبد كلال على دين النصرانية الأولى ويكتم ذلك، ورجع تبع بن حسان، من استهامته وهو أعلم الناس بما كان قبله، فملك اليمن، وهابته حمير، فبعث ابن أخته الحارث بن عمرو ابن حجر في جيش إلى الحيرة، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس، وهو ابن الشقيقة، فقاتله فقتل النعمان وعدة من أهل بيته، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر وأمه ماء السماء امرأة من النمر بن قاسط، فذهب ملك آل النعمان وملك الحارث ابن عمرو الكندي ما كانوا يملكون، قاله بعضهم.

وقال ابن الكلبي: ملك بعد النعمان المنذر بن النعمان بن المنذر بن النعمان أربعًا وأربعين سنة، من ذلك في زمن بهرام جور ثماني سنين، وفي زمن يزدجرد بن بهرام ثماني عشرة سنة، وفي زمن فيروز بن يزدجرد سبع عشرة سنة.

ثم ملك بعده الأسود بن المنذر عشرين سنة، منها في زمن فيروز بن يزدجرد عشر سنين، وفي زمن بلاش بن فيروز أربع سنين، وفي زمن قباذ بن فيروز ست سنين.

وهكذا ذكر أبو جعفر ههنا أن الحارث بن عمرو قتل النعمان بن امرئ القيس وأخذ بلاده وانقرض ملك أهل بيته، وذكر فيما تقدم أن المنذر بن النعمان ـ أو النعمان، على الاختلاف المذكور ـ هو الذي جمع العساكر وملك بهرام جور على الفرس، ثم ساق فيما بعد ملوك الحيرة من أولاد النعمان هذا إلى آخرهم ولم يقطع ملكهم بالحارث بن عمرو.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤١٧).

وسبب هذا أن أخبار العرب لم تكن مضبوطة على الحقيقة، فقال كل واحد ما نقل إليه من غير تحقيق، وقيل غير ذلك، وسنذكره في مقتل حجر بن عمرو والد امرئ القيس في أيام العرب إن شاء الله.

والصحيح أن ملوك كندة عمرو والحارث كانوا بنجد على العرب، وأما اللخميون ملوك الحيرة المناذرة فلم يزالوا عليها إلى أن ملك قباذ الفرس وأزالهم واستعمل الحارث بن عمرو الكندي على الحيرة، ثم أعاد أنوشروان الحيرة إلى اللخميين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.



ذكر ملك بلاش بن فيروز بن يزدجرد[١]

ثم ملك بعد فيروز ابنه بلاش وجرى بينه وبين أخيه قباذ منازعة استظهر فيها قباذ وملك، فلما ملك بلاش أكرم سوخرا وأحسن إليه لما كان منه، ولم يزل حسن السيرة حريصًا على العمارة، وكان لا يبلغه أن بيتًا خرب وجلا أهله إلا عاقب صاحب تلك القرية على تركه سد فاقتهم حتى لا يضطروا إلى مفارقة أوطانهم، وبنى مدينة ساباط بقرب المدائن، وكان ملكه أربع سنين.

ذكر ملك قباذ بن فيروز بن يزدجرد[٢]

وكان قباذ قبل أن يصير الملك إليه قد سار إلى خاقان مستنصراً به على أخيه بلاش، فمر في طريقه بحدود نيسابور ومعه جماعة من أصحابه متنكرين وفيهم زرمهر بن سوخرا، فتاقت نفسه إلى النكاح، فشكا ذلك إلى زرمهر وطلب منه امرأة، فسار إلى امرأة صاحب المنزل ـ وكان من الأساورة ـ وكان لها بنت حسناء، فخطبها منها وأطمعها وزوجها، فزُوِّجَا، فدخل بها قباذ من ليلته، فحملت بأنوشروان، وأمر لها بجائزة سنية وردها، وسألتها أمها عن قباذ وحاله. فذكرت أنها لا تعرف من حاله شيئًا غير أن سراويله منسوجة بالذهب، فعلمت أنه من أبناء الملوك.

ومضى قباذ إلى خاقان واستنصره على أخيه، فأقام عنده أربع سنين وهو يعده، ثم أرسل معه جيشًا. فلما صار بالقرب من الناحية التي بها زوجته سأل عنها فأحضرت ومعها أنوشروان وأعلمته أنه ابنه.

وورد الخبر بذلك المكان أن أخاه بلاش قد هلك، فتيمن بالمولود وحمله وأمه على مراكب نساء الملوك واستوثق له الملك وخص سوخرا وشكر لولده خدمته. وتولى سوخرا الأمر، فمال الناس إليه وتهاونوا بقباذ، فلم يحتمل ذلك. فكتب إلى سابور الداري، وهو أصبهبذ ديار الجبل، ويقال للبيت الذي هو منه مهران، فاستقدمه ومعه جنده، فتقدم إليه فأعلمه عزمه على قتل سوخرا وأمره بكتمان

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤١٧).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٤١٨).

ذلك، فأتاه يومًا سابور وسوخرا عند قباذ فألقى في عنقه وهقا[١] وأخذه وحبسه ثم خنقه قباذ وأرسله إلى أهله وقدم عوضه سابور الرازي.

وفي أيامه ظهر مزدك وابتدع ووافق زرادشت في بعض ما جاء به وزاد ونقص، وزعم أنه يدعو إلى شريعة إبراهيم الخليل حسبما دعا إليه زرادشت واستحل المحارم والمنكرات، وسوى بين الناس في الأموال والأملاك والنساء والعبيد والإماء حتى لا يكون لأحد على أحد فضل في شيء البتة، فكثر أتباعه من السفلة والأغتام[٢] فصاروا عشرات ألوف، فكان مزدك يأخذ امرأة هذا فيسلمها إلى الآخر، وكذا في الأموال والعبيد والإماء وغيرها من الضياع والعقار، فاستولى وعظم شأنه وتبعه الملك قباذ. فقال يومًا لقباذ: اليوم نوبتي من امرأتك أم أنوشروان. فأجابه إلى ذلك.

فقام أنوشروان إليه ونزع خفيه بيده وقبل رجليه وشفع إليه حتى لا يتعرض لأمه وله حكمه في سائر ملكه، فتركها.

وحرم ذباحة الحيوان وقال: يكفي في طعام الإنسان ما تنبته الأرض وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن، فعظمت البلية به على الناس فصار الرجل لا يعرف ولده والولد لا يعرف أباه.

فلما مضى عشر سنين من ملك قباذ اجتمع موبذان موبذ والعظماء وخلعوه وملكوا عليه أخاه جامسب وقالوا له: إنك قد أثمت باتباعك مزدك وبما عمل أصحابه بالناس وليس ينجيك إلا إباحة نفسك ونسائك، وأرادوه على أن يسلم نفسه إليهم ليذبحوه ويقربوه إلى النار، فامتنع من ذلك، فحبسوه وتركوه لا يصل إلى أحد. فخرج زرمهر بن سوخرا فقتل من المزدكية خلقًا، وأعاد قباذ إلى ملكه وأزال أخاه جامسب. ثم إن قباذًا قتل بعد ذلك زرمهر.

وقيل: لما حبس قباذ وتولى أخوه دخلت أخت لقباذ عليه كأنها تزوره ثم لفته في بساط وحمله غلام، فلما خرج من السجن سأله السجان عما معه، فقالت: هو مرحل كنت أحيض فيه، فلم يمس البساط، فمضى الغلام بقباذ، وهرب قباذ فلحق بملك الهياطلة يستجيشه، فلما صار بإيران شهر، وهي نيسابور، نزل برجل من أهلها له ابنة بكر حسنة جميلة فنكحها وهي أم كسرى أنوشروان، فكان نكاحه إياها

---

(١) الوهق: حبل ترمي فيه أنشوطة فيؤخذ به الدابة والإنسان.

(٢) الأغتم: من لا يفصح شيئًا.

في هذه السفـرة لا في تلك في قول بعضهم، وعـاد ومعه أنوشروان، فـغلب أخاه جامسب على الملك وكان ملك جامسب على ست سنين.

وغزا قـباذ بعد ذلك الروم فـفتح مدينة آمـد وبنى مدينة أرجـان ومدينة حلوان ومات، فملك ابنه كسرى أنوشروان بعده، فكـان ملك قباذ مع سني أخيه جامسب ثلاثًا وأربعين سنة، فتولى أنوشروان ما كان أبوه أمر له به.

وفي أيامه خرجت الخـزر فأغارت على بلاده فبلغت الدينور، فوجه قـباذ قائدًا من عظماء قـواده في اثني عشر ألفًا، فـوطئ بلاد أران وفتح ما بين النهـر المعروف بالرس إلى شروان.

ثم إن قباذًا لحق به فبنـى باران مدينة البيلقان ومدينة البرذعـة، وهي مدينة الثغر كله، وغيرهما، وبقي الخزر، ثم بنى سد اللان فيما بين أرض شروان وباب اللان، وبنى على السد مدنًا كثيرة خربت بعد بناء باب الأبواب.



ذكر حوادث العرب أيام قباذ[١]

لما ملك الحارث بن عمرو بن حجر الكندي العرب وقتل النعمان بن المنذر بن امرئ القيس، كما ذكرناه، وبعث إليه قباذ: إنه قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد، وأحب لقاءك، وكان قباذ زنديقًا يظهر الخير ويكره الدماء ويداري أعداءه. فخرج إليه الحارث والتقيا واصطلحا على أن لا يجوز الفرات أحد من العرب، فطمع الحارث الكندي فأمر أصحابه أن يقطعوا الفرات ويغيروا على السواد، فسمع قباذ فعلم أنه من تحت يد الحارث، فاستدعاه فحضر، فقال له: إن لصوصًا من العرب صنعت كذا وكذا. فقال: ما علمت ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود. وطلب منه شيئًا من السواد، فأعطاه ستة طساسيج[٢].

وأرسل الحارث بن عمرو إلى تبع ـ وهو باليمن ـ يطمعه في بلاد العجم، فسار تبع حتى نزل الحيرة، وأرسل ابن أخيه شمراً ذا الجناح إلى قباذ، فحاربه فهزمه شمر حتى لحق بالري، ثم أدركه بها فقتله.

ثم وجه تبع شمراً إلى خراسان، ووجه ابنه حسان إلى السغد، وقال: أيكما سبق إلى الصين فهو عليها، وكان كل واحد منهما في جيش عظيم، يقال: كانا في ستمائة ألف وأربعين ألفًا.

وأرسل ابن أخيه «يعفر» إلى الروم، فنزل على القسطنطينية، فأعطوه الطاعة والإتاوة، ومضى إلى رومية فحاصرها فأصاب من معه طاعون، فوثب الروم عليهم فقتلوهم ولم يفلت منهم أحد.

وسار شمر ذو الجناح إلى سمرقند فحاصرها، فلم يظفر بها، وسمع أن ملكها أحمق وأن له ابنة، وهي التي تقضي الأمور، فأرسل إليها هدية عظيمة، وقال لها: إنني إنما قدمت لأتزوج بك ومعي أربعة آلاف تابوت مملوءة ذهبًا وفضة وأنا أدفعها إليك وأمضي إلى الصين، فإن ملكت كنت امرأتي وإن هلكت كان المال لك. فلما بلغتها الرسالة قالت: قد أجبته فليبعث المال.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٢٠).

(٢) الطسوج: الناحية.

فأرسل أربعة آلاف تابوت في كل تابوت رجلان. ولسمرقند أربعة أبواب، ولكل باب ألفا رجل، وجعل العلامة بينهم أن يضرب بالجرس، فلما دخلوا البلد صاح شمر في الناس وضرب بالجرس فخرجوا وملكوا الأبواب ودخل المدينة فقتل أهلها وحوى ما فيها وسار إلى الصين فهزم الترك ودخل بلادهم ولقي حسان بن تبع قد سبقه إليها بثلاث سنين، فأقاما بها حتى ماتا، وكان مقامهما فيما قيل: إحدى وعشرين سنة، وقيل: عادا في طريقهما حتى قدما على تبع بالغنائم والسبي والجواهر، ثم انصرفوا جميعًا إلى بلادهم.

ومات تبع باليمن فلم يخرج أحد من اليمن غازيًا بعده، وكان ملكه مائة وإحدى وعشرين سنة، وقيل: تهود.

قال ابن إسحاق: كان تبع الآخر وهو تبان أسعد أبو كرب حين أقبل من المشرق بعد أن ملك البلاد جعل طريقه على المدينة، وكان حين مر بها في بدايته لم يهج أهلها وخلف عندهم ابنًا له فقتل غيلة فقدمها عازمًا على تخريبها واستئصال أهلها، فجمع له الأنصار حين سمعوا ذلك ورئيسهم عمرو بن الظلة أحد بني عمرو بن مبذول من بني النجار وخرجوا لقتاله، وكانوا يقاتلونه نهارًا ويقرونه[1] ليلاً.

فبينما هو على ذلك إذ جاءه حبران من بني قريظة عالمان، فقالا له: قد سمعنا ما تريد أن تفعل، وإنك إن أبيت إلا ذلك حيل بينك وبينه ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فقال: ولم ذلك؟ فقالا: إنها مهاجر نبي من قريش تكون داره.

فانتهى عما كان يريد وأعجبه فاتبعهما على دينهما، واسمهما كعب وأسد - وكان تبع وقومه أصحاب أوثان - وسار من المدينة إلى مكة - وهي طريقه - فكسا الكعبة الوصائل والملاء، وكان أول من كساها - وجعل لها بابًا ومفتاحًا، وخرج متوجهًا إلى اليمن فدعا قومه إلى اليهودية فأبوا عليه حتى حاكموه إلى النار، وكانت لهم نار تحكم بينهم فيما يزعمون تأكل الظالم ولا تضر المظلوم. فقال لقومه: أنصفتم.

فخرج قومه بأوثانهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قعدوا عند مخرج النار، فخرجت النار فغشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران تعرق جباههما لم يضرهما، فأطبقت حمير

---

(١) القرى: الضيافة.

على دينه، وكـان قدم على تبع قبل ذلك شـافع بن كليب الصدفي، وكـان كاهنًا، فقال له تبع: هـل تجد لقومي ملكًا يوازي ملكي؟ قال: لا إلا الملـك غسان. قال: فهل تجد ملكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبار مبرور، ورائد بالقهور، ووصف بالزبور، وفضلـت أمته في السـفور، يفرج الـظلم بالنور، أحمـد النبي، طوبى لأمـته حين يجيء، أحد بني لؤي، ثم أحد بني قصي.

فنظر تبع في الزبور فإذا هو يجد صفة النبي ﷺ

ثم ملك بعد تبع هذا، وهو تبان أسعد أبـو كرب بن ملكيكرب، ربيعة بن نصر اللخمي، فلما هلك ربـيعة رجع الملك باليمن إلى حسان بن تبـان بن أسعد، فلما ملك ربيعة رأى رؤيا هالته فلم يدع كـاهنًا ولا ساحرًا ولا عائفًا[1] إلا أحضره وقال لهم: رأيت رؤيا هالتنـي فأخبروني بتـأويلها. فقالوا: اقـصصها علينـا. فقال: إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها.

فلما قال ذلك قـال له رجل منهم: إن كان الملك يريد ذلك فليـبعث إلى سطيح وشق فهما يخبـرانك عما سألت. واسم سطيح ربيع بن ربيعة بـن مسعود بن مازن ابن ذئب بن عدي بن غسان، وكان يقـال له الذئبي نسبة إلى ذئب بن عدي، وشق ابن مصعب بن يشكر بن أنمار فبعث إليهما، فقدم عليه سطيح قبل شق.

فلما قدم عليه سطيح سأله عن رؤياه وتأويلهـا. فقال: رأيت جمجمة، خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض بهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة.

قال له الملك: ما أخطأت منـها شيئًا، فما عندك من تأويلـها؟ فقال: أحلف بما بين الحرتين من جيش ليهبطن أرضكم الحـبش فليملكن ما بين أبين إلى جرش. قال الملك: وأبيك يـا سطيح إن هذا لغائـظ موجع، فمـتى يكون أفي زمانـي أم بعده؟ قال: بل بعده بـحين ستين سنة أو سبعين يمضين من الـسنين. قال: هل يدوم ذلك من ملكهم أو ينقطع؟ قال: بل ينقطع لبضـع وسبعين يمضين من السنين، ثم يقتلون بها أجمعـون ويخرجون منها هاربين. قال الملك: ومن الـذي يلي ذلك؟ قال: يليه إرم ذي يزن، يخرج عـليهم من عدن، فـلا يترك أحد منـهم باليمن. قال: فـيدوم ذلك من سلطانـه أو ينقطع؟ قال: بل ينقطـع، يقطعه نبي زكي، يأتيـه الوحي من العلي، وهو رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك في قومه

---

(١) العائف: المتكهن بالطير.

إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحق ما تخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم والشفق، والغسق، والفلق إذا انشق، إن ما أنبأتك به لحق.

ثم قدم عليه شق فقال: يا شق إني رأيت رؤيا هالتني فأخبرني عنها وعن تأويلها! وكتمه ما قال سطيح لينظر هل يتفقان أم يختلفان. قال: نعم، رأيت جمجمة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلت منها كل ذات نسمة.

فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأت شيئًا، فما تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرتين من إنسان، لينزلن أرضكم السودان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران. قال الملك: وأبيك يا شق! إن هذا لغائظ، فمتى هو كائن؟ قال: بعدك بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن، ويذيقكم أشد الهوان، وهو غلام ليس بدني ولا مزن، يخرج من بيت ذي يزن. قال: فهل يدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم تجزى فيه الولاة، ويدعى من السماء بدعوات، ويسمع منها الأحياء والأموات، ويجتمع فيه الناس للميقات.

فلما فرغ من مسألتهما جهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، فمن بقية ربيعة بن نصر كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان ابن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر ذلك الملك. فلما هلك ربيعة بن نصر واجتمع ملك اليمن إلى حسان بن تبان بن أبي كرب بن ملكيكرب بن زيد بن عمرو ذي الأذعار، كان مما هيج أمر الحبشة وتحول الملك عن حمير أن حسان سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب والعجم، كما كانت التبابعة تفعل.

فلما كان بالعراق كرهت قبائل العرب المسير معه فكلموا أخاه عمرًا في قتل حسان وتمليكه، فأجابهم إلى ذلك إلا ما كان من ذي رعين الحميري، فإنه نهاه عن ذلك، فلم يقبل منه، فعمد ذو رعين إلى صحيفة فكتب فيها:

ألا من يشتري سهرًا بنوم ... سعيد من يبت قرير عين

وأما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين

ثم ختمـها وأتى بها عمراً فـقال: ضع هذه عندك، ففعل. فلما بلغ حـسان ما أجمع عليه أخوه وقبائل اليمن قال لعمرو:

يا عمرو لا تعجل علي منيتي فـالملك تأخذه بغـير حـشود

فأبى إلا قتله، فقتله بموضع رحبة مالك، فكانت تسمى فرضة نعم فيما قيل.

ثم عـاد إلى اليـمـن فمنـع النـوم منـه، فـسأل الأطباء وغـيرهم عـما به وشكا إليهم السـهر، فقـال له قائل منهم: ما قـتل أحد أخاه أو ذا رحم بغـيًا إلا منع عنه النـوم.

فلما سمع ذلك قـتل كل من أشار عليه بقتل أخـيه حتى خلص إلى ذي رعين، فلما أراد قتلـه قال: إن لي عندك براءة. قال: وما هي؟ قال: أخـرج الكتاب الذي أستودعتك. فـأخرجه فإذا فيه البيتان، فـكف عن قتله، ولـم يلبث عمرو أن هلك، فتفرقت حمير عند ذلك.

قلت: هذا الذي ذكره أبو جعـفر من قتل قباذ بالري ومـلك تبع البلاد من بعد قتله من النقل القبيح والغلط الفاحش، وفساده أشهر من أن يذكر، فلولا أننا شرطنا أن لا نترك ترجمة من تاريخه إلا ونأتي بمعناها من غير إخلال بشيء لكان الإعراض عنه أولى. ووجه الغلط فيه أنه ذكر أن قـباذ قتل بالري، ولا خلاف بين أهل النقل من الفرس وغـيرهم أن قـباذ مات حـتف أنفه في زمـان معلوم، وكـان ملكه مدة معلومـة، كمـا ذكرناه قبل، ولم يـنقل أحد أنه قتل إلا في هـذه الرواية. ولما مات ملك ابنه كسرى أنوشروان بعده، وهذا أشهر من: قفانبك.

ولو كان ملك الفرس انتقل بعد قباذ إلى حمير، كيف كان يملك ابنه بعده وتمكن في الملك حتى أطاعه ملوك الأمم وحملت الروم إليه الخراج!

ثم ذكر أيضًا أن تبعًا وجه ابنه حسـان إلى الصين وشمراً إلى سمرقند وابن أخيه إلى الروم وأنه ملك القسطنطينية وسـار إلى رومية فحاصرها، فيـا ليت شعري! ما هو اليمن وحـضرموت حتى يكون بهـما من الجنود وما يكون بعـضهم في بلادهم لحفظهـا، وجيش مع تبع، وجيش مـع حسان يسـير بهم إلى مثل الصين في كـثرة عساكره ومقاتلته، وجيش مع ابن أخيه تبع يلقى به مثل كسرى ويهزمه ويملك بلاده ويحاصر به مثل سمرقند في كبرها وعظمها وكثرة أهلها، وجيش مع يعفر يسير بهم إلى ملك الروم ويملك القسطنطـينية! والمسلمون مع كثـرة ممالكهم واتساعهـا وكثرة

عددهم قد اجتهدوا ليأخذوا القسطنطينية أو ما يجاورها واليمن من أقل بلادهم عددًا وجنودًا فلم يقدروا على ذلك، فكيف يقدر عليه بعض عساكر اليمن مع تبع؟ هذا مما تأباه العقول، وتمجه الأسماع.

ثم إنه قال: إن ملك تبع بلاد الفرس والروم والصين وغيرها كان بعد قتل قباذ، يعني أيام ابنه أنوشروان ولا خلاف أن مولد النبي ﷺ كان في زمن أنوشروان، وكان ملكه سبعًا وأربعين سنة. ولا خلاف أيضًا أن الحبشة لما ملكت اليمن انقرضت ملوك حمير منه وكان آخر ملوكهم ذا نُواس. وكان ملك حمير قد اختل قبل ذي نواس، وانقطع نظامه حتى طمعت الحبشة فيه وملكته، وكان ملكهم اليمن أيام قباذ، وكيف يمكن أن يكون ملك الحبشة الذي هو مقطوع به أيام قباذ ويكون تبع هو الذي ملك اليمن قد قتل قباذًا وملك بلاده قبل أن تملك الحبشة اليمن هذا مردود محال وقوعه، وكان ملك الحبشة اليمن سبعين سنة، وقيل: أكثر من ذلك، وكان انقراض ملكهم في آخر ملك أنوشروان، والخبر في ذلك مشهور، وحديث سيف ذي يزن في ذلك ظاهر، ولم تزل اليمن بعد الحبشة في يد الفرس إلى أن ملكه المسلمون، فكيف يستقيم أن ينقضي ملك تبع الذي هو ملك بلاد فارس ومن بعده من ملوك حمير وملك الحبشة وهو سبعون سنة في ملك أنوشروان وكان ملكه نيفًا وأربعين سنة، وهذا أعجب أن مدة بعضها سبعون سنة تنقضي قبل مضي نيف وأربعين سنة، ولو فكر أبو جعفر في ذلك لاستحيا من نقله.

وأعجب من هذا أنه قال: ثم ملك بعد تبع هذا ربيعة بن نصر اللخمي، وهذا ربيعة هو جد عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة، وكان ملك عمرو الحيرة بعد خاله جذيمة أيام ملوك الطوائف قبل ملك أردشير بن بابك بخمس وتسعين سنة وملك أيضًا أيام أردشير، وبين أردشير وقباذ ما يقارب عشرين ملكًا، وكيف يكون جد عمرو وقد ملك بعد قباذ وهو قبله بهذا الدهر الطويل.

ولو لم يترجم أبو جعفر على هذه الحادثة بقوله: ذكر الحوادث أيام قباذ، لكان يحتمل تأويلاً فيه، ثم ما قنع بذلك حتى قال، بعد أن قص مسير تبع: وقتل قباذ وملك البلاد؛ وأما ابن إسحاق فإنه قال: إن الذي سار إلى المشرق من التبابعة هو تبع الأخير، ويعني بقوله تبع الأخير أنه آخر من سار إلى المشرق وملك البلاد، فإن ابن إسحاق وغيره يقولون: إن الذي ملك البلاد المشرقية لما توفي ملك بعده عدة تبابعة ثم اختل أمرهم زمانًا طويلاً حتى طمعت الحبشة فيهم وخرجت إلى اليمن.

فليت شعري إذا كان هذا تبع في أيام قباذ فلا شك أن تبعًا الأخير الذي أخذ منه اليمن يكون في زمن بني أمية ويكون ملك الحبشة اليمن بعد مدة من ملك بني العباس، ويكون أول الإسلام من ثلاثمائة سنة من ملكهم أيضًا مما بعدها حتى يستقيم هذا القول.

ثم إنه قال: إن عمر بن طلحة الأنصاري خرج إلى تبع، وعمرو هذا قيل: إنه أدرك النبي ﷺ شيخًا كبيرًا ومات عند مرجعه من غزوة بدر.

ومن الدليل على بطلانه أيضًا أن المسلمين لما قصدوا بلاد الفرس ما زالت الفرس تقول لهم عند مراسلاتهم ومحاوراتهم في حروبهم: «كنتم أقل الأمم وأذلها وأحقرها» والعرب تقر لهم بذلك، فلو كان ملك تبع قرب العهد لقالت العرب: إننا بالأمس قتلنا ملككم وملكنا بلادكم واستبحنا حريمكم وأموالكم، فسكوت العرب عند ذلك وإقرارها للفرس دليل على بعد عهده أو عدمه، على أن الفرس لا تقر بذلك لا في قديم الزمان ولا في حديثه، فإنهم يزعمون أن ملكهم لم ينقطع من عهد جيومرث، الذي هو آدم في قول بعضهم، إلى أن جاء الإسلام، إلا أيام ملوك الطوائف، وكان لملوك الفرس طرف من البلاد في ذلك الزمان لم ينقطع انقطاعًا كليًّا.

على أن أصحاب السير قد اختلفوا في تبع الذي سار وملك البلاد اختلافًا كثيرًا، فقيل: شمر بن أفريقش، وقيل تبع أسعد، وأنه بعث إلى سمرقند شمرًا ذا الجناح، إلى غير ذلك من الاختلافات التي لا طائل فيها. وهذا القدر كاف في كشف الخطأ فيه.

* * *

ذكر ملك لختيعة(١)

فلما هلك عمرو وتفرقت حمير وثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له «لختيعة تنوف ذو شناتر» فملكهم، في قول ابن إسحاق، فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم، وكان امرءً فاسقًا يزعمون أنه كان يعمل عمل قوم لوط، فكان إذا سمع بغلام من أبناء الملوك أنه قد بلغ أرسل إليه فوقع عليه في مشربة لئلا يملك بعد ذلك، ثم يطلع إلى حرسه وجنده قد أخذ سواكًا في فِيِّه يعلمهم أنه قد فرغ منه، ثم يخلي سبيله فيفضحه.

ذكر ملك ذي نواس وقصة أصحاب الأخدود(٢)

كان من أبناء الملوك زرعة ذو نواس بن تبان أسعد بن كرب، وكان صغيراً حين أصيب أخوه حسان، فشب غلامًا جميلاً ذا هيئة، فبعث إليه لختيعة ليفعل به ما كان يفعل بغيره، فأخذ سكينًا لطيفًا فجعله بين نعله وقدمه، ثم انطلق إليه مع رسوله، فلما خلا به في المشربة قتله ذو نواس بالسكين ثم احتز رأسه فجعله في كوة مشربته التي يطلع منها، ثم أخذ سواكه فجعله في فيه، ثم خرج، فقالوا له: ذو نواس أرطب أم يباس؟ فقال: سل يحماس(٣)، استرطبان ذو نواس لا بأس.

فذهبوا ينظرون حين قال لهم ما قال، فإذا رأس لختيعة مقطوع، فخرجت حمير والحرس في أثر ذي نواس حتى أدركوه فملكوه حيث أراحهم من لختيعة، واجتمعوا عليه، وكان يهوديًا.

وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على استقامة لهم رئيس يقال له عبدالله بن التامر، وكان أصل النصرانية بنجران.

قال وهب بن منبه: إن رجلاً من بقايا أهل دين عيسى يقال له فيميون، وكان رجلاً صالحًا مجتهدًا زاهدًا في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحًا لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى غيرها، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، وكان يعمل الطين ويعظم

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٣٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) في «تاريخ الطبري»: «نخماس».

الأحد لا يعمل فيه شيئًا ويخرج إلى الصحراء يصلي جميع نهاره، فنزل قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفيًا، ففطن به رجل اسمه «صالح» فأحبه حبًا شديدًا، وكان يتبعه حيث ذهب لا يفطن به فيميون، حتى خرج مرة يوم الأحد إلى الصحراء واتبعه صالح وفيميون لا يعلم. فجلس صالح منه منظر العين مستخفيًا، وقام فيميون يصلي، فبينما هو يصلي إذ أقبل نحوه تنين[1]، فلما رآه فيميون دعا عليه فمات، ورآه صالح ولم يدر ما أصابه فخاف على فيميون فصاح: «يا فيميون التنين قد أقبل نحوك» فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى أمسى، وعرف أن صالحًا عرفه، فكلمه صالح وقال له: يعلم الله أنني ما أحببت شيئًا حبك قط وقد أردت صحبتك حيثما كنت. قال: افعل. فلزمه صالح، وكان إذا ما جاءه العبد به ضر شفي إذا دعا له، وإذا دعي إلى أحد به ضر لم يأته. وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فجعل ابنه في حجرة ألقى عليه ثوبًا ثم قال لفيميون: قد أردت أن تعمل في بيتي عملاً، فانطلق إليه لأشارطك عليه، فانطلق معه، فلما دخل الحجرة ألقى الرجل الثوب عن ابنه وطلب إليه أن يدعو له، فدعا له فأبصر،

وعرف فيميون أنه قد عرف بالقرية فخرج هو وصالح ومر بشجرة عظيمة بالشام. فناداه رجل وقال: ما زلت أنتظرك، لا تبرح حتى تقوم علي فإني ميت، قال: فمات، فواراه فيميون وانصرف ومعه صالح حتى وطئا بعض أرض العرب، وأخذهما بعض العرب فباعوهما بنجران، وأهل نجران على دين العرب تعبد نخلة طويلة بين أظهرهم، لها عيد كل سنة، تعلق عليها كل ثوب حسن وحلي جميل، فعلقوا عليها يومًا، فابتاع رجل من أشرافهم فيميون، وابتاع رجل آخر صالحًا، فكان فيميون إذا قام من الليل يصلي في بيته استخرج له البيت حتى يصبح من غير مصباح. فلما رأى سيده ذلك أعجبه، فسأله عن دينه فأخبره، وعاب دين سيده. وقال له: لو دعوت إلهي الذي أعبد لأهلك النخلة. فقال: افعل فإنك إن فعلت دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه.

فصلى فيميون ودعا الله تعالى، فأرسل الله عليها ريحًا فجففتها وألقتها، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه، فحملهم على شريعة من دين عيسى ودخل عليهم بعد ذلك الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض. فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران.

---

(١) التنين: حية عظيمة.

وقال محمد بن كعب القرظي: كان أهل نجران يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها ساحر كان أهل نجران يرسلون أولادهم إليه يعلمهم السحر فلما نزلها فيميون وهو رجل كان يعبد الله على دين عيسى بن مريم، عليه السلام، فإذا عرف في قرية خرج منها إلى غيرها، وكان مجاب الدعوة يبرئ المرضى، وله كرامات، فوصل نجران فسكن خيمة بين نجران وبين الساحر، فأرسل التامر ابنه عبد الله مع الغلمان إلى الساحر، فاجتاز بفيميون فرأى ما أعجبه من صلاته، فجعل يجلس إليه ويستمع منه، فأسلم معه ووحد الله تعالى وعبده، وجعل يسأله عن الاسم الأعظم - وكان يعلمه - فكتمه إياه وقال: لن تحتمله، والتامر يعتقد أن ابنه يختلف إلى الساحر مع الغلمان. فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن عليه بالاسم الأعظم عمد إلى قداح فكتب عليها أسماء الله جميعها ثم ألقاها في النار واحداً واحداً حتى إذا ألقى القدح الذي عليه الاسم الأعظم وثب منها فلم تضره شيئًا، فأخذه وعاد إلى صاحبه فأخبره الخبر، فقال له: امسك على نفسك، وما أظن أن تفعل، فكان عبد الله لا يلقى أحداً إذا أتى نجران به ضر إلا قال: يا عبد الله أتدخل في ديني حتى أدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم، ويدعو له عبد الله فيشفى، حتى لم يبق أحد من أهل نجران ممن به ضر إلا أتاه واتبعه ودعا له فعوفي.

فرفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له: أفسدت علي أهل قريتي وخالفت ديني، لأمثلن بك! فقال: لا تقدر على ذلك.

فجعل يرسله إلى الجبل الطويل فيلقى من رأسه فيقع على الأرض وليس به بأس، فأرسله إلى مياه نجران، وهي بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه قال عبد الله بن التامر: إنك لا تقدر على قتلي حتى توحد الله وتؤمن كما آمنت، فإنك إذا فعلت قتلتني. فوحد الله الملك ثم ضربه بعصا بيده فشجه شجة غير كبيرة فقتله، فهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر.

قال: فسار إليهم ذو نواس بجنوده فجمعهم ثم دعاهم إلى اليهودية وخيرهم بينها وبين القتل، فاختاروا القتل، فخدَّ لهم الأخدود، فحرق بالنار وقتل بالسيف حتى قتل قريبًا من عشرين ألفًا، وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾[1].

---

(١) سورة البروج (٤).

وقال ابن عباس: كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له: ذو نواس واسمه يوسف بن شرحبيل، وكان قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة، وكان له ساحر حاذق. فلما كبر قال للملك: إني كبرت فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا اسمه عبد الله بن التامر ليعلمه، فجعل يختلف إلى الساحر، وكان في طريقه راهب حسن القراءة، فقعد إليه الغلام، فأعجبه أمره، فكان إذا جاء إلى المعلم يدخل إلى الراهب فيقعد عنده، فإذا جاء من عنده إلى المعلم ضربه وقال له: ما الذي حبسك؟ وإذا انقلب إلى أبيه دخل إلى الراهب فيضربه أبوه ويقول: ما الذي أبطأ بك؟ فشكا الغلام ذلك إلى الراهب، فقال له: إذا أتيت المعلم فقل حبسني أبي، وإذا أتيت أباك فقل حبسني المعلم.

وكان في ذلك البلد حية عظيمة قطعت طريق الناس، فمر بها الغلام فرماها بحجر، وقال: «اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتلها». فلما رماها قتلها، وأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: إن لك لشأنًا، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدلن عليَّ.

وصار الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي الناس. وكان للملك ابن عم أعمى، فسمع بالغلام وقتل الحية فقال: ادع الله أن يرد علي بصري. فقال الغلام: إن رد الله عليك بصرك تؤمن به؟ قال: نعم. قال: اللهم إن كان صادقًا فاردد عليه بصره.

فعاد إليه بصره، ثم دخل على الملك، فلما رآه تعجب منه وسأله، فلم يخبره، وألح عليه فدله على الغلام، فجيء به، فقال له: لقد بلغ من سحرك ما أرى. فقال: أنا لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله من يشاء.

فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب، فجيء به، فقال له: ارجع عن دينك، فأبى، فأمر به فوضع المنشار على رأسه فشق نصفين، ثم جيء بابن عم الملك، فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فشقه قطعتين.

ثم قال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال: اذهبوا به إلى جبل كذا فإن رجع وإلا فاطرحوه من رأسه. فذهبوا به إلى الجبل فقال: «اللهم اكفنيهم». فرجف بهم الجبل وهلكوا، ورجع الغلام إلى الملك، فسأله عن أصحابه، فقال: كفانيهم الله. فغاظه ذلك وأرسله في سفينة إلى البحر ليلقوه فيه، فذهبوا به، فقال: «اللهم اكفنيهم»! فغرقوا ونجا، وجاء إلى الملك.

فقال: اقتلوه بالسيف، فضربوه فنبا عنه. وفشا خبره في اليمن، فأعظمه الناس وعلموا أنه على الحق، فقال الغلام للملك: «إنك لن تقدر على قتلي إلا أن تجمع أهل مملكتك وترميني بسهم وتقول: بسم الله رب الغلام». ففعل ذلك فقتله.

فقال الناس: «آمنا برب الغلام». فقيل للملك: قد نزل بك ما تحذر. فأغلق أبواب المدينة وخد أخدوداً وملأه ناراً وعرض الناس، فمن رجع عن دينه تركه، ومن لم يرجع ألقاه في الأخدود فأحرقه.

وكانت امرأة مؤمنة، وكان لها ثلاثة بنين، أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي وإلا قتلتك أنت وأولادك، فأبت، فألقى ابنيها الكبيرين، فأبت، ثم أخذ الصغير ليلقيه فهمت بالرجوع. قال لها الصغير: «يا أماه لا ترجعي عن دينك، لا بأس عليك»! فألقاه وألقاها في أثره[1].

وهذا الطفل أحد من تكلم صغيراً.

قيل: حفر رجل خربة بنجران في زمن عمر بن الخطاب، فرأى عبد الله بن التامر واضعًا يده على ضربة في رأسه، فإذا رفعت عنها يده جرت دمًا، وإذا أرسلت يده ردها إليها وهو قاعد، فكتب فيه إلى عمر، فأمر بتركه على حاله.



(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب الرومي بنحوه.

ذكر ملك الحبشة اليمن[1]

قيل: لما قتل ذو نواس من قتل من أهل اليمن في الأخدود لأجل العود عن النصرانية أفلت منهم رجل يقال له دوس ذو ثعلبان حتى أعجز القوم، فقدم على قيصر فاستنصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما فعل بهم. فقال له قيصر: بعدت بلادك عنا، ولكن سأكتب إلى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم.

فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره، فأرسل معه ملك الحبشة سبعين ألفًا وأمر عليهم رجلاً يقال له «أرياط»، وفي جنوده «أبرهة الأشرم»، فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن، وجمع ذو نواس جنوده فاجتمعوا، ولم يكن حرب غير أنه ناوش شيئًا من قتال ثم انهزموا، ودخلها أرياط. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه اقتحم البحر بفرسه فغرق.

ووطئ أرياط اليمن فقتل ثلث رجاله، وبعث إلى النجاشي بثلث سباياهم، ثم أقام بها وأذل أهلها.

وقيل: إن الحبشة لما خرجوا إلى المندب من أرض اليمن كتب ذو نواس إلى أقيال اليمن يدعوهم إلى الاجتماع على عدوهم، فلم يجيبوه وقالوا: يقاتل كل رجل عن بلاده. فصنع مفاتيح وحملها على عدة من الإبل ولقي الحبشة وقال: هذه مفاتيح خزائن الأموال باليمن، فهي لكم ولا تقتلوا الرجال والذرية.

فأجابوه إلى ذلك وساروا معه إلى صنعاء، فقال لكبيرهم: وجه أصحابك لقبض الخزائن. فتفرق أصحابه ودفع إليهم المفاتيح، وكتب إلى الأقيال يقتل كل ثور أسود، فقتلت الحبشة ولم ينج منهم إلا الشريد.

فلما سمع النجاشي جهز إليهم سبعين ألفًا مع أرياط والأشرم، فملك البلاد وأقام بها سنين، ونازعه أبرهة الأشرم، وكان في جنده، فمال إليه طائفة منهم، وبقي أرياط في طائفة، وسار أحدهما إلى الآخر، وأرسل أبرهة: إنك لن تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها على بعض شيئًا، فيهلكوا، ولكن أبرز إلي فأينا قهر صاحبه

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/٤٣٦).

استولى على جنده. فتبارزا، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه فوقعت على رأسه فشرمت أنفه وعينه، فسمي «الأشرم». وحمل غلام لأبرهة يقال له عتودة، كان قد تركه كمينًا من خلف أرياط، على أرياط فقتله، واستولى أبرهة على الجند والبلاد وقال لعتودة: احتكم. فقال: لا تدخل عروس على زوجها من اليمن حتى أصيبها قبله، فأجابه إلى ذلك، فبقي يفعل بهم هذا الفعل حينًا، ثم عدا عليه إنسان من اليمن فقتله، فسر أبرهة بقتله وقال: لو علمت أنه يحتكم هذا لم أحكمه.

ولما بلغ النجاشي قتل أرياط غضب غضبًا شديدًا وحلف ألا يدع أبرهة حتى يطأ أرضه ويجز ناصيته، فبلغ ذلك أبرهة، فأرسل إلى النجاشي من تراب اليمن وجز ناصيته وأرسلها أيضًا، وكتب إليه بالطاعة وإرسال شعره وترابه ليبر قسمه بوضع التراب تحت قدميه، فرضي عنه وأقره على عمله.

فلما استقر باليمن بعث إلى «أبي مرة ذي يزن»، فأخذ زوجته ريحانة بنت ذي جدن ونكحها، فولدت له مسروقًا وكانت قد ولدت لذي يزن ولدًا اسمه معديكرب ـ وهو سيف ـ فخرج ذو يزن من اليمن فقدم الحيرة على عمرو بن هند وسأله أن يكتب له إلى كسرى كتابًا يعلمه محله وشرفه وحاجته، فقال: إني أفد إلى الملك كل سنة وهذا وقتها، فأقام عنده حتى وفد معه ودخل إلى كسرى معه، فأكرمه وعظمه وذكر حاجته وشكا ما يلقون من الحبشة، واستنصره عليهم، وأطمعه في اليمن وكثرة مالها.

فقال له كسرى أنوشروان: إني لأحب أن أسعفك بحاجتك ولكن المسالك إليها صعبة وسأنظر، وأمر بإنزاله، فأقام عنده حتى هلك.

ونشأ ابنه «معد يكرب ذي يزن» في حجرة أبرهة، وهو يحسب أنه أبوه، فسبه ابن لأبرهة وسب أباه، فسأل أمه عن أبيه، فصدقته، وأقام حتى مات أبرهة وابنه يكسوم وسار عن اليمن، ففعل ما نذكره إن شاء الله.

* * *

ذكر ملك كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز ابن يزدجرد بن بهرام جور بن يزدجرد الأثيم

لما لبس التـاج خطب الناس فحمـد الله وأثنى عليه وذكـر ما ابتلوا به من فـساد أمورهم ودينهم وأولادهم، وأعلمهم أنه يصلح ذلك، ثم أمر بـرؤوس المزدكية فقتلوا وقسمت أموالهم في أهل الحاجة، وكان سبب قـتلهم أن قباذًا كان كما ذكرنا قد اتبع مزدك على دينه وما دعاه إليه وأطاعه في كل مـا يأمره به من الزندقة وغيرها مما ذكرنا أيام قباذ، وكان المنذر بن ماء السـماء يومئذ عاملاً على الحيرة ونواحيهـا، فدعاه قباذ إلى ذلك، فأبى، فـدعا الحـارث بن عمرو الكندي، فـأجابه، فسـدد له ملكه وطرد المنذر عن مملكته، وكانت أم أنوشروان يومًا بين يدي قـباذ، فدخل عليه مزدك. فلما رأى أم أنوشروان قال لقباذ: ادفعها إلي لأقضي حاجتي منها. فقال دونكها.

فوثب إليـه أنوشروان، ولم يزل يسـأله ويتضرع إليـه أن يهب له أمه حـتى قبل رجله، فتركها فحاك ذلك في نفسه، فهلك قباذ على تلك الحالة وملك أنوشروان، فجلس للملك.

ولما بلغ المنذر هلاك قـباذ أقـبل إلى أنوشروان، وقد عـلم خلافه على أبـيه في مـذهبه واتبـاع مزدك، فـإن أنوشـروان كان منكرًا لـهذا المذهب كـارهًا له، ثم إن أنوشروان أذن للناس إذنًا عـامًّـا، ودخل عليه مـزدك، ثم دخل عليه المنذر، فـقال أنوشروان: إني كنت تمنيت أمنيتين، أرجو أن يكون الله عز وجل قد جمعهما إلي، فـقال مـزدك: وما همـا أيها الملك؟ قـال: تمنيت أن أملك وأسـتعـمل هذا الرجل الشريف، يعني المنـذر، وأن أقتل هذه الزنادقة. فـقال مزدك: أو تسـتطيع أن تقتل الناس كلهم؟ فقـال: وإنك ههنا يا ابن الزانية! والله مـا ذهب نتن ريح جوربك من أنفي منذ قبلت رجلك إلى يومـي هذا. وأمر به فقتل وصلب. وقـتل منهم ما بين جازر إلى النهروان وإلى المدائن في ضحوة واحدة مائة ألف زنديق وصلبهم، وسمي يومئذ أنوشروان.

وطلب أنو شروان الحارث بن عمرو، فبلغه ذلك وهو بالأنبار، فخرج هاربًا في صحـابته وماله وولده، فـمر بالنوبة، فـتبعه المنذر بالخـيل من تغلب وإياد وبهراء،

فلحق بأرض كلب ونجا وانتهبوا ماله وهجائنه، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسًا من بني آكل المرار فقدموا بهم على المنذر، فضرب رقابهم بحفر الأميال في ديار بني مرين العباديين بين دير بني هند والكوفة، فذلك قول عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وابنا بالملوك مصفدينا

وفيهم يقول امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة أصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن في الدماء مرملينا

تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا

ولما قتل أنوشروان مزدك وأصحابه أمر بقتل جماعة ممن دخل على الناس في أموالهم ورد الأموال إلى أهلها، وأمر بكل مولود اختلفوا فيه أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه وأن يعطى نصيبًا من ملك الرجل الذي يسند إليه إذا قبله الرجل، وبكل امرأة غلبت على نفسها أن يؤخذ مهرها من الغالب، ثم تخير المرأة بين الإقامة عنده وبين فراقه إلا أن يكون لها زوج فترد إليه. وأمر بعيال ذوي الأحساب الذين مات قيمهم فأنكح بناتهم الأكفاء، وجهزهن من بيت المال، وأنكح نساءهم من الأشراف، واستعان بأبنائهم في أعماله، وعمر الجسور والقناطر، وأصلح الخراب، وتفقد الأساورة وأعطاهم، وبنى في الطرق القصور والحصون، وتخير الولاة والعمال والحكام، واقتدى بسيرة أردشير، وارتجع بلادًا كانت مملكة الفرس، منها: السند وسندوست والرخج وزابلستان وطخارستان، وأعظم القتل في النازور وأجلى بقيتهم عن بلاده، واجتمع أبخز وبنجر وبلنجر واللان على قصد بلاده، فقصدوا أرمينية للغارة على أهلها، وكان الطريق سهلاً، فأمهلهم كسرى حتى توغلوا في البلاد وأرسل إليهم جنودًا، فقاتلوهم فأهلكوهم ما خلا عشرة آلاف رجل أسروا فأسكنوا أذربيجان، وكان لكسرى أنوشروان ولد هو أكبر أولاده اسمه: «أنوشزاد» فبلغه عنه أنه زنديق، فسيره إلى جند يسابور وجعل معه جماعة يثق بدينهم ليصلحوا دينه وأدبه.

فبينما هم عنده إذ بلغه خبر مرض والده لما دخل بلاد الروم، فوثب بمن عنده

فقتلهم وأخرج أهل السجون فاستعان بهم وجمع عنده جموعًا من الأشرار، فأرسل إليهم نائب أبيه بالمدائن عسكرًا، فحاصروه بجند يسابور، وأرسل الخبر إلى كسرى، فكتب إليه يأمره بالجد في أمره وأخذه أسيرًا، فاشتد الحصار حينئذ عليه ودخل العساكر المدينة عنوة فقتلوا بها خلقًا كثيرًا وأسروا أنوشزاد، فبلغه خبر جده لأمه الداور الرازي، فوثب بعامل سجستان وقاتله، فهزمه العامل، فالتجأ إلى مدينة الرخج وامتنع بها، ثم كتب إلى كسرى يعتذر ويسأله أن ينفذ إليه من يسلم له البلد، ففعل وآمنه. وكان الملك فيروز قد بنى بناحية صول واللان بناء يحصن به بلاده، وبنى عليه ابنه قباذ زيادة، فلما ملك كسرى أنوشروان بنى في ناحية صول وجرجان بناء كثيرًا وحصونًا حصن بها بلاده جميعها وأن سيجبور خاقان قصد بلاده، وكان أعظم الترك، واستمال الخزر وأبخز وبلنجر، فأطاعوه، فأقبل في عدد كثير وكتب إلى كسرى يطلب منه الإتاوة ويتهدده إن لم يفعل، فلم يجبه كسرى إلى شيء مما طلب لتحصينه بلاده، وإن ثغر أرمينية قد حصنه، فصار يكتفي بالعدد اليسير، فقصد خاقان بلاده فلم يقدر على شيء منه، وعاد خائبًا، وهذا خاقان هو الذي قتل وزرَ ملك الهياطلة وأخذ كثيرًا من بلادهم.

ذكر ملك كسرى بلاد الروم

كان بين كسرى أنوشروان وبين غطيانوس ملك الروم هدنة، فوقع بين رجل من العرب، كان ملكه غطيانوس على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة، وبين رجل من لخم كان ملكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر بن النعمان، فتنة، فأغار خالد على ابن النعمان فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وغنم أمواله فكتب كسرى إلى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد، وسأله أن يأمر خالدًا برد ما غنم إلى المنذر ويدفع له دية من قتل من أصحابه وينصفه من خالدًا، وإنه إن لم يفعل انتقض الصلح. ووالى الكتب إلى غطيانوس في إنصاف المنذر، فلم يحفل به، فاستعد كسرى وغزا بلاد غطيانوس في بضعة وسبعين ألفًا، وكان طريقه على الجزيرة، فأخذ مدينة دارا ومدينة الرها وعبر إلى الشام فملك منبج وحلب وأنطاكية، وكانت أفضل مدائن الشام وفامية وحمص ومدنًا كثيرة متاخمة لهذه المدائن عنوة واحتوى كل ما فيها من الأموال والعروض، وسبى أهل مدينة أنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد، وأمر فبنيت لهم

مدينة إلى جانب مدينة طيسفون على بناء مدينة أنطاكية وأسكنهم إياها، وهي التي تسمى الرومية، وكور لها خمسة طساسيج: طسوج النهروان الأعلى، وطسوج النهروان الأوسط، وطسوج النهروان الأسفل، وطسوج بادرايا، وطسوج باكسايا، وأجرى على السبي الذين نقلهم إليها من أنطاكية الأرزاق، وولى القيام بأمرهم رجلاً من نصارى الأهواز ليستأنسوا به لموافقته في الدين.

وأما سائر مدن الشام ومصر فإن غطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه كل سنة على أن لا يغزو بلاده، فكانوا يحملونها كل عام وسار أنوشروان من الروم إلى الخزر فقتل منهم وغنم وأخذ منهم بثأر رعيته. ثم قدم اليمن فقتل فيها وغنم وعاد إلى المدائن وقد ملك ما دون هرقلة وما بينه وبين البحرين وعمان. وملّك النعمان بن المنذر على الحيرة وأكرمه، وسار نحو الهياطلة ليأخذ بثأر جده فيروز، وكان أنوشروان قد صاهر خاقان قبل ذلك، ودخل كسرى بلادهم فقتل ملكهم، واستأصل أهل بيته، وتجاوز بلخ وما وراء النهر وأنزل جنوده فرغانة، ثم عاد إلى المدائن، وغزا البرجان ثم رجع وأرسل جنده إلى اليمن، فقتلوا الحبشة وملكوا البلاد.

وكان ملكه ثمانيًا وأربعين سنة، وقيل: سبعًا وأربعين سنة.

وكان مولد رسول الله ﷺ في آخر ملكه.

وقيل: ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشرين سنة مضت من ملك أنوشروان، وولد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وأربعين من ملكه.

قال هشام بن الكلبي: ملك العرب من قبل ملوك الفرس بعد الأسود بن المنذر أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان سبع سنين.

ثم ملك بعده النعمان بن الأسود أربع سنين، ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي اللخمي ثلاث سنين، ثم ملك المنذر بن امرئ القيس البدء ولقب ذو القرنين لضفيرتين كانتا له، وأمه ماء السماء، وهي ماوية ابنة عمرو بن جشم بن النمر بن قاسط، تسعًا وأربعين سنة، ثم ملك ابنه عمرو بن المنذر ست عشرة سنة. قال: ولثماني سنين وثمانية أشهر من ولايته ولد النبي ﷺ وذلك أيام أنوشروان عام الفيل. فلما دانت لكسرى بلاد اليمن وجه إلى سرنديب من بلاد الهند، وهي أرض الجوهر، قائدًا من قواده من جند كثيف، فقاتل ملكها، فقتله واستولى عليها،

وحمل إلى كسرى منهـا أموالاً عظيمة وجواهر كثيـرة، ولم يكن ببلاد الفرس بنات آوى، فجـاءت إليها من بـلاد الترك في ملك كسـرى أنوشروان، فشـق عليه ذلك وأحضر موبذان موبذ وقال له: قد بلـغنا تساقط هذه السباع إلى بلادنا وقد تعاظمنا ذلك، فأخبرنا برأيك فيها.

فقال: سـمعت فقهاءنـا يقولون: متى لم يغلب العدل الجـور في البلاد بل جار أهلها غزاهم أعداؤهم وأتاهم ما يكرهون.

فلم يلبث كسرى أن أتاه أن فـتيانًا من الترك قد غزوا أقـصى بلاده، فأمر وزراءه وعماله أن لا يتعدوا فيما هم بسبيله العدل ولا يعملوا في شيء منها إلا به، ففعلوا ما أمرهم، فصرف الله ذلك العدو عنهم من غير حرب.

ذكر ما فعله أنوشروان بأرمينية وأذربيجان

كانت أرمينية وأذربيـجان بعضها للروم وبعضها للخزر، فـبنى قباذ سوراً مما يلي بعض تلك الناحـية، فلمـا توفي وملك ابنه أنو شـروان وقوي أمـره وغزا فرغـانة والبرجـان وعاد بنى مديـنة الشابران ومدينة مـسقط ومديـنة الباب والأبواب، وإنما سـمـيت أبوابًا لأنهـا بنيت على طريق في الجـبل، وأسكـن المدن قومًـا سـمـاهم السياسـجين، وبنى غير هذه المدن، وبنى لكل باب قصـراً من حجارة، وبنى بأرض جرزان مدينة سغدبيل وأنزلها السغد وأبناء فارس، وبنى باب اللان، وفتح جميع ما كان بأيدي الروم من أرمينيـة، وعمر مدينة أردبيل وعدة حـصون، وكتب إلى ملك الترك يسـأله الموادعة والاتفاق ويخطـب إليه ابنته، ورغب في صـهره، وتزوج كل واحد بابنة الآخر، فأما كسرى فإنه أرسل إلى خاقان ملك الترك بنتًا كانت قد تبنتها بعض نسائه وذكر أنها ابنـته، وأرسل ملك الترك ابنته، واجتمعـا، فأمر أنو شروان جمـاعة من ثقاته أن يكبـسوا طرفًا من عسـكر الترك ويحرقوا فـيه، ففـعلوا، فلما أصبحوا شكا له ملك الترك ذلك، فأنكر أن يكون له علم به، ثم أمر بمثل ذلك بعد ليال، فضج التـركي، فرفق به أنوشروان، فاعتذر إليـه، ثم أمر أنوشروان أن تلقى النار في ناحية من عـسكره فيها أكواخ من حشيش، فلمـا أصبح شكا إلى التركي، قال: كافأتني بالتهمة! فحلف التركي أنه لم يعلم بشيء من ذلك.

فقـال أنوشروان له: إن جندنا قد كرهوا صلـحنا لانقطاع العطاء والغارات، ولا آمن أن يحدثوا حـدثًا يفسـد قلوبنا فنعود إلى العـداوة، والرأي أن تأذن لي في بناء

سور يـكون بيني وبينك نجعل عليـه أبوابًا فـلا يدخل إليك إلا من تريده ولا يدخل إلينا إلا من نريده. فـأجابه إلى ذلـك، وبنى أنوشروان السـور من البحـر وألحقـه برؤوس الجبال، وعمل عليه أبواب الحديد ووكل به من يحرسه. فقيل لملك الترك: إنه خدعك وزوجك غير ابنته وتحصن منك فلم تقدر له على حيلة.

وملك أنوشروان ملوكًا رتبهم على النواحي، فمنهم صاحب السرير وفيلان شاه واللكز ومسقط وغيرها.

ولم تزل أرمينية بأيدي الفرس حتى ظهر الإسلام، فـرفض كثير من السياسجين حصونهم ومدائنهم حتى خربت واسـتولى عليها الخزر والروم، وجاء الإسلام وهي كذلك.



ذكر أمر الفيل[(١)]

لما دام ملك أبرهة باليمن وتمكن به بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم ير مثلها ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حاج العرب.

فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النساة من بني فقيم، فخرج حتى أتاها فقعد فيها وتغوط، ثم لحق بأهله، فأخبر بذلك أبرهة، وقيل له: إنه فعل رجل من أهل البيت الذي تحجه العرب بمكة غضب لما سمع أنك تريد صرف الحجاج عنه ففعل هذا. فغضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه، وأمر الحبشة فتجهزت، وخرج معه بالفيل واسمه «محمود»، وقيل: كان معه ثلاثة عشر فيلاً وهي تتبع محموداً، وإنما وحد الله سبحانه الفيل لأنه عنى به كبيرها محموداً، وقيل في عددهم غير ذلك.

فلما سار سمعت العرب به فأعظموه ورأوا جهاده حقًّا عليهم، فخرج عليه رجل من أشراف اليمن يقال له «ذو نفر» وقاتله، فهزم ذو نفر وأخذ أسيراً، فأراد قتله ثم تركه محبوسًا عنده، ثم مضى على وجهه، فخرج عليه نفيل بن حبيب الخثعمي فقاتله، فانهزم نفيل وأخذ أسيراً، فضمن لأبرهة أن يدله على الطريق، فتركه وسار حتى إذا مر على الطائف بعثت معه ثقيف أبا رغال يدله على الطريق حتى أنزله بالمغمس، فلما نزله مات أبو رغال، فرجمت العرب قبره، فهو القبر الذي يرجم.

وبعث أبرهة الأسود بن مقصود إلى مكة، فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، ثم أرسل أبرهة حناطة الحميري إلى مكة فقال: سل عن سيد قريش وقل له: إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تمنعوا عنه فلا حاجة لي بقتالكم.

فلما بلغ عبد المطلب ما أمره قال له: والله ما نريد حربه، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فهو يمنع بيته وحرمه وأن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٣٩) و«البداية» (٢/ ١٥٧).

من دفع، فقال له: انطلق معي إلى الملك. فانطلق معه عبد المطلب حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان له صديقًا، فدل عليه، وهو في محبسه، فقال له: هل عندك غناء فيما نزل بنا؟

فقال: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله؟ ولكن أنيس سائس الفيل صديق لي فأوصيه بك وأعظم حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما تريد ويشفع لك عنده إن قدر. قال: حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس، فحضره وأوصاه بعبد المطلب وأعلمه أنه سيد قريش. فكلم أنيس أبرهة وقال: هذا سيد قريش يستأذن، فأذن له.

وكان عبد المطلب رجلاً عظيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ونزل عن سريره إليه وجلس معه على بساط وأجلسه إلى جنبه وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرد علي مائتي بعير أصابها لي.

فقال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في إبلك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه؟

قال عبد المطلب: أنا رب الإبل وللبيت رب يمنعه. قال: ما كان ليمنع مني. وأمر برد إبله، فلما أخذها قلدها وجعلها هديًا وبثها في الحرم لكي يصاب منها شيء فيغضب الله.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج معه من مكة والتحرز في رؤوس الجبال خوفًا من معرة الجيش.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة، فقال عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا ... امنعهم أن يخربوا فناكا

وقال أيضًا:

لا هـم إن الـعـبـد يـمـنـع رحله فـامنع رحـالك
لا يـغـلبن صـليـبـهـم ومـحـالهم عـدواً مـحـالك[1]
ولـئـن فـعـلت فـإنـه أمـر تتم به فـعـالـك
أنـت الـذي إن جـاء بـا غ نـرتجـيـك لـه فـذاك
ولـو لم يـحـووا سـوى خـزي وتـهلكـهـم هنالـك
لـم أسـتـمع يومًـا بـأر جس منهم يبـغـوا قـتـالك
جـروا جـمـوع بلادهـم والفـيـل كي يسـبـوا عـيـالك
عـمـدوا حـمـاك بكيـدهم جـهـلاً ومـا رقـبـوا جـلالك
إن كـنـت تـاركـهـم وكـعـبـتنا فـامـر مـا بدالك

ثم أرسل عبـد المطلب حلقة باب الكعـبة وانطلق هو ومن معـه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا بها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخل،

فلمـا أصبح أبرهة تهـيأ لدخـول مكة وَعَبَّى جـيشـه وهيأ فـيله، وكان اسـمه محمودًا، وأبرهة مجمع لهدم البيت والعود إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل أقبل نفيل ابن حبـيب الخثعمـي فمسك بأذنه وقال: «ارجع مـحمود، ارجع راشـدًا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام».

ثم أرسل أذنه، فألقى الفيل نفسه إلى الأرض واشتد نفـيل فصعد الجبل، فضربوا الفيل، فـأبى، فوجهوه راجعًـا إلى اليمن، فقام يـهرول، ووجهوه إلى الشـام ففعل كذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فسقط إلى الأرض.

وأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل[2] من البحـر أمثال الخطاطيف مع كل طيـر منها ثلاثة أحجار تحملها، حجر في منقاره وحجـران في رجليه، فقذفتهم بها وهي مثل الحمص والعدس لا تصيب أحدًا منهم إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وأرسل الله سيلاً ألقاهم في البحـر وخرج من سلم مع أبرهة هاربًا يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه ويسألون عن نفيل بن حـبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فـقال نفيل حين

(١) المحال: القوة.
(٢) أبابيل : أي فرق وجماعات.

رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيـن المفـر والإلـه الطالـب والأشـرم المغلـوب غيـر الغـالب

وقال أيضًا:

ألا حـييـت عنا يا ردينا نعـمناكم من الأصبـاح عـينا

أتانا قـابس منكم عـشـاءً فلـم يقـدر لقـابسكـم لدينا

ردينـة لـو رأيـت ولا تـريـه لدى جنب المحـصب مـا رأينا

إذًا لعـذرتني وحـمـدت رأيي ولم تـأسَ لما قـد فـات بينا

حـمـدت الله إذ عـاينت طـيـراً وخـفت حـجـارة تلقى علينا

وكل قـوم يسـأل عن نفـيل كـأن عليّ للحـبـشـان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل منهل وأصيب أبرهة في جسده فسقطت أعضاؤه عضواً عضواً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل الفرخ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

فلما هلك ملك ابنه يكسوم بن أبرهة، وبه كان يكنى، وذلت حمير واليمن له، ونكحت الحبشة نساءهم وقتلوا رجالهم واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب.

ولما أهلك الله الحبشة وعاد ملكهم ومعه من سلم منهم ونزل عبد المطلب من الغد إليهم لينظر ما يصنعون ومعه أبو مسعود الثقفي لم يسمعا حسًا، فدخلا معسكرهم فرأيا القوم هلكى، فاحتفر عبد المطلب حفرتين ملأهما ذهبًا وجوهراً له ولأبي مسعود ونادى في الناس، فتراجعوا فأصابوا من فضلهما شيئًا كثيراً، فبقي عبد المطلب في غنى من ذلك المال حتى مات. وبعث الله السيل فألقى الحبشة في البحر.

وقال كثيرٌ من أهل السِّيَر: إن الحصبة والجدري أول ما رؤيا في العرب بعد الفيل وكذلك قالوا إنّ العشر والحرمل[1] والشيح لم تعرف بأرض العرب إلا بعد الفيل.

وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل مذ خلق الله العالم، ولما رد الله الحبشة عن الكعبة وأصابهم ما أصابهم عظمت العرب قريشًا وقالوا: أهل الله قاتل عنهم.

ثم مات يكسوم وملك بعده أخوه مسروق.

---

(١) الحرمل: حب نبات.

ذكر عود اليمن إلى حمير وإخراج الحبشة عنه[1]

لما هلك يكسوم ملك اليمن أخوه مسروق بن أبرهة، وهو الذي قتله وهرز، فلما اشتد البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن، وكنيته أبو مرة ـ وقيل: كنية ذي يزن أبو مرة ـ حتى قدم على قيصر، وتنكب كسرى لإبطائه عن نصر أبيه، فإنه كان قصد كسرى أنوشروان لما أخذت زوجته يستنصره على الحبشة، فوعده، فأقام ذويزن عنده، فمات على بابه. وكان ابنه سيف مع أمه في حجر أبرهة، وهو يحسب أنه ابنه، فسبه ولد لأبرهة وسب أباه فسأل أمه عن أبيه فأعلمته خبره بعد مراجعة بينهما، فأقام حتى مات لأبرهة وابنه يكسوم، ثم سار إلى الروم فلم يجد عند ملكهم ما يحب لموافقته الحبشة في الدين، فعاد إلى كسرى، فاعترضه يومًا وقد ركب فقال له: إن لي عندك ميراثًا، فدعا به كسرى لما نزل فقال له: من أنت؟ وما ميراثك؟.

قال: أنا ابن الشيخ اليماني الذي وعدته النصرة فمات ببابك، فتلك العدة حق لي وميراث. فرق كسرى له وقال له: بعدت بلادك عنا وقل خيرها والمسلك إليها وعر ولست أغرر بجيشي. وأمر له بمال، فخرج وجعل ينثر الدراهم، فانتهبها الناس، فسمع كسرى فسأله ما حمله على ذلك، فقال: لم آتك للمال وإنما جئتك للرجال ولتمنعني من الذل والهوان، وإن جبال بلادنا ذهب وفضة. فأعجب كسرى بقوله وقال: يظن المسكين أنه أعرف ببلاده مني.

واستشار وزراءه في توجيه الجند معه، فقال له موبذان موبذ: أيها الملك: إن لهذا الغلام حقًّا بنزوعه إليك وموت أبيه ببابك وما تقدم من عدته بالنصرة، وفي سجونك رجال ذوو نجدة وبأس فلو أن الملك وجههم معه فإن أصابوا ظفراً كان للملك، وإن هلكوا فقد استراح وأراح أهل مملكته منهم.

فقال كسرى: هذا الرأي. فأمر بمن في السجون، فأحضروا، فكانوا ثمانمائة، فقود عليهم قائداً من أساورته يقال له وهرز، وقيل: بل كان من أهل السجون سخط عليه كسرى لحدث أحدثه فحبسه، وكان يُقَيَّد بألف أسوار، وأمر بحملهم في ثمان سفن، فركبوا البحر، فغرق سفينتان وخرجوا بساحل حضرموت، ولحق بابن

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٤٤) و«البداية» (٢/ ١٦٤).

ذي يزن بشر كثير، وسار إليهم مسروق في مائة ألف من الحبشة وحمير والأعراب، وجعل وهرز البحر وراء ظهره وأحرق السفن لئلا يطمع أصحابه في النجاة، وأحرق كل ما معهم من زاد وكسوة إلا ما أكلوا وما على أبدانهم، وقال لأصحابه: إنما أحرقت ذلك لئلا يأخذه الحبشة إن ظفروا بكم، وإن نحن ظفرنا بهم فسنأخذ أضعافه فإن كنتم تقاتلون معي وتصبرون أعلمتموني ذلك، وإن كنتم لا تفعلون اعتمدت على سيفي حتى يخرج من ظهري، فانظروا ما حالكم إذا فعل رئيسكم هذا بنفسه. قالوا: بل نقاتل معك حتى نموت أو نظفر. وقال لسيف بن ذي يزن: ما عندك؟ قال: ما شئت من رجل عربي وسيف عربي، ثم اجعل رجلي مع رجلك حتى نموت جميعًا أو نظفر جميعًا. قال: أنصفت. فجمع إليه سيف من استطاع من قومه، فكان أول من لحقه السكاسك من كندة، وسمع بهم مسروق بن أبرهة فجمع إليه جنده، فَعبّى وهرز أصحابه وأمرهم أن يوتروا قسيهم، وقال: إذا أمرتكم بالرمي فارموا رشقًا.

وأقبل مسروق في جمع لا يرى طرفاه، وهو على فيل وعلى رأسه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء مثل البيضة لا يرى دون الظفر شيئًا وكان وهرز كلَّ بصره، فقال: أروني عظيمهم. فقال: هذا صاحب الفيل، ثم ركب فرسًا، فقالوا: ركب فرسًا، ثم انتقل إلى بغلة فقالوا ركب بغلة فقال وهرز: ذل وذل ملكه! وقال وهرز: ارفعوا لي حاجتي، وكان قد سقطا على عينيه من الكبر، فرفعوهما له بعصابة، ثم جعل نشابة في كبد قوسه وقال: أشيروا إلى مسروق، فأشاروا إليه، فقال لهم: سأرميه فإن رأيتم أصحابه وقوفًا لم يتحركوا فاثبتوا حتى أؤذنكم، فإني قد أخطأت الرجل، وإن رأيتموهم قد استداروا ولاذوا به فقد أصبته فاحملوا عليهم. ثم رماه فأصاب السهم بين عينيه، ورمى أصحابه، فقتل مسروق وجماعة من أصحابه، فاستدارت الحبشة بمسروق وقد سقط عن دابته، وحملت الفرس عليهم فلم يكن دون الهزيمة شيء، وغنم الفرس من عسكرهم ما لا يحد ولا يحصى، وقال وهرز: كفوا عن العرب واقتلوا السودان ولا تبقوا منهم أحدًا.

وهرب رجل من الأعراب يومًا وليلة ثم التفت فرأى في جعبته نشابة فقال: لأمك الويل! أبعد أم طول مسير[1]! وسار وهرز حتى دخل صنعاء وغلب على بلاد اليمن

(١) في «تاريخ الطبري» (٤٤٨/١): ثم التفت فإذا في الحقيبة نشابة، فقال: لأمك الويل ! أبُعْدٌ أم طول مسير؟! - حسب أن النشابة لحقته.

وأرسل عماله في المخاليف. وكان مدة ملك الحبشة اليمن اثنتين وسبعين سنة، توارث ذلك منهم أربعة ملوك: أرياط ثم أبرهة ثم ابنه يكسوم ثم مسروق بن أبرهة، وقيل: كان ملكهم نحو اثنتين وثلاثين سنة، وقيل غير ذلك، والأول أصح.

فلما ملك وهرز اليمن أرسل إلى كسرى يعلمه بذلك وبعث إليه بأموال، وكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذي يزن، وبعضهم يقول معد يكرب بن سيف ابن ذي يزن على اليمن وأرضها، وفرض عليه كسرى جزية وخراجًا معلومًا في كل عام، فملكه وهرز وانصرف إلى كسرى.

وأقام سيف على اليمن ملكًا يقتل الحبشة ويبقر بطون الحبالى عن الحمل، ولم يترك منهم إلا القليل جعلهم خولاً فاتخذ منهم جمازين[1] يسعون بين يديه بالحراب، فمكث غير كثير، ثم إنه خرج يومًا والحبشة يسعون بين يديه بحرابهم فضربوه بالحراب حتى قتلوه، فكان ملكه خمس عشرة سنة، ووثب بهم رجل من الحبشة فقتل باليمن وأفسد، فلما بلغ ذلك كسرى بعث إليهم وهرز في أربعة آلاف فارس وأمره ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود. إلا قتله صغيراً أو كبيرًا، ولا يدع رجلاً جعدًا قط شرك فيه السودان إلا قتله، وأقبل حتى دخل اليمن ففعل ما أمره، وكتب إلى كسرى يخبره، فأقره على ملك اليمن، فكان يجبيها لكسرى حتى هلك، وأمر بعده كسرى ابنه المرزبان بن وهرز حتى هلك، ثم أمر بعده كسرى التينجان بن المرزبان، ثم أمر بعده حرحرة ابن التينجان بن المرزبان، ثم إن كسرى أبرويز غضب عليه فأحضره من اليمن، فلما قدم تلقاه رجل من عظماء الفرس فألقى عليه سيفًا كان لأبي كسرى، فأجاره كسرى بذلك من القتل وعزله عن اليمن، وبعث باذان إلى اليمن، فلم يزل عليها حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ.

وقيل: إن أنوشروان استعمل بعد وهرززرين، وكان مسرفًا، إذا أراد أن يركب قتل قتيلاً ثم سار بين أوصاله، فمات أنوشروان وهو على اليمن، فعزله ابنه هرمز.

وقد اختلفوا في ولاة اليمن للأكاسرة اختلافًا كثيراً لم أر لذكره فائدة.

ذكر ما أحدثه قريش بعد الفيل

لما كان من أمر أصحاب الفيل ما ذكرناه عظمت قريش عند العرب فقالوا لهم

---

(١) الجمز: نوع من العدْو.

أهل الله وقطنه يحامي عنهم، فاجتمعت قريش بينها وقالوا: نحن بنو إبراهيم عليه السلام وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا، فهلموا فلنتفق على ائتلاف أننا لا نعظم شيئًا من الحل كما يعظم الحرم، فإننا إذا فعلنا ذلك استخفت العرب بنا ويحرمنا وقالوا: قد عظمت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرى سائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها، وقالوا: نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره، ونحن الحمس، وأصل الحماسة الشدة أنهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب ساكني الحل مثل ما لهم بولادتهم، ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر لولادة لهم.

ثم ابتدعوا فقالوا: لا ينبغي للحمس أن يعلموا الأقط[1] ولا يسلؤا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتًا من شعر، ولا يستظلوا إلا بيوت الأدم[2] ما كانوا حرمًا، وقالوا: ولا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل في الحرام إذا جاؤوا حجاجًا أو عماراً. ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عريانًا إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه ألقاها إذا فرغ من الطواف ولا يمسها هو ولا أحد غيره، وكانوا يسمونها اللقى فدانت العرب لهم بذلك، فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم ويتركون أزوادهم التي جاؤوا بها من الحل ويشترون من طعام الحرم ويأكلونه ـ هذا في الرجال ـ وأما النساء فكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعها مفرجًا ثم تطوف فيه وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله[3]

فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ فنسخه، فأفاض من عرفات، وطاف الحجاج بالثياب التي معهم من الحل، وأكلوا من طعام الحل، في الحرم أيام الحج، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) الأقط: لبن مجفف يطبخ به.

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٢٨) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

رَّحِيمٌ﴾[١]، أراد بالناس العرب، وأمر قريشًا أن يفيضوا من عرفات، وأنزل الله تعالى في اللباس والطعام الذي من الحل وتركهم إياه في الحرم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

ذكر حلف المطيبين والأحلاف

قد ذكرنا ما كان قصي أعطى ولده عبد الدار من الحجابة والسقاية والرفادة[٣] والندوة واللواء، ثم إن هاشمًا وعبد شمس والمطلب ونوفلاً بني عبد مناف بن قصي رأوا أنهم أحق بذلك من بني عبد الدار لشرفهم عليهم ولفضلهم في قومهم، وأرادوا أخذ ذلك منهم، فتفرقت عند ذلك قريش، كانت طائفة مع بني عبد مناف، وطائفة مع بني عبد الدار يرون أنه لا يجوز أن يؤخذ منهم ما كان قصي جعله لهم إذ كان أمر قصي فيهم شرعًا متبعًا معرفة منهم لفضله وتيمنًا بأمره.

وكان صاحب أمر بني عبد مناف بن قصي: عبد شمس لأنه كان أكبرهم، وكان صاحب بني عبد الدار الذي قام في المنع عنهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فاجتمع بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم ابن مرة، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بني عبد مناف، واجتمع بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي بن كعب مع بني عبد الدار، وخرجت عامر بن لؤي ومحارب بن فهر من ذلك، فلم يكونوا مع أحد الفريقين.

وعقد كل طائفة بينهم حلفًا مؤكدًا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا ما بل بحر صوفة، فأخرجت بنو عبد مناف بن قصي جفنة مملوءة طيبًا، قيل: إن بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها في المسجد وغمسوا أيديهم فيها وتعاهدوا وتعاقدوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم، فسموا بذلك المطيبين.

وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم من القبائل عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا فسموا الأحلاف، ثم تصافوا للقتال وأجمعوا على الحرب،

(١) سورة البقرة (١٩٩).

(٢) سورة الأعراف (٣١، ٣٢).

(٣) الرفادة: هو شئ كانت تفعله قريش تترافد به في الجاهلية، أي تتعاون فيخرج كل إنسان بقدر طاقته فيجمعون مالاً عظيمًا فيشترون به الطعام للناس أيام الحج.

فبينما هم على ذلك إذ تداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار، فاصطلحوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجزوا عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا حتى جاء الإسلام وهم على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ولا حلف في الإسلام»**(١). فولي السقاية والرفادة هاشم بن عبد مناف لأن عبد شمس كان كثير الأسفار قليل المال كثير العيال، وكان هاشم موسراً جواداً. وكان ينبغي أن نذكر هذا قبل الفيل وما أحدثه قريش، وإنما أخرناه للزوم تلك الحوادث بعضها ببعض.



(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه

ذكر ما فعله كسرى في أمر الخراج والجند[1]

كان ملوك الفرس يأخذون من غلات كورهم قبل ملك كسرى أنوشروان في خراجها من بعضها الثلث ومن بعضها الربع، وكذلك الخمس والسدس على قدر شربها وعمارتها، ومن الجزية شيئًا معلومًا، فأمر الملك قباذ بمسح الأرضين ليصح الخراج عليها، فمات قبل الفراغ من ذلك، فلما ملك أنوشروان أمر باستتمام ذلك ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والأرز على كل نوع من هذه الأنواع شيئًا معلومًا، ويؤخذ في السنة في ثلاثة أنجم: (وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب)، وكتب كسرى إلى القضاة في البلاد نسخة بالخراج ليمتنع العمال من الزيادة عليه، وأمر أن يوضع عمن أصابت غلته جائحة بقدر جائحته، وألزموا الناس الجزية ما خلا العظماء وأهل البيوتات والجند والهرابذة والكتاب ومن في خدمة الملك كل إنسان على قدره من اثني عشر درهمًا وثمانية دراهم وستة دراهم وأربعة دراهم (وأسقطها عمر عمن لم يبلغ عشرين سنة أو جاوز خمسين سنة).

ثم إن كسرى ولى رجلاً من الكتاب من الكفاة والنبلاء اسمه «بابك» عرض جيشه، فطلب من كسرى التمكن من شغله إلى ذلك، فتقدم ببناء مصطبة موضع عرض الجيش وفرشها، ثم نادى أن يحضر الجند بسلاحهم وكراعهم للعرض، فحضروا، فحيث لم ير معهم كسرى أمرهم بالانصراف، فعل ذلك يومين، ثم أمر فنودي في اليوم الثالث أن لا يتخلف أحد ولا من أكرم بتاج، فسمع كسرى فحضر وقد لبس التاج والسلاح، ثم أتى بابك ليعرض عليه، فرأى سلاحه تامًّا ما عدا وترين للقوس كان عادتهم أن يستظهروا بهما، فلم يرهما بابك معه فلم يجز على اسمه وقال له: هلم كلما يلزمك. فذكر كسرى الوترين فتعلقهما، ثم نادى منادي بابك وقال: للكمي[2] السيد، سيد الكماة، أربعة آلاف درهم، وأجاز على اسمه. فلما قام عن مجلسه حضر عند كسرى يعتذر إليه من غلظته عليه، وذكر له أن أمره لا يتم إلا بما فعل. فقال كسرى: ما غلظ علينا أمر نريد به إصلاح دولتنا.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٥٠).

(٢) الكمي: الشجاع المتغطي بسلاحه.

ومن كلام كسرى: الشكر والنعمة عدلان ككفتي الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخف إلا أن يزاد فيه حتى يعادل صاحبه، فإذا كانت النعم كثيرة والشكر قليلاً انقطع الحمد، فكثير النعم يحتاج إلى كثير من الشكر، وكلما زيد في الشكر ازدادت النعم وجاوزته، ونظرت في الشكر فوجدت بعضه بالقول وبعضه بالفعل، ونظرت أحب الأعمال إلى الله فوجدته الشيء الذي أقام به السموات والأرض وأرسى به الجبال وأجرى به الأنهار وبرأ به البرية، وهو الحق والعدل، فلزمته، ورأيت ثمرة الحق والعدل عمارة البلدان التي بها قوام الحياة للناس والدواب والطير وجميع الحيوانات.

ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتلة أجراء لأهل العمارة، وأهل العمارة أجراء للمقاتلة، فأما المقاتلة فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ومجاهدتهم من ورائهم، فحق على أهل العمارة أن يوفوهم أجورهم، فإن العمارة والأمن والسلامة في النفس والمال لا يتم إلا بهم.

ورأيت أن المقاتلة لا يتم لهم المقام والأكل والشرب وتثمير الأموال والأولاد إلا بأهل الخراج والعمارة، فأخذت للمقاتلة من أهل الخراج ما يقوم بأودهم وتركت على أهل الخراج من مستغلاتهم ما يقوم بمؤونتهم وعمارتهم ولم أجحف بواحد من الجانبين، ورأيت المقاتلة وأهل الخراج كالعينين المبصرتين واليدين المتساعدتين والرجلين على أيهما دخل الضرر تعدى إلى الأخرى. ونظرنا في سير آبائنا فلم نترك منها شيئًا يقترن بالثواب من الله والذكر الجميل بين الناس والمصلحة الشاملة للجند والرعية إلا اعتمدناه، ولا فسادًا إلا أعرضنا عنه، ولم يدعنا إلى حب ما لا خير فيه حب الآباء. ونظرت في سير أهل الهند والروم وأخذنا محمودها، ولم تنازعنا أنفسنا إلى ما تميل إليه أهواؤنا، وكتبنا بذلك إلى جميع أصحابنا ونوابنا في سائر البلدان.

فانظر إلى هذا الكلام الذي يدل على زيادة العلم وتوفر العقل والقدرة على منع النفس، ومن كان هذا حاله استحق أن يضرب به المثل في العدل إلى أن تقوم الساعة.

وكان لكسرى أولاد متأدبون، فجعل الملك من بعده لابنه هرمز، وكان مولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وذلك لمضي اثنتين وأربعين سنة من ملكه، وفي هذا العام كان يوم ذي جبلة، وهو يوم من أيام العرب المذكورة.

* * *

ذكر مولد رسول الله ﷺ(١)

قال قيس بن مخرمة وقباث بن أشيم وابن عباس وابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل(٢).

قال ابن الكلبي: ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشرين مضت من سلطان كسرى أنوشروان، وولد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وأربعين من سلطانه، وأرسله الله تعالى لمضي اثنتين وعشرين من ملك كسرى أبرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنوشروان، فهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك أبرويز.

قال ابن إسحاق: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول(٣)، وكان مولده بالدار التي تعرف بدار ابن يوسف. قيل: إن رسول الله ﷺ وهبها عقيل بن أبي طالب، فلم تزل في يده حتى توفي، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج، فبنى داره التي يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجداً يصلى فيه. وقيل: ولد لعشر خلون منه، وقيل لليلتين خلتا منه.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٥٣) و«البداية» (٢/ ٢٥٢).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (٤١٨٠) والطبراني في «الكبير» (١٢٤٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه الترمذي (٣٦١٩) من حديث قيس بن مخرمة وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٧) من حديث قباث بن أشيم.
وحديث قيس بن مخرمة حسنه الألباني في «صحيح السيرة» (ص ١٣). فالحديث صحيح لطرقه وشواهده.

(٣) قال خليفه بن خياط: المجمع عليه أنه ﷺ ولد عام الفيل.
وقال الحافظ ابن كثير في «البداية» (١/ ٦٩٠): لا خلاف أنه ولد ﷺ يوم الاثنين.
وقال الألباني في «صحيح السيرة» (ص ١٣): وأما تاريخ يوم الولادة فقد ذكر فيه وفي شهره أقوال ذكرها ابن كثير في الأصل [يعني «البداية»] وكلها معلقة- بدون أسانيد- يمكن النظر فيها ووزنها بميزان علم مصطلح الحديث، إلا قول من قال: إنه في الثامن من ربيع الأول، فإنه رواه مالك وغيره بالسند الصحيح عن محمد بن جبير بن مطعم، وهو تابعي جليل، ولعله لذلك صحح هذا القول أصحاب التاريخ واعتمدوه، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي، ورجحه أبو الخطاب بن دحية، والجمهور على أنه في الثاني عشر منه، والله أعلم.

قال ابن إسحاق: إن آمنة ابنة وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث أنها أتيت في منامها لما حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع بالأرض قولي:

أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد

ثم سميه محمداً[1]. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام[2]. فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب: أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فنظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه.

وقال عثمان بن أبي العاص: حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة ابنة وهب رسول الله ﷺ فما شيء أن أنظر إليه من البيت إلا نور وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول لتقعن علي.

وأول من أرضع رسول الله ﷺ ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن له يقال له «مسروح»، وكانت قد أرضعت قبله «حمزة بن عبد المطلب»، وأرضعت بعده «أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي»، فكانت ثويبة تأتي رسول الله ﷺ بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خديجة، فأرسلت إلى أبي لهب أن يبيعها إياها لتعتقها، فأبى، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أعتقها أبو لهب، فكان رسول الله ﷺ يبعث إليه بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها منصرفة من خيبر، فسأل عن ابنها مسروح، فقيل: توفي قبلها، فسأل: هل لها من قرابة؟ فقيل: لم يبق لها أحد.

ثم أرضعت رسول الله ﷺ بعد ثويبة حليمة بنت أبي ذؤيب، واسمه عبد الله ابن الحارث بن شجنة من بني سعد بن بكر بن هوازن، واسم زوجها الذي أرضعته بلبنه الحارث بن عبد العزى، واسم إخوته من الرضاعة عبد الله وأنيسة وجذامة ـ وهي الشيماء، عرفت بذلك ـ وكانت الشيماء تحضنه مع أمها حليمة.

---

(١) معضل.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) من حديث أبي أمامة، وحسن الألباني إسناده في «الصحيحة» (٤/ ٦٢)، وأخرجه أحمد (٤/ ١٨٤) من حديث عتبة بن عبد السلمي، وحسنه أيضًا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٦٤٨). وأخرجه الحاكم (٤١٧٤) من حديث خالد بن معدان عن الصحابة، وصححه الألباني في «صحيح السيرة» ص ١٣ وله شواهد أخرى.

وقدمت حليمة على رسول الله ﷺ بعد أن تزوج خديجة، فأكرمها ووصلها، وتوفيت قبل فتح رسول الله ﷺ مكة، فلما فتح مكة، قدمت عليه أخت لها فسألها عنها، فأخبرته بموتها، فذرفت عيناه، فسألها عمن خلفت، فأخبرته، فسألته نِحْلة[1] وحاجة فوصلها.

وقال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: كانت حليمة السعدية تحدث أنها خرجت من بلدها مع نسوة يلتمسن الرضعاء ـ وذلك في سنة شهباء لم تبق شيئًا ـ قالت: فخرجت على أتان[2] لنا قمراء معنا شارف لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معي من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذوه، ولكنا نرجو الغيث والفرج، فلقد أدمت أتاني بالركب حتى شق عليهم ضعفًا وعجفًا[3]، حتى قدمنا مكة فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبي الصبي. فكنا نقول: يتيم فما عسى أن تصنع أمه وجده! فما بقيت امرأة معي إلا أخذت رضيعًا غيري.

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي، وكان معي: إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه! قال: افعلي فعسى أن الله يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت فأخذته، فلما أخذته ووضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما، وما كان ابني ينام قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا[4] تلك فإذا أنها حافل[5]، فحلب منها ثم شرب حتى روي، ثم سقاني فشربت حتى شبعنا. قالت: ثم خرجنا يقول لي صاحبي: تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمةً مباركة! قلت: والله لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا، فركبت أتاني وحملته عليها فلم يلحقني شيء من حمرهم حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب

(١) النحلة: العطية والهبة.

(٢) الأتان: أنثى الحمار.

(٣) العجف: الهزال.

(٤) الشارف: الناقة المسنة.

(٥) الحافل: هي التي امتلأ ضرعها لبنًا.

أربعي[١] علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول: بلى والله لهي هي، فيقلن: إن لها شأنًا، ثم قدمنا منازلنا من بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا شباعًا لبنًا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة ولا يجدها في ضرع، حتى إن كان الحاضر من قومنا ليقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب! فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة من لبن، وتروح غنمي شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف البركة من الله والزيادة في الخير حتى مضت سنتان وفصلته[٢]، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا[٣]، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه عندنا لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه في تركه عندنا، فأجابت.

قالت: فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مر مع أخيه في بهم[٤] لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: ذلك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه وهما يسوطانه! قالت: فخرجنا نشتد فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه. قالت: فالتزمته أنا وأبوه وقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا به شيئًا لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا إلى خبائنا، وقال لي أبوه: والله لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه. فقالت: ما أقدمك يا ظئر[٥] به وقد كنت حريصة على مكثه عندك؟ قالت: قلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي وتخوفت عليه الأحداث فأديته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا بشأنك فأصدقيني! ولم تدعني حتى أخبرتها. قالت: فتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلاّ والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لابني لشأنًا، أفلا أخبرك؟ قلت: بلى. قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف منه ولا أيسر، ثم وقع حين وضعته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقي راشدة[٦].

---

(١) أي: ترفقي بنا.

(٢) الفصال: الفطام.

(٣) جفرًا: أي قوي على الأكل «اللسان» (٤ / ١٤٢).

(٤) البهم: ولد الضأن.

(٥) الظئر: المرضع.

(٦) أخرجه ابن إسحاق بنحوه كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ١٧٢، ١٧٣) وابن سعد في =

وكانت مدة رضاع رسول الله ﷺ سنتين، وردته حليمة إلى أمه وجده عبدالمطلب وهو ابن خمس سنين في قول.

وقال شداد بن أوس: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو ملك قومه وسيدهم شيخ كبير متوكئًا على عصًا فمثل قائمًا وقال: يا ابن عبدالمطلب إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، ألا وإنك فهت بعظيم، ألا وقد كانت الأنبياء من بني إسرائيل وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان وما لك وللنبوة، وإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولك وبدو شأنك؟

فأعجب النبي ﷺ بمساءلته ثم قال: **«يا أخا بني عامر اجلس»**. فجلس، فقال له النبي ﷺ: إن حقيقة قولي وبدوٍ شأني أني دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى، وكنت بكر أمي، وحملتني كأثقل ما تحمل النساء، ثم رأت في منامها أن الذي في بطنها نور، قالت: فجعلت أتبع بصري النور وهو يسبق بصري حتى أضاءت لي مشارق الأرض ومغاربها، ثم إنها ولدتني فنشأت، فلما نشأت بغضت إلي الأوثان والشعر، فكنت مسترضعًا في بني سعد بن بكر، فبينا أنا ذات يوم منتبذًا من أهلي مع أتراب[1] من الصبيان إذ أتانا ثلاثة رهط معهم طست من ذهب مملوء ثلجًا فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هرابًا حتى انتهوا إلى شفير الوادي ثم أقبلوا على الرهط فقالوا: ما أربكم إلى هذا الغلام فإنه ليس له أب وما يرد عليكم قتله؟

فلما رأى الصبيان الرهط لا يردون جوابًا انطلقوا مسرعين إلى الحي يؤذنونهم بي ويستصرخونهم على القوم، فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعًا لطيفًا، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسًّا، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها بالثلج فأنعم غسلها، ثم أخرج قلبي فصدعه[2] ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها، قال بيده يمنة منه كأنه يتناول شيئًا، فإذا أنا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه، فختم به قلبي، فامتلأ نورًا ـ وذلك نور النبوة والحكمة ـ ثم أعاده مكانه، فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا.

= «الطبقات» (٣٥٩) دون «ثم حملت به فوالله ما رأيت.... » إلخ.

وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٤٥).

(١) الأتراب: جمع ترب، وهو القرين والند.

(٢) صدعه: أي شقه.

ثم قال الثالث لصاحبه: تنح، فتنحى عني، فأمر يده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني إنهاضًا لطيفًا ثم قال للأول الذي شق بطني: زنه بعشرة من أمته. فوزنوني بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنوني بهم فرجحتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنوني بهم فرجحتهم. فقال: دعوه فلو وزنته بأمته كلهم لرجح بهم. ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا: يا حبيب، لم ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرّ به عينك. قال: فبينا نحن كذلك إذ أنا بالحي قد جاءوا بحذافيرهم[1]، وإذ ظئري[2] أمام الحي تهتف بأعلى صوتها وهي تقول: يا «ضعيفاه». قال: فانكبوا علي - يعني الرهط - وقبلوا رأسي وما بين عيني وقالوا: حبذا أنت من ضعيف! ثم قالت ظئري: يا وحيداه! فانكبوا علي فضموني إلى صدورهم وقبلوا ما بين عيني وقالوا: حبذا أنت من وحيد وما أنت بوحيد! إن الله معك! ثم قالت ظئري: يا يتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك! فانكبوا علي وضموني إلى صدورهم وقبلوا ما بين عيني وقالوا: حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله! لو تعلم ما يراد بك من الخير! قال: فوصلوا بي إلى شفير الوادي. فلما بصرت بي ظئري قالت: يا بني ألا أراك حيًّا بعد! فجاءت حتى انكبت علي وضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إني لفي حجرها وقد ضمّتني إليها، وإن يدي في يد بعضهم، فجعلت ألتفت إليهم، وظننت أن القوم يبصرونهم، يقول بعض القوم: إن هذا الغلام أصابه لمم[3] أو طائف من الجن، انطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه. فقلت: ما هذا؟ ليس بي شيء مما يذكر، إن إرادتي سليمة، وفؤادي صحيح ليس في قلبة. فقال أبي من الرضاع: ألا ترون كلامه صحيحًا؟ إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس. فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فذهبوا بي إليه. فلما قصوا عليه قصتي قال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم. فقصصت عليه أمري من أوله إلى آخره، فلما سمع قولي وثب إلي وضمني إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه! فواللات والعزى لئن تركتموه فأدرك ليبدلنّ دينكم

(١) بحذافيرهم: أي جميعهم، «النهاية» (١/ ٣٥٦).

(٢) ظئري: مرضعتي.

(٣) اللمم: طرف من الجنون.

ويخلفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط. فانتزعتني ظئري منه وقالت: لأنت أجن وأعته من ابني هذا فاطلب لنفسك من يقتلك، فإنا غير قاتليه. ثم ردوني إلى أهلي فأصبحت مفزعًا مما فعل بي وأثر الشق مما بين صدري إلى عانتي كأنه الشراك، فذلك حقيقة قولي وبدوّ شأني يا أخا بني عامر.

فقال العامري: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو إن أمرك حق، فأنبئني بأشياء أسألك عنها. قال: سل. قال: أخبرني ما يزيد في العلم؟ قال: التعلم. قال: فما يدل على العلم؟ قال النبي ﷺ: السؤال. قال: فأخبرني ماذا يزيد في الشيء؟ قال: التمادي. قال: فأخبرني هل ينفع البر مع الفجور؟ قال: نعم، التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وإذا ذكر العبد الله عند الرخاء أعانه عند البلاء. فقال العامري: فكيف ذلك؟ قال: ذلك بأن الله، عز وجل، يقول: «وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا أجمع له خوفين، إن خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي في حظيرة القدس فيدوم له أمنه ولا أمحقه فيمن أمحق، وإن هو أمنني في الدنيا خافني يوم أجمع فيه عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه». قال: يا ابن عبد المطلب أخبرني إلى ما تدعو؟ قال: أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع الأنداد وتكفر باللات والعزى وتقر بما جاء من عند الله من كتاب ورسول، وتصلي الصلوات الخمس بحقائقهن، وتصوم شهراً من السنة، وتؤدي زكاة مالك يطهرك الله تعالى بها ويطيب لك مالك، وتحج البيت إذا وجدت إليه سبيلاً، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت والبعث بعد الموت، وبالجنة والنار. قال: يا ابن عبد المطلب فإذا فعلت ذلك فما لي؟ فقال النبي ﷺ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾.

فقال: هل مع هذا من الدنيا شيء؟ فإنه يعجبني الوطأة من العيش. قال النبي ﷺ: «نعم النصر والتمكن في البلاد» فأجاب وأناب[1].

قال ابن إسحاق: هلك عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ وأم رسول الله ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به. قال هشام بن محمد:

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٤٥٦) وفي سنده عمر بن صبح، قال الحافظ في «التقريب» (٤٩٢٢): متروك وكذبه ابن راهوية. والحديث ذكر بعضه في «الجامع الصغير»، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٢٦): موضوع. وجملة الوزن هذه جاءت في الحديث الصحيح المتقدم تخريجه قبل هذا.

توفي عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ بعدما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون يومًا. وقال الواقدي: أثبت عندنا أن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام في عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفي ودفن بدار النابغة الصغرى، قال ابن إسحاق: وتوفيت أمة آمنة وله ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قدمت به المدينة على أخواله من بني النجار تزيره إياهم فماتت وهي راجعة، وقيل: إنها أتت المدينة تزور قبر زوجها عبد الله ومعها رسول الله ﷺ وأم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ، فلما عادت ماتت بالأبواء. وقيل: إن عبدالمطلب زار أخواله من بني النجار وحمل معه آمنة ورسول الله ﷺ، فلما رجع توفيت بمكة ودفنت في شعب أبي ذر، والأول أصح.

ولما سارت قريش إلى أحد هموا باستخراجها من قبرها، فقال بعضهم: إن النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم، فكفهم الله بهذا القول إكرامًا لأم النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق: وتوفي عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين، وقيل: ابن عشر سنين، ولما مات عبد المطلب صار رسول الله ﷺ في حجر عمه أبي طالب بوصية من عبد المطلب إليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه، فيصبح ولد أبي طالب غمصًا رمسًا[1]، ويصبح رسول الله صقيلاً دهينًا.

* * *

(١) كذا هنا، وفي «النهاية»: «غمصًا رمصًا» والغمص: هو البياض الذي يجتمع في زوايا الأجفان والرمص: الرطب منه.

ذكر قتل تميم بالمشقر(١)

قال هشام: أرسل وهرز بأموال وطرف من اليمن إلى كسرى، فلما كانت ببلاد تميم دعا صعصعة بن ناجية المجاشعي - جد الفرزدق الشاعر - بني تميم إلى الوثوب عليها، فأبوا، فقال: كأني بأبي بكر بن وائل وقد انتهبوا فاستعانوا بها على حربكم، فلما سمعوا ذلك وثبوا عليها وأخذوها، وأخذ رجل من بني صليت يقال له النطف خرجًا فيه جوهر، فكان يقال: (أصاب فلان كنز النطف)، فصار مثلاً، وصار أصحاب العير إلى هوذة بن علي الحنفي باليمامة، فكساهم وحملهم وسار معهم حتى دخل على كسرى، فأعجب به كسرى ودعا بعقد من در فعقد على رأسه، فمن ثم سمي هوذة ذا التاج، وسأله كسرى عن تميم هل من قومه أو بينه وبينهم سلم، فقال: لا بيننا إلا الموت. قال: قد أدركت ثأرك، وأراد إرسال الجنود إلى تميم، فقيل له: إن ماءهم قليل وبلادهم بلاد سوء، وأشير عليه أن يرسل إلى عامله بالبحرين، وهو أزاد فيروز بن جشيش الذي سمته العرب المكعبر، وإنما سمي بذلك لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل، فأمره بقتل بني تميم، ففعل، ووجه إليه رسولاً، ودعا هوذة وجدد له كرامة وصلة وأمره بالمسير مع رسوله فأقبلا إلى المكعبر أيام اللقاط، وكانت تميم تصير إلى هجر للميرة واللقاط، فأمر المكعبر مناديًا ينادي: ليحضر من كان ههنا من بني تميم فإن الملك قد أمر لهم بميرة وطعام. فحضروا ودخلوا «المشقر»، وهو حصن، فلما دخلوا قتل المكعبر رجالهم واستبقى غلمانهم، وقتل يومئذ قعنب الرياحي، وكان فارس يربوع، وجعل الغلمان في السفن وعبر بهم إلى فارس، قال هبيرة بن حدير العدوي: رجع إلينا بعدما فتحت إصطخر عدة منهم، وشد رجل من بني تميم يقال له عبيد بن وهب على سلسلة الباب فقطعها وخرج، واستوهب هوذة من المكعبر مائة أسير منهم فأطلقهم.



(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٦٠).

ذكر ملك ابنه هرمز بن أنوشروان[١]

وكانت أمه ابنة خاقان الأكبر. لما ملك كسرى أنو شروان كان مُلْكَهُ ثمانية وأربعين سنة، فملك بعده «هرمز»، وكان هرمز بن كسرى أديبًا ذا نية في الإحسان إلى الضعفاء والحمل على الأشراف، فعادوه وأبغضوه، وكان في نفسه مثل ذلك، وكان عادلاً بلغ من عدله أنه ركب ذات يوم إلى «ساباط المدائن» فاجتاز بكروم، فاطلع أسوار[٢] من أساورته في كرم وأخذ منه عناقيد حصرم[٣]، فلزمه حافظ الكروم وصرخ، فبلغ من خوف الأسوار من عقوبة كسرى هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم منطقة محلاة بذهب عوضًا من الحصرم فتركه.

وقيل: كان مظفراً منصوراً لا يمد يده إلى شيء إلا ناله، وكان داهيًا ردي النية قد نزع إلى أخواله الترك، وأنه قتل من العلماء وأهل البيوتات والشرف ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل، ولم يكن له رأي إلا في تألف السفلة. وحبس كثيراً من العظماء وأسقطهم وحط مراتبهم وحرم الجنود، ففسد عليه كثير ممن كان حوله، وخرج عليه شابه ملك الترك في ثلاثمائة ألف مقاتل في سنة ست عشرة من ملكه، فوصل هراة وباذغيس[٤]، وأرسل إلى هرمز والفرس يأمرهم بإصلاح الطرق ليجوز إلى بلاد الروم. ووصل ملك الروم في ثمانين ألفًا إلى الضواحي قاصدًا له، ووصل ملك الخزر إلى الباب والأبواب في جمع عظيم، فإن جمعًا من العرب شنوا الغارة على السواد. فأرسل هرمز بهرام خشنش - ويعرف بجوبين - في اثني عشر ألفًا من المقاتلة اختارهم من عسكره، فسار مجدًا وواقع شابه ملك الترك فقتله برمية رماها واستباح عسكره، ثم وافاه برمودة بن شابه فهزمه أيضًا وحصره في بعض الحصون حتى استسلم، فأرسله إلى هرمز أسيراً وغنم ما في الحصن، فكان عظيمًا.

ثم خاف بهرام ومن معه هرمز فخلعوه وساروا نحو المدائن وأظهروا أن ابنه أبرويز أصلح للملك منه، وساعدهم على ذلك بعض من كان بحضرة هرمز، وكان

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٦١).

(٢) الأسوار: قائد الفرس.

(٣) الحصرم: الثمر قبل النضج.

(٤) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو والروذ. «معجم البلدان» (١/ ٣٧٨).

غرض بهرام أن يستوحش هرمز من ابنه أبرويز ويستوحش ابنه منه فيختلفا، فإن ظفر أبرويز بأبيه كان أمره على بهرام سهلاً، وإن ظفر أبوه به نجا بهرام والكلمة مختلفة فينال من هرمز غرضه، وكان يحدث نفسه بالاستقلال بالملك. فلما علم أبرويز ذلك خاف أباه فهرب إلى أذربيجان، فاجتمع عليه عدة من المرازبة والأصبهبذين، ووثب العظماء بالمدائن، وفيهم بندويه وبسطام خالا أبرويز، فخلعوا هرمز وسملوا عينيه وتركوه تحرجًا من قتله، وبلغ أبرويز الخبر فأقبل من أذربيجان إلى دار الملك.

وكان ملك هرمز إحدى عشرة سنة وتسعة أشهر، وقيل: اثنتي عشرة سنة، ولم يسمل من ملوك الفرس غيره لا قبله ولا بعده.

ومن محاسن السير: ما حكي عنه أنه لما فرغ من بناء داره التي تشرف على دجلة مقابل المدائن عمل وليمة عظيمة وأحضر الناس من الأطراف، فأكلوا، ثم قال لهم: هل رأيتم في هذه الدار عيبًا؟ فكلهم قال: لا عيب فيها. فقام رجل وقال: فيها ثلاثة عيوب فاحشة: أحدها: أن الناس يجعلون دورهم في الدنيا وأنت جعلت الدنيا في دارك، فقد أفرطت في توسيع صحونها وبيوتها فتتمكن الشمس في الصيف والسموم فيؤذي ذلك أهلها ويكثر فيها في الشتاء البرد، والثاني: أن الملوك يتوصلون في البناء على الأنهار لتزول همومهم وأفكارهم بالنظر إلى المياه ويترطب الهواء وتضيء أبصارهم، وأنت قد تركت دجلة وبنيتها في القفر، والثالث: أنك جعلت حجرة النساء مما يلي الشمال من مساكن الرجال، وهو أدوم هبوبًا، فلا يزال الهواء يجيء بأصوات النساء وريح طيبهن، وهذا ما تمنعه الغيرة والحمية.

فقال هرمز: أما سعة الصحون والمجالس فخير المساكن ما سافر فيه البصر، وشدة الحر والبرد يدفعان بالخيش والملابس والنيران، ، وأما مجاورة الماء فكنت عند أبي وهو يشرف على دجلة فغرقت سفينة تحته فاستغاث من بها إليه وأبي يتأسف عليهم ويصيح بالسفن التي تحت داره ليلحقوهم فإلى أن يلحقوهم غرق جميعهم، فجعلت في نفسي أنني لا أجاور سلطانًا هو أقوى مني، وأما عمل حجرة النساء في جهة الشمال فقصدنا به أن الشمال أرق هواء وأقل وخامة، والنساء يلازمن البيوت، فعمل لذلك، وأما الغيرة فإن الرجال لا يخلون بالنساء، وكل من يدخل هذه الدار إنما هو مملوك وعبد لقيم، وأما أنت فما أخرج هذا منك إلا بغض لي، فأخبرني عن سببه.

فقال الرجل: لي قرية ملك كنت أنفق حاصلها على عيالي فغلبني المرزبان فأخذها مني فقصدتك أتظلم منذ سنتين فلم أصل إليك، فقصدت وزيرك وتظلمت إليه فلم ينصفني، وأنا أؤدي خراج القرية حتى لا يزول اسمي عنها، وهذا غاية الظلم أن يكون غيري يأخذ دخلها وأنا أؤدي خراجها.

فسأل هرمز وزيره فصدقه وقال: خفت أعلمك فيؤذيني المرزبان. فأمر هرمز أن يؤخذ من المرزبان ضعف ما أخذ وأن يستخدمه صاحب القرية في أي شيء شاء سنتين، وعزل وزيره، وقال في نفسه: إذا كان الوزير يراقب الظالم فالحريّ أن غيره يراقبه، فأمر باتخاذ صندوق، وكان يقفله ويختمه بخاتم ويترك على باب داره وفيه خرق يلقى فيه رقاع المتظلمين، وكان يفتحه كل أسبوع ويكشف المظالم، فأفكر[1] وقال: أريد أعرف ظلم الرعية ساعة فساعة، فاتخذ سلسلة طرفها في مجلسه في السقف والطرف الآخر خارج الدار في روزنة وفيها جرس، وكان المتظلم يحرك السلسلة فيحرك الجرس فيحضره ويكشف ظلامته.

ذكر مملكة كسرى أبرويز بن هرمز[2]

وكان من أشد ملوكهم بطشًا وأنفذهم رأيًا، وبلغ من البأس والنجدة وجمع الأموال ومساعدة الأقدار مالم يبلغه ملك قبله، ولذلك لقب أبرويز، ومعناه المظفر، وكان في حياة أبيه قد سعى به بهرام جوبين إلى أبيه أنه يريد الملك لنفسه، فلما علم ذلك سار إلى أذربيجان سرًّا، وقيل: غير ذلك، وقد تقدم، فلما وصلها بايعه من كان بها من العظماء واجتمع من بالمدائن على خلع أبيه، فلما سمع أبرويز بادر الوصول إلى المدائن قبل بهرام جوبين فدخلها قبله ولبس التاج وجلس على السرير، ثم دخل على أبيه، وكان قد سُمِلَ، فأعلمه أنه بريء مما فعل به، وإنما كان هربه للخوف منه، فصدقه وسأله أن يرسل إليه كل يوم من يؤنسه وأن ينتقم ممن خلعه وسمل عينيه، فاعتذر بقرب بهرام منه في العساكر وأنه لا يقدر على أن ينتقم ممن فعل به ذلك إلا بعد الظفر ببهرام.

وسار بهرام إلى النهروان وسار أبرويز إليه، فالتقيا هناك، ورأى أبرويز من أصحابه فتوراً في القتال فانهزم ودخل على أبيه وعرّفه الحال فاستشاره فأشار عليه

---

(١) كذا في المطبوعة.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٦٤).

بقصد موريق ملك الروم، وجهز ثانيًا وسار في عدة يسيرة فيهم خالاه بندويه وبسطام وكردي أخو بهرام، فلما خرجوا من المدائن خاف من معه أن بهرام يرد هرمز إلى الملك ويرسل إلى ملك الروم في ردهم فيردهم إليه، فاستأذنوا أبرويز في قتل أبيه هرمز فلم يحر جوابًا، فانصرف بندويه وبسطام وبعض من معهم إلى هرمز فقتلوه خنقًا، ثم رجعوا إلى أبرويز وساروا مجدين إلى أن جاوزوا الفرات ودخلوا ديرًا يستريحون فيه، فلما دخلوا غشيتهم خيل بهرام جوبين ومقدمها رجل اسمه بهرام بن سياوش، فقال بندويه لأبرويز: احتل لنفسك. قال: ما عندي حيلة! قال بندويه: أنا أبذل نفسي دونك، وطلب منه بزته فلبسها، وخرج أبرويز ومن معه من الدير وتواروا بالجبل، ووافى بهرام الدير فرأى بندويه فوق الدير وعليه بزة أبرويز، فاعتقده هو وسأله أن ينظره إلى غد ليصير إليه سلمًا، ففعل، ثم ظهر من الغد على حيلته فحمله إلى بهرام جوبين فحبسه، ودخل بهرام جوبين دار الملك وقعد على السرير ولبس التاج، فانصرفت الوجوه عنه، لكن الناس أطاعوه خوفًا، وواطأ بهرام ابن سياوش بندويه على الفتك ببهرام جوبين، فعلم بهرام جوبين بذلك فقتل بهرام وأفلت بندويه فلحق بأذربيجان. وسار أبرويز إلى أنطاكية وأرسل أصحابه إلى الملك، فوعده النصرة.

وتزوج أبرويز ابنة الملك موريق، واسمها مريم، وجهز معه العساكر الكثيرة، فبلغت عدتهم سبعون ألفًا فيهم رجل يعد بألف مقاتل، فرتبهم أبرويز وسار بهم إلى أذربيجان، فوافاه بندويه وغيره من المقدمين والأساورة في أربعين ألف فارس من أصبهان وفارس وخراسان، وسار إلى المدائن. وخرج بهرام جوبين نحوه فجرى بينهما حرب شديدة، فقتل فيها الفارس الرومي الذي يعد بألف فارس، ثم انهزم بهرام جوبين وسار إلى الترك.

وسار أبرويز من المعركة ودخل المدائن وفرق الأموال في الروم، فبلغت جملتها عشرين ألف ألف فأعادهم إلى بلادهم. وأقام بهرام جوبين عند الترك مكرمًا، فأرسل أبرويز إلى زوجة الملك وأجزل لها الهدية من الجواهر وغيرها، وطلب منها قتل بهرام، فوضعت عليه من قتله، فاشتد قتله على ملك الترك، ثم علم أن زوجته قتلته فطلقها. ثم إن أبرويز قتل بندويه، وأراد قتل بسطام فهرب منه إلى طبرستان لحصانتها، فوضع أبرويز عليه فقتله.

وأما الروم فإنهم خلعوا ملكهم موريق بعد أربع عشرة سنة من ملك أبرويز وقتلوه وملكوا عليهم بطريقًا اسمه فوقاس، فأباد ذرية موريق سوى ابن له هرب إلى كسرى أبرويز، فأرسل معه العساكر وتوجه وملكه على الروم وجعل على عساكره ثلاثة نفر من قواده وأساورته: أما أحدهم فكان يقال له بوران، وجهه في جيش منها إلى الشام، فدخلها حتى انتهى إلى البيت المقدس فأخذ خشبة الصليب التي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام صلب عليها فأرسل إلى كسرى أبرويز، وأما القائد الثاني فكان يقال له شاهين، فسيره في جيش آخر إلى مصر، فافتتحها وأرسل مفاتيح الإسكندرية إلى أبرويز، وأما القائد الثالث، وهو أعظمهم، فكان يقال له فرخان، وتدعى مرتبته شهريراز، وجعل مرجع القائدين الأولين إليه، وكانت والدته منجبة لا تلد إلا نجيبًا، فأحضرها أبرويز وقال لها: إني أريد أن أوجه جيشًا إلى الروم أستعمل عليه بعض بنيك فأشيري علي أيهم أستعمل؟ فقالت: أما فلان فأروغ من ثعلب وأحذر من صقر، وأما فرخان فهو أنفذ من سنان، وأما شهريراز فهو أحلم من كدى. فقال: قد استعملت الحليم، فولاه أمر الجيش، فسار إلى الروم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع أشجارهم وسار في بلادهم إلى القسطنطينية حتى نزل على خليجها القريب منها ينهب ويغير ويخرب، فلم يخضع لابن موريق أحد ولا أطاعه، غير أن الروم قتلوا فوقاس لفساده وملكوا عليهم بعده هرقل، وهو الذي أخذ المسلمون الشام منه.

فلما رأى هرقل ما أهم الروم من النهب والقتل والبلاء تضرع إلى الله تعالى ودعاه، فرأى في منامه رجلاً كث اللحية رفيع المجلس عليه بزة حسنة، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إني قد أسلمته في يدك، فاستيقظ، فلم يقص رؤياه، فرأى في الليلة الثانية ذلك الرجل جالسًا في مجلسه وقد دخل الرجل الثالث وبيده سلسلة، فألقاها في عنق ذلك الرجل وسلمه إلى هرقل وقال: قد دفعت إليك كسرى برمته فاغزه فإنك مدال عليهم وبالغ أمنيتك في أعدائك.

فقص حينئذ هذه الرؤيا على عظماء الروم، فأشاروا عليه أن يغزوه، فاستعد هرقل وأخلف ابنًا له على القسطنطينية وسلك غير الطريق الذي عليه شهريراز وسار حتى أوغل في بلاد أرمينية وقصد الجزيرة فنزل نصيبين، فأرسل إليه كسرى جندًا وأمرهم بالمقام بالموصل، وأرسل إلى شهريراز يستحثه على القدوم ليتضافرا على قتال هرقل.

وقيل في مسيره غير هذا، وهو أن شهريراز سار إلى بلاد الروم فوطئ الشام حتى وصل إلى أذرعات[1] ولقي جيوش الروم بها فهزمها وظفر بها وسبى وغنم وعظم شأنه.

ثم إن فرخان أخا شهريراز شرب الخمر يومًا وقال: لقد رأيت في المنام كأني جالس على سرير كسرى، فبلغ الخبر كسرى فكتب إلى أخيه شهريراز يأمره بقتله، فعاوده وأعلمه شجاعته ونكايته في العدو، فعاد كسرى وكتب إليه بقتله، فراجعه، فكتب إليه الثالثة، فلم يفعل، فكتب كسرى بعزل شهريراز وولاية فرخان العسكر، فأطاع شهريراز فلما جلس على سرير الإمارة ألقى إليه القاصد بولايته كتابًا صغيراً من كسرى يأمره بقتل شهريراز فعزم على قتله، فقال له شهريراز: أمهلني حتى أكتب وصيتي، فأمهله، فأحضر درجًا وأخرج منه كتب كسرى الثلاثة وأطلعه عليها وقال: أنا راجعت فيك ثلاث مرات ولم أقتلك، وأنت تقتلني في مرة واحدة!

فاعتذر أخوه إليه وأعاده إلى الإمارة واتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى، فأرسل شهريراز إلى هرقل: إن لي إليك حاجة لا يبلغها البريد ولا تسعها الصحف، فالقني في خمسين روميًا، فإني ألقاك في خمسين فارسيًا.

فأقبل قيصر في جيوشه جميعها ووضع عيونه تأتيه بخبر شهريراز، وخاف أن يكون مكيدة، فأتته عيونه فأخبروه أنه في خمسين فارسيًا، فحضر عنده في مثلها واجتمعا وبينهما ترجمان فقال له: أنا وأخي خربنا بلادك وفعلنا ما علمت وقد حسدنا كسرى وأراد قتلنا وقد خلعناه ونحن نقاتل معك.

ففرح هرقل بذلك واتفقا عليه وقتلا الترجمان لئلا يفشي سرهما، وسار هرقل في جيشه إلى نصيبين. وبلغ كسرى أبرويز الخبر وأرسل لمحاربة هرقل قائداً من قواده اسمه راهزار في اثني عشر ألفًا، وأمره أن يقيم بنينوى من أرض الموصل على دجلة يمنع هرقل من أن يجوزها، وأقام هو بدسكرة الملك، فأرسل راهزار العيون، فأخبروه أن هرقل في سبعين ألف مقاتل، فأرسل إلى كسرى يعرفه ذلك وأنه يعجز عن قتال هذا الجمع الكثير، فلم يعذره وأمره بقتاله، فأطاع وعبّى جنده، وسار هرقل نحو جنود كسرى وقطع دجلة من غير الموضع الذي فيه راهزار، فقصده راهزار ولقيه، فاقتتلوا، فقتل راهزار وستة آلاف من أصحابه وانهزم الباقون، وبلغ الخبر أبرويز وهو

---

(١) أذرعات: بلد في أطراف الشام. «معجم البلدان» (١/ ١٥٨).

بدسكرة الملك، فهاله ذلك وعاد إلى المدائن وتحصن بهـا لعجزه عن محاربة هرقل، وكتب إلى قواد الجند الذين انهـزموا يتهددهم بالعقوبة فأحـوجهم إلى الخلاف عليه، على ما نذكره إن شاء الله. وسار هرقل حتى قارب المدائن ثم عاد إلى بلاده.

وكان سـبب عوده أن كسـرى لما عجز عن هرقل أعـمل الحيلة فكتب كـتابًا إلى شهريراز يشكره ويثني عليه ويقول له: «أحـسنت في فعل ما أمرتك به من مواصلة ملك الروم وتمكينه من البـلاد، والآن قد أوغل وأمكن من نفـسه فتـجيء أنت من خلفه وأنا من بين يديـه ويكون اجتماعنـا عليه يوم كذا فلا يـفلت منهم أحد». ثم جعل الكتـاب في عكاز أبنوس وأحضر راهبًا كـان في دير عند المدائن وقال له: لي إليك حاجة. فـقال الراهب: الملك أكبر من أن يكون له إلي حاجـة ولكنني عبده. قال: إن الروم قد نزلوا قـريبًا منا وقد حفظوا الطرق عنا، ولـي إلى أصحابي الذين بالشام حاجة وأنت نصراني إذا جزت على الروم لا ينكرونك، وقد كتبت كتابًا وهو في هذه العكازة فتوصله إلى شهريراز، وأعطاه مائتي دينار.

فأخـذ الكتاب وفتـحه وقرأه ثم أعـاده وسار، فلما صـار بالعسكر ورأى الروم والرهبان والنواقيس رق قلبـه وقال: أنا شر الناس إن أهلكت النصرانيـة! فأقبل إلى سرادق الملك وأنهى حاله وأوصل الكتـاب إليه. فقرأه ثم أحضر أصـحابه رجلاً قد أخذوه من طريق الشام قد واطأه كـسرى ومعه كتاب قد افتـعله على لسان شهريراز إلى كسرى يقول: «إنني ما زلت أخادع ملك الروم حتى اطمأن إلي وجاز إلى البلاد كمـا أمرتني فيعـرفني الملك في أي يوم يكون لقاؤه حـتى أهجم أنا عليه من ورائه والملك من بين يديه فلا يسلم هو ولا أصحابه»، وأمره أن يتعمد طريقًا يؤخذ فيها.

فلما قرأ ملك الروم الكتاب الثاني تحقق الخبر فعاد شبه المنهزم مبادرًا إلى بلاده، ووصل خبر عـودة ملك الروم إلى شهريراز فـأراد أن يستدرك ما فرط مـنه فعارض الروم فقتل منهم قتلاً ذريعًا وكـتب إلى كسرى: إنني عملت الحيلة على الروم حتى صاروا في الـعراق، وأنفذ من رؤوسـهم شيـئًا كـثيرًا. وفي هذه الحـادثة أنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[1]، يعني بأدنى الأرض أذرعات، وهي أدنى أرض الروم إلى العرب، وكانت الروم قد هزمت بها في بعض حروبها.

---

(١) سورة الروم (١-٣).

وكان النبي ﷺ والمسلمون قد ساءهم ظفر الفرس أولاً بالروم لأن الروم أهل كتاب، وفرح الكفار لأن المجوس أميون مثلهم، فلما نزلت هذه الآيات راهن أبو بكر الصديق أبي بن خلف على أن الظفر يكون للروم إلى تسع سنين، والرهن مائة بعير، فغلبه أبو بكر، ولم يكن الرهن ذلك الوقت حرامًا، فلما ظفرت الروم أتى الخبر رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

ذكر ما رأى كسرى من الآيات بسبب رسول الله ﷺ[١]

فمن ذلك أن كسرى أبرويز سكر[٢] دجلة العوراء وأنفق عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة، وكان طاق مجلسه قد بني بنيانًا لم ير مثله، وكان عنده ثلاثمائة وستون رجلاً من الحزاة من بين كاهن وساحر ومنجم، وكان فيهم رجل من العرب اسمه «السائب»، بعث به باذان من اليمن، وكان كسرى إذا أحزنه أمر جمعهم فقال: انظروا في هذا الأمر ما هو؛ فلما بعث الله محمداً ﷺ أصبح كسرى وقد انفصم طاق ملكه من غير ثقل، وانخرفت عليه دجلة العوراء، فلما رأى ذلك أحزنه فقال: انقصم طاق ملكي وانخرفت دجلة العوراء «شاه بشكست»، يقول: «الملك انكسر».

ثم دعا كهانه وسحاره ومنجميه، وفيهم السائب، فقال لهم: انظروا في هذا الأمر. فنظروا في أمره فأخذت عليه أقطار السماء وأظلمت الأرض، فلم يمض لهم ما راموه، وبات السائب في ليلة ظلماء على ربوة من الأرض ينظر، فرأى برقًا من قبل الحجاز استطار فبلغ المشرق، فلما أصبح رأى تحت قدميه روضة خضراء، فقال فيما يعتاف[٣]: إن صدق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ المشرق تخصب عليه الأرض كأفضل ما أخصبت على ملك.

فلما خلص الكهان والمنجمون والسحار بعضهم إلى بعض ورأوا ما أصابهم، ورأى السائب ما رأى، قال بعضهم لبعض: والله ما حال بينكم وبين علمكم إلا أمر جاء من السماء، وإنه لنبي بعث أو هو مبعوث يسلب هذا الملك ويكسره، ولئن نعيتم لكسرى ملكه ليقتلنكم.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٧٠).

(٢) السكر: السد.

(٣) العيافة: التكهن بالطير أو غيرها.

فاتفقوا على أن يكتموه الأمـر وقالوا له: قد نظرنا فوجدنا أن وضع دجلة العوراء وطاق الملك قـد وضع على النحوس، فلمـا اختلف الليل والنـهار وقعت الـنحوس مواقـعها فـزال كل ما وضع عليهـا، وإنا نحسب لك حسـابًا تضع عليه بنيـانك فلا يزول، فحسبوا وأمروه بالبناء، فبنى دجلة العوراء في ثمانية أشهر فأنفق عليها أموالاً جليلة حـتى إذا فرغ منهـا قال لهم: أجلس على سـورها؟ قالوا: نعم، فـجلس في أساورته، فبينما هو هنالك انتسفت دجلة البنيان من تحته فلم يخرج إلا بآخر رمق.

فلما أخرجـوه جمع كهانه وسحاره ومنجـميه فقتل منهم قريبًـا من مائة وقال: قربتكم وأجريت عليكم الأرزاق ثم أنتم تلعبون بي! فـقالوا: أيها الملك أخطأنا كما أخطأ من قبلنا. ثم حسبوا له وبناه وفـرغ منه وأمروه بالجلوس عليه، فخاف فركب فرسًـا وسار على البناء فـبينما هو يسـير انتسـفته دجلة فـلم يدرك إلا بآخر رمق، فدعاهم وقال: لأقـتلنكم أجمعين أو لتصدقونني. فصدقـوه الأمر، فقال: ويحكم هلا بينتم لي فـأرى فيه رأيي؟ قـالوا: منعنا الخوف. فـتركهم ولهـا عن دجلة حين غلبته، وكان ذلك سبب البطائح، ولم تكن قبل ذلك وكانت الأرض كلها عامرة.

فلمـا كانت سنة ست من الهـجرة أرسل رسـول الله ﷺ عبـد الله بن حـذافة السهمـي إلى كسرى، فزادت الفـرات والدجلة زيادة عظيمة لم ير قبلهـا ولا بعدها مثلها فانـبثقت البثوق وانتسفت مـا كان بناه كسرى واجتهـد أن يسكرها فغلبه الماء، كما بينا، ومال إلى موضع البطائح فطما الماء على الزروع وغرق عدة طساسيج، ثم دخلت العرب أرض الفرس وشغلتهم عن عملها بالحروب واتسع الخرق.

فلما كان زمن الحجاج تفجرت بثوق أخر فلم يسدها مضارة للدهاقين لأنه اتهمهم بممالأة ابن الأشعث، فعظم الخطب فيها وعـجز الناس عن عملها، فبقيت على ذلك إلى الآن. وقال أبو سلمة بن عبد الرحـمن بن عوف: بعث الله إلى كسرى ملكًا وهو في بيت إيوانه الذي لا يدخل عليـه فلم يرعه إلا هو قائـمًا على رأسه في يده عـصًا بالهاجرة فـي ساعته التي يقيل فـيها، فقـال: يا كسرى أتسلم أو أكسـر هذه العصا؟ فقال: بهل بهل! وانصرف عنه فدعا بحراسـه وحجابه فتغيظ عليهم وقال: من أدخل هذا الرجل؟ فقالوا: مـا دخل علينا أحد ولا رأيناه! حتى إذا كان الـعام المقبل أتاه في تلك الساعة وقال له: أتـسلم أو أكسر العصا؟ فقال: بهل بهل! وتـغيظ على حجابه وحراسه. فلما كان العام الثالث أتاه فقـال: أتسلم أو أكسر لعصا؟ فقال: بهل بهل! فكسر العصا ثم خرج. فلم يكن إلا تهور ملكه وانبعاث ابنه والفرس حتى قتلوه.

«وقال الحسن البصري: قال أصحاب رسول الله ﷺ له: يا رسول الله ما حجة الله على كسرى فيك؟ قال: بعث إليه ملكًا فأخرج يده إليه من جدار بيته تلألأ نورًا، فلما رآها فزع فقال له: لا ترع يا كسرى! إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتابًا فاتبعه تسلم دنياك وآخرتك. قال: سأنظر»[1].



(١) مرسل.

ذكر وقعة ذي قار وسببها(١)

ذكروا عن النبي ﷺ أنه قال لما بلغه ما كان من ظفر ربيعة بجيش كسرى: «هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم وبي نصروا»(٢). فحفظ ذلك منه، وكان يوم الوقعة. قال: هشام بن محمد: كان عدي بن زيد التميمي وأخوه(٣) عمار، وهو أبي، وعمرو، وهو سمي، يكونون مع الأكاسرة ولهم إليهم انقطاع، وكان المنذر ابن المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان في حجر عدي بن زيد، وكان له غير النعمان أحد عشر ولدًا وكانوا يسمون الأشاهب لجمالهم. فلما مات المنذر بن المنذر وخلف أولاده أراد كسرى بن هرمز أن يملك على العرب من يختاره، فأحضر عدي بن زيد وسأله عن أولاد المنذر، فقال: هم رجال، فأمره بإحضارهم. فكتب عدي فأحضرهم وأنزلهم، وكان يفضل أخوة النعمان عليه ويريهم أنه لا يرجو النعمان ويخلو بواحد واحد ويقول له: إذا سألك الملك أتكفونني العرب؟ فقولوا: نكفيكهم إلا النعمان. وقال للنعمان: إذا سألك الملك عن إخوتك فقل له: إذا عجزت عن إخوتي فأنا عن غيرهم أعجز.

وكان من بني مرينا رجل يقال له عدي بن أوس بن مرينا، وكان داهيًا شاعراً، وكان يقول للأسود بن المنذر قد عرفت أني أرجوك وعيني إليك وإنني أريد أن تخالف عدي بن زيد، فإنه والله لا ينصح لك أبدًا! فلم يلتفت إلى قوله.

فلما أمر كسرى عدي بن زيد أن يحضرهم، أحضرهم رجلاً رجلاً وسألهم كسرى: أتكفونني العرب؟ فقالوا: نعم إلا النعمان. فلما دخل عليه النعمان رأى رجلاً دميمًا أحمر أبرش(٤) قصيرًا فقال له: أتكفيني إخوتك والعرب؟ قال: نعم، وإن عجزت عن إخوتي فأنا عن غيرهم أعجز. فملكه وكساه وألبسه تاجًا قيمته ستون ألف درهم، فقال عدي بن مرينا للأسود: دونك فقد خالفت الرأي.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٧٢).

(٢) ضعيف: أخرجه البخاري في «تاريخه» (٢/ ٦٣) من حديث عبد الله بن الأخرم عن أبيه، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٨) من حديث بشير بن يزيد الضبعي، وقال الألباني في «الضعيفة» (٥٧٩) ضعيف.

(٣) كذا بالمطبوعة، ولعل الصواب: «وأخواه».

(٤) أبرش: مختلف الألوان.

ثم صنع عـدي بن زيد طعامًا ودعـا عدي بن مـرينا إليه وقـال: إني عرفت أن صاحـبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صـاحبي النعمـان، فلا تلمني على شيء كنت على مثله، وإني أحب أن لا تحـقد علي وإن نصيـبي من هذا الأمر ليس بأوفر من نصـيبك، وحلف لابن مرينا أن لا يهجـوه ولا يبغيه غائلـة أبدًا فقام ابن مرينا وحلف أنه لا يزال يهجوه ويبغيه الغوائل.

وسار النعـمان حتى نزل الحـيرة، وقال ابن مـرينا للأسود: إذا فـاتك الملك فلا تعـجز أن تطلب بـثأرك من عـدي فإن مـعـدًا لا ينام مكرهًا، وأمرتـك بمعصـيتـه فخالفتني، وأريد أن لا يأتيك من مالك شيء إلا عرضته عليّ. ففعل.

وكان ابن مرينا كثـير المال، وكان لا يخلي النعمان يومًا مـن هدية وطرفة فصار من أكرم الناس عـليه، وكان إذا ذكـر عدي بن زيد وصفـه وقال: ألا إنه فـيه مكر وخديعة، واستمال أصحاب النعمان، فمالوا إليه، ووضعهم على أن قالوا للنعمان: إن عدي بن زيد يقول إنك عامله، ولم يزالوا بالنعمـان حتى أضغنوه عليه، فأرسل إلى عدي يستزيره، فـاستأذن عدي كسرى في ذلك فـأذن له، فلما أتاه لم ينظر إليه حتى حبـسه ومنع من الدخول عليه، فـجعل عدي يقول الشعـر وهو في السجن، وبلغ النعمان قوله فندم على حبسه إياه وخاف منه إذا أطلقه، فكتب عدي إلى أخيه أبي أبياتًا يعلمه بحاله، فلمـا قرأ أبياته وكتابه كلم كسرى فـيه، فكتب إلى النعمان وأرسل رجلاً في إطلاق عـدي، وتقدم أخو عدي إلى الرسول بـالدخول إلى عدي قبل النعمان، ففعل ودخل على عدي، وأعلمه أنه أرسل لإطلاقه.

فقـال له عدي: لا تـخرج من عندي وأعطني الكتـاب حتى أرسله، فـإنك إن خرجت من عنـدي قتلني، فلم يفعـل، ودخل أعداء عدي على النعـمان فـأعلموه الحال وخوفوه من إطلاقه، فأرسلهم إليه فخنقوه ثم دفنوه.

وجاء الرسـول فدخل على النعمـان بالكتاب فـقال: نعم وكرامـة، وبعث إليه بأربعة آلاف مثقال وجارية وقال: إذا أصبحت ادخل إليه فخذه. فلما أصبح الرسول غدا إلى السـجن فلم ير عـديًا، وقال له الحـرس: إنه مات منذ أيام. فـرجع إلى النعمان وأخبره أنه رآه بالأمس ولم يره اليوم، فـقال: كذبت! وزاده رشوة واستوثق منه أن لا يخبر كسرى، إلا أنه مات قبل وصوله إلى النعمان.

قال: وندم النعـمان على قتله، واجترأ أعـداء عدي على النعمان وهابـهم هيبة

شديدة. فخرج النعمان في بعض صيده، فرأى ابنًا لعدي يقال له زيد فكلمه وفرح به فرحًا شديدًا واعتذر إليه من أمر أبيه وسيره إلى كسرى ووصفه له وطلب إليه أن يجعله مكان أبيه، ففعل كسرى، وكان يلي ما يكتب إلى العرب خاصة، وسأله كسرى عن النعمان فأحسن الثناء عليه وأقام عند الملك سنوات بمنزلة أبيه، وكان يكثر الدخول على كسرى.

وكان لملوك الأعاجم صفة للنساء مكتوبة عندهم، وكانوا يبعثون في طلب من يكون على هذه الصفة من النساء ولا يقصدون العرب، فقال له زيد بن عدي: إني أعرف عند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة.

قال: فتكتب فيهن. قال: أيها الملك إن شر شيء في العرب وفي النعمان أنهم يتكرمون بأنفسهم عن العجم، فأنا أكره أن يتعنتهن، وإن قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك، فابعثني وابعث معي رجلاً يفقه العربية، فبعث معه رجلاً جلدًا، فخرجا حتى بلغا الحيرة ودخلا على النعمان. قال له زيد: إن الملك احتاج إلى نساء لأهله وولده وأراد كرامتك فبعث إليك. قال: وما هؤلاء النسوة؟ قال: هذه صفتهن قد جئنا بها، وكانت الصفة أن المنذر أهدى إلى أنوشروان جارية أصابها عند الغارة على الحارث بن أبي شمر الغساني، وكتب يصفها أنها معتدلة الخلق، نقية اللون والثغر، بيضاء، وطفاء، قمراء، دعجاء، حوراء، عيناء، قنواء، شماء، شمراء، زجاء، برجاء، أسيلة الخد، شهية القد، جثيلة الشعر، بعيدة مهوى القرط، عيطاء، عريضة الصدر، كاعب الثدي، ضخمة مشاشة المنكب والعضد، حسنة المعصم، لطيفة الكف، سبطة البنان، لطيفة طي البطن، خميصة الخصر، غرثى الوشاح، رداح القبل، رابية الكفل، لفاء الفخذين، ريا الروادف، ضخمة المنكبين، عظيمة الركبة، مفعمة الساق، مشبعة الخلخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف المشي، مكسال الضحى، بضة المتجرد، سموع للسيد، ليست بخلساء ولا سفعاء، ذليلة الأنف، عزيزة النفر، لم تغذ في بؤس، حنينة، حيية، رزينة، زكية، كريمة الخال، تفتخر بنسب أبيها دون فصيلتها، وبفصيلتها دون جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب، فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صناع الكفين، قطيعة اللسان، رهوة الصوت، تزين البيت وتشين العدو، إن أردتها اشتهت، وإن تركتها انتهت، تحملق عيناها، ويحمر وجنتاها، وتذبذب

شفتاها، وتبادرك الوثب[١]. فقبلها كسرى وأمر بإثبات هذه الصفة، فبقيت إلى أيام كسرى بن هرمز.

فقرأ زيد هذه الصفة على النعمان، فشق ذلك عليه وقال لزيد، والرسول يسمع: «ما في عين السواد وفارس ما تبلغون حاجتكم»! قال الرسول لزيد: ما العين؟ قال: «البقر». وأنزلهما يومين وكتب إلى كسرى: إن الذي طلب الملك ليس عندي وقال لزيد اعذرني عنده.

فلما عاد إلى كسرى قال لزيد: أين ما كنت أخبرتني به؟ قال: قد قلت للملك وعرفته بخلهم بنسائهم على غيرهم وإن ذلك لشقائهم وسوء اختيارهم، وسل هذا الرسول عن الذي قال، فإني أكرم الملك عن ذلك. فسأل الرسول، فقال: إنه قال: أما في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا. فعرف الغضب في وجهه ووقع في قلبه وقال: رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا فصار أمره إلى التباب[٢].

وبلغ هذا الكلام النعمان، وسكت كسرى على ذلك أشهراً والنعمان يستعد، حتى أتاه كتاب كسرى يستدعيه. فحين وصل الكتاب أخذ سلاحه وما قوي عليه ثم لحق بجبلي طيء - وكان متزوجًا إليهم - وطلب منهم أن يمنعوه. فأبوا عليه خوفًا من كسرى، فأقبل وليس أحد من العرب يقبله حتى نزل في ذي قار في بني شيبان سراً، فلقي هانئ بن مسعود بن عامر بن عمرو الشيباني - وكان سيداً منيعًا - والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجدين، وكان كسرى قد أطعمه الأبلة، فكره النعمان أن يدفع إليه أهله لذلك، وعلم أن هانئًا يمنعه مما يمنع منه أهله، فأودعه أهله وماله، وفيه أربعمائة درع - وقيل: ثمانمائة درع. وتوجه النعمان إلى كسرى فلقي زيد بن عدي على قنطرة ساباط، فقال: انج نعيم. فقال: أنت يا زيد فعلت هذا! أما والله لئن انفلت لأفعلن بك ما فعلت بأبيك. فقال له زيد: امض نعيم فقد والله وضعت لك عنده أخية[٣] لا يقطعها

(١) الوطف: كثرة شعر الحاجبين والعينين. وقمراء: أي مضيئة. ودعجاء: عين دعجاء: أي شديدة السواد. وعيناء: أي واسعة العينين. وقنواء: أي في أنفها حدب. وشماء: الشمم: طول الأنف. وزجاء: أي طويلة الساقين. وبرجاء: واسعة العينين. وجثيلة: أي كثيرة. وعيطاء: أي طويلة العنق في اعتدال. ورداح: أي ثقيلة. وقطوف: متقاربة الخطا في سرعة. ومكسال: من الكسل.

(٢) التباب: الهلاك.

(٣) الأخية: الحلقة تشد فيها الدابة.

المهر الأرن[١]. فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه فقيده وبعث به إلى خانقين حتى وقع الطاعون فمات فيه، قال: والناس يظنون أنه مات بساباط ببيت الأعشى وهو يقول:

فذاك وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محرزق[٢]

وكان موته قبل الإسلام. فلما مات استعمل كسرى إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة وما كان عليه النعمان. وكان كسرى اجتاز به لما سار إلى ملك الروم فأهدى له هدية، فشكر ذلك له وأرسل إليه، فبعث كسرى بأن يجمع ما خلفه النعمان ويرسله إليه، فبعث إياس إلى هانئ بن مسعود الشيباني يأمره بإرسال ما استودعه النعمان، فأبى هانئ أن يسلم ما عنده. فلما أبى هانئ غضب كسرى، وعنده النعمان بن زرعة التغلبي ـ وهو يحب هلاك بكر بن وائل ـ فقال لكسرى: أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذي قار تساقط الفراش في النار فتأخذهم كيف شئت.

فصبر كسرى حتى جاؤوا نحو ذي قار، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة يخيرهم واحدة من ثلاث: إما أن يعطوا بأيديهم، وإما أن يتركوا ديارهم، وإما أن يحاربوا. فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة العجلي، فأشار بالحرب، فآذنوا الملك بالحرب، فأرسل كسرى إياس بن قبيصة الطائي أمير الجيش ومعه مرازبة الفرس والهامرز النسوي وغيره من العرب تغلب وإياد وقيس بن مسعود بن قيس بن ذي الجدين، وكان على طف سفوان، فأرسل الفيول ـ وكان قد بعث النبي ﷺ ـ فقسم هانئ بن مسعود دروع النعمان وسلاحه فلما دنت الفرس من بني شيبان قال هانئ ابن مسعود: يا معشر بكر، لا طاقة لكم في قتال كسرى فاركنوا إلى الفلاة. فسارع الناس إلى ذلك، فوثب حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال:

يا هانئ أردت نجاتنا فألقيتنا في الهلكة، ورد الناس وقطع وضن الهوادج، وهي الحزم للرحال، فسمي (مُقَطّع الوضن)، وضرب على نفسه قبة، وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة، فرجع الناس واستقوا ماء لنصف شهر. فأتتهم العجم فقاتلهم بالجنود، فانهزمت العجم خوفًا من العطش إلى الجبابات، فتبعتهم بكر وعجل

(١) الأرن: النشيط.

(٢) محرزق: محبوس.

وأبلت يومئذ بلاء حسنًا، واصطفت عليهم جنود العجم، فقال الناس: هلكت عجل، ثم حملت بكر فوجدت عجلاً تقاتل وامرأة منهم تقول:

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل[1] إيها فداء لكم بني عجل

فقاتلوهم ذلك اليوم، ومالت العجم إلى بطحاء ذي قار خوفًا من العطش، فأرسلت إياد إلى بكر ـ وكانوا مع الفرس ـ وقالوا لهم: إن شئتم هربنا الليلة وإن شئتم أقمنا ونفر حين تلاقون الناس. فقالوا: بل تقيمون وتنهزمون إذا التقينا. وقال زيد بن حسان السكوني، وكان حليفًا لبني شيبان: أطيعوني واكتموا لهم ففعلوا ثم تقاتلوا وحرض بعضهم بعضًا، وقالت ابنة القرين الشيبانية:

إيها بني شيبان صفًا بعد صف أن تهزموا يصبغوا فينا القلف

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبهم لتخف أيديهم لضرب السيوف، فجالدوهم وبارز الهامرز، فبرز إليه برد بن حارثة اليشكري فقتله برد، ثم حملت ميسرة بكر وميمنتها وخرج الكمين فشدوا على قلب الجيش وفيهم إياس بن قبيصة الطائي، وولت إياد منهزمة كما وعدتهم، فانهزمت الفرس واتبعتهم بكر تقتل ولا تلتفت إلى سلب وغنيمة. وقال الشعراء في وقعة ذي قار فأكثروا.

ذكر ملوك الحيرة بعد عمرو بن هند[2]

قد ذكرنا من ملك من آل نصر بن ربيعة إلى هلاك عمرو بن هند. فلما هلك عمرو ملك موضعه أخوه قابوس بن المنذر أربع سنين، من ذلك أيام أنوشروان ثمانية أشهر، وفي أيام هرمز ثلاث سنين وأربعة أشهر، ثم ولي بعد قابوس السهراب، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان أربع سنين، ثم ولي بعده النعمان بن المنذر أبو قابوس اثنتين وعشرين سنة، من ذلك في زمان هرمز سبع سنين وثمانية أشهر، وفي زمان ابنه أبرويز أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، ثم ولي إياس بن قبيصة الطائي ومعه النخيرخان في زمان كسرى بن هرمز أربع عشرة سنة، ولثمانية أشهر من ولاية إياس بعث النبي ﷺ ثم ولي أزادبه بن مابيان الهمذاني سبع عشرة سنة، من ذلك في زمان كسرى بن هرمز أربع عشرة سنة وثمانية أشهر، وفي زمان

(١) الأغرل: الذي لم يختن.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٨٣).

شيرويه بن كسرى ثمانية أشهر، وفي زمن أردشير بن شيرويه سنة وسبعة أشهر، وفي زمن بوران دخت ابنة كسرى شهراً.

ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر، وهو الذي تسميه العرب «المغرور» الذي قتل بالبحرين يوم جؤاثا. وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد الحيرة ثمانية أشهر، وكان آخر من بقي من آل نصر وانقرض ملكهم مع انقراض ملك فارس، فجميع ملوك آل نصر فيما زعم هشام عشرون ملكًا ملكوا خمسمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر.

ذكر المروزان وولايته اليمن من قبل هرمز(١)

قال هشام: استعمل كسرى هرمز المروزان بعد عزل زرين عن اليمن، وأقام باليمن حتى ولد له فيها، ثم إن أهل جبل يقال له المضايع منعوه الخراج، فقصدهم فرأى جبلهم لا يقدر عليه لحصانته وله طريق واحد يحميه رجل واحد، وكان يحاذي ذلك الجبل جبل آخر، وقد قارب هذا الجبل، فأجرى فرسه فعبر به ذلك المضيق، فلما رأته حمير قالوا: هذا شيطان! وملك حصنهم وأدوا الخراج، وأرسل إلى كسرى يعلمه، فاستدعاه إليه فاستخلف ابنه خرخسره على اليمن وسار إليه فمات في الطريق، وعزل كسرى خرخسره عن اليمن وولى باذان، وهو آخر من قدم اليمن من ولاة العجم.

ذكر قتل كسرى أبرويز(٢)

كان كسرى قد طغى لكثرة ماله وما فتحه من بلاد العدو ومساعدة الأقدار وشره على أموال الناس، ففسدت قلوبهم، وقيل: كانت له اثنتا عشر ألف امرأة، وقيل ثلاثة آلاف امرأة، يطؤهن، وألوف جوار، وكان له خمسون ألف دابة، وكان أرغب الناس في الجواهر والأواني وغير ذلك.

وقيل: إنه أمر أن يحصى ما جبي من خراج بلاده في سنة ثماني عشرة من ملكه، فكان من الورق مائة ألف ألف مثقال وعشرون ألف ألف مثقال، وإنه احتقر الناس وأمر رجلاً اسمه زاذان بقتل كل مقيد في سجونه، فبلغوا ستة وثلاثين ألفًا، فلم يقدم زاذان على قتلهم، فصاروا أعداء له، وكان أمر بقتل المنهزمين من الروم

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٨٣).
(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٨٤).

فصاروا أيضًا أعداء له، واستعمل رجلاً على استخلاص بواقي الخراج، فعسف الناس فظلمهم، ففسدت نياتهم، ومضى ناس من العظماء إلى بابل، فأحضروا ولده شيرويه بن أبرويز، فإن كسرى كان قد ترك أولاده بها ومنعهم من التصرف وجعل عندهم من يؤدبهم، فوصل إلى بهرشير فدخلها ليلاً فأخرج من كان في سجونها، واجتمع إليه أيضًا الذين كان كسرى أمر بقتلهم، فنادوا قباذ شاهنشاه وساروا حين أصبحوا إلى رحبة كسرى، فهرب حرسه، وخرج كسرى إلى بستان قريب من قصره هاربًا فأخذ أسيرًا، وملكوا ابنه، فأرسل إلى أبيه يقرعه بما كان منه، ثم قتلته الفرس وساعدهم ابنه.

وكان ملكه ثمانيًا وثلاثين سنة. ولمضي اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يومًا هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة. قيل: وكان لكسرى أبرويز ثمانية عشر ولدًا، وكان أكبرهم شهريار، وكانت شيرين قد تبنته، فقال المنجمون لكسرى: إنه سيولد لبعض ولدك غلام يكون خراب هذا المجلس وذهاب الملك على يديه، وعلامته نقص في بعض بدنه، فمنع ولده عن النساء لذلك حتى شكا شهريار إلى شيرين الشَّبق، فأرسلت إليه جاريةً كانت تحجمها، وكانت تظن أنها لا تلد، فلما وطئها علقت بيزدجرد فكتمته خمس سنين، ثم إنها رأت من كسرى رقة للصبيان حين كبر فقالت: أيسرك أن ترى لبعض بنيك ولدًا؟ قال: نعم، فأتته بيزدجرد، فأحبه وقربه، فبينما هو يلعب ذات يوم ذكر ما قيل، فأمر به، فجرد من ثيابه، فرأى النقص في أحد وركيه فأراد قتله، فمنعته شيرين وقالت: إن كان الأمر في الملك قد حضر فلا مرد له، فأمرت به فحمل إلى سجستان، وقيل: بل تركته في السواد في قرية يقال لها خمانية. ولما قتل كسرى أبرويز بن هرمز ملك ابنه شيرويه.

ذكر ملك كسرى شيرويه بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان[1]

لما ملك شيرويه بن أبرويز وأمه مريم ابنة موريق ملك الروم واسمه قباذ، دخل عليه العظماء والأشراف فقالوا: لا يستقيم أن يكون لنا ملكان، فإما أن تقتل كسرى ونحن عبيدك، وإما أن نخلعك ونطيعه.

فانكسر شيرويه من هذه المقالة، ونقل أباه من دار الملك إلى موضع آخر حبسه

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٨٦).

فيه، ثم جمع العظماء وقال: قد رأينا الإرسال إلى كسرى بما كان من إساءته ونوقفه على أشياء منها. فأرسل إليه رجلاً يقال له أسباد خشنش كان يلي تدبير المملكة، وقال له: قل لأبينا الملك عن رسالتنا: إن سوء أعمالك فعل بك ما ترى: منها جرأتك على أبيك وسملك عينيه وقتلك إياه، ومنها سوء صنيعك إلينا معشر أبنائك في منعنا من مجالسة الناس وكل ما لنا فيه دعة، ومنها إساءتك إلى من خلدت في السجون، ومنها إساءتك إلى النساء تأخذهن لنفسك وتركك العطف عليهن ومنعهن ممن يعاشرهن ويرزقن منه الولد، ومنها ما أتيت إلى رعيتك عامة من العنف والغلظة والفظاظة، ومنها جمع الأموال في شدة وعنف من أربابها، ومنها تجميرك[1] الجنود في ثغور الروم وغيرها وتفريقك بينهم وبين أهليهم، ومنها غدرك بموريق ملك الروم مع إحسانه إليك وحسن بلائه عندك وتزويجه إياك بابنته، ومنعك إياه خشبة الصليب التي لم يكن بك ولا بأهل بلادك إليها حاجة، فإن كان لك حجة تذكرها فافعل، وإن لم يكن لك حجة فتب إلى الله تعالى حتى يأمر فيك بأمره.

قال: فجاء الرسول إلى كسرى أبرويز فأدى إليه الرسالة، فقال أبرويز: قل عني لشيرويه القصير العمر: لا ينبغي لأحد أن يتوب من أجل الصغير من الذنب إلا بعد أن يتيقنه فضلاً عن عظيمه ما ذكرت وكثرت منا، ولو كنا كما تقول لم يكن لك أيها الجاهل أن تنشر عنا مثل هذا العظيم الذي يوجب علينا القتل لما يلزمك في ذلك من العيوب، فإن قضاة أهل ملتك ينفون ولد المستوجب للقتل من أبيه وينفونه من مضامة أهل الأخيار ومجالستهم فضلاً عن أن يملك، مع أنه قد بلغ منا بحمد الله من إصلاحنا أنفسنا وأبناءنا ورعيتنا ما ليس في شيء منه تقصير، ونحن نشرح الحال فيما لزمنا من الذنوب لتزداد علمًا بجهلك. فمن جوابنا:

أن الأشرار أغروا كسرى هرمز والدنا بنا حتى اتهمنا فرأينا من سوء رأيه فينا ما يخوفنا منه فاعتزلنا بابه إلى أذربيجان، وقد استفاض ذلك، فلما انتهك منه ما انتهك شخصنا إلى بابه فهجم المنافق بهرام علينا فأجلانا عن المملكة، فسرنا إلى الروم وعدنا إلى ملكنا واستحكم أمرنا فبدأنا بأخذ الثأر ممن قتل أبانا أو شرك في دمه.

وأما ما ذكرت من أمر أبنائنا فإننا وكلنا بكم من يكفكم عن الانتشار فيما لا يعنيكم فتتأذى بكم الرعية والبلاد، وكنا أقمنا لكم النفقات الواسعة وجميع ما

---

(١) تجميرك: تجميعك.

تحتاجون إليه، وأما أنت خاصة فإن المنجمين قضوا في مولدك أنك مثرب علينا[1]، وأن يكون ذلك بسببك، وأن ملك الهند كتب إليك كتابًا وأهدى لك هدية، فقرأنا الكتاب فإذا هو يبشرك بالملك بعد ثمان وثلاثين سنة من ملكنا، وقد ختمنا على الكتاب وعلى مولدك وهما عند شيرين، فإن أحببت أن تقرأهما فافعل، فلم يمنعنا ذلك عن برك والإحسان إليك فضلاً عن قتلك.

وأما ما ذكرت عمن خلدناه في السجون، فجوابنا: إننا لم نحبس إلا من وجب عليه القتل أو قطع بعض الأطراف، وقد كان الموكلون بهم والوزراء يأمروننا بقتل من وجب قتله قبل أن يحتالوا لأنفسهم، فكنا بحبنا الاستبقاء وكراهتنا لسفك الدماء نتأنى بهم ونكل أمرهم إلى الله تعالى، فإن أخرجتهم من محبسهم عصيت ربك، ولتجدن غب ذلك.

وأما قولك: إنا جمعنا الأموال، وأنواع الجواهر والأمتعة بأعنف جمع وأشد إلحاح، فاعلم أيها الجاهل أنه إنما يقيم الملك بعد الله تعالى الأموال والجنود، وخاصة ملك فارس الذي قد اكتنفه الأعداء ولا يقدر على كفهم وردعهم عما يريدونه إلا بالجنود والأسلحة والعدد، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمال، وقد كان أسلافنا جمعوا الأموال والسلاح وغير ذلك فأغار المنافق بهرام ومن معه على ذلك إلا اليسير، فلما ارتجعنا ملكنا وأذعن لنا الرعية بالطاعة أرسلنا إلى نواحي بلادنا أصبهبدين وقامروسانين فكفوا الأعداء وأغاروا على بلادهم، ووصل إلينا غنائم بلادهم من أصناف الأموال والأمتعة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد بلغنا أنك هممت بتفريق هذه الأموال على رأي الأشرار المستوجبين للقتل، ونحن نعلمك أن هذه الأموال لم تجتمع إلا بعد الكد والتعب والمخاطرة بالنفوس، فلا تفعل ذلك فإنها كهف ملكك وبلادك وقوة على عدوك.

فلما انصرف اسباذ خشنش إلى شيرويه قص عليه جواب أبيه، ثم إن عظماء الفرس عادوا إلى شيرويه فقالوا: إما أن تأمر بقتل أبيك وإما أن نطيعه ونخلعك، فأمر بقتله على كره منه وانتدب لقتله رجالاً ممن وترهم كسرى أبرويز، وكان الذي باشر قتله شاب يقال له: مهر هرمز بن مردانشاه من ناحية نيمروذ، فلما قتل شق شيرويه ثيابه وبكى ولطم وجهه وحملت جنازته وتبعها العظماء وأشراف الناس.

---

(١) مثرب علينا: أي مفسد علينا.

فلما دفن أمر شيرويه بقتل مهرهرمز قاتل أبيه. وكان ملكه ثمانيًا وثلاثين سنة، ثم إن شيرويه قتل إخوته، فهلك منهم سبعة عشر أخًا ذوي شجاعة وأدب، بمشورة وزيره فيروز، وابتلي شيرويه بالأمراض، ولم يلتذ بشيء من الدنيا، وكان هلاكه بدسكرة الملك، وجزع بعد قتل إخوته جزعًا شديداً.

ويقال: إنه لما كان اليوم الثاني من قتل إخوته دخلت عليه «بوران» و«ازرميدخت» أختاه فأغلظتا له وقالتا: حملك الحرص على الملك الذي لا يتم لك على قتل أبيك وإخوتك. فلما سمع ذلك بكى بكاء شديداً ورمى التاج عن رأسه ولم يزل مهمومًا مدنفًا[1]. ويقال: إنه أباد من قدر عليه من أهل بيته. وفشا الطاعون في أيامه فهلك من الفرس أكثرهم، ثم هلك هو. وكان ملكه ثمانية أشهر.

ذكر ملك أردشير[2]

وكان عمره سبع سنين. فلما توفي شيرويه ملك الفرس عليهم ابنه أردشير وحضنه رجل يقال له بهادر جسنس[3]، مرتبته رياسة أصحاب المائدة، فأحسن سياسة الملك، فبلغ من أحكامه ذلك ما لم يحس معه بحداثة سن أردشير. وكان شهريراز بثغر الروم في جند ضمهم إليه كسرى أبرويز، وكان قد صلح له بعده ما فعل بالروم مما ذكرناه، وكان ينفذ له الخلع والهدايا، وكان أبرويز وشيرويه يكاتبانه ويستشيرانه، فلما لم يشاوره عظماء الفرس في تمليك أردشير اتخذ ذلك ذريعة إلى التعنت وبسط يده في القتل وجعله سببًا للطمع في الملك احتقاراً لأردشير لصغر سنه، فأقبل بجنده نحو المدائن، فتحول أردشير وبهادر جسنس ومن بقي من نسل الملك إلى مدينة طيسفون، فحاصرهم شهريراز ونصب عليهم المجانيق فلم يظفر بشيء، فأتاها من قبل المكيدة، فلم يزل يخدع رئيس الحرس وأصبهبد نيمروذ حتى فتحا له باب المدينة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وأخذ أموالهم وقتل بعض أصحابه أردشير في إيوان خسرو شاه قباذ بأمر شهريراز. وكان ملكه سنة وستة أشهر.

---

(١) المدنف: المريض مرضًا شديداً.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٩٢).

(٣) في المصدر السابق: «مهآذر جشنس».

ذكر ملك شهريراز[١]

ولم يكن من بيت الملك، لما قتل أردشير جلس شهريراز، واسمه فرخان، على تخت المملكة، فحين جلس عليه ضرب عليه بطنه فاشتد ذلك. ثم عوفي.

وتعاهد ثلاثة أخوة من أهل إصطخر على قتله غضبًا لقتل أردشير، وكانوا في حرسه، وكان الحرس يقفون سماطين إذا ركب الملك عليهم السلاح وبأيديهم السيوف والرماح، فإذا حاذى الملك بعضهم وضع جبهته على ترسه فوق الترس كهيئة السجود. فركب شهريراز يومًا فوقف الأخوة الثلاثة بعضهم قريب من بعض، فلما حاذاهم طعنوه فسقط ميتًا، فشدوا في رجله حبلاً وجروه، وساعدهم بعض العظماء وتساعدوا على قتل جماعة قتلوا أردشير، وكان جميع ملكه أربعين يومًا.

ذكر ملك بوران ابنة أبرويز بن هرمز بن أنوشروان[٢]

لما قتل شهريراز ملكت الفرس بوران لأنهم لم يجدوا من بيت المملكة رجلاً يملكونه. فلما ملكت أحسنت السيرة في رعيتها وعدلت فيهم فأصلحت القناطر ووضعت ما بقي من الخراج وردت خشبة الصليب على ملك الروم، وكانت مملكتها سنة وأربعة أشهر.

ثم ملك بعدها رجل يقال له خشنشبنده[٣] من بني عم أبرويز الأبعدين، وكان ملكه أقل من شهر، وقتله الجند لأنهم أنكروا سيرته.

ذكر ملك أرزميدخت ابنة أبرويز[٤]

لما قتل خشنشبنده ملكت الفرس أرزميدخت ابنة أبرويز، وكانت من أجمل النساء، وكان عظيم الفرس يومئذ فرخهر من أصبهبد خراسان، فأرسل إليها يختطبها، فقالت: إن التزوج للملكة غير جائز وغرضك قضاء حاجتك مني فصر إلي وقت كذا. ففعل وسار إليها تلك الليلة، فتقدمت إلى صاحب حرسها أن يقتله، فقتله وطرح في رحبة دار المملكة، فلما أصبحوا رأوه قتيلاً فغيبوه. وكان ابنه

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٩٢).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٩٣).

(٣) في المصدر السابق: «خشندة».

(٤) في المصدر السابق: «آزرميدخت».

رستم، وهو الذي قاتل المسلمين بالقادسية، خليفة أبيه بخراسان، فسار في عسكر حتى نزل بالمدائن وسمل عيني أرزميدخت وقتلها، وقيل: بل سمت. وكان ملكها ستة أشهر. قيل: ثم أتى رجل يقال له كسرى بن مهرجسنس من عقب أردشير بن بابك كان ينزل الأهواز، فملكه العظماء ولبس التاج وقتل بعد أيام، وقيل: إن الذي ملك بعد أرزميدخت خرزاد خسرو من ولد أبرويز وأمه كردية أخت بسطام، وقيل وجد بحصن الحجارة بقرب نصيبين، فمكث أيامًا يسيرة ثم خلعوه وقتلوه. وكان ملكه ستة أشهر. وقال الذين قالوا ملك كسرى بن مهرجسنس: أنه لما قتل طلب عظماء الفرس من له نسب ببيت المملكة ولو من النساء، فأتوا برجل كان يسكن ميسان يقال له فيروز بن مهران جسنس، ويسمى أيضًا جسنسنده، أمه صهار بخت ابنة يزدانزان بن أنوشروان فملكوه، وكان ضخم الرأس. فلما توج قال: ما أضيق هذا التاج! فتطيروا من كلامه فقتلوه في الحال، وقيل كان قتله بعد أيام.

ذكر ملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز[1]

ثم إن الفرس اضطرب أمرهم ودخل المسلمون بلادهم فطلبوا أحدًا من بيت المملكة ليملكوه ويقاتلوا بين يديه ويحفظوا بلادهم، فظفروا بيزدجرد بن شهريار بن أبرويز بإصطخر، فأخذوه وساروا به إلى المدائن فملكوه واستقر في الملك، غير أن ملكه كان كالخيال عند ملك أهل بيته. وكان الوزراء والعظماء يدبرون ملكه لحداثة سنه وضعف أمر مملكة فارس، واجترأ عليهم الأعداء وتطرقوا بلادهم، وغزت العرب بلاده بعد أن مضى من ملكه سنتان. وكان عمره كله إلى أن قتل ثمانيًا وعشرين سنة، وبقي من أخباره ما نذكره إن شاء الله تعالى في موضعه من فتوح المسلمين.

هذا آخر ملوك الفرس ونذكر بعده التواريخ الإسلامية على سياقة سني الهجرة، ونقدم قبل ذلك الأيام المشهورة للعرب في الجاهلية، ثم نأتي بعدها بالحوادث الإسلامية إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٩٤).

ذكر أيام العرب

في

الجاهلية

ذكر أيام العرب في الجاهلية

لم يذكر أبو جعفر من أيامها غير يوم ذي قار وجذيمة الأبرش والزباء وطسم وجديس، وما ذكر ذلك إلا حيث أنهم ملوك، فأغفل ما سوى ذلك. ونحن نذكر الأيام المشهورة والوقائع المذكورة التي اشتملت على جمع كثير وقتال شديد، ولم أعرج على ذكر غارات تشتمل على النفر اليسير لأنه يكثر ويخرج عن الحصر، فنقول، وبالله التوفيق:

ذكر حرب زهير بن جناب الكلبي مع غطفان وبكر وتغلب وبني القين

كان زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة الكلبي أحد من اجتمعت عليه قضاعة، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه، وعاش مائتين وخمسين سنة، أوقع فيها مائتي وقعة ـ وقيل: عاش أربعمائة وخمسين سنة ـ وكان شجاعًا مظفرًا ميمون النقيبة.

وكان سبب غزاته غطفان: أن بني بغيض بن ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة ساروا بأجمعهم، فتعرضت لهم صداء، وهي قبيلة من مذحج، فقاتلوهم، وبنو بغيض سائرون بأهليهم وأموالهم، فقاتلوهم عن حريمهم فظهروا على صداء وفتكوا فيهم، فعزت بغيض بذلك وأثرت وكثرت أموالها. فلما رأوا ذلك قالوا: والله لنتخذن حرمًا مثل مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه، فبنوا حرمًا ووليه بنو مرة بن عوف، فلما بلغ فعلهم وما أجمعوا عليه زهير بن جناب قال: «والله لا يكون ذلك أبدًا وأنا حي، ولا أخلي غطفان تتخذ حرمًا أبدًا. فنادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقام فيهم فذكر حال غطفان وما بلغه عنهم».

وقال: إن أعظم مأثرة يدخرها هو وقومه أن يمنعوهم من ذلك.

فأجابوا، فغزا بهم غطفان وقاتلهم أبرح قتال وأشده، وظفر بهم زهير وأصاب حاجته منهم وأخذ فارسًا منهم في حرمهم فقتله وعطل ذلك الحرم. ثم مَنَّ على غطفان ورد النساء وأخذ الأموال، وقال زهير في ذلك:

فلم تصبر لنا غطفان لما ... تلاقينا وأحرزت النساء
فلولا الفضل منا ما رجعتم ... إلى عذراء شيمتها الحياء
فدونكم ديونًا فاطلبوها ... وأوتارًا ودونكم اللقاء
فإنا حيث لا يخفى عليكم ... ليوث حين يحتضر اللواء
فقد أضحى لحي بني جناب ... فضاء الأرض والماء الرواء
نفينا نخوة الأعداء عنا ... بأرماح أسنتها ظماء
ولولا صبرنا يوم التقينا ... لقينا مثل ما لقيت صداء
غداة تضرعوا لبني بغيض ... وصدق الطعن للنوكى شفاء

وأما حربه مع بكر وتغلب ابني وائل فكان سببها أن أبرهة حين طلع إلى نجد أتاه زهير، فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب، ثم أمره على بكر وتغلب ابني وائل، فوليهم حتى أصابتهم سنة فاشتد عليهم ما يطلب منهم من الخراج، فأقام بهم زهير في الحرب ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا ما عليهم، فكادت مواشيهم تهلك.

فلما رأى ذلك ابن زيابة أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وكان فاتكًا، أتى زهيرًا وهو نائم، فاعتمد التيمي بالسيف على بطن زهير فمر فيها حتى خرج من ظهره مارقًا بين الصفاق، وسلمت أمعاؤه وما في بطنه، وظن التيمي أنه قد قتله، وعلم زهير أنه قد سلم فلم يتحرك لئلا يجهز عليه، فسكت. فانصرف التيمي إلى قومه فأعلمهم أنه قتل زهيرًا، فسرهم ذلك ولم يكن مع زهير إلا نفر من قومه، فأمرهم أن يظهروا أنه ميت وأن يستأذنوا بكرًا وتغلب في دفنه فإذا أذنوا دفنوا ثيابًا ملفوفة وساروا به مجدين إلى قومهم، ففعلوا ذلك. فأذنت لهم بكر وتغلب في دفنه، فحفروا وعمقوا ودفنوا ثيابًا ملفوفة لم يشك من رآها أن فيها ميتًا، ثم ساروا مجدين إلى قومهم، فجمع لهم زهير الجموع، وبلغهم الخبر فقال ابن زيابة:

طعنة ما طعنت في غلس الليـ ... ـل زهيرًا وقد توافى الخصوم
حين يحمي له المواسم بكر ... أين بكر وأين منها الحلوم؟
خانني السيف إذ طعنت زهيرًا ... وهو سيف مضلل مشؤوم

وجمع زهير من قدر عليه من أهل اليمن، وغزا بكرًا وتغلب، وكانوا علموا

به، فقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر، وقاتلت تغلب بعدها فانهزمت أيضًا، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة وأخذت الأموال وكثرت القتلى في بني تغلب وأسر جماعة من فرسانهم ووجوههم، فقال زهير في ذلك من قصيدة:

أين أين الفرار من حذر المو ... ت إذا يتقون بالأسلاب
إذ أسرنا مهلهلاً وأخاه ... وابن عمرو في القيد وابن شهاب
وسبينا من تغلب كل بيضا ... ء رقود الضحى برود الرضاب[1]
حين يدعو مهلهلاً يالبكر ... ها أهذي حفيظة الأحساب
ويحكم ويحكم أبيج حماكم ... يا بني تغلب أنا ابن رضاب
وهم هاربون في كل فج ... كشريد النعام فوق الروابي
واستدارت رحى المنايا عليهم ... بليوث من عامر وجناب
فهم بين هارب ليس يألو ... وقتيل معفر في التراب
فضل العز عزنا حين نسمو ... مثل فضل السماء فوق السحاب

وأما حربه مع بني القين بن جسر فكان سببها أن أختًا لزهير كانت متزوجة فيهم. فجاء رسولها إلى زهير ومعه صرة فيها رمل وصرة فيها شوك قتاد، فقال زهير: إنها تخبركم أنه يأتيكم عدو كثير ذو شوكة شديدة، فاحتملوا. فقال الجلاح ابن عوف السحمي: لا نحتمل لقول امرأة، فظعن زهير وأقام الجلاح، وصبحه الجيش فقتلوا عامة قوم الجلاح وذهبوا بأموالهم وماله. ومضى زهير فاجتمع مع عشيرته من بني جناب، وبلغ الجيش خبره فقصدوه، فقاتلهم وصبر لهم فهزمهم وقتل رئيسهم، فانصرفوا عنه خائبين، ولما طال عمر زهير وكبرت سنه استخلف ابن أخيه عبد الله بن عليم، فقال زهير يومًا: ألا إن الحي ظاعن: فقال عبد الله: ألا إن الحي مقيم. فقال زهير: من هذا المخالف علي؟

فقالوا: ابن أخيك عبد الله بن عليم. فقال: أعدى الناس للمرء ابن أخيه. ثم شرب الخمر صرفًا حتى مات. وممن شرب الخمر صرفًا حتى مات عمرو بن كلثوم التغلبي، وأبو عامر ملاعب الأسنة العامري.

---

(١) الرضاب: الريق المرشوق.

ذكر يوم البردان

فكان من حديثه أن زياد بن الهبولة ملك الشام، وكان من سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. فأغار على حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي ملك عرب بنجد ونواحي العراق وهو يلقب آكل المرار[١]، وكان حجر قد أغار في كندة وربيعة على البحرين، فبلغ زياداً خبرهم فسار إلى أهل حجر وربيعة وأموالهم وهم خلوف ورجالهم في غزاتهم المذكورة، فأخذ الحريم والأموال وسبى منهم هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية وسمع حجر وكندة وربيعة بغارة زياد فعادوا عن غزوهم في طلب ابن الهبولة، ومع حجر أشراف ربيعة عوف ابن محلم بن ذهل بن شيبان. وعمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وغيرهما، فأدركوا عمراً بالبردان دون عين أباغ وقد أمن الطلب، فنزل حجر في سفح جبل، ونزلت بكر وتغلب وكندة مع حجر دون الجبل بالصحصحان[٢] على ماء يقال له «حفير». فتعجل عوف بن محلم وعمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وقالا لحجر: إنا متعجلان إلى زياد لعلنا نأخذ منه بعض ما أصاب منا. فسارا إليه، وكان بينه وبين عوف إخاء، فدخل عليه وقال له: يا خير الفتيان اردد علي امرأتي أمامة. فردها عليه وهي حامل، فولدت له بنتًا أراد عوف أن يئدها فاستوهبها منه عمرو بن أبي ربيعة وقال: لعلها تلد أناسًا، فسميت أم أناس، فتزوجها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، فولدت عمراً، ويعرف بابن أم أناس.

ثم إن عمرو بن أبي ربيعة قال لزياد: يا خير الفتيان اردد علي ما أخذت من إبلي. فردها عليه وفيها فحلها، فنازعه الفحل إلى الإبل، فصرعه عمرو.

فقال له زياد: يا عمرو لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم أنتم! فقال له عمرو: لقد أعطيت قليلاً، وسميت جليلاً، وجررت على نفسك ويلاً طويلاً! ولتجدن منه، ولا والله لا تبرح حتى أروي سناني من دمك.

ثم ركض فرسه حتى صار إلى حجر، فلم يوضح له الخبر، فأرسل سدوس

---

(١) المرار: شجر مر من أفضل العشب.

(٢) الصحصحان: موضع بين حلب وتدمر «معجم البلدان» (٣/ ٤٧٧).

ابن شيبان بن ذهل وصليع بن عبد غنم يتجسسان له الخبر ويعلمان علم العسكر، فخرجا حتى هجما على عسكره ليلاً وقد قسم الغنيمة وجيء بالشمع فأطعم الناس تمراً وسمناً، فلما أكل الناس نادى: من جاء بحزمة حطب فله قدرة تمر. فجاء سدوس وصليع بحطب وأخذا قدرتين من تمر وجلسا قريبًا من قبته. ثم انصرف صليع إلى حجر فأخبره بعسكر زياد وأراه التمر، وأما سدوس فقال: لا أبرح حتى آتيه بأمر جلي. وجلس مع القوم يتسمع ما يقولون، وهند امرأة حجر خلف زياد، فقالت لزياد: إن هذا التمر أهدي إلى حجر من هجر، والسمن من دومة الجندل. ثم تفرق أصحاب زياد عنه، فضرب سدوس يده إلى جليس له وقال له: من أنت؟ مخافة أن يستنكره الرجل. فقال: أنا فلان بن فلان. ودنا سدوس من قبة زياد بحيث يسمع كلامه، ودنا زياد من امرأة حجر فقبلها وداعبها وقال لها: ما ظنك الآن بحجر؟ فقالت: ما هو ظن ولكنه يقين، إنه والله لن يدع طلبك حتى تعاين القصور الحمر، يعني قصور الشام، وكأني به في فوارس من بني شيبان يذمرهم ويذمرونه[1] وهو شديد الكلب تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مراراً، فالنجاء النجاء! فإن وراءك طالبًا حثيثًا، وجمعًا كثيفًا، وكيدًا متينًا، ورأيًا صليبًا.

فرفع يده فلطمها ثم قال لها: ما قلت هذا إلا من عجبك به وحبك له! فقالت: والله ما أبغضت أحدًا بغضي له ولا رأيت رجلاً أحزم منه نائمًا ومستيقظًا، إن كان لتنام عيناه فبعض أعضائه مستيقظ! وكان إذا أراد النوم أمرني أن أجعل عنده عسًّا من لبن، فبينا هو ذات ليلة نائم وأنا قريب منه أنظر إليه، إذ أقبل أسود[2] سالخ إلى رأسه فنحى رأسه، فمال إلى يده فقبضها، فمال إلى رجله فقبضها، فمال إلى العس فشربه ثم مجه. فقلت: يستيقظ فيشربه فيموت فأستريح منه فانتبه من نومه فقال: علي بالإناء، فناولته فشمه ثم ألقاه فهريق. فقال: أين ذهب الأسود؟ فقلت: ما رأيته. فقال: كذبت والله! وذلك كله يسمعه سدوس، فسار حتى أتى حجراً، فلما دخل عليه وقال:

أتاك المرجفون بأمر غيب	**على دهش وجئتك باليقين**
فمن يك قد أتاك بأمر لبس	**فقد آتي بأمر مستبين**

---

(١) الذمر: الملامة والحض.

(٢) الأسود: الحية العظيمة.

ثم قص عليه ما سمع، فجعل حجر يعبث بالمرار ويأكل منه غضبًا وأسفًا، ولا يشعر أنه يأكله من شدة الغضب، فلما فرغ سدوس من حديثه وجد حجر المرار فسمي يومئذ آكل المرار، والمرار نبت شديد المرارة لا تأكله دابة إلا قتلها.

ثم أمر حجر فنودي في الناس وركب وسار إلى زياد فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم زياد وأهل الشام وقتلوا قتلاً ذريعًا، واستنقذت بكر وكندة ما كان بأيديهم من الغنائم والسبي، وعرف سدوس زياداً فحمل عليه فاعتنقه وصرعه وأخذه أسيراً، فلما رآه عمرو بن أبي ربيعة حسده فطعن زياداً فقتله. فغضب سدوس وقال: قتلت أسيري وديته دية ملك!

فتحاكما إلى حجر، فحكم على عمرو وقومه لسدوس بدية ملك وأعانهم من ماله. وأخذ حجر زوجته هنداً فربطها في فرسين ثم ركضهما حتى قطعاها، ويقال: بل أحرقها، وقال فيها:

إن من غره النساء بشيء	بعد هند لجاهل مغرور
حلوة العين والحديث ومر	كل شيء أجن منها الضمير
كل أنثى وإن بدا لك منها	آية الحب حبها خيتعور[1]

ثم عاد إلى الحيرة.

قلت: هكذا قال بعض العلماء إن زياد بن هبولة السليحي ملك الشام غزا حجراً، وهذا غير صحيح لأن ملوك سليح كانوا بأطراف الشام مما يلي البر من فلسطين إلى قنسرين[2] والبلاد للروم، ومنهم أخذت غسان هذه البلاد، وكلهم كانوا عمالاً لملوك الروم كما كان ملوك الحيرة عمالاً لملوك الفرس على البر والعرب، ولم يكن سليح ولا غسان مستقلين بملك الشام ولا بشبر واحد على سبيل التفرد والاستقلال. وقولهم: ملك الشام، غير صحيح، وزياد بن هبولة السليحي ملك مشارف الشام أقدم من حجر آكل المرار بزمان طويل، لأن حجراً هو جد الحارث بن عمرو بن حجر الذي ملك الحيرة والعرب بالعراق أيام قباذ أبي أنوشروان. وبين ملك قباذ والهجرة نحو مائة وثلاثين سنة، وقد ملكت غسان أطراف الشام بعد سليح ستمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة، وأقل ما سمعت فيه

(١) الخيتعور، كل شئ يضمحل ولا يدوم.

(٢) قنسرين: مدينة قريبة من حلب.

ثلاثمائة سنة وست عشرة سنة، وكانوا بعد سليح ولم يكن زياد آخر ملوك سليح، فتزيد المدة زيادة أخرى، وهذا تفاوت كثير فكيف يستقيم أن يكون ابن هبولة الملك أيام حجر حتى يغير عليه؟

وحيث أطبقت رواة العرب على هذه الغزاة فلا بد من توجيهها، وأصلح ما قيل فيه:

إن زياد بن هبولة المعاصر لحجر كان رئيسًا على قوم أو متغلبًا على بعض أطراف الشام حتى يستقيم هذا القول، والله أعلم.

وقولهم أيضًا: إن حجراً عاد إلى الحيرة، لا يستقيم أيضًا لأن ملوك الحيرة من ولد عدي بن نصر اللخمي لم ينقطع ملكهم لها إلا أيام قباذ، فإنه استعمل الحارث ابن عمرو بن حجر آكل المرار كما ذكرناه قبل. فلما ولي أنوشروان عزل الحارث وأعاد اللخميين، ويشبه أن يكون بعض الكنديين قد ذكر هذا تعصبًا، والله أعلم. إن أبا عبيدة ذكر هذا اليوم ولم يذكر أن ابن هبولة من سليح بل قال: هو غالب ابن هبولة ملك من ملوك غسان، ولم يذكر عوده إلى الحيرة، فزال هذا الوهم.



ذكر مقتل حجر أبي امرئ القيس والحروب الحادثة بمقتله إلى أن مات امرؤ القيس

نذكر أولاً سبب ملكهم العرب بنجد ونسوق الحادثة إلى قتله وما يتصل به فنقول:

كان سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الأمر وأكل القوي الضعيف، فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا أن يملكوا عليهم ملكًا يأخذ للضعيف من القوي. فنهاهم العرب وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فساروا إلى بعض تابعة اليمن، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين، وطلبوا منه أن يملك عليهم ملكًا، فملك عليهم حجر بن عمرو آكل المرار، فقدم عليهم ونزل ببطن عاقل وأغار ببكر فانتزع عامة ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر وبقي كذلك إلى أن مات فدفن ببطن عاقل، فلما مات صار عمرو ابن حجر آكل المرار، وهو المقصور، ملكًا بعد أبيه، وإنما قيل له المقصور لأنه قصر على ملك أبيه، وكان أخوه معاوية، وهو الجون، على اليمامة. فلما مات عمرو ملك بعده ابنه الحارث، وكان شديد الملك بعيد الصوت، فلما ملك قباذ بن فيروز الفرس خرج في أيامه مزدك فدعا الناس إلى الزندقة، كما ذكرناه، فأجابه قباذ إلى ذلك، وكان المنذر بن ماء السماء عاملاً للأكاسرة على الحيرة ونواحيها، فدعاه قباذ إلى الدخول معه، فامتنع، فدعا الحارث بن عمرو إلى ذلك فأجابه، فاستعمله على الحيرة وطرد المنذر عن مملكته. وقيل في تمليكه غير ذلك، وقد ذكرناه أيام قباذ.

فبقوا كذلك إلى أن ملك كسرى أنوشروان بن قباذ بعد أبيه فقتل مزدك وأصحابه وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى ولاية الحيرة وطلب الحارث بن عمرو، وكان بالأنبار، وبها منزله، فهرب بأولاده وماله وهجانه، وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه، وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسًا من بني آكل المرار، فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث، فقدموا بهم على المنذر، فقتلهم في ديار بني مرينا، وفيهم يقول عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا … وأبنا بالملوك مصفدينا

وفيهم يقول امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا

وأقام الحارث بديار كلب، فتزعم كلب أنهم قتلوه، وعلماء كندة تزعم أنه خرج يتصيد فتبع تيسًا من الظباء فأعجزه فأقسم أن لا يأكل شيئًا إلا من كبده، فطلبته الخيل، فأتي به بعد ثلاثة، وقد كاد يهلك جوعًا، فشوي له بطنه فأكل فلذة من كبده حارة فمات.

ولما كان الحارث بالحيرة أتاه أشراف عدة قبائل من نزار فقالوا: إنا في طاعتك وقد وقع بيننا من الشر بالقتل ما تعلم ونخاف الفناء فوجه معنا بنيك ينزلون فينا فيكفون بعضنا عن بعض. ففرق أولاده في قبائل العرب، فملك ابنه حجرًا على بني أسد بن خزيمة وغطفان، وملك ابنه شرحبيل، وهو الذي قتل يوم الكلاب، على بكر بن وائل بأسرها وعلى غيرها، وملك ابنه معد يكرب، وهو غلفاء، وإنما قيل له غلفاء لأنه كان يغلف رأسه بالطيب ـ على قيس عيلان وطوائف غيرهم، وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة من تميم،

فبقي حجر في بني أسد وله عليهم جائزة وإتاوة كل سنة لما يحتاج إليه، فبقي كذلك دهرًا، ثم بعث إليهم من يجبي ذلك منهم، وكانوا بتهامة، وطردوا رسله وضربوهم، فبلغ ذلك حجرًا، فسار إليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة، فأتاهم فأخذ سرواتهم[١] وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصا وأباح الأموال وسيرهم إلى تهامة وحبس منهم جماعة من أشرافهم، منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرًا يستعطفه لهم، فرق لهم وأرسل من يردهم.

فلما صاروا على يوم منه تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، فقال لهم: من الملك الصلهب، الغلاب غير المغلب في الإبل كأنها الربرب[٢]، هذا دمه يتثعب، وهو غدا أول من يستلب.

---

(١) سرواتهم: أشرافهم.
(٢) الربرب: قطع من بقر الوحش.

قالوا: ومن هو؟ قال: لولا بجيش نفس خاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية، فركبوا كل صعب وذلول حتى بلغوا إلى عسكر حجر فهجموا عليه في قبته فقتلوه، وطعنه علباء بن الحارث الكاهلي فقتله، وكان حجر قتل أباه، فلما قتل قالت بنو أسد: يا معشر كنانة وقيس أنتم إخواننا وبنو عمنا والرجل بعيد النسب منا ومنكم وقد رأيتم سيرته وما كان يصنع بكم هو وقومه فانتهبوهم. فشدوا على هجانته فانتهبوها ولفوه في ريطة بيضاء وألقوه على الطريق، فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه وأجار عمرو بن مسعود عياله.

وقيل: إن حجراً لما رأى اجتماع بني أسد عليه خافهم فاستجار عويمر بن شجنة أحد بني عطارد بن كعب بن زيد مناة بن تميم لبنته هند بنت حجر وعياله، وقال لبني أسد: إن كان هذا شأنكم فإني مرتحل عنكم ومخليكم وشأنكم. فودعوه على ذلك وسار عنهم وأقام في قومه مدة ثم جمع لهم جمعًا عظيمًا وأقبل إليهم مدلاً بمن معه، فتآمرت بنو أسد وقالوا: والله لئن قهركم ليحكمن عليكم حكم الصبي فما خير العيش حينئذ فموتوا كرامًا.

فاجتمعوا وساروا إلى حجر فلقوه فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث، فحمل على حجر فطعنه فقتله، وانهزمت كندة ومن معهم، وأسر بنو أسد من أهل بيت حجر وغنموا حتى ملأوا أيديهم من الغنائم، وأخذوا جواريه ونساءه وما معهم فاقتسموه بينهم.

وقيل: إن حجراً أُخذ أسيرًا في المعركة وجعل في قبة، فوثب عليه ابن أخت علباء فضربه بحديدة كانت معه لأن حجراً كان قتل أباه، فلما جرحه لم يقض عليه، فأوصى حجر ودفع كتابه إلى رجل وقال له: انطلق إلى ابني نافع، وكان أكبر أولاده، فإن بكى وجزع فاتركه واستقرهم واحداً واحداً حتى تأتي امرأ القيس، وكان أصغرهم، فأيهم لم يجزع فادفع إليه خيلي وسلاحي ووصيتي - وقد كان بيّن في وصيته من قتله وكيف كان خبره -.

فانطلق الرجل بوصيته إلى ابنه نافع فوضع التراب على رأسه ثم أتاهم كلهم، ففعلوا مثله حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعب معه بالنرد، فقال: «قتل حجر»، فلم يلتفت إلى قوله، وأمسك نديمه، فقال له امرؤ القيس: اضرب، فضرب حتى إذا فرغ قال: ما كنت لأفسد دستك.

ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله، فأخبره، فقال له: الخمر والنساء علي حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأطلق مائة.

وكان حجر قد طرد امرئ القيس لقوله الشعر، وكان يأنف منه، وكانت أم امرئ القيس فاطمة بنت ربيعة بن الحارث أخت كليب بن وائل، وكان يسير في أحياء العرب يشرب الخمر على الغدران ويتصيد، فأتاه خبر قتل أبيه وهو بدمّون من أرض اليمن، فلما سمع الخبر قال:

تطاول الليل علينا دمون ... دمون إنا معشر يمانون

وإننا لقومٍ محبون

ثم قال: «ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لأصحو اليوم ولأسكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر». فذهبت مثلاً. ثم ارتحل حتى نزل ببكر وتغلب فسألهم النصر على بني أسد، فأجابوه. فبعث العيون إلى بني أسد، فنذروا به، فلجأوا إلى بني كنانة، وعيون امرئ القيس معهم، فقال لهم علباء بن الحارث: اعلموا أن عيون امرئ القيس قد عادوا إليه بخبركم وإنكم عند بني كنانة، فارحلوا بليل ولا تعلموا بني كنانة.

فارتحلوا. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب وغيرهم حتى انتهى إلى بني كنانة، وهو يظنهم بني أسد فوضع السلاح فيهم وقال: يا لثارات الملك يا لثارات الهمام! فقيل له: أبيت اللعن! لسنا لك بثأر، نحن بنو كنانة فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس. فتبع بني أسد، ففاتوه ليلتهم، وقال في ذلك:

ألا يا لهف هند إثر قوم ... هم كانوا الشفاء فلم يصابوا

وقاهم جدهم ببني أبيهم ... وبالأشقين ما كان العقاب

وأفلتهن علباء جريضًا[1] ... ولو أدركته صفر الوطاب

يعني ببني أبيهم كنانة، فإن أسداً وكنانة ابني خزيمة هما أخوان. وقوله: ولو أدركته صفر الوطاب، قيل: كانوا قتلوه واستاقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن، أي خلت، وقيل: كانوا قتلوه فخلا جلده، وهو وطابه، من دمه بقتله.

فسار امرؤ القيس في آثار بني أسد فأدركهم ظهراً وقد تقطعت خيله وهلكوا

(١) الجريض: غصص الموت، والوطاب سقاء اللبن من جلد الجذع.

عطشًا وبنو أسـد نازلون على الماء، فقاتلهم حـتى كثرت القـتلى بينهم وهربت بنو أسد. فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا: قد أصبت ثأرك.

فقـال: لا والله. فقـالوا: بلى ولكنك رجل مشـؤوم وكرهوا قـتلهم بني كنانة فانصرفوا عنه.

ومضى إلى أزد شنوءة يستنصرهم، فأبوا أن ينصـروه وقالوا: إخواننا وجيراننا. فسار عنهم ونزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذي جـدن الحميري، وكان بينهما قرابة. فاستنصره على بني أسد، فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس، وملك بعده رجل من حمير يقـال له قرمل، فزود امرأ القيس ثم سير معه ذلك الجيش وتبعه شذاذ من العرب واستأجر غيرهم من قبائل اليمن، فسار بهم إلى بني أسد وظفر بهم.

ثم إن المنذر طلب امرأ القيس ولج في طلبه ووجه الجيوش إليه، فلم يكن لامرئ القيس بهم طاقة وتفـرق عنه من كان معه من حمـير وغيرهم، فنجا في جـماعة من أهله ونزل بالحارث بن شـهاب اليربـوعي، وهو أبو عتيـبة بن الحارث، فـأرسل إليه المنذر يتوعده بالقتـال إن لم يسلمهم إليه، فسلمهم، ونجا امـرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وابنته هند ابنة امرئ القـيس وأدراعه وسلاحه وماله، فخرج ونزل على سعد بن الضباب الأيادي سيد قومه، فأجاره، ومدحه امرؤ القيس ثم تحول عنه ونزل على المعلى بن تيم الطائي فـأقام عنده واتخذ إبـلاً هناك، فعدا قـوم من جديلة يقال لهم بنو زيد عليها فأخذوها فأعطاه بنو نبهان معزىً يحلبها فقال:

إذا مـا لـم تـكـن إبــل فمـعـزىً كـأن قــرون جـلـتـهــا العـصـي

الأبيات.

ثم رحل عنهم ونزل بعـامر بن جوين، فـأراد أن يغلب امرئ القـيس على ماله وأهله، فعلم امرؤ القيس بذلك فانتـقل إلى رجل من بني ثعل يقال له حارثة بن مر فاسـتجاره، فـأجاره. فوقـعت بين عامر بن جـوين والثعلي حرب، وكـانت أمور كبيرة، فلما رأى امرؤ القيس أن الحـرب قد وقعت بين طيء بسببه خرج من عندهم فقصد السموأل بن عادياء اليهودي، فـأكرمه وأنزله، فأقام عنده امرؤ القيس ما شاء الله ثم طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ليوصله إلى قيصر، ففعل ذلك، وسـار إلى الحارث وأودع أهله وأدراعه عند السمـوأل، فلما وصل إلى

قيصر أكرمه. فبلغ ذلك بني أسد فأرسلوا رجلاً منهم يقال له الطماح، كان امرؤ القيس قتل أخًا له، فوصل الأسدي، وقد سير قيصر مع امرئ القيس جيشًا كثيفًا فيهم جماعة من أبناء الملوك. فلما سار امرؤ القيس، قال الطماح لقيصر: إن امرأ القيس غوي عاهر، وقد ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها وقال فيها أشعاراً أشهرها بها في العرب.

فبعث إليه قيصر بحلة وشي منسوجة بالذهب، مسمومة، وكتب إليه: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك فالبسها واكتب إليّ بخبرك من منزل منزل. فلبسها امرؤ القيس وسر بذلك، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، فقال امرؤ القيس في ذلك:

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ... ليلبسني مما يلبس أبؤسا

فلو أنها نفس تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

فلما وصل إلى موضع من بلاد الروم يقال له أنقرة احتضر بها، فقال: رب خطبة مسحنفرة، وطعنة مثعنجرة، وجفنة مستحيرة، حلت بأرض أنقرة[1]. ورأى قبر امرأة من بنات ملوك الروم وقد دفنت بجنب عسيب، وهو جبل، فقال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك.

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل بن عادياء وطالبه بأدراع امرئ القيس، وكانت مائة درع، وبما له عنده، فلم يعطه، فأخذ الحارث ابنًا للسموأل، فقال: إما أن تسلم الأدراع وإما قتلت ابنك. فأبى السموأل أن يسلم إليه شيئًا، فقتل ابنه، فقال السموأل في ذلك:

وفيت بأدرع الكندي إني ... إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديا يومًا بأن لا ... تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لي عاديا حصنًا حصينًا ... وماء كلما شئت استقيت

---

(١) المسحنفر: السيل الكثير، والمثعنجرة، الملأى، ومستحيرة، المستحير: الدائم الذي لا ينقطع.

وقد ذكر الأعشى هذه الحادثة، فقال:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار

إذ سامه خطتي خسف فقال له ... قل ما تشاء فإني سامع حار

فقال: غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر فما فيهما حظ لمختار

فشك غير طويل ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانع جاري

وهي أكثر من هذا.



يوم خزاز

وكان من حديثه أن ملكًا من ملوك اليمن كان في يديه أسارى من مضر وربيعة وقضاعة، فوفد عليه وفد من وجوه بني معد، منهم: سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وعوف بن محلم بن ذهل بن شيبان وعوف بن عمرو بن جشم بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان، وجشم بن ذهل بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان، فلقيهم رجل من بهراء يقال له عبيد بن قراد ـ وكان في الأسارى، وكان شاعراً ـ فسألهم أن يدخلوه في عدة من يسألون فيه، فكلموا الملك فيه وفي الأسارى، فوهبهم لهم، فقال عبيد بن قراد البهراوي:

نفسي الفداء لعوف الفعال وعوف ولابن هلال جشم

تداركني بعدما قد هويـ ـت مستمسكًا بعراقي الوذم[1]

ولولا سدوس وقد شمرت بي الحرب زلت بنعلي القدم

وناديت بهراء كي يسمعوا وليس بآذانهم من صمم

ومن قبلها عصمت قاسط معداً إذا ما عزيز أزم

فاحتبس الملك عنده بعض الوفد رهينة وقال للباقين: ائتوني برؤساء قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لي وإلا قتلت أصحابكم.

فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم الخبر، فبعث كليب وائل إلى ربيعة فجمعهم، واجتمعت عليه معد، وهو أحد النفر الذين اجتمعت عليهم معد، على ما نذكره في مقتل كليب، فلما اجتمعوا عليه سار بهم وجعل على مقدمته السفاح التغلبي، وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب ابن تغلب، وأمرهم أن يوقدوا على خزاز ناراً ليهتدوا بها، وخزاز جبل بطخفة ما بين البصرة إلى مكة، وهو قريب من سالع، وهو جبل أيضًا، وقال له: إن غشيك العدو فأوقد نارين. فبلغ مذحجًا اجتماع ربيعة ومسيرها فأقبلوا بجموعهم واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن وساروا إليهم، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا إلى ربيعة.

---

(١) الوذم: السير الذي بين آذان الدلو وعراقيها تشد بها.

ووصلت مذحج إلى خزاز ليلاً، فرفع السفاح نارين. فلما رأى كليب النارين أقبل إليهم بالجموع فصحبهم، فالتقوا بخزاز فاقتتلوا قتالاً شديداً أكثروا فيه القتل، فانهزمت مذحج وانفضت جموعها، فقال السفاح في ذلك:

وليلة بت أوقد في خزاز	هديت كتائبًا متحيرات
ضللن من السهاد وكن لولا	سهاد القوم أحسب هاديات

وقال الفرزدق يخاطب جريراً ويهجوه:

لولا فوارس تغلب ابنة وائل	دخل العدو عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا	نارين أشرفتا على النيران

وقيل: إنه لم يعلم أحد من كان الرئيس يوم خزاز لأن عمرو بن كلثوم، وهو ابن ابنة كليب، يقول:

ونحن غداة أوقد في خزاز	رفدنا فوق رفد الرافدينا

فلو كان جده الرئيس لذكره ولم يفتخر بأنه رفد، ثم جعل من شهد خزازاً متساندين فقال:

فكنا الأيمنين إذا التقينا	وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم	وصلنا صولة فيمن يلينا

فقالوا له: استأثرت على إخوتك، يعني مضر، ولما ذكر جده في القصيدة قال:

ومنا قبله الساعي كليب	فأي المجد إلا قد ولينا

فلم يدع له الرياسة يوم خزاز، وهي أشرف ما كان يفتخر له به.

* * *

أيام البسوس
ذكر مقتل كليب والأيام بين بكر وتغلب

وكان من حديث الحرب التي وقعت بين بكر وتغلب ابني وائل بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بسبب قتل كليب، واسمه وائل بن ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وإنما لقب كليبًا لأنه كان إذا سار أخذ معه جرو كلب، فإذا مر بروضة أو موضع يعجبه ضربه ثم ألقاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي فلا يسمع عواءه أحد إلا تجنبه ولم يقربه، وكان يقال له كليب وائل، ثم اختصروا فقالوا كليب، فغلب عليه.

وكان لواء ربيعة بن نزار للأكبر فالأكبر من ولده، فكان اللواء في عنزة بن أسد ابن ربيعة، وكانت سنتهم أنهم يوفرون لحاهم ويقصون شواربهم فلا يفعل ذلك من ربيعة إلا من يخالفهم ويريد حربهم.

ثم تحول اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار، وكانت سنتهم إذا شتموا لطموا من شتمهم، وإذا لطموا قتلوا من لطمهم. ثم تحول اللواء في النمر بن قاسط بن هنب، وكان لهم غير سنة من تقدمهم. ثم تحول اللواء إلى بكر بن وائل فساءوا غيرهم في فرخ طائر، وكانوا يوثقون الفرخ بقارعة الطريق، فإذا علم بمكانه لم يسلك أحد ذلك الطريق ويسلك من يريد الذهاب والمجيء عن يمينه ويساره، ثم تحول اللواء إلى تغلب، فوليه وائل ابن ربيعة، وكانت سنته ما ذكرناه من جرو الكلب، ولم تجتمع معد إلا على ثلاثة نفر، وهم: عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحرث، وهو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، ـ وهو الناس بن مضر، بالنون ـ، وهو أخو إلياس بن مضر، وكان قائد معد حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة، وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن.

والثاني ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن كلب، وكان قائد معد يوم السلان بين أهل اليمامة واليمن.

والثالث وائل بن ربيعة، وكـان قائد معد يوم خزاز ففض جموع اليـمن فهزمهم وجعلت لـه معد قسم الملك وتاجه وطاعـته وبقي زمـانًا من الدهر، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومـه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مـواقع السحاب فلا يُرْعَى حمـاه، وكان يقول: وحش أرض كـذا في جواري، فلا يصـاد، ولا يورد أحد مع إبله ولا يوقد نارًا مع ناره، ولا يمر أحد بين بيوته ولا يحتبى في مجلسه.

وكانت بنو جـشم وبنو شيـبان أخلاطًا في دار واحـدة إرادة الجمـاعة ومخـافة الفرقة، وتزوج كليب جليـلة بنت مرة بن شيبان بن ثعلبـة، وهي أخت جساس بن مرة، وحمى كليب أرضًـا من العالية في أول الربيع، وكان لا يقربهـا إلا محارب، ثم إن رجلاً يقـال له سعد بـن شميس بن طوق الجـرمي نزل بالبسـوس بنت منقذ التميـمية خالة جـساس بن مرة. وكان للجـرمي ناقة اسمهـا سراب ترعى مع نوق جسـاس، وهي التي ضربت العـرب بها المثل فقـالوا: أشأم من سـراب وأشأم من البسوس، فخرج كليب يومًـا يتعهد الإبل ومراعيها فأتـاها وتردد فيها، وكانت إبله وإبل جسـاس مختلطـة، فنظر كليب إلى سراب فأنكـرها، فقال له جـساس، وهو معـه: هذه ناقة جـارنا الجرمي. فقـال: لا تعد هذه الناقـة إلى هذا الحمى. فـقال جساس: لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها.

فقـال كليب: لئن عادت لأضـعن سهـمي في ضرعـها. فـقال جسـاس: لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك.

ثم تفرقا، وقال كليب لامرأته: أترين أن في العرب رجلاً مانعًا مني جاره؟ قالت: لا أعلمه إلا جـساسًا، فحدثهـا الحديث. وكان بعد ذلك إذا أراد الخـروج إلى الحمى منعته وناشدته الله أن لا يقطع رحمه، وكانت تنهى أخاها جساسًا أن يسرح إبله.

ثم إن كليبًـا خرج إلى الحمى وجـعل يتصـفح الإبل، فرأى ناقة الجـرمي فرمى ضرعهـا فأنفذه، فولت ولهـا عجيج حتى بركت بفناء صـاحبها. فلمـا رأى ما بها صرخ بالذل، وسمـعت البسوس صراخ جارها، فـخرجت إليه فلما رأت مـا بناقته وضعت يدها على رأسها ثم صاحت: واذلاه! وجساس يراها ويسمع، فخرج إليها فقال لها: اسكتي ولا تراعي، وسكن الجرمي، وقال لهما: إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقـتل غلالاً ـ وكان غلال فحل إبل كليـب لم ير في زمانه مثله، وإنما أراد جساس بمقالتـه كليبًا ـ وكان لكليب عين يسمع ما يـقولون، فأعاد الكلام

على كليب، فقال: لقد اقتصر من يمينه على غلال. ولم يزل جساس يطلب غرة كليب، فخرج كليب يومًا آمنًا فلما بعد عن البيوت ركب جساس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليبًا، فوقف كليب. فقال له جساس: يا كليب الرمح وراءك.

فقال: إن كنت صادقًا فأقبل إلي من أمامي، ولم يلتفت إليه، فطعنه فأرداه عن فرسه، فقال: يا جساس أغثني بشربة من ماء، فلم يأته بشيء، وقضى كليب نحبه.

فأمر جساس رجلاً كان معه اسمه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان فجعل عليه أحجارًا لئلا تأكله السباع. وفي ذلك يقول مهلهل بن ربيعة، أخو كليب:

قتيل ما قتيل المرء عمرو ... وجساس بن مرة ذي صريم
أصاب فؤاده بأصم لدن ... فلم يعطف هناك على حميم
فإن غداً وبعد غد لرهن ... لأمر ما يقام له عظيم
جسيمًا ما بكيت به كليبًا ... إذا ذكر الفعال من الجسيم
سأشرب كأسها صرفًا وأسقى ... بكأس غير منطقة مليم

ولما قتل جساس كليبًا انصرف على فرسه يركضه وقد بدت ركبتاه، فلما نظر أبوه مرة إلى ذلك قال: لقد أتاكم جساس بداهية، ما رأيته قط بادي الركبتين إلى اليوم.

فلما وقف على أبيه قال: مالك يا جساس؟ قال: طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدًا لها رقصًا. قال: ومن طعنت؟ لأمك الثكل! قال: قتلت كليبًا. قال: أفعلت؟ قال: نعم. قال: بئس والله ما جئت به قومك! فقال جساس:

تأهب عنك أهبة ذي امتناع ... فإن الأمر جل عن التلاحي
فإني قد جنيت عليك حربًا ... تغص الشيخ بالماء القراح[1]

فلما سمع أبوه قوله خاف خذلان قومه لما كان من لائمته إياه، فقال يجيبه:

فإن تك قد جنيت عليّ حربًا ... تغص الشيخ بالماء القراح
جمعت بها يديك على كليب ... فلا وكل ولا رث السلاح
سألبس ثوبها وأذود عني ... بها عار المذلة والفضاح

(١) الماء القراح: الذي لا يشوبه شيء.

ثم إن مرة دعا قومه إلى نصرته، فأجابوه وجلوا الأسنة وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتهيأوا للرحلة إلى جماعة قومهم.

وكان همام بن مرة أخو جساس، ومهلهل أخو كليب في ذلك الوقت يشربان، فبعث جساس إلى همام جارية لهم تخبره الخبر، فانتهت إليهما وأشارت إلى همام، فقام إليها، فأخبرته، فقال له مهلهل: ما قالت لك الجارية؟ ـ وكان بينهما عهد ألا يكتم أحدهما صاحبه شيئًا ـ فذكر له ما قالت الجارية، وأحب أن يعلمه ذلك في مداعبة وهزل، فقال له مهلهل: است أخيك أضيق من ذلك! فأقبلا على شربهما.

فقال له مهلهل: اشرب، فاليوم خمر وغدًا أمر. فشرب همام وهو حذر خائف.

فلما سكر مهلهل عاد همام إلى أهله، فساروا من ساعتهم إلى جماعة قومهم، وظهر أمر كليب، فذهبوا إليه فدفنوه، فلما دفن شقت الجيوب وخمشت الوجوه وخرجت الأبكار وذوات الخدور العواتق إليه وقمن للمأتم، فقال النساء لأخت كليب: أخرجي جليلة أخت جساس عنا فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا، وكانت امرأة كليب، كما ذكرنا.

فقالت لها أخت كليب: اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت قاتلنا وشقيقة واترنا، فخرجت تجر عطافها، فلقيها أبوها مرة فقال لها: ما وراءك يا جليلة؟ فقالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين هذين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد. فقال لها: أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟ فقالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة! ألبدن تدع لك تغلب دم ربها!

ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدي وفراق الشامت، ويل غدًا لآل مرة من الكرة بعد الكرة.

فبلغ قولها جليلة، فقالت: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها! أسعد الله أختي ألا قالت: نفرة الحياء وخوف الأعداء! ثم أنشأت تقول:

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي

فإذا ما أنت تبينت الذي ... يوجب اللوم، فلومي واعذلي

إن تكن أخت امرىء ليمت على ... شفق منها عليه فافعلي

جل عندي فعل جساس فيا ... حسرتا فيما انجلت أو تنجلي

فعل جساس على وجدي به ... قاطع ظهري ومدن أجلي
لو بعين فقئت عين سوى ... أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما ... تحمل الأم أذى ما تفتلي
يا قتيلاً قوض الدهر به ... سقف بيتي جميعًا من عل
هدم البيت الذي استحدثته ... وانثنى في هدم بيتي الأول
ورماني قتله من كثب ... رمية المصمى به المستأصل
يا نسائي دونكن اليوم قد ... خصني الدهر برزء معضل
خصني قتل كليب بلظى ... من ورائي ولظى مستقبل
ليس من يبكي ليوميه كمن ... إنما يبكي ليوم مقبل
يشتفي المدرك بالثأر وفي ... دركي ثأري ثكل المثكل
ليته كان دمًا فاحتلبوا ... درراً منه دمي من أكحل
إنني قاتلة مقتولة ... ولعل الله أن يرتاح لي

وأما مهلهل، واسمه عدي ـ وقيل: امرؤ القيس ـ وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي وإنما لقب مهلهلاً لأنه أول من هلهل الشعر وقصد القصائد، وأول من كذب في شعره، فإنه لما صحا لم يرعه إلا النساء يصرخن: ألا إن كليبًا قتل، فقال، وهو أول شعر قيل في هذه الحادثة:

كنا نغار على العواتق أن ترى ... بالأمس خارجة عن الأوطان
فخرجن حيث ثوى كليب حسراً ... مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلاً ... إذ حان مصرعه من الأكفان
يخمشن من أدم الوجوه حواسراً ... من بعده ويعدن بالأزمان
متسلبات نكدهن وقد روى ... أجوافهن بحرقة ورواني
ويقلن من للمستضيف إذا دعا ... أم من لخضب عوالي المران(١)
أم لا تسار بالجزور إذا غدا ... ريح يقطع معقد الأشطان(٢)

(١) المران: الرماح.
(٢)الأشطان: جمع شطن، وهو الحبل.

أم من لإسباق الديات وجمعها ... ولفادحات نوائب الحدثان
كان الذخيرة للزمان فقد أتى ... فقدانه وأخل ركن مكاني
يا لهف نفسي من زمان فاجع ... ألقى علي بكلكل[(١)] وجران
بمصيبة لا تستقال جليلة ... غلبت عزاء القوم والنسوان
هدت حصونًا كن قبل ملاوذًا ... لذوي الكهول معًا وللشبان
أضحت وأضحى سورها من بعده ... متهدم الأركان والبنيان
فابكين سيد قومه واندبنه ... شدت عليه قباطي الأكفان
وابكين للأيتام لما أقحطوا ... وابكين عند تخاذل الجيران
وابكين مصرع جيده متزملاً ... بدمائه فلذاك ما أبكاني
فلأتركن به قبائل تغلب ... قتلى بكل قرارة ومكان
قتلى تعاورها النسور أكفها ... ينهشنها وحواجل الغربان

ثم انطلق إلى المكان الذي قتل فيه كليب فرأى دمه، وأتى قبره فوقف عليه ثم قال:

إن تحت التراب حزمًا وعزمًا ... وخصيمًا ألد ذا معلاق
حية في الوجار أربد لا ينـ ... ـفع منه السليم نفث الراقي[(٢)]

ثم جز شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب وجمع إليه قومه وأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان.

فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو في نادي قومه فقالوا له: إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناقة وقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة، وإنا نعرض عليك خلالاً أربعًا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع:

إما أن تحيي لنا كليبًا أو تدفع إلينا قاتله جساسًا فنقتله به، أو همامًا فإنه كفؤ له، أو تمكننا من نفسك، فإن فيك وفاء لدمه.

---

(١) الكلكل: بالفتح، الصدر، وبالضم: الغليظ الشديد.

(٢) الوجار: سرب الضبع. أربد: لونه لون الرماد. السليم: اللديغ.

فقال لهم: أما إحيائي كليبًا فلست قادرًا عليه، وأما دفعي جساسًا إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت، ولكن لكم عندي خصلتان: أما إحداهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم، وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر.

فغضب القوم وقالوا: قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب.

ونشبت الحرب بينهم. ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها، واعتزلت قبائل بكر الحرب وكرهوا مساعدة بني شيبان على القتال وأعظموا قتل كليب، فتحولت لجيم ويشكر، وكف الحارث بن عباد عن نصرهم ومعه أهل بيته، وقال مهلهل عدة قصائد يرثي كُليبًا منها:

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها ... إذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أي فتى عز ومكرمة ... تحت السقائف إذ يعلوك سافيها
نعى النعاة كليبًا لي فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته ... ما كل آلائه يا قوم أحصيها
القائد الخيل تردي في أعنتها ... رهوًا إذا الخيل لجت في تعاديها
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها ... إلا وقد خضبوها من أعاديها
يهزهزون من الخطيّ مدمجة ... صمًا أنابيبها زرقًا عواليها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم ... ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

فالتقوا في أول قتال كان بينهم في قول يوم عنيزة، وهي عند فلج، وكانا على السواء، فقال مهلهل:

كأنا غدوة وبني أبينا ... بجنب عنيزة رحيا مدير
ولولا الريح أسمع أهل حجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

فتفرقوا ثم بقوا زمانًا.

ثم إنهم التقوا بماء يقال له النهي، كانت بنو شيبان نازلة عليه، ويروى أنها أول وقعة كانت بينهم، وكان رئيس تغلب مهلهل، ورئيس شيبان الحارث بن مرة، وكانت الدائرة لبني تغلب، وكانت الشوكة في بني شيبان، واستحر القتال فيهم إلا أنه لم يقتل ذلك اليوم أحد من بني مرة.

ثم التقوا بالذنائب، وهي أعظم وقعة كانت لهم، فظفرت بنو تغلب وقتلت بكرًا مقتلة عظيمة، وقتل فيها شراحيل بن مرة بن همام بن ذهل بن شيبان، وهو جد الحوفزان وجد معن بن زائدة، وقتل الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان، وقتل من بني ذهل بن ثعلبة عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل وغيرهم من رؤساء بكر.

ثم التقوا يوم واردات فاقتتلوا قتالاً شديداً فظفرت تغلب أيضًا، وكثر القتل في بكر، فقتل همام بن مرة بن ذهل بن شيبان أخو جساس لأبيه وأمه، فمر مهلهل، فلما رآه قتيلاً قال: «والله ما قتل بعد كليب أعز علي منك، وتالله لا تجتمع بكر بعدكما على خير أبداً وقيل: إنما قتل يوم القصيبات، وقيل يوم قضة، قتله ناشرة، وكان همام قد التقطه ورباه وسماه ناشرة، وكان عنده. فلما شب علم أنه تغلبي، فلما كان هذا اليوم جعل همام يقاتل فإذا عطش جاء إلى قرية[1] له يشرب منها فتغفله ناشرة فقتله ولحق بقومه تغلب، وكاد جساس يؤخذ فسلم، فقال مهلهل:

لو أن خيلي أدركتك وجدتهم ... مثل الليوث بستر غب عرين

ويقول فيها:

ولأوردن الخيل بطن أراكة ... ولأقضين بفعل ذاك ديوني

ولأقتلن جحاجحًا من بكركم ... ولأبكين بها جفون عيون

حتى تظل الحاملات مخافة ... من وقعنا يقذفن كل جنين

وقيل في ترتيب الأيام: غير ما ذكرنا، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان أبو نويرة التغلبي وغيره طلائع قومه، وكان جساس وغيره طلائع قومهم، والتقى بعض الليالي جساس وأبو نويرة، فقال له أبو نويرة: اختر إما الصراع أو الطعان أو المسايفة. فاختار جساس الصراع، فاصطرعا وأبطأ كل واحد منهما على أصحاب حيه، وطلبوهما فأصابوهما وهما يصطرعان، وقد كاد جساس يصرعه،

(١) كذا بالمطبوعة، والصواب: قربة.

ففرقوا بينهما، وجعلت تغلب تطلب جساسًا أشد الطلب، فقال له أبو مرة: الحق بأخوالك بالشام، فامتنع، فألح عليه أبوه فسيره سرًا في خمسة نفر: وبلغ الخبر إلى مهلهل، فندب أبا نويرة ومعه ثلاثون رجلاً من شجعان أصحابه فساروا مجدين، فأدركوا جساسًا، فقاتلهم فقتل أبو نويرة وأصحابه ولم يبق منهم غير رجلين، وجرح جساس جرحًا شديداً مات منه، وقتل أصحابه فلم يسلم غير رجلين أيضًا، فعاد كل واحد من السالمين إلى أصحابه. فلما سمع مرة قتل ابنه جساس قال: إنما يحزنني إن كان لم يقتل منهم أحداً.

فقيل له: إنه قتل بيده أبا نويرة رئيس القوم وقتل معه خمسة عشر رجلاً ما شركه منا أحد في قتلهم وقتلنا نحن الباقين.

فقال: ذلك مما يسكن قلبي عن جساس.

وقيل: إن جساسًا آخر من قتل في حرب بكر وتغلب، وكان سبب قتله أن أخته جليلة كانت تحت كليب وائل. فلما قتل كليب عادت إلى أبيها وهي حامل ووقعت الحرب، وكان من الفريقين ما كان، ثم عادوا إلى الموادعة بعدما كانت الفئتان تتفانيان، فولدت أخت جساس غلامًا فسمته هجرسًا، ورباه جساس، وكان لا يعرف أبًا غيره، فزوجه ابنته فوقع بين هجرس وبين رجل من بكر كلام، فقال له البكري: ما أنت بمنتهٍ حتى نلحقك بأبيك. فأمسك عنه ودخل إلى أمه كئيبًا حزينًا فأخبرها الخبر. فلما نام إلى جنب امرأته رأت من همه وفكره ما أنكرته، فقصت على أبيها جساس قصته، فقال: تأثر ورب الكعبة! وبات على مثل الرضف[1] حتى أصبح، فأحضر الهجرس فقال له: إنما أنت ولدي وأنت مني بالمكان الذي تعلم، وزوجتك ابنتي، وقد كانت الحرب في أبيك زمانًا طويلاً، وقد اصطلحنا وتحاجزنا، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح وأن تنطلق معي حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا.

فقال الهجرس: أنا فاعل. فحمله جساس على فرس فركبه ولبس لأمته[2] وقال: مثلي لا يأتي أهله بغير سلاحه.

فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما، فقص عليهم جساس القصة وأعلمهم أن

---

(١) الرضف: الحجارة المحماة على النار.

(٢) اللأمة: الدرع.

الهجرس يدخل في الذي دخل فيه جماعتهم وقد حضر ليعقد ما عقدتم. فلما قربوا الدم وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه ثم قال: وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه، ثم طعن جساسًا فقتله ولحق بقومه، وكان آخر قتيل في بكر. والأول أكثر.

ونرجع إلى سياقة الحديث.

فلما قتل جساس أرسل أبوه مرة إلى مهلهل: إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساسًا، فاكفف عن الحرب ودع اللجاج والإسراف وأصلح ذات البين فهو أصلح للحيين وأنكأ لعدوهم، فلم يجب إلى ذلك.

وكان الحارث بن عباد قد اعتزل الحرب، فلم يشهدها، فلما قتل جساس وهمام ابنا مرة حمل ابنه بجيراً، وهو ابن عمرو بن عباد أخي الحارث بن عباد، فلما حمله على الناقة كتب معه إلى مهلهل: إنك قد أسرفت في القتل وأدركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر، وقد أرسلت ابني إليك فإما قتلته بأخيك وأصلحت بين الحيين وإما أطلقته وأصلحت ذات البين، فقد مضى من الحيين في هذه الحروب من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم.

فلما وقف على كتابه أخذ بجيراً فقتله وقال: بؤ بشسع نعل كليب[1].

فلما سمع أبوه بقتله ظن أنه قد قتله بأخيه ليصلح بين الحيين، فقال: نعم القتيل قتيلاً أصلح بين ابني وائل.

فقيل: إنه قال: بؤ بشسع نعل كليب، فغضب عند ذلك الحارث بن عباد وقال:

قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال

قربا مربط النعامة مني ... شاب رأسي وأنكرتني رجالي

لم أكن من جناتها علم الله ... وإني بحرها اليوم صالي

فأتوه بفرسه النعامة، ولم يكن في زمانها مثلها، فركبها وولي أمر بكر وشهد حربهم، وكان أول يوم شهده يوم قضة، وهو يوم تحلاق اللمم، وإنما قيل له تحلاق اللمم: لأن بكراً حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضًا إلا جحدر بن ضبيعة بن قيس أبو المسامعة فقال لهم: أنا قصير فلا تشينوني، وأنا أشتري لمتي منكم بأول

---

(١) بؤ: يقال: دم فلان بواء لدم فلان أي كفء له، وشسع النعل سيره.

فارس يطلع عليكم. فطلع ابن عناق فشد عليه فقتله، وكان يرتجز ذلك اليوم ويقول:

ردوا عليّ الخيل إن ألمت إن لم أقاتلهم فجزوا لمتي

وقاتل يومئذ الحارث بن عباد قتالاً شديداً، فقتل في تغلب مقتلة عظيمة، وفيه يقول طرفة:

سائلوا عنا الذي يعرفنا بقوانا يوم تحلاق اللمم
يوم تبدي البيض عن أسواقها وتلف الخيل أفواج النعم

وفي هذا اليوم أسر الحارث بن عباد مهلهلاً، واسمه عدي، وهو لا يعرفه، فقال له: دلني على عدي وأنا أخلي عنك.

فقال له المهلهل: عليك عهد الله بذلك إن دللتك عليه؟

قال: نعم. قال: فأنا عدي، فجز ناصيته وتركه، وقال في ذلك:

لهف نفس على عدي ولم أعر ف عديًا إذ أمكنتني اليدان

وكانت الأيام التي اشتدت فيها الحرب بين الطائفتين خمسة أيام: يوم عنيزة تكافؤا فيه وتناصفوا، ثم اليوم الثاني: يوم واردات، كان لتغلب على بكر، ثم اليوم الثالث: الحنو، كان لبكر على تغلب، ثم اليوم الرابع: يوم القصيبات، أصيب بكر حتى ظنوا أنهم لن يستقيلوا، ثم اليوم الخامس: يوم قضة، وهو يوم التحالق، وشهده الحارث بن عباد.

ثم كان بعد ذلك أيام دون هذه، منها: يوم النقية، ويوم الفصيل لبكر على تغلب، ثم لم يكن بينهما مزاحفة إنما كان مغاورات، ودامت الحرب بينهما أربعين سنة.

ثم إن مهلهلاً قال لقومه: قد رأيت أن تبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم، وقد أتت على حربكم أربعون سنة وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوتركم، فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها، فكيف وقد فني الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ونائحة لا تزال تصرخ في النواحي، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة! وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم وتتعطف الأرحام حتى تتواسوا في قبال النعل، فكان كما قال.

ثم قال مهلهل: أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب وأخاف أن أحملكم على الاستئصال وأنا سائر إلى اليمن، وفارقهم وسار إلى اليمن ونزل في جنب، وهي حي من مذحج، فخطبوا إليه ابنته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه صداقها جلوداً من أدم، فقال في ذلك:

أعـزز على تغلب بما لقيت ... أخت بني الأكرمين من جشم

أنكحها فقدها الأراقم في ... جنب وكان الحباء من أدم

لو بأبا نين جاء يخطبها ... ضرج ما أنف خاطب بدم

الأراقم: بطن من جشم بن تغلب، يعني حيث فقدت الأراقم، وهم عشيرتها، تزوجها رجل من جنب بأدم.

ثم إن مهلهلاً عاد إلى ديار قومه، فأخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة البكري أسيراً بنواحي هجر فأحسن إساره، فمر عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هجر، وكان صديقًا لمهلهل، فأهدى إليه وهو أسير زقًّا من خمر، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكراً وشربوا عند مهلهل في بيته الذي أفرد له عمرو. فلما أخذ فيهم الشراب تغنى مهلهل بما كان يقوله من الشعر وينوح به على أخيه كليب، فسمع منه عمرو ذلك فقال: إنه لريان، والله لا يشرب عندي ماء حتى يرد زبيب ـ وهو فحل كان له لا يرد إلا خمسًا في حمارة القيظ، فطلب بنو مالك زبيبًا وهم حراص على أن يهلك مهلهل، فلم يقدروا عليه حتى مات مهلهل عطشًا.

وقيل: إن ابنة خال مهلهل، وهي ابنة المجلل التغلبي، كانت امرأة عمرو، وأرادت أن تأتي مهلهلاً وهو أسير، فقال يذكرها:

طفلة ما ابنة المجلل بيضا ... ء لعوب لذيذة في العناق

فاذهبي ما إليك غير بعيد ... لا يؤاتي العناق من في الوثاق

ضربت صدرها إليّ وقالت ... يا عديًا لقد وقتك الأواقي

وهي أبيات ذوات عدد، فنقل شعره إلى عمرو بن مالك، فحلف عمرو أن لا يسقيه الماء حتى يرد زبيب، فسأله الناس أن يورد زبيبًا قبل وروده، ففعل وأورده وسقاه حتى يتحلل من يمينه، ثم إنه سقى مهلهلاً من ماء هناك هو أوخم المياه، فمات مهلهل.

ذكر الحرب بين الحارث الأعرج وبني تغلب

قال أبو عبيدة: إن بكرًا وتغلب ابني وائل اجتمعت للمنذر بن ماء السماء، وذلك بعد حربهم، وكان الذي أصلح بينهم قيس بن شراحيل بن مرة بن همام، فغزا بهم المنذر بني آكل المرار، وجعل على بني بكر وتغلب ابنه عمرو بن هند، وقال: اغز أخوالك. فغزاهم، فاقتتلوا، فانهزم بنو آكل المرار وأسروا، وجاءوا بهم إلى المنذر فقتلهم، ثم انتقضت تغلب على المنذر ولحقت بالشام، ونحن نذكر سبب ذلك في أخبار شيبان إن شاء الله.

وعادت الحرب بينهم وبين بكر، فخرج ملك غسان بالشام، وهو الحارث بن أبي شمر الغساني، فمر بأفاريق من تغلب، فلم يستقبلوه. وركب عمرو بن كلثوم التغلبي فلقيه، فقال له: ما منع قومك أن يتلقوني؟

فقال: لم يعلموا بمرورك، فقال: لئن رجعت لأغزونهم غزوة تتركهم أيقاظًا لقدومي، فقال عمرو: ما استيقظ قوم قط إلا نبل رأيهم وعزت جماعتهم، فلا توقظن نائمهم. فقال: كأنك تتوعدني بهم، أما والله لتعلمن إذا أجالت غطاريف غسان الخيل في دياركم أن أيقاظ قومك سينامون نومة لا حلم فيها، تجتث أصولهم وتنفى فلهم إلى اليابس الجدد[١] والنازح الثمد[٢].

ثم رجع عمرو بن كلثوم عنه وجمع قومه وقال:

ألا فاعلم أبيت اللعن أنا	أبيت اللعن نأبى ما تريد
تعلم أن محملنا ثقيل	وأن دبار كبتنا[٣] شديد
وإنا ليس حي من معد	يقاومنا إذا لبس الحديد

فلما عاد الحارث الأعرج غزا بني تغلب، فاقتتلوا واشتد القتال بينهم، ثم انهزم الحارث وبنو غسان وقتل أخو الحارث في عدد كثير، فقال عمرو بن كلثوم:

هلا عطفت على أخيك إذا دعا	بالثكل ويل أبيك يا ابن أبي شمر
فذق الذي جشمت نفسك واعترف	فيها أخاك وعامر بن أبي حجر

(١) الجدد: المستوى من الأرض.
(٢) الثمد: الماء القليل.
(٣) الكبة: الجماعة من الناس.

يوم عين أباغ

وهو بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث الأعرج بن أبي شمر جبلة، وقيل: أبو شمر عمرو بن جبلة بن الحرث بن حجر بن النعمان بن الحرث الأيهم بن الحرث ابن مارية الغساني، وقيل في نسبه غير ذلك، وقيل: هو أزدي تغلب على غسان، والأول أكثر وأصح، وهو الذي طلب أدراع امرىء القيس من السموأل بن عادياء وقتل ابنه، وقيل: غيره، والله أعلم.

وسبب ذلك أن المنذر بن ماء السماء ملك العرب سار من الحيرة في معد كلها حتى نزل بعين أباغ بذات الخيار وأرسل إلى الحارث الأعرج بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر الغساني ملك العرب بالشام: أما أن تعطيني الفدية فأنصرف عنك بجنودي، وإما أن تأذن بحرب.

فأرسل إليه الحارث: أنظرنا ننظر في أمرنا. فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل إليه يقول له: إنا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر، وإذا فني أولادنا خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك. فتعاهدا على ذلك، فعمد المنذر إلى رجل من شجعان أصحابه فأمره أن يخرج فيقف بين الصفين ويظهر أنه ابن المنذر، فلما خرج أخرج إليه الحارث ابنه أبا كرب، فلما رآه رجع إلى أبيه وقال: إن هذا ليس بابن المنذر إنما هو عبده أو بعض شجعان أصحابه.

فقال: يابني أجزعت من الموت؟ ما كان الشيخ ليغدر.

فعاد إليه وقاتله فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدي المنذر، وعاد فأمر الحارث ابنًا له آخر بقتاله والطلب بثأر أخيه، فخرج إليه، فلما واقفه رجع إلى أبيه وقال: يا أبت هذا والله عبد المنذر.

فقال: يا بني ما كان الشيخ ليغدر.

فعاد إليه فشد عليه فقتله.

فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي، وكانت أمه غسانية، وهو مع المنذر، قال: أيها الملك إن الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام، وقد غدرت بابن عمك

دفعتين، فغضب المنذر وأمر بإخراجه، فلحق بعسكر الحارث فأخبره، فقال له: سل حاجتك.

فقال له: حلتك وخلتك. فلما كان الغد عبى الحارث أصحابه وحرضهم، وكان في أربعين ألفًا، واصطفوا للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل المنذر وهزمت جيوشه، فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العدلين، وجعل المنذر فوقهما فرداً وقال: يا لعلاوة دون العدلين! فذهبت مثلاً.

وسار إلى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها وبني الغريين عليهما في قول بعضهم، وفي ذلك اليوم يقول ابن أبي الرعلاء الضبابي:

كما تركنا بالعين عين أباغ	من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرتهم سحائب الموت تترى	إن في الموت راحة الأشقياء
ليس من مات فاستراح بميت	إنما الميت ميت الأحياء



يوم مرج حليمة وقتل المنذر بن المنذر بن ماء السماء

لما قتل المنذر بن ماء السماء، على ما تقدم، ملك بعده ابنه المنذر وتلقب الأسود، فلما استقر وثبت قدمه جمع عساكره وسار إلى الحارث الأعرج طالبًا بثأر أبيه عنده، وبعث إليه: إنني قد أعددت لك الكهول، على الفحول. فأجابه الحارث: قد أعددت لك المرد على الجرد.

فسار المنذر حتى نزل بمرج حليمة، فتركه من به من غسان للأسود، وإنما سمي مرج حليمة بحليمة ابنة الحارث الغساني، وسنذكر خبرها عند الفراغ من هذا اليوم.

ثم إن الحارث سار فنزل بالمرج أيضًا، فأمر أهل القرى التي في المرج أن يصنعوا الطعام لعسكره، ففعلوا ذلك وحملوه في الجفان وتركوه في العسكر، فكان الرجل يقاتل فإذا أراد الطعام جاء إلى تلك الجفان فأكل منها. فأقامت الحرب بين الأسود والحارث أيامًا لم ينتصف بعضهم من بعض. فلما رأى الحارث ذلك قعد في قصره ودعا ابنته هندًا وأمرها فاتخذت طيبًا كثيرًا في الجفان وطيبت به أصحابه، ثم نادى: يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي هندًا.

فقال لبيد بن عمرو الغساني لأبيه: يا أبت أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة، ولست أرضى فرسي فأعطني فرسك الزيتية. فأعطاه فرسه.

فلما زحف الناس واقتتلوا ساعةً شد لبيد على الأسود فضربه ضربة فألقاه عن فرسه وانهزم أصحابه في كل وجه، ونزل فاحتز رأسه وأقبل به إلى الحارث وهو على قصره ينظر إليهم، فألقى الرأس بين يديه. فقال له الحارث: شأنك بابنة عمك فقد زوجتكها.

فقال: بل أنصرف فأواسي أصحابي بنفسي فإذا انصرف الناس انصرفت.

فرجع فصادف أخاه الأسود قد رجع إليه الناس وهو يقاتل وقد اشتدت نكايته، فتقدم لبيد فقاتل فقتل، ولم يقتل في هذه الحروب بعد تلك الهزيمة غيره، وانهزمت لخم هزيمة ثانيةً وقتلوا في كل وجه، وانصرفت غسان بأحسن ظفر.

وذكر أن الغبار في هذا اليوم اشتد وكثر حتى ستر الشمس وحتى ظهرت الكواكب المتباعدة عن مطالع الشمس لكثرة العساكر، لأن الأسود سار بعرب العراق

أجمع، وسار الحارث بعرب الشام أجمع، وهذا اليوم من أشهر أيام العرب، وقد فخر به بعض شعراء غسان فقال:

يوم وادي حليمة وازدلفنا ... بالعناجيج والرماح الظماء[1]

إذ شحنا أكفنا من رقاق ... رق من وقعها سنا السحناء[2]

وأتت هند بالخلوق إلى من ... كان ذا نجدة وفضل غناء

ونصبنا الجفان في ساحة المر ... ج فملنا إلى جفان ملاء

وقيل في قتله غير ما تقدم، ونحن نذكره، قال بعض العلماء: وكان سببه أن الحارث بن أبي شمر جبلة بن الحارث الأعرج الغساني خطب إلى المنذر بن المنذر اللخمي ابنته وقصد انقطاع الحرب بين لخم وغسان، فزوجه المنذر ابنته هندًا، وكانت لا تريد الرجال، فصنعت بجلدها شبيهًا بالبرص وقالت لأبيها: أنا على هذه الحالة وتهديني لملك غسان؟

فندم على تزويجها فأمسكها. ثم إن الحارث أرسل يطلبها فمنعها أبوها واعتل عليه، ثم إن المنذر خرج غازيًا، فبعث الحارث بن أبي شمر جيشًا إلى الحيرة فانتهبها وأحرقها. فانصرف المنذر من غزاته لما بلغه من الخبر، فسار يريد غسان، وبلغ الخبر الحارث فجمع أصحابه وقومه فسار بهم فتوافقوا بعين أباغ فاصطفوا للقتال فاقتتلوا واشتد الأمر بين الطائفتين، فحملت ميمنة المنذر على ميسرة الحارث، وفيها ابنه فقتلوه، وانهزمت الميسرة، وحملت ميمنة الحارث على ميسرة المنذر فانهزم من بها وقتل مقدمتها فروة بن مسعود بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وحملت غسان من القلب على المنذر فقتلوه وانهزم أصحابه في كل وجه، فقتل منهم بشر كثير وأسر خلق كثير، منهم من بني تميم ثم من بني حنظلة مائة أسير، منهم شأس ابن عبدة، فوفد أخوه علقمة بن عبدة الشاعر على الحارث يطلب إليه أن يطلق أخاه، ومدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشاب عصر حان مشيب

تكلفني ليلى وقد شط أهلها ... وعادت عواد بيننا وخطوب

---

(١) العناجيج: جياد الركاب.

(٢) السحناء: بشرة الوجه.

يقول فيها:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب
وخالد من غسان أهل حفاظها ... وهندوناس ما صنعت يشيب
تخشخش أبدان الحديد عليهم ... كما خشخشت يبس الحصاد جنوب[1]
فلم تنج إلا شطبة بلجامها ... وإلا طمر كالقناة نجيب[2]
وإلا كمي ذو حفاظ كأنه ... بما ابتل من حد الظبات خضيب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة ... فحق لشأس من نداك ذنوب
فلا تحرمني نائلاً عن جناية ... فإني امرؤ وسط القباب غريب

فلما بلغ إلى قوله: (فحق لشأس من نداك ذنوب)، قال الملك: إي والله وأذنبة، ثم أطلق شأسًا وقال له: إن شئت الحباء وإن شئت أسراء قومك. وقال لجلسائه: إن اختار الحباء على قومه فلا خير فيه.

فقال: أيها الملك ما كنت لأختار على قومي شيئًا.

فأطلق له الأسرى من تميم وكساه وحباه، وفعل ذلك بالأسرى جميعهم وزودهم زادًا كثيرًا. فلما بلغوا بلادهم أعطوا جميع ذلك لشأس وقالوا: أنت كنت السبب في إطلاقنا فاستعن بهذا على دهرك، فحصل له مال كثير من إبل وكسوة وغير ذلك.

وقيل في قتله: أنه جمع عسكرًا ضخمًا وسار حتى نزل الشام، وسار ملك الشام ـ وهو عند الأكثر ـ الحارث بن أبي شمر، فنزل مرج حليمة، وهو ينسب إلى حليمة بنت الملك، ونزل الملك اللخمي في مرج الصفر، فسير الحارث فارسين طليعة، أحدهما فارس خصاف، وكانت فرسه تجري على ثلاث فلا تلحق، فسارا حتى خالطا القوم وقربا من الملك وأمامه شمعة فقتلا حاملها. ففزع القوم فاضطربوا

(١) الخشخشة: حركة لها صوت كصوت السلاح.
(٢) الشطبة: سعف النخل، والطمر الثوب البالي.

بأسيافهم فقتل بعضهم بعضًا حتى أصبحوا، وأتاهم رسل الحارث ملك غسان يبذل الصلح والإتاوة وقال: إني باعث رؤوس القبائل لتقرير الحال، وندب أصحابه، فانتدب له مائة غلام، وقيل: ثمانون غلامًا، فألبسهم السلاح وأمر ابنته حليمة أن تطيبهم وتلبسهم، ففعلت. فلما أمر بها لبيد بن عمرو فارس الزيتية قبلها، فأتت أباها باكيةً، فقال: هو أسد القوم ولئن سلم لأنكحنه إياك، وأمره على القوم وساروا، فلما قاربوا العسكر العراقي جمع الملك رؤوس أصحابه. وجاء الغسانيون وعليهم السلاح قد لبسوا فوقها الثياب والبرانس، فلما تتاموا عند الملك أبدوا السلاح فقتلوا من وجدوا، وقتل لبيد بن عمرو ملك العراقيين وأحيط بالغسانيين فقتلوا إلا لبيد بن عمرو، فإن فرسه لم تبرح، فاستوى عليها، وعاد فأخبر الملك، فقال له: قد أنكحتك ابنتي حليمة. فقال: لا يتحدث الناس أني فلّ مائة.

ثم عاد إلى القوم فقاتل فقتل. وتفقد أهل العراق أشرافهم وإذا بهم قد قتلوا فضعفت نفوسهم لذلك وزحفت إليهم غسان فانهزموا.

قلت: قد اختلف النسابون وأهل السير في مدة الأيام وتقديم بعضها على بعض، واختلفوا أيضًا في المقتول فيها، فمنهم من يقول: إن يوم حليمة هو اليوم الذي قتل فيه المنذر بن ماء السماء، ويوم أباغ هو اليوم الذي قتل فيه المنذر بن المنذر، ومنهم من يقول بضد ذلك، ومنهم من يجعل اليومين واحدًا فيقول: لم يقتل إلا المنذر بن ماء السماء. وأما ابنه المنذر فمات بالحيرة، وقيل: إن المقتول من ملوك الحيرة غيرهما، فالصحيح أن المقتول هو المنذر بن ماء السماء لا شك فيه، وأما ابنه ففيه خلاف كثير، والأصح أنه لم يقتل، ومن أثبت قتله اختلفوا في سببه، على ما ذكرناه.

وإنما ذكرت اختلافهم والحادثة واحدة لأن كل سبب منها قد ذكره بعض العلماء، فمتى تركنا أحدهما ظن من ليس له معرفة أن كل سبب منها حادث مستقل. وقد أهملناه، فأتينا بهما جميعًا لذلك ونبهنا عليه.

* * *

ذكر قتل مضرط الحجارة

وهو عمرو بن المنذر بن ماء السماء اللخمي صاحب الحيرة، وكان يلقب «مضرط الحجارة» لشدة ملكه وقوة سياسته، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو المقصور بن آكل المرار، وهي عمة امرىء القيس بن حجر بن الحارث، وكان سبب قتله أنه قال يومًا لجلسائه: هل تعلمون أن أحدًا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟

قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمه ليلى بنت مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب وائل، وزوجها كلثوم، وابنها عمرو.

فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويأمر أن تزور أمه ليلى أم نفسه هنداً بنت الحارث. فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب ومعه أمه ليلى، فنزل على شاطئ الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعامًا ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السردق، وجلس هو وعمرو ابن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق، ولأمه هند قبة في جانب السرادق، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة، وقد قال مضرط الحجارة لأمه: إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فنحي خدمك عنك، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء، ففعلت هند ما أمرها به ابنها، فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى: ناوليني هذا الطبق. فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فألحت عليها. فقالت ليلى: وا ذلاه يا آل تغلب.

فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق، وليس هناك سيف غيره، فأخذه ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله، وخرج فنادى: يا آل تغلب! فانتهبوا ماله وخيله وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة، فقال أفنون التغلبي:

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم ليلى أمه بموفق

فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتًا ... وأمسك من ندمانه بالمخنق

يوم الكلاب الأول

قال ابن الكلبي: أول من اشتد ملكه من كندة حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي، فلما هلك ملك بعده ابنه عمرو مثل ملك أبيه فسمي المقصور لأنه قصر على ملك أبيه، فتزوج عمرو أم أياس بنت عوف بن محلم الشيباني، فولدت له الحارث، فملك بعد أبيه أربعين سنة، وقيل: ستين سنة، فخرج يتصيد فرأى عانة وهي حمر الوحش، فشد عليها، فانفرد منها حمار، فتتبعه وأقسم أن لا يأكل شيئًا قبل كبده وهو بمسحلان، فطلبته الخيل ثلاثة أيام حتى أدركته، فأتي به وقد كاد يموت من الجوع، فشوي على النار وأطعم من كبده وهي حارة فمات، وكان الحارث فرق بنيه في قبائل معد، فجعل حجرًا في بني أسد وكنانة، وهو أكبر ولده، وجعل شرحبيل في بكر بن وائل وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وبني أسيد بن عمرو بن تميم، والرباب، وجعل سلمة، وهو أصغرهم، في بني تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة بن تميم، وجعل ابنه معد يكرب، ويعرف بغلفاء، في قيس عيلان، وقد تقدم هذا في قتل حجر أبي امرئ القيس، وإنما أعدناه ههنا للحاجة إليه.

فلما هلك الحارث تشتت أمر أولاده وتفرقت كلمتهم ومشى بينهم الرجال، وكانت المغاورة بين الأحياء الذين معهم، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف إليه بالجيوش. فسار شرحبيل فيمن معه من الجيوش فنزل الكلاب، وهو ماء بين البصرة والكوفة. وأقبل سلمة فيمن معه وفي الصنائع أيضًا، وهم قوم كانوا مع الملوك من شذاذ العرب، فأقبلوا إلى الكلاب وعلى تغلب السفاح بن خالد بن كعب بن زهير، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وثبت بعضهم لبعض. فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم خذلت بنو حنظلة وعمرو ابن تميم والرباب بكر بن وائل وانهزموا، وثبتت بكر وانصرفت بنو سعد ومن معها عن تغلب وصبرت تغلب، ونادى منادي شرحبيل: من أتاني برأس سلمة فله مائة من الإبل، ونادى منادي سلمة: من أتاني برأس شرحبيل فله مائة من الإبل. فاشتد القتال حينئذ كل يطلب أن يظفر لعله يصل إلى قتل أحد الرجلين ليأخذ مائة من الإبل، فكانت الغلبة آخر النهار لتغلب وسلمة، ومضى شرحبيل منهزمًا، فتبعه ذو السنينة التغلبي، فالتفت إليه شرحبيل فضربه على ركبته

فأطن رجله[١]، وكان ذو السنينة أخا أبي حنش لأمه، فقال لأخيه: قتلني الرجل! وهلك ذو السنينة! فقال أبو حنش لشرحبيل: قتلني الله إن لم أقتلك! وحمل عليه فأدركه، فقال: يا أبا حنش اللبن اللبن! يعني الدية.

فقال: قد هرقت لبنًا كثيرًا! فقال: يا أبا حنش أملكًا بسوقة؟ فقال: إن أخي ملكي. فطعنه فألقاه عن فرسه ونزل إليه فأخذ رأسه وبعث به إلى سلمة مع ابن عم له، فأتاه به وألقاه بين يديه، فقال سلمة: لو كنت ألقيته أرفق من هذا! وعرفت الندامة في وجه سلمة والجزع عليه. فهرب أبو حنش منه، فقال سلمة:

ألا أبلغ أبا حنش رسولاً ... فما لك لا تجيء إلى الثواب؟

لتعلم أن خير الناس طرًا ... قتيل بين أحجار الكلاب

تداعت حوله جشم بن بكر ... وأسلمه جعاسيس الرباب[٢]

فأجابه أبو حنش فقال:

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو ... حباء أبيك يوم ضبيعات

وكانت غدرة شنعاء تهفو ... تقلدها أبوك إلى الممات

وكان سبب ضبيعات أن ابنًا للحرث كان مسترضعًا في تميم وبكر ولدغته حية فمات، فأخذ خمسين رجلاً من تميم وخمسين رجلاً من بكر فقتلهم به. ولما قتل شرحبيل قام بنو زيد مناة بن تميم دون أهله وعياله فمنعوهم وحالوا بين الناس وبينهم حتى ألحقوهم بقومهم ومأمنهم، ولما بلغ خبر قتله أخاه معد يكرب، وهو غلفاء، قال يرثيه:

إن جنبي عن الفراش لنابي ... كتجافي الأسرّ فوق الظراب[٣]

من حديث نمى إليّ فما تر ... قأ عيني ولا أسيغ شرابي

مرة كالذعاف أكتمها النا ... س على حر ملة كالشهاب[٤]

من شرحبيل إذا تعاوره الأر ... ماح من بعد لذة وشباب

---

(١) أي: ضربها فأسرع قطعها.

(٢) الجعاسيس: جمع جعسوس، وهو اللئيم القبيح.

(٣) الأسر، داء يصيب البعير. والظراب: الجبال الصغار.

(٤) الذعاف: سم قاتل.

يا ابن أمي ولو شهدتك إذ تد ... عو تميمًا وأنت غير مجاب

ثم طاعنت من ورائك حتى ... يبلغ الرحب أو تبز ثيابي

أحسنت وائل وعادتها الإحـ ... ـسان بالحنو يوم ضرب الرقاب

يوم فرت بنو تميم وولت ... خيلهم يتقين بالأذناب

وهي طويلة، ثم إن تغلب أخرجوا سلمة من بينهم فلجأ إلى بكر بن وائل وانضم إليهم، ولحقت تغلب بالمنذر بن امرئ القيس اللخمي.

يوم أوارة الأول

وهو يوم كان بين المنذر بن امرئ القيس وبين بكر بن وائل وكان سببه أن تغلب لما أخرجت سلمة بن الحارث عنها التجأ إلى بكر بن وائل، كما ذكرناه آنفًا، فلما صار عند بكر أذعنت له وحشدت عليه وقالوا: لا يملكنا غيرك، فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته، فأبوا ذلك، فحلف المنذر ليسيرن إليهم فإن ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض. وسار إليهم في جموعه، فالتقوا بأوارة فاقتتلوا قتالاً شديداً وأجلت الواقعة عن هزيمة بكر وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي، فأمر المنذر بقتله، فقتل، وقتل في المعركة بشر كثير، وأسر المنذر من بكر أسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل أوارة، فجعل الدم يجمد. فقيل له: أبيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه الأرض لم تبلغ دماؤهم الحضيض! ولكن لو صببت عليه الماء! ففعل فسال الدم إلى الحضيض، وأمر النساء أن يحرقن بالنار وكان رجل من قيس بن ثعلبة منقطعًا إلى المنذر، فكلمه في سبي بكر بن وائل، فأطلقهن المنذر، فقال الأعشى يفتخر بشفاعة القيسي إلى المنذر في بكر:

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه ... على فاقة وللملوك هباتها

سبايا بني شيبان يوم أوارة ... على النار إذ تجلى له فتياتها

يوم أوارة الثاني

كان عمرو بن المنذر اللخمي قد ترك ابنًا له اسمه أسعد عند زرارة بن عدس التميمي، فلما ترعرع مرت به ناقة سمينة فعبث بها فرمى ضرعها فشد عليه ربها

سويد أحد بني عبد الله بن دارم التميمي فقتله. وهرب فلحق بمكة فحالف قريشًا. وكان عمرو بن المنذر غزا قبل ذلك ومعه زرارة فأخفق، فلما كان حيال جبلي طيء قال له زرارة: أي ملك إذا غزا لم يرجع ولم يصب، فمل على طيء فإنك بحيالها، فمال إليهم فأسر وقتل وغنم، فكانت في صدور طيء على زرارة، فلما قتل سويد أسعد، وزرارة يومئذ عند عمرو، فقال له عمرو بن ملقط الطائي يحرض عمرًا على زرارة:

من مبلغ عمراً بأن الـ ... ـمرء لم يخلق صباره

ها إن عجزة أمه ... بالسفح أسفل من أواره

فاقتل زرارة لا أرى ... في القوم أوفى من زراره

فقال عمرو: يا زرارة ما تقول؟ قال كذبت، قد علمت عداوتهم فيك. قال: صدقت.

فلما جن الليل سار زرارة مجداً إلى قومه ولم يلبث أن مرض. فلما حضرته الوفاة قال لابنه: يا حاجب ضم إليك غلمتي في بني نهشل. وقال لابن أخيه عمرو ابن عمرو: عليك بعمرو بن ملقط فإنه حرض علي الملك. فقال له: يا عماه لقد أسندت إلي أبعدهما شقة وأشدهما شوكة.

فلما مات زرارة تهيأ عمرو بن عمرو في جمع وغزا طيئًا فأصاب الطريفين: طريف بن مالك، وطريف بن عمرو، وقتل الملاقط، فقال علقمة بن عبدة في ذلك:

ونحن جلبنا من ضرية خيلنا ... نجنبها حد الأكام قطاقطا

أصبنا الطريف والطريف بن مالك ... وكان شفاء الواصبين الملاقطا

فلما بلغ عمرو بن المنذر وفاة زرارة غزا بني دارم، وقد كان حلف ليقتلن منهم مائة، فسار يطلبهم حتى بلغ أوارة، وقد أنذروا به فتفرقوا. فأقام مكانه وبث سراياه فيهم، فأتوه بتسعة وتسعين رجلاً سوى من قتلوه في غاراتهم فقتلهم، فجاء رجل من البراجم شاعر ليمدحه فأخذه ليقتله ليتم مائة، ثم قال: إن الشقي وافد البراجم! فذهبت مثلاً، وقيل: إنه نذر أن يحرقهم فلذلك سمي محرقًا، فأحرق منهم تسعة

وتسعين رجلاً واجتاز رجل من البراجم فشم قتار اللجم[١] فظن أن الملك يتخذ طعامًا فقصده. فقال: من أنت؟ فقال: أبيت اللعن أنا وافد البراجم. فقال: إن الشقي وافد البراجم، ثم أمر به فقذف في النار، فقال جرير للفرزدق:

أين الذين بنار عمرو أحرقوا ... أم أين أسعد فيكم المسترضع

وصارت تميم بعد ذلك يعيرون بحب الأكل لطمع البرجمي في الأكل فقال بعضهم:

إذا ما مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجيء بزاد

بخبز أو بلحم أو بتمر ... أو الشيء الملفف في البجاد[٢]

تراه ينقب البطحاء حولاً ... ليأكل رأس لقمان بن عاد

قيل: دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية: ما الشيء الملفف في البجاد يا أبا بحر؟ قال: السخينة[٣] يا أمير المؤمنين.

والسخينة طعام تعير به قريش كما كانت تعير تميم بالملفف في البجاد. قال: فلم ير متمازحان أوقر منهما.

* * *

(١) القتار: ريح القدر. واللجم: لعلها مصحفة من اللحم.
(٢) البجاد: الكساء.
(٣) السخينة: طعام يتخذ من دقيق وسمن.

ذكر قتل زهير بن جذيمة وخالد بن جعفر بن كلاب والحارث بن ظالم المري وذكر يوم الرحرحان

كان زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس العبسي، وهو والد قيس بن زهير صاحب حرب داحس والغبراء، سيد قيس عيلان، فتزوج إليه ملك الحيرة، وهو النعمان بن امرىء القيس جد النعمان بن المنذر لشرفه وسؤدده، فأرسل النعمان إلى زهير يستزيره بعض أولاده، فأرسل ابنه شأسًا وكان أصغر ولده، فأكرمه وحباه، فلما انصرف إلى أبيه كساه حللاً وأعطاه مالاً طيبًا. فخرج شأس يريد قومه فبلغ ماءً من مياه غني بن أعصر فقتله رياح بن الأشل الغنوي وأخذ ما كان معه وهو لايعرفه، وقيل لزهير: إن شأسًا أقبل من عند الملك وكان آخر العهد به بماء من مياه غني. فسار زهير إلى ديار غني، وهم حلفاء في بني عامر بن صعصعة، فاجتمعوا عنده، فسألهم عن ابنه، فحلفوا أنهم لم يعلموا خبره، قال: لكني أعلمه، فقال له أبو عامر: فما الذي يرضيك منا؟ قال: واحدة من ثلاث: إما تحيون ولدي، وإما تسلمون إلي غنيًا حتى أقتلهم بولدي، وإما الحرب بيننا وبينكم ما بقينا وبقيتم.

فقالوا: ما جعلت لنا في هذه مخرجًا، أما إحياء ولدك فلا يقدر عليه إلا الله، وأما تسليم غني إليك فهم يمتنعون مما يمتنع منه الأحرار، وأما الحرب بيننا فوالله إننا لنحب رضاك ونكره سخطك، ولكن إن شئت الدية، وإن شئت تطلب قاتل ابنك فنسلمه إليك أو تهب دمه فإنه لا يضيع في القرابة والجوار.

فقال: لا أفعل إلا ما ذكرت. فلما رأى خالد بن جعفر بن كلاب تعدي زهير على أخواله من غني قال: والله ما رأينا كاليوم تعدي رجل على قومه.

فقال له زهير: فهل لك أن تكون طلبتي عندك وأترك غنيًا؟ قال: نعم، فانصرف زهير وهو يقول:

فلولا كلاب قد أخذت قرينتي ... برد غني أعبداً ومواليًا

ولكن حمتهم عصبة عامرية ... يهزون في الأرض القصار العواليا

مساعير في الهيجا مصاليت في الوغى | أخوهم عـزيز لا يخاف الأعـاديا[١]
يقيـمون في دار الحفـاظ تـكرمًا | إذا ما فُنِيّ القـوم أضـحت خـواليا

ثم إنه أرسل امرأة وأمرها أن تكتم نسبها وأعطاها لحم جزور سمينة وسيرها إلى غني لتبيع اللحم بطيب وتسأل عن حال ولده. فانطلقت المرأة إلى غـني وفعلت ما أمرها، فـانتهت إلى امـرأة رباح بن الأشل وقالت لهـا: قد زوجت بنتًـا لي وأبغي الطيب بهذا اللحم، فأعطتـها طيبًا وحدثتـها بقتل زوجها شأسًـا. فعادت المرأة إلى زهير وأخبـرته، فجمع خيله وجعل يغـير على غني حتى قتل منهم مقـتلة عظيمة، ووقعت الحرب بين بني عبس وبني عامر وعظم الشر.

ثم إن زهيراً خرج في أهل بيته في الشهـر الحرام إلى عكاظ، فالتقى هو وخالد ابن جعفر بن كلاب، فقال له خالد: لقـد طال شرنا منك يا زهير! فقال زهير: أما والله ما دامت لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له[٢]. وكانت هوازن تؤتي زهير بن جذيمة الإتاوة كل سنة بعكاظ، وهو يسومها الخسف، وفي أنفسها منه غيظ وحقد، ثم عاد خـالد وزهير إلى قومـهما، فـسبق خالد إلى بلاد هوازن فـجمع إليه قـومه وندبهم إلى قتال زهيـر، فأجابوه وتأهبوا للحرب وخـرجوا يريدون زهيراً وهم على طريقه، وسـار زهير حتى نزل على أطراف بلاد هوازن، فقـال له ابنه قيس: انج بنا من هذه الأرض فإنا قريب من عدونا.

فقـال له: يا عاجـز وما الذي تخوفنـي به من هوازن وتتقي شرهـا؟ فأنا أعلم الناس بها.

فقـال ابنه: دع عنك اللجاج وأطعني وسـر بنا فإني خـائف عاديتـهم، وكانت تماضر بنت الشـريد بن رياح بن يقظة بن عصـية السلمـية أم ولد زهير وقـد أصاب بعض إخوتهـا دمًا فلحق ببني عامر، وكـان فيهم، فأرسله خـالد عينًا ليأتيه بـخبر زهير، فخرج حتى أتاهم في منزلهـم، فعلم قيس بن زهير حاله وأراد هو وأبوه أن يوثقوه ويأخـذوه معهم إلى أن يخرجـوا من أرض هوازن، فمنعت أختـه، فأخذوا عليه العـهود أن لا يخبر بـهم وأطلقوه فسار إلى خـالد ووقف إلى شجرة يخـبرها الخبر، فركب خالد ومن معه إلى زهير، وهو غير بعيد منهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً،

(١) مساعير: جمع مسعر أي مشعل.
(٢) اي لا انقطاع له.

والتقى خالد وزهير فاقتتلا طويلاً ثم تعانقا فسقطا على الأرض، وشد ورقاء بن زهير على خالد وضربه بسيفه فلم يصنع شيئًا لأنه قد ظاهر بين درعين، وحمل جندح بن البكاء، وهو ابن امرأة خالد، على زهير فقتله، وهو وخالد يعتركان، فثار خالد عنه وعادت هوازن إلى منازلها، وحمل بنو زهير أباهم إلى بلادهم، فقال ورقاء بن زهير في ذلك:

رأيت زهيراً تحت كلكل خالد ... فأقبلت أسعى كالعجول أبادر
إلى بطلين يعتران كلاهما ... يريد رياش السيف والسيف نادر
فشلت يميني يوم أضرب خالداً ... ويمنعه مني الحديد المظاهر
فيا ليت أني قبل أيام خالد ... وقبل زهير لم تلدني تماضر
لعمري لقد بشرت بي إذ ولدتني ... فماذا الذي ردت عليك البشائر
فلا يدعني قومي صريحًا بحرة ... لئن كنت مقتولاً ويسلم عامر
فطر خالد إن كنت تستطيع طيرةً ... ولا تقعا إلا وقلبك حاذر
أتتك المنايا إن بقيت بضربة ... تفارق منها العيش والموت حاضر

وقال خالد يمن على هوازن بقتله زهيراً:

أبلغ هوازن كيف تكفر بعدما ... أعتقتهم فتوالدوا أحرارا
وقتلت ربهم زهيراً بعدما ... جدع الأنوف وأكثر الأوتارا
وجعلت مهر نسائهم ودياتهم ... عقل الملوك هجائنًا وبكارا

وكان زهير سيد غطفان، فعلم خالد أن غطفان ستطلبه بسيدها، فسار إلى النعمان بن امرىء القيس بالحيرة فاستجاره، فأجاره. فضرب له قبة، وجمع بنو زهير لهوازن، فقال الحارث بن ظالم المري: اكفوني حرب هوازن فأنا أكفيكم خالد بن جعفر، وسار الحارث حتى قدم على النعمان فدخل عليه وعنده خالد، وهما يأكلان تمرًا، فأقبل النعمان يسائله، فحسده خالد، فقال للنعمان: أبيت اللعن! هذا رجل لي عنده يد عظيمة، قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها. فقال الحارث: سأجزيك على يدك عندي، وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من بين أصابعه من الغضب، فقال عروة لأخيه خالد: ما أردت بكلامه

وقد عرفته فتاكًا؟ فقال خالد: وما يخوفني منه؟ فوالله لو رآني نائمًا ما أيقظني.

ثم خرج خالد وأخوه إلى قبتهما فشرجاها عليهما، ونام خالد وعروة عند رأسه يحرسه، فلما أظلم الليل انطلق الحارث إلى خالد فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة: لئن تكلمت قتلتك! ثم أيقظ خالداً، فلما استيقظ قال: أتعرفني؟ قال: أنت الحارث. قال: خذ جزاء يدك عندي! وضربه بسيفه المعلوب فقتله، ثم خرج من القبة وركب راحلته وسار، وخرج عروة من القبة يستغيث وأتى باب النعمان فدخل عليه وأخبره الخبر، فبث الرجال في طلب الحارث، قال الحارث: فلما سرت قليلاً خفت أن أكون لم أقتله فعدت متنكراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقنت أنه مقتول وعدت فلحقت بقومي، فقال عبد الله بن جعدة الكلابي:

يا حار لو نبهته لوجدته	لا طائشًا رعشًا ولا معزالاً
شقت عليه الجعفرية جيبها	جزعًا وما تبكي هناك ضلالا
فانعوا أبا بحر بكل مجرب	حران يحسب في القناة هلالا
فليقتلن بخالد سرواتكم	وليجعلن لظالم تمثالا

فأجابه الحارث:

تالله قد نبهته فوجدته	رخو اليدين مواكلاً عسقالاً
فعلوته بالسيف أضرب رأسه	حتى أضل بسلحه السربالا

فجعل النعمان يطلبه ليقتله بجاره، وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها خالد، فلحق بتميم فاستجار بضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم، فأجاره على النعمان وهوازن، فلما علم النعمان ذلك جهز جيشًا إلى بني دارم عليهم ابن الحمس التغلبي، وكان يطلب الحارث بدم أبيه لأنه كان قتله، ثم إن الأحوص بن جعفر أخا خالد جمع بني عامر وسار بهم، فاجتمعوا هم وعسكر النعمان على بني دارم وساروا، فلما صاروا بأدنى مياه بني دارم رأوا امرأة تجني الكمأة ومعها جمل لها، فأخذها رجل من غني وتركها عنده. فلما كان الليل نام فقامت إلى جملها فركبته وسارت حتى صبحت بني دارم وقصدت سيدهم زرارة بن عدس فأخبرته الخبر وقالت: أخذني أمس قوم لا يريدون غيرك ولا أعرفهم.

قال: فصفيهم لي.

قالت: رأيت رجلاً قد سقط حاجباه فهو يرفعهما بخرقة، صغير العينين، وعن أمره يصدرون.

قال: ذاك الأحوص وهو سيد القوم. قالت: ورأيت رجلاً قليل المنطق إذا تكلم اجتمع القوم كما تجتمع الإبل لفحلها، أحسن الناس وجهًا، ومعه ابنان له يلازمانه. قال: ذلك مالك بن جعفر وابناه عامر وطفيل. قالت: ورأيت رجلاً جسيمًا كأن لحيته محمرة معصفرة. قال: ذاك عوف بن الأحوص. قالت: ورأيت رجلاً هلقامًا[١] جسيمًا. قال: ذاك ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب.

قالت: ورأيت رجلاً أسود أخنس قصيراً. قال: ذاك ربيعة بن قرط بن عبد الله ابن أبي بكر. قالت: ورأيت رجلاً أقرن الحاجبين، كثير شعر السبلة[٢]، يسيل لعابه على لحيته إذا تكلم. قال: ذاك جندح بن البكاء. قالت: ورأيت رجلاً صغير العينين ضيق الجبهة يقود فرسًا له معه جفير[٣] لا يفارق يده. قال: ذاك ربيعة بن عقيل بن كعب. قالت: ورأيت رجلاً معه ابنان أصهبان إذا أقبلا رماهما الناس بأبصارهم، فإذا أدبرا كانا كذلك. قال: ذاك الصعق بن عمرو بن خويلد بن نفيل وابناه يزيد وزرعة. قالت: ورأيت رجلاً لا يقول كلمة إلا وهي أحد من شفرة. قال: ذاك عبد الله بن جعدة بن كعب. وأمرها زرارة فدخلت بيتها وأرسل زرارة إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل، ففعلوا. وأمرهم فحملوا الأهل والأثقال وساروا نحو بلاد بغيض، وفرق الرسل في بني مالك بن حنظلة فأتوه، فأخبرهم الخبر وأمرهم، فوجهوا أثقالهم إلى بلاد بغيض، وباتوا معدين، وأصبح بنو عامر وأخبرهم الغنوي حال الظعينة وهربها فسقط في أيديهم واجتمعوا يديرون الرأي، فقال بعضهم: كأني بالظعينة قد أتت قومها فأخبرتهم الخبر، فحذروا وأرسلوا أهليهم وأموالهم إلى بلاد بغيض وباتوا معدين لكم في السلاح فاركبوا بنا في طلب نعمهم وأموالهم فإنهم لا يشعرون حتى نصيب حاجتنا وننصرف. فركبوا يطلبون ظعن بني دارم، فلما أبطأ القوم عن زرارة قال لقومه: إن القوم قد توجهوا إلى ظعنكم وأموالكم فسيروا إليهم. فساروا مجدين فلحقوهم قبل أن يصلوا إلى الظعن

(١) الهلقام: الطويل، وقيل: الضخم الطويل.
(٢) السبلة: الشارب.
(٣) الجفير: الكنانة الواسعة.

والنعم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتلت بنو مالك بن حنظلة بن الحمس التغلبي رئيس جيش النعمان، وأسرت بنو عامر معبد بن زرارة، وصبر بنو دارم حتى انتصف النهار، وأقبل قيس بن زهير فيمن معه من ناحية أخرى، فانهزمت بنو عامر وجيش النعمان وعادوا إلى بلادهم ومعبد أسير مع بني عامر، فبقي معهم حتى مات. وفي تلك الأيام أيضًا مات زرارة بن عدس.

وقيل في استجارة الحارث ببني تميم غير ذلك، وهو أن النعمان طلب شيئًا يغيظ به الحارث بعد قتل خالد وهربه، فقيل له: كان قصد الحيرة ونزل على عياض بن وهب التميمي وهو صديق له، فبعث إليه النعمان فأخذ إبلاً له، فركب الحارث وأتى الحيرة متخفيًا واستنقذ ماله من الرعاة ورده عليه وطلب شيئًا يغيظ به النعمان، فرأى ابنه غضبان فضرب رأسه بالسيف فقتله، وبلغ النعمان الخبر فبعث في طلبه فلم يدركه، فقال الحارث في ذلك:

أخصى حمار بات يكدم نجمةً ... أتؤكل جاراتي وجارك سالم؟

فإن تك أذوادًا أصبت ونسوةً ... فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم

علوت بذي الحيات مفرق رأسه ... ولا يركب المكروه إلا الأكارم

فتكت به كما فتكت بخالد ... وكان سلاحي تحتويه الجماجم

بدأت بتلك وانثنيت بهذه ... وثالثة تبيض منها المقادم

حسبت أبا قابوس أنك مخفري ... ولما تذق ثكلاً وأنفك راغم

كذا قال بعضهم: وقيل: إن المقتول كان شرحبيل بن الأسود بن المنذر، وكان الأسود قد ترك ابنه شرحبيل عند سنان بن أبي حارثة المري ترضعه زوجته. فمن هناك كان لسنان مال كثير، وكان ابنه هرم يعطى منه، فجاء الحارث متخفيًا فاستعار سرج سنان ولا يعلم سنان، ثم أتى امرأة سنان فقال: يقول بعلك ابعثي بشرحبيل ابن الملك مع الحارث بن ظالم حتى يستأمن به ويتخفر به وهذا سرجه علامة. فزينته ودفعته إليه، فأخذه وقتله وهرب، فغزا الأسود بني ذبيان وبني أسد بشط أربل فقتل فيهم قتلاً ذريعًا وسبى واستأصل الأموال وأقسم ليقتلن الحارث، فسار الحارث متخفيًا إلى الحيرة ليفتك بالأسود، فبينما هو في منزله إذ سمع صارخةً تقول: أنا في جوار الحارث بن ظالم، وعرف حالها، وكان الأسود قد أخذ لها صرمةً من الإبل، فقال لها: انطلقي غداً إلى مكان كذا، وأتاه الحارث. فلما

وردت إبل النعمان أخذ مالها فسلمه إليها وفيها ناقة تسمى اللقاع، فقال الحارث في ذلك:

إذا سمعت حنة اللقاع ... فادعي أبا ليلى فنعم الداعي

يمشي بعضب صارم قطاع ... يفري به مجامع الصداع

ثم أقبل يطلب مجيرًا فلم يجره أحد من الناس وقالوا: يجيرك على هوازن والنعمان وقد قتلت ولده؟ فأتى زرارة بن عدس وضمرة بن ضمرة فأجاراه على جميع الناس، ثم إن عمرو بن الأطنابة الخزرجي لما بلغه قتل خالد بن جعفر، وكان صديقًا له، قال: والله لو وجده يقظان ما أقدم عليه، ولوددت أني لقيته.

وبلغ الحارث قوله وقال: والله لآتينه في رحل ولا ألقاه إلا ومعه سلاحه، فبلغ ذلك ابن الأطنابة فقال أبياتًا، منها:

أبلغ الحارث بن ظالم المو ... عد والناذر النذور عليا

إنما تقتل النيام ولا تقـ ... ـتل يقظان ذا سلاح كميا

فبلغ الحارث شعره فسار إلى المدينة وسأل عن منزل ابن الأطنابة، فلما دنا منه نادى: يا ابن الأطنابة أغثني! فأتاه عمرو فقال: من أنت؟ قال: رجل من بني فلان خرجت أريد بني فلان فعرض لي قوم قريبًا منك فأخذوا ما كان معي فاركب معي حتى نستنقذه. فركب معه ولبس سلاحه ومضى معه، فلما أبعد عن منزله عطف عليه وقال: أنائم أنت أم يقظان؟ فقال: يقظان. فقال: أنا أبو ليلى وسيفي المعلوب، فألقى ابن الأطنابة سيفه، وقيل: رمحه، وقال: قد أعجلتني فأمهلني حتى آخذ سيفي. فقال: خذه. قال: أخاف أن تعجلني عن أخذه. قال: لك ذمة ظالم لا أعجلك عن أخذه.

قال: فوذمة الأطنابة لا آخذه! فانصرف الحارث وهو يقول أبياتًا، منها:

بلغتنا مقالة المرء عمرو ... فالتقينا وكان ذاك بديا

فهممنا بقتله إذ برزنا ... ووجدناه ذا سلاح كميا

غير ما نائم يروع بالفتـ ... ـك ولكن مقلدًا مشرفيا

فمننا عليه بعد علو ... بوفاء وكنت قدمًا وفيًا

ثم إن الحارث لما علم أن النعمان قد جد في طلبه وهوازن لا تقعد عن الطلب بثأر خالد خرج متنكراً إلى الشام واستجار بيزيد بن عمرو، فأكرمه وأجاره. وكان ليزيد ناقة محماة في عنقها مدية وزناد وملح ليمتحن بذلك رعيته، فوحمت زوجة الحارث واشتهت شحمًا ولحمًا، فأخذ الحارث الناقة فأدخلها شعبًا فذبحها وحمل إلى امرأته من شحمها ولحمها ورفع منه. وفقدت الناقة فطلبت فوجدت عقيرة بالوادي، فأرسل الملك إلى كاهن فسأله عنها، فذكر له أن الحارث نحرها، فأرسل امرأة بطيب تشتري من لحمها من امرأة الحارث، فأدركها الحارث وقد اشترت اللحم فقتلها ودفنها في البيت. فسأل الملك الكاهن عن المرأة، فقال: قتلتها من نحر الناقة، وإذا كرهت أن تفتش بيته فتأمر الرجل بالرحيل، فإذا رحل فتشت بيته. ففعل ذلك، فلما رحل الحارث فتش الكاهن بيته فوجد المرأة، وأحس الحارث بالشر فعاد إلى الكاهن فقتله، فأخذ الحارث وأحضر عند الملك، فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتني فلا تغدر بي.

فقال: إن غدرت بك مرة واحدة فقد غدرت بي مراراً. فقتله.

* * *

أيام داحس والغبراء وهي بين عبس وذبيان

وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي سار إلى المدينة ليتجهز لقتال عامر والأخذ بثأر أبيه، فأتى أحيحة بن الجلاح يشتري منه درعًا موصوفة. فقال له: لا أبيعها ولولا أن تذمني بنو عامر لوهبتها منك ولكن اشترها بابن لبون. ففعل ذلك وأخذ الدرع، وتسمى «ذات الحواشي»، ووهبه أحيحة أيضًا أدراعًا، وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه. فاجتاز بالربيع بن زياد العبسي فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابه إلى ذلك. فلما أراد فراقه نظر الربيع إلى عيبته فقال: ما في حقيبتك؟ قال: متاع عجيب لو أبصرته لراعك.

وأناخ راحلته، فأخرج الدرع من الحقيبة، فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها، فكانت في طوله. فمنعها من قيس ولم يعطه إياها، وترددت الرسل بينهما في ذلك، ولج قيس في طلبها، ولج الربيع في منعها. فلما طالت الأيام على ذلك سير قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر غرة الربيع، ثم إن الربيع سير إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلأ وأمر أهله فظعنوا وركب فرسه وسار إلى المنزل، فبلغ الخبر قيسًا فسار في أهله وإخوته فعارض ظعائن الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته. فقالت فاطمة أم الربيع: ما تريد يا قيس؟ قال: أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي. قالت: وهي في ضماني وخل عنا، ففعل. فلما جاءت إلى ابنها قالت له في معنى الدرع، فحلف أنه لا يرد الدرع، فأرسلت إلى قيس أعلمته بما قال الربيع، فأغار على نعم الربيع فاستاق منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة فباعها واشترى بها خيلاً، وتبعه الربيع فلم يلحقه، فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء.

وقيل: إن داحسًا كان من خيل بني يربوع، وإن أباه كان أخذ فرسًا لرجل من بني ضبة يقال له أنيف بن جبلة، وكان الفرس يسمى السبط، وكانت أم داحس لليربوعي، فطلب اليربوعي من الضبي أن ينزي فرسه على حجره فلم يفعل. فلما كان الليل عمد اليربوعي إلى فرس الضبي فأخذه فأنزاه على فرسه، فاستيقظ الضبي فلم ير فرسه فنادى في قومه، فأجابوه، وقد تعلق باليربوعي، فأخبرهم الخبر، فغضب ضبة من ذلك، فقال لهم: لا تعجلوا، دونكم نطفة فرسكم فخذوها.

فقال القوم: قد أنصف. فسطا عليها رجل من القوم فدس يده في رحمها فأخذ ما فيها، فلم تزد الفرس إلا لقاحًا فنتجت مهراً فسمي داحسًا بهذا السبب، فكان عند اليربوعي ابنان له، وأغار قيس بن زهير على بني يربوع فنهب وسبى، ورأى الغلامين أحدهما على داحس والآخر على الغبراء فطلبهما فلم يلحقهما، فرجع وفي السبي أم الغلامين وأختان لهما وقد وقع داحس والغبراء في قلبه، وكان ذلك قبل أن يقع بينه وبين الربيع ما وقع. ثم جاء وفد بني يربوع في فداء الأسرى والسبي، فأطلق الجميع إلا أم الغلامين وأختيهما وقال: إن أتاني الغلامان بالمهر والفرس الغبراء وإلا فلا. فامتنع الغلامان من ذلك، فقال شيخ من بني يربوع كان أسيراً عند قيس أبياتًا، وبعث بها إلى الغلامين، وهي:

إن مهراً فدى الرباب وحملا وسعاد الخير مهر أناس
ادفعوا داحسًا بهن سراعًا إنها من فعالها الأكياس
دونها والذي يحج له النا س سبايا يبعن بالأفراس
إن قيسًا يرى الجواد من الخيـ ـل حياة في متلف الأنفاس
يشتري الطرف بالجراجرة[1] الجـ ـلة يعطي عفواً بغير مكاس

فلما انتهت الأبيات إلى بني يربوع قادوا الفرسين إلى قيس وأخذوا النساء.

وقيل: إن قيسًا أنزى داحسًا على فرس له فجاءت بمهرة فسماها الغبراء، ثم إن قيسًا أقام بمكة فكان أهلها يفاخرونه، وكان فخوراً، فقال لهم: نحوا كعبتكم عنا وحرمكم وهاتوا ما شئتم. فقال له عبد الله بن جدعان: إذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فبم نفاخرك؟ فمل قيس مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم، وسر ذلك قريشًا لأنهم قد كانوا كرهوا مفاخرته، فقال لإخوته: ارحلوا بنا من عندهم أولاً وإلا تفاقم الشر بيننا وبينهم، والحقوا ببني بدر فإنهم أكفاؤنا في الحسب، وبنو عمنا في النسب، وأشراف قومنا في الكرم، ومن لا يستطيع الربيع أن يتناولنا معهم. فلحق قيس وإخوته ببني بدر، وقال في مسيره إليهم:

أسير إلى بني بدر بأمر هم فيه علينا بالخيار
فإن قبلوا الجوار فخير قوم وإن كرهوا الجوار فغير عار

---

(١) الجراجرة: يقال: إبل جراجرة أي كثيرة الشرب.

أتينا الحرث الخير بن كعب ... بنجران وأي لجا بجار
فجاورنا الذين إذا أتاهم ... غريب حل في سعة القرار
فيأمن فيهم ويكون منهم ... بمنزلة الشعار من الدثار
وإن نفرد بحرب بني أبينا ... بلا جار فإن الله جاري

ثم نزل ببني بدر، فنزل بحذيفة، فأجاره هو وأخوه حمل بن بدر، وأقام فيهم، وكان معه أفراس له ولإخوته لم يكن في العرب مثلها، وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك في نفسه، وأقام قيس فيهم زمانًا يكرمونه وإخوته، فغضب الربيع ونقم ذلك عليهم وبعث إليهم بهذه الأبيات:

ألا أبلغ بني بدر رسولاً ... على ما كان من شنأ ووتر[1]
بأني لم أزل لكم صديقًا ... أدافع عن فزارة كل أمر
أسالم سلمكم وأرد عنكم ... فوارس أهل نجران وحجر
وكان أبي ابن عمكم زياد ... صفي أبيكم بدر بن عمرو
فألجأتم أخا الغدرات قيسًا ... فقد أفعمتم إيغار صدري
فحسبي من حذيفة ضم قيس ... وكان البدء من حمل بن بدر
فإما تراجعوا أرجع إليكم ... وإن تأبوا فقد أوسعت عذري

فلم يتغيروا عن جوار قيس. فغضب الربيع وغضبت عبس لغضبه، ثم إن حذيفة كره قيسًا وأراد إخراجه عنهم فلم يجد حجة، وعزم قيس على العمرة فقال لأصحابه: إني قد عزمت على العمرة فإياكم أن تلابسوا حذيفة بشيء، واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع فإني قد عرفت الشر في وجهه وليس يقدر على حاجته منكم إلا ان تراهنوه على الخيل ـ وكان ذا رأي لا يخطئ فيما يريده ـ وسار إلى مكة. ثم إن فتىً من عبس يقال له ورد بن مالك أتى حذيفة فجلس إليه، فقال له ورد: لو اتخذت من خيل قيس فحلاً يكون أصلاً لخيلك. فقال حذيفة: خيلي خير من خيل قيس، ولجا في ذلك إلى أن تراهنا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة، والرهن عشرة أذواد وسار ورد فقدم على قيس بمكة فأعلمه الحال،

(١) الشنأ: البغضاء.

فقال له: أراك قد أوقعتني في بني بدر ووقعت معي وحذيفة ظلوم لا تطيب نفسه بحق ونحن لا نقر له بضيم.

ورجع قيس من العمرة، فجمع قومه وركب إلى حذيفة وسأله أن يفك الرهن، فلم يفعل. فسأله جماعة فزارة وعبس فلم يجب إلى ذلك، وقال: إن أقر قيس أن السبق لي وإلا فلا، فقال أبو جعدة الفزاري:

آل بدر دعوا الرهان فإنا ... قد مللنا اللجاج عند الرهان

ودعوا المرء في فزارة جاراً ... إن ما غاب عنكم كالعيان

ليت شعري عن هاشم وحصين ... وابن عوف وحارث وسنان

حين يأتيهم لجاجك قيسًا ... وأي صاح أتيت أم نشوان

وسأل حذيفة إخوته وسادات أصحابه في ترك الرهان ولج فيه، وقال قيس: علام تراهنني؟ قال: على فرسيك داحس والغبراء وفرسي الخطار والحنفاء، وقيل: كان الرهن على فرسي داحس والغبراء. قال قيس: داحس أسرع. وقال حذيفة: الغبراء أسرع، وقال لقيس: أريد أن أعلمك أن بصري بالخيل أثقب من بصرك، والأول أصح.

فقال له قيس: نفس في الغاية وارفع في السبق. فقال حذيفة: الغاية من إبليّ إلى ذات الآصاد، وهو قدر مائة وعشرين غلوة، والسبق مائة بعير، وضمروا الخيل. فلما فرغوا قادوا الخيل إلى الغاية وحشدوا ولبسوا السلاح وتركوا السبق على يد عقال بن مروان بن الحكم القيسي وأعدوا الأمناء على إرسال الخيل، وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد في الطريق وأمره أن يلقي داحسًا في وادي ذات الآصاد إن مر به سابقًا فيرمي به إلى أسفل الوادي، فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقًا بينًا والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة على رأس الغاية في جميع قومهما. فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدي فلطم وجهه فألقاه في الماء، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل. وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة، ثم سقطت الحنفاء وبقي الغبراء والخطار، فكانا إذا أحزنا سبق الخطار وإذا أسهلا سبقت الغبراء. فلما قربا من الناس وهما في وعث من الأرض تقدم الخطار، فقال حذيفة: سبقتك يا قيس. فقال رويدك يعلون الجدد، فذهبت مثلاً. فلما استوت بهما الأرض قال حذيفة:

خدع والله صاحبنا. فقال قيس: ترك الخداع من أجرى من مائة وعشرين: فذهبت مثلاً.

ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة، ثم الحنفاء له أيضًا، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله، فأخبر الغلام قيسًا بما صنع بفرسه، فأنكر حذيفة ذلك وادعى السبق ظُلمًا، وقال: جاء فرساي متتابعتين، ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حبسوا داحسًا واختلفوا، وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسره ذلك وقال لأصحابه: هلك والله قيس، وكأني به إن لم يقتله حذيفة وقد أتاكم يطلب منكم الجوار، أما والله لئن فعل ما لنا من ضمه من بد.

ثم إن الأسدي ندم على حبس داحس فجاء إلى قيس واعترف بما صنع فسبه حذيفة، ثم إن بني بدر قصروا بقيس وإخوته وآذوهم بالكلام، فعاتبهم قيس، فلم يزدادوا إلا بغيًا عليه وبذاءً له، ثم إن قيسًا وحذيفة تناكرا في السبق حتى هَمّا بالمؤاخذة، فمنعهما الناس، وظهر لهم بغي حذيفة وظلمه، ولج في طلب السبق، فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به، فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله وعادت فرسه إلى أبيه.

ونادى قيس: يا بني عبس الرحيل! فرحلوا كلهم، ولما أتت الفرس حذيفة علم أن ولده قتل، فصاح في الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بني عبس فرآها خالية ورأى ابنه قتيلاً، فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه، وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجًا في فزارة وهو نازل فيهم، فأرسل إليه قيس: أني قد قتلت ندبة بن حذيفة ورحلت فالحق بنا وإلا قتلت. فقال: إنما ذنب قيس عليه، ولم يرحل فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العود إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل، فلم يجبه ولم يمنعه، وكان مفكراً في ذلك، ثم إن بني بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس، وكان نازلاً فيهم، فبلغ مقتله بني عبس والربيع بن زياد، فاشتد ذلك عليهم، وأرسل الربيع إلى قيس عينًا يأتيه بخبره، فسمعه يقول:

أينجوا بنو بدر بمقتل مالك	ويخذلنا في النائبات ربيع
وكان زياد قبله يتقى به	من الدهر أن يوم ألم فظيع
فقل لربيع يحتذى فعل شيخه	وما الناس إلا حافظ ومضيع
وإلا فما لي في البلاد إقامة	وأمر بني بدر علي جميع

فرجع الرجل إلى الربيع فأخبره، فبكى الربيع على مالك وقال:

منع الرقاد فما أغمض ساعة ... جزعًا من الخبر العظيم الساري
أفبعد مقتل مالك لمضيعة ... يرجو النساء عواقب الأطهار
من كان محزونًا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه ... ويقمن قبل تبلج الأسحار
يضربن حر وجوهن على فتىً ... ضخم الدسيعة[1] غير ما خوّار
قد كن يكنن الوجوه تستراً ... فاليوم حين برزن للنظار

وهي طويلة.

فسمعها قيس فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه، فنزل إليه قيس وقام الربيع فاعتنقا وبكيا وأظهرا الجزع لمصاب مالك، ولقي القوم بعضهم بعضًا فنزلوا. فقال قيس للربيع: إنه لم يهرب منك من لجأ إليك، ولم يستغن عنك من استعان بك، وقد كان لك شر يومي فليكن لي خير يوميك، وإنما أنا بقومي وقومي بك وقد أصاب القوم مالكًا، ولست أهم بسوء لأني إن حاربت بني بدر نصرتهم بنو ذبيان، وإن حاربتني خذلني بنو عبس إلا أن تجمعهم علي، وأنا والقوم في الدماء سواء، قتلت ابنهم وقتلوا أخي، فإن نصرتني طمعت فيهم، وإن خذلتني طمعوا فيّ.

فقال الربيع: يا قيس إنه لا ينفعني أن أرى لك من الفضل ما لا أراه لي، ولا ينفعك أن ترى لي ما لا أراه لك، وقد مال علي قتل مالك وأنت ظالم ومظلوم، ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم، وقتلوا أخاك بابنهم، فإن يبؤ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك، وأحب الأمرين إلي مسالمتهم ونخلو بحرب هوزان. وبعث قيس إلى أهله وأصحابه، فجاؤوا ونزلوا مع الربيع، وأنشدهم عنترة ابن شداد مرثيته في مالك:

فلله عينا من رأى مثل مالك ... عقيرة قوم إن جرى فرسان
فليتهما لم يطعما الدهر بعدها ... وليتهما لم يجمعا لرهان
وليتهما ماتا جميعًا ببلدة ... وأخطاهما قيس فلا يريان
لقد جلبا جلبًا لمصراع مالك ... وكان كريمًا ماجداً لهجان

---

(١) ضخم الدسيعة: أي واسع العطية. «النهاية» (٢/١١٧).

وكــان إذا مــا كــان يوم كــريهــة فــقــد عــلـمــوا أنــي وهو فــتــيــان
وكنا لدى الهـيـجاء نحـمي نسـاءنا ونضـــــرب عـند الكـرب كل بـنان
فـسوف تـرى إن كنت بعدك بـاقيًا وأمكـنـنـي دهري وطول زمـــــاني
فــأقــسم حـقًــا لو بـقـيت لـنظرة لقــرت بـهــا العــينان حين تراني

وبلغ حذيفة أن الربيع وقيـسًا اتفقا، فشق ذلك عليه واستـعد للبلاء، وقيل: إن بلاد عبس كانت قد أجدبت فانتجع أهلها بلاد فزارة، وأخذ الربيع جواراً من حذيفة وأقام عندهم. فلما بلغه مقتل مالك قال لحذيفة: لي ذمتي ثلاثة أيام. فقال حذيفة: ذلك لك. فانتقل الربيع من بني فزارة. فبلغ ذلك حمل بن بدر فقال لحذيفة أخيه: بئس الرأي رأيت قتلت مالكًا وخليت سبيل الربيع! والله ليضرمنها عليك نارًا!

فركبا في طلب الربيع، ففاتهما، فـعلما أنه قد أضمر الشر واتفق الربيع وقيس، وجمع حذيفـة قومه وتعاقـدوا على عبس، وجمع الربيع وقيس قـومهما واسـتعدوا للحرب، فـأغارت فـزارة على بني عبس فـأصابوا نعـمًا ورجالاً، فـحمـيت عبس واجتمعت للغارة، فنذرت بهم فزارة. فخرجوا إليهم فالتقوا على ماء يقال له العذق، وهي أول وقعة كانت بينهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل عوف بن يزيد، قتله جندب ابن خلف العبسي. وانهزمت فزارة وقتلوا قتلاً ذريعًا، وأسر الربيع بن زياد حذيفة بن بدر، وكان حر بن الحـارث العبسي قد نذر إن قدر على حذيفـة أن يضربه بالسيف، وله سيف قـاطع يسمى الأصـرم، فأراد ضربه بالسـيف لما أسر وفـاء بنذره، فأرسل الربيع إلى امرأته فغيبت سيفه ونهـوه عن قتله وحذروه عاقبة ذلك، فأبى إلا ضربه، فوضعوا عليه الرجال، فضربه، فلم يصنع السيف شيئًا وبقي حذيفة أسيراً فاجتمعت غطفان وسعـوا في الصلح، فاصطلحوا على أن يهدروا دم بدر بن حـذيفة بدم مالك ابن زهير، ويعقلوا عـوف بن بدر، ويعطوا حذيفة عن ضربته التي ضـربه حر مائتين من الإبل، وأن يجعلوها عشارًا كلها، وأربعة أعـبد، وأهدر حذيفة دماء من قتل من فزارة في الوقعة وأطلق من الأسر. فلما رجع إلى قومه ندم على ذلك وساءت مقالته في بني عبس، وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد فمضيا إلى حذيفة وتحدثا معه. فأجابهما إلى الاتفاق وأن يرد عليهـما الإبل التي أخذ منهما، وكانت توالدت عنده. فبينما هم في ذلك إذ جاءهم سنان بن أبي حـارثة المري فقبح رأي حذيفة في الصلح وقال: إن كنت لا بد فاعلاً فاعطهم إبلاً عـجافًا مكان إبلهم واحبس أولادها. فوافق

ذلك رأي حذيفة، فأبى قيس وعمارة ذلك، وقيل: إن الإبل التي طلبوها منه هي إبل كان قد أخذها سبقًا من قيس. وقيل أيضًا: إن مالك بن زهير قتل بعد هذه الوقعة المذكورة، قال حميد بن بدر في ذلك:

قتلنا بعوف مالكًا وهو ثأرنا ومن يبتدع شيئًا سوى الحق يظلم

وجعل سنان يحث حذيفة على الحرب، فتيسروا لها.

ثم إن الأنصار بلغهم ما عزموا عليه، فاتفق جماعة من رؤسائهم، وهم عمرو ابن الأطنابة، ومالك بن عجلان، وأحيحة بن الجلاح، وقيس بن الخطيم، وغيرهم، وساروا ليصلحوا بينهم، فوصلوا إليهم وترددوا في الاتفاق، فلم يجب حذيفة إلى ذلك وظهر لهم بغيه، فحذروه عاقبته وعادوا عنه.

وأغار حذيفة على عبس، وأغارت عبس على فزارة، وتفاقم الشر، وأرسل حذيفة أخاه حملاً فأغار وأسر ريان بن الأسلع بن سفيان وشده وثاقًا وحمله إلى حذيفة فأطلقه ليرهنه ابنيه وجيز بن أخيه عمرو بن الأسلع، ففعل ريان ذلك، ثم سار قيس إلى فزارة فلقي منهم جمعًا فيهم مالك بن بدر، فقتله قيس وانهزمت فزارة، فأخذ حينئذ حذيفة ولدي ريان فقتلهما وهما يستغيثان: يا أبتاه! حتى ماتا، وأما ابن أخيه فمنعه أخواله.

ولما قتل مالك والغلامان اشتدت الحرب بين الفريقين وأكثرها في فزارة ومن معها. ففي بعض الأيام التقوا فاقتتلوا قتالاً شديدًا ودامت الحرب بينهم إلى آخر النهار، وأبصر ريان بن الأسلع زيد بن حذيفة فحمل عليه فقتله، وانهزمت فزارة وذبيان، وأدرك الحارث بن بدر فقتل، ورجعت عبس سالمةً لم يصب منها أحد. فلما قتل زيد والحارث جمع حذيفة جميع بني ذبيان وبعث إلى أشجع وأسد بن خذيمة فجمعهم، فبلغ ذلك بني عبس فضموا أطرافهم، وأشار قيس بن زهير بالسبق إلى ماء العقيقة. ففعلوا ذلك، وسار حذيفة في جموعه إلى عبس، ومشى السفراء بينهم، فحلف حذيفة: أنه لا يصلح حتى يشرب من ماء العقيقة. فأرسل إليه قيس منه في سقاء وقال: لا أترك حذيفة يخدعني. واصطلحوا على أن تعطي بنو عبس حذيفة ديات من قتل له، ووضعوا الرهائن عنده إلى أن يجمعوا الديات، وهي عشر، وكانت الرهائن ابنًا لقيس بن زهير، وابنًا للربيع بن زياد، فوضعوا أحدهما عند قطبة بن سنان والآخر عند رجل من بكر بن وائل أعمى. فعير بعض

الناس حذيفة بقبول الدية، فحضر هو وأخوه حمل عند قطبة بن سنان والبكري وقالا: ادفعا إلينا الغلامين لنكسوهما ونسرحهما إلى أهلهما. فأما قطبة فدفع إليهما الغلام الذي عنده، وهو ابن قيس، وأما البكري فامتنع من تسليم من عنده، فلما أخذا ابن قيس عادا فلقيا في الطريق ابنًا لعمارة بن زياد العبسي وابن عم له، فأخذاهما وقتلاهما مع ابن قيس.

فلما بلغ ذلك بني عبس أخذوا ما كانوا جمعوا من الديات، فحملوا عليه الرجال واشتروا السلاح. ثم خرج قيس في الجماعة فلقوا ابنًا لحذيفة ومعه فوارس من ذبيان فقتلوهم. فجمع حذيفة وسار إلى عبس، وهو على ماء يقال له عراعر، فاقتتلوا، فكان الظفر لفزارة ورجعت سالمة. وجد حذيفة في الحرب وكرهها أخوه حمل وندم على ما كان، وقال لأخيه في الصلح فلم يجب إلى ذلك، وجمع الجموع من أسد وذبيان وسائر بطون غطفان وسار نحو بني عبس، فاجتمعت عبس وتشاوروا في أمرهم، فقال لهم قيس بن زهير: إنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به وليس لبني بدر إلا دماؤكم والزيادة عليكم، وأما من سواهم فلا يريدون غير الأموال والغنيمة والرأي أننا نترك الأموال بمكانها ونترك معها فارسين على داحس وعلى فرس آخر جواد ونرحل نحن ونكون على مرحلة من المال، فإذا جاء القوم إلى الأموال سار إلينا الفارسان فأعلمانا وصولهم، فإن القوم يشتغلون بالنهب وحيازة الأموال، وإن نهاهم ذوو الرأي عن ذلك فإن العامة تخالفهم وتنتقض تعبيتهم ويشتغل كل إنسان بحفظ ما غنم ويعلقون أسلحتهم على ظهور الإبل ويأمنون. فنعود نحن إليهم عند وصول الفارسين فندركهم وهم على حال تفرق وتشتت فلا يكون لأحدهم همة إلا نفسه، ففعلوا ذلك وجاء حذيفة ومن معه فاشتغلوا بالنهب، فنهاهم حذيفة وغيره فلم يقبلوا منه، وكانوا على الحال الذي وصف قيس. وعادت بنو عبس وقد تفرقت أسد وغيرهم، وبقي بنو فزارة في آخر الناس، فحملوا عليهم من جوانبهم فقتل مالك بن سبيع التغلبي سيد غطفان، وانهزمت فزارة وحذيفة معهم وانفرد في خمسة فوارس وجدّ في الهرب. وبلغ خبره بني عبس، فتبعه قيس بن زهير والربيع بن زياد وقرواش بن عمرو بن الأسلع وريان بن الأسلع الذي قتل حذيفة ابنيه، وتبعوا أثرهم في الليل وقال قيس: كأني بالقوم وقد وردوا جفر[1] الهباءة ونزلوا فيه، فساروا ليلتهم كلها حتى أدركوهم مع

---

(١) الجفر: البئر الواسعة. «اللسان» (١٤٣/٤).

طلوع الشمس في جفر الهباءة في الماء، وقد أرسلوا خيولهم فأخذوا بجمعها، فحال قيس وأصحابه بينهم وبينها، وكان مع حذيفة في الجفر أخوه حمل بن بدر وابنه حصن بن حذيفة وغيرهم. فهجم عليهم قيس والربيع ومن معهما وهم ينادون: لبيكم لبيكم! يعني أنهم يجيبون نداء الصبيان لما قتلوا ينادون: يا أبتاه! فقال لهم قيس: يا بني بكر كيف رأيتم عاقبة البغي؟ فناشدوهم الله والرحم، فلم يقبلوا منهم. ودار قرواش بن عمرو حتى وقف خلف حذيفة فضربه فدق صلبه، وكان قرواش قد رباه حذيفة حتى كبر عنده في بيته، وقتلوا حملاً أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه. وكان عدد من قتل في هذه الوقعة من فزارة وأسد وغطفان ما يزيد على أربعمائة قتيل، وقتل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلاً، وكانت فزارة تسمي هذه الوقعة البوار، وقال قيس بن زهير:

أقام على الهباءة خير ميت	وأكرمه حذيفة لا يريم
لقد فجعت به قيس جميعًا	موالي القوم والقوم الصميم
وعم به لمقتله بعيد	وخص به لمقتله حميم

وهي طويلة، وقال أيضًا:

ألم تر أن خير الناس أمسى	على جفر الهباءة لا يريم
فلولا ظلمه ما زلت أبكي	عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر	بغى والبغي مرتعه وخيم

وأكثروا القول في يوم الهباءة.

ثم إن عبسًا ندمت على ما فعلت يوم الهباءة، ولام بعضهم بعضًا، فاجتمعت فزارة إلى سنان بن أبي حارثة المري وشكوا إليه ما نزل بهم، فأعظمه وذم عبسًا وعزم على أن يجمع العرب ويأخذ بثأر بني بدر وفزارة وبث رسله. فاجتمع من العرب خلق كثير لا يحصون، ونهى أصحابه عن التعرض إلى الأموال والغنيمة وأمرهم بالصبر، وساروا إلى بني عبس. فلما بلغهم مسيرهم إليهم قال قيس: الرأي أننا لا نلقاهم، فإننا قد وترناهم فهم يطالبوننا بالذحول والطوائل[1]، وقد

---

(١) الذحول: جمع ذحل، وهو الثأر. والطوائل بمعناها.

رأوا ما نالهم بالأمس باشتغالهم بالنهب والمال فهم لا يتعرضون إليه الآن، والذي ينبغي أن نفعله أننا نرسل الظعائن والأموال إلى بني عامر، فإن الدم لنا قبلهم فهم لا يتعرضون لكم ويبقى أولو القوة والجلد على ظهور الخيل ونماطلهم القتال، فإن أبوا إلا القتال كنا قد أحرزنا أهلينا وأموالنا وقاتلناهم وصبرنا لهم، فإن ظفرنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد احترزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية، ففعلوا ذلك، وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بني عبس على ذات الجراجر فاقتتلوا قتالاً شديداً يومهم ذلك وافترقوا.

فلما كان الغد عادوا إلى اللقاء فاقتتلوا أشد من اليوم الأول، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنترة بن شداد. فلما رأى الناس شدة القتال وكثرة القتلى لاموا سنان ابن أبي حارثة على منعه حذيفة عن الصلح وتطيروا منه وأشاروا عليه بحقن الدماء ومراجعة السلم، فلم يفعل وأراد مراجعة الحرب في اليوم الثالث. فلما رأى فتور أصحابه وركونهم إلى السلم رحل عائداً. فلما عاد عنهم رحل قيس وبنو عبس إلى بني شيبان بن بكر وجاوروهم وبقوا معهم مدة، فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأخذ أموالهم فرحلوا عنهم، فتبعهم جمع من شيبان، فلقيتهم بنو عبس واقتتلوا، فانهزمت شيبان وسارت عبس إلى هجر ليحالفوا ملكهم، وهو معاوية بن الحارث الكندي، فعزم معاوية على الغارة عليهم ليلاً، فبلغهم الخبر فساروا عنه مجدين، وسار معاوية مجداً في أثرهم، فتاه بهم الدليل على عمد لئلا يدركوا عبساً إلا وهم قد لحقهم ودوابهم النصب، فأدركوهم بالفروق[1] فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم معاوية وأهل هجر وتبعتهم عبس فأخذت من أموالهم وقتلوا منهم ما أرادوا ورجعوا سائرين فنزلوا بماء يقال له «عرعر» عليه حي من كلب، فركبوا ليقاتلوا بني عبس، فبرز الربيع وطلب رئيسهم، فبرز إليه، واسمه مسعود بن مصاد. فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض، وأراد مسعود قتل الربيع، فانحسرت البيضة عن رقبته، فرماه رجل من بني عبس بسهم فقتله، فثار به الربيع فقطع رأسه، وحملت عبس على كلب والرأس على رمح فانهزمت كلب وغنمت عبس أموالهم وذراريهم، فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بني حنيفة وأقاموا ثلاث سنين، فلم يحسنوا جوارهم وضيقوا عليهم فساروا عنهم، وقد تفرق كثير منهم وقتل منهم

---

(١) الفروق: عقبة دون هجر إلى نجد «معجم البلدان» (٤/ ٢٥٨).

وهلكت دوابهم ووترهم العرب فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ليستعينوا بهم على حرب تميم، ففعلوا وجاوروهم.

فلما انقضى الأمر بين ضبة وتميم تغيرت ضبة لعبس وأرادوا اقتطاعهم، فحاربتهم عبس فظفرت وغنمت من أموال ضبة وسارت إلى بني عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب، فسر بهم ليقوى بهم على حرب بني تميم لأنه كان بلغه أن لقيط بن زرارة يريد غزو بني عامر والأخذ بثأر أخيه معبد، فأقامت عبس عند بني عامر، فقصدتهم تميم، وكانت وقعة شعب جبلة، وسنذكره إن شاء الله.

ثم إن ذبيان غزوا بني عامر بن صعصعة وفيهم بنو عبس فاقتتلوا، فهزمت عامر وأسر قرواش بن هني العبسي ولم يعرف، فلما قدموا به الحي عرفته امرأة منهم، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله. ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتيم الرباب، فبغت تيم عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً وتكاثرت عليهم تيم فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة. ورحلت عبس وقد ملت الحرب وقلت الرجال والأموال وهلكت المواشي، فقال لهم قيس: ما ترون؟ قالوا: نرجع إلى إخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم.

فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وقيل: على هروم بن سنان بن أبي حارثة ليلاً، وكان عند حصن بن حذيفة بن بدر. فلما عاد ورآهم رحب بهم وقال: من القوم؟

قالوا: إخوانك بنو عبس، وذكروا حاجتهم. فقال: نعم وكرامة أعلم حصن بن حذيفة. فعاد إليه وقال: طرقت في حاجة، قال: أعطيتها. قال بنو عبس: وجدت وفودهم في منزلي. قال حصن: صالحوا قومكم، وأما أنا فلا أدي ولا أتدي، قد قتل آبائي وعمومتي عشرين من عبس، فعاد إلى عبس وأخبرهم بقول حصن وأخذهم إليه، فلما رآهم قال قيس والربيع بن زياد: نحن ركبان الموت. قال: بل ركبان السلم، إن تكونوا اختللتم إلى قومكم فقد اختل قومكم إليكم. ثم خرج معهم حتى أتوا سنانًا فقال له: قم بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإني سأعينك. ففعل ذلك وتم الصلح بينهم وعادت عبس.

وقيل: إن قيس بن زهير لم يسر مع عبس إلى ذبيان وقال: لا تراني غطفانية أبدًا وقد قتلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها، ولكني سأتوب إلى ربي.

فتنصر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فترهب بها زمانًا، فلقيه حوج ابن مالك العبدي فعرفه فقتله وقال: لا رحمني الله إن رحمتك. وقيل: إن قيسًا تزوج في النمير بن قاسط لما عادت عبس إلى ذبيان، وولد له ولد اسمه فضالة، فقدم على النبي ﷺ وعقد له على من معه من قومه، وكانوا تسعة وهو عاشرهم.
انقضى حرب داحس والغبراء، والحمد لله.



يوم شِعب جبلة

كان لقيط بن زرارة قد عـزم على غزو بني عامر بن صعصعة للأخـذ بثأر أخيه معبد بن زرارة ـ وقد ذكـرنا موته عندهم أسيراً ـ فبينما هو يتجـهز أتاه الخبر بحلف بني عبس وبني عامر، فلم يطمع فـي القوم وأرسل إلى كل من كان بينه وبين عبس ذحل يسأله الحلف والتظافـر على غزو عبس وعامر. فـاجتمعت إليـه أسد وغطفان وعمرو بن الجون ومعاوية بن الجون واستوثقـوا واستكثروا وساروا، فعقد معاوية بن الجون الألوية، فكان بنو أسد وبنو فـزارة بلواء مع معاوية بن الجون، وعقـد لعمرو ابن تميم مع حاجب بن زرارة وعقد للرباب مع حسان بن هـمام، وعقد لجماعة من بطون تميم مع عمرو بن عدس، وعقد لحنظلة بأسرها مع لقيط بن زرارة، وكان مع لقيط ابنته دختنوس، وكان يغزو بها معه ويرجع إلى رأيها. وساروا في جمع عظيم لا يشكون في قـتل عبس وعـامر وإدراك ثأرهم. فلقي لقـيط في طريقه كـرب بن صفوان بن الحباب السعدي، وكان شريفًا، فقال: ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا؟

قال: أنا مـشغـول في طلب إبل لي. قال: لا بل تريد أن تنذر بـنا القوم، ولا أتركك حتى تحلف أنك لا تخبرهم.

فحلف له، ثم سار عنه وهو مغـضب. فلما دنا من عامر أخذ خرقة فـصر فيها حنظلة وشوكًا وترابًا وخرقتين من يمانية وخرقـة حمراء وعشرة أحجار سود ثم رمى بها حـيث يسقون ولم يتكلم. فـأخذها معاوية بن قـشير، فأتى بهـا الأحوص بن جعفر وأخبره أن رجلاً ألقاها وهم يسقون.

فقال الأحـوص لقيس بن زهير العبسي: مـا ترى في هذا الأمر؟ قال: هذا من صنع الله لنا، هذا رجل قد أخذ عليه عهد على أن لا يكلمكم فأخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب، وأن شوكتهم شديدة، وأما الحنظلة فهي رؤساء القوم، وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيـان من اليمن معهم، وأما الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زرارة، وأما الأحجار فهي عشر ليـال يأتيكم القوم إليها، قد أنذرتكم فكونوا أحراراً فاصبروا كما يصبر الأحرار الكرام.

قال الأحوص: فـإنا فاعلون وآخذون برأيك، فـإنه لم تنزل بك شدة إلا رأيت

المخرج منها. قال: فإذ قد رجعتم إلى رأيي فادخلوا نعمكم شعب جبلة ثم اظمئوها هذه الأيام ولا توردوها الماء، فإذا جاء القوم أخرجوا عليهم الإبل وانخسوها بالسيوف والرماح فتخرج مذاعير عطاشًا فتشغلهم وتفرق جمعهم واخرجوا أنتم في آثارها واشفوا نفوسكم.

ففعلوا ما أشار به وعاد كرب بن صفوان فلقي لقيطًا فقال له: أنذرت القوم؟ فأعاد الحلف له أنه لم يكلم أحدًا منهم، فخلى عنه. فقالت دختنوس ابنة لقيط لأبيها: ردني إلى أهلي ولا تعرضني لعبس وعامر فقد أنذرهم لا محالة.

فاستحمقها وساءه كلامها وردها. وسار حتى نزل على فم الشعب بعساكر جرارة كثيرة الصواهل وليس لهم هم إلا الماء، فقصدوه. فقال لهم قيس: أخرجوا عليهم الآن الإبل، ففعلوا ذلك، فخرجت الإبل مذاعير عطاشًا وهم في أعراضها وأدبارها، فخبطت تميمًا ومن معها وقطعتهم، وكانوا في الشعب، وأبرزتهم إلى الصحراء على غير تعبية. وشغلوا عن الاجتماع إلى ألويتهم، وحملت عليهم عبس وعامر فاقتتلوا قتالاً شديدًا وكثرت القتلى في تميم، وكان أول من قتل من رؤسائهم عمرو بن الجون، وأسر معاوية بن الجون وعمرو بن عمرو بن عدس زوج دختنوس بنت لقيط، وأسر حاجب بن زرارة، وانحاز لقيط بن زرارة، فدعا قومه وقد تفرقوا عنه، فاجتمع إليه نفر يسير، فتحرز برايته فوق جرف ثم حمل فقتل فيهم ورجع وصاح: أنا لقيط، وحمل ثانية فقتل وجرح وعاد، فكثر جمعه، فانحط الجرف بفرسه، وحمل عليه عنترة فطعنه طعنة قصم بها صلبه، وضربه قيس بالسيف فألقاه متشحطًا في دمه، فذكر ابنته دختنوس فقال:

يا ليت شعري عنك دختنوس ... إذا أتاها الخبر المرموس[1]

أتحلق القرون أم تميس ... لا بل تميس إنها عروس[2]

ثم مات وتمت الهزيمة على تميم وغطفان، ثم فدوا حاجبًا بخمسمائة من الإبل، وفدوا عمرو بن عمرو بمائتين من الإبل وعاد من سلم إلى أهله. وقالت دختنوس ترثي أباها قصائد، منها:

عثر الأغر بخير خنـ ... ـدف كهلها وشبابها

وأضرها لعدوها ... وأفكها لرقابها

(١) المرموس: كل ما نثر عليه التراب فهو مرموس، والمراد الخبر الخفي.

(٢) تميس: تميل.

وقريعها ونجيبها في المطبقات ونابها
ورئيسها عند الملو ك وزين يوم خطابها
وأتمها نسبًا إذا رجعت إلى أنسابها
فرعى عمودًا للعشيـ ـرة رافعًا لنصابها
ويعولها ويحوطها ويذب عن أحسابها
ويطأ مواطن للعدو وكان لا يمشى بها
فعل المدل من الأسو د لحينها وتبابها
كالكوكب الدري في سماء لا يخفى بها
عبث الأغر به وكـ ـل منية لكتابها
فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
وهوازن أصحابهم كالفأر في أذنابها

وذكر محمد بن إسحاق في يوم جبلة غير ما ذكرنا، قال: كان سببه أن بني خندف كان لهم على قيس أكل تأكله القعدد[1] من خندف، فكان ينتقل فيهم حتى انتهى إلى تميم، ثم من تميم إلى بني عمرو بن تميم، وهم أقل بطنًا منهم وأذله، فأبت قيس أن تعطي الأكل وامتنعت منه، فجمعت تميم وحالفت غيرها من العرب وساروا إلى قيس، فذكر القصة نحو ما تقدم وخالف في البعض فلا حاجة إلى ذكره.

وفي هذا اليوم ولد عامر بن الطفيل العامري.

وقد قال بعض العلماء إن المجوسية كان يدين بها بعض العرب بالبحرين، وكان زرارة بن عدس وابناه حاجب ولقيط والأقرع بن حابس وغيرهم مجوسًا، وأن لقيطًا تزوج ابنته دختنوس وسماها بهذا الاسم الفارسي، وأنه قتل وهي تحته، فقال في ذلك:

يا ليت شعري عنك دختنوس الأبيات. والأول أصح، والله أعلم.

* * *

(١) القعدد: الجبان اللئيم، القاعد عن الحرب والمكارم.

يوم ذات نَكِيف(١)

كان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة مبغضين لقريش مضطغنين عليهم(٢) ما كان من قصي حين أخرجهم من مكة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها رباعًا وخططًا بين قريش. فلما كانوا على عهد عبد المطلب هموا بإخرج قريش من الحرم وأن يقاتلوهم حتى يغلبوهم عليه. وعدت بنو بكر على نعم لبني الهون بن خزيمة فاطردوها، ثم جمعوا جموعهم وجمعت قريش جموعهم واستعدت، وعقد عبدالمطلب الحلف بين قريش والأحابيش، وهم بنو الحرث بن عبد مناة وبنو الهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة، فلقوا بني بكر ومن انضم إليهم، وعلى الناس عبد المطلب، فاقتتلوا بذات نكيف، فانهزم بنو بكر وقتلوا قتلاً ذريعًا فلم يعودوا لحرب قريش قال ابن شعلة الفهري:

فلله عينًا من رأى من عصابة ... غوت غَيَّ بكر يوم ذات نَكيف

أناخوا إلى أبنائنا ونسائنا ... فكانوا لنا ضيفًا بشر مضيف

فقتل يومئذ عبد بن السفاح القاريء من القارة قتادة بن قيس أخا بلعاء بن قيس، واسم بلعاء مساحق. ويومئذ قيل: قد انصف القارة من راماها، والقارة من ولد الهون بن خزيمة، وهو من ولد عضل بن الديش، قال رجل منهم:

دعونا قارة لا تنفرونا ... فنجفل مثل أجفال الظليم(٣)

وقيل بهذا البيت سموا قارة، وكان يقال للقارة رماة الحدق.

* * *

(١) ذو نكيف: موضع من ناحية يلملم من نواحي مكة. «معجم البلدان» (٥/٣٠٣).

(٢) مضطغنين: يقال: تضاغن القوم، واضطغنوا. أي انطووا على الأحقاد.

(٣) نجفل: نسرع هاربين.

ذكر الفُجَّار الأول والثاني

أما الفجار الأول فلم يكن فيه كثير أمر ليذكر، وإنما ذكرناه لئلا يرى ذكر الفجار الثاني وما كان فيه من الأمور العظيمة فيظن أن الأول مثله وقد أهملناه، فلهذا ذكرناه. قال ابن اسحاق: كان الفجار الأول بين قريش ومن معها من كنانة كلها وبين قيس عيلان.

وسببه أن رجلاً من كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوزان، فأعدم الكناني، فوافى النصري سوق عكاظ بقرد وقال: من يبيعني مثل هذا بما لي على فلان الكناني؟ فعل ذلك تعييرًا للكناني وقومه، فمر به رجل من كنانة فضرب القرد بالسيف فقتله أنفة مما قال النصري، فصرخ النصري في قيس، وصرخ الكناني في كنانة، فاجتمع الناس وتحاوروا حتى كاد يكون بينهم القتال ثم اصطلحوا.

وقيل: كان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر وهي وضيئة عليها برقع، فقالوا لها: اسفري لننظر إلى وجهك، فلم تفعل. فقام غلام منهم فشك ذيل درعها إلى ظهرها ولم تشعر، فلما قامت انكشفت دبرها، فضحكوا وقالوا: منعتينا النظر إلى وجهك فقد نظرنا إلى دبرك. فصاحت المرأة: يا بني عامر فُضِحْتُ.

فأتاها الناس واشتجروا حتى كاد يكون قتال، ثم رأوا أن الأمر يسير فاصطلحوا.

وقيل: بل قعد رجل من بني غفار يقال له معشر بن مكرز، وكان عارمًا منيعًا في نفسه، وكان بسوق عكاظ، فمد رجله ثم قال:

نحن بنو مدركة بن خِندف ... من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يغطرف[1] ... كأنه لجة بحر مسرف

أنا والله أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف. فقام رجل من قيس يقال له أحمر بن مازن فضربها بالسيف فخدشها خدشًا غير كثير، فاختصم الناس ثم اصطلحوا. - بنو نصر بالنون -.

وأما الفجار الثاني، وكان بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب

---

(١) غطرف: ساد.

باثنتي عشرة سنة، ولم يكن في أيام العرب أشهر منه ولا أعظم، وإنما سمي الفجار لما استحل الحيان كنانة وقيس فيه من المحارم، وكان قبله يوم جبلة، وهو مذكور في أيام العرب، والفجار أعظم منه، وكان سببه أن البرّاض بن قيس بن رافع الكناني ثم الضمري وكان رجلاً فاتكًا خليعًا قد خلعه قومه لكثرة شره، وكان يضرب المثل بفتكه فيقال: أفتك من البرّاض. قال بعضهم:

والفتى من تعرفته الليالي ... فهو فيها كالحية النضناض[1]

كل يوم له بصرف الليالي ... فتكة مثل فتكة البرّاض

فخرج حتى قدم على النعمان بن المنذر، وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة[2] للتجارة إلى عكاظ تباع له هناك، وكان عكاظ وذو المجاز ومجنة أسواقًا تجتمع بها العرب كل عام إذا حضر الموسم فيأمن بعضهم بعضًا حتى تنقضي أيامها، وكانت مجنة بالظهران، وكانت عكاظ بين نخلة والطائف، وكان ذو المجاز بالجانب الأيسر إذا وقفت على الموقف، فقال النعمان، وعنده البراض وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب المعروف بالرحال ـ وإنما قيل له ذلك لكثرة رحلته إلى الملوك :ـ

من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟

فقال البراض: أبيت اللعن أنا أجيزها، على كنانة. فقال النعمان: إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس! فقال عروة: أكلب خليع يجيزها لك ـ أبيت اللعن ـ أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد. فقال البراض ـ وغضب ـ: وعلى كنانة تجيزها يا عروة؟ قال عروة: وعلى الناس كلهم.

فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها، وخرج البراض يتبع أثره، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه، حتى إذا كان عروة بين ظهري قومه بواد يقال له تيمن بنواحي فدك أدركه البرّاض بن قيس فأخرج قداحه يستقسم بها في قتل عروة، فمر به عروة فقال: ما تصنع يا براض؟ فقال: أستقسم في قتلك أيؤذن لي أم لا؟ فقال عروة: استك أضيق من ذلك! فوثب إليه البراض بالسيف فقتله. فلما رآه الذين يقومون على العير والأحمال قتيلاً انهزموا، فاستاق البراض العير وسار على وجهه إلى خيبر، وتبعه رجلان من قيس ليأخذاه، أحدهما غنوي والآخر

---

(١) الحية النضناض: التي تحرك لسانها.

(٢) اللطيمة: الجمال التي تحمل العطر والثياب غير الميرة. «النهاية» (٤/ ٢٥١).

غطفاني، واسم الغنوي أسد بن جوين، واسم الغطفاني مساور بن مالك، فلقيهما البراض بخيبر أول الناس فقال لهما: من الرجلان؟ قالا: من قيس قدمنا لنقتل البراض. فأنزلهما وعقل راحلتيهما، ثم قال أيكما أجرأ عليه وأجود سيفًا؟ قال الغطفاني: أنا. فأخذه ومشى معه ليدله بزعمه على البراض، فقال للغنوي: احفظ راحلتيكما، ففعل، وانطلق البراض بالغطفاني حتى أخرجه إلى خربة في جانب خيبر خارجًا من البيوت، فقال للغطفاني: هو في هذه الخربة إليها يأوي فأمهلني حتى انظر أهو فيها. فوقف ودخل البراض ثم خرج فقال: هو فيها وهو نائم، فأرني سيفك حتى أنظر إليه أضارب هو أم لا.

فأعطاه سيفه، فضربه به حتى قتله ثم أخفى السيف وعاد إلى الغنوي فقال له: لم أر رجلاً أجبن من صاحبك، تركته في البيت الذي فيه البراض وهو نائم فلم يقدم عليه. فقال: انظر لي من يحفظ الراحلتين حتى أمضي إليه فأقتله، فقال: دعهما وهما عليّ، ثم انطلقا إلى الخربة، فقتله وسار بالعير إلى مكة، فلقي رجلاً من بني أسد بن خزيمة، فقال له البرّاض: هل لك إلى أن أجعل لك جُعْلاً[1] على أن تنطلق إلى حَرْب بن أمية وقومي فإنهم قومي وقومك، لأن أسد بن خزيمة من خندف أيضًا، فتخبرهم أن البراض بن قيس قتل عروة الرحال، فليحذروا قيسًا! وجعل له عشراً من الإبل. فخرج الأسدي حتى أتى عكاظ وبها جماعة من الناس، فأتى حرب بن أمية فأخبره الخبر، فبعث إلى عبدالله بن جدعان التيمي وإلى هشام ابن المغيرة المخزومي، وهو والد أبي جهل، وهما من أشراف قريش وذوي السن منهم، وإلى كل قبيلة من قريش أحضر منها رجلاً، وإلى الحليس بن يزيد الحرثي، وهو سيد الأحابيش، فأخبرهم أيضًا. فتشاوروا وقالوا: نخشى من قيس أن يطلبوا ثأر صاحبهم منا فإنهم لا يرضون أن يقتلوا به خليعًا من بني ضمرة.

فاتفق رأيهم على أن يأتوا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب مُلاعب الأسنة، وهو يومئذ سيد قيس وشريفها، فيقولوا له: إنه قد كان حدث بين نجد وتهامة وإنه لم يأتنا علمه فأجز بين الناس حتى تعلم وتعلم فأتوه، وقالوا له ذلك، فأجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له، ثم قام نفر من قريش فقالوا: يا أهل عكاظ إنه قد حدث في قومنا بمكة حدث أتانا خبره ونخشى إن تخلّفنا عنهم أن يتفاقم الشر فلا يروعنكم تحملنا. ثم ركبوا على الصعب والذلول إلى مكة. فلما

---

(١) الجعل: العطاء.

كان آخر اليوم أتى عامر بن مالك ملاعب الأسنة الخبر فقال: غدرت قريش وخدعني حرب بن أمية، والله لا تنزل كنانة عكاظ أبدًا. ثم ركبوا في طلبهم حتى أدركوهم بنخلة فاقتتل القوم، فاشتعلت قريش فكادت قريش تنهزم إلا أنها على حاميتها تبادر دخول الحرم ليأمنوا به. فلم يزالوا كذلك حتى دخلوا الحرم مع الليل، وكان رسول الله ﷺ معهم، وعمره عشرون سنة.

وقال الزهري: لم يكن معهم، ولو كان معهم لم ينهزموا.

وهذه العلة ليست بشيء لأنه قد كان بعد الوحي والرسالة ينهزم أصحابه ويقتلون وإذا كان في جمع قبل الرسالة وانهزموا فغير بعيد.

ولما دخلت قريش الحرم عادت عنهم قيس وقالوا لهم: يا معشر قريش إنا لا نترك دم عروة وميعادنا عكاظ في العام المقبل، وانصرفت إلى بلادها يحرض بعضها بعضًا ويبكون عروة الرحال.

ثم إن قيسًا جمعت جموعها، ومعها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها، منهم كنانة جميعها والأحابيش وأسد بن خزيمة، وفرقت قريش السلاح في الناس، فأعطى عبد الله بن جدعان مائة رجل سلاحًا تامًّا، وفعل الباقون مثله. وخرجت قريش للموعد على كل بطن منها رئيس، فكان على بني هاشم الزبير ابن عبدالمطلب ومعه رسول الله ﷺ وإخوته أبو طالب وحمزة والعباس بنو عبدالمطلب، وعلى بني أمية وأحلافها حرب بن أمية، وعلى بني عبد الدار عكرمة ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وعلى بني أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد، ، وعلى بني مخزوم هشام بن المغيرة أبو أبي جهل، وعلى بني تيم عبد الله ابن جدعان، وعلى بني جمح معمر بن خبيب بن وهب، وعلى بني سهم العاص ابن وائل، وعلى بني عدي زيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد، وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد شمس والد سهيل بن عمرو، وعلى بني فهر عبد الله ابن الجراح والد أبي عبيدة، وعلى الأحابيش الحليس بن يزيد وسفيان بن عويف هما قائداهم.

والأحابيش بنو الحرث بن عبد مناة كنانة وعضل والقارة والديش من بني الهون ابن خزيمة والمصطلق بن خزاعة، وسموا بذلك لحلفهم بني الحرث، والتحبش والتجمع، وعلى بني بكر بلعاء بن قيس، وعلى بني فراس بن غنم من كنانة عمير

ابن قيس جذل الطعان، وعلى بني أسد بن خزيمة بشر بن أبي حازم، وكان على جماعة الناس حرب بن أمية لمكانه من عبد مناف سنًّا ومنزلة.

وكانت قيس قد تقدمت إلى عكاظ قبل قريش، فعلى بني عامر ملاعب الأسنة أبو براء وعلى بني نصر وسعد وثقيف سبيع بن ربيع بن معاوية، وعلى بني جشم الصمة والد دريد، وعلى غطفان عوف بن أبي حارثة المري، وعلى بني سليم عباس بن زعل بن هني بن أنس، وعلى فهم وعدوان كدام بن عمرو.

وسارت قريش حتى نزلت عكاظ وبها قيس. وكان مع حرب بن أمية إخوته سفيان وأبو سفيان والعاص وأبو العاص بنو أمية، فعقل حرب نفسه وقيد سفيان وأبو العاص نفسيهما وقالوا: لن يبرح رجل منا من مكانه حتى نموت أو نظفر، فيومئذ سموا العنابس، والعنبس الأسد. واقتتل الناس قتالاً شديدًا، فكان الظفر أول النهار لقيس، وانهزم كثير من بني كنانة وقريش. فانهزم بنو زهرة وبنو عدي، وقتل معمر بن خبيب الجمحي، وانهزمت طائفة من بني فراس، وثبت حرب بن أمية وبنو عبد مناف وسائر قبائل قريش، ولم يزل الظفر لقيس على قريش وكنانة إلى أن انتصف النهار. ثم عاد الظفر لقريش وكنانة فقتلوا من قيس فأكثروا، وحمي القتال واشتد الأمر فقتل يومئذ تحت راية بني الحرث بن عبد مناة بن كنانة مائة رجل وهم صابرون، فانهزمت قيس، وقتل من أشرافهم عباس بن زعل السلمي وغيره. فلما رأى أبو السيد عم مالك بن عوف النصري ما تصنع كنانة من القتل نادى: يا معشر بني كنانة أسرفتم في القتل. فقال ابن جدعان: أنا معشر يسرف، ولما رأى سبيع بن ربيع بن معاوية هزيمة قبائل قيس عقل نفسه واضطجع وقال: يا معشر بني نصر: قاتلوا عني أو ذروا. فعطفت عليه بنو نصر وجشم وسعد بن بكر وفهم وعدوان وانهزم باقي قبائل قيس، فقاتل هؤلاء أشد قتال رآه الناس. ثم إنهم تداعوا إلى الصلح فاصطلحوا على أن يعدوا القتلى فأي الفريقين فضل له قتلى أخذ ديتهم من الفريق الآخر، فتعادوا القتلى فوجدوا قريشًا وبني كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلاً، فرهن حرب بن أمية يومئذ ابنه أبا سفيان في ديات القوم حتى يؤديها، ورهن غيره من الرؤساء، وانصرف الناس بعضهم عن بعض ووضعوا الحرب وهدموا ما بينهم من العداوة والشر وتعاهدوا على أن لا يؤذي بعضهم بعضًا فيما كان من أمر البرّاض وعروة.

يوم ذي نجب

وكان من حديث يوم ذي نجب أن بني عامر لما أصابوا من تميم ما أصابوا يوم جبلة رجوا أن يستأصلوهم، فكاتبوا حسان بن كبشة الكندي، وكان ملكًا من ملوك كندة، وهو حسان بن معاوية بن حجر فدعوه إلى أن يغزو معهم بني حنظلة من تميم، فأخبروه أنهم قد قتلوا فرسانهم ورؤساءهم، فأقبل معهم بصنائعه ومن كان معه. فلما أتى بني حنظلة خبر مسيرهم قال لهم عمرو بن عمرو: يا بني مالك إنه لا طاقة لكم بهذا الملك وما معه من العدد فانتقلوا من مكانكم.

وكانوا في أعالي الوادي مما يلي مجيء القوم، وكانت بنو يربوع بأسفله، فتحولت بنو مالك حتى نزلت خلف بني يربوع، وصارت بنو يربوع تلي الملك فلما رأوا ما صنع بنو مالك استعدوا وتقدموا إلى طريق الملك. فلما كان وجه الصبح وصل ابن كبشة فيمن معه وقد استعد القوم فاقتتلوا فلما رآهم بنو مالك وصبرهم في القتال ساروا إليهم وشهدوا معهم القتال فاقتتلوا مليًّا فضرب جشيش بن نمران الرياحي بن كبشة الملك على رأسه فصرعه، فمات، وقتل عبيدة بن مالك بن جعفر، وانهزم طفيل بن مالك على فرسه قرزل، وقتل عمرو بن الأحوص بن جعفر وكان رئيس عامر، وانهزم بنو عامر وصنائع ابن كبشة. قال جرير في الإسلام يذكر اليوم بذي نجب:

بذي نجب ذدنا وواكل مالك ... أخًا لم يكن عند الطعان بواكل

وكان يوم ذي نجب بعد يوم جبلة بسنة. وبقي الأحوص بعد ابنه عمرو يسيراً وهلك أسفًا عليه.

يوم نعف قشاوة

وهو يوم لشيبان على تميم.

قال أبو عبيدة: أغار بسطام بن قيس على بني يربوع من تميم وهو بنعف قشاوة، فأتاهم ضحى، وهو يوم ريح ومطر، فوافق النعم حين سرح، فأخذه كله ثم كر راجعًا، وتداعت عليه بني يربوع فلحقوه وفيهم عمارة بن عتيبة بن الحارث بن

شهاب، فكّر عليه بسطام فقتله، ولحقهم مالك بن حطان اليربوعي فقتله، وأتاهم أيضًا بجير بن أبي مُليل فقتله بسطام، وقتلوا من يربوع جمعًا وأسروا آخرين، منهم: مليل بن أبي مليل، وسلموا وعادوا غانمين. فقال بعض الأسرى لبسطام: أيسرك أن أبا مليل مكاني؟ قال: نعم. قال: فإن دللتك عليه أتطلقني الآن؟ قال: نعم. قال: فإن ابنه بجيراً كان أحب خلق الله إليه وستجده الآن منكبًا عليه يقبله فخذه أسيراً. فعاد بسطام فرآه كما قال، فأخذه أسيراً وأطلق اليربوعي. فقال له أبو مليل: قتلت بجيراً وأسرتني وابني مليلاً! والله لا أطعم الطعام أبدًا وأنا موثق. فخشي بسطام أن يموت فأطلقه بغير فداء على أن يفادي مليلاً وعلى أن لا يتبعه بدم ابنه بجير ولا يبغيه غائلة ولا يدل له على عورة ولا يغير عليه ولا على قومه أبدًا، وعاهده على ذلك، فأطلقه وجز ناصيته، فرجع إلى قومه وأراد الغدر ببسطام والنكث به، فأرسل بعض بني يربوع إلى بسطام بخبره فحذره، وقال متمم بن نويرة:

أبلغ شهاب بني بكر وسيدها ... عني بذاك أبا الصهباء بسطامًا
أروي الأسنة من قومي فأنهلها ... فأصبحوا في بقيع الأرض نواما
لا يطبقون إذا هب النيام ولا ... في مرقد يحلمون الدهر أحلامًا
أشجي تميم بن مر لا مكايدة ... حتى استعادوا له أسرى وأنعاما
هلا أسيراً فادتك النفس تطعمه ... مما أراد وقدمًا كنت مطعاما

وهي أبيات عدة.

يوم الغبيط

وهو يوم كانت الحرب فيه بين بني شيبان وتميم، وأسر فيه بسطام بن قيس الشيباني، وسبب ذلك أن بسطام بن قيس والحوفزان بن شريك ومفروق بن عمرو ساروا في جمع من بني شيبان إلى بلاد تميم فأغاروا على ثعلبة بن يربوع وثعلبة بن سعد بن ضبة وثعلبة بن عدي بن فزارة وثعلبة بن سعد بن ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فلج، فاقتتلوا، فانهزمت الثعالبة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغنم بنو شيبان أموالهم، ومروا على بني مالك بن حنظلة من تميم، وهم بين صحراء فلج

وغبيط المدرة فاستاقوا إبلهم. فركبت إليهم بنو مالك يقدمهم عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وفرسان بني يربوع، وساروا في أثر بني شيبان ومعه من رؤساء تميم الأحيمر بن عبد الله وأسيد بن جباة وحر بن سعد ومالك بن نويرة فأدركوهم بغبيط المدرة فقاتلوهم. وصبر الفريقان، ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم ما كانوا غنموه من أموالهم، وقتلت بنو شيبان أبا مرحب ربيعة بن حصية، وألح عتيبة بن الحارث على بسطام بن قيس فأدركه فقال له: استأسر أبا الصهباء فأنّا خير لك من الفلاة والعطش، فاستأسر له بسطام بن قيس. فقال بنو ثعلبة لعتيبة: إن أبا مرحب قد قتل وقد أسرت بسطامًا وهو قاتل مليل وبجير ابني أبي مليل ومالك بن حطان وغيرهم فاقتله. قال: إني معيل وأنا أحب اللبن. قالوا: إنك تفاديه فيعود فيحربنا مالنا، فأبى عليهم وسار به إلى بني عامر بن صعصعة لئلا يؤخذ فيقتل، وإنما قصد عامرًا لأن عمته خولة بنت شهاب كانت ناكحًا فيهم، فقال مالك بن نويرة في ذلك:

لله عتاب بن مية إذ رأى ... إلى ثأرنا في كفه يتلدد
أتحيي امرءًا أردى بجيرًا ومالكًا ... وأتوى حريثًا بعدما كان يقصد
ونحن ثأرنا قبل ذاك ابن أمه ... غداة الكلابيين والجمع يشهد

فلما توسط عتيبة بيوت بني عامر صاح بسطام: وا شيباناه! ولا شيبان لي اليوم! فبعث إليه عامر بن الطفيل: إن استطعت أن تلجأ إلى قبتي فافعل فإني سأمنعك، وإن لم تستطع فاقذف نفسك في الركا. فأتى عتيبة تابعه من الجن فأخبره بذلك، فأمر ببيته فقوض. فركب فرسه وأخذ سلاحه ثم أتى مجلس بني جعفر، وفيه عامر ابن الطفيل الغنوي، فحياهم وقال: يا عامر قد بلغني الذي أرسلت به إلى بسطام فأنا مخيرك فيه خصالاً ثلاثًا. فقال عامر: وما هي؟ قال: إن شئت فاعطني خلعتك وخلعة أهل بيتك حتى أطلقه لك، فليست خلعتك وخلعة أهل بيتك بشرٍّ من خلعته وخلعة أهل بيته. فقال عامر: هذا لا سبيل إليه. قال عتيبة: ضع رجلك مكان رجله فلست عندي بشر منه. فقال: ما كنت لأفعل. قال عتيبة: تتبعني إذا جاوزت هذه الرابية فتقارعني عنه على الموت. فقال عامر: هذه أبغضهن إلي. فانصرف به عتيبة إلى بني عبيد بن ثعلبة فرأى بسطام مركب أم عتيبة رثًّا فقال: يا عتيبة هذا رحل أمك؟ قال: نعم. قال: ما رأيت رحل أم سيد قط مثل هذا. فقال

عتيبة: واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتني أمك بهودجها، وكان كبيراً ذا ثمن كثير، وهذا الذي أراد بسطام ليرغب فيه فلا يقتله. فأرسل بسطام فأحضر هودج أمه وفادى نفسه بأربعمائة بعير، وقيل بألف بعير، وثلاثين فرسًا وهودج أمه وحدجها وخلص من الأسر. فلما خلص من الأسر أذكى العيون على عتيبة وإبله، فعادت إليه عيونه فأخبروه أنها على أراب، فأغار عليها وأخذ الإبل كلها وما لهم معها.

يوم لشيبان على بني تميم

قال أبو عبيدة: خرج الأقرع بن حابس وأخوه فراس التميميان، وهما الأقرعان، في بني مجاشع من تميم وهما يريدان الغارة على بكر بن وائل ومعهما البروك أبو جعل، فلقيهم بسطام بن قيس الشيباني وعمران بن مرة في بني بكر بن وائل بزبالة فاقتتلوا قتالاً شديداً ظفرت فيه بكر وانهزمت تميم وأسر الأقرعان وأبو جعل وناس كثير، وافتدى الأقرعان نفسيهما من بسطام وعاهداه على إرسال الفداء، فأطلقهما، فبعدا ولم يرسلا شيئًا، وكان في الأسرى إنسان من يربوع فسمعه بسطام ابن قيس في الليل يقول:

فدىً بوالدة عليّ شفيقة ... فكأنها حرض على الأسقام[1]
لو أنها علمت فيسكن جأشها ... أني سقطت على الفتى المنعام
إن الذي ترجين ثم إيابه ... سقط العشاء به على بسطام
سقط العشاء به على متنعم ... سمح اليدين معاود الأقدام

فلما سمع بسطام ذلك منه قال له: وأبيك لا يخبر أمك عنك غيرك! وأطلقه، وقال ابن رميض العنزي:

جاءت هدايا من الرحمن مرسلة ... حتى أنيخت لدى أبيات بسطام
جيش الهذيل وجيش الأقرعين معًا ... وكبة الخيل والأذواد في عام
مسوم خيله تعدو مقانبه على ... الذوائب من أولاد همام[2]

(١) حرض: يقال: حرضه المرض. أي أشفى منه على الموت. «اللسان» (٧/ ١٣٤).
(٢) المقنب: جماعة الخيل والفرسان. «اللسان» (١/ ٦٩٠).

وقال أوس بن حجر:

وصبحنا عار طويل بناؤه ... نسب به ما لاح في الأفق كوكب
فلم أر يومًا كان أكثر باكيًا ... ووجهًا ترى فيه الكآبة تجنب
أصابوا البروك وابن حابس عنوة ... فظل لهم بالقاع يوم عصبصب(١)
وإن أبا الصهباء في حومة الوغى ... إذا ازورت الأبطال ليث مجرب

وأبو الصهباء هو بسطام بن قيس. وأكثر الشعراء في هذا اليوم في مدح بسطام ابن قيس، تركنا ذكره اختصاراً.

يوم مبايض

وهو لشيبان على بني تميم، قال أبو عبيدة: حج طريف بن تميم العنبري التميمي، وكان رجلاً جسيمًا يلقب مجدعًا، وهو فارس قومه، ولقيه حَمِيْصَة بن جندل الشيباني من بني أبي ربيعة، وهو شاب قوي شجاع، وهو يطوف بالبيت، فأطال النظر إليه، فقال له طريف: لم تشد نظرك إلي؟ قال حميصة: أريد أن أثبتك لعلي أن ألقاك في جيش فأقتلك. فقال طريف: اللهم لا تحول الحول حتى ألقاه! ودعا حميصة مثله، فقال طريف:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسم
لا تنكروني إنني أنا داء لكم ... شاكي السلاح وفي الحوادث معلم
حولي فوارس من أسيد جمة ... ومن الهجيم وحول بيتي خضم
تحتي الأغر وفوق جلدي نثرة ... زغف ترد السيف وهو مثلم(٢)

في أبيات.

ثم إن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وبني مرة بن ذهل بن شيبان كان بينهم شر وخصام فاقتتلوا شيئًا من قتال، ولم يكن بينهم دم. فقال هانئ بن مسعود، رئيس بني أبي ربيعة، لقومه: إني أكره أن يتفاقم الشر بيننا، فارتحل بهم فنزل على

---

(١) عصبصب: شديد.

(٢) النثرة: الدرع السلسة الملبس. وقيل: الدرع الواسعة. والزغف: الدرع اللينة.

ماء يقال له مبايض، وهو قريب من مياه بني تميم، فأقاموا عليه أشهراً، وبلغ خبرهم بني تميم، فأرسل بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا حي منفرد وإن اصطلمتموهم أوهنتم بكر بن وائل. واجتمعوا وساروا على ثلاثة رؤساء: أبو الجدعاء الطهوي على بني حنظلة، وابن فدكى المنقري على بني سعد، وطريف بن تميم على بني عمرو بن تميم. فلما قاربوا بني أبي ربيعة بلغهم الخبر فاستعدوا للقتال، فخطبهم هانئ بن مسعود وحثهم على القتال، فقال: إذا أتوكم فقاتلوهم شيئًا من قتال ثم انحازوا عنهم، فإذا اشتغلوا بالنهب فعودوا إليهم فإنكم تصيبون منهم حاجتكم، وصبحهم بنو تميم والقوم حذرون فاقتتلوا قتالاً شديداً وفعلت بنو شيبان ما أمرهم هانئ. فاشتغلت تميم بالغنيمة، ومر رجل منهم بابن لهانئ بن مسعود صبي فأخذه وقال: حسبي هذا من الغنيمة، وسار بهم وبقيت تميم مع الغنيمة والسبي. فعادت شيبان عليهم فهزموهم وقتلوهم وأسروهم كيف شاءوا، ولم تصب تميم بمثلها، ولم يفلت منهم إلا القليل، ولم يلو أحد على أحد، وانهزم طريف فاتبعه حميصة فقتله. واستردت شيبان الأهل والمال وأخذوا مع ذلك ما كان معهم، وفادى هانئ بن مسعود ابنه بمائة بعير، وقال بعض شيبان في هذا اليوم:

ولقد دعوت طريفًا دعوة جاهل … غــر وأنت بمنظر لا تعلم

وأتيت حيًا في الحروب محلهم … والجيش باسم أبيهم يستهزم

فوجدتهم يرعون حول ديارهم … بسلاً إذا حام الفوارس أقدموا

وإذا اعتزوا بأبي ربيعة أقبلوا … بكتيبة مثل النجوم تلملم

ساموك درعك والأغر كليهما … وبنو أسيد أسلموك وخضم

وقال عمرو بن سواد يرثي طريفًا:

لا تبعدن يا خير عمرو بن جندب … لعمري لمن زار القبور ليبعدا

عظيم رماد النار لا متعبس … ولا مؤيسًا منها إذا هو أوقدا

وما كان وقافًا إذا الخيل أحجمت … وما كان عيطانًا إذا ما تجردا

* * *

يوم الزويرين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل قد أجدبت بلادهم فانتجعوا بلاد تميم بين اليمامة وهجر، فلما تدانـوا جعلوا لا يلقى بكري تميميًّا إلا قتله، ولا يلقى تمـيمي بكريًا إلا قتله، إذا أصاب أحدهما مال الآخر أخذه، حتى تفاقم الشر وعظم، فخرج الحوفزان بن شريك والوادك بن الحرث الشيبانيان ليغيرا على بني دارم، فاتفق أن تميمًا في تلك الحال اجتمعت على جمع كثير من عمـرو بن حنظلة والرباب وسعد وغيرها وسارت إلى بكر ابن وائل، وعلى تميم أبو الرئيس الحنظـلي. فبلغ خبرهم بكر بن وائل فتقـدموا وعليهم الأصم عمرو بن قيس بن مسعود أبو مفروق وحنظلة بن سيار العجلي وحمران بن عبد عمرو العبسي، فلـما التقوا جعلت تميم والرباب بعيرين وجللوهـما وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركـوهما بين الصفين معقولين وسموهـما زويرين، يعني إلهين، وقالوا: لا نفر حتى يفر هذان البعيران. فلما رأى أبو مفروق البـعيرين سأل عنهما فأعلم حالهما، فقال: أنا زويركم، وبرك بين الصفين وقال: قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفر.

فاقتتل الناس قتـالاً شديدًا، فوصلت شيبان إلى البعيرين فأخـذوهما فذبحوهما واشتد القـتال عليهما، فـانهزمت تميم وقتل أبو الرئيس مـقدمهم ومعه بشر كـثير، واجترفت بكر أمـوالهم ونساءهم وأسروا أسرى كثيرة، ووصل الحـوفزان إلى النساء والأموال وقد سار الرجال عنها للقتال، فـأخذ جميع ما خلفوه من النساء والأموال وعاد إلى أصحابه سالمًا، وقال الأعشى في ذلك اليوم:

يا سـلم لا تسـألي عـنا فـلا كـشف ... عنـد اللـقـاء ولا سـود مـقـاريف
ونحـن الذين هـزمنـا يوم صـبـحـنا ... يوم الزويـرين في جـمع الأحـاليف
ظلـوا وظلـت تكر الخـيـل وسطـهم ... بالـشيـب منا وبـالمرد الغطـاريف[1]
تسـتـأنس الشـرف الأعلى بأعـينهـا ... لمح الصقور علت فوق الأظاليف[2]
انسل عنهـا بسيل الصيف فـانجردت ... تحت اللـبون مـتون كـالزحـاليف[3]

---

(١) الغطاريف: جمع غطريف، وهو السيد.
(٢) الأظاليف: جمع أظلوفـة، والأظلوفة من الأرض: القطعة الخشنة.
(٣) الزحاليف: جمع زحلوقة، وهي آثار تزلج الصبيان من فوق التل إلى أسفله.

وقد أكثر الشعراء في هذا اليوم، لا سيما الأغلب العجلي، فمن ذلك أرجوزته أولها: إن سرك العز فجحجح[١] بجشم

يقول فيها:

جاؤوا بزويريهم وجئنا بالأصم ... شيخ لنا كالليث من باقي إرم
شيخ لنا معاود ضرب البهم ... يضرب بالسيف إذا الرمح انقسم

هل غير غارصك غاراً فانهزم

الغاران: بكر وتميم. وله الأرجوزة التي أولها:

يا رب حرب ثرة الأخلاف. يذكر فيها هذا اليوم.

ذكر أسر حاتم طَيِّء

قال أبو عبيدة: أغار حاتم طيء بجيش من قومه على بكر بن وائل فقاتلوهم، وانهزمت طيء وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة، وكان في الأسرى حاتم بن عبد الله الطائي، فبقي موثقًا عند رجل من عنيزة، فأتته امرأة منهم اسمها عالية بناقة فقالت له: افصد هذه، فنحرها، فلما رأتها منحورة صرخت فقال حاتم:

عالي لا تلتد من عاليه ... إن الذي أهلكت من ماليه
إن ابن أسماء لكم ضامن ... حتى يؤدي أنس ناويه
لا أفصد الناقة في أنفها ... لكنني أوجرها العاليه
إني عن الفصد لفي مفخر ... يكره مني المفصد الآليه
والخيل إن شمص[٢] فرسانها ... تذكر عند الموت أمثاليه

وقال رميض العنزي يفتخر:

ونحن أسرنا حاتمًا وابن ظالم ... فكل ثوى في قيدنا وهو يخشع
وكعب إياد قد أسرنا وبعده ... أسرنا أبا حسان والخيل تطمع
وريان غادرنا بوج كأنه ... وأشياعه فيها صريم مصرع

---

(١) جحجح، يقال: جحجح الرجل: أي ذكر جحجاحًا من قومه، أي سيدًا منهم.
(٢) شمص: يقال: شمص الفرس. أي نخسه ليتحرك.

وقال يحيى بن منصور الذهلي: قصيدة يفتخر بأيام قومه، وهي طويلة، وفيها آداب حسنة، تركناها كراهية التطويل، وأولها:

أمن عرفان منزلة ودار ... تعاورها البوارح والسواري

وقال أبو عبيدة: جاء الإسلام وليس في العرب أحد أعز داراً ولا أمنع جاراً ولا أكثر حليفًا من شيبان. كانت عنينة من لخم في الأحلاف، وكانت درمكة بن كندة في بني هند، وكانت عكرمة من طيء، وحوتكة من عذرة، وبنانة كل هؤلاء في بني الحرث بن همام، وكانت عائذة من قريش، وضبة وحواس من كندة، هؤلاء في بني أبي ربيعة، وكانت سليمة من بني عبد القيس في بني أسعد بن همام، وكانت وثيلة من ثعلبة، وبنو خييري من طيء في بني تميم بن شيبان، وكانت عوف ابن حارث من كندة في بني محلم. كل هذه قبائل وبطون جاورت شيبان فعزت بها وكثرت.

يوم مُسحلان

قال أبو عبيدة: غزا ربيعة بن زياد الكلبي في جيش من قومه فلقي جيشًا لبني شيبان عامتهم بنو أبي ربيعة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظفرت بهم بنو شيبان وهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وذلك يوم مسحلان، وأسروا ناسًا كثيراً، وأخذوا ما كان معهم. وكان رئيس شيبان يومئذ هؤلاء حيان بن عبد الله بن قيس المحلمي، وقيل: كان رئيسهم زياد بن مرثد من بني أبي ربيعة، فقال شاعرهم:

سائل ربيعة حيث حل بجيشه ... مع الحي كلب حيث نبت فوارسه

عشية ولى جمعهم فتتابعوا ... فصاروا إلينا نهبه وعوانسه[1]

ثم إن الربيع بن زياد الكلبي نافر قومه وحاربهم فهزموه. فاعتزلهم وسار حتى حل ببني شيبان، فاستجار برجل اسمه زياد من بني أبي ربيعة، فقتله بنو أسعد بن همام، ثم إن شيبان حملوا ديته إلى كلب مائتي بعير فرضوا.

حرب لسليم وشيبان

قال أبو عبيدة: خرج جيش لبني سليم عليهم النصيب السلمي وهم يريدون

(١) العوانس: إبل طوال الأعناق. «اللسان» (٦/ ١٤٩).

الغارة على بكر بن وائل. فلقيهم رجل بني شيبان اسمه صليع بن عبد غنم وهو محرم على فرس له يسمى البحراء، فقال لهم: أين تذهبون؟ قالوا: نريد الغارة على بني شيبان. فقال لهم: مهلاً فإني لكم ناصح، وإياكم وبني شيبان، فإني أقسم لكم بالله لتأتينكم على ثلاثمائة فرس خصي سوى الفحول والإناث.

فأبوا إلا الغارة عليهم، فدفع صليع فرسه ركضًا حتى أتى قومه فأنذرهم. فركبت شيبان واستعدوا، فأتاهم بنو سليم وهم معدون فاقتتلوا قتالاً شديدًا فظفرت شيبان وانهزمت سليم وقتل منهم مقتلة كثيرة وأسر منهم ناس كثير ولم ينج إلا القليل، وأسر النصيب رئيسهم، أسره عمران بن مرة الشيباني فضرب رقبته، فقال صليع:

نهيت بني زعل غداة لقيتهم	وجيش نصيب والظنون تطاع
وقلت لهم: إن الحريب وراكسًا[١]	به نعم ترعى المرار رتاع
ولكن فيه الموت يرتع سربه	وحق لهم أن يقبلوا ويطاعوا
متى تأته تلقى على الماء حارثًا	وجيشًا له يوفى بكل بقاع

يوم جدود

وهو يوم بين بكر بن وائل وبني منقر من تميم. وكان من حديثه أن الحوفزان واسمه الحارث بن شريك الشيباني، كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع موادعة، فهم بالغدر بهم وجمع بني شيبان وذهلاً واللهازم[٢]، وعليهم حمران بن عبد عمرو ابن بشر بن عمرو. ثم غزا وهو يرجو أن يصيب غرة من بني يربوع، فلما انتهى إلى بني يربوع نذر به عتيبة بن الحارث بن شهاب فنادى في قومه، فحالوا بين الحوفزان وبين الماء، فقال لعتيبة: إني لا أرى معك إلا رهطك وأنا في طوائف من بني بكر، فلئن ظفرت بكم قل عددكم وطمع فيكم عدوكم، ولئن ظفرتم بي ما تقتلون إلا أقاصي عشيرتي، وما إياكم أردت، فهل لكم أن تسالمونا وتأخذوا ما معنا من التمر، ووالله لا نروع يربوعًا أبدًا.

---

(١) راكس: اسم واد.

(٢) اللهازم: أي أوسط القوم شرفًا.

فأخذ ما معهم من التمر وخلى سبيلهم. فسارت بكر حتى أغاروا على بني ربيع ابن الحارث، وهو مقاعس، بجدود ـ وإنما سمي مقاعسًا لأنه تقاعس عن حلف بني سعد ـ فأغار عليهم وهم خلوف فأصاب سبيًا ونعمًا، فبعث بنو ربيع صريخهم إلى بني كليب، فلم يجيبوهم، فأتى الصريخ بني منقر بن عبيد فركبوا في الطلب فلحقوا بكر بن وائل وهم مقاتلون، فما شعر الحوفزان وهو في ظل شجرة إلا بالأهتم بن سمي بن سنان المنقري واقفًا على رأسه، فركب فرسه، فنادى الأهتم: يا آل سعد! ونادى الحوفزان: يا آل وائل! ولحق بنو منقر فقاتلوا قتالاً شديدًا، فهزمت بكر وخلوا السبي والأموال، وتبعتهم منقر، فمن قتيل وأسير، وأسر الأهتم حمران ابن عبد عمرو، ولم يكن لقيس بن عاصم المنقري همة إلا الحوفزان، فتبعه على مهر، والحوفزان على فرس فارج فلم يلحقه وقد قاربه. فلما خاف أن يفوته حفزه بالرمح في ظهره فاحتفز بالطعنة[١] ونجا، فسمي يومئذ الحوفزان، وقيل غير هذا. وقال الأهتم في أسره حمران:

نيطت[٢] بحمران المنية بعدما ... حشاه سنان من شراعة أزرق

دعا يال قيس واعتزيت لمنقر ... وكنت إذا لاقيت في الخيل أصدق

وقال سوّار بن حيان المنقري يفتخر على رجل من بكر:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة ... كسته نجيعًا من دم البطن أشكلا

وحمران قسرًا أنزلته رماحنا ... فعالج غلا في ذراعيه مثقلا

فيا لك من أيام صدق نعدها ... كيوم جؤاثي والنباج ونبتلا

قضى الله أنا يوم تقتسم العلا ... أحق بها منكم فأعطى فأجزلا

فلست بمسطيع السماء ولم تجد ... لعز بناه الله فوقك منقلا

* * *

(١) أي مال عنها.

(٢) نيطت: أي تعلقت.

يوم الإياد وهو يوم أعشاش ويوم العظالى

وإنما سمي يوم العظالى لأن بسطام بن قيس وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو تعاظلوا على الرياسة، وكانت بكر تحت يد كسرى وفارس، وكانوا يقرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائة متساندين وهم يتوقعون انحدار بني يربوع في الحزن، فاجتمع بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد في الحزن. فحلت بنو زبيد الحديقة، وحلت بنو عتيبة وبنو عبيد روضة الثمد، فأقبل جيش بكر حتى نزلوا حضبة الحصى، فرأى بسطام السواد بالحديقة، وثم غلام عرفه بسطام، وكان قد عرف غلمان بني ثعلبة حين أسره عتيبة. فسأله بسطام عن السواد الذي بالحديقة، فقال: هم بنو زبيد. قال: كم هم من بيت؟ قال: خمسون بيتًا. قال: فأين بنو عتيبة وبنو عبيد؟ قال: هم بروضة الثمد وسائر الناس بخفاف، وهو موضع. فقال بسطام: أتطيعوني يا بني بكر؟ قالوا: نعم. قال: أرى لكم أن تغنموا هذا الحي المتفرد بني زبيد وتعودوا سالمين. قالوا: وما يغني بنو زيد عنا؟ قال: إن في السلامة إحدى الغنيمتين. قالوا: إن عتيبة بن الحارث قد مات. وقال مفروق: قد انتفخ سحرك[1] يا أبا الصهباء! وقال هانئ: اخسأ! فقال: إن أسيد بن جباة لا يفارق فرسه الشقراء ليلاً ونهاراً، فإذا أحس بكم ركبها حتى يشرف على مليحة فينادي: يا آل ثعلبة، فيلقاكم طعن ينسيكم الغنيمة ولم يبصر أحد منكم مصرع صاحبه، وقد عصيتموني وأنا تابعكم وستعلمون. فأغاروا على بني زبيد وأقبلوا نحو بني عتيبة وبني عبيد، فأحست الشقراء فرس أسيد بوقع الحوافر فنخست بحافرها، فركبها أسيد وتوجه نحو بني يربوع بمليحة ونادى: يا سوء صباحاه! يا آل ثعلبة بن يربوع! فما ارتفع الضحى حتى تلاحقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت شيبان بعد أن قتلت من تميم جماعة من فرسانهم، وقتل من شيبان أيضًا وأسر جماعة، منهم: هانئ بن قبيصة، ففدى نفسه ونجا، فقال متمم بن نويرة في هذا اليوم:

لعمري لنعم الحي أسمع غدوةً ... أسيد وقد جد الصراخ المصدق

---

(١) كناية عن الخوف والجبن.

وأسمع فتيانًا كجنة عبقر ... لهم ريّق عند الطعان ومصدق
أخذن بهم جنبي أفاق وبطنها ... فما رجعوا حتى أرقّوا وأعتقوا

وقال العوام في هذا اليوم:

قبح الإله عصابةً من وائل ... يوم الأفاقة أسلموا بسطاما
ورأى أبو الصهباء دون سوامهم ... طعنًا يسلي نفسه وزحاما
كنتم أسودًا في الوغى فوجدتم ... يوم الأفاقة في الغبيط نعاما[١]

وأكثر العوام الشعر في هذا اليوم. فلما ألح فيه أخذ بسطام إبله، فقالت أمه:

أرى كل ذي شعر أصاب بشعره ... خلا أن عوّامًا بما قال عيلا
فلا ينطقن شعرًا يكون جوازه ... كما شعر عوام أعام وأرجلا

يوم الشقيقة وقتل بسطام بن قيس

هذا يوم بين بني شيبان وضبة بن أدّ، قتل فيه بسطام بن قيس سيد شيبان.

وكان سببه أن بسطام بن قيس بن مسعود بن خالد بن عبد الله ذي الجدين غزا بني ضبة ومعه أخوه السليل بن قيس ومعه رجل يزجر الطير من بني أسد بن خزيمة يسمى نَقيدًا. فلما كان بسطام في بعض الطريق رأى في منامه كأن آتيًا أتاه، فقال له: الدلو تأتي الغرب[٢] المزله، فقص رؤياه على نقيد، فتطير وقال: ألا قلت: ثم تعود باديًا مبتله، فتفرط عنك النحوس. ومضى بسطام على وجهه، فلما دنا من نقا[٣] يقال له الحسن في بلاد ضبة صعده ليرى، فإذا هو بنعم قد ملأ الأرض فيه ألف ناقة لمالك بن المنتفق الضبي من بني ثعلبة بن سعد بن ضبة قد فقأ عين فحلها. وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية إذا بلغت إبل أحدهم ألف بعير فقأوا عين فحلها لترد عنها العين، وهي إبل مرتبعة، ومالك بن المنتفق فيها على فرس له جواد.

فلما أشرف بسطام على النقا تخوف أن يروه فينذروا به فاضطجع وتدهدى حتى بلغ الأرض وقال: يا بني شيبان لم أر كاليوم قط في الغرة وكثرة النعم. ونظر نقيد

---

(١) الغبيط: الرحل.

(٢) الغرب: الدلو العظيمة.

(٣) النقا: كثيب الرمل.

إلى لحية بسطام معفرة بالتراب لما تدهدى فتطير له أيضًا وقال: إن صدقت الطير فهو أول من يقتل، وعزم الأسدي على فراقه، فأخذته رعدة تهيبًا لفراقه والانصراف عنه وقال له: ارجع يا أبا الصهباء، فإني أتخوف عليك أن تقتل، فعصاه ففارقه نقيد وركب بسطام وأصحابه وأغاروا على الإبل واطردوها، وفيها فحل لمالك يقال له أبو شاعر، وكان أعور، فنجا مالك على فرسه إلى قومه من ضبة حتى إذا أشرف على تعشار نادى: يا صباحاه! وعاد راجعًا. وأدرك الفوارس القوم وهم يطردون النعم، فجعل فحله أبو شاعر يشذ من النعم ليرجع وتتبعه الإبل فكلما تبعته ناقة عقرها بسطام. فلما رأى مالك ما يصنع بسطام وأصحابه قال: ما ذا السفه يا بسطام؟ لا تعقرها فإما لنا وإما لك. فأبى بسطام، وكان في أخريات الناس على فرس أدهم يقال له الزعفران يحمي أصحابه، فلما لحقت خيل ضبة قال لهم مالك: ارموا روايا القوم. فجعلوا يرمونها فيشقونها. فلحقت بنو ثعلبة وفي أوائلهم عاصم بن خليفة الصباحي، وكان ضعيف العقل، وكان قبل ذلك يعقب قناة له فيقال له: ما تصنع بها يا عاصم؟ فيقول: أقتل عليها بسطامًا، فيهزءون منه. فلما جاء الصريخ ركب فرس أخيه بغير أمره ولحق الخيل فقال لرجل من ضبة: أيهم الرئيس؟ قال: صاحب الفرس الأدهم. فعارضه عاصم حتى حاذاه، ثم حمل عليه فطعنه بالرمح في صماخ أذنه أنفذ الطعنة إلى الجانب الآخر، وخر بسطام على شجرة يقال لها الألاءة. فلما رأت ذلك شيبان خلوا سبيل النعم وولوا الأدبار، فمن قتيل وأسير. وأسر بنو ثعلبة نجاد بن قيس أخا بسطام في سبعين من بني شيبان، وكان عبد الله ابن غنمة الضبي مجاورًا في شيبان، فخاف أن يقتل فقال يرثي بسطامًا:

لأمِّ الأرض ويل ما أجنت ... غداة أضر بالحسن السبيل
يقسم ماله فينا وندعو ... أبا الصهباء إذ جنح الأصيل
أجدك لن تريه ولن نراه ... تخب به عذافرة[1] ذمول
حقيبة بطنها بدن وسرج ... تعارضها مزببة دؤل
إلى ميعاد أرعن مكفهر ... تضمر في جوانبه الخيول
لك المرباع[2] منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

(١) العذافرة: الناقة الشديدة. والذمول: أي المسرعة.

(٢) المرباع: ربع الغنيمة. والنشيطة: ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل البلوغ إلى الموضع الذي قصدوه.=

لقد صمت بنو زيد بن عمرو ولا يوفي ببسطام قتيل
فخر على الألاءة لم يوسد كأن جبينه سيف صقيل
فإن يجزع عليه بنو أبيه فقد فجعوا وفاتهم جليل
بمطعام إذا الأشوال[1] راحت إلى الحجرات ليس لها فصيل

فلم يبق في بكر بن وائل بيت إلا وألقي لقتله لعلو محله.

وقال شمعلة بن الأخضر بن هبيرة الضبي يذكره:

ويوم شقيقة الحسنين لاقت بنو شيبان آجالاً قصارا
شككنا بالرماح، وهن زور صماخي كبشهم حتى استدارا
وأوجرناه أسمر ذا كعوب يشبه طوله مسداً مغارا

(الشقيقة): أرض صلبة بين جبلي رمل. (والحسنان): نقوا رمل كانت الوقعة عندهما. وقالت أم بسطام بن قيس ترثيه.

لبيك ابن ذي الجدين بكر بن وائل فقد بان منها زينها وجمالها
إذا ما غدا فيهم غدوا وكأنهم نجوم سماء بينهن هلالها
فالله عينا من رأى مثله فتى إذا الخيل يوم الروع هب نزالها
عزيز المكر لا يهد جناحه وليث إذا الفتيان زلت نعالها
وحمال أثقال وعائد محجر تحل إليه كل ذاك رحالها
سيبكيك عان[2] لم يجد من يفكه ويبكيك فرسان الوغى ورجالها
وتبكيك أسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مفرج حومات الخطوب ومدرك الـ ـحروب إذا صالت وعز صيالها
تغشى بها حيناً كذاك ففجعت تميم به أرماحها ونبالها

= والصفايا: جمع صفي وهو ما يصطفيه لنفسه مثل السيف والفرس والجارية قبل القسمة والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة «اللسان» (٧/ ٤١٥).

(١) الأشوال: جمع شول، وهي النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها.

(٢) العاني: الأسير.

فقد ظفرت منا تميم بعثرة وتلك لعمري عثرة لا تقالها

أصيبت به شيبان والحي يشكر وطير يرى إرسالها وحبالها

* * *

يوم النسار

النِّسَار: أجبل متجاورة، وعندها كانت الوقعة، وهو موضع معروف عندهم. وكان سبب ذلك اليوم أن بني تميم بن مر بن أد كانوا يأكلون عمومتهم ضبة بن أد وبني عبد مناة بن أد، فأصابت ضبة رهطًا من تميم. فطلبتهم تميم فانزاحت جماعة الرباب، وهم تيم وعدي وثور لأطحل وعكل بنو عبد مناة بن أد وضبة بن أد، وإنما سموا الرباب لأنهم غمسوا أيديهم في الرب[1] حين تحالفوا، فلحقت ببني أسد، وهم يومئذ حلفاء لبني ذبيان بن بغيض. فنادى صارخ بن ضبة: يا آل خِندف! فأصرختهم بنو أسد، وهو أول يوم تخندفت فيه ضبة واستمدوا حليفهم ظَبيًا وغطفان، فكان رئيس أسد يوم النسار عوف بن عبد الله بن عامر بن جذيمة بن نصر ابن قعين، وقيل: خالد بن نضلة، وكان رئيس الرباب الأسود بن المنذر أخو النعمان، وليس بصحيح، وكان على الجماعة كلهم حصن بن حذيفة بن بدر، وفيه يقول زهير بن أبي سلمى:

ومن مثل حصن في الحروب ومثله ... لإنداد ضيم أو لأمر يحاوله

إذا حل أحياء الأحاليف حوله ... بذي نجب هداته وصواهله

فلما بلغ بني تميم ذلك استمدوا بني عامر بن صعصعة، فأمدوهم. وكان حاجب بن زرارة على بني تميم، وكان عامر بن صعصعة جوابًا، وهو لقب مالك ابن كعب من بني أبي بكر بن كلاب، لأن بني جعفر كانوا جوابين قد أخرجهم إلى بني الحارث بن كعب فحالفوهم، وقيل: كان رئيس عامر شريح بن مالك القشيري. وسار الجمعان فالتقوا بالنسار واقتتلوا، فصبرت عامر واستحرّ بهم القتل، وانفضت تميم فنجت ولم يصب منهم كثير، وقتل شريح القيشري رأس بني عامر، وقتل عبيد بن معاوية بن عبد الله بن كلاب وغيرهما، وأخذ عدة من أشراف نساء بني عامر: منهن سلمى بنت المخلف، والعنقاء بنت همام وغيرهما، فقالت سلمى تعيّر جوابًا والطفيل:

لحى الإله أبا ليلى بفرته ... يوم النسار وقنب العير جوابًا

---

(١) الرب: الطلاء الخاثر. «مختار الصحاح» (ص٩٦).

كيف الفخار وقد كانت بمعترك يوم النسار بنو ذبيان أربابا
لم تمنعوا القوم إذا أشلوا سوامكم ولا النساء وكان القوم أحرابًا

وقال رجل يعير جوابًا والطفيل بفراره عن امرأتيه:

وفر عن ضرتيه وجه خارئة ومالك فرّ قنب العير جواب

(والقنب): غلاف الذكر، وجواب لقب لأنه كان يجوب الآثار، واسمه مالك، وقال بشر بن أبي خازم في هزيمة حاجب:

وأفلت حاجب جوب العوالي على شقراء تلمع في السراب
ولو أدركن رأس بني تميم عفرن الوجه منه بالتراب

وكان يوم النسار بعد يوم جبلة وقتل لقيط بن زرارة.

يوم الجُفار

لما كان على رأس الحول من يوم النسار اجتمع من العرب من كان شهد النسار، وكان رؤساؤهم بالجفار الرؤساء الذين كانوا يوم النسار، إلا أن بني عامر قيل كان رئيسهم بالجفار عبد الله بن جعدة بن كعب بن ربيعة، فالتقوا بالجفار واقتتلوا، وصبرت تميم، فعظم فيها القتل وخاصة في بني عمرو بن تميم، وكان يوم الجفار يسمى «الصيلم»[1] لكثرة من قتل به، وقال بشر بن أبي خازم في عصبة تميم لبني عامر:

عصبت تميم أن يقتل عامر يوم النسار فأعقبوا بالصيلم
كنا إذا نفروا لحرب نفرة نشفي صداعهم برأس صِلدم[2]
نعلو الفوارس بالسيوف ونعتري والخيل مشعلة النحور من الدم
يخرجن من خل الغبار عوابسًا خبب السباع بكل ليث ضيغم

وهي عدة أبيات، وقال أيضًا:

(١) الصيلم: أي القطيعة المنكرة. «النهاية» (٣/ ٤٩).
(٢) الصلدم: الشديد الحافر. «اللسان» (١٢/ ٣٤٢).

يوم الجفار ويوم النسار كانا عذابًا وكانا غراما
فأما تميم تميم بن مر فألفاهم القوم روبى نياما[١]
وأما بنو عامر بالجفار ويوم النسار فكانوا نعاما

فلما أكثر بشر على بني تميم، قيل له: ما لك ولتميم وهم أقرب الناس منك أرحامًا؟ فقال: إذا فرغت منهم فرغت من الناس ولم يبق أحد.

يوم الصفقة والكلاب الثاني

أما يوم الصفقة وسببه فإن باذان، نائب كسرى أبرويز بن هرمز باليمن، أرسل إليه حملاً من اليمن. فلما بلغ الحمل إلى نطاع[٢] من أرض نجد أغارت تميم عليه وانتهبوه وسلبوا رسل كسرى وأساورته. فقدموا على هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة مسلوبين، فأحسن إليهم وكساهم. وقد كان قبل هذا إذا أرسل كسرى لطيمة تباع باليمن يجهز رسله ويخفرهم ويحسن جوارهم، وكان كسرى يشتهي أن يراه ليجازيه على فعله. فلما أحسن أخيرًا إلى هؤلاء الرسل الذين أخذتهم تميم قالوا له: إن الملك لا يزال يذكرك ويؤثر أن تقدم عليه.

فسار معهم إليه. فلما قدم عليه أكرمه وأحسن إليه وجعل يحادثه لينظر عقله، فرأى ما سره، فأمر له بمال كثير، وتوجه بتاج من تيجانه وأقطعه أموالاً نهجر[٣].

وكان هوذة نصرانيًا، وأمره كسرى أن يغزو هو والمكعبر مع عساكر كسرى بني تميم، فساروا إلى هجر ونزلوا بالمشقر. وخاف المكعبر وهواذة أن يدخلا بلاد تميم لأنها لا تحتملها العجم وأهلها بها ممتنعون، فبعثا رجالاً من بني تميم يدعونهم إلى الميرة، وكانت شديدة، فأقبلوا على كل صعب وذلول، فجعل المكعبر يدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة وأقل وأكثر، يدخلهم من باب على أن يخرجهم من آخر، فكل من دخل ضرب عنقه. فلما طال ذلك عليهم ورأوا أن الناس يدخلون ولا يخرجون بعثوا رجالاً يستعلمون الخبر، فشد رجل من عبس فضرب

(١) روبي: قال سيبويه: هم الذين أثخنهم السفر والوجع فاستلقوا نومًا. «اللسان» (١/ ٤٤١).
(٢) نطاع: أرض.
(٣) كذا بالمطبوعة، ولعل الصواب، «يهجر».

السلسلة فقطعها وخرج من كان بالباب. فأمر المكعبر بغلق الباب وقتل كل من كان بالمدينة، وكان يوم الفصح، فاستوهب هوذة منه مائة رجل فكساهم وأطلقهم يوم الفصح. فقال الأعشى من قصيدة يمدح هوذة:

بهم يقرب يوم الفصح ضاحية ... يرجو الإله بما أسدى وما صنعا

فصار يوم المشقر مثلاً، وهو يوم الصفقة لاصفاق الباب، وهو إغلاقه. وكان يوم الصفقة وقد بعث النبي ﷺ وهو بمكة بعد لم يهاجر. وأما يوم الكلاب الثاني فإن رجلاً من بني قيس بن ثعلبة قدم أرض نجران على بني الحرث بن كعب، وهم أخواله، فسألوه عن الناس خلفه فحدثهم أنه أصفق على بني تميم باب المشقر وقتلت المقاتلة وبقيت أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها. فاجتمعت بنو الحرث من مذحج، وأحلافها من نهد وجرم بن زبان، فاجتمعوا في عسكر عظيم بلغوا ثمانية آلاف، ولا يعلم في الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بذي قار ومن يوم جبلة، وساروا يريدون بني تميم، فحذرهم كاهن كان مع بني الحرث واسمه سلمة بن المغفل وقال: إنكم تسيرون أعيانًا، وتغزون أحيانًا، سعدًا وريانًا، وتردون مياهها جيابًا، فتلقون عليها ضرابًا، وتكون غنيمتكم ترابًا، فأطيعوا أمري ولا تغزوا تميمًا. فعصوه وساروا إلى عروة، فبلغ الخبر تميمًا. فاجتمع ذوو الرأي منهم إلى أكثم بن صيفي، وله يومئذ مائة وتسعون سنة، فقالوا له: يا أبا حيدة حقق هذا الأمر فإنا قد رضيناك رئيسًا. فقال لهم:

إن امرأً قد عاش تسعين حجة ... إلى مائة لم يسأم العيش جاهل

مضت مائتان غير عشر وفاؤها ... وذلك من عد الليالي قلائل

ثم قال لهم: لا حاجة لي في الرياسة ولكني أشير عليكم لينزل حنظلة بن مالك بالدهناء، ولينزل سعد بن زيد مناة والرباب وهم ضبة بن أد وثور وعكل وعدي بنو عبد مناة بن أد الكلاب، فأي الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه، ثم قال لهم: احفظوا وصيتي لا تحضروا النساء الصفوف فإن نجاة اللئيم في نفسه ترك الحريم، وأقلوا الخلاف على أمرائكم، ودعوا كثرة الصياح في الحرب فإنه من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، فإن أحمق الحمق الفجور، وأكيس الكيس التقى، كونوا جميعًا في الرأي، فإن الجميع معزز للجميع، وإياكم والخلاف فإنه لا جماعة

لمن اختلف، ولا تلبثوا ولا تسرعوا فإن أحزم الفريقين الركين[١]، ورب عجلة تهب ريثًا، وإذا عـز أخوك فيهن، البسوا جلود النمور وأبرزوا للحـرب، وادرعوا الليل واتخذوه جملاً، فإن الليل أخفى للويل، والثبات أفضل من القوة وأهنأ الظفر كثرة الأسـرى، وخـير الغنيمـة المال، ولا ترهبـوا الموت عند الحـرب، فـإن الموت من ورائكم، وحب الحيـاة لدى الحرب زلل، ومن خيـر أمرائكم النعمـان بن مالك بن حارث بن جساس، وهو من بني تميم بن عبد مناة بن أد. فقبلوا مشورته.

ونزلت عمرو بن حنظلة الدهناء، ونزلت سعد والرباب الكلاب، وأقبلت مذحج ومن معها من قضاعة فقصدوا الكلاب، وبلغ سعداً والرباب الخبر. فلما دنت مذحج نذرهم شمـيت بن زنباع اليـربوعي فركب جمله وقـصد سعـداً ونادى: يا آل تميم يا صباحاه! فثار الناس، وانتهت مذحج إلى النعم فانتهبها الناس، وراجزهم يقول:

في كل عـام نعم ننتباه   على الكلاب غـيب أصـحابه   يـسقط في آثاره غـلابه

فلحق قيس بن عاصم المنقري والنعمان بن جساس ومالك بن المنتفق في سرعان الناس، فأجابه قيس يقول:

عـمـا قـليل تـلتـحق أربـابه   مـثل النجـوم حـسراً سـحـابه
ليـمنعن الـنعم اغـتـصـابه   سـعـد وفـرسـان الوغـى أربابه

ثم حمل عليهم قيس وهو يقول:

فـي كل عـام نعـم تحـوونـه   يلـحـقـه قـوم وتـنتـجـونه
أربابه نـوكـى[٢] فـلا يـحـمـونه   ولا يـلاقـون طـعـانًا دونـه
أنعـم الأبـنـاء تحـسـبـونه   هـيـهـات هيـهـات لما ترجـونه

فاقتتل القـوم قتالاً شديداً يومهم أجمع. فحـمل يزيد بن شداد بن قنان الحارثي على النعمان بـن مالك بن جساس فرمـاه بسهم فقتله، وصارت الـرياسة لقيس بن عاصم، واقتـتلوا حتى حجز بينهم الليل، وباتوا يتـحارسون. فلما أصبـحوا غدوا على القتال، وركب قيس بن عاصم وركبت مـذحج واقتتلوا أشد من القتال الأول، فكان أول من انهـزم من مذحج مـدرج الرياح، وهو عامـر بن الجون بن عـبد الله

(١) الركين: الوقور الرزين.
(٢) نوكي: جمع أنوك، وهو الأحمق.

الجرمي، وكان صاحب لوائهم، فألقى اللواء وهرب، فلحقه رجل من بني سعد فعقر به دابته، فنزل يهرب ماشيًا، ونادى قيس بن عاصم: يا آل تميم عليكم الفرسان ودعوا الرجالة فإنها لكم، وجعل يلتقط الأسارى، وأسر عبد يغوث بن الحارث بن وقاص الحارثي رئيس مذحج فقتل بالنعمان بن مالك بن جساس، وكان عبد يغوث شاعراً، فشدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم، فأشار إليهم ليحلوا لسانه ولا يهجوهم، فحلوه، فقال شعراً:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا ... فما لكما في اللوم نفع ولا ليا

ألم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل وما لومي أخًا من شماليا

فيا راكبًا إما عرضت فبلغن ... نداماي من نجران ألا تلاقيا

أبا كرب والأيهمين كليهما ... وقيسًا بأعلى حضرموت اليمانيا

أقول وقد شدوا لساني بنسعة ... معاشر تيم أطلقوا من لسانيا

كأني لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلي كرى كرة من ورائيا

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل ... لإيسار صدق عظموا ضوء ناريا

وقد علمت عرسي مليكة أنني ... أنا الليث معدواً عليه وعاديا

لحى الله قومًا بالكلاب شهدتهم ... صميمهم والتابعين المواليا

ولو شئت نجتني من القوم شطبة ... ترى خلفها الكمت العتاق تواليا

وكنت إذا ما الخيل شمصها[1] القنا ... لبيقًا[2] بتصريف القناة بنانيا

فيا عاص فك القيد عني فإنني ... صبور على مر الحوادث ناكيا

فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً ... وإن تطلقوني تحربوني ماليا

(أبو كرب) بشر بن علقمة بن الحارث، (والأيهمان) الأسود بن علقمة بن الحرث، والعاقب وهو عبد المسيح بن الأبيض، وقيس بن معد يكرب، فزعموا أن قيسًا قال: لو جعلني أول القوم لافتديته بكل ما أملك. ثم قتل ولم يقبل له فدية.

(رباب) بالراء والباء الموحدة.

---

(١) شمصها: طردها.

(٢) اللبيق: الحاذق.

يوم ظهر الدهناء

وهو يوم بين طيء وأسد بن خزيمة، وسبب ذلك أن أوس بن حارثة بن لأم الطائي كان سيداً مطاوعاً في قومه وجواداً مقداماً، فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند، فدعا عمرو أوساً فقال له: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن! إن حاتماً أوحدها وأنا أحدها، ولو ملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة واحدة. ثم دعا عمرو حاتماً فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيت اللعن! إنما ذكرت أوساً ولأحد ولده أفضل مني. فاستحسن ذلك منهما وحباهما وأكرمهما، ثم إن وفود العرب من كل حي اجتمعت عند النعمان بن المنذر وفيهم أوس، فدعا بحلة من حلل الملوك وقال للوفود: احضروا في غد فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم. فلما كان الغد حضر القوم جميعاً إلا أوساً، فقيل له: لم تتخلف؟ فقال: إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء بي ألا أكون حاضراً وإن كنت المراد فسأطلب. فلما جلس النعمان ولم ير أوساً قال: اذهبوا إلى أوس فقولوا له: احضر آمناً مما خفت. فحضر فألبس الحلة، فحسده قوم من أهله، فقالوا للحطيئة: اهجه ولك ثلاثمائة ناقة. فقال: كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منه! ثم قال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من أهل لأم بظهر الغيب تأتيني

فقال لهم بشر بن أبي خازم: أنا أهجوه لكم، فأعطوه النوق وهجاه فأفحش في هجائه وذكر أمه سعدى. فلما عرف أوس ذلك أغار على النوق فاكتسحها، وطلبه فهرب منه والتجأ إلى بني أسد عشيرته، فمنعوه منه ورأوا تسليمه إليه عاراً. فجمع أوس جديلة طيء وسار بهم إلى أسد، فالتقوا بظهر الدهناء تلقاء تيم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت بنو أسد وقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب بشر فجعل لا يأتي حيًّا يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارته على أوس. ثم نزل على جندب بن حصن الكلابي بأعلى الصمان، فأرسل إليه أوس يطلب منه بشراً، فأرسله إليه. فلما قدم به على أوس أشار عليه قومه بقتله، فدخل على أمه سعدى فاستشارها، فأشارت أن يرد عليه ماله ويعفو عنه ويحبوه فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه. فقبل ما أشارت به وخرج إليه وقال: يا بشر ما ترى أني صانع بك؟ فقال:

إني لأرجو منك يا أوس نعمةً ... وإني لأخرى منك يا أوس راهب

وإني لأمحو بالذي أنت صادق ... به كل ما قد قلت إذ أنا كاذب

فهل نافعي اليوم عندك أنني سأشكر إن أنعمت والشكر واجب
فدىً لابن سعدى اليوم كل عشيرتي بني أسد أقصاهم والأقارب
تداركني أوس بن سعدى بنعمة وقد أمكنته من يديّ العواقب

فمن عليه أوس وحمله على فرس جواد ورد عليه ما كان أخذ منه وأعطاه من ماله مائة من الإبل، فقال بشر: لا جرم لا مدحت أحدًا، حتى أموت غيرك، ومدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

أتعرف من هنيدة رسم دار بخرجي ذروة فإلى لواها
ومنها منزل ببراق خبت عفت حقبًا وغيرها بلاها

وهي طويلة.

يوم الوقيط

وكان من حديثه أن اللهازم تجمعت، وهي قيس وتيم اللات ابنا ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن علي بن بكر بن وائل ومعها عجل بن لجيم وعنزة بن أسد بن ربيعة ابن نزار لتغير على بني تميم وهم غارون. فرأى ذلك الأعور وهو ناشب بن بشامة العنبري، وكان أسيرًا في قيس بن ثعلبة، فقال لهم: أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي أوصيهم ببعض حاجتي. فقالوا له: ترسله ونحن حضور؟ قال: نعم. فأتوه بغلام مولد، فقال: أتيتموني بأحمق! فقال: الغلام: والله ما أنا بأحمق! فقال: إني أراك مجنونًا! قال: والله ما بي جنون! قال: أتعقل؟ قال: نعم إني لعاقل. قال: فالنيران أكثر أم الكواكب؟ قال: الكواكب، وكل كثيرة، فملأ كفه رملاً وقال: كم في كفي؟ قال: لا أدري فإنه لكثير. فأومأ إلى الشمس بيده وقال: ما تلك؟ قال: الشمس. قال: ما أراك إلا عاقلاً، اذهب إلى قومي فأبلغهم السلام وقل لهم: ليحسنوا إلى أسيرهم فإني عند قوم يحسنون إلي ويكرمونني، وقل لهم فليعروا جملي الأحمر ويركبوا ناقتي العيساء وليرعوا حاجتي في بني مالك، وأخبرهم أن العوسج[1] قد أورق، وأن النساء قد اشتكت، وليعصوا همام بن بشامة فإنه مشؤوم مجدود، وليطيعوا هذيل بن الأخنس، فإنه حازم ميمون، واسألوا الحارث عن

(١) العوسج: شجر شاك نجدي.

خبري. وسار الرسول فأتى قومه فأبلغهم، فلم يدروا ما أراد، فأحضروا الحارث وقصوا عليه خبر الرسول. فقال للرسول. اقصص علي أول قصتك. فقص عليه أول ما كلمه حتى أتى على آخره. فقال: أبلغه التحية والسلام وأخبره أنا نستوصي بما أوصى به. فعاد الرسول، ثم قال لبني العنبر: إن صاحبكم قد بين لكم، وأما الرمل الذي جعل في كفه فإنه يخبركم أنه قد أتاكم عدد لا يحصى، وأما الشمس التي أومأ إليها فإنه يقول ذلك أوضح من الشمس، وأما جمله الأحمر فالصمان فإنه يأمركم أن تعروه، يعني ترحلوا عنه، وأما ناقته العيساء فإنه يأمركم أن تحترزوا في الدهناء، وأما بنو مالك فإنه يأمركم أن تنذروهم معكم، وأما إيراق العوسج فإن القوم قد لبسوا السلاح، وأما اشتكاء النساء فإنه يريد أن النساء قد خرزن الشكاء، وهي أسقية الماء للغزو، فحذر بنو العنبر وركبوا الدهناء وأنذروا بني مالك، فلم يقبلوا منهم.

ثم إن اللهازم وعجلاً وعنزة أتوا بني حنظلة فوجدوا عمراً قد أجلت، فأوقعوا ببني دارم بالوقيط فاقتتلوا قتالاً شديداً وعظمت الحرب بينهم فأسرت ربيعة جماعة من رؤساء بني تميم، منهم ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة فجزوا ناصيته وأطلقوه، وأسروا عثجل بن المأمون بن زرارة، وجويرة بن بدر بن عبد الله بن دارم، ولم يزل في الوثاق حتى رآهم يومًا يشربون فأنشأ يتغنى يسمعهم ما يقول:

وقائلة ما غاله أن يزورنا ... وقد كنت عن تلك الزيارة في شغل
وقد أدركتني والحوادث جمة ... مخالب قوم لا ضعاف ولا عزل
سراع إلى الجلى بطاء عن الخنا[1] ... رزان لدى الباذين في غير ما جهل
لعلهم أن يمطروني بنعمة ... كما صاب ماء المزن في البلد المحل
فقد ينعش الله الفتى بعد ذلة ... وقد تبتني الحسنى سراة بني عجل

فلما سمعوا الأبيات أطلقوه وأسر أيضًا نعيم وعوف ابنا القعقاع بن معبد بن زرارة وغيرهما من سادات بني تميم، وقتل حكيم بن النهشلي، ولم يشهدها من نهشل غيره. وعادت بكر فمرت بطريقها بعد الوقعة بثلاثة بجذيمة بن الأصيلع نفر من بني العنبر لم يكونوا ارتحلوا مع قومهم، فلما رأوهم طردوا إبلهم فأحرزوها من

(١) الجلي: الأمر العظيم. والخنا: الفحش.

بكر. وأكثر الشعراء في هذا اليوم، فمن ذلك قول أبي مهوّش الفقعسي يعير تميمًا بيوم الوقيط:

فما قاتلت يوم الوقيطين نهشل ... ولا الأنكد الشؤمى فقيم بن دارم

ولا قضبت عوف رجال مجاشع ... ولا قشر الأستاه غير البراجم

وقال أبو الطفيل عمرو بن خالد بن محمود بن عمرو بن مرثد:

حكت تميم بركها لما التقت ... راياتنا ككواسر العقبان

دهموا الوقيط بجحفل جم الوغى ... ورماحها كنوازع الأشطان

يوم المروت

وهو يوم بني تميم وعامر بن صعصعة. وكان سببه أنه التقى قعنب بن عتاب الرياحي وبحير بن عبد الله بن سلمة العامري بعكاظ، فقال بحير لقعنب: ما فعلت فرسك البيضاء؟ قال: هي عندي، وما سؤالك عنها؟ قال: لأنها نجتك مني يوم كذا وكذا، فأنكر قعنب ذلك وتلاعنا وتداعيا أن يجعل الله ميتة الكاذب بيد الصادق، فمكثا ما شاء الله. وجمع بحير بني عامر وسار بهم فأغار على بني العنبر بن عمرو ابن تميم بإرم الكلبة وهم خلوف، فاستاق السبي والنعم ولم يلق قتالاً شديداً، وأتى الصريخ بني العنبر بن عمرو بن تميم وبني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وبني يربوع بن حنظلة، فركبوا في الطلب، فتقدمت عمرو بن تميم. فلما انتهى بحير إلى المروت قال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئًا؟ قالوا: نرى خيلاً عارضة رماحها على كواهل خيلها. قال: هذه عمرو بن تميم وليست بشيء، فلحق بهم بنو عمرو فقاتلوهم شيئًا من قتال ثم صدروا عنهم، ومضى بحير، ثم قال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئًا؟ قالوا: نرى خيلاً ناصبة رماحها. قال: هذه مالك بن حنظلة وليست بشيء، فلحقوا فقاتلوا شيئًا من قتال ثم صدروا عنهم، ومضى بحير وقال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئًا؟ قالوا: نرى خيلاً ليست معها رماح وكأنما عليها الصبيان. قال: هذه يربوع رماحها بين آذان خيلها، إياكم والموت الزؤام[1]، فاصبروا ولا أرى أن تنجوا. فكان أول من لحق من بني يربوع الواقعة وهو نعيم

---

(١) الموت الزؤام: الكريه أو المجهز.

ابن عتاب ـ وكان يسمى الواقعة لبليته ـ فحمل على المثلم القشيري فأسره، وحملت قشير على دوكس بن واقد بن حوط فقتلوه، وأسر نعيم المصفى القيشري فقتله، وحمل كدام بن بجيلة المازني على بحير فعانقه، ولم يكن لقعنب همة إلا بحير، فنظر إليه وإلى كدام قد تعانقا فأقبل نحوهما، فقال كدام: يا قعنب أسيري. فقال قعنب: ماز رأسك والسيف، يريد: يا مازني. فخلى عنه كدام وشد عليه قعنب فضربه فقتله، وحمل قعنب أيضًا على صهبان، وأم صهبان مازنية، فأسره، فقالت بنو مازن: يا قعنب قتلت أسيرنا فأعطنا ابن أخينا مكانه. فدفع إليهم صهبان في بحير، فرضوا بذلك، واستنقذت بنو يربوع أموال بني العنبر وسبيهم من بني عامر وعادوا.

يوم فيف الريح

وهو بين عامر بن صعصعة والحرث بن كعب، وكان خبره أن بني عامر كانت تطلب بني الحرث بن كعب بأوتار كثيرة، فجمع لهم الحصين بن زيد بن شداد بن قنان الحارثي، وهو ذو الغصة، واستعان بجعفة زبيد وقبائل سعد العشيرة ومراد وصداء ونهد وخثعم وشهران وناهس. ثم أقبلوا يريدون بني عامر وهم منتجعون مكانًا يقال له فيف الريح، ومع مذحج النساء والذراري حتى لا يفروا. فاجتمعت بنو عامر، فقال لهم عامر بن الطفيل: أغيروا بنا على القوم فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم ولا تدعوهم يدخلون عليكم. فأجابوه إلى ذلك وساروا إليهم. فلما دنوا من بني الحارث ومذحج ومن معهم أخبرتهم عيونهم وعادت إليهم مشايخهم، فحذروا فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام يعاودونهم القتال بفيف الريح، فالتقى الصميل بن الأعور الكلابي وعمرو بن صبيح النهدي، فطعنه عمرو، فاعتنق الصميل فرسه وعاد، فلقيه رجل من خثعم فقتله وأخذ درعه وفرسه، وشهدت بنو نمير يومئذ مع عامر بن الطفيل فأبلوا بلاء حسنًا وسموا ذلك اليوم حريجة الطعان لأنهم اجتمعوا برماحهم فصاروا بمنزلة الحرجة وهي شجر مجتمع.

وسبب اجتماعهم أن بني عامر جالوا جولة إلى موضع يقال له العرقوب، والتفت عامر بن الطفيل فسأل عن بني نمير فوجدهم قد تخلفوا في المعركة، فرجع وهو يصيح: يا صباحاه! يا نميراه! ولا نمير لي بعد اليوم! حتى اقتحم فرسه وسط

القوم، فقويت نفوسهم، وعادت بنو عامر وقد طعن عامر بن الطفيل ما بين ثغرة نحره إلى سرته عشرين طعنة. وكان عامر في ذلك اليوم يتعهد الناس فيقول: يا فلان ما رأيتك فعلت شيئًا، فمن أبلى فليرني سيفه أو رمحه، ومن لم يبل شيئًا تقدم فأبلى، فكان كل من أبلى بلاء حسنًا أتاه فأراه الدم على سنان رمحه أو سيفه، فأتاه رجل من الحرثيين اسمه مسهر، فقال له: يا أبا علي انظر ما صنعت بالقوم انظر إلى رمحي! فلما أقبل عليه عامر لينظر وجأه بالرمح في وجنته ففلقها وفقأ عينه وترك رمحه وعاد إلى قومه. وإنما دعاه إلى ذلك ما رآه يفعل بقومه، فقال: هذا والله مبير قومي! فقال عامر بن الطفيل:

أتونا بشهران العريضة كلها ... وأكلب طرًّا في جياد السنور
لعمري وما عمري علي بهين ... لقد شان حر الوجه طعنة مسهر
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا ... جبانًا وما أغنى لدى كل محضر

وأسرت بنو عامر يومئذ سيد مراد جريحًا، فلما برأ من جراحته أطلق، وممن أبلى يومئذ أربد بن قيس بن حر بن خالد بن جعفر، وعبيد بن شريح بن الأحوص ابن جعفر، وقال لبيد بن ربيعة، ويقال إنها لعامر بن الطفيل:

أتونا بشهران العريضة كلها ... وأكلها في مثل بكر بن وائل
فبتنا ومن ينزل به مثل ضيفنا ... يبت عن قرى أضيافه غير غافل
أعاذل لو كان البداد لقوبلوا ... ولكن أتانا كل جن وخابل
وخثعم حي يعدلون بمذحج ... فهل نحن إلا مثل إحدى القبائل

وأسرع القتل في الفريقين جميعًا، ثم إنهم افترقوا ولم يشتغل بعضهم عن بعض بغنيمة، وكان الصبر فيها والشرف لبني عامر.

يوم اليحاميم ويعرف أيضاً بقارات حوق

وهو بين قبائل طيء بعضها في بعض. وكان سبب ذلك أن الحرث بن جبلة الغساني كان قد أصلح بين طيء. فلما هلك عادت إلى حربها، فالتقت جديلة والغوث بموضع يقال له غرثان، فقتل قائد بني جديلة وهو أسبع بن عمرو بن لأم عم أوس بن خالد بن حارثة بن لأم، وأخذ رجل من سنبس يقال له مصعب أذنيه فخصف بهما نعليه، وفي ذلك يقول أبو سروة السنبسي:

تخصف بالآذان منكم نعالنا ... ونشرب كرهًا منكم في الجماجم

وتناقل الحيان في ذلك أشعارًا كثيرة، وعظم ما صنعت الغوث على أوس بن خالد بن لأم، وعزم على لقاء الحرب بنفسه، وكان لم يشهد الحروب المتقدمة هو ولا أحد من رؤساء طيء كحاتم بن عبد الله وزيد الخيل وغيرهم من الرؤساء، فلما تجهز أوس للحرب وأخذ في جمع جديلة ولفها قال أبو جابر:

أقيموا علينا القصد يا آل طيء ... وإلا فإن العلم عند التحاسب

فمن مثلنا إذا الحرب شمرت ... ومن مثلنا يومًا إذا لم نحاسب

فإن تقطعيني أو تريدي مساءتي ... فقد قطع الخوف المخوف ركائبي

وبلغ الغوث جمع أوس لها وأوقدت النار على مناع، وهي ذروة أجأ، وذلك أول يوم توقد عليه النار. فأقبلت قبائل الغوث، كل قبيلة وعليها رئيسها، منهم زيد الخيل وحاتم، وأقبلت جديلة مجتمعة على أوس بن حارثة بن لأم، وحلف أوس أن لا يرجع عن طيء حتى ينزل معها جبليها أجأ وسلمى وتجبي له أهلها، وتزاحفوا والتقوا بقارات حوق على راياتهم فاقتتلوا قتالاً شديدًا ودارت الحرب على بني كباد بن جندب فأبيروا. قال عدي بن حاتم: إني لواقف يوم اليحاميم والناس يقتتلون إذ نظرت إلى زيد الخيل قد حضر ابنيه مكنفًا وحريثًا في شعب لا منفذ له وهو يقول: أي ابني أبقيا على قومكما فإن اليوم يوم التفاني فإن يكن هؤلاء أعمامًا فهؤلاء أخوال. فقلت: كأنك قد كرهت قتال أخوالك! قال: فاحمرت عيناه غضبًا وتطاول إلي حتى نظرت إلى ما تحته من سرجه فخفته، فضربت فرسي وتنحيت عنه واشتغل بنظره إلي عن ابنيه، فخرجا كالصقرين، وحمل قيس بن عازب على بحير ابن زيد الخيل بن حارثة بن لأم فضربه على رأسه ضربة عنق لها بحير فرسه وولى، فانهزمت جديلة عند ذلك وقتل فيها قتل ذريع، فقال زيد الخيل:

يجيء بني لأم جياد كأنها ... عصائب طير يوم طل وحاصب

فإن تنج بها لا يزل بك شامة ... أناء حيًا بين الشجا والترائب

وفر ابن لأم واتقانا بظهره ... يردعه بالرمح قيس بن عازب

وجاءت بنو معن كأن سيوفهم ... مصابيح من سقف فليس بآيب

وما فر حتى أسلم ابن حُمارس ... لوقعة مصقول من البيض قاضب

فلم تبق لجديلة بقية للحرب بعد يوم اليحاميم، فدخلوا بلاد كلب فحالفوهم وأقاموا معهم.

يوم ذي طلوح

وهو يوم الصمد ويوم أود أيضًا، وهو بين بكر وتميم، وكان من حديثه أن عميرة ابن طارق بن أرقم اليربوعي التميمي تزوج مرية بنت جابر العجلي أخت أبجر وسار إلى عجل ليبتني بأهله. وكان له في بني تميم امرأة أخرى تعرف بابنة النطف من بني تميم، فأتى أبجر أخته يزورها وزوجها عندها. فقال لها أبجر: إني لأرجو أن آتيك بابنة النطف امرأة عميرة. فقال له: ما أراك تبقي علي حتى تسلبني أهلي. فندم أبجر وقال له: ما كنت لأغزو قومك ولكنني متأسر في هذا الحي من تميم، وجمع أبجر والحوفزان بن شريك الشيباني، والحوفزان على شيبان وأبجر على اللهازم، ووكلا بعميرة من يحرسه لئلا يأتي قومه فينذرهم. فسار الجيش، فاحتال عميرة على الموكل بحفظه وهرب منه وجد السير إلى أن وصل إلى بني يربوع فقال لهم: قد غزاكم الجيش من بكر بن وائل، فاعلموا بني ثعلبة بطنًا منهم، فأرسلوا طليعة منهم فبقوا ثلاثة أيام، ووصلت بكر فركبت يربوع والتقوا بذي طلوح. فركب عميرة ولقي أبجر فعرفه نفسه، والتقى القوم واقتتلوا فكان الظفر ليربوع. وانهزمت بكر وأسر الحوفزان وابنه شريك وابن عنمة الشاعر متمم وكان مع بني شيبان فافتكه متمم بن نويرة وأسر أكثر الجيش البكري، وقال ابن عنمة يشكر متممًا:

جزى الله رب الناس عني متممًا ... بخير الجزاء ما أعف وأجودا

أجيرت به أبناؤنا ودماؤنا ... وشارك في إطلاقنا وتفردا

أبا نهشل إني لكم غير كافر ... جاعل من دونك المال سرمدا

يوم أقرن

قال أبو عبيدة: : غزا عمرو بن عمرو بن عدس التميمي بني عبس فأخذ إبلهم واستاق سبيهم وعاد حتى إذا كان أسفل ثنية أقرن نزل وابتني بجارية من السبي، ولحقه الطلب فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل أنس الفوارس بن زياد العبسي عمرًا وابنه حنظلة واستردوا الغنيمة والسبي، فنعى جرير على بني دارم ذلك فقال:

أتنســون عـمـراً يـوم برقـة أقـرن ... وحـنظلة المقـتـول إذ هو يافــعـا

وكان عمرو أسلع أبرص، وكان هو ومن معه قد أخطأوا ثنية الطريق في عودهم وسلكوا غيـر الطريق، فسقطوا من الجبل الذي سلكوه فلقوا شدة فـفي ذلك يقول عنترة:

كــأن الســرايـا يوم نيق وصـــارة ... عـصــائب طيــر ينتـحين لمشـرب

شـفى النفس مـني أو دنا لشـفـائهـا ... تهــورهم من حــالق مــتـصــوب

وقد كنت أخشى أن أموت ولم تقم ... مـراتب عـمـرو وسـط نوح مـسلب

وكانت أم سماعة بن عــمرو بن عمرو من عبس، فزاره خاله فقـتله بأبيه، فقال في ذلك مسكين الدارمي:

وقــاتـــل خــاله بأبـيـــه مـنـــا ... سـمــاعـة لـم يبع نسـبًا بخــال

يوم السلان

قال أبو عبيدة: كان بنو عامر بن صعصعة حمسًا، والحمس قريش ومن له فيهم ولادة، والحمس متشددون في دينهم، وكانت عـامر أيضًا لقاحًا لا يدينون للملوك. فلما ملك النعمان بن المنذر ملكه كسرى أبرويز، وكـان يجهز كل عام لطيمة، وهي التجارة، لتباع بعكاظ، فعرضت بنو عامـر لبعض ما جهزه فأخذوه. فغضب لذلك النعمان وبعث إلى أخيـه لأمه، وهو وبرة بن رومانس الكلبي، وبعث إلى صنائعه ـ ووضائعه، والصنائع من كان يصطنعه من العرب ليغزيه، والوضائع هم الذين كانوا شبـه المشايخ ـ وأرسل إلى بني ضبـة بن أد وغيرهـم من الرباب وتميم فجمـعهم، فأجابوه ـ فأتاه ضرار بن عمرو الضبي في تسـعة من بنيه كلهم فوارس ومعه حبيش ابن دلف ـ وكان فارسًا شجـاعًا ـ فاجتمعوا في جيش عظيم، فجهـز النعمان معهم عيرًا وأمرهم بـتسييرها وقال لهم: إذا فـرغتم من عكاظ وانسلخت الحرم ورجع كل قوم إلى بلادهم فاقصـدوا بني عامر فإنهم قريب بنواحي السلان. فخـرجوا وكتموا أمرهم وقـالوا: خرجنا لئـلا يعرض أحد للطيـمة الملك فلما فـرغ الناس من عكاظ علمت قريش بحـالهم، فأرسل عبد الله بن جـدعان قاصداً إلى بني عامـر يعلمهم الخبـر، فسار إليهم وأخـبرهم خبـرهم فحذروا وتهـيأوا للحرب وتحرزوا ووضـعوا العيـون، وعاد عامر عليـهم عامر بن مالك مـلاعب الأسنة، وأقبل الجيش فالـتقوا

بالسلان فاقتتلوا قتالاً شديداً. فبينا هم يقتتلون إذ نظر يزيد بن عمرو بن خويلد الصعق إلى وبرة بن رومانس أخي النعمان فأعجبه هيئته، فحمل عليه فأسره. فلما صار في أيديهم هم الجيش بالهزيمة، فنهاهم ضرار بن عمرو الضبي وقام بأمر الناس فقاتل هو وبنوه قتالاً شديداً، فلما رآه أبو براء عامر بن مالك وما يصنع ببني عامر هو وبنوه حمل عليه، وكان أبو براء رجلاً شديد الساعد. فلما حمل على ضرار اقتتلا، فسقط ضرار إلى الأرض وقاتل عليه بنوه حتى خلصوه وركب، وكان شيخًا، فلما ركب قال: من سره بنوه ساءته نفسه، فذهبت مثلاً. يعني من سره بنوه إذا صاروا رجالاً كبر وضعف فساءه ذلك وجعل أبو براء يلح على ضرار طمعًا في فدائه، وجعل بنوه يحمونه. فلما رأى ذلك أبو براء قال له: لتموتن أو لأموتن دونك فأحلني على رجل له فداء، فأومأ ضرار إلى حبيش بن دلف، وكان سيداً فحمل عليه أبو براء فأسره، وكان حبيش أسود نحيفًا دميمًا، فلما رآه كذلك ظنه عبداً وأن ضراراً خدعه، فقال: إنا لله، أعزز سائر القوم، ألا في الشؤم وقعت! فلما سمعها حبيش منه خاف أن يقتله فقال: أيها الرجل إن كنت تريد اللبن، يعني الإبل، فقد أصبته. فافتدى نفسه بأربعمائة بعير وهزم جيش النعمان. فلما رجع الفل[1] إليه أخبروه بأسر أخيه وبقيام ضرار بأمر الناس وما جرى له مع أبي براء، وافتدى وبرة بن رومانس نفسه بألف بعير وفرس من يزيد بن الصعق، فاستغنى يزيد، وكان قبله خفيف الحال، وقال لبيد يذكر أيام قومه:

إني امرؤ منعت أرومة[2] عامر ... ضيمي وقد حنقت عليّ خصوم

يقول فيها:

وغداة قاع القريتين أتاهم ... رهواً يلوح خلالها التسويم

بكتائب رجح تعوّد كبشها ... نطيح الكباش كأنهن نجوم

قوله: قاع القريتين، يعني يوم السلان.

(حبيش بن دلف) بضم الحاء المهملة، والباء الموحدة، وبالياء المثناة من تحتها نقطتان، وآخره شين معجمة.

---

(١) الفل: المنهزمون.

(٢) الأرومة: الأصل.

يوم ذي علق

وهو يوم التقى فيه بنو عامر بن صعصعة وبنو أسد بذي علق فاقتتلوا قتالاً عظيمًا. قتل في المعركة ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري أبو لبيد الشاعر وانهزمت عامر، فتبعهم خالد بن نضلة الأسدي وابنه حبيب والحرث بن خالد بن المضلل وأمعنوا في الطلب، فلم يشعروا إلا وقد خرج عليهم أبو براء عامر بن مالك من وراء ظهورهم في نفر من أصحابه، فقال لخالد: يا أبا معقل إن شئت أجزتنا وأجزناك حتى نحمل جرحانا وندفن قتلانا. قال: قد فعلت. فتواقفوا. فقال له أبو براء: هل علمت ما فعل ربيعة؟ قال: نعم تركته قتيلاً. قال: ومن قتله؟ قال: ضربته أنا وأجهز عليه صامت بن الأفقم. فلما سمع أبو براء بقتل ربيعة حمل على خالد هو ومن معه، فمانعهم خالد وصاحباه وأخذوا سلاح حبيب بن خالد، ولحقهم بنو أسد فمنعوا أصحابهم وحموهم، فقال الجميح:

سائل معداً عن الفوارس ... لا أوفوا بجيرانهم ولا سلموا
يسعى بهم قرزل ويستمع الـ ... ـناس إليهم وتخفق اللمم
ركضًا وقد غادروا ربيعة في الآ ... ثار لما تقارب النسم
في صدره صعدة ويخلجه ... بالرمح حران باسلاً أضم

قرزل فرس الطفيل والد عامر بن الطفيل. وقال لبيد من قصيدة يذكر أباه:

ولا من ربيعة المقترين وريته ... بذي علق فاقني حياءك واصبري

يوم الرقم

قال أبو عبيدة: غزت عامر بن صعصعة غطفان، ومع بني عامر يومئذ عامر بن الطفيل شابًا لم يرأس بعد، فبلغوا وادي الرقم، وبه بنو مرة بن عوف بن سعد ومعهم قوم من أشجع بن ذئب بن غطفان وناس من فزارة بن ذبيان، فنذروا ببني عامر وهجمت عليهم بنو عامر بالرقم، وهو واد بقرب تضرع، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، فأقبل عامر بن الطفيل فرأى امرأة من فزارة فسألها. فقالت: أنا أسماء بنت نوفل الفزاري. وقيل: كانت أسماء بنت حصن بن حذيفة. فبينا عامر يسألها خرج عليه المنهزمون من قومه وبنو مرة في أعقابهم فلما رأى ذلك عامر ألقى درعه إلى

أسماء وولى منهزمًا، فأدتها إليه بعد ذلك، وتبعتهم مرة وعليهم سنان بن حارثة بن أبي حارثة المري، وجعل الأشجعيون يذبحون كل من أسروه من بني عامر لوقعة كانت أوقعتها بهم بنو عامر، فذلك البطن من بني أشجع يسمون بني مذحج، فذبحوا سبعين رجلاً منهم، فقال عامر بن الطفيل يذكر غطفان ويعرض بأسماء:

قد ساءلت أسماء وهي خفية ... لضحائها أطردت أم لم أطرد

فلأبغينكم القنا وعوارضًا ... ولأقبلن الخيل لابة ضرغد[1]

ولأبرزن بمالك وبمالك ... وأخي المرورات الذي لم يسند

في أبيات عدة. فلما بلغ شعره غطفان هجاه منهم جماعة، وكان نابغة بني ذبيان حينئذ غائبًا عند ملوك غسان قد هرب من النعمان. فلما آمنه النعمان وعاد سأل قومه عما هجوا به عامر بن الطفيل، فأنشدوه ما قالوا فيه وما قال فيهم، فقال: لقد أفحشتم وليس مثل عامر يهجى بمثل هذا، ثم قال يخطئ عامرًا في ذكره امرأة من عقائلهم:

فإن يك عامر قد قال جهلاً ... فإن مطية الجهل الشباب

فإنك سوف تحلم أو تباهي ... إذا ما شبت أو شاب الغراب

فكن كأبيك أو كأبي براء ... توافقك الحكومة والصواب

فلا تذهب بحلمك طامثات[2] ... من الخيلاء ليس لهن باب

إلى آخرها. فلما سمعها عامر قال: ما هجيت قبلها.

يوم ساحوق

قال أبو عبيدة: غزت بنو ذبيان بني عامر وهم بساحوق، وعلى ذبيان سنان بن أبي حارثة المري، وقد جهزهم وأعطاهم الخيل والإبل وزودهم، فأصابوا نعمًا كثيرة وعادوا، فلحقتهم بنو عامر واقتتلوا قتالاً شديدًا. ثم انهزمت بنو عامر وأصيب منهم رجال وركبوا الفلاة، فهلك أكثرهم عطشًا، وكان الحر شديدًا، وجعلت ذبيان تدرك الرجل منهم فيقولون له: قف ولك نفسك وضع سلاحك، فيفعل. وكان

(١) ضرغد: جبل أو حرة لغطفان.

(٢) الطامثات: الفاسدات.

يومًا عظيمًا على عامر، وانهزم عامر بن الطفيل وأخوه الحكم، ثم إن الحكم ضعف وخاف أن يؤسر فجعل في عنقه حبلاً وصعد إلى شجرة وشده ودلى نفسه فاختنق، وفعل مثله رجل من بني غني، فلما ألقى نفسه ندم فاضطرب، فأدركوه وخلصوه وعيروه بجزعه، وقال عروة بن الورد العبسي في ذلك:

ونحن صبحنا عامرًا في ديارها ... علالة أرماح وضربًا مذكرا

بكل رقاق الشفرتين مهند[1] ... ولدن من الخطيّ قد طرا سمرا

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ... ومقتلهم إذ يلتقي كان أعذرا

يوم أعيار ويوم النقيعة

كان المثلم بن المشجر العائذي ثم الضبي مجاورًا لبني عبس، فتقامر هو وعمارة ابن زياد، وهو أحد الكملة، فقمره عمارة حتى اجتمع عليه عشرة أبكر، فطلب منه المثلم أن يخلي عنه حتى يأتي أهله فيرسل إليه بالذي له، فأبى ذلك، فرهنه ابنه شرحاف بن المثلم، وخرج المثلم فأتى قومه فأخذ البكارة فأتى بها عمارة وافتك ابنه فلما انطلق بابنه قال له في الطريق: يا أبتاه من معضال؟ قال: ذلك الرجل من بني عمك ذهب فلم يوجد إلى الساعة. قال شِرحاف: فإني قد عرفت قاتله. قال أبوه: ومن هو؟ قال: عمارة بن زياد سمعته يقول للقوم يومًا وقد أخذ فيه الشراب إنه قتله ولم يلق له طالبًا، ولبثوا بعد ذلك حينًا وشب شرحاف. ثم إن عمارة جمع جمعًا عظيمًا من عبس فأغار بهم على بني ضبة فأخذوا إبلهم، وركبت بنو ضبة فأدركوهم في المرعى. فلما نظر شرحاف إلى عمارة قال: يا عمارة أتعرفني؟ قال: من أنت؟ قال: أنا شرحاف، أد إلي ابن عمي معضالاً، لا مثله يوم قتلته! وحمل عليه فقتله، واقتتلت ضبة وعبس قتالاً شديدًا واستنقذت ضبة الإبل، وقال شرحاف:

ألا أبلغ سراة بني بغيض ... بما لاقت سراة بني زياد

وما لاقت جذيمة إذ تحامي ... وما لاقى الفوارس من بجاد

تركنا بالنقيعة آل عبس ... شجاعًا يقتلون بكل واد

(١) المهند: السيف المصنوع من حديد الهند.

وما إن فاتنا إلا شريد يوم القفر في تيه البلاد
فسل عنا عمارة آل عبس وسل وردًا وما كل بداد[1]
تركتهم بوادي البطن رهنًا لسيدان[2] القرارة والجلاد

يوم النباة

قال أبو عبيدة: خرجت بنو عامر تريد غطفان لتدرك بثأرها يوم الرقم ويوم ساحوق، فصادفت بني عبس وليس معهم أحد من غطفان، وكانت عبس لم تشهد يوم الرقم ولا يوم ساحوق مع غطفان ولم يعينوهم على بني عامر، وقيل: بل شهدها أشجع وفزارة وغيرهما من بني غطفان على ما نذكره. قال: وأغارت بنو عامر على نعم بني عبس وذبيان وأشجع فأخذوها وعادوا متوجهين إلى بلادهم فضلوا في الطريق فسلكوا وادي النباة فأمعنوا فيه ولا طريق لهم ولا مطلع حتى قاربوا آخره. وكاد الجبلان يلتقيان إذا هم بامرأة من بني عبس تخبط الشجر لهم في قلة الجبل. فسألوها عن المطلع. فقالت لهم: الفوارس المطلع، وكانت قد رأت الخيل قد أقبلت وهي على الجبل، ولم يرها بنو عامر لأنهم في الوادي، فأرسلوا رجلاً إلى قلة الجبل ينظر، فقال لهم: أرى قومًا كأنهم الصبيان على متون الخيل، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم. قالوا: تلك فزارة، قال: وأرى قومًا بيضًا جعادًا كأن عليهم ثيابًا حمرًا. قالوا: تلك أشجع. قال: وأرى قومًا نسورًا قد قلعوا خيولهم ببدادهم كأنهما[3] يحملونها حملاً بأفخاذهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها قالوا: تلك عبس، أتاكم الموت الزؤام! ولحقهم الطلب بالوادي، فكان عامر بن الطفيل أول من سبق على فرسه الورد ففات القوم، وأعيا فرسه الورد، وهو المربوق أيضًا فعقره لئلا تفتحله فرازة، واقتتل الناس، ودام القتال بينهم، فانهزمت عامر فقتل منهم مقتلة كبيرة، قتل فيها من أشرافهم البراء بن عامر بن مالك، وبه يكنى أبوه، وقتل نهشل وأنس وهزار بنو مرة بن أنس بن خالد بن جعفر، وقتلوا عبد الله بن الطفيل أخا عامر، قتله الربيع بن زياد العبسي، وغيرهم كثير، وتمت الهزيمة على بني عامر.

---

(١) بداد: متفرقون.

(٢) السيدان: جمع سيد، وهو الذئب. «اللسان» (٣/ ٢٣٢).

(٣) كذا بالمطبوعة، والصواب «كأنهم».

يوم الفرات

قال أبو عبيدة: أغار المثنى بن حارثة الشيباني، وهو ابن أخت عمران بن مرة، على بني تغلب، وهم عند الفرات، وذلك قبيل الإسلام، فظفر بهم فقتل من أخذ من مقاتلتهم وغرق منهم ناس كثير في الفرات وأخذ أموالهم وقسمها بين أصحابه، فقال شاعرهم في ذلك:

ومنا الذي غشى الدليكة سيفه ... على حين أن أعيا الفرات كتائبه

ومنا الذي شد الركي ليستقي ... ويسقي محضًا غير ضاف جوانبه

ومنا غريب الشام لم ير مثله ... أفك لعان قد تناءى أقاربه

(الدليكة): فرس المثنى بن حارثة، والذي شد الركي مرة بن همام، وغريب الشام ابن القلوص بن النعمان بن ثعلبة.

يوم بارق

قال المفضل الضبي: إن بني تغلب والنمر بن قاسط وناسًا من تميم اقتتلوا حتى نزلوا ناحية بارق، وهي من أرض السواد، وأرسلوا وفدًا منهم إلى بكر بن وائل يطلبون إليهم الصلح، فاجتمعت شيبان ومن معهم وأرادوا قصد تغلب ومن معهم، فقال زيد بن شريك الشيباني: إني قد أجرت أخوالي وهم النمر بن قاسط، فأمضوا جواره وساروا وأوقعوا ببني تغلب وتميم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم تصب تغلب بمثلها واقتسموا الأسرى والأموال، وكان من أعظم الأيام عليهم، قتل الرجال ونهب الأموال وسبي الحريم، فقال أبو كلبة الشيباني:

وليلة بسعادى لم تدع سندًا ... لتغلبي ولا أنفًا ولا حسبا

والنمريون لولا سر من ولدوا ... من آل مرة شاع الحي منتهبا

يوم طخفة

وهو لبني يربوع على عساكر النعمان بن المنذر، قال أبو عبيدة: وكان سبب هذه الحرب أن الردافة، وهي بمنزلة الوزارة، وكان الرديف يجلس عن يمين الملك، كانت لبني يربوع من تميم يتوارثونها صغيرًا عن كبير. فلما كان أيام النعمان، وقيل أيام ابنه المنذر، سألها حاجب بن زرارة الدارمي التميمي النعمان أن يجعلها للحارث بن

بيبة بن قرط بن سفيان بن مجاشع الدارمي التميمي، فقال النعمان لبني يربوع في هذا وطلب منهم أن يجيبوا إلى ذلك، فامتنعوا، وكان منزلهم أسفل طخفة، فحيث امتنعوا من ذلك بعث إليهم النعمان قابوس ابنه وحسانًا أخاه ابني المنذر، قابوس على الناس، وحسان على المقدمة، وضم إليهما جيشًا كثيفًا، منهم الصنائع والوضائع وناس من تميم وغيرهم، فساروا حتى أتوا طخفة فالتقوا هم ويربوع واقتتلوا، وصبرت يربوع وانهزم قابوس ومن معه، وضرب طارق أبو عميرة فرس قابوس فعقره وأسره، وأراد أن يجز ناصيته، فقال: إن الملوك لا تجز نواصيها، فأرسله. وأما حسان فأسره بشر بن عمرو بن جوين فمن عليه وأرسله. فعاد المنهزمون إلى النعمان، وكان شهاب بن قيس بن كياس اليربوعي عند الملك، فقال له: يا شهاب أدرك ابني وأخي، فإن أدركتهما حيين فلبني يربوع حكمهم وأرد عليهم ردافتهم وأترك لهم من قتلوا وما غنموا وأعطيهم ألفي بعير. فسار شهاب فوجدهما حيين فأطلقهما، ووفى الملك لبني يربوع بما قال ولم يعرض لهم في ردافتهم، وقال مالك بن نويرة:

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما ... رأى القوم منه الموت والخيل تلجب[١]

عليه دلاص[٢] ذات نسج وسيفه ... جران من الهندي أبيض مقضب

طلبنا بهـا، إنا مداريك نيلها ... إذا طلب الشأو[٣] البعيد المغرب

يوم النباج وثيتل

قال أبو عبيدة: غزا قيس بن عاصم المنقري ثم التميمي بمقاعس، وهم بطون من تميم، وهم صريم وربيع وعبيد بنو الحرث بن عمرو بن كعب بن سعد، وغزا معه سلامة بن ظرب الحماني في الأحارث، وهم بطون من تميم أيضًا، وهم حمان وربيعة ومالك والأعرج بنو كعب بن سعد، فغزوا بكر بن وائل، فوجدوا اللهازم، وهم بنو قيس وتيم اللات أبناء ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، ومعهم بنو ذهل بن ثعلبة وعجل بن لجيم وعنزة بن أسد بن ربيعة بالنباج وثيتل، وبينهما روحة، فأغار قيس على النباج، ومضى سلامة إلى ثيتل ليغير على

---

(١) اللجب: الصوت والصياح.

(٢) الدلاص: من الدروع اللينة. والقضب: القطع.

(٣) الشأو: الغاية والأمد.

من بها. فلما بلغ قيس إلى النباج سقى خيله ثم أراق ما معهم من الماء وقال لمن معه: قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم، فأغار على من به من بكر صبحًا فقاتلوهم قتالاً شديدًا وانهزمت بكر وأصيب من غنائمهم ما لا يحد كثرة. فلما فرغ قيس من النهب عاد مسرعًا إلى سلامة ومن معه نحو ثتيل فأدركهم ولم يغز سلامة على من به، فأغار عليهم قيس أيضًا، فقاتلوه وانهزموا، وأصاب من الغنائم نحو ما أصاب بالنباج، وجاء سلامة فقال: أغرتم على من كان لي، فتنازعوا حتى كاد الشر يقع بينهم، ثم اتفقوا على تسليم الغنائم إليه، ففي ذلك يقول ربيعة بن طريف:

فلا يبعدنك الله قيس بن عاصم ... فأنت لنا عز عزيز ومعقل
وأنت الذي خويت بكر بن وائل ... وقد عضلت منها النباج وثيتل

وقال قرة بن زيد بن عاصم:

أنا ابن الذي شق المرار وقد رأى ... بثيتل أحياء اللهازم حضرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم ... فلم يجدوا إلا الأسنة مصدرا
سقاهم بها الذيفانا[1] قيس بن عاصم ... وكان إذا ما أورد الأمر أصدرا
على الجرد يعلكن الشكيم عوابسًا ... إذا الماء من أعطافهن تحدرا
فلم يرها الراؤون إلا فجاءة ... نثرن عجاجًا كالدواخن أكدرا
وحمران أدته إلينا رماحنا ... فنازع غلافي ذراعيه أسمرا

(ثيتل) بالثاء المثلثة المفتوحة، والياء المسكنة المثناة من تحتها، والتاء المثناة من فوقها.

يوم شنج

قال أبو عبيدة: هذا يوم لبكر بن وائل على بني تميم، وسببه أن جمعًا من بكر ساروا إلى الصعاب فشتوا بها، فلما انقضى الربيع انصرفوا فمروا بالدو فلقوا ناسًا من بني تميم من بني عمرو وحنظلة، فأغاروا على نعم كثير لهم ومضوا، وأتى بني عمرو وحنظلة الصريخ فاستجاشوا لقومهم فأقبلوا في آثار بكر بن وائل فساروا

---

(١) الذيفان: السم القاتل.

يومين وليلتين حتى جهدهم السير وانحدروا في بطن فلج، وكانوا قد خلفوا رجلين على فرسين سابقين ربيئة ليخبراهم بخبرهم إن ساروا إليهم. فلما وصلت تميم إلى الرجلين أجريا فرسيهما وسارا مجدين فأنذرا قومهما، فأتاهم الصريخ بمسير تميم عند وصولهم إلى فلج، فضرب حنظلة بن يسار العجلي قبتة ونزل فنزل الناس معه وتهيأوا للقتال معه، ولحقت بنو تميم فقاتلهم بكر بن وائل قتالاً شديداً، وحمل عرفجة بن بجير العجلي على خالد بن مالك بن سلمة التميمي فطعنه وأخذه أسيراً وقتل في المعركة ربعي بن مالك بن سلمة، فانهزمت تميم وبلغت بكر ابن وائل منها ما أرادت، ثم إن عرفجة أطلق خالد بن مالك وجز ناصيته، فقال خالد:

وجدنا الرفد رفد بني لجيم ... إذا ما قلت الأرفاد زادا

همو ضربوا القباب ببطن فلج ... وذادوا عن محارمهم ذيادا

وهم منوا عليّ وأطلقوني ... وقد طاوعت في الجنب القيادا

أليسوا خير من ركب المطايا ... وأعظمهم إذا اجتمعوا رمادا

أليس هم عماد الحي بكراً ... إذا نزلت مجللة شدادا

وقال قيس بن عاصم يعير خالداً:

لو كنت حراً يا ابن سلمى بن جندل ... نهضت ولم تقصد لسلمى بن جندل

فما بال أصداء بفلج غريبة ... تنادي مع الأطلال يا لابن حنظل

صوادي[١] لا مولىً عزيز يجيبها ... ولا أسرة تسقي صداها بمنهل

وغادرت ربعيًا بفلج ملحبًا[٢] ... وأقبلت في أولى الرعيل المعجل

تؤامل من خوف الردى لا وقيته ... كما نالت الكدراء من حين أجدل

يعيره حيث لم يأخذ بثأر أخيه ربعي ومن قتل معه يوم فلج، ويقول: إن أصداءهم تنادي ولا يسقيها أحد، على مذهب الجاهلية، ولولا التطويل لشرحناه أبين من هذا.

---

(١) الصوادي: النخل التي لا تشرب الماء.

(٢) الملحب: المقطع.

يوم الشيطين

قال أبو عبيدة: كان الشيطان لبكر بن وائل، فلما ظهر الإسلام في نجد سارت بكر قبل السواد، وبقي مقايس بن عمرو العائذي بن عائذة من قريش حليف بني شيبان بالشيطين. فلما أقامت بكر في السواد لحقهم الوباء والطاعون الذي كان أيام كسرى شيرويه فعادوا هاربين فنزلوا لعلع، وهي مجدبة، وقد أخصب الشيطان، فسارت تميم فنزلوا بها، وبلغت أخبار خصب الشيطين إلى بكر فاجتمعوا وقالوا: نغير على تميم، فإن في دين ابن عبد المطلب، يعنون النبي، أن من قتل نفسًا قتل بها، فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها، فارتحلوا من لعلع بالذراري والأموال ورئيسهم بشر بن مسعود بن قيس بن خالد فأتوا الشيطين في أربع ليال، والذي بينهما مسيرة ثماني ليال، فسبقوا كل خبر حتى صبحوهم وهم لا يشعرون فقاتلوهم قتالاً شديداً وصبرت تميم ثم انهزمت، فقال رشيد بن رميض العنبري يفتخر بذلك:

وما كان بين الشيطين ولعلع ... لنسوتنا إلا مناقل أربع
فجئنا بجمع لم ير الناس مثله ... يكاد له ظهر الوديعة يطلع
بأرعن دهم تنسل البلق وسطه ... له عارض فيه المنية تلمع
صحبنا به سعداً وعمراً ومالكًا ... فظل لهم يوم من الشر أشنع
وذا حسب من آل ضبة غادروا ... يجري كما يجري الفصيل المفزع
تقصع يربوع بسرة أرضنا ... وليس ليربوع بها متقصع

ثم إن النبي ﷺ كتب إلى بكر بن وائل على ما بأيديهم.

(الشيِّطين) بالشين المعجمة، والياء المشددة المثناة من تحتها، وبالطاء المهملة، آخره نون.

أيام الأنصار وهم الأوس والخزرج التي جرت بينهم

الأنصار لقب قبيلتي الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مَزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقبهم به رسول الله ﷺ لما هاجر إليهم ومنعوه ونصروه، وأم

الأوس والخزرج قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد، ولذلك يقال لهم أبناء قيلة. وإنما لقب ثعلبة العنقاء لطول عنقه، ولقب عمرو مزيقياء لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة لئلا يلبسها أحد بعده، ولقب عامر ماء السماء لسماحته وبذله كأنه ناب مناب المطر، وقيل لشرفه، ولقب امرؤ القيس البطريق لأنه أول من استعان به بنو إسرائيل من العرب بعد بلقيس، فبطرقه رحبعم بن سليمان بن داود، عليه السلام فقيل له: البطريق، وكانت مساكن الأزد بمأرب من اليمن إلى أن أخبر الكهان عمرو بن عامر مزيقياء أن سيل العرم يخرب بلادهم ويغرق أكثر أهلها عقوبة لهم بتكذيبهم رسل الله تعالى إليهم. فلما علم ذلك عمرو باع ما له من مال وعقار وسار عن مأرب هو ومن تبعه، ثم تفرقوا في البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروها، فسكنت خزاعة الحجاز، وسكنت غسان الشام. ولما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن معه اجتازوا بالمدينة، وكانت تسمى يثرب، فتخلف بها الأوس والخزرج ابنا حارثة فيمن معهما، وكان فيها قرى وأسواق وبها قبائل من اليهود من بني إسرائيل وغيرهم: منهم قريظة والنضير وبنو قينقاع وبنو ماسلة وزعورا وغيرهم، وقد بنوا لهم حصونًا يجتمعون بها إذا خافوا. فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون، إلا أن الغلبة والحكم لليهود إلى أن كان من الفطيون ومالك بن العجلان ما نذكره إن شاء الله تعالى، فعادت الغلبة للأوس والخزرج، ولم يزالوا على حال اتفاق واجتماع إلى أن حدث بينهم حرب سمير، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غلبة الأنصار على المدينة وضعف أمر اليهود بها وقتل الفطيون

قد ذكرنا أن الاستيلاء كان لليهود على المدينة لما نزلها الأنصار، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن ملك عليهم الفطيون اليهودي، وهو من بني إسرائيل ثم من بني ثعلبة، وكان رجل سوء فاجرًا، وكانت اليهود تدين له بأن لا تزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها، وقيل: إنه كان يفعل ذلك بالأوس والخزرج أيضًا. ثم إن أختًا لمالك بن العجلان السالمي الخزرجي تزوجت، فلما كان زفافها خرجت عن مجلس قومها وفيه أخوها مالك وقد كشفت عن ساقيها. فقال لها مالك: لقد جئت بسوء. قالت: والذي يراد بي الليلة أشد من هذا، أدخل على غير زوجي! ثم عادت فدخل عليها أخوها فقال لها: هل عندك من خبر؟ قالت: نعم، فما عندك؟

قال: أدخل مع النساء فإذا خرجن ودخل عليك قتلته. قالت: افعل. فلما ذهب بها النساء إلى الفطيون انطلق مالك معهن في زي امرأة ومعه سيفه، فلما خرج النساء من عندها ودخل عليها الفطيون قتله مالك وخرج هاربًا، فقال بعضهم في ذلك من أبيات:

هل كان للفطيون عقر نسائكم ... حكم النصيب فبئس حكم الحاكم
حتى حباه مالك بمرشة ... حمراء تضحك عن نجيع قاتم

ثم خرج مالك بن العجلان هاربًا حتى دخل الشام فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة واسمه عبيد بن سالم بن مالك بن سالم، وهو أحد بني غضب بن جشم بن الخزرج، وكان قد ملكهم وشرف فيهم، وقيل: إنه إن لم يكن ملكًا وإنما كان عظيمًا عند ملك غسان، وهو الصحيح، لأن ملوك غسان لم يعرف فيهم هذا، وهو أيضًا من الخزرج على ما ذكر، فلما دخل عليه مالك شكا إليه ما كان من الفطيون وأخبره بقتله وأنه لا يقدر على الرجوع، فعاهد الله أبو جبيلة ألا يمس طيبًا ولا يأتي النساء حتى يذل اليهود ويكون الأوس والخزرج أعز أهلها.

ثم سار من الشام في جمع كثير وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة فنزل بذي حرض، وأعلم الأوس والخزرج ما عزم عليه، ثم أرسل إلى وجوه اليهود يستدعيهم إليه وأظهر لهم أنه يريد الإحسان إليهم، فأتاه أشرافهم في حشمهم وخاصتهم فلما اجتمعوا ببابه أمر بهم فأدخلوا رجلاً رجلاً وقتلهم عن آخرهم. فلما فعل ذلك بهم صارت الأوس والخزرج أعز أهل المدينة، فشاركوا اليهود في النخل والدور، ومدح الرمق بن زيد الخزرجي أبا جبيلة بقصيدة، منها:

وأبو جبيلة خير من ... يمشي وأوفاهم يمينا
وأبرهم برًا وأعـ ... ـلمهم بهدي الصالحينا
أبقت لنا الأيام والـ ... ـحرب المهمة تعترينا
كبشًا له قرن يعـ ... ـض حسامه الذكر السنينا

فقال له أبو جبيلة: عسل طيب في وعاء سوء، وكان الرمق رجلاً ضئيلاً، فقال الرمق: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه. ورجع أبو جبيلة إلى الشام.

ذكر حرب سمير

ولم يزل الأنصار على حال اتفاق واجتماع، وكان أول اختلاف وقع بينهم وحرب كانت لهم حرب سمير، وكان سببها أن رجلاً من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان يقال له: كعب بن العجلان نزل على مالك بن العجلان السالمي فحالفه وأقام معه. فخرج كعب يومًا إلى سوق بني قينقاع فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول: ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب. فقال رجل: فلان. وقال رجل آخر: أحيحة بن الجلاح الأوسي. وقال غيرهما: فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها. فدفع الغطفاني الفرس إلى مالك بن العجلان. فقال كعب: ألم أقل لكم إن حليفي مالكًا أفضلكم؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سمير وشتمه وافترقا، وبقي كعب ما شاء الله، ثم قصد سوقًا لهم بقباء، فقصده سمير ولازمه حتى خلا السوق فقتله. وأخبر مالك بن العجلان بقتله، فأرسل إلى بني عمرو بن عوف يطلب قاتله، فأرسلوا: إنا لا ندري من قتله. وترددت الرسل بينهم، هو يطلب سميرًا وهم ينكرون قتله، ثم عرضوا عليه الدية فقبلها. وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب منهم. فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة، وامتنعوا من ذلك وقالوا: نعطي دية الحليف، وهي النصف. ولج الأمر بينهم حتى أتى إلى المحاربة، فاجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا وافترقوا. ودخل فيها سائر بطون الأنصار، ثم التقوا مرة أخرى واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، وكان الظفر يومئذ للأوس فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي جد حسان بن ثابت بن المنذر. فأجابهم إلى ذلك، فأتوا المنذر، فحكم بينهم المنذر بأن يدوا كعبًا حليف مالك دية الصريح ثم يعودوا إلى سنتهم القديمة، فرضوا بذلك وحملوا الدية وافترقوا، وقد شبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم.

ذكر حرب كعب بن عمرو المازني

ثم إن بني جحجبا من الأوس وبني مازن بن النجار من الخزرج وقع بينهم حرب كان سببها أن كعب بن عمرو المازني تزوج امرأة من بني سالم فكان يختلف إليها. فأمر أحيحة بن الجلاح سيد بني جحجبا جماعة فرصدوه حتى ظفروا به فقتلوه، فبلغ ذلك أخاه عاصم بن عمرو، فأمر قومه فاستعدوا للقتال، وأرسل إلى

بني جحجبا يؤذنهم بالحرب. فالتقوا بالرحابة فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت بنو جحجبا ومن معهم وانهزم معهم أحيحة، فطلبه عاصم بن عمرو فأدركه وقد دخل حصنه، فرماه بسهم فوقع في باب الحصن، فقتل عاصم أخًا لأحيحة. فمكثوا بعد ذلك ليالي، فبلغ أحيحة أن عاصمًا يتطلبه ليجد له غرة فيقتله، فقال أحيحة:

نبئت أنك جئت تسـ ... ـري بين داري والقبابه
فلقد وجدت بجانب الـ ... ـضحيان شبانًا مهابه
فتيان حرب في الحديـ ... ـد وشامرين كأسد غابه
هم نكبوك عن الطريـ ... ـق فبت تركب كل لابه
أعصيم لا تجزع فإن ... الحرب ليست بالدعابه
فأنا الذي صبحتكم ... بالقوم إذ دخلوا الرحابه
وقتلت كعبًا قبلها ... وعلوت بالسيف الذؤابه

فأجابه عاصم:

أبلغ أحيحة أن عرضـ ... ـت بداره عني جوابه
وأنا الذي أعجلته ... عن مقعد ألهى كلابه
ورميته سهمًا فأخـ ... ـطأه وأغلق ثم بابه

في أبيات. ثم إن أحيحة أجمع أن يبيت بني النجار وعنده سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية، وهي أم عبد المطلب جد النبي ﷺ فما رضيت، فلما جنها الليل وقد سهر معها أحيحة فنام، فلما نام سارت إلى بني النجار فأعلمتهم ثم رجعت، فحذروا، وغدا أحيحة بقومه مع الفجر، فلقيهم بنو النجار في السلاح فكان بينهم شيء من قتال، وانحاز أحيحة، وبلغه أن سلمى أخبرتهم فضربها حتى كسر يدها وأطلقها وقال أبياتًا، منها:

لعمر أبيك ما يغني مكاني ... من الحلفاء آكلة غفول
تؤومٌ لا تقلص مشمعلاً ... مع الفتيان مضجعه ثقيل
تنزع للحليلة حيث كانت ... كما يعتاد لقحته الفصيل
وقد أعددت للحدثان حصنًا ... لو أن المرء ينفعه العقول

جلاء القين ثمت لم تخنه ... مضاربه ولاطته فلول

فهل من كاهن آوي إليه ... إذا ما حان من آل نزول

يراهنني ويرهنني بنيه ... وأرهنه بنيّ بما أقول

فما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل

وما تدري وإن أجمعت أمراً ... بأي الأرض يدركك المقيل

وما تدري وإن أنتجت سقيًّا ... لغيرك أم يكون لك الفصيل

وما إن إخوة كبروا وطابوا ... بباقية، وأمهم هبول

ستثكل أو يفارقها بنوها ... بموت أو يجيء لهم قتول

* * *

ذكر الحرب بين بني عمرو بن عوف وبني الحرث وهو يوم السرارة

ثم إن بني عمرو بن عوف من الأوس وبني الحرث من الخزرج كان بينهما حرب شديدة.

وكان سببها أن رجلاً من بني عمرو قتله رجل من بني الحرث، فغدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة، فاستكشف أهله فعلموا كيف قتل فتهيأوا للقتال وأرسلوا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب، فالتقوا بالسرارة، وعلى الأوس حضير ابن سماك والد أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عبد الله بن سلول أبو الحباب الذي كان رأس المنافقين. فاقتتلوا قتالاً شديداً صبر بعضهم لبعض أربعة أيام، ثم انصرفت الأوس إلى دورها ففخرت الخزرج بذلك، وقال حسان بن ثابت في ذلك:

فدى لبني النجار أمي وخالتي ... غداة لقومهم بالمثقفة السمر
وصرم من الأحياء عمرو بن مالك ... إذا ما دعوا كانت لهم دعوة النصر
فوالله لا أنسى حياتي بلاءهم ... غداة رموا عمراً بقاصمة الظهر

وقال حسان أيضًا:

لعمر أبيك الخير بالحق ما نبا ... عليّ لساني في الخطوب ولا يدي
لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي
فلا الجهد ينسيني حياتي وحفظتي ... ولا وقعات الدهر يفللن مبردي[1]
أكثر أهلي من عيال سواهم ... وأطوي على الماء القراح المبرد

ومنها:

وإني لمنجاء المطي على الوجى ... وإني لنزال لما لم أعوّد
وإني لقوال لذي اللوث مرحبًا ... وأهلاً إذا ما ريع من كل مرصد
وإني ليدعوني الندى فأجيبه ... وأضرب بيض العارض المتوقد

(١) يفللن: يقطعن. والمبرد: الرسول أو صاحب البريد.

فلا تعجلن يا قيس وأربع فإنما قصاراك أن تلقى بكل مهند
حسام وأرماح بأيدي أعزة متى ترهم يا ابن الخطيم تلبد
أسود لدى الأشبال يحمي عرينها مداعيس[١] بالخطى في كل مشهد

وهي أبيات كثيرة فأجابه قيس بن الخطيم:

تروح عن الحسناء أم أنت مغتدي وكيف انطلاق عاشق لم يزود
تراءت لنا يوم الرحيل بمقلتي شريد بملتف من السدر مفرد
وجيد كجيد الريم[٢] حال يزينه على النحر ياقوت وفص زبرجد
كأن الثريا فوق ثغرة نحرها توقد في الظلماء أي توقد
ألا إن الشرعبي[٣] وراتج ضرابًا كتجذيم السيال المعضد
لنا حائطان الموت أسفل منهما وجمع متى يصرخ بيثرب يصعد
ترى اللابة[٤] السوداء يحمرّ لونها ويسهل منها كل ربع وفدفد
فإني لأغنى الناس عن متكلف يرى الناس ضلالاً وليس بمهتد
نشا غمراً بوراً شقيًا ملعنا ألد كأن رأسه رأس أصيد
كثير المنى بالزاد لا صبر عنده إذا جاع يومًا يشتكيه ضحى الغد
وذي شيمة عسراء خالف شيمتي فقلت له دعني ونفسك أرشد
فما المال والأخلاق إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود
متى ما تقد بالباطل الحق يأبه فإن قدت بالحق الرواسي تنقد
إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تدخل من الباب تهتد

وهي طويلة. وقال عبيد بن ناقد:

لمن الديار كأنهن المذهب بليت وغيرها الدهور تقلب

(١) مداعيس: أي يطئون وطئًا شديداً.
(٢) الريم: الظبي الأبيض الخالص البياض.
(٣) الشرعبية: موضع وراتج: أطم من آطام المدينة.
(٤) اللابة: الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود.
والفدفد: الفلاة التي لا شئ فيها. وقيل: الأرض الغليظة ذات الحصى.

يقول فيها في ذكر الوقعة:

لكن فـرار أبي الحـبـاب بنفسـه ... يوم السـرارة سيء منه الأقـرب

ولـى وألقـى يـوم ذلك درعـه ... إذ قيـل جاء الموت خلفك يطلب

نجـاك منا بعـدمـا قـد أشـرعت ... فـيك الرمـاح هناك شـد المذهب

وهي طويلة أيضًا. وأبو الحباب هو عبد الله بن سلول.

حرب الحصين بن الأسلت

ثم كانت حرب بين بني وائل بن زيد الأوسيين وبين بني مازن بن النجار الخزرجيين. وكان سببها أن الحصين بن الأسلت الأوسي الوائلي نازع رجلاً من بني مازن، فقتله الوائلي ثم انصرف إلى أهله، فتبعه نفر من بني مازن فقتلوه. فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت فجمع قومه وأرسل إلى بني مازن يعلمهم أنه على حربهم. فتهيأوا للقتال، ولم يتخلف من الأوس والخزرج أحد، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعًا، وقتل أبو قيس بن الأسلت الذين قتلوا أخاه ثم انهزمت الأوس، فلام وحوح بن الأسلت أخاه أبا قيس وقال: لا يزال منهزم من الخزرج، فقال أبو قيس لأخيه، ويكنى أبا حصين:

أبـلـغ أبـا حـصين وبعـ ... ـض القـول عندي ذو كـباره

أن ابـن أم المـرء لـيـ ... ـس من الحـديد ولا الحـجاره

مـاذا عـليـكـم أن يـكـو ... ن لكـم بهـا رحـلاً عـماره

يـحـمـي ذمـاركـم وبعـ ... ـض القـوم لا يحـمي ذمـاره[1]

يبـني لـكـم خـيـراً وبنيـا ... ن الـكـريم لـه أثـاره

في أبيات.

* * *

(١) الذمار: ما يلزم حفظه وحمايته.

حرب ربيع الظفري

ثم كانت حرب بين بني ظفر من الأوس وبين بني مالك بن النجار من الخزرج.

وكان سببها أن ربيعًا الظفري كان يمر في مال لرجل من بني النجار إلى ملك له، فمنعه النجاري، فتنازعا، فقتله ربيع، فجمع قومهما فاقتتلوا قتالاً شديداً كان أشد قتال بينهم، فانهزمت بنو مالك بن النجار، فقال قيس بن الخطيم الأوسي في ذلك:

أجد بعمرة غنيانها ... فتهجر أم شأننا شانها
فإن تمس شطت بها دارها ... وباح لك اليوم هجرانها
فما روضة من رياض القطا ... كأن المصابيح حوذانها[1]
بأحسن منها ولا نزهة ... ولوج تكشف أدجانها[2]
وعمرة من سروات النسا ... ء ينفخ بالمسك أردانها[3]

منها:

ونحن الفوارس يوم الربيـ ... ـع قد علموا كيف أبدانها
جنونا لحرب وراء الصريـ ... ـخ حتى تقصد مرانها[4]
تراهن يخلجن خلج الدلا[5] ... يبادر بالنزع أشطانها

وهي طويلة. فأجابه حسان بن ثابت الخزرجي بقصيدة أولها:

لقد هاج نفسك أشجانها ... وغادرها اليوم أديانها

ومنها:

ويثرب تعلم أنا بها ... إذا التبس الحق ميزانها
ويثرب تعلم أنا بها ... إذا أقحط القطر نوآنها[6]

---

(١) الحوذان: بقلة لها قضب وورق ونور أصفر.

(٢) الأدجان: جمع دجن، والدجن ظل الغيم في اليوم المطير.

(٣) أردانها: الردن: مقدم كم القميص.

(٤) المران: الرماح.

(٥) الدلا: جمع دلاة، وهو الدلو.

(٦) النوآن: جمع نوء، وهو النجم إذا مال للمغيب.

ويثـــرب تعلم إذ حـــاربت ... بأنا لدى الحـــرب فـرســانهـــا
ويثـــرب تعلم أن المـبـــيـــ ... ـت عند الهـــزاهـز ذلانهـــا[١]

ومنها:

مـــتى ترنا الأوس في بيـــضنا ... نهـــز القنا تخب نيـــرانهـــا
وتعط القيــاد على رغـــمـهـــا ... وتنزل من الهـــام عـــقـبـانهـــا
فـلا تفـخـرن والتــمس ملجـأ ... فـقـــد عـــاود الأوس أديانهـــا

* * *

(١) الهزاهز: الفتن يهتز فيها الناس.

حرب فارع بسبب الغلام القضاعي

ومن أيامهم يوم فارع. وسببه أن رجلاً من بني النجار أصاب غلامًا من قضاعة ثم من بلي، وكان عم الغلام جارًا لمعاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي والد سعد بن معاذ، فأتى الغلام عمه يزوره فقتله النجاري. فأرسل معاذ إلى بني النجار: أن ادفعوا إليّ دية جاري أو ابعثوا إليّ بقاتله أرى فيه رأيي. فأبوا أن يفعلوا. فقال رجل من بني عبد الأشهل: والله إن لم تفعلوا لا نقتل به إلا عامر بن الإطنابة، وعامر من أشراف الخزرج، فبلغ ذلك عامراً فقال:

ألا من مبلغ الأكفاء عني ... وقد تهدى النصيحة للنصيح
فإنكم وما ترجون شطري ... من القول المزجى[١] والصريح
سيندم بعضكم عجلاً عليه ... وما أثر اللسان إلى الجروح
أبت لي عزتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وضربي هامة البطل المشيح[٢]
وقولي كلما جشأت[٣] وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعدُ عن عرض صحيح
بذي شطب كلون الملح صاف ... ونفس لا تقر على القبيح

فقال الربيع بن أبي الحقيق اليهودي في عراض قول عامر بن الإطنابة:

ألا من مبلغ الأكفاء عني ... فلا ظلم لديّ ولا افتراء
فلست بغائظ الأكفاء ظلمًا ... وعندي للملامات اجتزاء
فلم أر مثل من يدنو لخسف ... له في الأرض سير واستواء
وما بعض الإقامة في ديار ... يهان بها الفتى إلا عناء

---

(١) المزجى: القليل.
(٢) المشيح: الحذر والجاد في الأمر.
(٣) جشأت: نهضت. وجاشت: ارتفع.

وبعض القول ليس له عناج ... كمحص الماء ليس له إناء
وبعض خلائق الأقوام داء ... كداء الشح ليس له دواء
وبعض الداء ملتمس شفاء ... وداء النوك[١] ليس له شفاء
يحب المرء أن يلقى نعيمًا ... ويأبى الله إلا ما يشاء
ومن يك عاقلاً لم يلق بؤسًا ... ينخ يومًا بساحته القضاء
تعاوره بنات الدهر حتى ... تثلمه[٢] كما ثلم الإناء
وكل شدائد نزلت بحي ... سيأتي بعد شدتها رخاء
فقل للمتقي عرض المنايا ... توق فليس ينفعك اتقاء
فما يعطى الحريص غنىً بحرص ... وقد ينمي لدى الجود الثراء
وليس بنافع ذا البخل مال ... ولا مزر بصاحبه الحباء[٣]
غني النفس ما استغنى بشيء ... وفقر النفس ما عمرت شقاء
يود المرء ما تفد الليالي ... وكان فناءهن له فناء

فلما رأى معاذ بن النعمان امتناع بني النجار من الدية أو تسليم القاتل إليه تهيأ للحرب وتجهز هو وقومه واقتتلوا عند فارع، وهو أطم حسان بن ثابت، واشتد القتال بينهم ولم تزل الحرب بينهم حتى حمل ديته عامر بن الإطنابة؛ فلما فعل صلح الذي كان بينهم؛ وعادوا إلى أحسن ما كانوا عليه، فقال عامر بن الإطنابة في ذلك:

صرمت ظليمة خلتي ومراسلي ... وتباعدت ضنا[٤] بزاد الراحل
جهلاً وما تدري ظليمة أنني ... قد أستقل بصرم غير الواصل
ذلل ركابي حيث شئت مشيعي ... إني أروع قطا المكان العاقل
أظليم ما يدريك ربة خلة ... حسن مرغمها كظبي الحائل

(١) النوك: الحمق.
(٢) تثلمه: تكسره.
(٣) الحباء: العطاء.
(٤) صرمت: قطعت، والضن: البخل.

قد بت مالكها وشارب قهوة ... درياقة رويت منها واغلي[1]
بيضاء صافية يرى من دونها ... قعر الإناء يضيء وجه الناهل
وسراب هاجرة قطعت إذا جرى ... فوق الإكام بذات لون باذل
أجد مراحلها كأن عفاءها ... سقطان من كتفي ظليم جافل[2]
فلنأكلن بناجز من مالنا ... ولنشربن بدين عام قابل
إني من القوم الذين إذا انتدوا ... بدأوا ببر الله ثم النائل[3]
المانعين من الخنا جيرانهم ... والحاشدين على طعام النازل
والخالطين غنيهم بفقيرهم ... والباذلين عطاءهم للسائل
والضاربين الكبش يبرق بيضه ... ضرب المهند عن حياض الناهل
والعاطفين على المصاف خيولهم ... والملحقين رماحهم بالقاتل
والمدركين عدوهم بذحولهم ... والنازلين لضرب كل منازل
والقائلين معًا خذوا أقرانكم ... إن المنية من وراء الوائل[4]
خزر عيونهم[5] إلى أعدائهم ... يمشون مشي الأسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ... ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل[6]
لا يطبعون وهم على أحسابهم ... يشفون بالأحلام داء الجاهل
والقائلين فلا يعاب خطيبهم ... يوم المقالة بالكلام الفاصل

وإنما أثبتنا هذه الأبيات وليس فيها ذكر الوقعة لجودتها وحسنها.

* * *

(١) الديارق: لغة في الترياق، وهو دواء السموم. والواغل: يقال: وغل الرجل. أي دخل على القوم في شرابهم فشرب معهم من غير أن يدعى إليه.
(٢) العفاء: التراب. والظليم: ذكر النعام. وجافل: مسرع.
(٣) انتدوا: اجتمعوا. والنائل: العطاء.
(٤) الوائل: الهارب الملتجئ إلى حصن. «الغريب» للخطابي (٢/ ٥١٦).
(٥) خزر عيونهم: أي ضيقة.
(٦) الشاعل: المشعل.

حرب حاطب

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب. وهو حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد ابن مالك بن عوف الأوسي، وبينهما وبين حرب سمير نحو مائة سنة. وكان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس بمشهور. وحرب حاطب آخر وقعة كانت بينهم إلا يوم بعاث حتى جاء الله بالإسلام، وكان سبب هذه الحرب أن حاطبًا كان رجلاً شريفًا سيدًا فأتاه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فنزل عليه، ثم إنه غدا يومًا إلى سوق بني قينقاع، فرآه يزيد بن الحرث المعروف بابن فسحم، وهي أمه، وهو من بني الحرث بن الخزرج. فقال يزيد لرجل يهودي: لك ردائي إن كسعت[1] هذا الثعلبي. فأخذ رداءه وكسعه كسعة سمعها من بالسوق. فنادى الثعلبي: ياالحاطب كسع ضيفك وفضح! وأخبر حاطب بذلك، فجاء إليه فسأله من كسعه، فأشار إلى اليهودي، فضربه حاصب بالسيف فلق هامته، فأخبر ابن فسحم الخبر، وقيل له: قتل اليهودي، قتله حاطب، فأسرع خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله، فلقي رجلاً من بني معاوية فقتله. فثارت الحرب بين الأوس والخزرج واحتشدوا واجتمعوا والتقوا على جسر ردم بني الحرث بن الخزرج. وكان على الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهلي.

وقد كان ذهب ذكر ما وقع بينهم من الحروب فيمن حولهم من العرب، فسار إليهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري وخيار بن مالك بن حماد الفزاري فقدما المدينة وتحدثا مع الأوس والخزرج في الصلح وضمنا أن يتحملا كل ما يدعي بعضهم على بعض، فأبوا، ووقعت الحرب عند الجسر، وشهدها عيينة وخيار. فشاهدا من قتالهم وشدتها ما أيسا معه من الإصلاح بينهم، فكان الظفر يومئذ للخزرج. وهذا اليوم من أشهر أيامهم، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب، فمنها:

(١) الكسع: ضرب الدبر.

يوم الربيع

ثم التقت الأنصار بعد يوم الجسر بالربيع، وهو حائط في ناحية السفح، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يفني بعضهم بعضاً، فانهزمت الأوس وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم، وكانوا قبل ذلك إذا انهزمت إحدى الطائفتين فدخلت دورهم كفت الأخرى عن اتباعهم. فما[1] تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس الصلح، فامتنعت بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم. فحصنت الأوس النساء والذراري في الآطام، وهي الحصون، ثم كفت عنهم الخزرج، فقال صخر بن سليمان البياضي:

ألا أبلغا عني سويد بن صامت	ورهط سويد بلغا وابن الأسلت
بأنا قتلنا بالربيع سراتكم	وأفلت مجروحًا به كل مفلت
فلولا حقوق في العشيرة إنها	أدلت بحق واجب إن أدلت
لنالهم منا كما كان نالهم	مقانب خيل أهلكت حين حلت

فأجابه سويد بن الصامت:

ألا أبلغا عني صخيراً رسالة	فقد ذقت حرب الأوس فيها ابن الأسلت
قتلنا سراياكم بقتلى سراتنا	وليس الذي ينجو إليكم بمفلت

ومنها:

(١) كذا بالمطبوعة، ولعل الصواب، «فلما».

ومنها يوم البقيع

ثم التقت الأوس والخزرج ببقيع الغرقد فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكان الظفر يومئذ للأوس، فقال عبيد بن ناقد الأوسي:

لما رأيت بني عوف وجمعهم ... جاءوا وجمع بني النجار قد حفلوا
دعوت قومي وسهلت الطريق لهم ... إلى المكان الذي أصحابه حللوا
جادت بأنفسها من مالك عصب ... يوم اللقاء فما خافوا ولا فشلوا
وعاوروكم كؤوس الموت إذ برزوا ... شطر النهار وحتى أدبر الأصل
حتى استقاموا وقد طال المراس[1] بهم ... فكلهم من دماء القوم قد نهلوا
تكشف البيض عن قتلى أولي رحم ... لولا المسالم والأرحام ما نقلوا
تقول كل فتاة غاب قيمها ... أكل من خلفنا من قومنا قتلوا
لقد قتلتم كريمًا ذا محافظة ... قد كان حالفه القينات والحلل
جزل نوافله حلو شمائله ... ريان واغله تشقى به الإبل

الواغل الذي يدخل على القوم وهم يشربون، فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثي الخزرجي:

لما رأيت بني عوف وإخوتهم ... كعبًا وجمع بني النجار قد حفلوا
قدمًا أباحوا حماكم بالسيوف ولم ... يفعل بكم أحد مثل الذي فعلوا

وكان رئيس الأوس يومئذ في حرب حاطب أبو قيس بن الأسلت الوائلي، فقام في حربهم وهجر الراحة، فشحب وتغير. وجاء يومًا إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه، فقالت له: لقد أنكرتك حتى تكلمت! فقال:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا ... مهلاً فقد أبلغت أسماعي
واستنكرت له لونًا شاحبًا ... والحرب غول ذات أوجاع

---

(١) المراس: الممارسة والمعالجة.

من يذق الحرب يجد طعمها ... مرًا وتتركه بجعجاع[1]
قد حصت البيضة رأسي فما ... أطعم نومًا غير تهجاع[2]
أسعى على جل بني مالك ... كل امرئ في شأنه ساعي
أعددت للأعداء موضونة[3] ... فضفاضة كالنهي بالقاع
أحفزها عني بذي رونق ... مهند كاللمع قطاع
صدق حسام وادق[4] حده ... ومنحن أسمر قراع

وهي طويلة.

ثم إن أبا قيس بن الأسلت جمع الأوس وقال لهم: ما كنت رئيس قوم قط إلا هزموا، فرئسوا عليكم من أحببتم، فرأسوا عليهم حضير الكتائب بن السماك الأشهلي، وهو والد أسيد بن حضير. لولده صحبة، وهو بدري، فصار حضير يلي أمورهم في حروبهم فالتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له الغرس، فكان الظفر للأوس، ثم تراسلوا في الصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى فمن كان عليه الفضل أعطى الدية، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة نفر، فدفعت الخزرج ثلاثة غلمة منهم رهنًا بالديات، فغدرت الأوس فقتلت الغلمان.

حرب الفجار الأول للأنصار

وليس بفجار كنانة وقيس. فلما قتلت الأوس الغلمان جمعت الخزرج وحشدوا والتقوا بالحدائق، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، وعلى الأوس أبو قيس ابن الأسلت، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كاد بعضهم يفني بعضًا. وسمي ذلك اليوم يوم الفجار لغدرهم بالغلمان، وهو الفجار الأول، فكان قيس بن الخطيم في حائط له فانصرف فوافق قومه قد برزوا للقتال فعجز عن أخذ سلاحه إلا السيف ثم خرج معهم، فعظم مقامه يومئذ وأبلى بلاء حسنًا وجرح جراحة شديدة، فمكث حينًا يتداوى منها، وأمر أن يحتمي عن الماء، فلذلك يقول عبد الله بن رواحة:

---

(١) الجعجاع: الأرض الغليظة.

(٢) حصت، حلقت. والتهجاع: النوم الخفيف.

(٣) الموضونة: الدرع المنسوجة.

(٤) الوادق: الماضي الضريبة. «اللسان» (١٠/ ٣٧٣).

رميناك أيام الفجار فلم تزل حميًا فمن يشرب فلست بشارب

يوم معبس ومضرّس

ثم التقوا عند معبس ومضرس، وهما جداران، فكانت الخزرج وراء مضرس، وكانت الأوس وراء معبس، فأقاموا أيامًا يقتتلون قتالاً شديدًا، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام، وكانت هزيمة قبيحة لم ينهزموا مثلها. ثم إن بني عمرو ابن عوف وبني أوس مناة من الأوس وادعوا الخزرج، فامتنع من الموادعة بنو عبدالأشهل وبنو ظفر وغيرهم من الأوس وقالوا: لا نصالح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج. فألحت الخزرج عليهم بالأذى والغارة حين وادعهم بنو عمرو بن عوف وأوس مناة، فعزمت الأوس إلا من ذكرنا على الانتقال من المدينة، فأغارت بنو سلمة على مال لبني الأشهل يقال له الرعل، فقاتلوهم عليه، فجرح سعد بن معاذ الأشهلي جراحة شديدة، واحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح الخزرجي، فأجاره وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار، فلما كان يوم بعاث جازاه سعد على ما نذكره إن شاء الله، ثم سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشًا على الخزرج وأظهروا أنهم يريدون العمرة. وكانت عادتهم أنه إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يعرض إليه خصمه ويعلق المعتمر على بيته كرانيف النخل، ففعلوا ذلك وساروا إلى مكة فقدموها وحالفوا قريشًا وأبو جهل غائب، فلما قدم أنكر ذلك وقال لقريش: أما سمعتم قول الأول: ويل للأهل من النازل! إنهم لأهل عدد وجلد ولقلما نزل قوم على قوم إلا أخرجوهم من بلدهم وغلبوهم عليه. قالوا: فما المخرج من حلفهم؟ قال: أنا أكفيكموهم، ثم خرج حتى جاء الأوس فقال: إنكم حالفتم قومي وأنا غائب فجئت لأحالفكم وأذكر لكم من أمرنا ما تكونون بعده على رأس أمركم. إنا قوم تخرج إماؤنا إلى أسواقنا ولا يزال الرجل منا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها، فإن طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم مثل ما تفعل نساؤنا حالفناكم، وإن كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا. فقالوا: لا نقر بهذا. وكانت الأنصار بأسرها فيهم غيرة شديدة، فردوا إليهم حلفهم وساروا إلى بلادهم، فقال حسان بن ثابت يفتخر بما أصاب قومه من الأوس:

ألا بلغ أبا قيس رسولاً إذا ألقى لها سمع مبين

فلست بحاضر إن لم يزركم خلال الدار مسبلة طحون

يدين لها العزيز إذا رآها ويسقط من مخافتها الجنين

تشيب الناهد العذراء منها ... ويهرب من مخافتها القطين[1]

يطوف بها من النجار أسد ... كأسد الغيل مسكنها العرين

يظل الليث فيها مستكينًا ... له في كل ملتف أنين

كأن بهاءها للناظريها ... من الأسلات والبيض الفتين[2]

كأنهم من الماذي عليهم ... جمال حين يجتلدون جون

فقد لاقاك قبل بعاث قتل ... وبعد بعاث ذل مستكين

وهي طويلة أيضًا.

يوم الفجار الثاني للأنصار

كانت الأوس قد طلبت من قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يؤذنونهم بالحرب، فقالت اليهود: إنا لا نريد ذلك فأخذت الخزرج رهنهم على الوفاء، وهم أربعون غلامًا من قريظة والنضير، ثم إن يزيد بن فُسحم شرب يومًا فسكر فتغنى بشعر يذكر فيه ذلك:

هلم إلى الأحلاف إذ رقّ عظمهم ... وإذ أصلحوا مالاً لجذمان ضائعا

إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة ... بعثنا عليهم من بني العير جادعا

فأما الصريخ منهم فتحملوا ... وأما اليهود فاتخذنا بضائعا

أخذنا من الأولى اليهود عصابة ... لغدرهم كانوا لدينا ودائعا

فذلوا لرهن عندنا في حبالنا ... مصانعة يخشون منا القوارعا

وذاك بأنا حين نلقى عدونا ... نصول بضرب يترك العز خاشعا

فبلغ قوله قريظة والنضير فغضبوا. وقال كعب بن أسد: نحن كما قال: إن لم نغر فخالف الأوس على الخزرج. فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير. فأطلقوا نفرًا، منهم: سليم بن أسد القرظي جد محمد بن كعب بن سليم. واجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وسمي ذلك الفجار الثاني لقتل الغلمان من اليهود.

---

(١) القطين: القاطن والساكن.

(٢) الفتين: الثوب المزخرف «النهاية» (١/ ٣٩٥).

وقد قيل في قتل الغلمان غير هذا، وهو: أن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضة: إن أباكم أنزلكم منزلة سوء، والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير أو أقتل رهنهم! وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع، فأرسل إلى قريظة والنضير: إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم، وإما أن نقتل الرهن. فهموا بأن يخرجوا من ديارهم، فقال لهم كعب بن أسيد القرظي: يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان، ما هي إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأة حتى يولد له مثل أحدهم. فأرسلوا إليهم: إنا لا نتنقل عن ديارنا فانظروا في رهننا فعوالنا[1]. فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم فقتلهم، وخالفه عبد الله بن أبي بن سلول فقال: هذا بغي وإثم، ونهاه عن قتلهم وقتال قومه من الأوس وقال له: كأني بك وقد حملت قتيلاً في عباءة يحملك أربعة رجال. فلم يقتل هو ومن أطاعه أحداً من الغلمان وأطلقوهم، ومنهم: سليم بن أسد جد محمد بن كعب. وحالفت حينئذ قريظة والنضير والأوس على الخزرج، وجرى بينهم قتال سمي ذلك اليوم يوم الفجار الثاني. وهذا القول أشبه بأن يسمى اليوم فجاراً، وأما على القول الأول فإنما قتلوا الرهن جزاءً للغدر من اليهود فليس بفجار من الخزرج إلا أن يسمى فجاراً لغدر اليهود.

يوم بعاث

ثم إن قريظة والنضير جددوا العهود مع الأوس على الموازرة والتناصر، واستحكم أمرهم وجدوا في حربهم، ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا. فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة، وراسلت الأوس حلفاءها من مزينة، ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب، والتقوا ببعاث، وهي من أعمال قريظة، وعلى الأوس حضير الكتائب بن سماك والد أسيد ابن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، وتخلف عبد الله بن أبي بن سلول فيمن تبعه عن الخزرج، وتخلف بنو حارثة بن الحرث عن الأوس. فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً وصبروا جميعاً، ثم إن الأوس وجدت مس السلاح فولوا منهزمين نحو العريض فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح: واعقراه كعقر الجمل! والله لا أعود حتى أقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا. فعطفوا عليه وقاتل عنه غلمان من بني عبد الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا، وأقبل سهم لا يدرى من رمى به فأصاب عمرو

(١) كذا في المطبوعة.

ابن النعمان البياضي رئيس الخزرج فقاله[1]، فبينا عبد الله بن أبي بن سلول يتردد راكبًا قريبًا من بعاث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلاً في عباءة يحمله أربعة رجال، كما كان قال له. فلما رآه قال: ذق وبال البغي! وانهزمت الخزرج، ووضعت فيهم الأوس السلاح، فصاح صائح: يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب! فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم. وإنما سلبهم قريظة والنضير، وحملت الأوس حضيراً مجروحًا فمات. وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم، فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل، وقد تقدم ذكره، ونجى يومئذ الزبير ابن إياس بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي، أخذه فجز ناصيته وأطلقه، وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الإسلام يوم بني القريظة، وسنذكره، وكان يوم بُعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله وكفى الله المؤمنين القتال، وأكثرت الأنصار الأشعار يوم بُعاث، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم الظفري الأوسي:

أتعرف رسمًا كالطراز المذهب ... لعمرة ركبًا غير موقف راكب
ديار التي كانت ونحن على منىً ... تحل بنا لولا رجاء الركائب
تبدت لنا كالشمس تحت غمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ومنها:

وكنت امرأ لا أبعث الحرب ظالمًا ... فلما أبوا شعلتها كل جانب
أذنت بدفع الحرب حتى رأيتها ... عن الدفع لا تزداد غير تقارب
فلما رأيت الحرب حربًا تجردت ... لبست مع البردين ثوب المحارب
مضعفة يغشى الأنامل ريعها ... كأن قتيريها عيون الجنادبِ
ترى قصد المران تلقى كأنها ... تذرّع خرصان بأيدي الشواطب
وسامحني ملكًا هنين ومالك ... وثعلبة الأخيار رهط المصائب
رجال متى يدعو إلى الحرب يسرعوا ... كمشي الجمال المشعلات المصائب
إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا ... صدود الخدود وازورار المناكب

(١) كذا في المطبوعة، وفي بعضها: «فقال» ولعل الصواب: «فقتله».

صدود الخدود والقنا متشاجر ... ولا تبرح الأقدام عند التضارب
ظأرناكموا بالبيض حتى لأنتمو ... أذل من السقبان[١] بين الحلائب
يجردن بيضًا كل يوم كريهة ... ويرجعن حمراً جارحات المضارب
لقيتكموا يوم الحدائق حاسراً ... كأن يدي بالسيف مخراق لاعب
ويوم بُعاث أسلمتنا سيوفنا ... إلى حسب في جذم غسان ثاقب
قتلناكموا يوم الفجار وقبله ... ويوم بعاث كان يوم التغالب
أتت عصب للأوس تخطر بالقنا ... كمشي الأسود في رشاش الأهاضب

فأجابه عبد الله بن رواحة:

أشاقتك ليلى في الخليط المجانب ... نعم فرشاش الدمع في الصدر غالب
بكت أثر من شطت نواه ولم يقم ... لحاجة محزون شكا الحب ناصب
لدن غدوةً حتى إذا الشمس عارضت ... أراحت له من لبه كل عازب
نحامي على أحسابنا بتلادنا[٢] ... لمفتقر أو سائل الحق واجب
وأعمى هدته للسبيل سيوفنا ... وخصم أقمنا بعد مانج ثاعب
ومعترك ضنك يرى الموت وسطه ... مشينا له مشي الجمال المصاعب
برجل ترى الماذي فوق جلودهم ... وبيضًا نقيًّا مثل لون الكواكب
وهم حسر لا في الدروع تخالهم ... أسوداً متى تنشا الرماح تضارب
معاقلهم في كل يوم كريهة ... مع الصدق منسوب السيوف القواضب

وهي طويلة.

وليلى التي شبب بها ابن رواحة هي أخت قيس بن الخطيم، وعمرة التي شبب بها ابن الخطيم هي أخت عبد الله بن رواحة، وهي أم النعمان بن بشير الأنصاري.

(بعاث) بضم الباء الموحدة، وبالعين المهملة: وقال صاحب كتاب العين وحده: وهو بالغين المعجمة.

---

(١) السقب: ولد الناقة.
(٢) التلاد: المال القديم.

ذكر غلبة ثقيف على الطائف والحرب بين الأحلاف وبني مالك

كانت أرض الطائف قديمًا لعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر. فلما كثر بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان غلبوهم على الطائف بعد قتال شديد. وكان بنو عامر يصيفون بالطائف ويشتون بأرضهم من نجد وكانت مساكن ثقيف حول الطائف، وقد اختلف الناس فيهم، فمنهم من جعلهم من إياد فقال ثقيف اسمه قسي بن نبت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أفصى بن دعمي بن إياد بن معد، ومنهم من جعلهم من هوازن فقال: هو قيس بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، فرأت ثقيف البلاد فأعجبهم نباتها وطيب ثمرها فقالوا لبني عامر: إن هذه الأرض لا تصلح للزرع وإنما هي أرض ضرع ونراكم على أن آثرتم الماشية على الغراس، ونحن أناس ليست لنا مواش فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع بغير مؤنة تدفعون إلينا بلادكم هذه فنثيرها ونغرسها ونحفر فيها الأطواء ولا نكلفكم مؤنة. نحن نكفيكم المؤنة والعمل، فإذا كان وقت إدراك الثمر كان لكم النصف كاملاً ولنا النصف بما عملنا فرغب بنو عامر في ذلك وسلموا إليهم الأرض، فنزلت ثقيف الطائف واقتسموا البلاد وعملوا الأرض وزرعوها من الأعناب والثمار ووفوا بما شرطوا لبني عامر حينًا من الدهر، وكان بنو عامر يمنعون ثقيفًا ممن أرادهم من العرب فلما كثرت ثقيف وشرفت حصنت بلادها وبنو سوراً على الطائف وحصنوه ومنعوا عامراً مما كانوا يحملونه إليهم عن نصف الثمار. وأراد بنو عامر أخذه منهم فلم يقدروا عليه فقاتلوهم فلم يظفروا، وكانت ثقيف بطنين: الأحلاف وبني مالك، وكان للأحلاف في هذا أثر عظيم، ولم يزل تعتد بذلك على بني مالك فأقاموا كذلك ثم إن الأحلاف أثروا وكثرت خيلهم فحموا لها حمى من أرض بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن يقال له جلذان، فغضب من ذلك بنو نصر وقاتلوهم عليه، ولجت الحرب بينهم. وكان رأس بني نصر عفيف بن عوف بن عباد النصري ثم اليربوعي، ورأس الأحلاف مسعود بن قعنب. فلما لجت الحرب بين بني نصر والأحلاف اغتنم ذلك بنو مالك ورئيسهم جندب بن عوف بن الحرث بن مالك بن حَطيط بن جشم من ثقيف لضغائن كانت بينهم وبين

الأحلاف، فحالفوا بني يربوع على الأحلاف. فلما سمعت الأحلاف بذلك اجتمعوا. وكان أول قتال كان بين الأحلاف وبين بني مالك وحلفاءهم من بني نصر يوم الطائف، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانتصر الأحلاف وأخرجوهم منه إلى واد من وراء الطائف يقال له لحب، وقتل من بني مالك وبني يربوع مقتلة عظيمة في شعب من شعاب ذلك الجبل يقال له الأبان. ثم اقتتلوا بعد ذلك أيامًا مسميات، منهن يوم عمر ذي كندة، من نحو نخلة، ومنهن يوم كروبا من نحو حلوان، وصاح عفيف ابن عوف اليربوعي في ذلك اليوم صيحة يزعمون أن سبعين حبلى منهم ألقت ما في بطنها، فاقتتلوا أشد قتال ثم افترقوا. فسارت بنو مالك تبتغي الحلف من دوس وخثعم وغيرهما على الأحلاف وخرجت الأحلاف إلى المدينة تبتغي الحلف من الأنصار على بني مالك، فقدم مسعود بن معتب على أحيحة بن الجلاح أحد بني عمرو بن عوف من الأوس وكان أشرف الأنصار في زمانه، فطلب منه الحلف، فقال له أحيحة: والله ما خرج رجل من قومه إلى قوم قط بحلف أو غيره إلا أقر لأولئك القوم بشر مما أنف منه من قومه، فقال له مسعود: إني أخوك، وكان صديقًا له، فقال: أخوك الذي تركته وراءك فارجع إليه وصالحه ولو بجدع أنفك وأذنك فإن أحدًا لن يبرلك في قومك إذ حالفته فانصرف عنه وزوده بسلاح وزاد وأعطاه غلامًا كان يبني الآطام، يعني الحصون، بالمدينة، فبنى لمسعود بن معتب أطمًا فكان أول أطم بنى بالطائف، ثم بنيت الآطام بعده بالطائف، ولم يكن بعد ذلك بينهم حرب تذكر. وقالوا في حربهم أشعار كثيرة، فمن ذلك قول محبر، وهو ربيعة بن سفيان أحد بني عوف بن عقدة من الأحلاف:

وما كنت ممن أرث[1] الشر بينهم	ولكن مسعودًا جناها وجندبا
قريعي ثقيف أنشبا الشر بينهم	فلم يك عنها منزع حين أنشبا
عناقًا ضروسًا بين عوف ومالك	شديدًا لظاها تترك الطفل أشيبا
مضرمة شبًا أشبا وقودها	بأيديهما ما أورياها وأثقبا
كجمثورة جاؤوا تخطوا مآبنا	وعوف بما جرا عليها وأجلبا
أصابت براء من طوائف مالك	إليهم وتدعو إلى اللقاء معتبا

(١) أرث: أي أفسد بينهم.

وتدعو بني عوف بن عقدة في الوغى ... وتدعو علاجًا والحليف المطيبا
حبيبًا وحيًا من رباب كتائبًا ... وسعدًا إذا الداعي إلى الموت ثوبا
وقومًا بمكر وثاء شنت معتب ... بغارتها فكان يومًا عصبصبا[1]
فأسقط أحبال النساء بصوته ... عفيف إذا نادى بنصر فطربا

(عفيف) هذا بضم العين وفتح الفاء.

* * *

(١) عصبصب: شديد.

نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وذكر بعض أخبار آبائه وأجداده[١]

واسم رسول الله ﷺ محمد، وقد تقدم ذكر ولادته في ملك كسرى أنوشروان، وهو محمد بن عبد الله، ويكنى عبد الله أبا قثم، وقيل: أبا محمد، وقيل: أبا أحمد ـ بن عبد المطلب.

وكان عبد الله أصغر ولد أبيه، فكان عبد الله وأبو طالب، واسمه عبد مناف، والزبير، وعبد الكعبة، وعاتكة، وأميمة، وبرة ولد عبد المطلب، أمهم جميعهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة.

وكان عبد المطلب نذر حين لقي من قريش العنت في حفر زمزم ـ كما نذكره ـ لئن ولد له عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى. فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم سيمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟

قال: يأخذ كل رجل منكم قدحًا ثم يكتب فيه اسمه. ففعلوا وأتوه بالقداح، فدخلوا على هبل في جوف الكعبة، وكان أعظم أصنامهم، وهو على بئر يجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة. وكان عند هبُل سبعة أقدح، في كل قدح كتاب، فقدح فيه العقل إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة، وقدح فيه «نعم» للأمر إذا أرادوه يضرب به، فإن خرج نعم عملوا به، وقدح فيه «لا»، فإذا أرادوا أمرًا ضربوا به فإذا خرج لا لم يعملوا ذلك الأمر، وقدح فيه «منكم»، وقدح فيه «مُلْصَق»، وقدح فيه من غيركم، وقدح فيه المياه. وإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلامًا أو ينكحوا جارية أو يدفنوا ميتًا أو شكوا في نسب أحد منهم ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوه صاحب القداح الذي يضربها ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا: يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فيضرب، فإن خرج عليه «منكم» كان وسيطًا، وإن خرج عليه «من

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٤٩٧) و«البداية» (٢/ ٢٥٢).

غيركم» كان حليفًا، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته لا نسب له ولا حلف، وإن خرج عليه شيء سوى هذا مما يعملون به، فإن خرج «نعم» عملوا به، وإن خرج «لا» أخروه عامهم ذلك حتى أتوه به مرة أخرى، ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح.

وقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذي نذر.

وكان عبد الله أصغر بني أبيه وأحبهم إليه. فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام عبد المطلب يدعو الله تعالى، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج قدح على عبدالله. فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى إساف ونائلة، وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما. فقامت قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد؟ قال: أذبحه.

فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه. فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم: والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه. وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها فإن أمرتك بذبحه ذبحته، فإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته، فانطلقوا إليها، وهي بخيبر، فقص عليها عبد المطلب خبره، فقالت: ارجعوا اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا عنها. ثم غدوا عليها فقالت: نعم، قد جاءني الخبر، فكم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل، وكانت كذلك. قالت: ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشرًا من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرج على صاحبكم فزيدوا عشرًا حتى يرضى ربكم. وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى أتو مكة، فلما أجمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرًا من الإبل، فخرجت القداح على عبد الله، فزادوا عشرًا، فخرجت القداح على عبد الله. فما برحوا يزيدون عشرًا وتخرج القداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة، ثم ضربوا فخرجت القداح على الإبل، فقال من حضر: قد رضي ربك يا عبد المطلب.

فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب ثلاث مرات. فضربوا ثلاثًا، فخرجت القداح على الإبل، فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع.

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ابنة وهب أم رسول الله ﷺ، فإنه لما فرغ عبد المطلب من الإبل انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده فمر على أم قتال ابنة نوفل بن أسد أخت ورقة بن نوفل، وهي عند البيت، فقالت له حين نظرت إليه وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال: مع أبي. قالت: لك عندي مثل الذي نحر عنك أبوك من الإبل وقع عليّ الآن قال: إن معي أبي لا أستطيع خلافه ولا فراقه.

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة - وهو سيد بني زهرة - فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهي لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي، وبرة لأم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وأم حبيب لبرة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب، فدخل عبد الله عليها حين ملكها مكانها فوقع عليها فحملت بسيدنا محمد ﷺ ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه نفسها بالأمس فقال لها: ما لك لا تعرضين عليَّ اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه كائن لهذه الأمة نبي من بني إسماعيل[1]؛ وقيل: إن عبد المطلب خرج بابنه عبد الله ليزوجه فمر به على كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر متهودة من أهل تبالة[2] فرأت في وجهه نوراً وقالت له: يا فتى هل لك أن تقع علي الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال لها:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم قال لها: أنا مع أبي ولا أقدر أن أفارقه. فمضى فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة. فأقام عندها ثلاثًا ثم انصرف، فمر بالخثعمية فدعته نفسه إلى ما دعته إليه، فقال لها: هل لك فيما كنت أردت؟ فقالت: يا فتى ما أنا بصاحبة ريبة ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد، فما صنعت بعدي، قال: زوجني أبي آمنة بنت وهب. قالت فاطمة بنت مر:

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٩٧- ٤٩٩) عن ابن إسحاق معضلاً.

(٢) تبالة: موضع ببلاد اليمن.

إني رأيت مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتم[1] القطر

فسماتها نوراً يضيء به ... ما حوله كإضاءة البدر

ورأيت سُقياها حيا بلد ... وَقَعَتْ به وعمارة القفر

فرجوته فخراً أبوء به ... ما كلُّ قَادِحِ زَنْدَه يُورِي

لله ما زهرية سلبت ... منك الذي سلبت وما تدري

وقالت أيضًا في ذلك:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم ... أمينة إذ للبباه يعتركان

كما غادر المصباح عند خموده ... فتائل قد بلت له بدهان

فما كل ما يحوي الفتى من ملاذه ... لعزم ولا ما فاته لتوان

فأجمل إذا طالبت أمراً فإنه ... سيكفيكه جدان يعتلجان

سيكفيكه إما يد مقفعلة[2] ... وإما يد مبسوطة ببنان

ولما حوت منه أمينة ما حوت ... حوت منه فخراً ما لذلك شأني[3]

وقيل: إن الذي اجتاز بها غير هذا، والله أعلم.

قال الزهري: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات بالمدينة. وقيل: بل كان في الشام فأقبل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها ودفن في دار النابغة الجعدي وله خمس وعشرون سنة، وقيل: ثمان وعشرون سنة، وتوفي قبل أن يولد رسول الله ﷺ[4].

(ابن عبد المطلب) واسمه شيبة، سمي بذلك لأنه كان في رأسه لما ولد شيبة، وأمه سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجية النجارية، ويكنى أبا الحارث، وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشمًا شخص في تجارة إلى الشام، فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن لبيد الخزرجي من بني النجار، فرأى ابنته سلمى فأعجبته فتزوجها وشرط

---

(١) الحناتم: السحاب.

(٢) يد مقفعلة: أي متقبضة «النهاية» (٤/ ٩١).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند فيه ضعف.

(٤) أخرجه الطبري في المصدر السابق من طريق الواقدي، وهو متروك.

أبوها أن لا تلد ولدًا إلا في أهلها، ثم مضى هاشم لوجهه وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت. فلما أثقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام فمات بغزة فولدت له سلمى: عبد المطلب، فمكث بالمدينة سبع سنين.

ثم إن رجلاً من بني الحارث بن عبد مناف مر بالمدينة فإذا غلمان ينتضلون، فجعل شيبة إذا أصاب قال: أنا ابن هاشم أنا ابن سيد البطحاء. فقال له الحارثي: من أنت؟ قال: أنا ابن هاشم بن عبد مناف. فلما أتى الحارثي مكة قال للمطلب، وهو بالحجر: يا أبا الحارث تعلم أني وجدت غلمانًا بيثرب وفيهم ابن أخيك ولا يحسن ترك مثله.

فقال المطلب: لا أرجع إلى أهلي حتى آتي به. فأعطاه الحارثي ناقة فركبها وقدم المدينة عشاء فرأى غلمانًا يضربون كرة، فعرف ابن أخيه فسأل عنه فأخبر به، فأخذه وأركبه على عجز الناقة. وقيل: بل أخذه بإذن أمه، وسار إلى مكة فقدمها ضحوة والناس في مجالسهم فجعلوا يقولون له: من هذا وراءك؟ فيقول: هذا عبدي. حتى أدخله منزله على امرأته خديجة بنت سعيد بن سهم فقالت: من هذا الذي معك؟ قال: عبد لي. واشترى له حلة فلبسها ثم خرج به العشي فجلس إلى مجلس بني عبد مناف فأعلمهم أنه ابن أخيه، فكان بعد ذلك يطوف بمكة فيقال: هذا عبد المطلب، لقوله هذا عبدي. ثم أوقفه المطلب على ملك أبيه فسلمه إليه. فعرض له نوفل بن عبد مناف، وهو عمه الآخر، بعد موت المطلب، في ركح له ـ وهو الفناء ـ فأخذه، فمشى عبد المطلب إلى رجالات قريش وسألهم النصرة على عمه، فقالوا له، ما ندخل بينك وبين عمك. فكتب إلى أخواله من بني النجار يصف لهم حاله، فخرج أبو سعيد بن عدس النجاري في ثمانين راكبًا حتى أتى الأبطح، فخرج عبد المطلب يتلقاه، فقال له: المنزل يا خال! قال: حتى ألقى نوفلاً. وأقبل حتى وقف على رأسه في الحجر مع مشايخ قريش، فسل سيفه ثم قال: ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا ركحه أو لأملأن منك السيف! قال: فإني ورب هذه البنية أرد عليه ركحه، فأشهد عليه من حضر ثم قال لعبد المطلب: المنزل يا بن أختي. فأقام عنده ثلاثًا، فاعتمروا وانصرفوا. فدعا ذلك عبد المطلب إلى الحلف، فدعا بشر بن عمرو[1] وورقاء بن فلان ورجالاً من رجالات خزاعة فحالفهم في

(١) في «تاريخ الطبري» (١/ ٥٠٣): «بسر بن عمرو».

الكعبة وكتبوا كتابًا. وكان إلى عبد المطلب السقاية والرفادة، وشرف في قومه وعظم شأنه.

ثم إنه حفر زمزم، وهي بئر إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام التي أسقاه الله تعالى منها، فدفنتها جرهم، وقد تقدم ذكر ذلك، وكان سبب حفره إياها أنه قال: بينا أنا نائم بالحجر إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة. قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب.

فرجعت الغد إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة. قال: قلت: وما برة؟ قال: ثم ذهبت عني.

قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: فذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لا تندم فقلت. وما زمزم؟ قال: تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبدًا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، يكون ميراثًا وعقدًا محكم، ليس كبعض ما قد تعلم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

فلما بين له شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث ليس له ولد غيره فحفر بين إساف ونائلة في الموضع الذي تنحر فيه قريش لأصنامها، وقد رأى الغراب ينقر هناك. فلما بدا له الطوي[1] كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًّا فأشركنا معك. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به دونكم قالوا: فإنا غير تاركيك حتى تخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم. قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، وكانت بمشارف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم. فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ فقالوا: رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت. قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة، فكلما مات

(١) الطوى: البئر المطوية بالحجارة.

واحد واراه أصحابه حتى يكون آخركم موتًا وقد وارى الجميع، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب. قالوا: نعم ما رأيت. ففعلوا ما أمرهم به.

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا لعجز. فارتحلوا ومن معه من قبائل قريش ينظرون إليهم، ثم ركب عبد المطلب، فلما انبعثت به راحلته انفجرت من تحت خفها عين عذبة من ماء فكبر وكبر أصحابه وشربوا وملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله.

فقال أصحابه: لا نسقيهم لأنهم لم يسقونا. فلم يسمع منهم وقال: فنحن إذًا مثلهم! فجاء أولئك القرشيون فشربوا وملأوا أسقيتهم وقالوا: قد والله قضى الله لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا فرجعوا إليه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها.

فلما فرغ من حفرها وجد الغزالين اللذين دفنتهما جرهم فيها، وهما من ذهب، ووجد فيها أسيافًا قلعية وأدراعًا. فقالت له قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق.

قال: لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم، نضرب عليها بالقداح. فقالوا: كيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين ولكم قدحين ولي قدحين، فمن خرج قداحه على شيء أخذه، ومن تخلف قداحة فلا شيء له. قالوا: أنصفت. ففعلوا ذلك وضربت القداح عند هبل فخرج قدحا الكعبة على الغزالين، وخرج قدحا عبد المطلب على الأسياف والأدراع، ولم يخرج لقريش شيء من القداح. فضرب عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة وجعل فيه الغزالين صفائح من ذهب، فكان أول ذهب حليت به الكعبة.

وقيل: بل بقيا في الكعبة وسرقا، على ما نذكره.

وأقبل الناس والحجاج على بئر زمزم تبركًا بها ورغبة فيها وأعرضوا عما سواها من الأبيار. ولما رأى عبد المطلب تظاهر قريش عليه نذر لله تعالى: إن يرزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويذبوا عنه نحر أحدهم قربانًا لله تعالى. وقد ذكر النذر في اسم عبد الله أبي النبي ﷺ

وعبد المطلب أول من خضب بالوسمة، وهو السواد، لأن الشيب أسرع إليه.

وكان لعبد المطلب جار يهودي يقال له «أذينة» يتجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية، وكان نديم عبد المطلب، فأغرى به فتيانًا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمي جد أبي بكر رضي الله عنه فلم يعرف عبد المطلب قاتليه، فلم يزل يبحث حتى عرفهما، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حربًا ولامه وطلبهما منه. فأخفاهما، فتغالظا في القول حتى تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة، فلم يدخل بينهما، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى العدوي جد عمر بن الخطاب. فقال لحرب: يا أبا عمرو أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأوسم وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا[1]، وأطول منك مددًا، وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة[2] لحبل العشيرة، ولكنك نافرت منفرًا، فغضب حرب وقال: من انتكاس الزمان أن جعلت حكمًا. فترك عبد المطلب منادمة حرب ونادم عبد الله بن جدعان التيمي، وأخذ من حرب مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودي وارتجع ماله إلا شيئًا هلك فغرمه من ماله.

وهو أول من تحنث بحراء، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين جميع الشهر.

وتوفي وله مائة وعشرون سنة، وكان قد عمي. وقيل غير ذلك.

(ابن هاشم)

واسم هاشم عمرو، وكنيته أبو نضلة، وإنما قيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه.

قال ابن الكلبي: كان هاشم أكبر ولد عبد مناف، والمطلب أصغرهم، أمة عاتكة بنت مرة السلمية، ونوفل، وأمة واقدة، وعبد شمس، فسادوا كلهم، وكان يقال لهم المجيرون. وهم أول من أخذ لقريش العصم، فانتشروا من الحرم، أخذ لهم هاشم خيلاً من الروم وغسان بالشام، وأخذ لهم عبد شمس خيلاً من النجاشي بالحبشة، وأخذ لهم نوفل خيلاً من الأكاسرة بالعراق، وأخذ لهم المطلب خيلاً من

(١) الصفد: العطاء.

(٢) المريرة: عزة النفس.

حمير باليمن، فاختلفت قريش بهذا السبب إلى هذه النواحي، فجبر الله بهم قريشًا وقيل: إن عبد شمس وهاشمًا توأمان، وإن أحدهما ولد قبل الآخر وإصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه فنحيت، فسال الدم، فقيل: يكون بينهما دم.

وولي هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه من السقاية والرفادة، فحسده أمية ابن عبد شمس على رياسته ولإطعامه، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه، فشمتت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جد عمرو بن الحمق، ومنزله بعسفان، وكان مع أمية همهمة بن عبد العزى الفهري، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر.

فقضى لهاشم بالغلبة، وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية.

وكان يقال لهاشم والمطلب البدران لجمالها، ومات هاشم بغزة وله عشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة، وهو أول من مات من بني عبد مناف ثم مات عبد شمس بمكة فقبر بأجياد. ثم مات، نوفل بسلمان من طريق العراق. ثم مات عبد المطلب بردمان من أرض اليمن وكانت الرفادة والسقاية بعد هاشم إلى أخيه المطلب لصغر ابنه عبد المطلب بن هاشم.

(ابن عبد مناف): واسمه المغيرة، وكنيته أبو عبد شمس، وكان يقال له: القمر لجماله، وكانت أمه حين ولدته دفعته إلى مناف، صنم بمكة، تدينًا بذلك، فغلب عليه عبد مناف.

وكان عبد مناف وعبد العزى وعبد الدار بنو قصي إخوة، أمهم حبى ابنة حليل ابن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن خزاعة، وهو الذي عقد الحلف بين قريش والأحابيش، والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، وبنو الهون من خزيمة، وكان قصي يقول: ولد لي أربعة بنين فسميت ابنين بالإهي، وهما عبد مناف وعبد العزى وواحدًا بداري وهو عبد الدار، وواحدًا بي، وهو عبد قصي.

(حليل) بضم الحاء المهملة، وفتح اللام الأولى. و(حبشية) بضم الحاء.

(ابن قصي)

واسمه زيد، وكنيته أبو المغيرة، وإنما قيل له قصي لأن ربيعة بن حرام بن ضبة ابن عبد كثير بن عذرة بن سعد بن زيد تزوج أمه فاطمة ابنة سعد بن سيل، واسمه جبر بن جمالة بن عوف، وهي أيضًا أم أخيه زهرة، ونقلها إلى بلاد عذرة من مشارف الشام وحملت معها قصيًا لصغره، وتخلف زهرة في قومه لكبره، فولدت أمه فاطمة لربيعة بن حرام: رزاح بن ربيعة، فهو أخي قصي لأمه. وكان لربيعة ثلاثة نفر من امرأة أخرى، وهم حن بن ربيعة ومحمود وجلهمة، وقيل: إن حنا كان أخا قصي لأمه. فشب زيد في حجر ربيعة فسمي قصيًا لبعده عن دار قومه، وكان قصي ينتمي إلى ربيعة إلى أن كبر، وكان بينه وبين رجل من قضاعة شيء، فعيره القضاعي بالغربة، فرجع قصي إلى أمه وسألها عما قال، فقالت له: يا بني أنت أكرم منه نفسًا وأبًا، أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام.

فصبر حتى دخل الشهر الحرام وخرج مع حاج قضاعة حتى قدم مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب إلى حليل بن حبشية الخزاعي ابنته حبى، فزوجه ـ وحليل يومئذ يلي الكعبة ـ فولدت أولاده: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد ابن قصي، وكثر ماله وعظم شرفه.

وهلك حليل وأوصى بولاية البيت لابنته حبى، فقالت: إني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه فجعل فتح الباب وإغلاقه إلى ابنه المحترش، وهو أبو غبشان. فاشترى قصي منه ولاية البيت بزق خمر وبعود، فضربت به العرب المثل فقالت: أخسر صفقة من أبي غبشان.

فلما رأت ذلك خزاعة كثروا على قصي، فاستنصر أخاه رزاحًا، فحضر هو وإخوته الثلاثة فيمن تبعه من قضاعة إلى نصرته، ومع قصي قومه بنو النضر، وتهيأ لحرب خزاعة وبني بكر، وخرجت إليهم خزاعة فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فكثرت القتلى في الفريقين والجراح، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، فقضى بينهم بأن قصيًا أولى بالبيت ومكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه من خزاعة وبني بكر موضوع فيشدخه تحت قدميه، وأن كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة

ففي ذلك الدية مؤداة، فسمي بعمرو الشداخ بما شدخ من الدماء وما وضع منها. فولي قصي البيت وأمر مكة وقيل: إن حليل بن حبشية أوصى قصيًّا بذلك وقال: أنت أحق بولاية البيت من خزاعة. فجمع قومه وأرسل إلى أخيه يستنصره، فحضر في قضاعة في الموسم وخرجوا إلى عرفات وفرغوا من الحج ونزلوا منى وقصي مجمع على حربهم، وإنما ينتظر فراغ الناس من حجهم، فلما نزلوا منى ولم يبق إلا الصدر، وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفات وتجيزهم إذا تفرقوا من منى، إذا كان يوم نفر أتوا لرمي الجمار، ورجل من صوفة يرمي للناس لا يرمون حتى يرمي، فإذا فرغوا من منى أخذت صوفة بناحيتي العقبة وحبسوا الناس، فقالوا: أجيزي صوفة، فإذا نفرت صوفة ومضت خلي سبيل الناس فانطلقوا بعدهم. فلما كان ذلك العام فعلت صوفة كما كانت تفعل، قد عرفت لها العرب ذلك، فهو دين في أنفسهم، فأتاهم قصي ومن معه من قومه ومن قضاعة فمنعهم وقال: نحن أولى بهذا منكم.

فقاتلوه وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزمت صوفة وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة. فلما انحازوا عنه بادأهم فقاتلهم، فكثر القتل في الفريقين وأجلى خزاعة عن البيت، وجمع قصي قومه إلى مكة من الشعاب والأودية والجبال، فسمي مجمعًا، ونزل بني بغيض بن عامر بن لؤي وبني تميم الأدرم بن غالب بن فهر وبني محارب ابن فهر وبني الحارث بن فهر، إلا بني هلال بن أهيب رهط أبي عبيدة بن الجراح وإلا رهط عياض بن غنم، بظواهر مكة، فسموا قريش الظواهر، وتسمى سائر بطون قريش قريش البطاح، وكانت قريش الظواهر تغير وتغزو، وتسمى قريش البطاح الضب للزومها الحرم.

فلما ترك قصي قريشًا بمكة وما حولها ملكوه عليهم. فكان أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكًا أطاعه به قومه، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف قريش كله، وقسم مكة أرباعًا بين قومه، فبنوا المساكن واستأذنوه في قطع الشجر، فمنعهم، فبنوا والشجر في منازلهم، ثم إنهم قطعوه بعد موته. وتيمنت قريش بأمره فما تنكح امرأة ولا رجل إلا في داره، ولا يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء للحرب إلا في داره،

يعقده بعض ولده، وما تدرع جارية[١] إذا بلغت أن تدرع إلا في داره، وكان أمره في قومه كالدين المتبع في حياته وبعد موته. فاتخذ دار الندوة وبابها في المسجد، وفيها كانت قريش تقضي أمورها.

فلما كبر قصي وَرَقّ، وكان ولده عبد الدار أكبر ولده، وكان ضعيفا، وكان عبد مناف قد ساد في حياة أبيه وكذلك إخوته، قال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم.

فأعطاه دار الندوة والحجابة، وهي حجابة الكعبة، واللواء، فهو كان يعقد لقريش ألويتهم والسقاية، كان يسقي الحاج، والرفادة، وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع منه طعامًا للحاج يأكله الفقراء، وكان قصي قد قال لقومه: إنكم جيران الله وأهل بيته، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج. ففعلو فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام منى، فجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام إلى الآن، فهو الطعام الذي يصنعه الخلفاء كل عام بمنى.

فأما الحجابة فهي في ولده إلى الآن، وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار.

وأما اللواء فلم يزل في ولده إلى أن جاء الإسلام، فقال بنو عبد الدار: يا رسول الله اجعل اللواء فينا. فقال: الإسلام أوسع من ذلك فبطل[٢].

وأما الرفادة والسقاية فإن بني عبد مناف بن قصي عبد شمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل، أجمعوا أن يأخذوها من بني عبد الدار لشرفهم عليهم وفضلهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف، وطائفة مع بني عبد الدار لا يرون تغيير ما فعله قصي، وكان صاحب أمر بني عبد الدار عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبد الدار، فكان بنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم ابن مرة وبنو الحارث بن فهر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي مع بني عبد الدار، فتحالف كل قوم حلفًا مؤكدًا، وأخرج بنو

(١) أي تلبس الدرع، وهو القميص.
(٢) لم أقف عليه.

عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا فوضعوها عند الكعبة وتحالفوا وجعلوا أيديهم في الطيب، فسموا المطيبين. وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم وتحالفوا فسموا الأحلاف، وتعبوا للقتال، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، فرضوا بذلك وتحاجز الناس عن الحرب واقترعوا عليها، فصارت لهاشم بن عبد مناف، ثم بعده للمطلب بن عبد مناف، ثم لأبي طالب بن عبد المطلب، ولم يكن له مال فادّان من أخيه العباس بن عبد المطلب بن عبد مناف مالاً فأنفقه، ثم عجز عن الأداء فأعطى العباس السقاية والرفادة عوضًا عن دينه، فوليها، ثم ابنه عبد الله، ثم علي بن عبدالله، ثم محمد بن علي، ثم داود بن علي بن سليمان بن علي، ثم وليها المنصور وصار يليها الخلفاء، وأما دار الندوة فلم تزل لعبد الدار، ثم لولده حتى باعها عكرمة ابن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار من معاوية فجعلها دار الإمارة بمكة، وهي الآن في الحرم معروفة مشهورة، ثم هلك قصي فأقام أمره في قومه من بعده ولده، وكان قصي لا يخالف سيرته وأمره، ولما مات دفن بالحجون، فكنوا يزورون قبره ويعظمونه، وحفر بمكة بئرًا سماها العجول، وهي أول بئر حفرتها قريش بمكة.

(سيل) بفتح السين المهملة، والياء المثناة التحتية.

و(حرام) بفتح الحاء والراء المهملتين. و(رزاح) بكسر الراء، وفتح الزاي، وبعد الألف حاء مهملة. و(حبى) بضم الحاء المهملة، وتشديد الباء الموحدة. و(ملكان) بكسر الميم، وسكون اللام وأما ملكان بن حزم بن ريان، و(ملكان) بن عباد بن عياض، فهما بفتح الميم واللام.

(ابن كلاب)

ويكنى أبا زهرة، وأم كلاب هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن فهر بن مالك، وله أخوان لأبيه من غير أمه، وهما: تميم، ويقظة، أمهما أسماء بنت جارية البارقية، وقيل: يقظة لهند بنت سرير أم كلاب.

(يقظة) بالياء تحتها نقطتان، وبفتح القاف والظاء المعجمة.

(ابن مرة) ويكنى أبا يقظة، وأم مرة محشية ابنة شيبان بن محارب بن فهر، وأخواه لأبيه وأمه هصيص وعدي، وقيل: أم عدي رقاش بنت ركبة بن نائلة بن كعب بن حرب بن تميم بن سعدِ بن فهم بن عمرو بن قيس غيلان.

(هصيص) بضم الهاء، وفتح الصاد المهملة بعدها ياء تحتها نقطتان، وصاد ثانية.

(ابن كعب) ويكنى أبا هصيص، وأم كعب مارية ابنة كعب بن القين بن جسر القضاعية، وله أخوان لأبيه وأمه، أحدهما عامر، والآخر سامة، ولهم من أبيهم أخ كان يقال له: عوف أمه الباردة ابنة عوف بن غنم بن عبد الله بن غطفان، وانتمى ولده إلى غطفان، وكان خرج مع أمه الباردة إلى غطفان، فتزوجها سعد بن ذبيان، فتبناه سعد.

ولكعب أيضًا أخوان من غير أمه، أحدهما خزيمة، وهي عائذة قريش، وعائذة أمه وهي ابنة الحمس بن قحافة من خثعم، والآخر سعد، ويقال له بنانة، وبنانة أمه، فأهل البادية منهم في بني سعد بن همام في بني شيبان بن ثعلبة، والحاضرة ينتمون إلى قريش. وكان كعب عظيم القدر عند العرب، فلهذا أرخوا لموته إلى عام الفيل ثم أرخوا بالفيل، وكان يخطب الناس أيام الحج، وخطبته مشهورة يخبر فيها بالنبي ﷺ.

(جسر) بفتح الجيم، وسكون السين المهملة، وآخره راء.

(ابن لؤي) ويكنى أبا كعب، وأم لؤي عاتكة ابنة يخلد بن النضر بن كنانة، وهي أولى العواتك اللواتي ولدن رسول الله ﷺ، من قريش، وله أخوان، أحدهما تيم الأدرم ـ والدرم نقصان في الذقن، قيل: إنه كان ناقص اللحي ـ والآخر قيس، ولم يبق منهم أحد، وآخر من مات منهم في زمن خالد بن عبد الله القسري، فبقي ميراثه لا يدري من يستحقه.

وقيل: إن أمهم سلمى بنت عمرو بن ربيعة، وهو يحيى بن حارثة الخزاعي.

(يخلد) بفتح الياء تحتها نقطتان، وسكون الخاء المعجمة، وبعد اللام دال مهملة.

(ابن غالب) ويكنى أبا تيم، وأم غالب ليلى ابنة الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل، وإخواته من أبيه وأمه: الحارث ومحارب وأسد وعوف وجون وذئب، وكانت محارب والحارث من قريش الظواهر، فدخلت الحارث الأبطح.

(ابن فهر) ويكنى أبا غالب، وفهر هو جماع قريش، في قول هشام، وأمه جندلة بنت عامر بن الحارث بن مضاض الجرهمي، وقيل غير ذلك. وكان فهر رئيس الناس بمكة، وكان حسان فيما قيل: أقبل من اليمن مع حمير وغيرهم يريد أن ينقل أحجار الكعبة إلى اليمن، فنزل بنخلة، فاجتمع قريش وكنانة وخزيمة وأسد

وجذام وغيرهم، ورئيسهم فهر بن مالك، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأسر حسان وانهزمت حمير وبقي حسان بمكة ثلاث سنين وافتدى نفسه وخرج فمات بين مكة واليمن.

(ابن مالك) وكنيته أبو الحارث، وأمه عاتكة بنت عدوان، وهو الحارث بن قيس عيلان، ولقبه عكرشة، وقيل: غير ذلك.

(ابن النضر) ويكنى أبا يخلد، كني بابنه يخلد، واسم النضر قيس، وقيل: إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشًا. وقيل: لما جمعهم قصي قيل لهم قريش - والتقرش التجمع - وقيل لما ملك قصي الحرم وفعل أفعالاً جميلة قيل له القرشي، وهو أول من سمي به، وهو من الاجتماع أيضًا، أي لاجتماع خصال الخير فيه، وقد قيل في تسمية قريش قريشًا؛ أقوال كثيرة لا حاجة إلى ذكرها. وقصي أول من أحدث وقود النار بالمزدلفة، وكانت توقد على عهد رسول الله ﷺ ومن بعده. وإنما قيل له: النضر لجماله، وأمه برة ابنة مر بن أد بن طابخة أخت تميم بن مر، وإخوته لأبيه وأمه نصير ومالك وملكان وعامر والحارث وعمرو وسعد وعوف وغنم ومخرمة وجرول وغزوان وجدال. وأخوهم لأبيهم عبد مناة، وأمه فكيهة وهي الذفراء، ابنة هني بن بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وأخو عبد مناة لأمه علي ابن مسعود بن مازن الغساني، وكان قد حضن أولاد أخيه عبد مناة فنسبوا إليه، فقيل لبني عبد مناة بنو علي، وإياهم عنى الشاعر بقوله:

لله در بني علي ... أيم منهم وناكح

وقيل: تزوج امرأة عبد مناة فولدت له وحضن بني عبد مناة فغلب على نسبهم، ثم وثب مالك بن كنانة على علي بن مسعود فقتله، فوراه أسد بن خزيمة.

(ابن كنانة) ويكنى أبا النضر، وأم كنانة عوانة بنت سعد بن قيس عيلان، وقيل: هند ابنة عمرو بن قيس، وإخوته لأبيه أسد وأسدة، ويقال: إنه أبو جذام والهون، وأمهم برة بنت مرٍّ، وهي أم النضر، خلف عليها بعد أبيه.

(ابن خزيمة) ويكنى أبا أسد، وأمه سلمى ابنة أسلم بن الحاف بن قضاعة، وأخوه لأمة تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف، وأخو خزيمة لأبيه وأمه هذيل، وقيل: أمهما سلمى بنت أسد بن ربيعة.

وخزيمة هو الذي نصب هبل على الكعبة، فكان يقال: هبل خزيمة.

أسلم، بضم اللام.

(ابن مدركة) واسمه عمرو، ويكنى أبا هذيل، وقيل: أبا خزيمة، وأمه خندف، وهي ليلى ابنة حلوان بن عمران، وأمها ضرية ابنة ربيعة بن نزار، وبها سمي حمى ضرية.

وإخوة مدركة لأبيه وأمه: عامر، وهو طابخة، وعمير، وهو قمعة، يقال: إنه أبو خزاعة.

قال هشام: خرج إلياس في نجعة له فنفرت إبله من أرنب فخرج إليها عمرو فأدركها فسمي مدركة، وأخذها عامر فطبخها فسمي طابخة، وانقمع عمير في الخباء فسمي قمعة، وخرجت أمهم ليلى تمشي فقال لها إلياس: أين تخندفين؟ فسميت خندف، والخندفة: ضرب من المشي.

(ابن إلياس) وكان يكنى أبا عمرو، وأمه الرباب ابنة جندة بن معد، وأخوه لأبيه وأمه الناس، بالنون، وهو عيلان، وسمي عيلان لفرس له كان يدعى عيلان، وقيل: لأنه في أصل جبل يسمي عيلان، وقيل غير ذلك. ولما توفي حزنت عليه خندف حزنًا شديدًا فلم تقم حيث مات ولم يظلها سقف حتى هلكت، فضرب بها المثل، وتوفي يوم الخميس، فكانت تبكي كل خميس من غدوته إلى الليل.

(ابن مضر) وأمه سودة بنت عك، وأخوه لأبيه وأمه إياد، ولهما أخوان من أبيهما: ربيعة وأنمار، وأمهما جدالة ابنة وعلان من جرهم.

وذكر أن نزار بن معد لما حضرته الوفاة أوصى بنيه وقسم ماله بينهم فقال: يا بني هذه القبة، وهي من أدم حمراء، وما أشبهها من مالي لمضر فسمي مضر الحمراء، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من مالي لربيعة، وهذه الخادم وما أشبهها من مالي لإياد، وكانت شمطاء، فأخذ البلق والنقد[1] من غنمه، وهذه البردة والمجلس لأنمار يجلس عليه، فأخذ أنمار ما أصابه، فإن أشكل في ذلك عليكم شيء واختلفتم في القسمة فعليكم بالأفعى الجرهمي.

فاختلفوا فتوجهوا إلى الأفعى الجرهمي، فبينما هم يسيرون في مسيرهم إذ رأى

(١) البلق: سواء وبياض. والنقد من الغنم: جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه، تكون بالبحرين. «اللسان» (٣/ ٤٢٦).

مضر كلأ قد رعي فقال: إن البعير الذي قد رعى هذا الكلأ لأعور. وقال ربيعة: هو أزور[١]. وقال إياد: هو أبتر. وقال أنمار: هو شرود. فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل توضع به راحلته، فسألهم عن البعير، فقال مضر: هو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: هو أزور؟ قال: نعم. وقال إياد: هو أبتر؟ قال: نعم. وقال أنمار: هو شرود؟ قال: نعم، هذه صفة بعيري، دلوني عليه، فحلفوا له ما رأوه، فلزمهم، وقال: كيف أصدقكم وهذه صفة بعيري فساروا جميعًا حتى قدموا نجران فنزلوا على الأفعى الجرهمي، فقص عليه صاحب البعير حديثه، فقال لهم الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه؟ قال مضر: رأيته يرعى جانبًا ويدع جانبًا فعرفت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة والأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور. وقال إياد: عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان أذنب لمصع به[٢]. وقال أنمار: وعرفت أنه شرود لأنه يرعى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه نبتًا وأخبث. فقال الجرهمي: ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه. ثم سألهم من هم، فأخبروه، فرحت بهم وقال: أتحتاجون أنتم إلي وأنتم كما أرى؟ ودعا لهم بطعام فأكلوا وشربوا، فقال مضر: لم أر كاليوم خمرًا أجود لولا أنها نبتت على قبر. وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحمًا أطيب لولا أنه ربِّي بلبن كلبة. وقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أسرى لولا أنه لغير أبيه الذي ينتمي إليه. وقال أنمار: لم أر كاليوم كلامًا أنفع لحاجتنا. وسمع الجرهمي الكلام فعجب، فأتى أمه وسألها، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له، فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلاً من نفسها فحملت به، وسأل القهرمان عن الخمر، فقال: من حبلة[٣] غرستها على قبر أبيك، وسأل الراعي عن اللحم فقال: شاه أرضعتها لبن كلبة. فقيل لمضر: من أين عرفت الخمر؟ فقال: لأني أصابني عطش شديد. وقال لربيعة فيما قال، فذكر كلامًا، وأتاهم الجرهمي وقال: صفوا لي صفتكم، فقصوا عليه قصتهم، فقضى بالقبة الحمراء والدنانير والإبل، وهي حمر، لمضر، وقضى بالخباء الأسود والخيل الدهم لربيعة، وقضى بالخادم، وكانت شمطاء، والماشية البلق لإياد، وقضى بالأرض والدراهم لأنمار.

---

(١) أزور: مائل.

(٢) مصع به: أي حركه.

(٣) الحبلة: الثمر.

ومضر أول من حدا[١]، وكان سبب ذلك أنه سقط من بعيره فانكسرت يده فجعل يقول: «يا يداه يا يداه»، فأتته الإبل من المرعى، فلما صلح وركب حدا وكان من أحسن الناس صوتًا. وقيل: بل انكسرت يد مولى له فصاح، فاجتمعت الإبل، فوضع مضر الحداء وزاد الناس فيه، وهو أول من قال حينئذ: بصبصن[٢] إذ حدين بالأذناب، فذهب مثلاً.

وروي أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبوا مضر وربيعة فإنهما مسلمان**»[٣].

(ابن نزار) وقيل: كان يكنى أبا إياد، وقيل: أبا ربيعة، وأمه معانة ابنة جوشم ابن جلهمة بن عمرو بن جرهم، وإخوته لأبيه وأمه قنص وقناصة وسالم وجندة وجناد وجنادة والقحم وعبيد الرباح والغرف والعوف وشك وقضاعة، وبه كان يكنى معد، وعدة درجوا.

(ابن معد) وأمه مهدة ابنة اللهم، ويقال اللهم بن جلحب بن جديس وقيل، ابن طسم، وإخوته من أبيه الريث، وقيل: الريث هو عك، وقيل: عك بن الريث، وعدن بن عدنان، قيل: هو صاحب عدن أبين وإليه تنسب أبين، ودرج نسله ونسل عدن، وأد وأبي بن عدنان، ودرج، والضحاك والغني. فلحق ولد عدنان باليمن عند حرب بختنصر، وحمل إرميا وبرخيا معدًا إلى حران فأسكناه بها. فلما سكنت الحرب رداه إلى مكة فرأى إخوته قد لحقوا باليمن.

(ابن عدنان) ولعدنان أخوان يدعى أحدهما نبتًا، والآخر عامرًا.

فنسب النبي ﷺ، ولا يختلف الناسبون فيه إلى معد بن عدنان، على ما ذكرت، ويختلفون فيما بعد ذلك اختلافًا عظيمًا لا يحصل منه على غرض، فتارة يجعل بعضهم بين عدنان وبين إسماعيل ـ عليه السلام ـ أربعة آباء، ويجعل آخر بينهما أربعين أبًا، ويختلفون أيضًا في الأسماء أشد من اختلافهم في العدد، فحيث رأيت الأمر كذلك لم أعرج على ذكر شيء منه، ومنهم من يروي عن النبي ﷺ، في نسبه حديثًا يصله بإسماعيل، ولا يصح في ذلك الحديث.

---

(١) الحدو: سوق الإبل والغناء لها.

(٢) بصبصن: أي حركن أذنابهن.

(٣) عزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٥٢٩) للزبير بن بكار عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٥٨) عن عبد الله بن خالد مرسلاً دون ذكر "ربيعة"، وقال الألباني في «الضعيفة» (٤٧٨٠): ضعيف.

ذكر الفواطم والعواتك(١)

وأما الفواطم اللائي ولدن رسول الله ﷺ، فخمس: قرشية وقيسيتان ويمانيتان.

أما القرشية فأم أبيه عبد الله بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم المخزومية، وأما القيسيتان فأم عمرو بن عائذ بن فاطمة ابنة عبدالله بن رزاح بن ربيعة بن جحوش بن معاوية بن بكر بن هوزان، وأمها فاطمة بنت الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور. وأما اليمانيتان فأم قصي بن كلاب فاطمة بنت سعد بن سيل بن أزد شنواة، وأم حُبى بنت حُليل بن حبشية بن كعب بن سلول، وهي أم ولد قصي فاطمة بنت نصر بن عوف بن عمرو بن ربيعة بن حارثة الخزاعية.

وأما العواتك فاثنتا عشرة: اثنتان من قريش، وواحدة من بني يخلد بن النضر، وثلاث من سليم، وعدويتان، وهذلية، وقضاعية، وأسدية. فأما القرشيتان فأم أمه آمنة بنت وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وأم برة أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى، وأم أسد ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم، وأمه أميمة بنت عامر الخزاعية، وأمها عاتكة بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهم، وأم هلال هند بنت هلال بن عامر بن صعصعة، وأم أهيب بن ضبة عاتكة بنت غالب ابن فهر، وأمها عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة. وأما السلميات فأم هاشم بن عبد مناف عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن بهثة بن سليم بن منصور، وأم عبد مناف عاتكة بنت هلال بن فالج، والثالثة أم جده لأمه وهب، وهي عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال. (قلت): هكذا ذكر بعض علماء عواتك سليم، وجعل أم عبد مناف عاتكة بنت مرة، وليس بشيء، فإن أم عبد مناف حبي بنت حليل الخزاعية، وقال غيره: أم هاشم عاتكة بنت مرة، وأم مرة بن هلال عاتكة بنت جابر بن قنفذ بن مالك بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة ابن سليم، وأم هلال بن فالج عاتكة بنت عصية بن خفاف بن امرئ القيس.

وأما العدويتان فمن جهة أبيه عبد الله، فإن أم عبد الله فاطمة بنت عمرو، وأم

---

(١) أخرج الطبراني في «الكبير» (٦٧٢٤) عن سيابة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا ابن العواتك**»، وله شاهد من حديث جابر، وروى من مرسل قتادة والزهري وغيرهما، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٩٧) بمجموع طرقه.

فاطمة تخمر بنت عبد قصي، وأمها هند بنت عبد الله بن الحارث بن وائلة بن الظرب. وأمها زينب بنت مالك بن ناصرة بن كعب الفهمية. وأما عاتكة بنت عامر ابن الظرب بن عمرو بن عباد بن بكر بن الحارث، وهو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، وأم مالك بن النضر عاتكة، فهي عكرشة، وهي الحصان بنت عدوان.

وأما الأزدية فأم النضر بن كنانة بنت مرة بن أد أخت تميم، وأمها مارية من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار، وأمها عاتكة بنت الأزد بن الغوث، وقد ولدته هذه الأزدية مرة أخرى من قبل غالب بن فهر، فإن أم غالب ليلى بنت الحارث بن تميم ابن سعد بن هذيل، وأمها سلمى بنت طابخة بن إلياس بن مضر، وأمها عاتكة بنت الأزد هذه.

وأما الهذلية فعاتكه بنت سعد بن سيل، هي أم عبد الله بن رزام جد عمرو بن عايذ بن عمران بن مخزوم لأمه، وعمرو جد رسول الله ﷺ، أبو أمه.

وأما القضاعية فأم كعب بن لؤي مارية بنت القين بن جسر بن شيع الله بن أسد ابن وبرة، وأمها وحشية بنت ربيعة بن حرام بن ضنة العذرية، وأمها عاتكة بنت رشدان بن قيس بن جهينة.

وأما الأسدية فأم كلاب بن مرة هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كلاب وأمها عاتكة بنت دودان بن أسد بن خزيمة.

(وعايذ بن عمران) بالياء المثناة من تحتها، والذال المعجمة. و(سعد بن سيل) بفتح السين المهملة، والياء المثناة من تحتها المفتوحة. و(حبي) بضم الحاء المهملة، وبالباء المثناة من تحتها، وتشديد الياء الممالة. و(حليل) بضم الحاء المهملة، وبالياء المثناة من تحتها. و(جسر) بفتح الجيم، وتسكين السين المهملة. و(حارثة) بالحاء المهملة، والثاء المثلثة. و(وائلة بن الظرب) بالياء المثناة من تحتها و(ضبة بن الحارث) بالضاد المعجمة المفتوحة، والباء المشددة الموحدة. و(شيع الله) بالشين المعجمة المفتوحة، والياء المثناة من تحتها الساكنة. و(حرام) بفتح الحاء المهملة، والراء المهملة. و(ضنة العذرية) بكسر الضاد المعجمة، والنون المشددة، و(عصية) بالعين المهملة المضمومة، وفتح الصاد والياء المثناة من تحتها.

عدنا إلى ذكر النبي ﷺ. توفي عبد المطلب بعد الفيل بثماني سنين، وأوصى أبا طالب برسول الله ﷺ. فكان أبو طالب هو الذي قام بأمر النبي ﷺ، بعد جده،

ثم إن أبا طالب خرج إلى الشام، فلما أراد المسير لزمه رسول الله ﷺ ، فرق له وأخذه معه، ولرسول الله ﷺ ، تسع سنين. فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له «بحيرا» في صومعة له، وكان ذا علم في النصرانية، ولم يزل بتلك الصومعة راهب يصير إليه علمهم، وبها كتاب يتوارثونه. فلما رآهم بحيرا صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك لأنه رأى على رأس رسول الله ﷺ غمامة تظلله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظل شجرة قريبًا منه فنظر إلى الشجرة وقد هصرت[١] أغصانها حتى استظل بها، فنزل إليهم من صومعته ودعاهم. فلما رأى بحيرا رسول الله ﷺ ، جعل يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها من صفته. فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا سأل النبي ﷺ عن أشياء من حاله في يقظته ونومه فوجدها بحيرا موافقة لما عنده من صفته، ثم نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بحيرا لعمه أبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حيًا. قال: فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدقت، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرًا، فإنه كائن له شأن عظيم. فخرج به عمه حتى أقدمه مكة.

وقيل: بينما هو يقول لعمه في إعادته إلى مكة وتخوفهم عليه من الروم إذ أقبل سبعة نفر من الروم، فقال لهم بحيرا: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليها ناس، وإنا بعثنا إلى طريقك. قال أرأيتم أمرًا أراده الله هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. وتابعوا بحيرا وأقاموا عنده[٢]، وقال رسول الله ﷺ : ما هممت بشيء مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب. فقال: أفعل فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي

---

(١) هصرت: أمالت.

(٢) قصة الراهب بحيرا أخرجها الترمذي (٣٦٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٨٧): إسناده قوي وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٦٢٠).

فسألني فأخبرته. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة، فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء[١].

ذكر نكاح النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها[٢]

ونكح رسول الله ﷺ، خديجة بنت خويلد، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة. وسبب ذلك أن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ، صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره مع غلامها ميسرة فأجابها وخرج معه ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ، في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب، فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال: من هذا؟ قال ميسرة: هذا رجل من قريش. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

ثم باع رسول الله ﷺ، واشترى وعاد، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره. فلما قدم مكة ربحت خديجة ربحًا كثيرًا، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وما رأى من إظلال الملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة مع ما أراده الله من كرامتها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ، فعرضت عليه نفسها، وكانت أوسط نساء قريش نسبًا وأكثرهن مالاً وشرفًا، وكل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه. فلما أرسلت إلى النبي ﷺ، قال لأعمامه، وخرج ومعه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب وغيرهما من عمومته حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها فولدت له أولاده كلهم، إلا إبراهيم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وبه كان يكنى، وعبد الله، والطاهر، والطيب. وقيل: إن عبد الله ولد في الإسلام هو والطاهر والطيب، فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية.

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٢٠) وابن حبان (٦٢٧٢) والحاكم (٧٦١٩) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الألباني فيها تحقيق "فقه السيرة"، ضعيف.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٢١).

وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه[١]. وقيل: إن الذي زوجها عمها عمرو بن أسد، وأن أباها مات قبل التجارة. قال الواقدي: وهو الصحيح، لأن أباها توفي قبل الفجار، وكان منزل خديجة يومئذ المنزل الذي يعرف بها اليوم، فقال: إن معاوية اشتراه وجعله مسجدًا يصلى فيه، وكان الرسول بين خديجة وبين النبي ﷺ، نفيسة بنت مُنَيَّة أخت يعلى بن منية، وأسلمت يوم الفتح، فبرها رسول الله ﷺ، وأكرمها.

(منية) بالنون الساكنة، والياء المثناة من تحتها.

ذكر حلف الفضول[٢]

قال ابن إسحاق: وكان نفر من جرهم وقطوراء يقال لهم: الفضيل بن الحارث الجرهمي، والفضيل بن وداعة القطوري، والمفضل بن فضالة الجرهمي، اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقروا ببطن مكة ظالمًا، وقالوا: لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها، فقال عمرو بن عوف الجرهمي:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... أن لا يقر ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالم

ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش، ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه وكانوا بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وزهرة ابن كلاب وتيم بن مرة، فتحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وشهده رسول الله ﷺ فقال حين أرسله الله تعالى:

«لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في المصدر السابق عن ابن إسحاق معضلاً.

(٢) «البداية» (٢/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه البيهقي (١٢٨٥٩) عن طلحة بن عبد الله بن عوف مرسلاً، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٦٧) وأحمد (١/ ١٩٠، ١٩٣) عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: **«شهدت حلف المطيبين وأنا غلام مع عمومتي، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه»**، وقال =

قال: وقال محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال كان بينهما، والوليد يومئذ أمير على المدينة لعمه معاوية، فتحامل الوليد لسلطانه. فقال له الحسين: أقسم بالله لتنصفني أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدوعن بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير، وكان حاضراً: وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبته حتى ينصف من حقه أو نموت. وبلغ المسور بن مخرمة الزهري فقال مثل ذلك، وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضي.

ذكر هدم قريش الكعبة وبنائها[1]

وفي سنة خمس وثلاثين من مولده ﷺ هدمت قريش الكعبة.

وكان سبب هدمهم إياها أنها كانت رضيمة[2] فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنزها وفيه غزالان من ذهب، وكانا في بئر في جوف الكعبة، وكان أمر غزالي الكعبة أن الله لما أمر إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة ففعلا ذلك، وقدم تقدم ذكره، وأقام إسماعيل بمكة وكان يلي البيت حياته، وبعده وليه ابنه نبت. فلما مات نبت ولم يكثر ولد إسماعيل غلبت جرهم على ولاية البيت، فكان أول من وليه منهم مضاض، ثم ولده من بعده حتى بغت جرهم واستحلوا حرمة البيت فظلموا من دخل مكة حتى قيل: إن أسافًا ونائلة زنيا في البيت فمسخا حجرين[3]، وكانت خزاعة قد أقامت بتهامة بعد تفرق أولاد عمرو بن عامر من اليمن، فأرسل الله على جرهم الرعاف أفناهم، فاجتمعت خزاعة على إجلاء من بقي منهم، ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة بن حارثة، فاقتتلوا. فلما أحس عامر بن الحارث الجرهمي بالهزيمة خرج بغزالي الكعبة والحجر الأسود يلتمس التوبة وهو يقول:

= الألباني في «صحيح السيرة» (ص ٣٥): إسناده حسن.

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٢٣).

(٢) الرضيم: كل بناء بني بالصخر.

(٣) أخرجه ابن إسحاق (١/ ٢٠٨- سيرة ابن هشام) عن عائشة قالت: «ما زلنا نسمع أن أسافًا ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة، فمسخهما الله تعالى حجرين»، وسنده قوي.

لا هم إن جرهمًا عبادك ... الناس طرف وهم تلادكا

وهم قديمًا عمرو بلادكا

فلم تقبل توبته، فدفن غزالي الكعبة ببئر زمزم وطمها وخرج بمن بقي من جرهم إلى أرض جهينة، فجاءهم سيل فذهب بهم أجمعين، وقال عمرو بن الحارث:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العوائر

وولي البيت بعد جرهم عمرو بن ربيعة، وقيل: وليه عمرو بن الحارث الغساني، ثم خزاعة بعده، غير أنه كان في قبائل مضر ثلاث خلال:

الإجازة بالحج من عرفة، وكان ذلك إلى الغوث بن مر بن أد، وهو صوفة والثانية الإفاضة من جمع إلى منى، وكانت إلى بني زيد بن عدوان، وآخر من ولي ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الأعزل بن خالد، والثالثة النسيء للشهور الحرم، فكان ذلك إلى المقلس، وهو حذيفة بن فقيم بن كنانة، ثم إلى بنيه من بعده، ثم صار ذلك إلى أبي ثمامة، وهو جنادة بن عوف بن قلع بن حذيفة، وقام الإسلام وقد عادت الأشهر الحرم إلى أصلها فأبطل الله ـ عز وجل ـ النسيء.

ثم وليت البيت بعد خزاعة قريش، وقد ذكرنا ذلك عند ذكر قصي بن كلاب. ثم حفر عبد المطلب زمزم فأخرج الغزالين، كما تقدم. وكان الذي وجد الغزلان عنده دويك، مولى لبني مليح بن خزاعة، فقطعت قريش يده، وكان فيمن اتهم في ذلك: عامر بن الحارث بن نوفل، وأبو هارب بن عزيز، وأبو لهب بن عبدالمطلب، وكان البحر قد ألقى سفينة إلى جدة لتاجر رومي فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها، فتهيأ لهم بعض ما يصلحها[١]. وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة، وكانوا لا يدنو منها أحد إلا كشت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما هي يومًا على جدار الكعبة اختطفها طائر فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله، عز وجل، قد رضي ما أردناه[٢].

---

(١) جملة السفينة أخرجها عبد الرزاق (٩١٠٦) من حديث أبي الطفيل في بناء الكعبة، وسنده حسن.

(٢) وردت قصة الحية ضمن الحديث السابق بنحو من ذلك.

وكان ذلك ورسول الله ﷺ ابن خمس وثلاثين سنة، وبعد الفجار بخمس عشرة سنة فلما أرادوا هدمها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها إلا طيبًا ولا تدخلوا فيه مهر بغي ولا زنا ولا مظلمة أحد.

وقيل: إن الوليد بن المغيرة قال هذا.

ثم إن الناس هابوا هدمها فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأكم به، فأخذ المعول فهدم، فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا: ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، فأصبح الوليد سالمًا وغدا إلى عمله فهدم والناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس ثم أفضوا إلى حجارة خضر أخذ بعضها ببعض، فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع به أحدهما. فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها[1]، ثم جمعوا لبنائها ثم بنوا حتى بلغ البنيان موضع الركن، فأرادت كل قبيلة رفعه إلى موضعه حتى تحالفوا وتواعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم فسموا لعقة الدم بذلك، فمكثوا على ذلك أربع ليال ثم تشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة، وكان أسن قريش: اجعلوا بينكم حكمًا أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينكم، فكان أول من دخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به، وأخبروه الخبر، فقال: هلموا إلي ثوبًا، فأتي به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا. فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه[2]

* * *

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٢٦) عن ابن إسحاق عن بعض من يروي الحديث، فهو مرسل.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٥) من حديث السائب بن عبد الله، وسنده حسن.

ذكر الوقت الذي أرسل فيه رسول الله ﷺ (١)

بعث الله نبيه محمداً ﷺ ، لعشرين سنة مضت من ملك كسرى أبرويز بن هرمز ابن أنوشروان، وكان على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي عاملاً للفرس على العرب.

قال ابن عباس من راوية حمزة وعكرمة عنه وأنس بن مالك وعروة بن الزبير: إن النبي ﷺ ، بعث وأنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة(٢).

وقال ابن عباس من راوية عكرمة أيضًا عنه وسعيد بن المسيب: إنه أنزل عليه ﷺ ، وهو ابن ثلاث وأربعين سنة(٣)، وكان نزول الوحي عليه يوم الاثنين بلا خلاف(٤). واختلفوا في أي الأثنانين كان ذلك، فقال أبو قلابة الجرمي: أنزل الفرقان على النبي ﷺ ، لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال آخرون: كان ذلك لتسع عشرة مضت من رمضان، وكان ﷺ ، قبل أن يظهر له جبريل يرى ويعاين آثاراً من آثار من يريد الله إكرامه بفضله. وكان من ذلك ما ذكرت من شق الملكين بطنه واستخراجهما ما في قلبه من الغل والدنس، ومن ذلك أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه(٥)، فكان يلتفت يمينًا وشمالاً فلا يرى أحدًا، وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك قال عامر بن ربيعة: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: إنا لننتظر نبيًّا من ولد إسماعيل، ثم من بني عبدالمطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك حياة ورأيته فأقرأه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك. قلت: هلم. قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثر الشعر ولا بقليله، ولا تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٢٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وآخر برقم (٥٥٦٠) ومسلم (٢٣٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) منكر: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٢٧) وفي سنده أحمد بن ثابت الرازي، وهو متهم بالكذب كما في «اللسان» (١/ ١٤٣).

(٤) قاله ابن جرير الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٢٨).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦٤٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٠٩): صحيح لغيره.

ومبعثه، ثم يخرجه قومه ويكرهون مـا جاء به، ويهاجر إلى يثرب فيظهر بها أمره، فإياك أن تنخدع عنه، فإني طفت البـلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله من اليهـود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراءك، وينعـتونه مثل ما نعـته لك، ويقولون: لم يبق نبي غيره. قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ، بقول زيد وأقرأته السـلام. فرد عليـه رسول الله ﷺ، وترحم عليه وقـال: قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً[١]، وقال جـبيـر بن مطعم كنا جلوسًا عند صنم بـوانة قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، بشهر. نحرنا جزورًا، فـإذا صائح يصيح من جوف الصنم: اسمعوا إلى الـعجب، ذهب استراق الوحي ونرمى بالشهب لنبي بمكة اسـمه أحمد مهاجره إلى يثرب. قـال: فأمسكنا وعجبنا[٢] وخرج رسول الله ﷺ والأخبار عن دلائل نبوته كثيرة، وقد صنف العلماء في ذلك كتبًا كثيرة[٣] ذكروا فيها كل عجيبة، ليس هذا موضع ذكرها.

ذكر ابتداء الوحي إلى النبي ﷺ[٤]

قالت عـائشة ؓ: كـان أول ما ابتـدئ به رسول الله ﷺ، من الوحي الرؤيا الصادقة، كـانت تجيء مثل فلق الصبح[٥]، ثم حبب إليه الخـلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيـه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حـتى فجأه الحق فأتاه جبريل فـقال: يا محمد أنت رسـول الله. قال رسول الله ﷺ «فجثـوت لركبتي ثم

(١) إسناده ضـعيف جـدًا: أخـرجه الطبـري في «تاريخـه» (١/ ٥٢٩) وابن سـعد فـي «الطبقـات» (١/ ١٦١، ١٦٢) و(٣/ ٣٧٩) من طريق الواقدي، وهو متروك.

(٢) إسناده ضـعيف جـدًا: أخـرجه الطبـري في «تاريخـه» (١/ ٥٣٠) وابن سـعد فـي "الطبقـات" (١/ ١٦١) من طريق الواقدي.

قلت: وباب دلائل نبوته حين بعـثه ﷺ فيه من الأخـبار الصحاح ما يغنـي عن هذا الضعيف، فالعـجب من المؤلف كيف أعرض عن الصـحيح المشهور إلى الضـعيف الغريب، والله يعـفو عنا وعنه.

(٣) من ذلك:

دلائل النبوة لأبي داود، وللبيهقي، ولأبي نـعيم الأصبهاني، ولابن قتيبة، ولإسمـاعيل بن محمد الأصبـهاني الطلحي، ولأبي بـكر النقاش، ولأبي إسـحاق الحربي. «كـشف الظنون» (١/ ٧٦٠) و«الفهرست» (١/ ٥٠، ١١٥، ٢٨٢).

(٤) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٣١).

(٥) فلق الصبح: ضياؤه.

رجعت ترجف بوادري[١] فدخلت على خديجة فقلت: زملوني زملوني! ذهب عني الروع».

ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق، فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله، قال: اقرأ. قلت: وما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتني[٢] ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٣]، فقرأت. فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي، وأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فقالت: اسمع من ابن أخيك. فسألني فأخبرته خبري. فقال: هذا الناموس[٤] الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني كنت حيًّا حين يخرجك قومك. قلت: أمخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجئ أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك لأنصرنك[٥] مؤزرًا.

ثم إن أول ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ و﴿يا أيها المدثر﴾، ﴿والضحى﴾. وقالت خديجة لرسول الله ﷺ، فيما تثبته فيما أكرمه الله به من نبوته: يا ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. فجاءه جبريل، فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام ﷺ، فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى. فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال نعم. فتحسرت فألقت

---

(١) البوادر: جمع بادرة، وهي اللحمة بين المنكب والعنق.

(٢) غتني: ضمني، وهي بمعنى الغط.

(٣) سورة العلق: (١).

(٤) الناموس: صاحب سر الخير.

(٥) هذا الحديث أخرجه البخاري (٦٥٨١) ومسلم (١٦٠) بنحو من ذلك، وجملة «فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق...» أخرجها البخاري (٦٥٨١) بعد هذا الحديث من بلاغات الزهري كما بين ذلك الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ٣٦٠) والألباني في «الضعيفة» (١٠٥٢)، وأخرج ابن سعد نحوه عن ابن عباس، وضعفه الألباني في المصدر نفسه.

خمارها، ورسول الله ﷺ في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا ابن عم اثبت وأبشر، فوالله إنه ملك، وما هو بشيطان»[١]!

وقال يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة عن أول ما نزل من القرآن، قال: نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أول. قال: قلت: إنهم يقولون: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. قال: سألت جابر بن عبد الله قال: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فسمعت صوتًا فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا ونظرت عن يساري فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي وأمامي فلم أر شيئًا فرفعت رأسي فإذا هو ـ يعني الملك ـ جالس على عرش بين السماء والأرض، فخشيت منه فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني، وصبوا عليّ ماء ففعلوا، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، هذا حديث صحيح[٢].

قال هشام بن الكلبي: أتى جبريل النبي ﷺ، أول ما أتاه ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له برسالة الله يوم الاثنين فعلمه الوضوء والصلاة، وعلمه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وكان لرسول الله ﷺ، أربعون سنة[٣]. قال الزهري: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ، فترة، فحزن حزنًا شديدًا وجعل يغدو إلى رؤوس الجبال ليتردى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول: إنك رسول الله حقًا. فيسكن لذلك جأشه وترجع نفسه[٤]. فلما أمر الله نبيه ﷺ، أن ينذر قومه عذاب الله على ما هم عليه من عبادة الأصنام دون الله الذي خلقهم ورزقهم وأن يحدث بنعمة ربه عليه ـ وهي النبوة في قول ابن إسحاق ـ فكان يذكر ذلك سرًا إلى من يطمئن إليه من أهله، فكان أول من آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته.

قال الواقدي: أجمع أصحابنا أن أول من استجاب لرسول الله ﷺ من أهل القبلة، خديجة. ثم كان أول شيء فرض الله من شرائع الإسلام عليه بعد الإقرار

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٧٥ - سيرة ابن هشام) عن إسماعيل بن أبي حكيم مرسلاً، وله شاهد من حديث خديجة نفسها، عزاه الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٥٦) للطبراني في «الأوسط» وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧١) ومسلم (١٦١).

(٣) هشام بن الكلبي متروك، ولم يسند حديثه، وفيه مخالفة للأحاديث الصحيحة.

(٤) ضعيف: وقد تقدم تخريجه.

بالتوحيد والبراءة من الأوثان الصلاة، وأن الصلاة لما فرضت عليه ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت فيه عين، فتوضأ جبريل وهو ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ، مثله، ثم قام جبريل فصلى به وصلى النبي ﷺ، بصلاته، ثم انصرف. وجاء رسول الله ﷺ، إلى خديجة فعلمها الوضوء، ثم صلى بها فصلت بصلاته[١].

ذكر المعراج برسول الله ﷺ[٢]

اختلف الناس في وقت المعراج، فقيل: كان قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بسنة واحدة، واختلفوا في الموضع الذي أسري برسول الله ﷺ، منه فقيل: كان نائمًا بالمسجد في الحجر فأسري به منه، وقيل: كان نائمًا في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، وقائل هذا يقول: الحرم كله مسجد، وقد روى حديث المعارج جماعة من الصحابة بأسانيد صحيحة قالوا: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل وميكائيل[٣] فقالا: بأيهم أمرنا؟ فقالا: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا؛ ثم جاءا من القابلة وهم ثلاثة فألقوه وهو نائم فقلبوه لظهره وشقوا بطنه وجاؤوا بماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من غل وغيره، وجاؤوا بطست مملوء إيمانًا وحكمة فملئ قلبه وبطنه إيمانًا وحكمة. قال: وأخرجني جبريل من المسجد وإذا أنا بدابة، وهي البراق، وهي فوق الحمار ودون البغل، ثم مثل البراق خطوه عند منتهى طرفه، فقال: اركب، فلما وضعت يدي عليه تشامس[٤] واستصعب. فقال جبريل: يا براق ما ركبك نبي أكرم على الله من محمد، فانصب عرقًا وانخفض لي حتى ركبته، وسار بي جبريل نحو المسجد الأقصى، فأتيت بإنائين أحدهما لبن والآخر خمر، فقيل لي: اختر أحدهما، فأخذت اللبن فشربته، فقيل لي: أصبت الفطرة، أما إنك لو شربت الخمر لغوت أمتك بعدك، ثم سرنا فقال لي: انزل فصل، فنزلت فصليت، فقال: هذه طيبة وإليها المهاجر. ثم سرنا فقال لي: انزل فصل، فنزلت فصليت، فقال: هذا طور

---

(١) ذكره ابن إسحاق (٢/٨٣- سيرة ابن هشام) عن بعض أهل العلم، ولم يسمه، وهو مرسل أو معضل.

(٢) «البداية» (٣/١٠٨).

(٣) تسمية ميكائيل لم ترد في الأحاديث الصحيحة الواردة في الإسراء والمعراج، والذي ثبت تسميته جبريل عليه السلام دون الملك الثاني.

(٤) تشامس: أي شرد، ومنع ظهره.

سيناء حيث كلم الله موسى ثم سرنا فقال: انزل فصل، فنزلت فصليت، فقال: هذا بيت لحم حيث ولد عيسى[١]. ثم سرنا حتى أتينا بيت المقدس، فلما انتهينا إلى باب المسجد أنزلني جبريل وربط البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء. فلما دخلت المسجد إذا أنا بالأنبياء حوالي ـ وقيل: بأرواح الأنبياء الذين بعثهم الله قبلي ـ فسلموا علي، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: إخوانك من الأنبياء، زعمت قريش أن لله شريكًا، وزعمت النصارى أن لله ولدًا، سل هؤلاء النبيين هل كان لله ـ عز وجل ـ شريك أو ولد؟ فذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٢] فأقروا بالوحدانية لله عز وجل، ثم جمعهم جبريل وقدمني فصليت بهم ركعتين، ثم انطلق بي جبريل إلى الصخرة فصعد بي عليها، فإذا معراج إلى السماء لا ينظر الناظرون إلى شيء أحسن منه ومنه تعرج الملائكة، أصله في صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء، فاحتملني جبريل ووضعني على جناحه وصعد بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء! ففتح، فدخلنا فإذا أنا برجل تام الخلقة عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى. فقلت: من هذا؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم، والباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا نظر إلى من يدخلها من ذريته ضحك، والباب الذي عن يساره باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته بكى وحزن[٣]. ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قال: حياه الله، مرحبًا به ونعم المجيء جاء! ففتح لنا. فدخلنا فإذا بشابين، فقلت: يا جبريل من هذان؟ فقال: هذان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل.

---

(١) فقرة النزول بهذه المواطن والصلاة فيها أخرجها النسائي (٤٥٠) من حديث أنس بن مالك، وقال الألباني في «ضعيف سنن النسائي» منكر.

(٢) سورة الزخرف (٤٥)

(٣) فقرة البابين هذه أخرجها الطبري في «تفسيره» (٩/١٥) من حديث أبي هريرة بسند فيه أبو جعفر الرازي، وهو ضعيف الحفظ، وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١٨/٣) قبل سياق الحديث بتمامه ـ وهو طويل جدًا - أن فيه غرابة.

قيل: ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء.

فدخلنا، فإذا أنا برجل قد فضل الناس بالحسن. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس رفعه الله مكانًا عليًا.

ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل جالس وحوله قوم يقص عليهم. قلت: من هذا؟ قال: هذا هارون والذين حوله بنو إسرائيل[١].

ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل جالس فجاوزناه، فبكى الرجل، فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى. قلت: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله من بني آدم، وهذا الرجل من بني آدم قد خلفني وراءه. قال: ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل أشمط جالس على كرسي على باب الجنة وحوله قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس وقوم في ألوانهم شيء. فقام الذين في ألوانهم شيء فاغتسلوا في نهر وخرجوا وقد صارت وجوههم مثل وجوه أصحابهم[٢]. فقلت: من هذا؟ قال: أبوك إبراهيم، وهؤلاء البيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فتابوا فتاب الله عليهم، وإذا إبراهيم مستند إلى بيت، فقال: هذا البيت المعمور

(١) هذه رواية أبي هريرة المشار إليها آنفًا، وأما الروايات الصحيحة فلم يرد فيها ذكر بني إسرائيل في هذا الموضع.

(٢) هذه الفقرة وردت في حديث أبي هريرة السابق.

يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة لا يعودون إليه. قال: وأخذني جبريل فانتهينا إلى سدرة المنتهى وإذا نبقها مثل قلال هجر يخرج من أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فأما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، قال: وغشيها من نور الله ما غشيها، وغشيها الملائكة كأنهم جراد من ذهب من خشية الله، وتحولت حتى ما يستطيع أحد أن ينعتها، وقام جبريل في وسطها، فقال جبريل: تقدم يا محمد. فتقدمت وجبريل معي إلى حجاب، فأخذ بي ملك وتخلف عني جبريل، فقلت: إلى أين؟ فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[١] وهذا منتهى الخلائق. فلم أزل كذلك حتى وصلت إلى العرش فاتضح كل شيء عند العرش وكل لساني من هيبة الرحمن، ثم أنطق الله لساني فقلت: التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله[٢]، وفرض الله علي وعلى أمتي في كل يوم وليلة خمسين صلاة. ورجعت إلى جبريل فأخذ بيدي وأدخلني الجنة فرأيت القصور من الدر والياقوت والزبرجد، ورأيت نهرًا يخرج من أصله ماء أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، يجري على رضراض من الدر والياقوت والمسك، فقال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك.

ثم عرض علي النار، فنظرت إلى أغلالها وسلاسلها وحياتها وعقاربها وما فيها من العذاب. ثم أخرجني، فانحدرنا حتى أتينا موسى، فقال: ماذا فرض عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: فإني قد بلوت بني إسرائيل قبلك وعالجتهم أشد المعالجة على أقل من هذا فلم يفعلوا، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجعت إلى ربي وسألته، فخفف عني عشرًا. فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع واسأله التخفيف. فرجعت فخفف عني عشرًا، فلم أزل بين ربي وموسى حتى جعلها خمسًا، فقال: ارجع فاسأله التخفيف، فقلت: إني قد استحيت من ربي وما أنا براجع، فنوديت: «إني قد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة والخمس بخمسين، وقد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي». ثم انحدرت أنا وجبريل إلى مضجعي، وكان ذلك في ليلة واحدة[٣].

---

(١) سورة الصافات (١٦٤).

(٢) هذه الفقرة لم أقف عليها.

(٣) حديث الإسراء والمعراج أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٢٣٨) من حديث أنس بن مالك عن =

فلما رجع إلى مكة علم أن الناس لا يصدقونه، فقعد في المسجد مغمومًا، فمر به أبو جهل، فقال له كالمستهزئ: هل استفدت الليلة شيئًا؟ قال: نعم، أسري بي الليلة إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ فقال: نعم. فخاف أن يخبر بذلك عنه فيجحده النبي، فقال: أتخبر قومك بذلك؟ فقال نعم. فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فأقبلوا. فحدثهم النبي ﷺ فمن بين مصدق ومكذب ومصفق وواضع يده على رأسه. وارتد الناس ممن كان آمن به وصدقه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: إن صاحبك يزعم كذا وكذا! فقال: «إن كان قال ذلك فقد صدق، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة».

فسمي أبو بكر الصديق من يومئذ. قالوا: فانعت لنا المسجد الأقصى. قال فذهبت أنعت حتى التبس علي، قال: فجيء بالمسجد. وإني أنظر إليه، فجعلت أنعته[1]. قالوا: فأخبرنا عن عيرنا. قال: قد مررت على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلوا بعيرًا لهم وهم في طلبه، فأخذت قدحًا فيه ماء فشربته، فسلوهم عن ذلك، ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان فرأيت راكبًا وقعودًا بذي مر فنفر بكرهما مني فسقط فلان فانكسرت يده، فسلوهما. قال ومررت بعيركم بالتنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم من طلوع الشمس. فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينظرون طلوع الشمس ليكذبوه إذ قال قائل: هذه الشمس قد طلعت. فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق كما قال. فلم يفلحوا وقالوا: إن هذا سحر مبين.

ذكر الاختلاف في أول من أسلم[2]

اختلف العلماء في أول من أسلم مع الاتفاق على أن خديجة أول خلق الله

= مالك بن صعصة، وأخرجه البخاري (٣٤٢) ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر، وهو بنحو مما ساقه المصنف عدا الفقرات المشار إليها من رواية أبي هريرة، والسند إليه ضعيف.

(١) حسن: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٢٨٥) وأحمد (٢٨٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون جملة أبي بكر وقال الألباني في «تحقيق فقه السيرة» (ص ١٦٣). إسناده حسن.

وأما فقرة أبي بكر الصديق فأخرجها الحاكم (٤٤٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححها الألباني في «الصحيحة» (٣٠٦) لطرقها.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٣٧).

إسلامًا، فقال قوم: أول ذكر آمن علي. روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر، صليت مع رسول الله ﷺ قبل الناس بسبع سنين[(١)].

وقال ابن عباس: أول من صلى علي[(٢)]. وقال جابر بن عبد الله: بعث النبي ﷺ، يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء[(٣)]. وقال زيد بن أرقم: أول من أسلم مع النبي ﷺ، علي[(٤)].

وقال عفيف الكندي: كنت امرأ تاجرًا فقدمت مكة أيام الحج فأتيت العباس، فبينا نحن عنده إذ خرج رجل فقام تجاه الكعبة يصلي، ثم خرجت امرأة تصلي معه، ثم خرج غلام فقام يصلي معه. فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ فقال هذا محمد بن عبد الله ابن أخي، زعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحدًا على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة! قال عفيف: ليتني كنت رابعًا[(٥)]. وقال محمد بن المنذر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حازم المدني والكلبي: أول من أسلم علي. قال الكلبي: كان عمره تسع سنين، وقيل: إحدى عشرة سنة. وقال ابن إسحاق: أول من أسلم علي وعمره إحدى عشرة سنة.

وكان من نعمة الله عليه أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال يومًا رسول الله ﷺ لعمه العباس: يا عم إن أبا طالب كثير العيال فانطلق بنا نخفف عن عيال أبي طالب، فانطلقنا إليه وأعلماه ما أرادا، فقال أبو طالب: اتركا لي عقيلاً واصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليًا، وأخذ العباس جعفرًا، فلم يزل علي عند النبي ﷺ، حتى أرسله الله فاتبعه وكان النبي

---

(١) موضوع: أخرجه ابن ماجه (١٢٠) وقال الألباني في «الضعيفة» (٤٩٤٧): موضوع.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٣٤) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣) أخرجه الحاكم (٤٥٨٦) من حديث بريدة رضي الله عنه، وسنده حسن.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٣٥) وقال الألباني في «صحيح السيرة» (ص١١٧، ١١٨) إسناده صحيح.

(٥) حسن: أخرجه أحمد (١/٢٠٩) والنسائي في «الكبرى» (٥/١٠٦) من طريقين يقوي أحدهما الآخر كما في «صحيح السيرة» (ص ١١٧).

ﷺ، إذا أراد الصلاة انطلق هو وعلي إلى بعض الشعاب بمكة فيصليان ويعودان. فعثر عليهما أبو طالب فقال: يا ابن أخي ما هذا الدين؟ قال: دين الله وملائكته ورسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله تعالى به إلى العباد، وأنت أحق من دعوته إلى الهدى وأحق من أجابني. قال لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، ولكن والله لا تخلص قريش إليك بشيء تكرهه ما حييت، فلم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه[(١)]. قال: وقال أبو طالب لعلي: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبت! آمنت بالله وبرسوله وصليت معه. فقال: أما إنه لا يدعونا إلا إلى الخير فالزمه[(٢)].

وقيل: أول من أسلم أبو بكر ﷺ. قال الشعبي: سألت ابن عباس عن أول من أسلم، فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس قدمًا صدق الرسلا[(٣)]

وقال عمرو بن عبسة: أتيت رسول الله ﷺ، بعكاظ فقلت: يا رسول الله من تبعك على هذا الأمر؟ قال: تبعني عليه حر وعبد، أبو بكر وبلال. فأسلمت عند ذلك، فلقد رأيتني رابع الإسلام[(٤)]. وكان أبو ذر يقول: لقد رأيتني رابع الإسلام لم يسلم قبلي إلا النبي وأبو بكر وبلال[(٥)]. وقال إبراهيم النخعي: أبو بكر أول من أسلم. وقيل: أول من أسلم زيد بن حارثة. قال الزهري وسليمان بن يسار وعمران ابن أبي أنس وعروة بن الزبير: أول من أسلم زيد بن حارثة وكان هو وعلي يلزمان

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٨٥، ٨٦ -سيرة ابن هشام) عن مجاهد مرسلاً.

(٢) ذكره ابن إسحاق (٢/ ٨٦ - سيرة ابن هشام) دون أن يسنده.

(٣) حسن: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٣٩) والحاكم (٤٤١٤) والبيهقي (١٢٨٧٥). من طريقين عن عامر الشعبي، يقوي أحدهما الآخر.

(٤) أخرجه مسلم (٨٣٢) وفيه: «قال حر وعبد، أو عبد وحر. وإذا معه أبو بكر بن أبي قحافة وبلال مولى أبي بكر».

(٥) أخرجه ابن حبان (٧١٣٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٥٧) من طريق مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر به.

ومرثد والد مالك قال عنه الحافظ في «التقريب» (٦٥٤٦): مقبول. أي إذا توبع وإلا فلين.

النبي ﷺ، وكان ﷺ يخرج إلى الكعبة أول النهار ويصلي صلاة الضحى، وكانت قريش لا تنكرها، وكان إذا صلى غيرها قعد علي وزيد بن حارثة يرصدانه، وقال ابن إسحاق: أول ذكر أسلم بعد النبي علي وزيد بن حارثة، ثم أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه، وكان مانعًا لقومه محببًا فيهم، وكان أعلمهم بأنساب قريش وما كان فيها، وكان تاجراً يجتمع إليه قومه، فجعل يدعو من يثق به من قومه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى النبي ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا. وكان هؤلاء النفر هم الذين سبقوا إلى الإسلام، ثم تتابع الناس في الإسلام حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس.

قال الواقدي: وأسلم أبو ذر، قالوا رابعًا أو خامسًا، وأسلم عمرو بن عبسة السلمي رابعًا أو خامسًا، وقيل: إن الزبير أسلم رابعًا أو خامسًا، وأسلم خالد بن سعيد بن العاص خامسًا. وقال ابن إسحاق: أسلم هو وزوجته همينة بنت خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة من خزاعة بعد جماعة كثيرة.

ذكر أمر الله تعالى نبيه ﷺ بإظهار دعوته[1]

ثم إن الله تعالى أمر النبي ﷺ، بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما يؤمر، وكان قبل ذلك في السنين الثلاث مستتراً بدعوته لا يظهرها إلا لمن يثق به، فكان أصحابه إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا، فبينما سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعيد بن زيد يصلون في شعب اطلع عليهم نفر من المشركين، منهم: أبو سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق، وغيرهما، فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحي[2] جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام في قول.

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[3] خرج رسول الله ﷺ، فصعد على الصفا فهتف: «يا صباحاه»! فاجتمعوا إليه فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف! فاجتمعوا إليه. فقال: أرأيتكم لو

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٤١).

(٢) اللحيي: العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم.

(٣) سورة الشعراء (٢١٤).

أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك! أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ السورة[1].

وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم: لما أنزل الله على رسوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعًا، فجلس في بيته كالمريض، فأتته عماته يعدنه، فقال: ما اشتكيت شيئًا ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك. فدعاهم ﷺ، فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً، فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة، واعلم انه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة، وأن أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به. فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانية وقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا والنار أبدًا.

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب، فقال أبو لهب: هذه والله السوأة! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

وقال علي بن أبي طالب: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ دعاني النبي ﷺ، فقال: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت ذرعًا وعلمت أني متى أبادرهم بهذا الأمر أر منهم ما أكره، فصمت عليه حتى جاءني جبريل فقال: يا محمد إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك. فاصنع لنا صاعًا من طعام

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (٢٠٨).

واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسًّا[١] من لبن واجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم، وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم. فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ، حزة[٢] من اللحم فنتفها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: خذوا باسم الله، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة، وما أرى إلا مواضع أيديهم، وايم الله الذي نفس علي بيده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم! ثم قال: اسق القوم، فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعًا، وايم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله! فلما أراد رسول الله ﷺ، أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لعلما سحركم به صاحبكم. فتفرق القوم ولم يكلمهم ﷺ فلما كان الغد قال: يا علي، إن هذا الرجل سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرقوا قبل أن أكلمهم، فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم أجمعهم إليّ. ففعل مثل ما فعل بالأمس، فأكلوا، وسقيتهم ذلك العس، فشربوا حتى رووا جميعًا وشبعوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شابًا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيتي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعًا، وقلت - وإني لأحدثكم سنًّا وأرمصهم عينًا وأعظمهم بطنًا وأحمشهم ساقًا - أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[٣].

وأمر رسول الله ﷺ، أن يصدع بما جاءه من عند الله وأن ينادئ الناس بأمره

---

(١) العس: القدح الكبير.

(٢) حزة: قطعة.

(٣) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٥٤٢، ٥٤٣) دون ذكر «وخليفتي فيكم» وفي سنده عبد الغفار بن القاسم، وهو رافضي متروك، واتهمه البعض بالوضع كما في «لسان الميزان» (٤/٤٢) وذكر الألباني في "الضعيفة" (٤٩٣٢) جملة "أخي ووصيتي وخليفتي فيكم"، وقال: موضوع.

ويدعوهم إلى الله، فكان يدعو في أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيًا إلى أن أمر بالظهور للدعاء، ثم صدع بأمر الله وبادأ قومه بالإسلام، فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه إلا بعض الرد، حتى ذكر آلهتهم وعابها. فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه إلا من عصمه الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون. وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ، على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده شيء فلما رأت قريش أنه ﷺ لا يعتبهم[1] من شيء يكرهونه، وأن أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم، مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، ومن مشى منهم، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم ردًّا رفيقًا فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ، لما هو عليه.

ثم شرى[2] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ، وقد تذامروا فيه فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا، وإنا قد قد استنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا.

ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ وخذلانه، وبعث إلى رسول الله ﷺ فأعلمه ما قالت قريش وقال له: أبق على نفسك وعلي ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه بدو وأنه خذله وقد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله ﷺ: يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته[3].

---

(١) لا يعتبهم: لا يرضيهم.

(٢) أي عظم وتفاقم.

(٣) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٧/ ٥٠) وأبو يعلى (٦٨٠٤) والطبري في «الكبير» (١٧/ ١٩١) نحو هذه القصة من حديث عقيل بن أبي طالب، وحسن الألباني إسناده في «الصحيحة».

ثم بكى رسول الله ﷺ وقام. فلما ولى ناداه أبو طالب، فأقبل عليه وقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا، فلما علمت قريش أن أبا طالب لا يخذل رسول الله ﷺ وأنه يجمع لعداوتهم مشوا بعمارة بن الوليد فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم، فخذه فلك عقله ونصرته فاتخذه ولدًا، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك نقتله[1]، فإنما رجل برجل. فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبدًا.

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله لقد أنصفك قومك وما أراك تريد أن تقبل منهم! فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك. فاشتد الأمر عند ذلك وتنابذ القوم واشتدت قريش على من في القبائل من الصحابة الذين أسلموا، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب، وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله ﷺ فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا إليه إلا ما كان من أبي لهب، فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره أقبل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم[2]. وقد مشت قريش إلى أبي طالب عند موته وقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه قال له: هؤلاء سروات قومك يسألونك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك.

قال له رسول الله ﷺ: أي عم! أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب ويملكون رقاب العجم؟ فقال أبو جهل: ما هي وأبيك؟ لنعطينكها وعشر أمثالها؟ قال: تقولون لا إله إلا الله، فنفروا وتفرقوا وقالوا: سل غيرها. فقال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها. قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضابى وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا! فنزل قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، إلى

(١) في المطبوعة: نقلته. والتصحيح من المصدر الآتي.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٤٥) من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث به. وهذا مرسل ضعيف الإسناد.

قوله: ﴿إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾[١]، وأقبل على عمه فقال قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة. قال: لولا أن تعيبكم بها العرب وتقول جزع من الموت لأعطيتكها، ولكن على ملة الأشياخ، فنزلت:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٢].

ذكر تعذيب المستضعفين من المسلمين[٣]

وهم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم ولا قوة لهم يمنعون بها، فأما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه، فلما رأوا امتناع من له عشيرة وثبت كل قبيلة على من فيها من مستضعفي المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه ويعصمه الله منهم.

فمنهم: بلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر، وكان أبوه من سبي الحبشة، وأمه حمامة سبية أيضًا، وهو من مولدي السراة، وكنيته أبو عبد الله، فصار بلال لأمية ابن خلف الجمحي، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره، ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى[٤].

فكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب وهو يقول: «أحد أحد». فيقول: أحد أحد والله يا بلال. ثم يقول لأمية: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانًا[٥]. فرآه أبو بكر يعذب فقال لأمية بن خلف الجمحي: ألا تتقي الله في هذا

---

(١) سورة ص (٦، ٧).

(٢) سورة القصص (٥٦).

والحديث أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٤٤) عن السدي مرسلاً، وأصله عند البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

(٣) «البداية» (٣/ ٤٧).

(٤) ذكره ابن إسحاق (٢/ ١٥٩، ١٦٠- سيرة ابن هشام) بدون إسناد: وله شاهد من حديث ابن مسعود، أخرجه ابن ماجه (١٥٠) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢٢).

(٥) حنانًا: الحنان: الرحمة والعطف، والمراد لأجعلن قبره موضع حنان أي مظنة من رحمة الله ؛ قاله ابن الأثير في «النهاية» (١/ ٤٥٢).

المسكين؟ فقال: أنت أفسدته فأبعدته. فقال: عندي غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيكه به. قال: قبلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعتقه[١]، فهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ومنهم: عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسي، وهو بطن من مراد وعنس - هذا بالنون -، أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديمًا ورسول الله ﷺ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً، أسلم هو وصهيب في يوم واحد، وكان ياسر حليفًا لبني مخزوم، فكانوا يخرجون عمارًا وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء، فمر بهم النبي ﷺ، فقال: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[٢]. فمات ياسر في العذاب وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل، فطعنها في قبلها بحربة في يديه فماتت، وهي أول شهيد في الإسلام، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى وبالتغريق أخرى فقالوا: لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً، ففعل، فتركوه فأتى النبي ﷺ، يبكي. فقال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا. قال فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئنًا بالإيمان. فقال: يا عمار إن عادوا فعد، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾[٣] فشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقتل بصفين مع علي وقد جاوز التسعين، قيل بثلاث، وقيل بأربع سنين.

ومنهم: خباب بن الأرت، كان أبوه سواديًا من كسكر[٤]، فسباه قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة فباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعي حليف بني زهرة، وسباع هو الذي بارزه حمزة يوم أحد - وخباب تميمي - وكان إسلامه قديمًا، قيل سادس ستة قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، فأخذه الكفار وعذبوه عذابًا شديداً، فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار،

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ١٦٠ - سيرة ابن هشام) عن عروة مرسلاً.

(٢) المرفوع منه أخرجه الحاكم (٥٦٦٦) والطبراني في «الأوسط» (١٥٠٨) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح السيرة» (ص١٥٥).

(٣) سورة النحل (١٠٦). والخبر أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٨١) عن ابن عباس، وفي سنده ضعف كما قال الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٣١٢) وأخرجه الطبري (١٤/ ١٨٢) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر مرسلاً.

(٤) كسكر: كورة واسعة، قصبتها واسط وهي بين الكوفة والبصرة «معجم البلدان» (٤/ ٤٦١).

ولووا رأسه، فلم يجبهم إلى شيء مما أرادوا منه، وهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ونزل الكوفة، ومات سنة ست وثلاثين[١].

ومنهم: صهيب بن سنان الرومي، ولم يكن روميًا، وإنما نسب إليهم لأنهم سبوه وباعوه، وقيل: لأنه كان أحمر اللون، وهو من النمر بن قاسط، كناه رسول الله ﷺ، أبا يحيى قبل أن يولد له[٢]، وكان ممن يعذب في الله، فعذب عذابًا شديدًا. ولما أراد الهجرة منعته قريش، فافتدى نفسه منهم بماله أجمع، وجعله عمر ابن الخطاب عند موته يصلي بالناس إلى أن يستخلف بعض أهل الشورى، وتوفي بالمدينة في شوال من سنة ثمان وثلاثين وعمره سبعون سنة.

وأما عامر بن فهيرة فهو مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي، وكان الطفيل أخا عائشة لأمها أم رومان، أسلم قديمًا قبل دخول رسول الله ﷺ، دار الأرقم، وكان من المستضعفين يعذب في الله، فلم يرجع عن دينه، واشتراه أبو بكر وأعتقه، فكان يرعى غنمًا له، وكان يروح بغنم أبي بكر إلى النبي ﷺ، وإلى أبي بكر لما كانا في الغار، وهاجر معهما إلى المدينة يخدمهما، وشهد بدرًا وأحدًا، واستشهد يوم بئر معونة وله أربعون سنة. ولما طعن قال: فزت ورب الكعبة! ولم توجد جثته لتدفن مع القتلى، فقيل: إن الملائكة دفنته.

ومنهم: أبو فكيهة، واسمه أفلح، وقيل يسار، وكان عبدًا لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي، أسلم مع بلال، فأخذه أمية بن خلف وربط في رجله حبلاً وأمر به فجر ثم ألقاه في الرمضاء، ومر به جُعْل[٣] فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك ورب هذا، فخنقه خنقًا شديدًا، ومعه أخوه أبي بن خلف يقول: زده عذابًا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه، وقيل: إن بني عبد الدار كانوا يعذبونه، وإنما كان مولى لهم، وكانوا يضعون الصخرة على صدره حتى دلع لسانه فلم يرجع عن دينه، وهاجر ومات قبل بدر.

ومنهم: لبينة جارية بني مؤمل بن حبيب بن عدي بن كعب، أسلمت قبل إسلام

(١) في «التقريب» أنه مات سنة (٣٧) هـ.

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٧٣٨) من حديث، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) الجعل: دويبة.

عمر بن الخطاب، وكان عمر يعذبها حتى تفتن ثم يدعها، ويقول: إني لم أدعك إلا سآمة، فتقول: كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم، فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

ومنهم: زنيرة، وكانت لبني عدي، وكان عمر يعذبها، وقيل: كانت لبني مخزوم، وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت، فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك. فقالت: وما يدري اللات والعزى من يعبدهما؟ ولكن هذا أمر من السماء وربي قادر على رد بصري، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر فأعتقها[1].

(زنيرة) بكسر الزاي، وتشديد النون، وتسكين الياء المثناة من تحتها، وفتح الراء.

ومنهم: النهدية، مولاة لبني نهد، فصارت لامرأة من بني عبد الدار فأسلمت، وكانت تعذبها وتقول: والله لا أقلعت عنك أو يبتاعك بعض أصحاب محمد، فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

ومنهم: أم عبيس، بالباء الموحدة، وقيل عنيس، بالنون، وهي أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فابتاعها أبو بكر فأعتقها. وكان أبو جهل يأتي الرجل الشريف ويقول له: أتترك دينك ودين أبيك وهو خير منك؟ ويقبح رأيه وفعله ويسفه حلمه ويضع شرفه، وإن كان تاجرًا يقول: ستكسد تجارتك ويهلك مالك، وإن كان ضعيفًا أغرى به حتى يعذب.

ذكر المستهزئين ومن كان أشد الأذى للنبي ﷺ[2]

وهم جماعة من قريش، فمنهم: عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، كان شديدًا عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ وكان جاره، فكان رسول الله ﷺ، يقول: أي جوار هذا يا بني عبد المطلب! فرآه يومًا حمزة فأخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب فجعل ينفضها

---

(١) ذكره ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٥٥) بدون سند.

(٢) أخرج الطبراني في «الأوسط» (٤٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن المستهزئين هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب، وأبو زمعة من بني أسد بن عبد العزى، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل. وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٤٢): حديث صحيح.

وذكره الألباني في «صحيح السيرة» (ص٢٢٠).

عن رأسه ويقول: صاحبي أحمق وأقصر عما كان يفعله لكنه يضع من يفعل ذلك. ومات أبو لهب بمكة عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر بمرض يعرف بالعدسة[(١)].

ومنهم: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو ابن خال النبي ﷺ، وكان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى. وكان يقول للنبي ﷺ: أما كلمت اليوم من السماء يا محمد؟ وما أشبه ذلك. فخرج من أهله فأصابه السموم فاسود وجهه، فلما عاد إليهم لم يعرفوه وأغلقوا الباب دونه، فرجع متحيراً حتى مات عطشًا. وقيل: إن جبريل أومأ إلى السماء فأصابته الأكلة فامتلأ قيحًا فمات[(٢)].

ومنهم: الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي، كان أحد المستهزئين الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وهو ابن العيطلة، وهي أمه، وكان يأخذ حجراً يعبده، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني. وكان يقول: قد غر محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، وفيه نزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[(٣)]، وأكل حوتًا مملوحًا فلم يزل يشرب الماء حتى مات، وقيل: أخذته الذبحة، وقيل: امتلأ رأسه قيحًا فمات[(٤)].

ومنهم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان الوليد يكنى أبا عبد شمس، وهو العدل، لأنه كان عدل قريش كلها، لأن قريشًا كانت تكسو البيت جميعها وكان الوليد يكسوها وحده، وهو الذي جمع قريشًا وقال: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: ساحر، ويقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته. وقال أبو جهل: لئن سب محمد آلهتنا سببنا إلهه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٥)]. ومات بعد الهجرة بعد ثلاثة

---

(١) العدسة: بثرة تخرج في مواضع من الجسد تشبه العدسة، وهي من جنس الطاعون تقتل صاحبها غالبًا. «النهاية» (٣/ ١٩٠).

(٢) في الحديث المشار إليه آنفًا: «أنه خرج في رأسه قروح فمات منها».

(٣) سورة الجاثية (٢٣).

(٤) في الحديث السابق «أنه أخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات منها».

(٥) سورة الأنعام (١٠٨).

أشهـر وهو ابن خمس وتسعين سنة، ودفن بالحـجون، وكان مر برجل من خـزاعة يريش نبلاً له فوطىء على سهم منها فخدشه، ثم أومأ جبريل إلى ذلك الخدش بيده فانتقض ومات منه[١]، فأوصى إلى بنيه أن يأخذوا ديته من خزاعة، فأعطت خزاعة ديته.

ومنهم: أمية وأبـيّ ابنا خلف، وكانا على شر ما عليـه أحد من أذى رسول الله ﷺ، وتكذيبه، جاء أبيّ إليه ﷺ بعظم فخذ ففـته في يده وقال: زعمت أن ربك يحيي هذا العظم، فنزلت: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٢]. وصنع عقبة بن أبي معيط طعامًـا ودعا إليه رسول الله ﷺ، فقال: لا أحضـره حتى تشهد أن لا إله إلا الله، ففعل، فقـام معه. فقال له أمية بن خلف: أقلت كـذا وكذا؟ فقال: إنما قلت ذلك لطعامنا، فنزلت: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[٣]. وقتل أمية يوم بدرًا كافرًا، قتله خـبيب وبلال، وقيل: قـتله رفاعة بن رافع الأنصـاري. وأما أخوه أبي فـقتله رسول الله ﷺ، يوم أحد، رماه بحربة فقتله.

ومنهم: أبو قيس بن الفاكه بن المغـيرة، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ، ويعين أبا جهل على أذاه، قتله حمزة يوم بدر.

ومنهم: العـــاص بن وائل السـهـمي، والد عـمـرو بـن العـاص، وكـان من المستهزئين، وهو القـائل لما مات القاسم ابن النبي ﷺ: إن محمدًا أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[٤]. فركب حمارًا له فلـما كان بشعب من شعاب مكة ربض به حـماره فلدغ في رجله فانتفـخت حتى صارت كعنق البـعير، فمات منها[٥] بعد هجرة النبي ﷺ، ثاني شهر دخل المدينة وهو ابن خمس وثمانين سنة.

---

(١) ورد ذلك في حديث ابن عباس السابق بنحوه.

(٢) سورة يس (٧٨) والخبر روي من مرسل مجاهد وعكرمة وعروة وغيرهم.

(٣) سورة الفرقان (٢٧).

(٤) سورة الكوثر (٣).

وأخرج الطبري في «تفسيره» (٣٠ / ٣٢٩).

عن ابن عباس قال في قوله تعالى ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ قال: هو العاص بن وائل.

وهو صحيح لشواهده.

(٥) ورد نحو ذلك في حديث ابن عباس في ذكر المستهزئين.

ومنهم: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار، يكنى أبا قائد، وكان أشد قريش في تكذيب النبي ﷺ، والأذى له ولأصحابه. وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، وسمع بذكر رسول الله ﷺ، وقرب مبعثه، فقال: إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم، فنزلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[1]، الآية. وكان يقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين، فنزل فيه عدة آيات. أسره المقداد يوم بدر وأمر رسول الله ﷺ، بضرب عنقه، فقتله علي بن أبي طالب صبراً بالأثيل[2].

ومنهم: أبو جهل بن هشام المخزومي، كان أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأكثرهم أذى له ولأصحابه، واسمه عمرو، وكنيته أبو الحكم، وأما أبو جهل فالمسلمون كنوه به، وهو الذي قتل سمية أم عمار بن ياسر، وأفعاله مشهورة، وقتل ببدر، قتله ابنا عفراء، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود.

ومنهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وكانا على ما كان عليه أصحابهما من أذى رسول الله ﷺ، والطعن عليه، وكانا يلقيانه فيقولان له: أما وجد الله من يبعثه غيرك؟ إن ههنا من هو أسن منك وأيسر. فقتل منبه، قتله علي بن أبي طالب ببدر، وقتل أيضًا العاص بن منبه بن الحجاج، قتله أيضًا علي ببدر، وهو صاحب ذي الفقار، وقيل منبه بن الحجاج صاحبه، وقيل نبيه.

(نبيه) بضم النون، وفتح الباء الموحدة.

ومنهم: زهير بن أبي أمية أخو أم سلمة لأبيها، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وكان ممن يظهر تكذيب رسول الله ﷺ، ويرد ما جاء به ويطعن عليه إلا أنه ممن أعان على نقض الصحيفة. واختلف في موته فقيل: سار إلى بدر فمرض فمات، وقيل: أسر ببدر فأطلقه رسول الله ﷺ، فلما عاد مات بمكة، وقيل: حضر وقعة أحد فأصابه سهم فمات منه، وقيل: سار إلى اليمن بعد الفتح فمات هناك كافراً.

ومنهم: عقبة بن أبي معيط، واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، ويكنى أبا الوليد، وكان من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ، وعداوة له وللمسلمين، عمد إلى مكتل فجعل فيه عذرة وجعله على باب رسول الله ﷺ،

---

(١) سورة الأنعام (١٠٩).

(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة. «معجم البلدان» (١/ ٩٤).

فبصر به طليب بن عمير بن وهب بن عبد مناف بن قصي، وأمه أروى بنت عبد المطلب، فأخذ المكتل منه وضرب به رأسه وأخذ بأذنيه، فشكاه عقبة إلى أمه فقال: قد صار ابنك ينصر محمداً. فقالت: ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد. وأسر عقبة ببدر فقتل صبراً، قتله عاصم بن ثابت الأنصاري، فلما أراد قتله قال: يا محمد من للصبية؟ قال: النار. قتل بالصفراء[1]، وقيل بعرق الظبية، وصلب، وهو أول مصلوب في الإسلام.

ومنهم: الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان من المستهزئين، ويكنى أبا زمعة، وكان وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ، وأصحابه ويقولون: «قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر»، ويصفرون به ويصفقون، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى ويثكل ولده، فجلس في ظل شجرة فجعل جبريل يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها وبشوكها حتى عمي، وقيل: أومأ إلى عينيه فعمي فشغله عن رسول الله ﷺ، وقتل ابنه معه ببدر كافراً، قتله أبو دجانة، وقتل ابن ابنه عتيب، قتله حمزة وعلي اشتركا في قتله، وقتل ابن ابنه الحارث بن زمعة بن الأسود، قتله علي، وقيل: هو الحارث بن الأسود، والأول أصح، وهو القائل:

أتبكي أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

ومات والناس يتجهزون إلى أحد وهو يحرض الكفار وهو مريض.

ومنهم: مُطعَم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، يكنى أبا الريان، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ، ويشتمه ويسمعه ويكذبه، وأسر ببدر، وقتل كافراً صبراً، قتله حمزة[2].

ومنهم: مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان من المستهزئين، وكان سفيهاً، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فأشار جبريل إلى رأسه فامتلأ قيحاً فمات.

ومنهم: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، كان شديد العداوة، لقي النبي

---

(١) الصفراء: وادي من ناحية المدينة. «معجم البلدان» (٣/ ٤١٢).

(٢) هذا الكلام فيه نظر، لما رواه البخاري (٣١٣٩) عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر، «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له». وهذا يدل على أن المطعم مات قبل بدر.

ﷺ، فقال: يا ابن أخي بلغني عنك أمر ولست بكذاب، فإن صرعتني علمت أنك صادق، ولم يكن يصرعه أحد، فصرعه النبي ﷺ، ثلاث مرات[١]، ودعاه رسول الله ﷺ، إلى الإسلام، فقال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة. فقال لها رسول الله ﷺ: أقبلي، فأقبلت تخد الأرض[٢]. فقال ركانة: ما رأيت سحراً أعظم من هذا، مرها فلترجع، فأمرها فعادت، فقال: هذا سحر عظيم.

هؤلاء أشد عداوة لرسول الله ﷺ، ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقل عداوة من هؤلاء، كعتبة وشيبة وغيرهما، وكان جماعة من قريش من أشد الناس عليه فأسلموا، تركنا ذكرهم لذلك، منهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي أخو أم سلمة لأبيها، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص، والد مروان، وغيرهم، أسلموا يوم الفتح.

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة[٣]

ولما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ـ عز وجل ـ وعمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم قال: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، ، فإن فيها ملكًا لا يظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه. فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، فخرج عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة النبي ﷺ، معه، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، وغيرهم تمام عشرة رجال، وقيل: أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان مسيرهم في رجب سنة خمس من النبوة، وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة، فأقاموا شعبان وشهر رمضان،

وقدموا في شوال سنة خمس من النبوة، وكان سبب قدومهم إلى النبي ﷺ أنه لما رأى مباعدة قومه له شق عليه وتمنى أن يأتيه الله بشيء يقاربهم به، وحدث نفسه

---

(١) أخرج أبو داود (٤٠٧٨) عن محمد بن علي بن ركانة «أن ركانة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ»، وقال الألباني في «الإرواء» (١٥٠٣): حسن.

(٢) أي تشقها.

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٤٦) و«البداية» (٣/ ٦٦).

بذلك، فأنزل الله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، فلما وصل إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾(١)، ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه: تلك الغرانيق(٢) العلى، وإن شفاعتهن لترتجى(٣). فلما سمعت ذلك قريش سرهم والمسلمون مصدقون بذلك لرسول الله ﷺ، لا يتهمونه ولا يظنون به سهواً ولا خطأ. فلما انتهى إلى سجدة سجد معه المسلمون والمشركون(٤) إلا الوليد بن المغيرة، فإنه لم يطق السجود لكبره، فأخذ كفًا من البطحاء فسجد عليها(٥). ثم تفرق الناس. وبلغ الخبر من بالحبشة من المسلمين أن قريشًا أسلمت، فعاد منهم قوم وتخلف قوم، وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره بما قرأ، فحزن رسول الله ﷺ وخاف، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى

---

(١) سورة النجم (١- ٢٠).

(٢) الغرانيق: المراد بها هنا الأصنام «النهاية» (٣/ ٣٦٤).

(٣) باطل: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٤٥٠) من حديث ابن عباس ﵄ في تفسير قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ وقد ألف الألباني رسالة في بيان بطلان هذا الحديث سندًا ومتنًا، وأسماها نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، وممن ضعفها أيضًا من أهل العلم، الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٣٠) حيث قال: أنها رويت من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.
وذكر الألباني في رسالته أن الصحيح في تفسير الآية أن الله عز وجل ما أرسل من نبي ولا رسول إلا إذا تلا كتاب الله وقرأه أو حدث وتكلم ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوته ما يفتن به قلوبهم فيذهب الله عز وجل ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله.

(٤) قال الألباني في رسالته السابقة الذكر: رب سائل يقول: إذا ثبت بطلان إلقاء الشيطان على لسانه عليه الصلاة والسلام جملة «تلك الغرانيق العلي وإن شفاعتهن لترتجي»، فلم إذن سجد المشركون معه ﷺ وليس ذلك من عادتهم؟
والجواب ما قاله المحقق الألوسي: وليس لأحد أن يقول: إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم، وإلا لما سجدوا، لأننا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى ﴿وأنه أهلك عادًا الأولى * وثمود فما أبقى﴾ إلى آخر الآيات، فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم، وقد ظنوا أن سجودهم ولو لم يكن عن إيمان كاف في دفع ما توهموه.
ثم ذكر الألوسي وجهًا آخر واستبعده، والله أعلم.

(٥) الحديث أخرجه البخاري (٤٥٨١) من حديث ابن عباس، وأخرجه (١٠٢٠) ومسلم (٥٧٦) من حديث ابن مسعود، وليس فيهما تسمية الوليد بن المغيرة، وأخرجه النسائي (٩٥٨) من حديث المطلب بن أبي وداعة عن أبيه أنه هو الذي أبى السجود، وصححه الألباني في «صحيح السيرة» (ص ٢٠٩).

الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[1]، فذهب عنه الحزن والخوف. واشتدت قريش على المسلمين، فلما قرب المسلمون الذين كانوا بالحبشة من مكة بلغهم أن إسلام أهل مكة باطل، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفيًا، فدخل عثمان في جوار أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، فأمن بذلك، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه، ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة، ثم قال: أكون في ذمة مشرك! جوار الله أعز، فرد عليه جواره، وكان لبيد بن ربيعة ينشد قريشًا قوله: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل).

فقال عثمان بن مظعون: صدقت، فلما قال: (وكل نعيم لا محالة زائل). قال: كذبت! نعيم الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش ما كانت مجالسكم هكذا ولا كان السفه من شأنكم. فأخبروه خبره وخبر ذمته، فقام بعض بني المغيرة فلطم عين عثمان، فضحك الوليد شماته به حيث رد جواره، وقال لعثمان: ما كان أغناك عن هذا! فقال إن عيني الأخرى لمحتاجة إلى مثل ما نالت هذه. فقال له: هل لك أن تعود إلى جواري؟ قال: لا أعود إلى جوار غير الله[2]. فقام سعد بن أبي وقاص إلى الذي لطم عين عثمان فكسر أنفه، فكان أول دم أريق في الإسلام في قول. وأقام المسلمون بمكة يؤذون، فلما رأوا ذلك رجعوا مهاجرين إلى الحبشة ثانيًا، فخرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون إلى الحبشة، فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً، والنبي ﷺ مقيم بمكة يدعو إلى الله سرًّا وجهرًا، فلما رأت قريش أنه لا سبيل لها إليه رموه بالسحر والكهانة والجنون وأنه شاعر، وجعلوا يصدون عنه من خافوا أن يسمع قوله، وكان أشد ما بلغوا منه ما ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: حضرت قريش يومًا بالحجر فذكروا النبي ﷺ، وما نال منهم وصبرهم عليه، فبينما هم كذلك إذ طلع النبي ﷺ، ومشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها ثم الثالثة، فقال: أتسمعون يا معشر قريش؟ والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح. قال: فكأنما على رؤوسهم الطير واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه[3] بأحسن ما يجد. وانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد

---

(١) سورة الحج (٥٢).

(٢) ذكره ابن إسحاق (٢/ ٢١٤- ٢١٦) بدون إسناد.

(٣) يرفؤه: يسكنه ويرفق به «النهاية» (٢/ ٢٤١).

اجتمعوا في الحجر، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ فيقول: أنا الذي أقول ذلك، فأخذ عقبة بن أبي معيط بردائه، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول ـ وهو يبكي ـ ويلكم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾(١) ثم انصرفوا عنه. هذا أشد ما بلغت منه(٢).

ذكر إرسال قريش إلى النجاشي في طلب المهاجرين

لما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا، وأن النجاشي قد أحسن صحبتهم، ائتمروا بينهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية(٣) ومعهما هدية إليه وإلى أعيان أصحابه، فسارا حتى وصلا الحبشة، فحملا إلى النجاشي هديته وإلى أصحابه هداياهم وقالا لهم: إن ناسًا من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد أرسلنا أشراف قومهم إلى الملك ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم، وخافا إن يسمع النجاشي كلام المسلمين أن لا يسلمهم. فوعدهما أصحاب النجاشي المساعدة على ما يريدان. ثم إنهما حضرا عند النجاشي فأعلماه ما قد قالاه، فأشار أصحابه بتسليم المسلمين إليهما. فغضب من ذلك وقال: لا والله لا أسلم قومًا جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ما يذكر هذان منعتهم وأحسنت جوارهم.

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم فحضروا، وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟

فقال جعفر: أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله

---

(١) سورة غافر (٢٨).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢/٢١٨) وقال الألباني في «صحيح السيرة» (ص ١٤٨) إسناده حسن.

(٣) الصواب أنه: «عبد الله بن أبي ربيعة» كما أخرجه أحمد (١/٢٠١) وغيره.

إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد الله وأن لا تشرك به شيئًا ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام. وعدد عليه أمور الإسلام، قال: فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحل لنا، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه سطرًا من كهيعص، فبكى النجاشي وأساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبدًا! فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا بما يبيد خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي أمية، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل فإن لهم أرحامًا. فلما كان الغد قال للنجاشي: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيمًا. فأرسل النجاشي فسألهم عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشي عودًا من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود فنخرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم. وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني آذيت رجلاً منكم. ورد هدية قريش وقال: ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناس فيّ حتى أطيعهم فيه. وأقام المسلمون بخير دار. وظهر ملك من الحبشة فنازع النجاشي في ملكه، فعظم ذلك على المسلمين، وسار النجاشي إليه ليقاتله، وأرسل المسلمون الزبير بن العوام ليأتيهم بخبره، وهم يدعون له، فاقتتلوا، فظفر النجاشي، فما سر المسلمون بشيء سرورهم بظفره[1]. قيل: إن معنى قوله «إن الله لم يأخذ الرشوة مني»، أن أبا النجاشي لم يكن له ولد غيره، وكان له عم قد أولد اثني عشر ولدًا، فقالت الحبشة: لو قتلنا أبا النجاشي وملكنا أخاه فإنه لا

(١) حسن: أخرجه ابن إسحاق (٢/ ١٧٧- ١٨٤- سيرة ابن هشام) وأحمد (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣) من حديث أم سلمة ﵂، وقال الألباني في «صحيح السيرة» (ص١٨٠): إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين.

ولد له غير هذا الغلام، وكان أخوه وأولاده يتوارثون الملك دهراً. فقتلوا أباه وملكوا عمه ومكثوا علـى ذلك حينًا، وبقي النجاشي عند عمه، وكان عـاقلاً، فغلب على أمر عمـه، فخافت الحبشـة أن يقتلهم جزاء لقتل أبيـه، فقالوا لعمـه: إما أن تقتل النجاشي وإمـا أن تخرجـه من بين أظهرنا فـقد خفناه. فـأجابهم إلى إخـراجه من بلادهم على كره منه، فخرجوا إلى السوق فباعوه من تاجر بستمائة درهم. فسار به التاجر في سفينته. فلما جاء العشاء هاجت سـحابة فأصابت عمه بصاعقة، ففزعت الحبـشة إلى أولاده، فـإذا هم لا خيـر فيهم، فـهرج على الحـبشـة أمرهم، فـقال بعضهـم: والله لا يقيم أمركم إلا النجاشي، فـإن كان لكم بالحبشـة رأي فأدركوه. فخرجـوا في طلبه حتى أدركـوه وملكوه. وجاء التاجر وقـال لهم: إما أن تعطوني مالي وإما أن أكلمه. فقالوا: كلمه. فقـال: أيها الملك، ابتعت غلامًا بستمائة درهم ثم أخذوا الغلام والمال. فقال النجـاشي: إما أن تعطوه دراهمه وإما أن يضع الغلام يده في يده فليذهبن به حـيث شاء. فأعطوه دراهمه، فهـذا معنى قوله. فكان ذلك أول ما علم من عدله ودينه[1]، قال: ولما مات النجاشي كانوا لا يزالون يرون على قبره نوراً[2].

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[3]

ثم إن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو جالس عند الصفا، فـآذاه وشتمه ونال منه وعـاب دينه، ومولاة لعـبـد الله بن جدعـان في مسكـن لها تسـمع ذلك. ثم انصرف عنه فجلس في نادي قريش عند الكعبة، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل مـن قنصه متـوشحًـا قوسـه، وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حـتى يطوف بالكعبـة، وكان يقف على أندية قريش ويسلم عليـهم ويتحدث معـهم، وكان أعز قريش وأشدهم شكيمة. فلما مر بالمولاة، وقد قام رسول الله ﷺ ورجع إلى بيته، فقالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابـن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام فإنه سبه وآذاه ثم انصـرف عنه ولم يكلمه محمد. قال: فاحتـمل حمزة الغضب لما

(١) حسن: أخـرجه ابن إسحـاق وأحمد عـقب الحديث السابـق، من حديث عائشـة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في «صحيح السيرة» (ص ١٨٠).

(٢) حسن: أخرجـه ابن إسحـاق (٢/ ١٨٤- سيرة ابن هشـام) وقال الألبـاني في «صحيح السـيرة» (ص١٨١) إسناده حسن.

(٣) «البداية» (٣/ ٣٣).

أراد الله به من كرامته، فخرج سريعًا لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالكعبة معدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به، حتى دخل المسجد، فرآه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه وضرب رأسه بالقوس فشجه شجة منكرة، وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فاردد عليّ إن استطعت، وقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا. وتم حمزة على إسلامه، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ، قد عز، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[1]. واجتمع يومًا أصحابه فقالوا: ما سمعت قريش القرآن يجهر لها به، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود: أنا. فقالوا: نخشى عليك إنما نريد من له عشيرة يمنعونه. قال: إن الله سيمنعني. فغدا عليهم في الضحى حتى أتى المقام وقريش في أنديتها ثم رفع صوته وقرأ سورة الرحمن، فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم اليوم، ولئن شئتم لأغادينهم. قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه [2]

ثم أسلم عمر بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة، وقيل: أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وقيل: أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة، وكان رجلاً جلدًا منيعًا، وأسلم بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة. وكان أصحاب النبي ﷺ لا يقدرون يصلون عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عندها وصلى معه أصحاب النبي ﷺ. وكان قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب، فقوي المسلمون بهما، وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، والمسلمين. قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة: إنا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف عليّ - وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة - فقال: أتنطلقون يا

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/١٢٨، ١٢٩- سيرة ابن هشام) عن رجل من أسلم، وهذا مرسل أو معضل.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٥٤٩) عن عروة مرسلاً.

أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجًا. قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة وحزنًا. قالت: فلما عاد عامر أخبرته وقلت له: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ـ لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين ـ فهداه الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين[1].

وكان سبب إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد بن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام العدوي قد أسلم أيضًا وهو يخفي إسلامه فرقًا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن، فخرج عمر يومًا ومعه سيفه يريد النبي ﷺ، والمسلمين وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلاً، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً الذي فرق أمر قريش وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهلي؟ قال: ختنك وابن عمتك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما. فرجع عمر إليهما وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن. فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب. فلما دخل قال: ما هذه الهينمة؟[2] قالا: ما سمعت شيئًا؟ قال: بلى، وقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما شئت.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وقال لها: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد. قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها. قالت له: وقد طمعت في إسلامه: إنك نجس على

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/١٨٦، ١٨٧) من حديث أم عبد الله بنت أبي حثمة رضي الله عنها.

(٢) الهينمة: الكلام الخفي.

شركك ولا يمسها إلا المطهرون، فقام فاغتسل. فأعطته الصحيفة وقرأها، وفيها: طه، وكان كاتبًا، فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خباب خرج إليه وقال: يا عمر إني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام، فالله الله يا عمر!

فقال عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فدله خباب، فأخذ سيفه وجاء إلى النبي ﷺ، وأصحابه فضرب عليه الباب، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا سيفه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال حمزة: إئذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن أراد شرًّا قتلناه بسيفه، فأذن له، فنهض إليه النبي ﷺ حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال: ما جاء بك؟ ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله جئت لأومن بالله وبرسوله، فكبر ﷺ تكبيرة عرف من في البيت أن عمر أسلم[(١)]. فلما أسلم قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل جميل بن معمر الجمحي، فجاءه فأخبره بإسلامه، فمشى إلى المسجد وعمر وراءه وصرخ: يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. فيقول عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت، فقاموا، فلم يزل يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس وأعيا، فقعد وهم على رأسه، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فلو كنا ثلاثمائة نفر تركناها لكم أو تركتموها لنا، يعني مكة، فبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ عليه حلة فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر. قال فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل. وكان الرجل العاص بن وائل السهمي[(٢)]. قال عمر: لما أسلمت أتيت باب أبي جهل ابن هشام فضربت عليه بابه، فخرج إلي وقال: مرحبًا بابن أخي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ، وصدقت ما جاء به.

---

(١) ذكره ابن إسحاق (٢/ ١٨٧-١٩٠) بدون سند.

ودعوة النبي ﷺ بإسلام أحد العمرين أخرجها الترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه ابن إسحاق (٢/ ١٩٢، ١٩٣) وقال الحافظ ابن كثير في «البداية» (٢/ ٩٨): سنده جيد قوي. وذكره الألباني في «صحيح السيرة» (ص ١٩١، ١٩٢).

قال: فضرب الباب في وجهي وقال قبحك الله وقبح ما جئت به[١]! وقيل في إسلامه غير هذا.

ذكر أمر الصحيفة[٢]

ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد، وأن المسلمين قووا بإسلام حمزة وعمر، وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية من النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتابًا يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئًا فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا لذلك الأمر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا، وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش، فلقي هندًا بنت عتبة فقال: كيف رأيت نصري اللات والعزى؟ قالت: لقد أحسنت فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا لا يصل إلى أحد منهم شيء إلا سرًا، وذكروا أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه قمح يريد به عمته خديجة وهي عند رسول الله ﷺ في الشعب، فتعلق به وقال: والله لا تبرح حتى أفضحك. فجاء أبو البختري بن هشام فقال: مالك وله؟ عنده طعام لعمته أفتمنعه أن يحمله إليها؟ خل سبيله فأبى أبو جهل، فنال منه فضربه أبو البختري بلحي جمل فشجه ووطئه وطأ شديدًا، وحمزة ينظر إليهم، وهم يكرهون أن يبلغ النبي ﷺ ذلك فيشمت بهم هو والمسلمون. ورسول الله ﷺ يدعو الناس سرًا وجهرًا، والوحي متتابع إليه[٣]، فبقوا كذلك ثلاث سنين.

وقام في نقض الصحيفة نفر من قريش، وكان أحسنهم بلاء فيه هشام بن عمرو ابن الحارث بن عمرو بن لؤي، وهو ابن أخي نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه، وكان يأتي بالبعير قد أوقره طعامًا ليلاً ويستقبل به الشعب ويخلع خطامه فيدخل الشعب. فلما رأى ما هم فيه وطول المدة عليهم مشى إلى زهير بن أبي أمية

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ١٩٤- سيرة ابن هشام) عن عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر أو بعض أهله.

(٢) «السيرة النبوية» (٢/ ١٩٥) و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٤٩).

(٣) ذكره ابن إسحاق (٢/ ١٩٨، ١٩٩) بدون إسناد.

ابن المغيرة المخزومي، أخي أم سلمة، وكـان شديد الغيرة على النبي ﷺ والمسلمين وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث علمت؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم، يعني أبا جهل، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً. فقال: فماذا أصنع؟ وإنما أنا رجل واحد؟ والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها. فقال: قد وجدت رجلاً. قال: ومن هو؟ قال: أنا. قال زهير: أبغنا ثالثًا، فذهب إلى المطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف فقال له: أرضيت أن يهلك بطنان من بني عدي ابن عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا قال: ما أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانيًا. قال: من هو؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثًا. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: أبغنا رابعًا. فذهب إلى أبي البختري بن هشام وقال له نحواً مما قال للمطعم، قال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أنا وزهير والمطعم. قال: أبغنا خامسًا. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم، قال: وهل على هذا الأمر معين؟ قال: نعم، وسمى له القوم، فاتعدوا خطم الحجون الذي بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة. فقال زهير: أنا أبدأكم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: كذبت والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا بها حين كتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها. قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. قال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل. وأبو طالب في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا ما كان: باسمك اللهم، كانت تفتتح بها كتبها، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فشلت يده[1].

وقيل: كان سبب خروجهم من الشعب أن الصحيفة لما كتبت وعلقت بالكعبة

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٢- ٥٥٣) عن ابن إسحاق معضلاً.

اعتزل الناس بني هاشم وبني المطلب، وأقام رسول الله ﷺ وأبو طالب ومن معهما بالشعب ثلاث سنين، فأرسل الله الأرضة وأكلت ما فيها من ظلم وقطيعة رحم وتركت ما فيها من أسماء الله تعالى، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ، فأعلمه بذلك فقال النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان أبوطالب لا يشك في قوله، فخرج من الشعب إلى الحرم، فاجتمع الملأ من قريش، وقال: إن ابن أخي أخبرني أن الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم وتركت اسم الله تعالى، فأحضروها، فإن كان صادقًا علمتم أنكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا، وإن كان كاذبًا علمنا أنكم على حق وأنَّا على باطل. فقاموا سراعًا وأحضروها، فوجدوا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، وقويت نفس أبي طالب واشتد صوته وقال: قد تبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة. فنكسوا رؤوسهم ثم قالوا: إنما يأتوننا بالسحر والبهتان، وقام أولئك النفر في نقضها كما ذكرنا، وقال أبو طالب في أمر الصحيفة وأكل الأرضة ما فيها من ظلم وقطيعة رحم أبياتًا منها:

وقد كان في أمر الصحيفة عبره ... متى ما يخبر غائب القوم يعجب

محا الله منهم كفرهم وعقوقهم ... وما نقموا من ناطق الحق معرب

فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ... ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

ذكر وفاة أبي طالب وخديجة ﵄ وعرض رسول الله ﷺ نفسه على العرب[1]

توفي أبو طالب وخديجة قبل الهجرة بثلاث سنين وبعد خروجهم من الشعب، فتوفي أبو طالب في شوال أو في ذي القعدة وعمره بضع وثمانون سنة، وكانت خديجة ماتت قبله بخمسة وثلاثين يومًا، وقيل: كان بينهما خمسة وخمسون يومًا، وقيل: ثلاثة أيام، فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ، بهلاكهما، فقال رسول الله ﷺ: **«ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»**[2]، وذلك أن قريشًا

(١) «السيرة النبوية» (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٤) من حديث عائشة بلفظ: **«ما زالت قريش كافة عني حتى مات أبو طالب»**، وقال الألباني في «صحيح السيرة» (ص ٣١) بعد أن ذكره من رواية الحاكم: إسناده جيد.

وصلوا من أذاه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته حتى ينثر بعضهم التراب على رأسه، وحتى إن بعضهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وكان رسول الله ﷺ، يخرج ذلك على العود ويقول: أي جوار هذا يا بني عبد مناف! ثم يلقيه بالطريق.

فلما اشتد عليه الأمر بعد موت أبي طالب خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر. فلما انتهى إليهم عمد إلى ثلاثة نفر منهم، وهم يومئذ سادة ثقيف، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير، فدعاهم إلى الله وكلمهم في نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه، فقال أحدهم: مارد يمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال آخر: أما وجد الله من يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ، وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: إذا أبيتم فاكتموا عليّ ذلك، وكره أن يبلغ قومه، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم. فاجتمعوا إليه وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهو البستان، وهما فيه، ورجع السفهاء عنه، وجلس إلى ظل حبلة وقال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي! ولكن عافيتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك.

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه تحركت له رحمهما فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا اسمه عداس فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب واذهب به إلى ذلك الرجل.

ففعل فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، وضع يده فيه وقال: بسم الله، ثم أكل، فقال عداس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة. فقال له النبي ﷺ: من أي البلاد أنت وما دينك؟

---

(١) المرط: النتف.

قال: أنا نصراني من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يدريك ما يونس؟ قال رسول الله ﷺ: ذلك أخي كان نبيًّا وأنا نبي، فأكب عداس على يدي رسول الله ﷺ، ورجليه يقبلهما فعاد، فيقول ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما لك تقبل يديه ورجليه؟ قال: ما في الأرض خير من هذا الرجل. قالا: ويحك إن دينك خير من دينه(١)!

ثم انصرف رسول الله ﷺ، راجعًا إلى مكة حتى إذا كان في جوف الليل قام قائمًا يصلي، فمر به نفر من الجن، وهم سبعة نفر من جن نصيبين، رائحين إلى اليمن فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا(٢).

وذكر بعضهم أن رسول الله ﷺ، لما عاد من ثقيف أرسل إلى المطعم بن عدي ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فأجاره، وأصبح المطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، فقال له أبو جهل: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت فدخل النبي ﷺ، مكة وأقام بها. فلما رآه أبو جهل قال: هذا نبيكم يا عبد مناف. فقال عتبة بن ربيعة: وما ينكر أن يكون منا نبي وملك؟

فأخبر رسول الله ﷺ، بذلك، فأتاهم فقال: أما أنت يا عتبة فما حميت لله وإنما حميت لنفسك، وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون، فكان الأمر كذلك.

وكان رسول الله ﷺ، يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، فأتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له «مليح»، فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم، فأبوا عليه(٣). فأتى كلبًا إلى بطن منهم يقال لهم: «بنو عبد الله» فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم، فلم يقبلوا ما عرض عليهم(٤). ثم إنه أتى بني حنيفة وعرض

---

(١) ذكره ابن إسحاق (٢/٢٦٦- ٢٦٩) بدون سند.
(٢) ذكره ابن إسحاق (٢/٢٦٩) بدون سند.
(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٥٥٦) عن الزهري مرسلاً.
(٤) المصدر السابق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين معضلاً.

عليهم نفسه، فلـم يكن أحد من العرب أقبح ردًا عليه منهم[١]. ثم أتى بني عامر فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم: أرأيت إن نحن تابعناك فأظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

فلما رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم كبير فأخبروه خبر النبي ﷺ ونسبه، وضع يده على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل من تلاف؟ والذي نفسي بيده ما تَقَوَّلها إسماعيلي قط وإنها لحق، وأين كان رأيكم عنه[٢]. ولم يزل رسول الله ﷺ، يعرض نفسه على كل قادم له اسم وشرف ويدعوه إلى الله. وكان كلما أتى قبيلة يدعوهم إلى الإسلام تبعه عمه أبو لهب، فإذا فرغ رسول الله ﷺ، من كلامه يقول لهم أبو لهب: يا بني فلان، إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من الضلالة والبدعة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.

ذكر أول عرض رسول الله ﷺ نفسه على الأنصار وإسلامهم[٣]

فقدم سويد بن صامت أخو بني عمرو بن عوف بطن من الأوس مكة حاجًا ومعتمرًا، وكان يسمى الكامل لجلده وشعره ونسبه، وهو القائل:

ألا رب من تدعو صديقًا ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يفري

مقالته كالسحر ما كان شاهدًا ... وبالغيب مأثور على ثغرة النحر

يسرك باديه وتحت أديمه ... نميمة غش تبتري عقب الظهر

تبين لك العينان ما هو كاتم ... وما جن بالبغضاء والنظر الشزر

فرشني بخير طالما قد بريتني ... فخير الموالي من يريش ولا يبري

فتصدى له رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام، وقرأ عليه القرآن، فلم يبعد

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٦) عن عبد الله بن كعب بن مالك بسند ضعيف.
(٢) أخرجه الطبري في المصدر السابق عن الزهري مرسلاً.
(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٧).

منه وقال: إن هذا القول حسن. ثم انصرف وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج، قتل يوم بُعَاث، فكان قومه يقولون: قتل وهو مسلم(١).

بعاث: بالباء الموحدة المضمومة، والعين المهملة، وهو الصحيح.

وقدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة مع فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فأتاهم النبي ﷺ، وقال لهم: هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له؟ ودعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فقال إياس، وكان غلامًا حدثًا: هذا والله خير مما جئتنا له. فضرب وجهه أبو الحيسر بحفنة من البطحاء وقال: دعنا منك فلقد جئنا لغير هذا فسكت إياس، وقام رسول الله ﷺ، ولم يلبث إياس أن هلك، فسمعه قومه يهلل الله ويكبره حتى مات، فما يشكون أنه مات مسلمًا(٢).

ذكر بيعة العقبة الأولى وإسلام سعد بن معاذ رضي الله عنه(٣)

فلما أراد الله إظهار دينه وإنجاز وعده خرج رسول الله ﷺ، في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على القبائل كما كان يفعله، فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وقد كانت يهود معهم ببلادهم، وكان هؤلاء أهل أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شر تقول اليهود: إن نبيًا يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود. فقال أولئك النفر بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي توعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه وقالوا له: إن بين قومنا شرًا، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٧) من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه، وهو سند ضعيف.

(٢) حسن: أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٢٧٥- سيرة ابن هشام) وعنه البخاري في «تاريخه» (١/ ٤٤٢) وأحمد (٥/ ٤٢٧) من حديث محمود بن لبيد، وصححه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (١/ ١٦٧) قلت: فيه الحصين بن عبد الرحمن، قال الحافظ في «التقريب» (١٣٦٨): مقبول. وقال أبو داود: حسن الحديث.

(٣) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٨).

(٤) حسن: أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٢٧٦، ٢٧٧)، وقال الألباني في تحقيق «فقه السيرة» (ص ١٧٢): إسناده حسن.

ثم انصرفوا عنه، وكانوا سبعة نفر من الخزرج: أسعد بن زرارة بن عدس أبو أمامة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء، كلاهما من بني النجار، ورافع بن مالك بن عجلان، وعامر بن عبد حارثه بن ثعلبة بن غنم، كلاهما من بني زريق، وقطبة بن عامر بن حديدة بن سواد من بني سلمة ـ سلمة هذا بكسر اللام ـ، وعقبة بن عامر بن نابئ من بني غنم، وجابر بن عبد الله بن رياب من بني عبيدة.

(رياب) بكسر الراء والياء المعجمة باثنتين من تحت وبالباء الموحدة.

فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوه بيعة النساء، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، وهما ابنا عفراء، ورافع بن مالك بن عجلان، وذكوان بن عبد قيس من بني زريق، وعبادة بن الصامت من بني عوف بن الخزرج، ويزيد بن ثعلبة بن خزمة أبو عبد الرحمن من بلي حليف لهم، وعباس بن عبادة بن نضلة من بني سالم، وعقبة بن عامر بن نابئ، وقطبة بن عامر بن حديدة، وهؤلاء من الخزرج، وشهدها من الأوس أبو الهيثم بن التيهان، حليف لبني عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة حليف لهم.

فانصرفوا عنه، وبعث ﷺ، معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، فنزل بالمدينة على أسعد بن زرارة، فخرج به أسعد بن زرارة فجلس في دار بني ظفر، واجتمع عليهما رجال ممن أسلم، فسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك، فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فانههما، فإنه لولا أسعد بن زرارة، وهو ابن خالتي، كفيتك ذلك، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا عنا.

فقال مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره! فقال أنصفت. ثم جلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، فقال: ما أحسن هذا وأجله! كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتطهر ثيابك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين.

ففعل ذلك وأسلم. ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما

أحد من قومه، وسأرسله إليكما، سعد بن معاذ. ثم انصرف إلى سعد وقومه، فلما نظر إليه سعد قال: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فقال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، والله ما رأيت بهما بأسًا، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، فقام سعد مغضبًا مبادرًا لخوفه مما ذكر له، ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف ما أراد أسيد، فوقف عليهما وقال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني. فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره! فجلس فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن فقال لهما: كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ فقالا له ما قالا لأسيد، فأسلم وتطهر ثم عاد إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة ورجع مصعب إلى منزل أسعد ولم يزل يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من بني أمية بن زيد، ووائل، وواقف، فإنهم أطاعوا أبا قيس بن الأسلت، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر النبي ﷺ ، ومضت بدر وأحد والخندق وعاد مصعب إلى مكة[1].

أسيد: بضم الهمزة، وفتح السين، و(حضير) بضم الحاء المهملة، وفتح الضاد المعجمة، وتسكين الياء تحتها نقطتان، وفي آخره راء.

ذكر بيعة العقبة الثانية [2]

لما فشا الإسلام في الأنصار اتفق جماعة منهم على المسير إلى النبي ﷺ ، مستخفين لا يشعر بهم أحد، فساروا إلى مكة في الموسم في ذي الحجة مع كفار قومهم واجتمعوا به وواعدوه أوسط أيام التشريق بالعقبة فلما كان الليل خرجوا بعد مضي ثلثه مستخفين يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة، وهم سبعون رجلاً، معهم

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٩- ٥٦١) عن عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب وغيره مرسلاً.
(٢) المصدر السابق (١/ ٥٦١).

امرأتان: نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء أم عمرو بن عدي من بني سلمة وجاءهم رسول الله ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو كافر أحب أن يتوثق لابن أخيه، فكان العباس أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمي الخزرج والأوس به ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم في عز ومنعة، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم تفون له بما دعوتوه إليه ومانعوه فأنتم وذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة.

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت.

فتكلم وتلا القرآن ورغب في الإسلام ثم قال: تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

ثم أخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه ذرارينا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب.

فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم.

وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم، فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[1] وقال لهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري:

يا مشعر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

---

(١) حسن: أخرجه ابن إسحاق (٢/٢٨٧- ٢٩٧) وعنه أحمد (٣/ ٤٦٠- ٤٦٢). من حديث كعب ابن مالك رضي الله عنه، وقال الألباني في تحقيق «فقه السيرة» (ص ١٧٧)، سنده حسن.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبايعوه. وما قال العباس بن عبادة ذلك إلا ليشد العقد له عليهم. وقيل: بل قاله ليؤخر الأمر ليحضر عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم.

فكان أول من بايعه أبو أمامة أسعد بن زرارة، وقيل: أبو الهيثم بن التيهان، وقيل: البراء بن معرور[(١)]. ثم تتابع القوم فبايعوا، فلما بايعوه صرخ الشيطان من رأس العقبة: يا أهل الجباجب[(٢)]، هل لكم في مذمم والصبأة معه قد اجتمعوا على حربكم؟

فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأفرغن لك أي عدو الله! ثم قال: ارفضوا إلى رحالكم فقال له العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق نبيًّا لئن شئت لنميلن غدًا على أهل منى بأسيافنا. فقال: لم نؤمر بذلك، فرجعوا فلما أصبحوا جاءهم جلة قريش فقالوا: قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من أحياء العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينهم الحرب منكم. فخلف من هناك من مشركي الأنصار ما كان هذا شيء[(٣)]. فلما سار الأنصار من مكة قال البراء بن معرور: يا معشر الخزرج! قد رأيت أن لا أستدبر الكعبة في صلاتي[(٤)]. فقالوا له: إن رسول الله ﷺ، يستقبل الشام، فنحن لا نخالفه، فكان يصلي إلى الكعبة، فلما قدم مكة سأل رسول الله ﷺ، عن ذلك فقال: لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ[(٥)]. فلما بايعوه ورجعوا إلى المدينة، كان قدومهم في ذي الحجة، فأقام رسول الله ﷺ، بمكة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وهاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه.

وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام من أسلم من الأنصار اشتدوا على من بمكة

---

(١) هذا هو الثابت في الحديث السابق.

(٢) الجباجب: أسماء منازل بمنى. «النهاية» (١/ ٢٣٤).

(٣) هذا من تمام حديث كعب بن مالك.

(٤) في الحديث السابق أنه فعل ذلك خرج إلى مكة.

(٥) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٢٨٧) وأحمد (٣/ ٤٦٠) من حديث كعب بن مالك باللفظ المشار إليه آنفًا، وهو حسن.

من المسلمين وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، وهي الفتنة الآخرة، وأما الأولى فكانت قبل هجرة الحبشة وكانت البيعة في هذه العقبة على غير الشروط في العقبة الأولى، فإن الأولى كانت على بيعة النساء، وهذه البيعة كانت على حرب الأحمر والأسود.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فكان أول من قدمها أبو سلمة ابن عبد الأسد، وكانت هجرته قبل البيعة بسنة، ثم هاجر بعده عامر بن ربيعة حليف بني عدي مع امرأته ليلى ابنة أبي حثمة، ثم عبد الله بن جحش ومعه أخوه أبو أحمد وجميع أهله، فأغلقت دارهم وتتابع الصحابة، ثم هاجر عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة فنزلا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة بالمدينة، وكان أخاهما لأمهما، فقالا له: إن أمك قد نذرت أنها لا تستظل ولا تمتشط. فرَقَّ لها وعاد[1] وتتابع الصحابة بالهجرة إلى أن هاجر رسول الله ﷺ

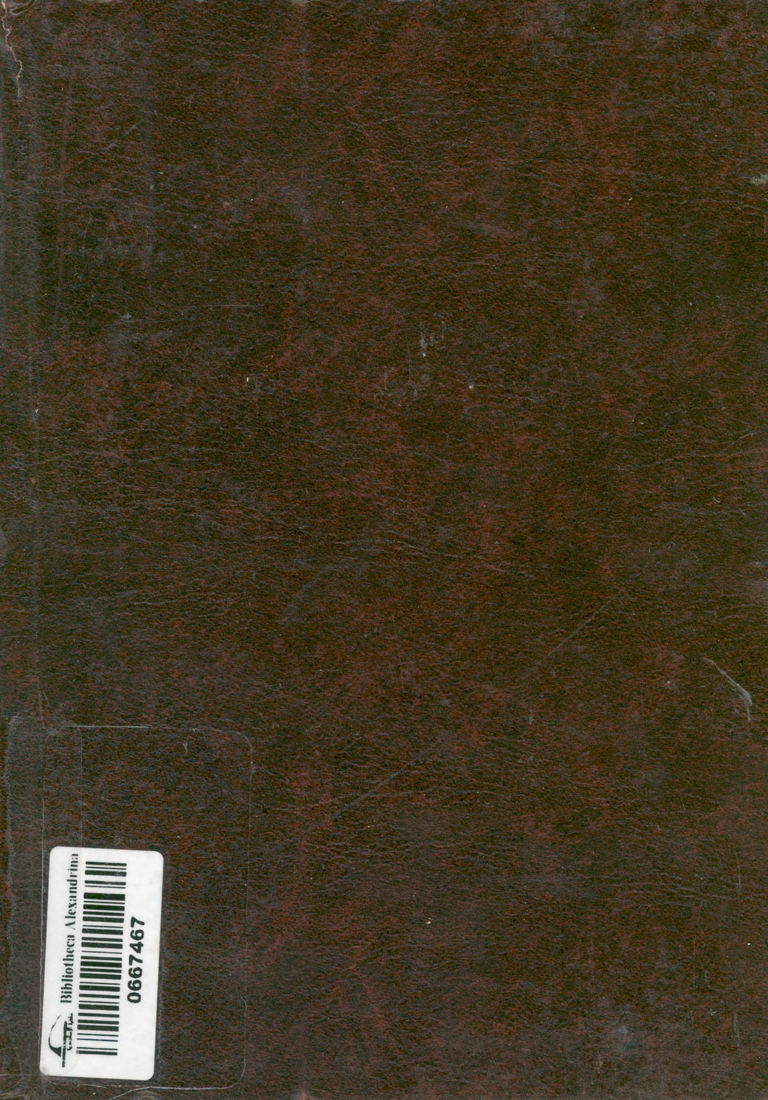
* * *

(١) حسن: أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٣٢١- ٣٢٤) وعنه البزار (١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال الحافظ ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» (١٣٤٥): حسن.

فهرس الجزء الأول من كتاب

[الكامل في التاريخ]




Bibliotheca Alexandrina
06667467